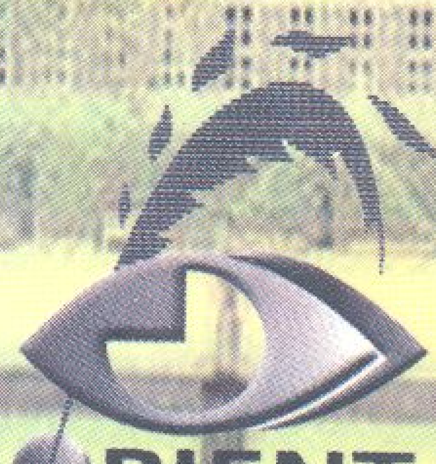


مُبدعون

في ذاكرة الوطن

محمد مروان مُراد



دار الشرق للطباعة والنشر

مبدعون
في ذاكرة الوطن

الناشر دار الشرق للطباعة والنشر - الدكتور المهندس نبيل طعمة

الطبعة الأولى

عدد النسخ ١٠٠٠ نسخة

تاريخ النشر ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م



محمد مروان مراد

مبدعون في ذاكرة الوطن

٢٠٠٦



شكر و تقدير

يبدع الكاتب ليقدم للناس من ثمرات قريحته ما ينفعهم و يجعل حياتهم أكثر غنى و سعادة ، ولكن العمل الإبداعي يبقى عاجزاً عن الوصول للآخرين ، ما لم تمتد له يد العطاء الصادق لتخرجه إلى النور ... هكذا يحتضن المهندس الدكتور نبيل طعمة ، مدير دار الشرق للطباعة و النشر ، مَن يتوسم فيه الخير ، و يبذل بوفاء و أريحية ليضع لبنة راسخة في بناء المجتمع ، الذي يريده ناهضاً و متقدماً على طريق الرقي و المجد ..

.. هكذا و بكل المحبة القلبية ، أهديه هذا الجهد ، داعياً الله أن يكون في حسناته وهي بغير حد ...

المؤلف


بسم الله الرحمن الرحیم

الاهداء

تحية وفاء وعرفان، إلى الرواد الخالدين من أبناء الوطن المفكرين الذين حملوا مشاعل الابداع، ليضيئوا للأمة دروب الحق و الخيرو الجمال، و أعطوا للأجيال نبض عقولهم، و ثمرات قرائحهم، فكانت الدليل الأمين إلى الفجر المشرق، و المستقبل الموعود.

المؤلف

المقدمة

من حسن حظ جيلنا أننا عشنا في زمن حطم فيه شعبنا قيود الاحتلال الأجنبي، وحقق لوطننا الاستقلال المجيد، لتحيا الأجيال حرة موفورة الكرامة والكبرياء، وتبعاً لهذا كان من حظنا أيضاً أن نعايش كوكبة من مبدعي أمتنا الأعلام في النقد والتحقيق وفي التاريخ والأدب والشعر والفن، الذين جندوا الفكر وضوء العيون للكشف عن الوجوه المتألقة للتراث الفكري العربي، وتجديد جذوة العزم في نفوس الأبناء لمواصلة مسيرة الأجداد في دروب العطاء الخلّاق.

ولقد كان أولئك المبدعون في ذلك كله، مثلاً في التواضع والإيثار والوطنية الصادقة، سهروا على منابع التراث الخالد، وعكفوا عليه دراسة وتدقيقاً، وانتقاء للجواهر الخبيئة فيه، كما أمعنوا التأمل في أحوال الأمة، وعاينوا ما تجابهه من مؤامرات ومخططات الأعداء، لطمس هويتها الثقافية، وتثبيط عزيمتها المتوقدة، وتمزيق وحدتها بهدف الهيمنة عليها وإبقائها سادرة في كهف التخلف والضياع، ففضح أولئك الرواد بكتاباتهم وأشعارهم وألوان فنونهم تلك المكائد، وحضوا على الصمود والثبات، والعمل الجاد لتبقى الجباه شامخة، والوطن سيداً حراً، وبذلك كانت أعمالهم وأصواتهم إسهاماً فعالاً في خلاص الأمة، ومشاركة صادقة في نهضتها وتقدمها.

ومن هنا كان واجباً علينا أن يظل أولئك المبدعون أحياء على مدار الأيام، وأن تبقى وجوههم مشرقة تتعرف فيها الأجيال إلى عطائها الإنساني والوطني، فتمضي إلى مستقبلها الواعد أكثر مضاء، وأقوى تصميماً على صون الوطن والنهوض والبناء.

وبالنسبة لي كانت سعادتي بغير حد، لأني عشت في النصف الثاني من القرن العشرين تلميذاً لعشرات من أولئك الأساتذة الأجلاء، ونهلت من معين عطائهم علماً وأدباً وفناً وحكمة وذوقاً، وفيما بعد صرت رفيق درب لهم في مسيرة الإبداع،

وأتيحت لي معهم أمسيات غنية بكل مفيد وجديد في عالم الفكر، وحوارات وحكايات واليوم، تعود بي الذكرى إلى تلك الحقبة المتألقة التي اجتمعت فيها إلى أساتذتي، سواء في اللقاءات الخاصة أو الأمسيات الأدبية والندوات الثقافية والمعارض الفنية، التي كانوا فرسان منابرها المجلين.

مازلت أذكر الدكتور شاكر مصطفى، مدرساً للتاريخ وأديباً وفناناً ومؤرخاً وإعلامياً، والدكتور شكري فيصل عالماً محققاً، وأستاذاً جامعياً محلقاً، والدكتور عبد الله عبد الدائم، مربياً وموجهاً، ورائداً في الفكر القومي، والدكتور نور الدين حاطوم، وجودت الركابي، وعاصم بيطار، وأمجد طرابلسي، وأنورر العطار، وبديع حقي، وزكي المحاسني، وشورى وحباب، وقنوع وعشرات غيرهم ممن لا تزال ملء سمعي وبصري وجوانحي عباراتهم البليغة، وأفكارهم الخلاقة، وترانيمهم العذبة، ولمسات ريشتهم الأنيقة الرائعة .... وقبل ذلك كله إنسانيتهم النقية، وتواضعهم الحميم، وإخلاصهم الدائب، ووطنيتهم الصادقة، وماذا أعدّ من المناقب المثلى التي شعّت بها شمس ذلك الرعيل البناء، ومن العطاء النبيل الذي أتاحوه للأجيال معيناً متجدداً لا ينضب.

لقد دونت ما أتيح لي من ثمرات تلك الحقبة ونشرتها في الصحف والدوريات العربية، تعريفاً بمنجزاتهم، وتكريماً لإبداعاتهم، ورأيت أن أقدمها مجموعة في هذا المؤلَّف، ليجد فيها المهتمون بالمعرفة والثقافة المتميزة، ألواناً من الإبداع علينا أن نبقيه متألقاً ونابضاً بالإشراق والحياة...

اخترت نيفاً وستين مبدعاً، واستعرضت سير حياتهم وأغنيتها بنماذج من نتاجهم الفكري المتنوع في تحقيق التراث وفي الأدب والشعر والفن توضح القضايا المختلفة التي تمحورت حولها أعمالهم، ومناهج تفكيرهم، وأساليبهم الأدبية، مؤملاً بذلك بلوغ هدفين جديرين بالعناية:

الأول: وفاء تلك الشخصيات الرائدة حقها من التقدير والتكريم اللائقين بإسهامها في إغناء مسيرة الوطن، وفي نصرة قضاياه، وفي جعله موئلاً


للمحبة والخير والجمال.

الثاني: أن يرى الأجيال في أولئك المبدعين قدوة خيّرة، تلهمهم الإيمان الصادق، وتحثهم على العمل المنتج للنهوض بالأمة من عثراتها.

إن عظمة الأمم - كما لا يخفى - تقاس بمدى عطاء أبنائها، وسعيهم الحثيث لإعلاء شأنها، من خلال التمسك بالمبادئ الشريفة، والاستعداد للتضحية بالمصالح الشخصية لمصلحة المجموع، كما أن مكانتها في موكب الحضارة رهن بوفائها للمبدعين المخلصين، واعتزازها بعطائهم الذي كان الأساس الراسخ الذي شيدت عليه بنيانها، فإن تحقق لي هذا الهدف، فقد أديت أمانة في عنقي.. أهتف بعدها بكل سعادة:

شكراً لكم أيها الغيارى ... إن الوطن فخور بعطائكم، وهو يتوج هاماتكم بأكاليل التحية والإكبار إلى آخر الزمان.

محمد مروان مراد





الشيخ عبد القادر المغربي:

جنّد حياته للإصلاح ودافع عن اللغة العربية بجرأة وإيمان

الزمان: الثاني من تشرين الأول عام ١٩٥٦، والمكان: المدرج الرحيب في جامعة دمشق، جمهور حاشد من أقطار العروبة وفي المقدمة كوكبة من شعراء العرب وأدبائهم المجلين، والمناسبة: تأبين رجل العلم والفكر والإصلاح ورائد الفكر والتنوير الشيخ عبد القادر المغربي.

أذكر اليوم وبعد السنين الطويلة أنها كانت أول مناسبة جماهيرية أحضرها وأنا بعد على عتبة الشباب، وقد بهرني يومذاك تناوب عمالقة الأدب والشعر على منبر الخطابة، وسمعت بإثارة شديدة عميد الأدب العربي "د. طه حسين" يتحدث بصوته الجمهوري البليغ عن العلامة الراحل:

"كان المغربي أقوى من القوة في الحق، وأصلب من الصلب في الدفاع عن العروبة والإسلام" وأنصت لمحمد بهجة الأثري وجه العراق المتألق في ميدان اللغة العربية وآدابها، وهو يردد: "لقد جنّد المغربي حياته للغة العربية وأعطاها من دأبه وجهاده، ودافع عنها جريئاً مستميتاً بلا كلل، وتحدث د. عبد الوهاب حومد مدير المعارف عن الفقيد: "كان رائداً من رواد الاجتهاد والإصلاح، عمل بحماس الشباب غيوراً على لغة الأمة منقباً في أسرارها، فكان بحق إمامها وحارسها الأمين وكان في الشعراء المشاركين في الاحتفال شاعر العاصي البليغ "بدر الدين الحامد" فانطلق محلقاً في فضاء حميم مخاطباً روح الشيخ العلامة، وملخّصاً مسيرته في ميادين اللغة والأدب:

"أدب مشرق ودنيا ودين   ومقام في النابهين مكين

كم سطور دبجتها بيراع   هو بالحمد والخلود قمين

في الذي أنت سمعة تملأ الدنيا ومجد في الخالدين مصون

لك مجد في المصطفين عليه يتجلى البيان والتبيين

كل مجد إلا البيان هباء هو في الكون روحه المكنون"

فمن كان هذا المربي الذي تألقت به المنابر في حياته، ورَثَته المحاجر يوم رحليه؟

جرأة في الدعوة للإصلاح:

ولد الشيخ عبد القادر المغربي عام ١٨٦٧م بمدينة اللاذقية حيث عمل أبوه الشيخ مصطفى قاضياً، وكان أصلاً من مدينة طرابلس الشام، لجدّ من "تونس" في المغرب الكبير. حين عاد مع أسرته إلى طرابلس تلقى فيها علومه الأولى في الدين واللغة، ثم انتقل إلى بيروت فتابع تعليمه الثانوي، وتمكّن من علوم الفقه واللغة والأدب فعيّن موظفاً في القضاء الشرعي.

رحل "المغربي" عام ١٨٩٣م إلى الآستانة، وفيها التقي عديداً من رجال الفكر والعلم، وفي مقدمتهم جمال الدين الأفغاني، وتعرف إلى آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي، ورجع إلى طرابلس مجدداً فعين عضواً في مجلس المعارف، وأتيح له المجال لنشر أفكاره ودعوته إلى الحرية و التحديد، مما أثار نقمة السلطة العثمانية، التي ضيقت عليه ثم اعتقلته في "بيروت" لعدة شهور، فلما أفرج عنه غادر إلى مصر عام ١٩٠٥ والتقى فيها لفترة قصيرة الإمام الشيخ "محمد عبده"، وهنا شرع الشيخ المغربي بنشر مقالاته الجريئة التي تبنى فيها أفكار معلميه المصلحين: الأفغاني وعبده، وظهرت بحوثه في صحيفة "الظاهر" و"المؤيد" ولقيت صدى واسعاً وترحيباً من المفكرين في مصر، وأكبروا فيه همته الواسعة ونشاطه الكبير في الدعوة لأفكاره.

في المجتمع العلمي العربي:

أعلن العثمانيون دستور عام ١٩٠٨م فأتيح للمغربي العودة إلى طرابلس من جديد، وفيها تابع نشر مقالاته في العديد من الصحف والمجلات وكاتب الصحف المصرية داعياً إلى النهضة الاجتماعية، وعكف على إصدار جريدته: "البرهان"، التي تواصل صدورها منذ عام ١٩١١م، وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، وبعد سنتين عهدت السلطات التركية في سوريا إلى الشيخ "عبد القادر المغربي" "بتحرير جريدة الشرق" العربية، التي صدرت بدمشق، وكانت المرحلة الفاصلة في مسيرة الشيخ العلامة اختياره عام ١٩١٨ من قبل الحكومة السورية للمشاركة في نهضة الدواوين، ثم مشاركته في العام التالي بتأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق مع نخبة من رجال الفكر والعلم، هم: محمد كرد علي، أمين سويد، سعيد الكرمي، أنيس سلوم، عيسى اسكندر المعلوف، عز الدين التنوخي، ومتري قندلفت، وبعد إنشاء معهد الحقوق عام ١٩٢٣، كلّف المغربي بتدريس اللغة العربية وآدابها.

مسيرة ناشطة وإنجاز فكري قيّم:

اجمع زملاء العلامة الشيخ عام ١٩٤١ على انتخابه نائباً لرئيس مجمع اللغة العربية، فباشر إنتاجاً غزيراً لبحوثه ودراساته الأدبية، وتجلى نشاطه المرموق في محاضراته اللغوية والأدبية، التي كان يحرص على حضورها في مقر المجمع المثقفون والأدباء وطلاب الجامعة والمعاهد العلمية، ولما تأسس مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٣٢، اختير المغربي ليكون عضواً عاملاً فيه، فكان يشارك في جلساته على الدوام، ويساهم في أعمال لجانه، وينشر دراساته في مجلته، كذلك عكف على مؤلفاته التي صدرت في فترات مختلفة، وشملت بحوثه فيها، اللغة والدين والأخلاق والاجتماع.

وبين كتب المغربي المطبوعة: الاشتقاق والتعريب و"التبيان" في جزءين،

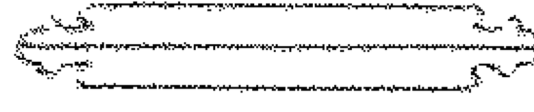
و"جمال الدين الأفغاني: ذكريات وأحاديث" و"عثرات اللسان" الذي صدر عن المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٤٩، وأما مؤلفاته غير المطبوعة والتي تجاوزت الاثني عشر كتاباً فمن بينها: "فنون البلاغة" و"المعجم اللغوي للألفاظ العصرية" و"مقالات وأبحاث" وكتاب "محاضرات" وغيرها.

في السابع من حزيران ١٩٥٦ وصلت مسيرة الشيخ عبد القادر المغربي إلى خاتمتها، فودعت دمشق علامتها الفذ وداعاً مهيباً، وشيّعه رفاق دربه وتلامذته إلى مثواه الأخير في سفح جبل قاسيون، وانطوت برحيله صفحة متألقة من صفحات سجل مشرّف لعالم جريء في الدفاع عن لغة أمته، وداعية صلب للإصلاح الاجتماعي.

أبناء الجامعة السورية

مجازو مدرسة الآداب العليا بدمشق

سنة ١٣٥١ هـ – ١٩٣٣




الشيخ زين العابدين
تونس


عبد الرؤوف الأمين
جبل عامل


عثمان حوراني
حماة


عبد العزيز الزين
دمشق


عبد الرزاق الجبة
دمشق


رشدي الكالي
دمشق




الشيخ عبد القادر المبارك


الأستاذ شفيق جبري


الأستاذ سليم الجندي


الأستاذ علي الجزائري


الأستاذ عبد القادر المغربي


منصور فهد


أحمد مزيان


ليان درانى دمشق


محمد علي علايا دمشق


سعيد الحافظ
دمشق


فاطمة مراد
دمشق


الشيخ مصطفى الزرقاء
حلب


داود صليبا
زحلة البقاع


علي الجبان
دمشق


محمد ياسين الحموي
حماة


جودة الحمام
دمشق

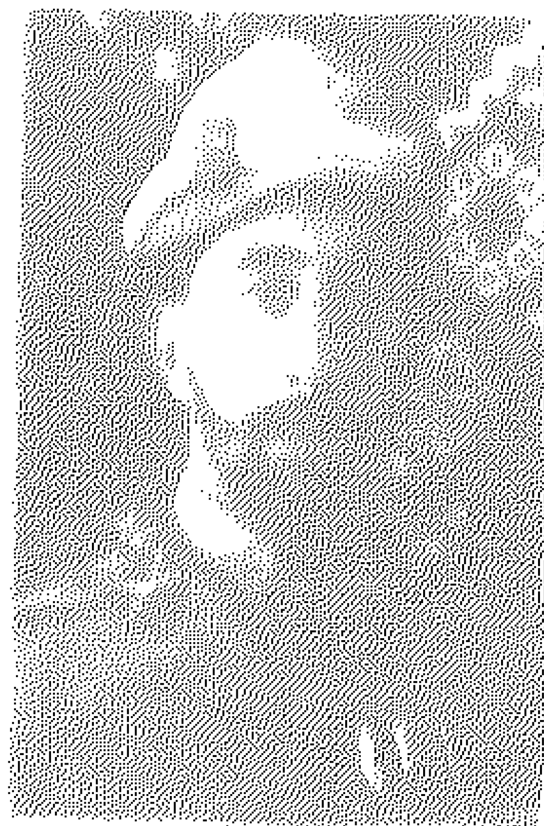
خديجة أورفلي دمشق

تصوير توفيق نوفل

المجمع العلمي العربي بدمشق



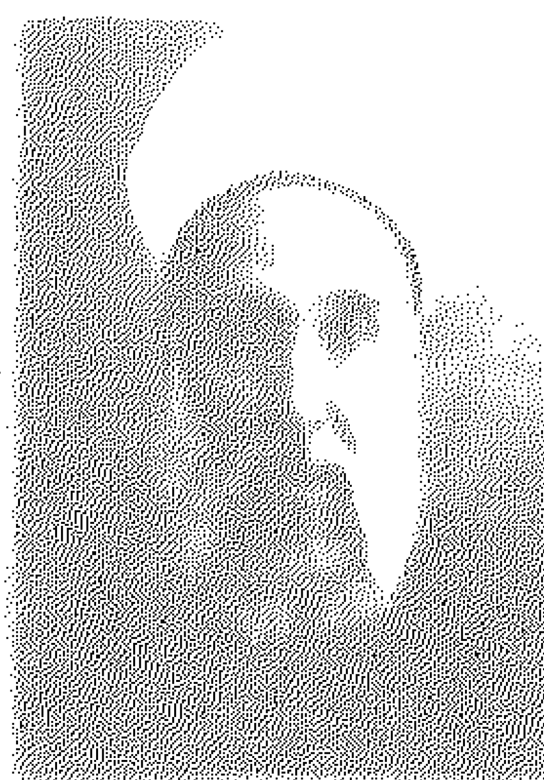
علي رضا الركابي
حاكم سورية العسكري العام
ورئيس أول حكومة عربية



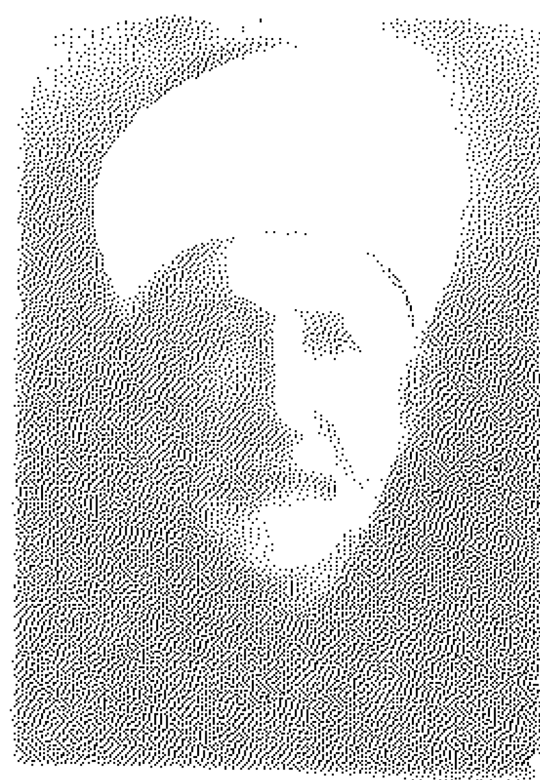
فيصل بن الحسين
قائد الجيش العربي
وملك سورية



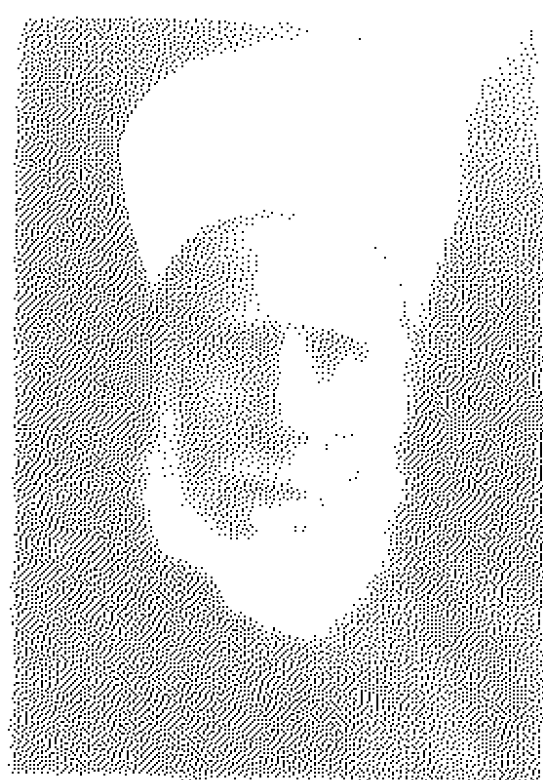
محمد كرد علي
مؤسس المجمع العلمي العربي
ورئيسه الأول



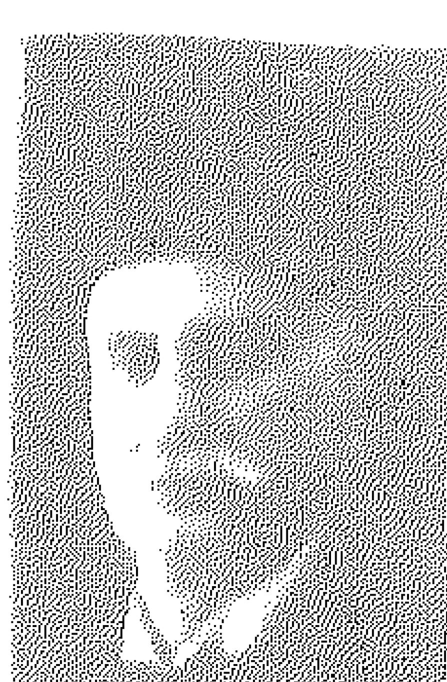
الشيخ أمين سويد



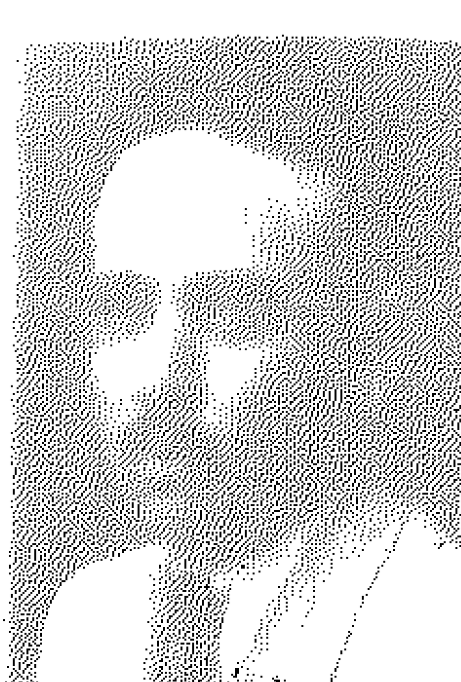
الشيخ عبد القادر المغربي



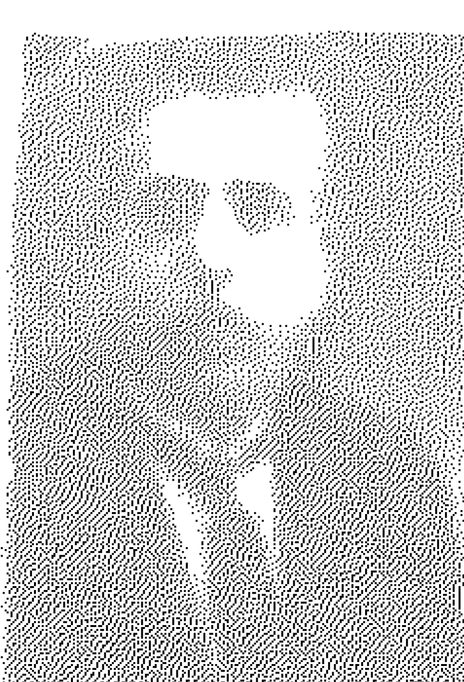
الشيخ سعيد الكرمي



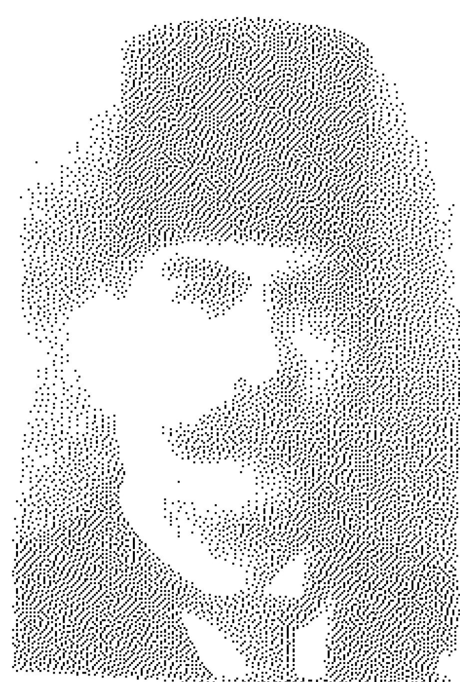
متري قندلفت



عز الدين التنوخي



عيسى إسكندر المعلوف



أنيس سلوم

ذكرى المشتركين في تأسيسه سنة ١٣٣٧هـ ١٩١٩م



عبد القادر المبارك:

أصمعي القرن العشرين في جبة حارس اللغة الأمين

في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، وفي بيت شعبي من بيوت حي العمارة في المدينة القديمة، كان اللقاء بين شيخين جليلين، وعالمين قديرين، أصبحا فيما بعد من إعلام النهضة العلمية ورجال التنوير، وهما طاهر الجزائري ومحمد المبارك، الذين أسهما في تأسيس أول مكتبة عامة بدمشق (المكتبة الظاهرية) وأشرفا على الحلقات العلمية، وأسسا عديداً من المدارس، في وقت كانت الحاجة فيه ماسة لنشر التعليم وإتاحة الفرصة للأجيال للسير في موكب العلم والتقدم...

كانت للشيخ محمد المبارك حلقات مشهودة أقبل أبناء دمشق عليها لتحصيل علوم الدين واللغة والأدب ... ومن بينهم كان ابنه (عبد القادر) الذي استهوته الدراسات الإسلامية وآداب اللغة العربية، وسير أعلام التاريخ العربي، فأقبل ينهل من معينها، دراسة وحفظاً واستيعاباً لتفاصيل الأحداث التاريخية ورجالها، ولم يكد يتم تحصيله، حتى حمل على عاتقه رسالة التربية والتعليم، وصار معلماً علماً في "مكتب عنبر" أول مدرسة تجهيزية رسمية بدمشق، ويذكر تلامذته ذلك الشيخ المعمّم الذي سحرهم من إطلالته الأولى بصوته الجهوري، وفصاحته وأسلوبه، وحديثه اللطيف، يقدّم الشيخ "علي الطنطاوي" جانباً من صورة المبارك في مذكرته: (كان المبارك إماماً في اللغة ومرجعاً فيها، قيّد أوابدها وجمع شواردها، وحفظ شواهدها، وكان أعلم العرب بالعرب، عرف أيامهم ووعى أخبارهم، وروى أشعارهم، تحس إذ تجالسه وتسمع منه، كأن الأصمعي أو أبا عبيدة تمثلا لك في جبّته).

ويضيف الطنطاوي: إذا كان درس الشيخ المبارك، وظهر وجهه وعمامته من باب الصف، وجلجل صوته بصدر بيت من الشعر، سكت الطلاب وأنصتوا، ليدخل

عليهم ويكمل البيت شارحاً بلغته الفريدة وأسلوبه المعبّر).

- **معلّم وموجه إلى جماليات التراث:**

علّم المبارك اللغة العربية، وتميز فيها باستعماله للغريب من المفردات العربية، بقصد الكشف عن جماليات اللغة العربية، وتعويد تلامذته الرجوع للمعاجم والتعرف على معاني الألفاظ .. وعلّم المبارك الفقه والتفسير والحديث وكان يعرضها بعبارات بليغة وموجزة، سهله على اللسان، ولا تغيب عن الأذهان، ويدل طلابه على مؤلفات التراث الغنية التي كانت رأسمالهم في العلم والأدب "كذلك علّم الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية، ودرّس السيرة مصوراً الوقائع والأماكن بأسلوب دقيق شائق، فنقش في نفوس طلابه حب العلم والمعرفة، والإقبال على تراث الأجداد ينهلون من ينابيعه الخيرة، ويتزودون من ثمراته اليانعات.

وإلى جانب التعليم انغمس المبارك في المطالعة هوايته الأولى، فانكب على عيون التراث، وفرائد المخطوطات، ينهل من ينبوعها أكثر، ويخط على حواشيها تعليقات وإضافات، ويستخرج من كنوزها دروساً لطلابه في المكتب أو في حلقات التعليم...

وكان (المبارك) أيضاً خطيباً مجلياً، ومحدثاً من طراز رفيع امتلك بصوته المميز، وفصاحته وأسلوبه انتباه سامعيه، وأثر فيهم بالغ التأثير.

- **إسهامه في النشاط الفكري:**

وفي مسيرته الرائعة الطويلة أسهم (المبارك) في النشاط الفكري بدمشق، وكان مع مجاليه من الأعلام، عنصراً نشطاً في الحركة الأدبية، فهو عضو المجمع العلمي العربي منذ تأسيسه في عام ١٩١٩، وعضو في لجنة التعريب التي نشأت في عهد الملك فيصل، وكان له دور في تعريب العديد من المصطلحات الإدارية،

والعسكرية، وشارك (المبارك) في وضع مناهج اللغة العربية وآدابها، وتأليف كتبها في عهد الاستقلال.

ودرس علوم العربية وآدابها بالمدرسة السلطانية بدمشق، وفي المدرسة الحربية، ومدرسة الآداب العليا، ودار المعلمين، وأسس مدرسة خاصة أدارها مع الشيخ شريف اليعقوبي في زقاق النقيب بحي العمارة..

• **المبارك ... الشاعر الوطني:**

وفي الجوانب المضيئة من شخصية المبارك الفكرية، نظمه للشعر في المناسبات المختلفة؛ فعبر بقصائده عن خلجات نفس مؤمنة، وقلب جياش بالعواطف الصادقة...

نظم للثورة العربية الكبرى، واحتفل بالاستقلال وقيام الدولة العربية الأولى، ورثى المجاهدين والعلماء، واشتهرت من بين قصائده، قصيدة مطولة أسماها: "إحدى العبر بين البشر"، أكثر فيها من النقد لأوضاع التخلف والجهل في المجتمع العربي.

وثمة في حياة الشيخ عبد القادر المبارك مضيء، وهو نشاطه الاجتماعي الدائب فهو بالإضافة إلى رعاية طلابه، وقضاء أكثر يومه في رعايتهم وتزويدهم بما يحتاجون إليه من إرشاد وتوجيه، ارتبط بعلاقات واسعة مع طيف واسع من أبناء الشعب، وفيهم الحكام العلماء والتجار، وكرس وقته لحل مشكلات أصحاب الحاجات، حتى غدا بيته في حي العمارة مقصداً لأصحاب الحاجات يستمع إليهم ويتوسط لدى المسؤولين لقضاء حاجاتهم.

وفي شهر تشرين الأول من عام ١٩٤٥، كانت خاتمة رحلة الشيخ عبد القادر المبارك، فودع الدنيا في غرفة تكدست فيها كتب التراث، عشقه الدائم، وثروته الأغلى، ورحل العالم الجليل بعد مسيرة طويلة في خدمة اللغة والأدب والبلاغة العربية .... وظل صوته الجهوري المميز مطبوعاً في الأسماع لا يتزايل، كما بقي صوته البليغ، وأثره الجلي، ضوءاً ينور دروب الأجيال إلى النهضة والتقدم.

إمام وعلامة بث حب الفصحى في نفوس الأجيال ..

عرف مكتب عنبر الشيخ عبد القادر المبارك سنين طويلة، اتصلت من أيام الترك، إلى العهد الفيصلي، إلى أيام الانتداب، وعرفته أستاذاً للدين، ثم أستاذاً للغة، وكان قليل شعر الوجه، فصيح اللهجة، قوي النبرة، دائم النشاط، يكتب ويقرأ بدون تنقيط، وكانت دروس الدين تفيض بالفوائد اللغوية الفريدة، التي تنهال على لسان هذا الإمام من حيث يريد، فكم حفظنا منه، وأخذنا عنه، وكان يعلو أحياناً إلى أرفع طبقات البلاغة، ويهبط حيناً إلى العامية الدمشقية، في سبيل الإيضاح لضعفاء الطلاب، ولم تكن دروس السيرة النبوية إلا مجموعة نادرة من روائع النثر والنظم، ولما عهد إليه بتدريس اللغة العربية تكشفت للطلاب مزاياه، كان أعلم أهل زمانه بالمفردات، وقد شاع ذلك عنه، حتى قال عنه خصومه: إنه نسخة حية من القاموس، وأشهد أنني كنت اختار ألفاظاً غريبة فأسأله، عنها، فيجيبني بنص عبارة القاموس أو (فقه اللغة للثعالبي)، فقد عرف عنه أنه كان يحفظ فقه اللغة والألفاظ الكتابية والقاموس المحيط عن ظهر قلب، سألته مرة: أنا أعرف الجواب: ما معنى (العُطبول)؟ فأجابني على الفور: إذا كانت المرأة طويلة العنق في اعتدال وحسن فهي عطبول، وكانت هذه الجملة بحروفها عبارة الثعالبي في فقه اللغة، وكان على علمه وحفظه دائم الاستعانة بالقاموس، يستصحبه غالباً في درس القراءة، ليتثبت مما يمكن أن يشتبه فيه. كان كتاب القراءة في تلك الأيام زهر الآداب للحصري وهو الكتاب الذي حوى روائع الأدب الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي، لا ككتب القراءة التي نراها في هذا الزمان.

وأشهد أنه دخل الصف مرة، فطلب إلى أحد الطلاب القراءة، فقرأ وإذا بالشيخ يتوقف عن الإيضاح والشرح، ويعلن دون حرج: سامحوني، فأنا لم أحضر درسي في هذا اليوم، علي بالقاموس! هذا خُلُق العالم الحقيقي، إنه لم يجد أي حرج في أن يعلن لطلابه أنه لا يستطيع أن يكون الأستاذ الذي عرفوه، لأنه لم يقرأ النصوص

قبل الدرس، أين هذا مما نرى في هذه الأيام من تعالم الجهلاء، واستعلاء الأدعياء، وتظاهر الضعفاء؟ وأذكر أنه تلا ذات يوم بيتاً من الشعر، وفيه فعل فلفظه بالبناء المعلوم، وحقه أن يكون بالبناء المجهول، فنبهته إليه، وإذا بالشيخ رحمه الله يهتز طرباً ويقول للطلاب - وهو من هو -: أنا أستاذكم جميعاً، وظافر أستاذي في هذه! ولعمري فإن هذا التشجيع من إمام عظيم لفتى لم يتجاوز الخامسة عشرة، قد دعاني للاندفاع كالسيل المنهمر في إرضاء الشيخ والتفوق في درسه، وكذلك كان له غرام بالمترادف، يقصف به لسانه كالرعد، دون توقف ولا تلعثم، فإذا ما اعترضته لفظة غريبة رأى وجوب شرحها للطلاب، شرحها أحياناً بما هو أغرب منها، وأعقبها بلفظ واضح، وكانت له ميزة حفظ قصص العرب، يرويها للطلاب، وكأنه يقرأ من كتاب، كأنه حفظ نصوصها كما وردت في كتب الأمهات، إنني أعود منذ سنين إلى هذه الكتب فاذكر ألفاظ شيخنا التي حفظتها، كما أقرؤها، وإذا كان هنالك من تعديل فهو يسير، وقد يكون مرده إلى سوء حفظي.

كذلك كان المبارك مولعاً بأمثال العرب، يشرحها للطلاب بأسلوب جذاب فيروي أصلها، ويحكي حكايتها، وقد لا يتحرج حيناً من ذكر لفظ لم يؤلف ذكره في المدارس، فيرويه كما ورد في الكتب، قد يشير أحياناً ولا يفصح، ما زالت أذكر كيف شرح لنا أصل المثل المشهور (أشغلُ من ذات النِحيَين)، فكان مثلاً رائعاً في الذوق، لم تصدر عنه كلمة نابية، ولا لفظ غير لائق، واستطاع مع ذلك أن يوضح معنى المثل إيضاحاً كاملاً.

أخذ عليه معاصروه، كما أخذ عليه بعض طلابه، أنه قال الشعر، وليس من أهله، وقد يكون في هذا شيء من الحق، ولكنه لا يغض من مكانة الشيخ، فلقد عاش في زمان كان فيه التافهون من أدعياء الأدب ينظمون الشعر، فلم لا يحاول إمام مثله من أئمة اللغة والأدب أن يقول الشعر؟ ولقد كان قول الشعر في زمانه في صفات المتأدب، فمن الموهبة والسليقة، أضحى شاعراً، ومن لم يرزقها بقي ناظماً.

وأخذ عليه خصومه أنه كان عالماً، ولم يكن أستاذاً، وإن طريقته في التعليم

لا تقرها أصول التدريس الحديثة، ولقد نسي هؤلاء أنه أستاذ لغة سماعية، وإن ما يمكن أن يستفيده المرء بالسماع، كثيرا ما يكون أبقى وأقوى أثرا من المطالعة والحفظ، ولا أدل على ذلك مما نقرأ في كتب الأدب عن هجرة أعلام الشعراء والكتاب القدامى إلى البادية ليأخذوا اللغة عن الأعراب، من أفواههم، وإني لأجزم أن أثر شيخنا رحمه الله في ما تحدث به إلى الطلاب، كان أثرا قويا عميقا، إذا ضاق به بعض الطلاب قبل ثلاثين سنة، فإنهم يحمدونه في هذه الأيام وأخذ عليه الناس جميعا، أنه لم يترك أثرا يدل على سعة علمه، وغزير إطلاعه، وسدهش حفظه.

وإذا كان هذا صحيحا، فإن الصحيح أيضا أنه ترك أجيالا متعاقبة، أخذت عنه صحيح اللغة، فقوّم ألسنتها، وبث فيها حب الفصحى، فلقد كان يصر على طلابه، حتى في دروس الدين، أن لا يتحدثوا وأن لا يرددوا دروسهم إلا به، ولكم كان يطرب رحمه الله حينما يقف أحد طلابه ويتكلم بالفصحى، وكم سمعنا منه كلمات التشجيع في هذا المعنى.


وبكم وقفه الطلاب بعد درس استغرق ساعة كاملة من الجهد المضني، ليسألوه، فلا يتبرم بأحد منهم، بل يقضي معهم (الفرصة) التي أعدت لراحته، وكأنه في درس جديد.

كان مولعا بالشاي والتدخين، لا ينفك عنها، وللتدخين اثار واضحة على سبابته ووسطاه، فإذا ما أراد استذكار مسألة لغوية، أو شاهد أو لفظ، أخذ لفافته فعبّ منها عبا، حتى ليخيل إليك أنه قد غاب، ثم ينثر عليك من علمه ما يدهشك.

كان مكتب عنبر في أيام العهد الفيصلي، وأول أيام الانتداب يستعمل بعض الألفاظ التركية، فمحاها واستبدل بها ألفاظا عربية فصيحة.

كان شيخنا نسيجاً وحده، وما أظن أن الولاّدات يلدان مثله في مستقبل هذا الزمان.

ظافر القاسمي



محب الدين الخطيب:

عمر من الجهاد في سبيل الاستقلال وحماية اللغة والتراث

ثمة بين رجال الفكر في بلدنا كوكبة نيرة أوقفت ضوء عقلها وجهد سواعدها، على خدمة الوطن ونصرة قضاياه في أكثر من ميدان .. فهي في جانب تجاهد لتحرير الوطن من ربقة المستعمر الأجنبي، وتخليصه من ويلات الظلم والفساد، وتكافح من جانب آخر لحماية هوية الأمة: اللغة العربية، وصونها من عبث المهدمين المضللين، وتسهر بحماس وأريحية على إحياء التراث العربي، ونشر كنوزه المنسية راضية بما يحمّلها ذلك كله من مشقات تنوء بها الأجسام القوية. ومن هنا لم يكن عجباً أن يُعرف العلامة الراحل: "محب الدين الخطيب" بلقب: المجاهد المحقق.

ولد "محب الدين الخطيب" بدمشق عام ١٨٨٧م في أسرة عريقة عرفت بالتقوى والعلم، ومارس العديد من أفرادها التدريس والخطابة والإمامة في مساجد العاصمة، أبوه هو الشيخ "أبو الفتح الخطيب" أمين دار الكتب الظاهرية منذ تأسيسها في عام ١٨٧٩ وحتى وفاته في عام ١٨٩٧، وقد تلقى الابن تعليمه الابتدائي بمدرسة الترقي النموذجية ثم بمكتب عنبر، وبعيد وفاة أبيه احتضنه العلامة الشيخ "طاهر الجزائري" فأشرف على توجيهه، وقدّمه إلى النخبة في شيوخ دمشق من علماء الدين واللغة والتاريخ: جمال الدين القاسمي، عبد الرزاق البيطار، وغيرهم، فواظب على حضور دروسهم، مستمعاً لمطارحاتهم، ومتعلماً منهم علوم الدين والدنيا، وكان في مقتبل شبابه حين شغلت فكره قضية "تتريك العرب" لتفتيت وحدتهم، وطمس قوميتهم، فراح يتدارس الموضوع مع أقرانه الذين أسسوا جمعية "النهضة العربية" لتعمل على بعث الأمة، واستعادة أمجادها، وهكذا فإنه حين رحل إلى الآستانة، عاصمة الخلافة، لدراسة الحقوق، التقى بطلائع الشباب العربي الثائرين على

الاستبداد، والتواقين إلى الحرية، وتعاهد الجميع على الحديث باللغة العربية الفصحى، وأن يتطوعوا عند عودتهم للوطن، لتعليم العربية والنهوض بها، فما لبثت أن تنبهت له عيون السلطة التركية، وأخذت تضيق الخناق عليه وعلى رفاقه، مما اضطره للرحيل إلى اليمن والتعليم في مدارسها.

أعلن العثمانيون الدستور في عام ١٩٠٨م، فاستبشر أحرار العرب وفيهم "محب الدين الخطيب" خيراً، فعاد إلى الوطن، لكنه ما لبث أن غادر إلى الآستانة مجدداً، لينطلق منها إلى القاهرة، وينضم فيها إلى المجاهدين ويمارس الصحافة في جريدتي: المؤيد والأهرام .. وما هي غير شهور حتى توجه إلى مكة المكرمة مع اندلاع الثورة العربية الكبرى، وهناك أنشأ جريدة "القبلة" التي هاجم فيها الأتراك، وفضح سياستهم المعادية للعرب فصدر الحكم عليه بالإعدام.

ومع قيام الحكم الفيصلي في سوريا عام ١٩١٨م، رجع الخطيب إلى الوطن ليدير جريدة "العاصمة" أول صحيفة عربية حكومية بدمشق، على أن سوريا لم تكد تنعم باستقلالها، حتى كانت جيوش الاحتلال الفرنسي تقتحم البلاد، ويضطر المجاهد المفكر للرحيل إلى مصر من جديد، وقد سلك في رحلته طريق الصحراء، مع التجار سراً .. فلقي مشاق فوق الاحتمال، وحين وصل إلى ارض "حطين"، حيث سجل العرب أروع ملاحم البطولة والفداء، خلع نعليه وراح يقبل تراب الأرض المنداة بعطر الانتصار، وعلى صفحة ماء "طبريا" رأى وجه القائد "صلاح الدين" الذي حطم أنوف الغزاة، وردهم على أعقابهم خاسئين ... فوطّد "الخطيب" قضية الأمة عزيمته على بذل كل طاقاته لخدمة قضية الأمة وإعلاء شأنها، وقد سجل ذلك كله فيما بعد في مقالاته وكتبه.

وصل "محب الدين الخطيب" إلى القاهرة، وأسس دار الفتح ليصدر عنها مجلة "الزهراء" الشهرية و"الفتح" الأسبوعية، وقد حفلتا بأصدق مشاعره الوطنية، وأفكاره المشرقة التي مثّلت منبراً لنشر الوعي والتبصير بأحوال الأمة، كما استقطبت صفحات المجلتين أعلام الأدب والثقافة أمثال: أحمد تيمور، والكرمني، وأحمد

شوقي، الذي جندوا أقلامهم للإشادة بمآثر العرب ومنجزات الحضارة الإسلامية، والتعبير عن الاعتزاز بعبقرية اللغة، وخلود العروبة والدعوة لمحاربة المتحاملين على الدين ودعاة العامية.

كان الخطيب في خضم هذا البحر الزاخر يعمل ليل نهار، وبهمّة لا تعرف الملل، مسخّراً قلمه وفكره وإيمانه من أجل قضية الأمة، محارباً دعاة التغريب، معلناً: "إن الغرب لا يريد خيراً للعرب، فعلى الأمة العربية أن تأخذ ما ينفعها في تطورها وتنبذ ما يسيء إلى قيمها، وما أشد حاجتها إلى اقتباس أسس الصناعة الحديثة، ومبادئ النظام في حياتها، وكان يردد عبارته المشهورة "إن الناطقين بالضاد لا تثبت لهم نهضة ما لم تقم على دعامتين: إحداهما المرونة في الاقتباس مما في حضارات الأمم من وسائل القوة، وعلم الإدارة والاختصاص بعلوم وأعمال جادة ومتقنة".

وكان برغم ما تستنفد المجلات التي يشرف عليها من جهده ووقته، يجد الوقت للتأليف والتحقيق، فنشر من مؤلفاته: اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب وتاريخ مدينة الزهراء بالأندلس، والرعيل الأول في الإسلام، والأزهر في ماضيه وحاضره، وذكرى موقعة حطين، ونقل عن التركية كتاب: "سرائر القرآن" كما أصدر مجلة فريدة في كتيبات لطيفة سماها "الحديقة" اشتملت على روائع في اللغة والأدب العربي، وظل "الخطيب" إلى آخر لحظة في عمره عاكفاً على مخطوطات التراث يحقق ويصوّب وينشر، وحتى في ليلته الأخيرة التي ودّع فيها الحياة كان مستغرقاً، مثل ناسك متعبد، في تصحيح صفحات من كتابه الموسوعي: "توضيح الجامع الصحيح للبخاري"، وكانت تلك ليلة الثلاثين من كانون الأول عام ١٩٦٩، انتهت فيها الرحلة الحافلة بالجهاد الصادق، والعطاء الخير، وبقيت أعماله الفكرية مضيئة في سجل العروبة، تحكي للأبناء سيرة المجاهد المحقق، وتطلعهم على صور من تراث العرب الخالد على مر السنين.

مؤلفاته وآثاره:

عاش الأستاذ محب الدين الخطيب حياة فكرية حافلة معطاء، فدراسته وافية، وظروفه الاجتماعية تساعده على الكتابة والتأليف، وثقافته الرفيعة جعلت منه كاتباً ومحققاً وأديباً وكل ذلك ساعده على كثرة التأليف والاستمرار في العطاء الفكري حتى ساعات حياته الأخيرة.

أما أهم مؤلفاته وتحقيقاته فهي:

١ – (توضيح الصحيح) وهو شرح لصحيح بخاري في ثمانية أجزاء كبار وهو مطبوع ومتداول.

٢ – (الحديقة) وهو مختارات من الأدب الإسلامي، ويقع في أربعة عشر جزءاً.

٣ – (مع الرعيل الأول) تحدث فيه عن عصر الصحابة ومن جاء بعدهم مطبوع.

٤ – (اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب).

٥ – (البهائية).

٦ – (ذكر موقعة حطين).

٧ – (رسالة الجيل المثالي).

٨ – (حملة رسالة الإسلام الأولون).

٩ – (الغارة على العالم الإسلامي) ترجمة.

١٠ – (تاريخ مدينة الزهراء بالأندلس).

١١ – (الأزهر ... ماضيه وحاضره).

١٢ – (الخطوط العريضة للديانة ألاثني عشرية الأمامية).

١٣ – (دفاع عن الحديث النبوي).

١٤ – (العواصم من القواصم) تعليق.

١٥ – سرائر القرآن ترجمة عن التركية (٢٠) وهو مطبوع.

١٦ – (إيمان العرب في الجاهلية – للنجيرمي) تحقيق وقد قمنا بتحقيقه وصدر عن مكتبة التراث بدير الزور عام ١٤١٤–١٩٩٣م.

١٧ – (المتقى من ميزان الاعتدال للذهبي) تعليق.

١٨ – (مختصر ألاثني عشرية للألوسي) تعليق.

١٩ – (الأكليل للهمداني) تعليق.

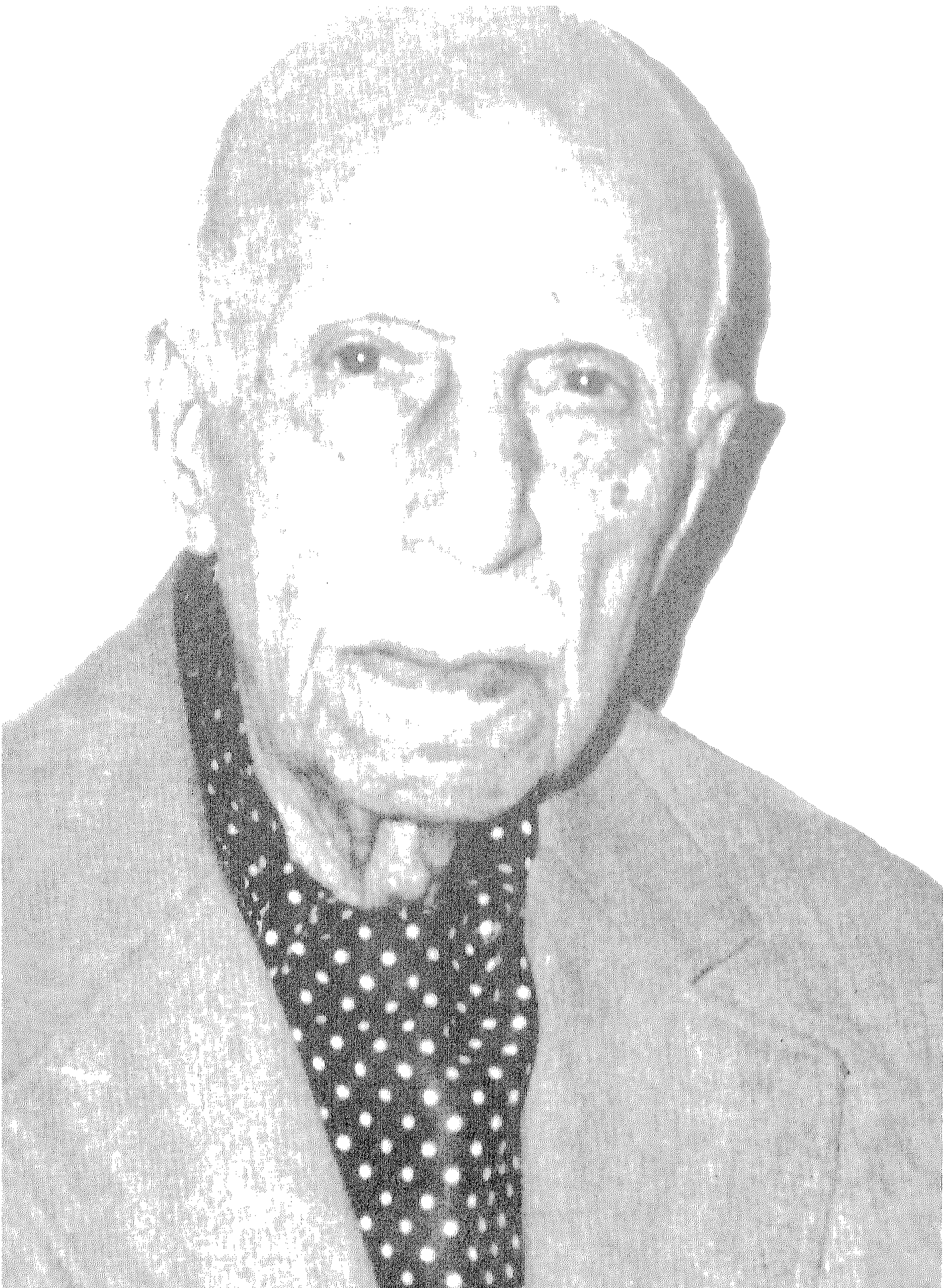
٢٠ – (الدب المفرد للبخاري) تخريج أحاديث.

٢١ – (فتح الباري لابن حجر العسقلاني) تنسيق أحاديثه.

٢٢ – وله مئات المقالات المفيدة النافعة في المجلات والصحف اليومية والأسبوعية والشهرية، وخاصة في مجلاته (الزهراء، الفتح، الأزهر) وكانت مكتبته الخاصة تضم (نحو عشرين ألف مجلد مطبوع تغلب فيها النوادر).

المصادر:

- وداد سكاكيني: نهج الإسلام.
- عبد الغني العطري: حديث العبقريات.
- خير الدين زركلي: الأعلام.



أحمد عبيد:

رائد تحقيق التراث المخطوط في القرن العشرين

التحقيق في التراث العربي علم خاص مستقل يعجز عنه الكثير من خريجي الأدب ودراسته، فهو بحاجة إلى صبر وتمرس وعلم غزير، وهذا قلّما نجده عند باحثي اليوم المتعجلين. وقد لا يدرك الكثير ما للمحققين من فضل على التراث والأدب، أحمد عبيد واحد من أكبر المحققين والعارفين بالمخطوطات في القرن العشرين.

فأمام عبيد تجد نفسك مبهوراً بخبرته التراثية، ومعرفته بالمخطوطات العربية الثمينة، وقدرته على تحديد عمر المخطوطات ونسبتها إلى أصحابها، وصبره على التعامل مع الكتاب والكتاب، وطول عشرته لمهنة النشر.. كان أحمد عبيد أكثر من خبير وأكثر من ناشر، فهو محقق مميّز من أوائل المحققين في سورية والوطن العربي، نشر نفائس من المخطوطات العربية وعدداً من الرسائل المميزة على رأسها سيرة عمر بن عبد العزيز، وأعماله في التحقيق جعلته علماً.

يقصده الباحثون لاستشارته فيما يهمهم من أمر المخطوطات، فيلبيهم باهتمام ورعاية.

هو خبير في التراث والمخطوطات يعمل بصبر وأناة، وبتفان لا نظير له من أجل خدمة تراث أمته، ويقدم خبرته لإخراج كنوز التراث إلى الوجود بأفضل صورة، وعمله الدؤوب في أبي العلاء المعري يشهد له به محقق الرسائل في مقدمة التحقيق الذي صدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق: (ولولا جهد الأستاذ عبيد في ترتيبها وتحديد نسبتها ما كان لها أن تخرج).

وأحمد عبيد انتقائي صعب المراس في المخطوطات، وصاحب نظرية خاصة في التحقيق جديرة بأن يعاد الحديث فيها مرة أخرى، فهو ضد نشر التراث بعجره

وبجره، ويرى أن ما كتبه الأجداد لا يحتاج بجملته أن ينشر، فهناك رسائل كتبت لأغراض ذاتية أو وقتية، ويجب ألا نعود إلى إصدارها، وإضاعة الوقت والجهد فيها، ويرى أن العمل في مثل هذه الرسائل هو مجرد عمل تجاري هدفه الربح وحسب، لذلك يجب أن تخضع المخطوطات إلى عملية دراسة عميقة.

تحدد الجدير بالنشر، ثم نقوم على تحقيقها ونشرها، وكان يتمنى أن يحدث نوع من التنسيق بين المحققين الذين يقومون بنشر المخطوط نفسه في أماكن متفرقة من الوطن العربي، فنهدر بذلك الجهد والوقت والمال.

يتمتع أحمد عبيد يتمتع بين العاملين في التراث بميزة لم تكن لغيره، فهو تراثي أصيل خبير من جانب، لكنه كان من جانب آخر يحيا حياته ويتابع معاصريه، بل ويكتب عنهم، فهو لا يكتفي بالجلوس بين المخطوطات الكثيرة التي تهيأت له بل نراه صديقاً لشفيق جبري ومحمد البزم وخير الدين الزركلي، وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وإبراهيم عبد القادر المازني ولآخرين يضيق المجال عن ذكرهم، فهو مع النحوي سعيد الأفغاني والشاعر الزركلي، ومع النصوص التراثية الأصيلة العميقة، فإضافة إلى تحقيقاته الدقيقة نشر أحمد عبيد دراستين هامتين تعدان من أهم أعماله ومن أهم الدراسات في هذا الباب، وهما: ذكرى الشاعرين حافظ وشوقي، ومشاهير شعراء العصر – قسم مصر. أما ذكرى الشاعرين فهو سجل من أهم ما كتب عن الشاعرين حافظ إبراهيم شاعر النيل، وأحمد شوقي أمير الشعراء، سجل فيه أحمد عبيد كل ما قيل في تأبين ورثاء الشاعرين الكبيرين، سواء ألقاها أصحابها أم لم يفعلوا، ضم مجموعة مهمة من القصائد الرثائية، ومجموعة من الدراسات الأكاديمية والتأبينية، والتقويمية في أعمال الشاعرين، نظم القصائد شعراء من أهم شعراء العصر الحديث، وكتب الدراسات مجموعة من خيرة الأقلام العربية كمصطفى صادق الرافعي وسعيد الأفغاني. ومع أهمية هذا الكتاب وضخامته إلا أنه لم يلتفت إليه بالشكل اللائق حتى الآن! وكتاب عبيد الآخر مشاهير شعراء العصر – قسم مصر – فهو كتاب طريف ومميز فكرة وتأليفاً، لقد عمد عبيد إلى مراسلة الشعراء،

وكان كل واحد منهم يقوم بإرسال صورة حديثة لـــه، مع ترجمة بقلمه، خاصة بهذا الكتاب ومجموعة من قصائده ونثره .. فجاء الكتاب موسوعة في التـــراجم والأدب على نمط فريد، وبأقلام أصحابها واكتفى عبيد بالإعداد والنشر، وهكذا حوى الكتاب نصوصا فريدة وتراجم غنية، كما كان من أمر المازني وغيره، وهناك عـــدد مـــن الشعراء الذين لا نجد لهم أي نتاج إلا في هذا الكتاب! وعن هذا الكتاب قال: إنه لـــم يخطط لـــه للصدور كما صدر، فهو في الأصل مشروع موسوعي كبير، وضـــعت خطته المرهقة في سنوات، وكان على الشكل التالي:

مشاهير شعراء العصر: الجزء الأول: قسم مصر، الجزء الثاني: قسم الـــشام، الجزء الثالث: قسم العراق، وقد بدأت بالقسم الأول، وخاطبت شعراء مـــن مـــصر فاستجابوا دون تحفظ، ووصلتني مشاركاتهم في وقت قصير، وفـــي أثنـــاء طباعـــة الكتاب بدأت: تحضير الكتاب الثاني، قسم الشام وخاطبـــت شـــعراء فـــي الـــشام، فجاءتني بعض المشاركات ووقفت عقبات كثيرة وكبيرة دون إتمام المشروع، فهـــذا الشاعر لا يقبل أن يشارك في كتاب يشارك فيه فلان، وفلان يرى نفسه أشعر مـــن الآخرين ولا يريد أن يضمه معهم كتاب واحد! وجد عبيد نفسه في بحر مـــن الألـــم ولم يستطع على الرغم ما أوتي من الحكمة والرقة أن يوفق بين أمزجتهم وقال: أنـــا لا يمكن أن أستبعد أحداً إكراما لأحد فكل الأسماء التي كانت مطروحة أســـماء لهـــا قيمتها ولها قراؤها، والاعتراضات التي كانت من الشعراء لم تكن ذات قيمة، وهكذا طوى عبيد أوراق كتابه وتوقف عن إتمام مشروعه الكبير، فخسرت المكتبة العربية كتاباً من أهم الكتب وخسر الشعراء أنفسهم أن تحتفظ المكتبة لهم بذكر مختلف كمـــا حدث مع أشقائهم في جمهورية مصر العربية.

لم يكن أحمد عبيد محققاً وحسب أو ناشراً وحسب بل كان مبـــدعاً وصـــاحب أفكار غنية، ويذكر لـــه إسهامه في أفكار كتابين هامين في المكتبة العربية وهمـــا: الأعلام لخير الدين الزركلي، وهو أهم كتاب تراجم صدر في العصر الحديث، وقـــد قام أحمد عبيد بإصدار طبعته الأولى في المكتبة العربيـــة بدمـــشق، وعنـــدما هيـــأ

الزركلي كتابه للطبعة الثانية، تحدث عن الأستاذ عبيد ودوره فقال: أهدى إليّ الصديق الوفي السيد أحمد عبيد (أحد أصحاب المكتبة العربية بدمشق) وهو من اعلم الناس اليوم بمخطوط الكتب ومطبوعها نسخته الخاصة من الطبعة الأولى وكانت بين يديه نحو عشرين عاماً، يعلق عليها بما يقع له من مخطوط ومطبوع وغريب وطريف وأضاف إلى هذا العمل أن أتاح لي مطالعة مجموعة مما ظفر به من قديم المخطوطات ونادرها، وحمل عني عبء استخراج الخطوط المكنوزة في خزائن دمشق ومكتباتها، وتولى قراءة هذه الطبعة في فترة اشتغالي بإعداد المستدرك فنبه إلى ما وقف عليه من خطأ الطبع، وأضاف تعليقات مفيدة أثبتها في المستدرك منسوبة إليه. أن حرصه على كتاب الأعلام وعلى صديقه خير الدين الزركلي وعلى خدمة الكتاب، جعله يقدم للمكتبة العربية كتابا مميزاً بكل معاني التميز مكتفيا بإشارة هنا وهناك دون أن يطلبها في الأصل، وأصدر أحمد عبيد عام ١٩٧٥ الطبعة الأولى من الكتاب الموسوعي: المعجم للشيخ النحوي عبد الغني الدقر، هذا المعجم الذي يعد في بابه بين أهم مصنفات النحو العربي في العصر الحديث، وهو الكتاب النحوي المبتكر فكرة وتنظيماً ومادة ... وقد اعتنى الشيخ الدقر بهذا المعجم وتابع العمل فيه إلى أن صار الكتاب مرجعاً لكل أستاذ وطالب في العربية، وأضاف إليه قسماً في الإملاء، وفي التقديم يقول الأستاذ الدقر: (ومن الإنصاف الاعتراف أن صاحب فكرة الترتيب المعجمي للنحو هو الأستاذ أحمد عبيد صاحب المكتبة العربية في دمشق)، اختزنها في صدره منذ زمن بعيد، إلى أن رأى أنه قد آن الأوان كي تخرج فكرته إلى الوجود، فعرض علي أن أقوم بهذه المهمة فصادفت مني الهوى، فاستجبت له واستعنت الله على ذلك. ويتحدث الكاتب إسماعيل مروة عن عبيد فيقول: لا أريد أن أتحدث عن إسهامات الأستاذ عبيد الكثيرة فالأمر لا يتسع، ولا عن الأعلام الذين كنت أراهم عنده في زيارتي إلى مكتبته، ولا عن شهادات الأستاذ محمد كرد علي الرئيس الأول المؤسس لمجمع اللغة العربية فيه، أو ما جاء في مقدمة رسائل المعري عن دوره في إحيائه واثبات

نسبته وتربيته، فهو وراق من الدرجة العليا خبرةً بالمخطوط وقراءته ومتابعته واختباره وطباعته، وهو مؤلف بارع وشاعر أصيل وقف شعره على موضوعات محددة يراها تخدم المجتمع آخذين بعين الاعتبار المرحلة الزمنية ومصادر ثقافة عبيد.

- ولد أحمد عبيد بدمشق عام ١٨٩٢.
- أسس المكتبة العربية بدمشق عام ١٩٠٨، ونشر مجلة (أنفس النفائس) التي صدر منها ٩ أعداد، كما طبع بعض الرسائل والروايات، وشارك بتأسيس الحركة المسرحية في سوريا، وله مقالات في النقد المسرحي، نفذّ أول مشروع لأحياء التاريخ الإسلامي، بترجمة سير الأعلام والأبطال.
- أسهم في أعمال المجمع العربي، وشارك بنشر مجلته وتوزيعها.
- كان من أبرز أنشطته إصدار التقويم العربي الهاشمي عام ١٩١٩، وهو ما يزال يصدر إلى هذا اليوم متضمناً لطائف الشعر، وبدائع الحكم، وطرائف الحكايات.
- نظم أحمد عبيد في الحكمة والتوجيه إلى المحبة والتعاون والتمسك بالفضائل فعكس شعره ما جبلت عليه نفسه من حس مرهف، وإيمان صادق كما كانت قصائده مرآة لخلقه الرفيع وسلوكه الإنساني المثالي.

تميّز المحقق والشاعر بصداقته لأعلام الأدب والشعر، الذين يلتقون في مكتبته، وكانوا يقدّرون اهتمامه بتحقيق تراث العرب الفكري، والعناية بمصادر العلم والمعرفة وأثنى الجميع على جهوده الخيرّة في نشر ذلك التراث، وإقامته للأجيال في أبهى حلله.

كان عبيد ربعة من القوم أو يكاد، هو إلى القصر أقرب متين البيان، ركيناً مهيباً، حذراً، حذر التوقد والألمعية، لا حذر التردد وإفساد الرأي، تراه إذا مشى كما تراه إذا جلس وكما تستمع إليه إذا تحدث، وقوراً في ذلك كله، مستوي النبرة، ساكن

الطرف، هادئ القسمات، تتلامح إليك من وراء ذلك وفي خلاله ابتسامة خفيفة، ورقة ودماثة، لا تخطئ أن تردها منه إلى طبيعة صافية، ونفس راضية، وخلق مستقيم.

عاونه في عمله حيناً من الدهر شاب طلعة، مرهف الحس، مشبوب العاطفة، لم يكد ... حتى استوى في حلبة الأدب عوده، وحتى ارتفع في سماء الفكر نجمه، وتوالى صعوده، هو الأديب العالم الدكتور شكري فيصل، عضو مجمع دمشق، وعضو المجامع العربية.

حتى إذا كانت السبعينيات وكان قد انقضى على رحلته مع الكتاب العربي نحو من ستين عاماً وطال الدرب، وترامى المسير، كان حظ دارته منه أكبر، وكان تردده على (مكتبته العربية) أندر وأقل.

يعد الأستاذ أحمد عبيد من أوائل المحققين في بلاد الشام، وقد قام بنشر العديد من المخطوطات من أهمها تخميس لامية ابن الوردي، سيرة عمر ابن عبد العزيز، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، سحر البلاغة وسر البراعة، والمرح في المزاح ... وغيرها من التحقيقات المهمة، نشرها في مكتبته العربية ثم تداولتها دور النشر الأخرى لفائدتها وأهميتها، ومن يطلع على تلك الكتب يتعرف إلى طريقة الأستاذ عبيد في تحقيق التراث، فهو لا يتدخل في النص إلا بما يوجب عليه ذلك وما يزيد النص غنى وفائدة.

والأستاذ عبيد مرجع من مراجع المحققين المهمة في بلاد الشام، يقصده المحققون لمراجعة أعماله وتزيينها بملاحظاته التي صنعتها الخبرة الطويلة في عالم المخطوطات والوراقة.

وعلينا هنا أن نشير بأمانة إلى ما يتمتع به المحقق من دقة استخدام المصطلح الذي يتصدر بحوثه فتارة نجد كلمة (تأليف) وتارة (إعداد) وأخرى (تقديم)، فهو لا يدعي ما ليس له وإنما يصنع العبارة التي تدل على عمله في الكتاب على استحياء من مؤلفاته: (ذكرى الشاعرين) الذي يتناوب فيه ذكر شاعر النيل وأمير الشعراء

والكلمات التي قالها فيهما أساطين الأدب العربي وفكره، نقداً في حياتهما وتأبين عند وفاتهما، وإضافة إلى مجموعة من أشعارهما التي لم تنشر قبل صدور الكتاب، والتي لم تنشر إلى يومنا هذا في كتاب غيره وأهمية الكتاب تكمن فيما جمعه لنا من كلمات ضاعت بين أوراق الصحف القديمة لولا كتابه، ومن مؤلفاته أيضاً مشاهير شعراء العصر وهو كتاب موسوعة، قرر الأستاذ عبيد إنجازه بأجزائه الثلاثة التي تناولت شعراء مصر والشام والعراق، وفق خطة فريدة وهو أن يرسل له الشاعر رسماً حديثاً له مع ترجمة ذاتية بقلمه، إضافة إلى أشعار لم تنشر من قبل، وفي عام ١٩٢٢م صدر الجزء الأول شعراء مصر، وتوقف إنجاز الجزأين الآخرين، وحسبك أن تقرأ ترجمة المازني بقلمه لتتعرف إلى أهمية الكتاب.

مع أدباء عصره:

أحاطت مجموعة ظروف بأحمد عبيد فجعلت منه صديقاً مقرباً من أدباء عصره وشعرائه كأحمد شوقي وحافظ إبراهيم والمازني والعقاد .. وينبيك عن علاقة الاحترام بين الأستاذ عبيد وأدباء عصره ما نجده في كتاب (مشاهير شعراء العصر) من رسائل احترام وتوقير، أرسلها أولئك الأدباء للأديب أحمد عبيد، ولعل علاقته بالراحل خير الدين الزركلي أقوى صداقة تربط بين أديبين من أدباء العصر، وحسبك رحلتهما معاً في دمشق والقاهرة، وليست قصة الأعلام وان مر عليها قرابة قرن من الزمن ببعيدة. ذلك المعجم الخاص بالأعلام الذي لم يكتف بالعرب دون المستشرقين حتى أصبح عمدة الباحثين ... هذا الكتاب طبع أول مرة في القاهرة تحت عين الأستاذ عبيد، ويؤكد ذلك المرحوم الزركلي في غير ما موضع في كتابه (الأعلام). وكذلك علاقته مع مقرئ الشام محمود ياسين وابن أخته د. شكري فيصل، وصداقته لمحمد البزم وشفيق وجبري ومحمد كرد علي، وأنور العطار ويوسف العش وعلي الطنطاوي ود. حسني سبح، وغيرهم.

أحمد عبيد ... الشاعر:

اختط احمد عبيد لنفسه العمود الشعري العربي، وكان ينشر هذا الشعر بين فترة وأخرى في تقويمه الخاص الذي كان يصدره ومازال (التقويم العربي الهاشمي)، وأشعاره تتنوع بغرضها بين المديح والرثاء وكانت الحكمة أوفر أغراضه حظاً، ولم نحظ بنماذج كثيرة من شعره لأن ديوانه (نشر ما انطوى) لم ينشر بعد:

تألم أحمد عبيد كما آل إليه حال العرب من فرقة وضعف .. فنظم يقول:

أرى الدهر يستشري على العرب ... وأنهم من عدة الأيد عُزّل
وما الأيد إلا أن يكونوا على العدى ... يداً بأسها يوهي العداة ويعقل
لكل امرئ منهم نوازع ينتمي ... بها في بنيات الطريق فيخذل
ويوغل كل في مجاهل، قطعُها ... يقطّع أعناق الرجال ويفصل

وفي التسعين من عمره أنشد يقول:

(ثمانون عاماً جزتها بسلام ... وعشرة أعوام مضت بتمام
تقلبت فيها بين لين وشدة ... وإخفاق آمال ونيل مرام
وما كان لي غير التجمل حلية ... وغير ادّراع الصبر حين صدام
وإني لأرجو أن أعود إلى الثرى ... بخالص إيمان وحسن ختام)

ومن شعره في الحكمة:

(لا تحسبن سعادة الدنيا بما ... تحوي يداك من الغنى فيزول
إن السعادة باليقين وبالرضا ... وهما دعام لا يكاد يميل
والقلب ينبوع السعادة إن يغض ... منه فليس لها اليك سبيل)

وشعره في قضايا الشرق لا تقل عذوبة عن أشعاره في الحكمة ومن أمثلة تلك الأشعار التي لاقت ذيوعاً وشهرة في حينها:

إنـــي أنـــا الـــشرق فـــي جنباتـــه بالمكرمـــات نديـــة الأعـــواد
مهـــد الهـــداة المرســـلين ومنـــزل العـــز القـــديم وموئـــل الجـــواد
قد كنت مـــن أن أستـــضام بمنعـــة ضـــربت ســـرادقها يـــد الأجـــداد
وأرى نبي هدى نبـــيّ إلههـــم قـــد أســـلموا حرمـــي إلـــى الأضـــداد

أحمد عبيد في ذاكرة الأجيال:

احتل الباحث المحقق أحمد عبيد مكانة مرموقة في الحركة الفكرية المعاصـــرة في سوريا والوطن العربي، وشهد له أعلام الثقافة بالريـــادة فـــي مجـــال التوثيـــق والتحقيق وكتب الشاعر سليم الزركلي:

ما عرفت أحمد عبيد ضن يوماً بذخر اذخّره، أو قنية اقتناها بعد جهـــد جهيـــد، فكأنه حارس وقف، أو أمين مؤتمن .. لا يمن ولا يستأثر، كل ما بين يديه موقـــوف للناس، يغرفون أنى شاؤوا، ويقبسون حيث يعوزهم القبس، فكان مصباحاً لا ينطفئ، ونبراساً لا ينضب، هو حاضر لكل قاصد، بـــاذل لكـــل طالـــب، بـــضاعته العلـــم والمعرفة.. وما حجزهما دون أحد، فأفاد من سعيه كل ساع، واستفاد من عونه كـــل مستعين، ويهش ويبش للقريب والغريب على حد سواء ... لقد عاش بـــين الكتـــب، وفي خزائنها المتفرقة هنا وهناك، يقطف أزهى ما فيها من نضارات، وينشر أزكـــى ما فيها من معارف، ويـــبسطها لكل متطلع إلى المعرفة، ولكل متلهف إلـــى اكتنـــاه أسرار العلوم، فكان بذلك، المرشد إلى النور في مجاهل الظلام، والناصـــح الأمـــين في الدلالة على الخير العميم، القابع في بطون الكتب وزوايا العرفان.

وكتب خير الدين الزركلي: لقد أشاع الباحث خبرته وعمله ومكتبته لجميع مـــن شاء النهل من ذخائرها من عرب ومستشرقين، واعتبرت مكتبته العربية أول مجمع علمي عربي (غير رسمي) في الوطن العربي منذ سنة ١٩١٠، حيث كانـــت تعقـــد فيها تلقائياً، ندوات يومية لكبـــار رجـــالات الأدب، وصـــفوة العلمـــاء والـــشعراء

والمحدثين والفقهاء والصحفيين، فترفد عطاءاتهم، وترعى جهود السائرين على نهجهم بمنتهى الأمانة والإخلاص، وتحرص على تكريم أعلامهم في أثناء حياتهم (موسوعة مشاهير شعراء العرب سنة ١٩٢١)، وبعيد وفاتهم (ديوان الشيخ أبي الحسن الطباع سنة ١٩١٢، وكتاب كلمات المنفلوطي سنة ١٩٢٤، وكتاب ذكرى الشاعرين حافظ وشوقي سنة ١٩٣٣). كما أمد مجمع اللغة العربية (وهو أول مجمع تأسس في الوطن العربي سنة ١٩١٩) بكل الدعم والمشورة والخبرة التي كانت تطلب منه باستمرار، منذ التحضير لتأسيسه على يد الأستاذ محمد كرد علي (المتوفى سنة ١٩٥٣). وهو العالم العربي الوحيد الذي اعتذر عن تلبية الدعوة المتكررة للانضمام إلى عضوية مجمع اللغة العربية، انصياعاً منه لمبدئه في خدمة الوطن والعلم والعلماء، بكل صمت وجلد، بعيداً عن مصائد الشهرة والألقاب والأضواء، ولقد لقب من قبل رئيس المجمع (محمد كرد علي) ونائبه (عبد القادر المغربي) ورئيسه السابق (حسني سبح) بـ (ابن النديم) صاحب الفهرست.

في عام ١٩٨٩انقضت رحلة المحقق الرائد أحمد عبيد، الحافلة بالعطاء الخيّر الذي ناف على مئة كتاب بين مؤلف ومحقق وعشرات المقالات، وأضعافها من التعليقات ... فكان جديراً بتقدير الأجيال واعتزازهم على الدوام.

مختارات من شعره

لقي شعر (أحمد عبيد) عناية من مجايليه الأعلام، وأشاد أصدقاؤه من شعراء الشام بما وقعوا عليه من شعره الذي كتب محمد البزم:

(إن أحمد عبيد أديب أريب، سليم الذوق، حسن الاختيار، يصنع القطعة أو القصيدة، فإذا رآها جهابذة القول وقهارمة البيان، لم يجدوا بداً من الاعتراف، بأن ناظمها أديب ثاقب النظر، كثير الخبرة بوجوه الفصاحة وتأليف الكلمات

ونظم "خير الدين الزركلي" مخاطباً:

رويدك يا شاعراً ساخراً، عقود البلاغة ما ينظم
إذا أنت أسررت ما نلته، فإن الإجادة لا تكتم
تقول فتطرب أسماعنا وينطق في شعرك الأبكم

وفي كتابه: (ذكرى الشاعرين) قال عبيد يرثي أحمد شوقي وحافظ إبراهيم:

(أهكذا الموت أنفاس نؤديها إلى الحياة فلا يرجى تقاصيها
أهكذا الموت صحو لا سبات له أو غفوة لا يذوق الصحو غافيها
الموت حق ولكن ليس نفهمه ولا نجيد له وصفاً وتشبيهاً
لا يعرف الموت أبناء الحياة ومن يطيق بالموت إن وافاه تنويها
يا حافظ الشعر والآداب قد نظمت بك المنون قصيد الموت نرويها
قد كنت تنشدها شعر الحياة على نعمى تحاول أو بؤس تعانيها
قد مات شوقي وما شوقي سوى قمر في الداجيات يجلي من غواشيها
في كل بيت له نور يضيء لنا مناهج الرشد في أحلى معانيها)

وكان أكثر ما وصلنا من شعر "عبيد" ما نظمه في الحكمة والنقد الاجتماعي المعبر عن صفاء روحه الإنسانية، ومن ذلك قوله:

الصديق الناصح:

(إذا أبـدى لـك الإخـوان عيبـاً | فأصـلحه وحـاذر أن تعيبـا
فخير الـصحب فـي الـدنيا وفـاء | صـديق يـصلح الخلـق المريبـا)

العزلة:

(لعمـرك مـا شـهود النـاس إلا | بـلاء والـسلامة فـي الغيـاب
فغب مـا اسـتطعت إلا عـن كـريم | يـرى لقيـاك مـن خيـر الطـلاب
فيهـدي إن دللـت علـى صـواب | ويهدي إن زللـت إلـى الـصواب)

الحياة:

(إن هـذي الحيـاة ومـضة بـرق | نختفـي بعـدها عـن الأعيـان
ثـم نجـزى بمـا جنتـه اليـدان | مـن جميـل الآثـار بالإحـسان)

وفي عجائب الزمان:

(زمـان تـوالى تعاجيبـه | وعـيش يـسوء بمـا قـد أتـى
رجـال يرومـون زي النـساء | وخـود تحـاول زي الفتـى)

وفي انقلاب المفاهيم:

(أيعلـن ذو الجهـل إلحـاده | فـيلهج فـي مدحـه المـادح
ويجهـر فـي دينـه صـالح | فيـتهم الرجـل الـصالح)

تدني القيم:


(إذا مـات فينـا أخـو منـصب | تـصدى لتأبينـه النـادب
وإن مـات ذو العلـم لـم يبكـه | قريـب ولـم ينعـه صـاحب)

إنسان عصره:

(مـــاذا دهـــا الإنـــسان حتـــى غـــدا ذئبـــاً يعيـــث فـــي قطيـــع الـــشياه
والـــذئب لا يفتـــك فـــي جنـــسه والمـــرء لا يهلـــك إلا أخـــاه)

وتعدد وجوهه:

(إذا مدحت امرءاً يوماً ففـــي غـــده يبين لي مـــن مطـــاوي شـــره أثـــر
أظن بالنـــاس خيـــراً ثـــم أكـــشفهم فـــلا يعـــود بخيـــر مـــنهم بـــشر)



شكري فيصل:

عمر من الدأب والحماس لتحقيق فرائد التراث

- **أجمع جزئيات العمل الفكري كما يجمع الأثري قطع البناء المتناثرة**
- **بلغ في تقليد طه حسين حداً صعب معه التمييز بين المقلد والمقلد**

كنت في مطلع حداثتي حين بدأت مجلة "النقاد" الأدبية تنشر خواطري كل أسبوع، وكان زهو مشوب بالفرح يهزني، وأنا أرى أسمي جنباً لجنب مع العديد من كتاب المقال والقصة والشعر المعروفين أيام ذاك ... وحدث أن التقيت في واحدة من الندوات الفكرية التي حرصت دوماً على حضورها بالعلامة الأديب الدكتور "شكري فيصل" – يرحمه الله تعالى– فلما قُدِمّت له، صافحني بمودة صادقة وكأنه يعرفني منذ زمن بعيد، وبادرني بصوت أقرب إلى الهمس الوديع:

إني أتابع كتاباتك وأتوسم فيك خيراً مرتقباً، لكن تذكّر أن طريق الإبداع طويلة شاقة، وتتطلب فكراً متفتحاً، ودأباً متفانياً ... امتح من ينبوع الصدق، ارق فوق السفاسف، ولا تتعجل الوصول، وشدّ على كفي، كأنما يريدني ألا أنسى أبداً تلك الكلمات.

وظلت لقاءاتنا بعد ذلك قليلة، لأن المفكر الكبير، كان دائم التنقل بين الأقطار العربية، يشارك في مؤتمر هنا، ومهرجان هناك ... حتى كانت تلك الأمسية الرائعة من شباط "فبراير" عام ١٩٦٢ والتي خصصها مجمع اللغة العربية بدمشق لاستقبال عضوه الجديد الدكتور "شكري فيصل" في المقعد الذي شغر بوفاة رئيسه السابق علامة دمشق وشاعرها "خليل مردم بك" وقد بهر الدكتور فيصل الحاضرين من صفوة الأدباء والمفكرين عندما تقدم إلى المنصة بحياء واضح ليقول:

"منذ نحو من ثماني عشرة سنة، حين قادتني خطاي في كثير من التهيب إلى هذه المنصة لأواجه جمهوراً من الناس في واحدة من المحاضرات التي كان يدعو

إليها مجمعكم الموقر، ولم يكن في الذي أطمح إليه، أو أكفّر فيه، أن تلتقـي أيـديكم الخيّرة السمحة في ثقة وطمأنينة، على أن تأخذ بيدي إلى هـذه المنـصة ذاتهـا، لا لأحاضر وإنما لأشكركم بالدمعة المترقرقة لا تستهل، واللسان الحيـي لا يبـين ... إنكم فكرتم بي، حين فكرتم في أقدس المهمات التي تضطلعون بها، مهمـة الحفـاظ على اللغة، وإنكم أشركتموني في أكرم الجهاد، وهو الجهاد في سبيل اللغة العربيـة، وإنكم أحللتموني منكم هذا المحل الكريم الذي أقصّر عنه ولكني آمل أن أكون كفـاء له[1]...

وتابع متحدثاً عن سجايا سلفه الراحل الكبير، وعن تهيّبه من المـسؤولية التـي يفرضها اختياره لعضوية المجتمع، وعزمه على أن يكون عند حسن الظن به، وجاء دوري هذه المرة فعانقته بحرارة، ولم يدر في خاطري أنني لن أراه بعدها أبـداً ... وإنما يأتيني نعيه في الثالث من أب ١٩٨٥.

تفوق منذ البداية:

ولد الدكتور "شكر فيصل" بدمشق عام ١٩١٨، ونشأ في بيت خالـه المحـدث العالم الشيخ "محمود ياسين" الذي أشرف على تعليمه وتمكينه من الثقافة الإسـلامية، كذلك أتاح له شيخ الوراقين العالم "أحمد عبيد" الإطلاع على كبت التـراث، وأرفـده كما يذكر من علمه وماله بالشيء الكثير وأنهمه وقته، ومكتبه الخاصة بمخطوطاتهـا ومطبوعاتها".

تجلّى تفوق الدكتور فيصل في مرحلة التعليم الثانوي، خاصة وأنه تلّقى تعليمـه في هذه المرحلة على أيدي الصفوة من أعلام دمشق، أمثال: سـليم الجنـدي، عبـد القادر المبارك، ومحمد البزم، مما أهلّه للالتحاق بكليـة الآداب بجامعـة القـاهرة، فحصل منها عام ١٩٤٢ على الإجازة في الآداب بدرجة الامتيـاز، وكـان ترتيبـه الأول على زملائه الخريجين.

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية – أعداد مختلفة.

ولما عاد إلى دمشق عمل مدرساً للغة العربية، وتابع حضور المحاضرات في كلية الحقوق، حتى نال إجازة الحقوق وفي تلك الآونة اختاره العلامة "ساطع الحصري" مشاوراً فنياً لتعديل برامج التعليم السورية، فعمل بنشاط في صياغة التقارير الفنية، والإشراف على طباعتها كما قام في الوقت نفسه بتأليف عدد من كتب المناهج الجديدة.

اختارته جامعة دمشق للتدريس بكلية الآداب وثم أوفدته إلى القاهرة للحصول على الدكتوراه في الآداب، وهناك شغل وظيفة الملحق الثقافي بالإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، وعمل مساعداً لمدير الإدارة الدكتور "احمد أمين"، وكان موضع إعجابه واعتزازه به، والتقى في مصر بأمين الخولي وعبد الرحمن عزام، وطه حسين / مما أهلّه ليكون ممثلاً للثقافة والعقلية المصريتين في سوريا.

وقد عُرِف الدكتور فيصل بإخلاصه واحترامه لأساتذته، ولكل الذين أتاحوا له التهام وتكوين مخزونه من العلوم والمعارف، كما كان منغلقاً على نفسه، معتصماً بالصمت ونوع من الإيناس والتهذيب يخاطبك بصوت خفيض فيه دعة وتحبب، وما عرف عنه أنه أساء إلى مخلوق أو تفوّه بكلمة جارحة.

النثر شعر شوقي الثاني:

نال الدكتور "فيصل" خلال السنوات الثلاث التي قضاها في القاهرة، الماجستير في الآداب ودبلوم معهد اللهجات العربية والدكتوراه في الآداب بمرتبة جديا جداً، واسهم في الفترة نفسها بالمهرجانات الأدبية والمؤتمرات الثقافية، وكانت المجلات العربية يوم ذاك "الرسالة"، الثقافة، الكتاب، الأديب، والفكر العربي وغيرها تتنافس في نشر دراساته وثمرات قرحيته المتألقة.

في الخمسينات أصبح الدكتور في الطليعة بين أساتذة كلية الآداب بجامعة دمشق، فأوفد إلى ألمانيا في بعثة إطلاعية، أقتن خلالها اللغة الألمانية، وتتبع المخطوطات العربية بالدراسة والتحقيق في عدد من الجامعات الألمانية، وبعد

عودته مجدداً إلى سورية أصبح ممثلها الأول في المؤتمرات الأدبية والندوات الثقافية، وفي شتى العواصم العربية يساهم في بحوثه الدقيقة ويلقي المحاضرات بنشاط وافر وحيوية فائقة.

وحينما أحيت مصر ذكرى مرور خمس وعشرين سنة على وفاة أمير الشعراء "أحمد شوقي"، تحدث الدكتور فيصل في المهرجان الكبير، ملقياً الضوء على نثر شوقي، الذي لقي هجوماً من الأمير "شكيب أرسلان" القائل إن نثر شوقي قتل شعره:

استرسل الدكتور فيصل في إبداء إعجابه بنثر شوقي وتساءل في البداية:

(أكان شوقي هذا الذي فعل الأعاجيب في الحياة الفنية الشعرية، ناثراً من الناثرين الذين يقف عندهم تاريخ الأدب، مشيراً إلى أثرهم في سواهم).

أغلب الظن أننا لن نستطيع أن نكتشف شوقي الناثر في شيء من اليسر، لا لأنه لم تكن له هذه القدرة على النثر المتمكن من الصنعة، حتى لتكاد تكون فيه عفواً ولا لأن نثره لم تكن فيه هذه القدرة على الإقناع ... ولا لشيء من هذا أو ذاك، وإنما يتجاوز الأمر شوقي نفسه إلى العصر الذي عاش فيه، وإلى العصر الذي نعيش فيه، وإلى المواصفات التي نطمئن إليها في العمل الفني، والأسس التي نرتكز عليها في التقدير والتقويم، فنحن نحيا في عصر أقرب إلى الإطلاق منه إلى التحديد، وإلى العفوية منه وإلى التصنّع، وإلى الإرسال منه إلى القيد، وإلى الانسجام مع المعنى بأكثر من الانسجام مع اللفظ، ونحن اليوم نحب النثر رهواً رخاء طلقاً، كهذه الأشرعة الخفيفة التي تجري مع النيل، لا تسمع لها صلصلة ولا جلجلة، ولا تحس لها ضجيجاً ولا عجيجاً، وإنما هي وسوسة ناعمة كأنما هي همس الموج إلى المجداف وتحية المجداف إلى الموج، ثم لا يكون بعد ذلك إلا هذا التقدم المنطلق على صفحة الماء ويختم الدكتور فيصل دراسته قائلاً: "إن نثر شوقي بمنزلة الشعر

بل إنه شعر إذا نحن التزمنا تعبيره إنه شعره الثاني[1].

من المقلد ومن المقلد:

بُعيد اختيار الدكتور فيصل لعضوية مجمع اللغة العربية، صار عضواً بلجنة مجلة المجمع، وكذلك في لجنة المطبوعات وإحياء التراث، وعكف في تلك الفترة على تحقيق العديد من كتب التراث العربي من أبرزها: "جريدة القصر وجريدة العصر" للعماد الأصفهاني و"ديوان أبي العتاهية" وأجزاء من تاريخ دمشق لابن عساكر، و"ديوان أبي العتاهية" بشرح ابن السكيت. وما هي غير سنوات حتى أصبح الدكتور فيصل أمين عام مجمع اللغة العربية، وأستاذ كرسي للأدب بجامعة دمشق، وخلال هذه الفترة بدأت مؤلفاته تثري المكتبة العربية، وكان من أهمها: "مناهج الدراسات الأدبية، الصحافة الأدبية، نثر شوقي، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول: نشأتها، تطورها اللغوي والأدبي.

وكان كعادته يكتب بأسلوب ساحر، ويتخير عباراته بأناقة ويلوّن سطوره بصور جميلة، لم تُعرف إلا عند قلة من الأدباء كطه حسين، والذي كان أكثر أساتذته تأثيراً فيه. استمع إليه يحكي عن أسلوب أستاذه:

في أسلوب الدكتور طه حسين، على كل الوضوح الذي يتسم به، شيء من الغموض وشيء من إغماض يقصد إليه قصداً، ولعل سحر الأداء عنده يصرف القارئ عن الفكرة بتفاصيلها إلى الأسلوب الذي تعرض فهي هذه الفكرة فإذا هو مشدود إليها، لا من حيث مقدماتها وتفاصيلها وبراهينها بل من حيث نتائجها التي انتهت إليها.

واقرأ من بعد نصاً من مقدمته في تحقيقه لكتاب: "خريدة القصر وجريدة العصر" تجد أن التلميذ بلغ في تقليد أستاذه غاية يصعب فيها تمييز المقلّد من المقلّد

---

(١) عبقريات من بلادي: عبد الغني العطري.

يقول: "لست أزعم أني فعلت كل ما يستطاع فعله، أو كل ما أستطيع فعلـــه، فالـــذين يعانون من هذا العمل ويتمرسون به، والذين يقدّرونه ويحسنون تقديره، يـــدركون أن الأولى لا يقدر أن يقولها أحد مدى حياته، وأن الثانية لا سبيل إليها لأن ما يغمـــض عليك اليوم يتضح لك غداً، وما يستغلق في ساعة من ساعات الليل، ينفتح في ساعة من ساعات النهار، وما لا تسعفك به مناسبة أخرى، وما لا تراه في هذا الكتـــاب، أو تراه على وجه، قد تراه في كتاب آخر، وقد تراه على وجه ثان ... غيـــر أنـــك لا تملك أن تجعل وقتك كله، وعمرك كله وقفاً على كتاب".

لقد كان د. فيصل بحقّ، كاتباً ومفكّراً شُغل بالدقة ومخاطبة العقل، أجاد انتقـــاء الألفاظ وبناء الجمل، وسبك نثراً لطيفاً واضحاً فيه رصانة وانسجام، وغلـــب عليـــه صفاء اللغة المستخرجة من كتب التراث، ودراسات أعلام الفكر العربي الإســـلامي، وهو ما تجلى في تحقيقه لكتب التراث، الذي بلغ فيه منتهى الأمانة والإتقـــان ومـــن يُطلع على عمله في تاريخ "ابن عساكر" الذي تهيَّب كثير من فحول المحققين خوض غماره، وتحقيقه لديواني "النابغة الذبياني" و"أبي العتاهية"، يـــدرك أي جهـــد مُـــضنٍ بذل، وأي نتاج جليل أنجز، وأي صبر أوتي، وأي خدمة قومية سامية أدّى ... "لقـــد كنت – يقول د. فيصل: من ذلك في عمل شاق متصل، جمعت جزئياته وبنيتها مـــن كل مصدر، كما يجمع الأثري قطع بناء متناثرة ثم يحاول أن يردها إلى أصلها فـــي صبر ودأب، وكثير من شقاء"(١).

وكانت أمانة المحقق ومسؤولية العمل في كل خطوة نُصب عينيه، وكان ذلـــك: "يدفعني إلى ميادين مختلفة من التنقيب، كنت في بعضها كالذي يحـــاول أن يلـــتقط حجراً بعينه من بئر سمحة غزيرة، وكنت في بعضها كالـــذي لا يرضـــيه الـــضوء الضئيل بين يديه، فيحاول أن يخرج الفتيل بإصبعه، فتأخذ فيها النار، فلا هو أحيانـــاً

---

(١) شخصيات وصور أدبية: الدكتور إبراهيم الكيلاني.

أبقى على إصبعه، ولا هو إلى أحيان أخرى، أفاد ضوءاً جديداً[1].

استمرت رحلة المفكر د. شكري فيصل في عالم الفكر، نيّفاً وأربعين عاماً. تنقل فيها بين روائع التراث اللغوي العربي، قارئاً شغوفاً، ومحققاً أميناً، ومؤلفاً قديراً، وتتبّع ذخائرها حيثما استطاع، يزيح الغبار عن سطورها ليعيد إليها الألق والضوء، وعرفته منابر الثقافة في كل العواصم العربية، محاضراً مجدداً، ومشاركاً بالدراسات والبحوث المتميزة، وفي السنوات الأخيرة من عمره انتقال إلى المدينة المنورة، وعمل أستاذاً للأدب العربي في الجامعة الإسلامية، وظل مثابراً نشيطاً على العهد به، حتى انطوت الصفحة الأخيرة من عمره.

لكني اليوم، وبعد سنوات عديدة على رحيله، ما أزال أستعيد همسته الوادعة في أذني، وكفّه الحانية تشد على كفي، ونظرة عينيه الرهيفة تقول لي:

إن طريق الإبداع طويلة وشاقة، فلا تتعجل الوصول....

الهوامش:

١- مجلة مجمع اللغة العربية: إعداد مختلفة.

٢- عبقريات من بلادي: عبد الغني العطري.

٣- شخصيات وصور أدبية: الدكتور إبراهيم الكيلاني.

٤- شكري فيصل وصداقة خمسين عاماً د.عدنان العائدي.

---

(١) شكري فيصل وصداقة خمسين عاماً – د. عدنان العائدي.

الكلمة مسؤولية، والفكرة إيمان..

ومن السمات البارزة في منهج "شكري الفيصل" التربوي إحساسه العميق بمسؤولية الكلمة، إذ يعد ذلك أمانة في أعناق حملة الأقلام، وأن الغذاء الفكري الذي يقدمونه للناس ينبغي له أن يكون غنياً مستنداً إلى ثروة خلقية إذ يقول (هل يدرك كل الذين يقومون على مجلاتنا في الوطن العربي خطر الساحة التي يتقدمون للعمل فيها وضخامة الأثر الذي يخلفونه؟ أيدركون أنهم حين يتصدون لمثل هذا العمل الفكري الضخم إنما يتحكمون في غذاء الآلاف من الناس: غذائهم الفكري وأن في أعناقهم أمانة الوفاء لهذه الآلاف وإيثارهم بكل خيّر مفيد؟ أيفكر الذين يصدرون كثرة من المجلات عندنا في مدى ما يجب أن يتسلحوا به من غنى ثقافي وزاد فكري وثروة خلقية تتيح لهم أن يكونوا أهلاً لحمل هذه الأمانة الثقيلة).

وكثيراً ما كان يتألم "فيصل" من انحراف حملة الأقلام عن المسؤولية التي أنيطت بهم فيقول: (يسّاقط في أسماعنا الكثير من انحرافات بعض حملة الأقلام عن أمانة القلم الذي أقسم الله به).

لذا يدعو إلى الإيمان بالفكرة التي يطرحها صاحبها وإلى الصدق في تبنيها والدفاع عنها لأن في عدم الإيمان بها والدفاع عنها تجارة فكرية فيقول: (إن الفكرة لا تكون فكرة إلا حين تكون إيماناً بها أو في طريق الإيمان بكل ما يحمله لفظ الإيمان من قناعة داخلية واطمئنان نفسي ووثوق عقلي، والأفكار التي لا تكون موضوع إيمان أو قصد إيمان عن طريق عرضها ومناقشتها لا يجوز أن تطرح، إنها حين تكون ذاك تكون موضع تجارة، وليس أقسى من تجارة الأفكار، إنها الفتنة الكبرى التي تخرج بالناس عن محاور حياتهم إلى حياة من غير محاور، إلى حياة تنسخ الحياة في خيوطها الأصيلة لتنسج بدلاً منها خيوطاً موهومة أو كاذبة، إنها تخرج الناس إلى ما نصطلح عليه في مصطلحاتنا بالضلال).

وينطلق "فيصل" في أمانة العمل وأدائه على أحسن وجه وإتقانه من الحديث

النبوي الشريف (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عمل أن يتقنه)، وهكذا كان عمله في تحقيق بعض الجوانب من تراثنا يتسم بالدقة والإحساس العميق بالمسؤولية حيث يقول: (ومن هنا كان من الخير لمصلحة الدراسات نفسها، ولمصلحة تراثنا ذاته، أن نعنى بتقدمة نصوصه على خير ما يكون التقديم، وأن نخرجها على أكمل ما يكون الإخراج، صحة وضبطاً وشرحاً وتعليقاً وتمهيداً وتذليلاً، وتوقفاً عند كل ما يحسن التوقف عنده وإشارة إلى كل ما تجب الإشارة إليه).

وعندما نشر ديوان أبي العتاهية يذكر بتلك المسؤولية العلمية والأخلاقية فيقول: (أليس من الحق أن تكون إعادة نشر ديوان أبي العتاهية أول واجب العاملين في الدراسة الأدبية أينما كانوا استنقاذاً لسمعة هذا التراث أن يكون من بين الذين يعملون فيه من تهون عليهم كل القيم العلمية والأخلاقية يدوسونها من غير رادع ثم لا يتورعون؟!).

ويلتزم بالدعوة إلى الدقة والأناة والإحساس العميق بالمسؤولية قولاً وعملاً فها هو يقول في مقدمة تحقيق كتاب (الوافي بالوفيات):.. وبعد فقد مضيت في تحقيق هذا الجزء على النحو الذي مضت فيه الأجزاء الأخرى، غير أني أخذت نفسي مع الدارسين الذي يعملون بإشرافي في إعداد الرسائل الجامعية في الدارسات العليا على ترتيب المصادر في الحواشي ترتيباً زمنياً تراعى فيه سنوات وفيات المؤلفين، وقد آثرت ذلك هنا حتى لا أناقض بنفسي ما أدعو إليه الآخرين، ولعلي أصبت الدقة في تطبيق ذلك والكمال لله وحده).

وإذا كان من الاتجاهات التربوية الاتجاه نحو التعلم من أجل الإتقان فإن "فيصل" قد طبق هذا المبدأ التربوي في أبهى صوره إن في الكتب التي ألفها أو في المجلدات التي حققها.

الأخذ بالمنهج والشمولية:

يتميز منهج "شكري الفيصل" بالشمولية في النظر إلى القضايا ومعالجاتها، إذ أنه

لا ينظر إلى أي مسألة نظرة جزئية وإنما يتناول الكليات ويدعو إلى الوحدة، ففي رسالته التي قدمها لنيل درجة الماجستير بعنوان "مناهج الدراسة الأدبية" يدعو إلى تبني المنهج التكاملي في دراسة أدبنا العربي، وأن علينا ألا نقتصر على منهج دون غيره، وإذا كان بعض الدارسين يميلون إلى دراسة أدبنا العربي وفق العصور ويميل بعضهم إلى دراسته وفق الفنون، كما يميل بعضهم الثالث إلى دراسته وفق الأقاليم، فإن أستاذنا يدعو إلى الأخذ بهذه المواضيع جميعاً في إطار التكامل والوحدة.

وفي ندوة "اتحاد مجامع اللغة العربية في عمان" عام ١٩٧٨ التي عقدت لمعالجة موضوع "اللغة العربية خلال الربع الأخير من هذا القرن" يقول (يجب أن تنتهي الندوة من خلال التعدد إلى الوحدة أو ما يقترب من الوحدة، ومن خلال الأفكار الجزئية المتناثرة إلى فكرة كلية لها أولياتها وتسلسل أجزائها، ومن خلال العروض الخاصة التي تحددها ظروف البلد العربي الواحد إلى التصور المشترك بين مجموعة البلاد العربية، ومن المشاكل المتداخلة المعقدة إلى تصنيفها الذي يذهب بتداخلها، وبسيطها الذي يذهب بتعقيدها).

ومن يتتبع آثار "فيصل" يلق أن هذه النظرة الكلية المتكاملة لا تفارقه في جميع مراحل حياته وفي مختلف آثاره، ففي كتابه "في حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول" يرى (أن بعض المؤرخين ينظرون إلى حركة الفتح الإسلامي من نحو خاص ويلتزمون هذا النحو في التعليل لها ومناقشتها، وما من شيء أبعد عن الصواب من أن نلتزم في هذه الحركة الواسعة العريضة وجهاً واحداً، وما لم يفد المؤرخ من دراسته سعة الأفق والقدرة على الانفلات من تزمت التعليل الواحد فسيظل بعيداً عن المؤرخ الحق. إن النظرة المتكاملة وحدها كما يبدو لي هي التي تستطيع أن تلف حركة الفتح وأن تفسرها لأن هذه النظرة هي نظرة الإسلام نفسه إلى الحياة ، لأنها هي التي تدل عليها حوادث الفتح نفسها في أصولها وفروعها).

وعندما يتحدث عن دراسة أدب عصور الانحطاط الممتدة بين سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ وأوائل عصر النهضة يدعو إلى تبني النظرة الكلية في تلك الدراسة إذ يقول:

(كان إيماننا بأن العمل الأدبي نشراً أولاً ودراسة بعد ذلك لا يمكن أن يعتمد على الاتصال بالحياة الأدبية بمعناها الضيق فحسب، إيماناً تؤكده هذه الفترة بوجه خاص لأنها في نتاجها تمثل هذه الصلة بين الأدب العربي وبين كل فروع الثقافة التي كانت تحيا حوله، والتي كان يتنفس فيها تمثيلاً واضحاً، ففي توليد بعض المعاني وفي تلوين بعض الصور وفي استعمال بعض المصطلحات وفي تسرب بعض المفاهيم وفي الألغاز والأحاجي وفي تصوير العمل الفني وفي منحاه وفي صوغ بعض التراكيب وإقامة بعض الجمل على نحو ما دون نحو آخر. في هذا كله تلعب الحياة الثقافية التي تحيط بالحياة الأدبية دوراً كبيراً على حد تعبيرنا اليوم، وتترك على العمل الأدبي ظلاً واضحاً. ولذلك فنحن نزداد ثقة يوماً بعد يوم بأن خدمة هذا الأدب لا بد فيها من زاد ثقافي غني لا يتيح الفهم فحسب ولا التفسير فحسب، وإنما يتيح التعليل حيناً وإدراك الصلة بين مظاهر الحياة الذهنية وبين مظاهر الحياة الفنية حيناً آخر، وتكوين فكرة كلية عن الحياة الثقافية والجو الحضاري بوجه عام).

ومن هنا نجد أن الأديب الراحل يدعو في ندوة مناهج تدريس الأدب إلى الربط القوي بين النصوص الأدبية والنظريات، وإلى العناية بالنقد الأدبي وتاريخه وتقوية النزعة النقدية والوصل ما بين النقد الحديث والنقد القديم، والإفادة من الصلات ما بين الدراسات الأدبية والدراسات الإنسانية الأخرى مثل علم النفس وعلم الاجتماع، والنظر إلى الأدب العربي من خلال حركة الفكر والفلسفة والاهتمام بعلوم اللغة العربية.

وفي تحقيق ديوان النابغة يشير بوضوح إلى التكامل بين الدراسات اللغوية والأدبية إذ يقول: (تعودنا حين استوت دراسات النحو والصرف واللهجات والقراءات وما إليها من علوم العربية الأخرى أن نتعرفها على نحو يوشك أن يكون منحرفاً أو قريباً من الانحراف، فنحن نعلمها ونتعلمها على أنها دراسات منفصلة، ونظن أن بعضها مغاير لبعض، ولكنك لا تكاد تتعمق ما بينها حتى تجد أن لها نبعة أصلية تبدأ منها ومنطلقاً واحداً تتواثب منه قضاياها هو العناية بالقرآن الكريم ثم بالشعر الجاهلي

على أنه هو الطريق اللاحبة الواسعة الأصيلة لخدمة الكتاب الكريم.

ومن هنا كان الأصل المشترك لكل هذه الفروع والجزئيات، لهذه القضايا التي تتخذ مرة وجهة نحوية أو صرفية فتكون بحثاً في الصرف أو مسالة في النحو، وتتخذ وجهة لغوية فتكون بحثاً في اللغة أو اللهجات أو القراءات، وتتخذ وجهة بيانية فتكون بحثاً في المعاني أو البيان أو البديع على حين تكون كلها هي قضية هذه "العربية" التي نتمنى أن تعود في مناهج دراستها وفي الدراسات العليا خاصة إلى مثل التلاحم الذي كان لها والتواصل الذي كان فيما بينها، دفعاً لهذا التشقيق الذي تنسى معه الأصول، فتؤدي الغفلة عن الأصول إلى ابتسار الفهم وتجزئة المسألة ويسوق الابتسار إلى الغموض، وتؤدي التجزئة إلى مضاعفة الجهد على غير تساند وتواصل ووضوح).

وفي تحقيق ديوان أبي العتاهية يلتزم "فيصل" التكامل أيضاً في الربط بين أشعار الشاعر وأخباره معللاً ذلك قائلاً: (وما من حاجة إلى أن ذلك على أهمية الربط بين هذين: بين الأخبار وبين الأشعار في الخطوات الأساسية الأولى لإقامة الدراسة الأدبية، أعني في فهم النصوص واستكناه بواعثها، وتبين ما وراءها في حياة الشاعر وفي نفسه، ذلك أن بينهما دائماً شيئاً أصيلاً من تلازم، وشيئاً أصيلا من تكامل أحدهما يفسر الآخر ويعبر عنه ومن واحد منهما ننفذ إلى الآخر. إننا نستبطن الأثر الأدبي عن طريق الخبر الذي ابتعثه، ونسبر حقيقة الخبر من الكوى التي تتيحها دراسة النص. إن الأخبار والأشعار وجهان لحقيقة واحدة هي وجود هذا الشاعر في معناه المزدوج! من حيث هو إنسان يشاركنا أحداث الحياة وتجاربها، ومن حيث هو فنان ينفرد عنا بقدرته على الانفعال بها انفعالاً يقود إلى صياغتها صياغة متميزة والتعبير عنها تعبيراً فذاً.

ولعل السبيل الأمثل أن نحكم هذه الصلة بين شعر الشاعر وأخباره، وأن نشهد هذا التفاعل بينهما ليكون أحدهما شهادة على الآخر له وتثبتاً منه.

وإذا كانت الأمور تدرك بكلياتها وإن إدراك الكل يسبق إدراك الأجزاء كما يرى أصحاب نظرية الجشتالت في علم النفس، وكما أشار إليه العلامة ابن خلدون في مقدمته، فإن أستاذنا الراحل طبق المنهج الشمولي المتكامل ودعا إلى تبني النظرة

الكلية في معالجة القضايا، وحذر من النظر إلى الموضوعات من زاوية واحدة ناشداً الإحاطة بالكليات وسعة الثقافة في شؤون التحليل والتفسير والتعليل، حتى لا تأتي الحلول مبتسرة والتفسيرات قاصرة.

تكامل الخبرة واستمراريتها:

وهو مبدأ من المبادئ التربوية المعاصرة، فللخبرة جوانب ثلاثة: جانب معرفي وجانب وجداني ثم جانب أدائي، وأن ثمة تكاملاً بين هذه الجوانب. ومن هنا يدعو فيصل إلى التكامل بين جوانب الخبرة عندما يتحدث عن كليات الآداب في الوطن العربي فيقول: (وليس حقاً ما يبذل أحياناً من هيّن القول حين يزعم الزاعمون أننا في غير حاجة ماسة إلى كليات آداب أو إلى مثل هذه الكليات النظرية الأخرى التي تتجه إلى الدراسات الإنسانية، وتقتصر عليها، ذلك أن إيماننا بكليات الآداب لا يقل عن إيماننا بكليات العلوم، إنهما هاتان الكليتان أو هذان النمطان من الدراسة والبحث ليسا متناقضين أو متعارضين وإنما هما حلقة واحدة متكاملة يدور فيها الوجود الإنساني عقلاً وروحاً، حساً ووجداناً، واقعاً وذاتاً، إنهما معاً وجود مفروض في كل حركة أو نهضة، وعلى قدر ما يكون من حاجة هذه الشعوب إلى الدراسة الإنسانية إدراكاً للحقائق الكبرى الخالدة التي تهتدي بها البشرية والتي يهتدي بها الأفراد على حد سواء!!

وحتى يتيسر للمربين بناء الخبرة كان لا بد من إيجاد تنسيق بين العوامل التي يتعرض لها الناشئ ضمن جدران المدارس والمعاهد والجامعات وما يتعرض لها خارج هذه الجدر، وذلك حتى يكون تكامل في بناء الخبرة وعدم نقض لبعض جوانبها. إذ كثيراً ما نشكو المثبطات التي تعمل على هدم الخبرة التي نبنيها في المدارس عندما نعلم اللغة العربية في مراحل التعليم العام، وقد عرض "فيصل" هذه المشكلة داعياً على تكامل الخبرة قائلاً: (أننا في مراحل التعليم العام الثلاث: الابتدائية والإعدادية والثانوية نرعى تعليم العربية ونتعهدها ونسهر عليها ونجهد في أن نطابق بينها وبين

الألسنة. ولكن جهد وزارات التربية كلها وملايين المعلمين والمدرسين والأساتذة تنقض نقضاً في المؤسسات الأخرى، مثل الصحافة حيناً والإذاعات المرئية والمسموعة حيناً آخر، وهي هذه الوسائل القوية الملحة الدؤوب التي تهاجمك ليل نهار حتى تسكن أذنيك وحتى تحملك على الإنصات إليها، إن كان هناك سبيل إلى أن يكون الإنصات أمراً ندفع إليه ونحمل عليه. هذه الوسائل تحللت من كثير من ضوابط العربية، إنها تناقض عمل التعلم وتنقضه. ويبدو دائماً هذا المشهد المبكي. وزارات التربية تملأ القرية من فوق ومؤسسات أخرى تحدث في هذه القرية ما استطاعت من ثقوب. أولئك يبنون السفينة أو يحاولون بناءها، وهؤلاء يخرقون أطرافاً منها دون أن يجدوا من يأخذ على أيديهم، ويعود الجهد العربي الضائع على نحو ما يبدو في كثير من الساحات الأخرى حقيقة ماثلة، ويوشك أن ينتهي المرء إلى أن كثيراً مما تقوله الصحافة وكثيراً مما تذيعه الإذاعة وكثرة فاحشة مما يقوله المسرح إنما هو نقيض الذي تقيمه المدرسة).

وإذا كان الأديب الراحل قد دعا إلى التكامل في بناء الخبرة، فإنه في الوقت نفسه دعا إلى استمراريتها. فها هو ذا يشير إلى الربط بين الماضي والحاضر في تدريس الأدب قائلاً: (إن دراسة تاريخ الأدب العربي هي بطبيعتها بجانب أصيل من طبيعتها دراسة تطورية، بمعنى أنها دراسة تضرب في اتجاهين: معرفة القديم الذي كان ومعرفة الجديد الذي نبع، ثم ماذا في هذا القديم من تحويل له أو خروج عن أصوله؟ وماذا في هذا الجديد من آثار القديم وسيطرته وأبحاثه وعمله في تكوين هذا الجديد على النحو الذي صار إليه دون غيره من الأنحاء التي كان يمكن أن يؤول إليها. إن هاتين الوجهتين المتكاملتين وإحداهما ليست إلا الوجه الثاني للأخرى هي حقيقة الدراسة الأدبية العربية، ومع ذلك فلا يزال هناك كثرة بالغة من الدارسين يتناولون العصور التالية دون أن تكون معرفتهم بالعصور الأولى مجزية في أن تضمن لهم القدر الذي يتمنون لأبحاثهم من الأصالة والعمق. إن ثقافتهم العامة ودراستهم الجانبية قد تكون من الغزارة على حد يضمن لهم أن يكتشفوا عناصر الجدة التي جاءت أثراً

للتفاعلات العميقة بين جوانب الحياة، وأن يفسروا بعض الاتجاهات، ولكن دراساتهم تظل تحتاج إلى هذا الخيط الآخر، أو إلى هذا الخيط الآخر الذي يربط بين الثمرة القديمة والثمرة الجديدة، بين الغصن الناشئ والنسغ الممتد من أعماق الجذر إلى قلب الساق لينفذ ويعد هذا الغصن الناشئ، هذا الخيط الذي يرصد تحول الثمرة القديمة حين تندفن في الأرض غذاء للثمرة الجديدة وجزءاً منها مستكناً فيها).

ويقول عن تحقيق ديوان النابغة: (هذا عمل أردت منه أن أصل بين تراثنا وواقعنا بعروة جديدة وثقى، وفي عقلي وقلبي دائماً أن استمرار الاتصال بين التراث والواقع، بين الماضي والحاضر هو الذي يعطي وجودنا الإنساني لا معناه الأصيل المتميز فحسب بل أنه ليهبه كذلك وفوق ذلك، قدرة لا تعد لها قدرة أخرى على تجاوز كل عقبة من هذه العقبات التي تنتشر على طريقنا، وكأنها نباتات سامة).

ويعزز هذا الاتجاه في مقالاته إذ يقول: (إن معرفتها بالماضي التي تمكن لنفوسنا في نفوسنا، وإلا فليس هناك نحو حياة الفرد وفي حياة الجماعة أشنع من هذا الضلال: أن نضل أنفسنا فلا نجدها، وأن ننشدها فلا نقع عليها، أولا نقع عليها إلا من خلال هذه الصورة المشوهة، التي تزرع في أذهاننا وقلوبنا زرعاً هدفه أن تخلق في تذوقنا هذه المرارة لهذا التاريخ وفي أفئدتنا هذا النفور منه، وفي طباعنا هذه الكراهية له. وفي وجودنا الحاضر هذا التنافر منه حتى لا يكون لنا لا وجود قديم نستمد منه، ولا وجود جديد نطمئن له، ولا وجود مستقبل نتطلع إليه، وحتى لا يكون لنا مثل هذه الدوافع والحوافز التي لا بد منها في حياة الشعوب كما أنه لا بد منها في حياة الأفراد.

إن هذا هو الغنى الكبير الذي نقصد إليه حين نتحدث عن التراث وعن إحياء التراث وعن النظر في هذا التراث وعن نشدان الأصالة من خلال هذا التراث.

إننا لا نريد التراث لا مشغلة عن الحاضر ولا ملهاة عنه، ولكننا نريده فهماً لجذور هذا الحاضر، وتغذية له قدر ما تكون التغذية مفيدة، ونريده نفياً للشبهات التي تحتاط به لا تأكيداً لهذه الشبهات، كما نريده معاونة على رسم المستقبل، نرسمه نحن ولا يُرسم لنا، ونحمي براعمه قبل أن تقتل هذه البراعم رياح جليدية أو رياح حارة من

هنا وهناك.

إن اهتمامنا بالتراث ليس زينة من الزين، ولا زخرفة من الزخرف، ولكنه وجود من الوجود، ونقاط خلفية للوجود المتقدم).

ويعود ليؤكد هذا المنحى في مقالة أخرى حيث يقول (البحث في حاضر اللغة العربية أو في ماضيها أو في مستقبلها بحث متكامل الجوانب، إن اهتمامنا بالماضي منها هو نوع من المعرفة ومن الإحياء ومن رعاية الجذور والاهتمام بها حتى تظل طريقاً إلى النمو ومن تتبع السيرة ومن مراقبة التطور، وإن اهتمامنا بحاضرنا هو اهتمام بالواقع الذي نحيا فيه ومعاناة كاملة لأشيائه وتمرس بالأسماء والمسميات ونهوض بالأمانة الصعبة التي ألقت بها الأقدار على هذا الجيل منذ دفعت به إلى صميم الحضارة المعاصرة دون مشاركة له فيها.

وإن اهتمامنا بالمستقبل هو استكمال لهذا الاهتمام بالماضي والحاضر، لأن إيماننا بمستقبلها هو جزء من عقيدتنا، ولعله أن يكون أصل الأجزاء. فلغتنا يجب أن تستوعب هذين الجانبين الرئيسيين من حياتنا: حياتنا الاجتماعية من طرف وأفكارنا ومثلنا وتطلعاتنا وتنظيم هذه الأفكار وصياغة هذه التطلعات وتحقيق هذه المثل من طرف آخر. ولهذا يبدو الحديث من جانب ما من ماضي هذه اللغة أو حاضرها أو مستقبلها حديثاً متكاملاً يقود بعضه إلى بعض، بل لعلّه يقود إلى شيء كثير من التداخل، إن الجذر الضارب في أعماق الأرض ليس بعيداً عن الثمرة التي تتدلى من الغصن، والفرع المنبثق عن الساق هو ساق أخرى، وبين ماضي اللغة وحاضرها ومستقبلها مثل ما بين الجذور وبين الثمرة من صلات القربى والنسب).

وطبق شكري الفيصل هذا الاتجاه منذ بدايات عمله في تأليف الكتب المدرسية، ففي كتابه (الفنون الأدبية) وهو كتاب مدرسي يشتمل على نصوص مختارة من الأدب العربي القديم والحديث كان قد ألفه عام ١٩٤٦ لتلاميذ السنة الثالثة من المدارس المتوسطة يقول فيه (وجهدت أن تكون هذه السنة الدراسية موصولة الحلقات بما قبلها وما بعدها، موصولة بما قبلها في انتهاج تصنيف الفنون الأدبية وفي مدّ جوانب هذا

التصنيف والتوسعة في أطرافه، بحيث تكون الفنون أكثر استيفاء وأوسع شمولاً حتى يغدو الطالب قادراً على الإحاطة والتمييز بينها والتعرف على خصائصها، وموصولة بما بعدها في محاولة التمهيد للدراسة الأدبية وحل النصوص والتعمق فيها).

وإذا كان فيصل قد حمل لواء الخبرة المستمرة داعياً لها ومطبقاً إياها وهو مبدأ تربوي تطمح التربية المعاصرة إلى تحقيقه في تبنيها التعلم الذاتي والتربية المستمرة، فإنه ليتألم من عزوف مثقفينا عن متابعة الاطلاع المستمر إذ يقول: (إن من أبرز نواحي النقص في حياتنا الثقافية أن مثقفينا يقطعون ما بينهم وبين ثقافتهم الجسور حين يعبرون إلى الحياة العامة، إنهم يلاحقون هذه الثقافة عن طريق المجلة أو عن طريق الكتاب مثلاً .. (لذلك سرعان ما يتوقفون عن النمو في هذا النحو، ثم تذوي هذه النبتة في نفوسهم، ويضمر وجودهم الثقافي، فإذا هم أقرب إلى الجهالة منهم إلى العلم، وإذا هذه الثقافة التي اكتسبوها أول العهد لا تكاد أمام التقدم المستمر للفكر أن تفي بحاجتهم وتنهض بمتطلبات الحياة، فيتقهقرون ويتأخرون من حيث لا يشعرون، لأن التوقف في الحياة التي تغذ السير معناه العلمي التأخر والتقهقر).

وما أسمى هذه الدعوة التي يدعو إليها الأديب الراحل في هذا العصر المتطور والمتوثب، عصر التفجر المعرفي والانتشار الثقافي الخاطف والمواصلات السريعة، عصر العلم والتكنولوجيا، وأن عدم مواكبة روح هذا العصر وطبيعته معناه التخلف والتقهقر.

وحدة اللغة:

يعد علماء اللغة المعاصرون "الألسنيون" اللغة نظاماً متكاملاً بحيث أن أي جانب من جوانبها يؤثر في غيره ويتأثر به. كما أن المربين ينظرون إلى اكتساب اللغة على أنه وحدة متكاملة، وأن المهارات اللغوية كل متكامل وأن فروع الأدب العربي كلها ليست إلا وسائل في خدمة التوصيل والتعبير، وأنه إذا نشدنا تعلم اللغة علينا أن ننظر إلى وحدتها، وعلى هذا النحو سار فيصل، فقد أدرك بحسه التربوي العميق وبصيرته

النافذة أن تعليم اللغة من خلال المطالعة يتطلب الالتفات إلى القواعد والتراكيب والمعاني والتربية الجمالية فها هو ذا يقول في كتاب "الفنون الأدبية": (كان لزاماً أن أجعل من بعض المناسبات في دروس النصوص الأدبية سبيلاً لتذكر القواعد الماضية واسترجاعها والإفادة من تطبيقاتها).

ويود أن نجعل الألفة بين الطالب والمعجم بحثاً عن المعاني وتوخياً لزيادة الثروة اللفظية اللغوية فيقول: (ونحن نردد دوماً ذكر هذه الهوة ليعود إلى المعاجم، ولكن بعضاً آخر منها ليعود إلى عدم التقرب منها، والتمرس بها، حتى يوشك أن يجوز الطالب دراسته الثانوية لا يفتح معجماً أو لا يدري كيف يفتحه، لكان لا مناص إذن من تكليف الطالب ببعض الأسئلة التي تتلافى هذا النقص وتستأصل هذه المعايب).

ويشير أيضاً إلى تحبيب الطالب بالمطالعة "القراءة" من خلال النصوص التي يتفاعل معها إذ يقول: (وليس من غرض كتاب ما من كتب المطالعة أن يستقطب كل اهتمام الطالب وكل هواه في القراءة والمطالعة، وإنما هو سبيل لإثارته وتشقيق ميوله وتنمية هذه الميول، وحين لا يفعل الطالب شيئاً إلا أنه يعنى بالكتاب الذي بين يديه يكون قد وأد ميله إلى القراءة وقتله قتلاً، وما أشد ما نشكو انصراف الطلاب عن المطالعة ورغبتهم عن المكتبة، وهذه الصلة المقطوعة بينهم وبين دور الكتب، وذلك كله يفسر حرصي على إرشاد الطالب إلى نصوص أخرى مماثلة أو مناسبة في ختام الأسئلة، وأنا أؤمن أن الاحتفال بها والغاية منها ستكون بعيدة الأثر عظيمة الفائدة، وستتلافى كل هذا الذي نألم له عند التلاميذ من ضيق الأفق والركون إلى هذه الدوائر الضيقة الهادئة التي يحددها الكتاب والدرس).

ولا ينسى أخيراً أن يشير إلى التعبير الذي كان يسمى في تلك الفترة إنشاء فيقول: (ودروس المطالعة مثل دروس اللغة الأخرى تستهدف كلها البيان صحة أولاً وجمالاً ثانياً، ولذلك استثرت انتباه الطالب من هذه الناحية بهذا السؤال الخاص عن الإنشاء، واقترحت فيه موضوعاً يكتبه، وبينه وبين الموضوع الذي يقرأه صلة واشجة ونسب قريب.



عمر رضا كحالة:

باحث موسوعي أضاء كنوز التراث العربي الإسلامي

يحتاج العمل الموسوعي الضخم إلى مؤسسات فكرية، تجمع النخبة من الأدباء والعلماء المتخصصين في شتى مجالات المعرفة، وتوفر لهم المراجع والمصادر، وتدعمهم وتذلّل أمامهم ما يواجههم من مصاعب ومشكلات، بالإمكانيات المادية الكبيرة ليأتي العمل كاملاً، ومحققاً للهدف البليغ المنشود.

ويغدو الأمر مثيراً للدهشة ومدعاة للإعجاب في آن معاً، حين يتصدى مفكر بمفرده للقيام بعمل مؤسسة كاملة، ويأخذ على عاتقه مهمة التحقيق والبحث في المصادر، والتصحيح والتأليف ليخرج بعدها بمؤلفات راقية في مجلدات بالعشرات، تسد فراغاً كبيراً في مكتبة الفكر والثقافة، وتلبي حاجات الباحثين المتعطشين إلى المعلومة الصحيحة والخبر الدقيق، وهذا ما فعله المؤرخ المتميز الراحل "عمر رضا كحالة" خلال مسيرة دائبة، تواصلت لأكثر من نصف قرن خمسون سنة بأكملها والرجل ساهر متعبد في محراب الفكر، بذهن متفتح ورؤية صافية، ومنكب على المخطوطات الفريدة يعطي ذوب عينيه للحروف والكلمات، ويميّز وينتقي، ثم يصبّ ذلك كله في قالب جديد من العبارة المحكمة، والديباجة المشرقة، والسبك الأنيق، لتكون المحصلة سبعين مجلداً فريداً، وثقّ فيها لأعلام المؤلفين، ولقبائل العرب، وأوائل النساء، والحضارة العربية الإسلامية، وعلوم اللغة العربية، والدين، والتربية، والتعليم، والفنون الجميلة، والدراسات الاجتماعية، وعلوم الفلسفة.

أخرج "كحالة" هذه الأعمال المتميزة بروح تواضع عالية، وإيمان صادق، لم تثن عزيمته مشقة البحث وعناء التنقيب، ولا أوهن نفسه طول السهر وجهد العمل الطويل، يذكر الكاتب "أحمد شكري" أن "عمر كحالة" قضى أكثر من نصف قرن من الزمن في جمع خامات التاريخ العربي من أفضل مصادرها، ليحوّلها إلى

معارف منسّقة ومنظمة ومدروسة زوّدت المكتبة العربية بمجموعة من المؤلفات الجادة المتسمة بالدقة والأمانة، وتم ذلك في مرحلة صعبة، إذ كانت أحوال الناس ترزح تحت عوامل الضيق والعسر، وانعدام الحوافز، وضعف الإمكانات، إضافة إلى ظروف الكفاح الوطني، وعدم الاستقرار، مما وقف حائلاً دون انتعاش حركة التأليف والنشر، لكن "كحالة" وأصل طريقه بتصميم ودأب، وتمكّن من إنتاج عمل علمي منظم، جاعلاً من البحث عن التاريخ وصياغة حقائقه ومعطياته، هدف العمر كله.

ولد عمر كحالة بدمشق عام ١٩٠٦، في بيت عريق اشتهر بعض أفراده في مجالات العلم والتجارة، وقد حالت الأوضاع السيئة التي عاشها الوطن العربي إبان فترة الحكم العثماني، دون تمكنه من الحصول على فرصة التعليم الحديث، وإن كان قد استطاع تجاوز المرحلة الابتدائية، وسنح له العمل عام ١٩٣٠ بوظيفة ناسخ مؤقت بدار الكتب الظاهرية، وأتاح له تواجده وسط المخطوطات والمؤلفات أن ينهل من معينها بشغف وتفهّم، وبدأ يستوعب بذكاء تلك الثروة القيمة من التراث العلمي الخالد، ليباشر تأليف الكتب وإصدارها في وقت مبكر من حياته، وكانت البداية في ذلك العام، مؤلفه المعنون: "أفريقية الغربية البريطانية" والذي شرح فيه ظروف تلك المنطقة من صفحات مذكراته التي دوّنها خلال عمله مع أسرته لبعض الوقت فيها، وتوالت بعد ذلك مؤلفاته الإسلامية في عدة أجزاء، وتولى في العام التالي أمانة المكتبة الظاهرية، وباشر في تلك الفترة بإخراج مؤلّفه الشهير "معجم المؤلفين" الذي صدر في أربعة عشر جزءاً، ذكر في مقدمته: إنه معجم لمصنّفي الكتب العربية من عرب وعجم، منذ بدء تدوين الكتب حتى العصر الحاضر، وألحق بهم كل من كان شاعراً أو روائياً، مع تثبيت تواريخ ولاداتهم ووفاتهم، ونسب كل منهم وكنيته واختصاصه ولمحة عن عصره، وقد أصبح ذلك المؤلف نادراً ومن الصعب الحصول عليه اليوم.

مع بداية العام ١٩٤٠ نشر "عمر كحالة" مؤلفه المتميز "أعلام النساء في

عالمي العرب والإسلام" في ثلاثة أجزاء، وأتبعه عام ١٩٤٥ بكتاب: "جغرافية شبه جزيرة العرب" وفي ذلك العام أصبح مديراً لدار الكتب الظاهرية، فشغله العمل فيها عن التحقيق والتأليف لعدة سنوات، ولكنه ما لبث أن واصل مسيرته الإبداعية في السبعينات حين أصدر عام ١٩٧١ كتاب "اللغة العربية وعلومها" وشهد العام التالي ١٩٧٢ أغزر أعماله الفكرية حيث نشر كتبه: الأدب العربي في الجاهلية والإسلام الألفاظ العربية والموضوعة، التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية، العلوم البحتة والإسلام الألفاظ العربية والموضوعة، التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية، العلوم البحتة في العصور الإسلامية، الفلسفة الإسلامية وملحقاتها، الفنون الجميلة في العصور الإسلامية". وناف عدد إصداراته في الأعوام التالية ما بين ١٩٧٣ و١٩٨٠، على أربعة عشر مؤلفاً في الدراسات الاجتماعية وعلوم الدين الإسلامي والتربية والتعليم، ولكن أبرزها وأكثرها تميزاً كان معجم قبائل العرب القديمة والحديثة"، فإذا أضفنا إلى هذا كله نتاجه الثري من الأبحاث الاجتماعية الكثيرة، وفهارس المجمع العلمي العربي بدمشق في عدة أجزاء، أدركنا ما حفلت به مسيرة هذا الباحث الموسوعي من إبداع، وما قدمه للتراث العربي من خدمات جليلة، وكل ذلك في تواضع جم، ونفس راضية، مكتفياً بعبارته: "لو أوقفت عشرات أضعاف العمر الذي قُسم لي في هذه الدنيا على الدراسات والبحوث، ما تسنى لي أن أقدم أكثر من نقطة في بحر المعارف العربية والإسلامية التي خلّفها لنا الأسلاف، لنحفظها وندرسها وننقلها للأجيال التالية:

في أوائل عام ١٩٨٣ كرّمت الدولة الباحث المحقق "عمر رضا كحالة" في حفل مشهود، ورصّع صدره بوسام الاستحقاق من الدرجة الأولى الذي منحه له الرئيس الراحل عربون تقدير لرائد قدير من رواد البحث الموسوعي، وتحية وفاء لمؤرخ نذر عمره للتوثيق والتحقيق وأثرى المكتبة العربية بأكثر من سبعين مجلداً، هدت الباحثين إلى كنوز التراث العلمي العربي، ووضعت بين أيديهم مراجع موثوقة في جلّ المعارف الإنسانية.

رحل "عمر رضا كحالة" في تشرين الثاني عام ١٩٨٧، وكان في الثمانين من عمره، وبقي اسمه متألقاً في سجل الخالدين، مع ابن عساكر والبستاني ووجدي والزركلي، وكوكبة الموسوعيين المجيدين الذين حموا تراثنا الفكري وأناروا للأجيال للسير في طريق الحضارة الإنسانية.

المصادر:

- التراث كان عمل حياتهم: أحمد شكري.
- مؤلف المعاجم الذي رحل: جان الكسان.
- مجلة المجمع العلمي العربي.



د. صلاح الدين المنجد:

مؤرخ ومحقق من طراز خاص: رؤية واضحة، ومنهج متميّز

يعد الدكتور صلاح الدين المنجد علماً من أعلام العروبة والإسلام في القرن العشرين، وواحداً أصحاب الجهود الرائعة في تنشئة جيل من الأساتذة والباحثين، ومرشداً في مجال خدمة التراث الإسلامي، أثرى المكتبة العربية بأكثر من خمسين كتاباً محققاً، في مسيرة عمل دؤوب طوال أكثر من نصف قرن .. وهي اليوم مراجع أمينة يعود إليها الباحثون والمهتمون بالتراث، فتعرفهم إلى وجوهه المضيئة، تمدهم بالمعلومات المفيدة.

ولد الدكتور المنجد عام ١٩١٩ في حي الجسر الأبيض بدمشق، ونشأ في أسرة صلاح وعلم، وكان أبوه شيخاً وقوراً مهتماً بالفكر والعلم، ظهرت عليه امارات النبوغ في حداثته المبكرة، حين طالع كتب التراث العربي، وتأمل في سرد الأخبار فيها، واستطاع أن يتجاوز مجرد السرد وجملة الأخبار إلى استخلاص ألواح مسرحية بديعة، فألفّ ونشر وهو في العشرينات من عمره كتيباً لطيفاً سمّاه (ابليس يغنّي) عام ١٩٤٣، كما نشر في هذا المجال كتباً جذابة مثل: (جمال المرأة عند العرب) و(الحياة الجنسية عند العرب) و(مؤلفات الحب عند العرب).

عين بعد تخرجه من معهد المعلمين، معلماً في مدارس المدينة، ثم نقل إلى دائرة الآثار وكانت أيامها ملحقة بالمجمع العلمي السوري، وأصدر في فترة مبكرة كتاباً قيماً تضمن معلومات واسعة عن دمشق القديمة (أسوارها، أبراجها، أبوابها) إضافة إلى كتاب أدبي عنوانه: (إبليس يغنّي).

أوفد عام ١٩٥٢ إلى فرنسا لدراسة "علم الوثائق"، وانصب اهتمامه على دراسة المخطوطات التي وجد منها ثروة في المكتبة الوطنية بباريس، فانكب عليها،

وأفاد منها ، وكان يزود وزارة التربية بدمشق بما يتحصل له منها، وواصل هذه الدراسة لمدة ثلاث سنوات حصل بعدها على شهادة الدكتوراة.

انتقل الدكتور المنجد إلى مصر حيث عين مديراً لمعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية، وقد استطاع أن ينهض بمسؤوليات العمل الكبير في المعهد، وترك فيه بصمات تشهد له بالإخلاص والوفاء.

انتبه المنجد في أول عهده كباحث في علم الاجتماع، لأحوال الطبقات الاجتماعية، ولاسيما الطبقتين العليا المترفة، والسفلى الفقيرة البائسة، وعمد إلى عرض صفاتهما وخصائصهما وطراز حياتهما في حاضرتين مشهوريتن إحداهما قديمة: بغداد ، وثانيهما حديثة وهي: باريس، وذلك في كتابه (الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس) وكان عرضه لحياة الترف والبؤس يدفع لتعميم تلك الصفات تقريباً، مع اختلاف الزمان وتباين الملابسات والظروف على جميع الحواضر الكبرى في العالم، فكانت بحوث المنجد وأعماله في تحقيق ذخائر التراث ونشرها، ومضات نور في ليل مظلم.

الدكتور المنجد باحث موسوعي في عصر انعدمت فيه الصفة الموسوعية أو كادت، نتيجة تضخم حجم المعرفة وتنوعها وتشابكها، فقد كتب في التاريخ عن الاستشراق والمستشرقين، ونشر أعمالاً بيبلوغرافية وفهارس للمخطوطات، ومن أبرز أعماله في هذا المجال: (أمثال المرأة عند العرب)، (الحوادث الكبرى في عصر بني أمية)، (أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب)، (معجم الخطاطين والنساخين والمصورين والمزوقين في الإسلام)، وألف في السياسة: (أعمدة النكبة) و(أسباب هزيمة حزيران ١٩٦٧).

من أهم المؤلفات التي عمل على تحقيقها (المختار من مخطوطات إيران وميونخ وتونس والاتحاد السوفياتي)، (مقدمة تاريخ ابن عساكر)، (الأئمة الإثنا عشر لابن طولون)، (أمراء دمشق للصفدي)، (الباشات والقضاة لابن جمعة المقار)، (ذيل مشتبه النسبة لابن رافع)، (مقدمة سير أعلام النبلاء)، (فضائل الشام

للربعي)، (مختصر تنبيه الطالب للعلموي)، (مناقب الشيخ الأكبر ابن عربي للقاري)، (مادة ابن طولون في دائرة المعارف للبستاني)، (نوادر المخطوطات في المغرب وطهران)، (أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب)، (خطط دمشق)، (سيرة تقي الدين بن تيمية عند المؤرخين).

ومن آثاره: (معجم المخطوطات المطبوعة)، (فهرس مخطوطات الزيتونة بتونس)، (المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة من القرن الثالث إلى نهاية القرن العاشر)، (المؤرخون الدمشقيون في المعهد العثماني)، (معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة).

يتميز "المنجد" كذلك في فن كتابة المقال التاريخي، وهو ما يتصل بكتابته للتاريخ الإسلامي الاجتماعي، وذلك في اثنين من أهم أبوابه: التراجم وتاريخ المدن في شكل مقالات متميزة بوحدة الموضوع في إطار كل مجلد مستقل، وقد درس المجتمعات الإسلامية وإنتاجها الثقافي متقيداً بالمنهج الذي تخصص فيه، وهو تحقيق ودراسة مخطوطات التراث الإسلامي، وقادته خبراته في هذا المجال إلى تسجيل ملاحظاته في شكل مقالات موجزة، تتسم بدقة الملاحظة عن مظاهر حضارية واجتماعية مختلفة، متعلقة بسير كبار المؤلفين والمدن الإسلامية ومظاهر الحياة الشعبية وحياة القصور، ويعتبر "المنجد" في هذا الموضوع مؤرخاً من طراز خاص له رؤيته وفكره الخاص، إضافة إلى منهجه المتميز .. ولهذا كانت كتاباته عظيمة القيمة ليس على صعيد الشكل والمنهج، وإنما على صعيد المضمون والمادة المعرفية الغنية بمعلومات وأفكار، مثلت وجوداً مستقلاً وموازياً لعمله في التحقيق والمقارنة والترجيح، كما أن مادة "المنجد" المتوافرة اليوم تصلح للاستخدام في مزيد من الدراسات المستقبلية.

إن الكتابة عن الباحث المحقق الدكتور "صلاح الدين المنجد" تشبه الخوض في أعالي البحار، لا يجرؤ عليه إلا من يجيد السباحة حتى لا يجرفه التيار ويبتلعه الماء.

لقد أغنى المكتبة العربية بدراساته القيمة، ووضع بين أيدي قرائه مجموعة مؤلفات وأبحاث تناولت اللغة العربية والتاريخ العربي الإسلامي، تاريخ المدن، تحقيق المخطوطات، تراجم الأعيان، وكتب الدواوين، وقد شكلت بمجموعها تصانيف معرفية أثرت الفكر العربي، وأثرت ثقافته الأدبية والتاريخية.

تراثنا المخطوط ينبوع الثقافة الإسلامية وصورة الحضارة العربية

ما زال تراثنا العربي والإسلامي المخطوط قضية قابلة للطرح والمناقشة في كل وقت .. فهي قضية قديمة لكنها لا تموت بالتقادم ... وهي جديدة لأنها تتجدد مع طرح أية قضية حضارية .. وفكرية معاصرة، وإذا كان الأجداد قد ذهبوا فإنهم خلّفوا لنا ما يجعل ذكراهم عطراً نقياً لكل الأزمنة .. والأمكنة.

لقد حفظ أولئك الصفوة من العلماء والأدباء والفلاسفة، والنابهين من خلال هذه المخطوطات، روائع نتاج العقل العربي الإسلامي في عصور كان فيها الظلام يسود في أوروبا وغيرها من الدول التي تتصدر واجهة الحضارة والمدنية الحديثة.

يقول د. المنجد: (المخطوطات العربية هي الينبوع الأول لمعرفة الثقافة الإسلامية العربية في مختلف ميادينها، وهي المرآة التي تعكس صورة الحضارة العربية بأجلى مظاهرها، فلا يمكن معرفة هذه الثقافة حق المعرفة، ولا إبراز الصورة الواضحة لتلك الحضارة إذا لم نرجع إلى هذا التراث العربي القديم المخطوط.

إن عدم الرجوع إلى هذا التراث جعل كثيراً من الدراسات الحديثة عن لغتنا وثقافتنا وتاريخنا ناقصاً أو سطحياً، لأن مؤلفيها لم يرجعوا إلى الينبوع الأول ويعبوا منه فلم يأتوا بجديد، بل نقل بعضهم عن بعض، وهناك جوانب كثيرة من حضارتنا ما تزال مجهولة، لم يسلط عليها النور، ولا سبيل إلى إتمام هذه الدراسات أو جلاء الكثير من الحقائق الحضارية الإسلامية إلا بالعودة إلى المخطوطات، والتزود منها قبل كل شيء، والعالم الحق في رأيي هو الذي يعرف المخطوطات وأماكنها ويرجع في أبحاثه إليها).

- **ولكن الكثير من المخطوطات قد طبع والباحثون يرجعون إليه أفلا يكفي؟**

(إن ما طبع من التراث العربي الموجود في العالم عدد ضئيل جداً، يقدرون أن عدد المخطوطات العربية في العالم اليوم بثلاثة ملايين مخطوط، ولم يطبع حتى الآن نصف مليون منها، فتصور كم يمكن أن تمدنا الملايين الأخرى بمعارف جديدة نحتاج إليه؟).

- **وماذا عن مراكز تجمع هذه الملايين من المخطوطات ؟**

(هذا السؤال يحتاج إلى كتاب ، وقد ألقيت في جامعة الرياض، وجامعة الإمام محمد بن سعود، محاضرات عن هذا الموضوع ويمكن الإجابة بإيجاز أن المخطوطات العربية موجودة في كل بلد عربي وإسلامي تقريباً، من المحيط الأطلسي إلى الهند .. فنحن نجدها في مالي وموريتانيا والمغرب الأقصى، والجزائر وتونس وليبيا والسودان والصومال ونجدها في اليمن وحضرموت وعمان وقطر والكويت والسعودية، وفلسطين وسورية ولبنان وتركيا وإيران، وأفغانستان وباكستان والهند، ولا يكاد يخلو بلد أوروبي منها كإسبانية وفرنسا وإيطاليا ويوغوسلافيا، والإتحاد السوفياتي والسويد وهولندا وسويسرا وانكلترة وإرلندة ، كما أن في الولايات المتحدة مجموعات كبيرة منها).

وتختلف هذه المجموعات في قيمتها وعددها وقد زرت هذه الأماكن واطلعت على ما فيها من مخطوطات.

أما أعظم مراكز هذه المخطوطات فهي:

في الشرق أعظم مركز هو تركيا. وفي أوروبا أعظم مركز هو ألمانيا. وفي الولايات المتحدة الأمريكية جامعة برنستون.

- **هل هناك عناية بهذه المخطوطات .. وهل تمت فهرستها بصورة تساعد على الاستفادة منها؟**

(من المؤلم أن كثيراً من المخطوطات العربية الموجودة في العالمين الإسلامي والعربي مازال ينقصها ما يجب من العناية والحفظ، كما أن عدداً كبيراً منها لم يفهرس حتى الآن، وقد نتج عن إهمال هذه المخطوطات في بعض البلدان تلفها أو ضياعها أو انتقالها إلى بلاد أخرى، فما زلنا لا نقدر الكتاب المخطوط حق قدره ولا نعطيه ما يستحق من الاحترام والاهتمام والعناية، وكثير منا حتى من ولاة أمورنا، يرون فيه أوراقاً صفراء بالية يجب أن ترمى، يضاف إلى ذلك أن الكثيرين من المشرفين على المخطوطات ليسوا من المختصين العارفين.

في حين أننا نجد البلاد الأوروبية والأمريكية تعنى بالمحافظة على تراثنا محافظة تامة وتفتخر بها، وقد وضع المستشرقون فهارس لكثير من مجموعات المخطوطات الموجودة في بلادهم وهم يفيدون منها في دراساتهم، ولا أغالي إذا قلت لو كان ما في أوروبا وأمريكا من تراثنا العربي موجوداً عندنا لضاع منذ زمن بعيد).

- **وما هي الوسائل لاستعادة هذه المخطوطات من البلاد الأوروبية والأمريكية؟**

هذا أمر مستحيل، لأن هذه المخطوطات قد أصبحت ملكاً للجامعات أو المكتبات العامة التي تحتفظ بها، وهي كما ذكرت تحافظ عليها أشد المحافظة وتراها مدعاة لفخرها ولا تفرط بورقة واحدة منها، وليس الأوروبيون والأمريكيون بملومين في اشتراء هذه المخطوطات أو حيازتها بطرق شتى، بل نحن الملومون في التفريط بها أو بيعها.

على أنه يمكن الحصول على صور لهذه المخطوطات باتفاقيات خاصة تجري بين الحكومات أو الجامعات أو المكتبات، كما أن العلماء الباحثين يستطيعون الحصول على هذه الصور بصفتهم العلمية للاستفادة منها في أبحاثهم.

- **وهل المخطوطات العربية كلها صالحة للنشر؟**

في رأيي أنه لا يخلو مخطوط من فائدة، ولكن من المخطوطات ما هو نادر وهام ونحتاج إليه ومنها ما هو أقل شأناً، ولابد أن يتعاون العلماء المختصون في كل بلد على وضع قوائم بالمخطوطات الهامة التي ينبغي نشرها ليختار المعنيون بالنشر منها، وقد فصلت القول عن هذا الأمر في دراسة لي اسمها (ماذا ننشر من المخطوطات وكيف ننشر).

- **أمام هذه الثروة .. ألا يدعو الأمر بصورة جدية لإنشاء معهد لتدريس كل ما يتعلق بالمخطوطات من دراسة الخطوط .. إلى معرفة قواعد الفهرسة وتحقيق النصوص؟**

يجيب الدكتور المنجد: من المستحسن إنشاء مثل هذه المعاهد، وفي فرنسا معهد خاص للمخطوطات وعلم الوثائق، ومن الممكن أيضاً أن تعنى الجامعات في البلاد العربية في قسم اللغة العربية أو قسم المكتبات بتدريس هذه المادة، فتعطي دروساً في الخط العربي وتطوره ومدارسه، والمخطوطات العربية في العالم، وقواعد فهرسة المخطوطات وقواعد تحقيق النصوص، وغير ذلك على أن يشرف عليها مختصون لهم تجربة سابقة.

- **هل تعتقدون أن معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية يكفي وحده لجمع التراث العربي مصوراً؟**

لقد كان إنشاء معهد المخطوطات العربية في الأربعينيات مع هذا القرن حدثاً هاماً في تاريخنا الحديث، فلا شك أن محاولة جمع صور لنوادر المخطوطات من العالم ووضعها تحت تصرف الباحثين كان عظيماً وهاماً، وقد حقق المعهد أعمالاً عظيمة وأصبح له مكانة دولية، ولكن من المؤسف أنه تعثر في أعماله، فقد شاءت جامعة الدول العربية أن يكون الذين يديرونه من موظفيها غير الاختصاصيين بالمخطوطات، وإسناد الوظائف والأعمال إلى غير المختصين آفة تراها في كثير

من البلاد العربية، وقد قيل (إذا وكل الأمر لغير أهله فانتظر قيام الساعة).

وأعتقد أنه مع التطور الثقافي والمادي في البلاد العربية اليوم أصبح من الممكن أن يقوم كل بلد عربي بإنشاء (معهد للمخطوطات)، أو (مركز وطني للبحث) خاص به تجمع فيه جميع المخطوطات التي تتعلق بتاريخ البلد وأدبه وعلمائه وماضيه، سواء كانت مخطوطات أو مصورات من مخطوطات العالم ليسهل على الباحثين في كل بلد الرجوع إلى المصادر المخطوطة التي يحتاجون إليها بيسر وسهولة.

إن معهد المخطوطات لم يعد وحده يكفي وهذا ما يجب أن يفكر فيه وزراء التعليم العالي ووزراء الثقافة في البلاد العربية.

فوضى وازدواجية:

- **الظاهرة الملموسة أن قضية تحقيق المخطوطات تحيط بها بعض المشاكل كالازدواجية في التحقيق .. والفوضى في طرق التحقيق .. ما هي الحلول المناسبة للقضاء على ما يحدث .. أو الحد منه على الأقل؟**

إن الفوضى في طرق التحقيق راجعة إلى أمور: أولها: جهل بعض المحققين بالقواعد المقررة للنشر، ثانيها: اختلاف بعض المحققين في فهم معنى التحقيق فالمعنى (الفيلولوجي) لهذه الكلمة كما هو عند العلماء الغربيين وعند علمائنا الأقدمين، هو إخراج النص المراد نشره صحيحاً كما وضعه مؤلفه والتعليق عليه بإيجاز ليكون واضحاً، لكن بعض الناشرين إظهاراً لعلمهم يكثرون من الشرح والحواشي على النص، حتى تصبح أكثر من النص وحتى يصبح التحقيق (شرحاً)، ثم إن كثيرين من المبتدئين يخبطون خبط عشواء ولا يستشيرون من هو أقدر منهم لغرورهم، فلا بد من توحيد طرق التحقيق واتباع قواعد ثابتة، وقد وضعت قواعد لتحقيق المخطوطات طبعت خمس طبعات ونقلت إلى الفرنسية والانكليزية، والإيطالية، والإسبانية، والفارسية، والتركية، وأعتقد أن هذه الفوضى ستزول شيئاً

فشيئاً، وخاصة إذا درست قواعد التحقيق في الجامعات.

أما الازدواجية في النشر .. أي أن ينشر الكتاب مرتين عالمان من بلدين مختلفين، فلا أرى فيه بأساً ولا يستدعي الضجة التي تثار، فقد لاحظت في هذه الحالات أن إحدى الطبعتين تكون أحسن من الأخرى تحقيقاً أو كمالاً وفي هذه فائدة وامتحان.

وسبب هذه الازدواجية هو عدم المعرفة، فالعالم في المغرب مثلاً لا يدري ماذا يحقق عالم آخر في الشرق، ويمكن حل هذه الأشكال مبدئياً بأن تخص المجلات الاختصاصية والثقافية (أخبار التراث) بزاوية فيها، وكل من يبدأ تحقيق مخطوط يعلم هذه المجالات به، تنشر خبره، ويطلع عليه سائر العلماء فيحجم عن التحقيق من لم يكن بدأ فعلاً بالكتاب ... أو يتراسل المحققان فينزل أحدهما للآخر عن الكتاب، وقد نزلت مرة عن كتاب (الديارات) للشابشتي بعد أن حققته لصديقي العلامة كوركيس عواد العراقي، فنشره باسمه، والتراث العربي واسع، يكفي لمئات من المحققين في مئات من السنين.



الشيخ علي الطنطاوي:

خطاب ديني هادئ، يتجاوب مع روح العصر ويستوعب أساليب المواجهة

ليس في جيلنا أو الجيل الذي سبقنا، من لا يعرفه أو يسمع به ... فقد تتلمذ على يديه في كل مجال عمل به شيوخ وشبان، معلمون وطلاب، هو آخر العلماء الكبار الذين ملأ حضورهم القرن العشرين، حين أمضى أكثر من ستين عاماً عرف فيها بصولاته وجولاته في ميادين الدعوة والتوجيه والأدب والتاريخ، واشتهر في سنوات عمره الأخيرة في برامجه الإذاعية والتلفزيونية، التي خصصها لحل مشكلات الناس، وتنويرهم في مسائل العقيدة والعبادة ومختلف شؤون الحياة، إنه العلامة القدير الشيخ علي الطنطاوي، الفقيه الأديب والمحدث والخطيب.

ولد (الطنطاوي) بدمشق في حزيران عام ١٩٠٩ في أسرة علم ودين، انتقلت من مدينة طنطا مصر واستوطنت دمشق ... أبوه هو الشيخ مصطفى بن أحمد من العلماء وأمين الفتوى بدمشق، وخاله هو الكاتب الإسلامي والصحافي الشهير محب الدين الخطيب.

تعلم (الطنطاوي) بمدارس العاصمة: المدرسة الأهلية التي أدارها الشيخ عيد السفرجلاني، والمدرسة السلطانية الرسمية، وتابع تعليمه الثانوي بمكتب عنبر ... ليلتحق بعدها بكلية الحقوق وينال إجازته منها.

شغف من حداثته المبكرة بالمطالعة، ووجد في بيت الأسرة مكتبة غنية بالمصادر وبالذات ما يتعلق بالتراث الفكري الإسلامي، فأقبل على القراءة مبهوراً بتاريخ الأمة، وسير قادتها وأعلامها، مما كان له فيما بعد الأثر الكبير في إنتاجه الأدبي والتاريخي ..

رحلته في التعليم والقضاء:

عمل الطنطاوي بالتعليم في دمشق ثم تنقل بين بيروت وبغداد، ومكة والرياض، ثم تحول للعمل في القضاء فأصبح قاضي دمشق الممتاز، ثم مستشاراً في محكمة النقض بدمشق والقاهرة، وخلال هذه الفترة أنجز قانون الأحوال الشخصية، وقانون الإفتاء، وخطّط مناهج الدروس الدينية لمدارس الأوقاف، كما درّس في كلية دار العلوم بمصر، وانتقل في عام ١٩٦٣ إلى السعودية ليعمل بالتدريس في كلية اللغة العربية والشرعية، ثم بكلية الشريعة بمكة المكرمة، حتى تفرغه لبرامجه في الإذاعة والتلفزيون حيث حقق اقتراباً حميمياً من المشاهدين لما تمتع به من معارف واسعة، وثقافة شاملة وتسامح ديني يستوعب مشكلات الناس، ويجيب عن أسئلتهم بأريحية وأساليب مقنعة، تأخذ في الاعتبار مقتضيات العصر وتطورات المعيشة والطبيعة النفسية للباحثين عن نور الإيمان وهداية الرسالة السماوية، ومن المثير للدهشة أن الشيخ الطنطاوي كان في برامجه يرتجل الحديث دونما تردد أو خطأ، وكان على العهد به متألقاً في أسلوبه، متأنقاً في صوغ عباراته، مشرق الديباجة ... وقبل هذا وذاك دقيقاً في اختيار مواضيعه وبحوثه التي جعل هدفها إضاءة السبل أمام قرائه، وتوجيههم إلى الهدف النبيل.

نشاطه الوطني:

كان الطنطاوي من أوائل العاملين في ميدان الدعوة الإسلامية خطيباً وكاتبـاً.. شارك في تأسيس الجمعيات الإسلامية ومن أقدمها: جمعية الهداية الإسـلامية عـام ١٣٥٠هـ، كما شارك بالعمل الوطني ضد الاحتلال الفرنسي لسوريا، مـن خـلال موقعه كرئيس للجنة العليا لطلاب سوريا ١٩٢١، وشهدت تلك الفترة نشاطه الفعـال سواء بالخطابة في المساجد والنوادي، أو بالمقالات الحماسية في الصحف، ووسائل الإعلام، ولم يشغله ذلك عن الاهتمام بقضايا المسلمين في الجزائر ومصر وباكستان وأندونيسا، والاندفاع لنصرة فلسطين، والدفاع عن قضيتها بكل ما أوتي من عزيمـة وإيمان.

قلم رشيق، وبيان ساحر:

وهب الشيخ علي الطنطاوي ملكة التعبير الرائع عن أفكاره ومشاعره، وامتلـك قلماً رشيقاً سجل به مقالاته ودراساته بأسلوب شيق تميز به عن الكثيرين من كتّـاب عصره، وهو معجب بهذا القلم إلى حد وصفه له بعبارة مدهشة يقول فيها: (هو قلـم إن شئتُ لان في يدي حتى ليخشن معه الحرير، وإن شئتُ صَلُبَ حتى يلـين إلـى جنبه الحديد، إن أردته هدية نبتَ من شقه الزهر، وقطر منـه العطـر، وإن أردتـه رزية حطمت به الصخر، وأحرقت الحجر، هو قلم عذب عند قوم، وعـذاب عنـد آخرين).

وبفكره الوقاد، ولغته المعبّرة، وبلاغتـه الرفيعـة، وقلمـه الـساحر، أنجـز الطنطاوي أعمالاً راقية في المقال والقصة والمـسرحية، أشـرعت لهـا الـصحف والمجلات صدورها، وتنافست للفوز بها ونشرها ... وقد حظيت مجلـة (الرسـالة) المصرية، التي أنشأها (أحمد حسن الزيات) منذ صدورها، بـمكانة متقدمـة فـي صدارة المجلات الأدبية، نظراً لإسهام الرواد من مفكري العروبـة، وأعـلام الأدب والشعر في تحريرها، وفي هؤلاء طه حسين وتوفيق الحكيم، وعباس محمود العقاد، والمازني، والرافعي، وتيمور، وغيرهم، وقد استطاع الطنطاوي أن يحتـل موقعـه

بجدارة بين هؤلاء، ونشرت له (الرسالة) مقالاته التي اختارها بعناية فائقة، وصاغها بأسلوبه الرشيق، فنالت إعجاب وتقدير النقاد والباحثين والقراء على حد سواء، وقد جمعت تلك المقالات الرصينة فيما بعد، في مؤلف صدر بعنوان: (الهيثميات).

الطنطاوي: صحفياً وخطيباً:

انضم (الطنطاوي) عام ١٩٣٠، إلى أسرة التحرير بجريدة (فتى العرب) التي أصدرها (معروف الأرناؤوط) وعمل بها شهوراً، ثم تحول للعمل مع الصحافي (يوسف عيسى) في جريدته (ألف باء) وكانت البلاد ترزح تحت نير الانتداب الفرنسي، ونيران الثورة الوطنية متأججة في صدور المجاهدين بالقلم والسلاح... وكان للصحافة دور بارز في إذكاء لهيب النضال، فانتقل (الطنطاوي) من جديد إلى جريدة الأيام ليسهم بدوره في فضح دسائس الاحتلال وخططه، وكثيراً ما شوهد (الطنطاوي) يخطب في المتظاهرين مثيراً حماسهم لمقاومة الغاصبين، كذلك أصدر في تلك الحقبة مجلته الإسلامية الشهرية (البعث) ... وحين دعاه خاله الباحث والأديب المعروف (محب الدين الخطيب) لزيارته في مصر، توجه إليها، وشارك في تحرير مجلتي (الفتح) و (الزهراء) اللتين أصدرهما الخطيب في القاهرة، ونشر فيهما بحوثاً في السيرة والتراث الأدبي الإسلامي.

آثر الشيخ علي الطنطاوي، الإقامة في مكة المكرمة منذ عام ١٩٦٣، وفيها دبّت حماسة متوقدة في نفسه للكتابة والتأليف...

تراثه الفكري ومؤلفاته:

وتوالى صدور كتبه التي نافت عن خمسين مؤلفاً، في الأعلام، وفي التاريخ الإسلامي، والفتاوى، والخواطر، وحكايات الرحلات ... والذكريات...

وفي هذه المؤلفات: حكايات من التاريخ ٧ أجزاء، أعلام التاريخ ٥ أجزاء، رجال من التاريخ، قصص من التاريخ، صور وخواطر، فكر ومباحث، مع الناس،

في سبيل الإصلاح، فصول إسلامية، من حديث النفس، هتاف المجد، مقـالات فـي كلمات، فتاوى، صيد الخاطر، دمشق، من نفحات الحرم، بغداد، صور من الـشرق في أندونيسيا، وأخيراً مذكراته التي صدرت بجدة فـي ثمانيـة أجـزاء، تـضمنت حكايات مسيرته الطويلة الرائعة، التي قدم لها بعباراته: "هذه ذكرياتي التي حملتهـا طوال حياتي، وعددتها أغلى مقتنياتي، لأجد فيها يوماً نفسي وأسترجع أمسي"، وقـد عكست المذكرات صوراً شائقة من حياة الطنطاوي من بداية نشأته المتواضعة فـي حي "العقيبة" بدمشق، مروراً بمراحل التعلم والتعليم، والعمل بالـصحافة والقـضاء، وأسفاره في الشرق والغرب، ولقاءاته مع رجال العلم والدين والجهاد، ممـا يجعـل تلك المذكرات سجلاً أميناً وافياً، لتلك السنوات الطويلة التي عاشها مما يجعل تلـك المذكرات سجلاً أميناً وافياً لتلك السنوات الطويلة التي عاشها "الطنطاوي" وما حفلت به من مواقف وأحداث تاريخية وإنسانية بالغة الأهمية.

إعلام متجاوب مع روح العصر:

تفرغ الشيخ الأديب في السنوات الأخيرة من حياته للعمل الإعلامي، فأعد وقدم برامج للإذاعة والتلفزيون، كان من أبرزها برنامجه اليومي "على مائـدة الإفطـار"، وفيه حقق تواصلاً حميمياً مع المشاهدين، لما تمتع به من قدرات معرفية ولغة راقية تمزج بين لغة الإعلام ولغة الأدب، وحكائية سردية تقترب كثيراً من روح العامـة، وتحافظ في الوقت نفسه على العلاقة الوطيدة عميقة المغزى مع الطبقة المثقفة التـي تجد في خطاب الديني والإعلامي مطلباً يتجاوب مع روح العصر، ويستوعب جيـداً أساليب المواجهة، ومعالجة القضايا الاجتماعية بالحوار الهادئ، والـروح المرحـة التي تدفعه لإيراد الطرفة حيناً ومطالبة مخرج البرنامج حيناً بتـذكيره بمـا نـسي، كاسراً النمط الصارم في البرامج التلفزيونية السائدة.

تُوّج جهاد الشيخ (الطنطاوي)، وإنجازه الفكري البـاهر، عـام ١٩٩٠، بنيلـه جائزة الملك فيصل العالمية، عن جهوده فـي خدمـة الإسـلام، وتميـزه بالعمـل

المتواصل والبذل والعطاء طوال ستين عاماً في سائر المجالات التعليمية والثقافية والاجتماعية، واتسامه بالصمود والكفاح في ميدان التوعية ونشر الفكر الإسلامي، وبذل كل ما في استطاعته لرد الشبهة ونقض الأباطيل بالمناقشة وانفراده بالإبداع في مناهج القول والكتابة، متميزاً بالسهولة والطرافة والنفاذ إلى قلوب مستمعيه.. لم يعرف "الطنطاوي" التزمت ولم يرفض الحوار الديني، وأكد على ذلك بقوله: (إنني أكتب لأنفي صناعة المشيخة وإفهام الناس أن نجعل أمرنا بالمعروف، وأن نستن بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة..

في التاسع عشر من حزيران ١٩٩٩ .. أشرفت رحلة الطنطاوي على نهايتها، وأذنت أشعة شمسها بالغروب بعد ما يقارب القرن من الزمان، وكانت رحلة فائقة الغنى، جمة العطاء، حافلة بألوان البذل لفائدة الأجيال، فكان جديراً بالتكريم والتقدير والعرفان على مدى الأيام.

أخذنا الحرية بسواعد الجهاد والتضحية

في عمر الإنسان ساعات هي العمر، تفنى الليالي وتنقضي الأعمار وتخلد هذه الساعات ذكرى في قلوب البنين، وفي تاريخ الأمم أيام هي التاريخ، تمر السنون متحدرة في درك الماضي، مسرعة إلى هوة النسيان، وتبقى هذه الأيام جديدة لا تبلى، دانية لا تنأى، مشرقة لا تغيب...

واليوم الأغر الذي أعاد لنا يوم حطين، وكان فجر اليوم الجديد للعرب بل للمسلمين أجمعين (يوم الجلاء).

إنه يوم معلم في موكب الزمان، إنه شعاره من شعائر المجد يقف عليها الفلك كلما دار دورته وقفة فيها خشوع وفيها فرح وفيها إجلال، إننا قد ابتهجنا بالجلاء وهتفنا له ورقصنا وصفقنا، وملأنا منازل العربية أنساً به وفرحاً، ولكنا لم نعرف قدر يوم الجلاء، إنما يعرفه من سيأتي بعدنا، يعرفه غداً من ينعم بظل هذه الشجرة التي نبتت اليوم، هنالك وقد امتدت فروعها ونمت حتى ظلّلت بلاد العربية والإسلام، يقول أبناؤنا: ياما أكرم ذلك القضيب الطري الذي صار الجذع الضخم لهذه الدوحة الباسقة، وهنالك يبلغ من خطر هذا اليوم انه سيجد الجيل الجديد شيوخاً قد لا تكون لهم مزية إلا أنهم رأوا هذا اليوم بعيونهم، وعاشوا فيه حقيقة لا بالخيال، وسيجلس هؤلاء الشيوخ في صدور المحافل يحدثون الناس عن الذي رأوه، ويصفون كيف بدت تباشير الفجر المبارك، ليوم العروبة الجديد، وسيكون لكل حركة تحركناها اليوم وكل كلمة قلناها، معنى كبير لا نتصوره نحن الآن! سيصير هذا اليوم بتفضيلات وقائعه وحقائق أحداثه ملكاً للتاريخ الذي يقدس كل ما يدخل حماه، ويومئذٍ يُعرف (يوم الجلاء).

لقد زعم العداة أننا فرحنا هذا الفرح لأننا أُعطينا ما لم نكن نحلم به، كالفقير المسكين إذ يطلب فلساً فيمنح ديناراً، كلا! إننا لم نأخذ إلا الأقل من حقنا، إن الجلاء ليس عجباً، و إنا كان العجب العجاب أن يكون في ديار الإسلام احتلال، العجب أن

لا نحكم نحن الأرض ونحن خلقنا من أصلاب من حكموها، وورثنا القرآن الذي به دانت لهم الأرض.

ولكنا فرحنا لأن الله جعلنا نقرأ هذا التاريخ الماجد العظيم قبل أن يكتب، وأن ندرك أول الإقبال كما شهدنا آخر الأدبار، فنحن المخضرمون .. وإذا كان نور التوحيد قد سطع من الحجاز فكانت المدينة عاصمة الراشدين، ثم مشى إلى دمشق فصارت دمشق عاصمة الأمويين، فكذلك كان مطلع شمس الحرية بدت من الحجاز والجزيرة فكانت أول قطر لنا خلا من أجنبي، ثم امتدت أنوارها إلى دمشق ... وهي تمشي الآن إلى القاهرة وإلى بغداد، ثم نسلك طريق الأندلس، الفردوس الإسلامي المفقود الذي سيعود، والطريق الآخر الذي يصل إلى الـ (باكستان) ديار الأطهار، فلا يبقى في ظلال المآذن كافر يحكم بغير ما أنزل الله!.

وزعموا أن هذا الجلاء قد أتى عفواً بلا تعب، وإننا لم نوجف عليه بخيل ولا ركاب، ولولا أنها جاءت به مصلحة الإنجليز ما جاء! وكذب هؤلاء الزاعمون ولؤموا...

كذبوا والله ... أو فليخبروني: أجاهدت أمة على ضعفها وقلة عددها، وعلى كثرة عدوها وقوته، مثلما جاهدنا. إن في مصر العزيزة تسعة عشر مليوناً، وفي أندونيسية ثمانين مليوناً، وفي الهند مائة وعشرين مليوناً، من المسلمين، ونحن لا نعد كلنا بدونا وحضرنا، رجالنا ونساؤنا، أكثر من ثلاثة ملايين، وقد ابتلينا بفرنسا ذات الطيش والحمق والملايين المائة، والعدد والآفات .. فسلوا الفرنسيين: هل أرحناهم يوماً واحداً من ميسلون إلى يوم الجلاء؟ أما ثرنا على فرنسا وكسرنا جيوشها في خمس مواقع؟ سلوا الجنرال ميشو القائد الذي حارب الألمان عند المارن: أما أباد حملته مجاهدون منا، لم يتعلموا في مدرسة حربية ولا درسوا فنون القتال، وغنمنا عتادها كله فلم يعد من الحملة بعد معركة المزرعة إلا مائتان وخمسون جندياً فقط! سلوا الغوطة عن معارك الزور وعما صنع حسن الخراط؟ سلوا النبك وجبالها، وحماة وسهولها، وجنرالات الفرنسيين عن بطولة قادتنا

الأبطال، حسن الخراط، وسعيد العاص، ومحمد الخطيب، وعشرات إن لم أعدهم اليوم، فما يجهلهم أحد!.

أما ضرب الفرنسيون دمشق أقدم مدن الأرض العامرة بالقنابل مرتين، في عشرين سنة، أما أحرقوا حي الميدان وهو ثلث دمشق ودمروه فلم ينهض من كبوته إلى اليوم؟ أما أضرموا النار في جرمانا والمليحة وزبدين وداريا ودير مجدل والغزلانية وتل مسكن ودير سلمان وقرى أخرى لا يحصيها من كثرتها العد.

بل ساوا شوارع دمشق ودروبها وساحاتها، عن إضراباتها ومعاركها ومظاهراتها؟ أما لبثت في مطلع سنة ١٩٣٦ خمسين يوماً مضربة لا تجد فيها حانوتاً واحداً مفتوحاً، مقفرة أسواقها كأنها موسكو حين دخلها نابليون، فتعطلت تجارة التاجر، وصناعة الصانع، وعاش هذا الشعب على الخبز القفار، وطوى ليله من لم يجد الخبز ثم لم يرتفع صوت واحد بشكوى، ولم يفكر رجل أو امرأة أو طفل بتذمر أو ضجر، بل كانوا جميعاً من العالم إلى الجاهل ومن الكبير إلى الصغير، راضين مبتهجين، يمشون ورؤوسهم مرفوعة، وجباههم عالية، ولم نسمع أن (دكاناً) من هذه الدكاكين قد مس أو تعدى عليه أحد، ولم يسمع أن لصاً قد مد يده خلال هذه الأيام، إلى مال، وقد كانت الأسواق كلها مطفأة الأنوار ليس عليها حارس ولا خفير، فهل قرأ أحد أو سمع إن بلداً في أوربة أو أميركا أو المريخ يسير فيه اللصوص جياعاً ولا يمدون أيديهم إلى المال المعروض حرمة لأيام الجهاد الوطني؟ ولقد بقي الأولاد في المعسكر العام في المسجد (الأموي) أياماً طوالاً يرقبون وينظرون، فإذا فتح تاجر محله ذهبوا فأغلقوه .. ففتح (حلواني) مشهور، فذهب بعض الأولاد فحملوا بضاعته، صدور (البقلاوة والنمورة والكنافة) إلى المسجد، وتشاوروا بينهم ماذا يفعلون بها؟ فقال قائل منهم نأكلها عقاباً له! فصاحوا به: اخرس ويلك، هل نحن لصوص؟ ثم أرجعوها إليه بعد دقائق وما فيهم إلا جائع.

فهل قرأتم أو سمعتم أن صبيان باريز ولندن ونيويورك فعلوا مثله؟

وقد عمد الفرنسيون آخر أيام الإضراب إلى فتح المخازن قسراً، فكان أصحابها

يدعونها مفتوحة ولا يقتربون منها، وفيها أموالهم التي تعدل أرواحهم.

و(التبرعات)؟ ألم يكن الناس يعطونها من غير أن يطلبها منهم أحد؟ الم يكونوا يتسابقون إلى دفعها، ألم يرفض كثير من الناس أخذ (الإعانات) ويقولوا أعطوها غيرنا ممن هم أحوج إليها منا، نحن نجد طعاماً هذا النهار!.

لقد وقع هذا وشاهدته أنا مراراً، فأي وطنية أعظم من هذه الوطنية؟ وأي اتحاد أوثق من هذا الاتحاد الذي تصبح فيه المدينة كلها أسرة واحدة.

والبطولة والجهاد؟ ألم يفعل الشاميون الأفاعيل؟ ألم يهجموا على النار والحديد، ويقاوموا بالحجارة أعنف وأبشع ما وصلت إليه حضارة الغرب من ضروب التقتيل والإهلاك والتدمير؟ ألم يفتح الأطفال صدورهم للرصاص ألم يصمد الفتية العزل للجيش اللجب لا يزولون حتى يزول عن مكانه هذا الجبل، ثم يصدمونه صدمة الند للند، ثم لا ينجلي الغبار إلا عن حق يظفر أو شهيد يقتل، أو جريح يؤسر؟ ألم تلبث دمشق مدة الانتداب وهي في حرب؟ ساحتها وشوارعها ميادينها، لا تكاد تختفي منها الخنادق والأسلاك والرشاشات والدبابات حتى تعود فتظهر مرة أخرى، ولا تهدأ النار في ركن من أركانها حتى يندلع لسان النار في ركن آخر، ودمشق ثابتة على جهادها؟.

ألم يشيع الأمهات أبناءهن إلى المقبرة راضيات هاتفات؟ ألم يجاهد الطفل الصغير، والمرأة العجوز، والشيخ الفاني، ألم تمتلئ السجون بالأبرياء، ألم تضق المقابر بالشهداء؟

فهل تكلم تاريخ هؤلاء الفرنسيين في آذانهم؟ هل عرفوا لهذا الشعب حقاً، هل قدروا له تضحيته ؟ هل رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم حينما كانت تجوز بهم مواكب شهدائه؟ هل خشعت قلوبهم حينما رأوا مسيل دمائه؟ لا إنهم نسوا تلك الدعوى الكاذبة، دعواهم أن أجدادهم هم الذين أعلنوا حقوق الإنسان، وأنهم غسلوا بدمائهم صفحة الاستبعاد والاستبداد، ونسوا ما كتبه روسو وفولتير ومنتسكيو، وما قاله ميرابو وسييس ولافايت، وما كان يكذب به الفرنسيون (أيام ثورتهم تلك) على

الشعوب إذ يعلنون أنهم نصراء المظلومين!.

إني ما خططت هذه الكلمات لأؤرخ فيها جهاد الشام فإنها تؤلف فيه الأسفار الضخام، ويخلد حديثه على طول المدى، وما ذكرت نبأ إضراب الخمسين، لأتقصى أخباره وأجمع حوادثه، وإنما أردت أن أردّ كذبة مازلنا نسمعها حتى من الأصدقاء..

وما عظمة جهادنا في هذا الإضراب الشامل وحده، ولا في المظاهرات الدامية، ولا في القتال والنضال، بل العظمة في هذه التربية الوطنية العجيبة التي أثبت فيها الشعب العربي في الشام أنه بلغ بها غاية الغايات، فكان في اتحاده واجتماعه على الفكرة الواحدة وتحمله الجوع والألم في سبيلها، وإقدامه على الموت من أجلها، مثلاً للشعوب القوية الحرة، وما ظنك بشعب فقير يدع فيه التاجر مخزنه والعامل مصنعه، والطالب مدرسته، ثم يؤلفون جميعاً صفاً واحداً، ينتزع حقه من أفواه البنادق، ومنافذ الدبابات ويسجل جهاده على ثرى وطنه بمداد دمه؟ وما ظنك بشعب تودّع فيه المرأة ولدها، ثم تدفعه إلى الشوارع ليجاهد ويناضل، ثم ينعى إليها، ثم يحمل إلى دارها ميتاً فتغسله بيدها، وتخرج في جنازته تهتف وتزغرد، ودموعها تسيل على خديها، وتدع المرأة أولادها بلا عشاء لتدفع المال للفقراء من أبناء الوطن...

أيقال لهذا الشعب إن استرد حريته، وجلا عن أرضه عدوّه: لقد جاءك الجلاء عفواً وبلا تعب.

كلا إنها ما جاهدت أمة مثل جهادنا، ولا حملت مثل ما حملنا، إنا قد رأينا الموت، وألفنا الفقر، واعتدنا الجوع، وأصبحت مدينتنا بلاقع، وأهلها مفجوعين، ونساؤها ثاكلات، أفيكثر علينا أن ننعم بالجلاء؟ أيقال أننا أخذناه بعد ذلك منحة من الإنكليز...؟

كلا ثم كلا، إنا أخذنا حقنا بعون الله ثم بعزائمنا، ولو والله عاد فاستلبه منا أهل الأرض مجتمعين لقارعناهم عليه، ونازلناهم حتى نستعيده كاملاً أو نموت دونه.

وليس في الدنيا أقوى ممن يريد الموت، لأن الذي يريد الموت لا تخيفه وسائله ولا آلاته!



د. جميل سلطان:

الأدب في خدمة الأهداف الرفيعة والمثل العليا

هو ركن من أركان الأدب الراقي، وواحد من أعلام البلاغة والبيان، ومن أكثر الأدباء تأثراً بالثقافتين العربية الإسلامية، والغربية الحديثة ... وقد بدا ذلك واضحاً في مؤلفاته ودراساته ومحاضراته الكثيرة، وتميز أسلوبه بمتانة اللغة، ونصاعة البيان، وسلامة التعبير، وحبك الجمل ورصفها، نتيجة لتأثره بلغة القرآن الكريم الذي حفظه في سن مبكرة، ومال إلى الأدب القديم أكثر من ميله إلى الأدب الحديث، رغم دراسته في الغرب لمدة ثلاث سنوات ... ويرجع ذلك إلى أنه نشأ نشأة دينية محافظة، وفي جو حريص كل الحرص على التمسك بأهداب الدين، وبالخصائص التي امتاز بها السلف، يتحدث د. سلطان عن نفسه فيقول:

(نشأت في بيئة عرفت بالجد والعلم والتقوى، إذ كان والدي في غاية الصلاح، وقد تأثرت بهذه البيئة كل التأثر، فسلكت في طلب العلم سبيلاً منظماً في جميع مراحل التعليم ... على أن الدراسة المنتظمة وحدها في المدارس الرسمية، لم تكن ترضي والدي، فتخير لي من علماء دمشق من درست عليهم البيان والبلاغة والعروض، ورسائل التوحيد والعقيدة، وأحسبني في هذا حلقة تجمع بين القديم والحديث ...).

الدكتور جميل سلطان أديب ومربٍّ، وباحث، وشاعر، وأستاذ جامعي .... ولد عام ١٩٠٩ في دمشق في أسرة داغستانية الأصل، هاجرت إلى دمشق قبل أكثر من مئتي عام وأقامت فيها.

تعلم في مدارس دمشق، وتابع دراسته العليا في الجامعة السورية، فحاز على الإجازة في الحقوق وشهادة مدرسة الأدب العليا.

عيّن بعد تخرجه مدرساً للغة العربية والاجتماعيات في تجهيز أنطاكية بلواء اسكندرون عام ١٩٣٥، ثم تنقل بين المدارس التجهيزية في حلب وحمص ودمشق حتى عام ١٩٣٧، حين أوفدته وزارة المعارف إلى جامعة السوربون في باريس لتحضير الدكتوراه في الآداب العربية، فنالها بدرجة مشرّف جداً عام ١٩٤٠ بأطروحة عنوانها "دراسة نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب"، كما نال شهادة مدرسة اللغات الشرقية، وشهادة مدرسة العلوم السياسية، وانتخب وهو هناك عضواً في المجمع اللغوي للدراسات السامية.

عين بعد عودته مدرساً للغة العربية وآدابها في ثانويات دمشق حتى عام ١٩٤٥، ثم مديراً للمعارف في محافظة درعا، وفي عام ١٩٤٩ أستاذاً في كلية الآداب بالجامعة السورية.

في عام ١٩٥١ عين مديراً عاماً للإذاعة السورية، ثم مديراً لثانوية جودت الهاشمي، وفي عام ١٩٥٦ مديراً للتعليم الابتدائي في وزارة المعارف، وقد ظل في هذا المنصب إلى أن قدم استقالته لأسباب صحية، بعد خدمة تجاوزت الثلاثين عاماً، لينصرف إلى العمل الأدبي ... لكنه أنهك عينيه بعد هذه الرحلة الطويلة في ميدان التأليف، فشح بصره جداً، حتى اضطر لأن يملي ما يريد كتابته على أحد أبنائه.

اتصفت أعمال الأديب الفكرية بمتانة اللغة ونصاعة البيان، وجمال الأسلوب، فأورثته شهرة ومكانة بارزة ويعود ذلك إلى عوامل شتى، أهمها أن المجمع العلمي وطد شهرة الشعراء الشباب بتكريمهم، وكان الشاعر أستاذاً ناجحاً، وكان اتصاله بالشباب ومعرفتهم قدره الأدبي والعلمي من دواعي هذه الشهرة في المجتمع، انتسب إلى نادي فيصل الثقافي، وكانت مؤلفاته قد شقت طريقها إلى الناس فانتفعوا بها وأفاضت عليه شهرة فائقة، وجاءت الإذاعة فكان من أكبر محدثيها، وحينما عقد مؤتمر الأدباء العرب الثاني في بلودان كان من أعضاء الوفد الرسمي لذلك المؤتمر، كما كان عضواً في معظم اللجان التي تؤلفها وزارة المعارف للبرامج والفحوص العامة.

كان المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) قد دعا الدكتور سلطان إلى إلقاء محاضرتين في ردهته، الأولى عن فن القصة في ١٩٤٢/١٢/٤، والثانية عن فن المقامة في ١٩٤٣/١/٢٢، ثم قامت جمعية التمدن الإسلامي التي كان ينتمي إليها، بطباعتها في كراس جاء في ست وخمسين صفحة.

تحدث الدكتور في المحاضرة الأولى عن دور القصص وأهميتها في حياة الناس، في الشرق والغرب على حد سواء، وأنها وجدت قديماً في أسمار العرب، وأشعار البطولة والحماسة والفخر، وأحاديث الهوى، ونوادر المعمرين، وطرف الصعاليك، وملاحم هوميروس، وأغاني شعراء التروبادور...

ثم تحدث عن شروط القصة الفنية، فقال: إنها يجب أن تقوم على البساطة، واجتناب التفخيم والتهويل، وعلى إمكانية حدوثها في الحياة، وان تكون مليئة بالحركة والحيوية، وذات مغزى أو هدف، وأن تكون موضوعية، خالية من كل صبغة شخصية، وان لا تخلو من دعابة أو تهكم أو هزل أو نقد أو نكتة .... ولا يجوز الإطالة فيها لكي لا تسبب الملل والضجر عند القارئ، فالإطالة متعبة للقارئ بالإجمال، فإذا استطاع الكاتب توفير هذه الشروط الأساسية فيها، وأضاف إليها أسلوباً مشرقاً، ولغة ممتازة، بلغت قصته الكمال.

أما المقامة فهي في الأصل اسم لموضع القيام، ثم توسعوا فيها واستعملوها للمجلس والقوم المجتمعين، ثم للقصة الطريفة يتحدث بها الراوية، وينوع فيها المقال، فيشحنه بالشعر والأمثال والمواعظ الحسنة...

ثم تطورت شيئاً فشيئاً حتى صارت خطباً ومواعظ، وكلاماً منمقاً ومسجوعاً، يجري على ألسنة السائلين والمكدين الذين كانوا يملؤون المساجد والأسواق والأماكن التي يجتمع فيها الناس.

كان بديع الزمان الهمذاني أول من أعطى لفن المقامة أبعاده، بما أوتيه من ثقافة وفكر وخيال، فأصبحت على يديه نوعاً من الأدب الذي يقوم على قصة صغيرة من إبداع الخيال، أو تصوير الواقع وتحويره، مكتوبة بأسلوب أنيق الجمل،

مزخرف الألفاظ ... وهي ترمي بالإجمال إلى جمع شوارد اللغة وفصيحها، وعيون مفرداتها وتراكيبها، وتدور حول بطل للقصة وراوية، ولا تكاد تخلو من نادرة، أو مفاجأة، أو غرابة، أو كياسة، أو طرفة من الطرف اللطيفة، ويحشد فيها كاتبها كل ما عنده من تورية، واقتباس، وحكم، وأمثال وغير ذلك من المحسنات اللفظية والمعنوية.

وتحدث الكاتب أخيراً عن خصائص الراوية والبطل في مقامات الهمذاني، وعن غاياته من كتابة هذه المقامات، وأشهر من قلدوه وتأثروا خطاه كابن نباته المصري، والحريري، والسهروردي، وابن الجوزي، وأبي بكر الرازي، وعفيف الدين التلمساني، وابن الوردي، والسيوطي، والقسطلاني، وشهاب الدين الألوسي، وصولاً إلى الكاتب المصري عبد الله فكري...

لقد برهن الدكتور سلطان في هاتين المحاضرتين القيمتين عن ثقافة عربية تراثية أصيلة، واطلاع واسع على تاريخ الأدب العربي وأشهر أعلامه ... لكن محاضرته عن فن المقامة كانت أطول وأعمق وأشمل من محاضراته عن فن القصة.

إنتاجه الأدبي:

يعتبر الدكتور سلطان من أشد الكتاب والشعراء تأثروا بالثقافتين الإسلامية والغربية الحديثة، ويظهر هذا في آثاره الشعرية والنثرية، ومقالاته ومؤلفاته على اختلاف مناحيها الأدبية، وكذلك نجد هذه الظاهرة من الثقافة العميقة في شعره الذي يجمع إلى جدة الأفكار وطرافتها ومتانة أسلوبها وأصالة البيان فيها، وهنا مجال الإشارة إلى تأثره بالقرآن الكريم وقد استمد الأسلوب واللغة من القرآن، واتخذ خطة مثالية فجعل الأدب في خدمة الأهداف الرفيعة، فالدين والأخلاق والوطن والعروبة والقومية وغيرها من المثل العليا هي التي يستهدفها في إنتاجه الأدبي، ولولا ما نعلم عن اتجاهه الديني والاجتماعي لقلنا إنه شاعر غزل وصّاف، وله في الرثاء فصول

وهو لا يكتب في هذا أو غيره إلا متأثراً بالعاطفة وشاعراً بالموضوع، وهو في هذا ابعد الناس عن أن يتكلف ما يطلب منه إذا لم يكن يشعر به في ضميره.

مشاركته في النضال الوطني:

كانت الإضرابات في سوريا تتوالى احتجاجاً على السياسة الاستعمارية الفرنسية الغاشمة، فأخذ د.سلطان يقود المظاهرات وينظم الشعر الحماسي في المناسبات الوطنية، وقد اعتقل مرات عدة وذاق ألوان التنكيل والعذاب، وكان الجيل الذي رافقه جيل نضال ومقاومة، إذ لم تكد تتفتح عيون أبنائه على الحياة، حتى رأوا أغلال الاستعمار تطوق البلاد، فثاروا وكان لمعلميهم ومدرسيهم الفضل الكبير في إذكاء الروح القومية والشعور الوطني، ولهذا كثر الشعر الوطني في شعر د. سلطان إلى جانب غيره من الموضوعات الوصفية والدينية والاجتماعية ، وقد ظهرت في شعره آثار نهضة فنية جديدة تستهدف في معانيها خدمة الشعب وتصوير أفكاره والحديث عن النفس وجدانياً.

أما الحكمة فمنثورة في ثنايا كلامه، وأما الهجاء، فقد ترفع عنه وهو في حياته التعليمية والعلمية الأدبية الاجتماعية يعتبر ممن أدوا الرسالة المطلوبة من الأديب المفكر.

أعلن الدكتور جميل سلطان في آخر صفحة من كتابه "فنون الشعر" الصادر عام ١٩٣٧، أنه سيصدر ديواناً بعنوان "قلب الشاعر" لكن هذا الديوان المنتظر لم يصدر قط، وبقي شعره مطوياً في الأدراج حتى اليوم.

لقد عبر في هذا الشعر القليل الذي أطلعنا عليه عن تجارب في الحياة، واختلال موازينها، وفساد القيم الخلقية فيها، وما يصيب الإنسان السوي من إحباطات وخيبات وردود فعل تؤدي في النهاية إلى انطوائه، وعزلته، وبعده عن المجتمع والناس.

يقول في قصيدته "من غرائب التجارب":

(عاشـــرت خلقـــاً كثيـــراً وعلمتنــــــي الــــــسنون
وشـــمتُ فـــي النـــاس مـــا قـــد يكــــــون أو لا يكــــــون
فـــــرب عـــــالٍ تعـــــالى عليـــــه أحمـــــق دون
وخـــائن قيـــل عنــــه هــــو القــــوي الأمـــــين
ومخلـــــص قـــــاتلوه لأنــــــه لا يلـــــــين
وكـــــم حــــصيف تــــولى شــــــؤونه مــــــأفون
وحادثـــــات الليـــــالي يحـــــار فيهـــــا الفطـــــين
الــــبعض يحيـــا حيـــاة أجـــلُّ منهـــا الـــسكون
فهـــا هنـــا الـــشر يطغـــى وثـــم خيـــر دفـــين
وكـــم دهتنـــي أمـــور غريبـــــة وشـــــؤون
فلـــم أجـــد قـــط شـــيئاً فـــي الكـــون لـــيس يهـــون
كمعــــــشر عقـــــلاء يـــــسوسهم مجنـــــون)

مؤلفاته: المطبوع من مؤلفاته:

كتاب (منهل الآداب) – (فنون الشعر) في أنواع الـشعر العربـي المختلفـة – أوزان الشعر وقوافيه – الموشحات – شاعر على سرير من ذهـب عبـد الله بـن رواحة – أبو تمام – جرير – صريع الغواني – النابغة الـذبياني – فـي القـصة والمقامة – زهير، وكلها دراسات وافية ومراجع موثوق بها في الأدب.

وله في الفرنسية: (دراسة نهج البلاغة) وهي أوسع دراسة علميـة مطبوعـة نال عنها المؤلف شهادة الدكتوراه من درجة مشرّف جداً، وقد ترجمها إلى العربيـة ولم تطبع.

وله تحقيق لمخطوط (أحاديث الشعر)، رواية الإمام عبد الغني بن عبد الواحـد الجماعيلي، دراسة مخطوطة عن حوادث دمشق اليومية بعنـوان (دمـشق الـشام)

(منذ مائتي عام)، وقد طبعتهما مجلة التمدن الإسلامي كما طبعت لـه كتـاب (فـي القصة والمقامة).

وله من الكتب المخطوطة: كثير من المحاضرات والكتب والمقالات، منها مـا قدّم في النوادي الأدبية أو نشر في المجلات مثل كتاب (زياد حكم الطـرفين) وهـو دراسة وافية، و(مشارع البيان)، و(سـبيل الـسلام) ومحاضـرات عـن الـدعوة الإسلامية، مما يعطي فكرة كاملة عن الجهد الأدبي الذي يتحلى به الأديب الراحل.

تواصل عطاء المفكر القدير د. جميل سلطان إلى اليوم الأخيـر مـن رحلتـه الغنية في ميدان الإبداع الأدبي، وقد ودع الحياة في الثلاثين مـن آذار ١٩٧٩، بعـد أن أدى رسالته الخيرّة في خدمة الوطن والأجيال بصدق وأمانة، فاسـتحق التكـريم والاعتزاز.

مختارات من شعره

من شعر الأديب د. جميل سلطان قصيدة بعنوان (عظة الصباح)

(أوقد المصباح لا تحفل بما ... طاف حول النور أو ما قد هلك
كلنا يهفو إلى النور ولا ... يرحم النفس بهذا المعترك
نحن أدرى بأفانين الردى ... من فَراش ضل أو طير أرك
ترك الروض إلى النور هوى ... أترى يعلم عقبى ما ترك
لو درى الهلك على آماله ... قص جنبيه ولم يلق الهلك
هذه الأحلام طافت حلوة ... مثلما طاف على المهد الملك
وشيها الرائع قد راح به ... عاصف الدهر وزعزاع الفلك
أدرك الدهر جناحيها كما ... أدرك النور جناحي ما ملك
دهرك الجبار، لا يرعى المنى ... شأن كفيك بما قد هان لك)

ومن قصائده الوطنية الرائعة، التي فيها نبض روحه من ألم وتسام في الحس القومي قصيدة له بعنوان (أعد لي ذكر المجد) يقول فيها:

(أعد لي ذكرى المجد من كل تالد ... فإني تواق لعهد الأماجد
وما هز هذا القلب إلا صبابة ... نوازعها في الصدر غير هوامد
إذا ذكر الماضون ألفيت نورها ... يرد على الأبصار نور الفراقد
وما حن للماضين إما ذكرتهم ... سوى كل ميمون النقيبة واجد
إذا لم يروا في السيف طولاً مشوابه ... فزاد بطول السيف طول السواعد
كذلك تبنى بالجماجم والدما ... صروح المعالي راسخات القواعد
لعمرك ما في العيش خير لعاجز ... يهون على القربى وحكم الأباعد
وما سرني أني أمتُّ لمبدأ ... إذا كان فيه الذل غير مجاهد

فحيث يكون السيف والقلب لاترى		سوى صرح مجد كالشوامخ مارد
وحيث يكون الضعف تنهزم العلى		ويمتد ظل الهون فوق المعابد
إذا كان للأجداد مجد مخلد		فترك العلى عار على كل والد
وإن بناء المجد أيد تتابعت		تشيد طريقاً خالداً فوق تالد).

وفي قصيدته (الربيع) تجلت روائع الوصف والمعاني الرقيقة ومنها قوله:

(يا مطرب الروض غاد الروض جذلانا		واحمل إلى غصنه سحراً وألحاناً
وانقل جناحك من غصن إلى فنن		واشمم من الزهر أشكالاً وألواناً
هذا الربيع فهل حييت مقدمه		وهل نثرت له ورداً وريحاناً؟)



معجم الأمثال العربية

تأليف
خير الدين شمسي باشا

الجزء الأول
أ - ج

الطبعة الأولى

خير الدين شمسي باشا:

رحلة نصف قرن في حماية كنوز التراث
ثروة من المصنفات الفكرية لإغناء المكتبة العربية وصون لغة العرب الخالدة

مددت يدي أصافح الرجل بمحبة ومن اللحظة الأولى قرأت في سمات وجهه سطور الرحلة الطويلة التي قام بها خلال نصف قرن من الزمن، سهر خلالها الليل مع عيون التراث الفكري العربي، وأعطى ضوء عينيه لمهمة جليلة هي إزاحة الستار عن ألوان من العطاء الأدبي واللغوي العربي، واختيار الفرائد منها بأمانة الباحث وخبرة المدقق، وتقديمها للأجيال الجديدة في حلة متألقة مستكملة لكل شروط التحقيق والدراسة العلمية الراقية.

خطوات المسيرة الطويلة:

تفتحت مواهب الباحث "خير الدين شمسي باشا" في مطلع حداثته، وفي المرحلة الأولى من تعليمه أحب اللغة العربية من خلال معلمه المربي المعروف "قدري العمر"، الذي عرف تلامذته على أسرار العربية واختار لهم أجمل ما ضمه ديوان الشعر العربي من قصائد أعلامه المتقدمين، وقاده ذلك إلى الولع بالأدب وبتراث الأمة الفكري الخالد.

انتقل بعد تخرجه إلى فلسطين والتحق مصححاً لغوياً بجريدة الدفاع التي كانت تصدر في "يافا"، ثم علّم بمدارس القدس وعمل محرراً مساعداً للشيخ "عبد العزيز الثعالبي" في تحرير مؤلف عن المؤتمر الإسلامي المنعقد بالقدس عام ١٩٣٠، واشتغل لسنوات في التجارة ولما عاد إلى دمشق أسس مع صديقه العلامة الراحل الشيخ مصطفى الزرقا "الندوة الثقافية السورية" وتفرغ للمطالعة والتصنيف.

يقول الباحث: كان التقاعد – بالنسبة لي – فاتحة مسيرة العطاء الوفير، وفتح تفرّغي من أعباء العمل الطريق أمامي للقيام بواجبي نحو تراث الأمة ولغتها الخالدة وذلك من خلال محورين:

الأول: نشر المصنفات المخطوطات وهي بالعشرات جمعتها خلال سنوات بحثي في أمهات المؤلفات الأدبية لأرفد بها المكتبة العربية، وأغني ثروة الأبناء من عيون الإبداع الفكري العربي.

والثاني: حماية لغتنا العربية في زمن تتناوشها فيها المكائد الأجنبية بصور شتى، بهدف تهديمها ومحو هوية الأمة وعنوان حضارتها الأقدس.

ثروة من المصنفات الفكرية الخالدة:

قضى خير الدين شمسي باشا عشرين سنة كاملة ساهراً مثل راهب في صومعة نورانية، عاكفاً على كتب الأدب متتبعاً ما تكنه من أسرار وأفكار، ويكتشف في صفحاتها ألواناً من الإبداع والإعجاز لم يتوقف السابقون عندها، ولم يقدموها بما هي خليقة به من الرعاية والاهتمام، وحينما بات أكيداً بأن ما أنجزه هو بحق جديد ومفيد بدأ بدفع أعماله إلى مؤسسات النشر، التي بادرت بدورها إلى احتضان أعماله المتألقة وإصدارها بالحلة الراقية الجديرة بها.

ظهر من مؤلفاته أولاً:

ديوان الرياض والأزهار، الذي تكون من ثلاثة أجزاء عَرَض في أولها للرياض والمتنزهات في قصائد الشعر العربي، وكانت نشأته المبكرة في بيت عربي واسع حافل بأصناف النباتات الغضة والزهور الناضرة، قد أورثته عشق الربيع وهداياه الملونة العاطرة، كما فعلت إطلالة شرفته على البساتين الخضر الممتدة على مدى النظر فعلها في نفسه، وحرّك مشاعره تثني الغصون في مهب النسيم وهديل الحمام في أوكارها مع البكور، فراح يجمع من قراءته لديوان الشعر

العربي كل ما تقع عليه عينه من قصائد في وصف الربيع والمروج والبساتين والرياض والجداول والأنهار والنواعير، فكان هذا الجزء رحلة شائقة في عالم العطر والندى والطبيعة الساحرة.

في واحدة من أرق شواهده ينقل عن القاضي التنوخي قوله:

"أما ترى الروض قد وافاك مبتسماً ومد نحو الندامى للسلام يدا

فأخضر ناضر في أبيض يقق وأصفر فاقع في أحمر نُضِدا

مثل الرقيب بدا للعاشقين ضُحى فاحمرَّ ذا خجلاً وأصفرَّ ذا كمدا"

وخصص الباحث شمسي باشا الجزء الثاني للأزهار في الشعر العربي، وبدأه بمقدمة عن الصلة بين النور والزهر ثم طوّف مع القارئ في رحلة ماتعة استعرض فيها وصف الشعراء للطبيعة وما تزخر به من أصناف الزهر والورد، فمر على بضعة وثلاثين صنفاً منها، وخص لكل صنف صفحات تضم بدائع الشعر العربي فيها، ولو كان العرض يسمح لأهديت القارئ عشرات من الشواهد التي أشتمل عليها الكتاب في صفحاته الثلاثمائة، ناهيك عما زود الباحث به مؤلفه من مقدمات عرفت بتلك الألوان المتألقة من بدائع الأزهار، ولكني انتقي شعراً في الورد وهو ملك الحدائق المتوج لأبي علي بن المعز:

ورد الخدود أرقُّ من ورد الرياض وأنعم

هذا تنشّقه الأنوف وذا يقبلّه الفم

فإذا عدلتَ فأفضل الوردين ورد يُلثَم

هذا يُشَمُّ ولا يُضَمَ وذا يُضَمُّ ويُشمَمُ

وأفرد الباحث الجزء الثالث من مؤلفه للأثمار، وبدأه بمقدمة عن الأثمار والفواكه في القرآن الكريم، ثم استعرض ثلاثين صنفاً منها خص كلاً منها بمقدمة

تعرّف بها، وتذكر خواصها وفوائدها وأنواعها ومناطق زراعتها وأوصافها في مؤلفات المصنفين العرب، ومن المؤكد أن ما ناله التفاح من روائع الشعر فاق ما قيل في أصناف الفواكه الأخرى، كانت الأحلى والأرق بين هذه الروائع تلك التي أفردها الشعراء لتشبيه التفاحة بوجنتي المحبوب الموردتين، أو بكأس المدامة الرقراقة يقول ابن رشيق القيرواني:

وتفاحة في كف ظبي أخذتها ... جناها من الغصن الذي مثل قدِّهِ

حكت لمسَ نَهديهِ وطيبَ نسيمهِ ... وطعمَ ثناياه وحمرةَ خدِّهِ

ومما يسجل للباحث اهتمامه بجمع الشعر وفق مواضيعه بغض النظر عن تقدم ناظمه أو تأخره، وكذلك شرحه في الحواشي لمفردات الشعر التي وجد حاجة لشرحها كما رتب القصائد في كل موضوع بحسب القوافي تيسيراً للمُراجع والباحث.

عمل موسوعي متميز:

وصدر للباحث شمسي باشا بعد ذلك سفره المتألق. معجم الأمثال العربية في ثلاثة مجلدات ضخمة تضم نيفاً وألفي صفحة من القطع الكبير، قدّم فيها المؤلف أحد عشر ألفاً ومئتين وتسعة وعشرين مثلاً لم يسبق لمؤلف آخر أن عرضها وقد استمد مادتها من سبعة وعشرين مصدراً أساسياً، وشرح بالتفصيل كل مثل منها بعد أن رتبها على الحروف، مراعياً الأول والثاني والثالث فجاء المعجم دقيقاً للغاية في استيعاب الجمع وإحكام الترتيب وسعة الشرح المدعم بالشواهد والأخبار، والجدير بالملاحظة أن مئات الأمثال التي أوردها الميداني تحت عنوان أمثال المولدين أي الأمثال المستخدمة واكتفى بسردها، عمد الباحث شمسي باشا إلى شرحها وتفسيرها مع إيراد الشواهد وأبيات المعاني المناسبة لها، وقد صدر المعجم في إخراج أنيق

وطباعة راقية عن مركز الفيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، ومثّل بحق موسوعة أدبية متميزة جديرة بالاعتزاز والإكبار.

عطاء متواصل في رحلة التحقيق والإحياء:

قدّم المؤلف للمكتبة العربية من جديد كتابه القيم "المنتخب من ديوان العرب". وهو مكون كسابقيه من ثلاثة مجلدات فيما يجاوز الألفي صفحة، ضمت خمسة وعشرين ألف بيت من عيون الشعر العربي موزعة على ألف وخمسمائة موضوع في شتى مجالات الحياة، رتبها المؤلف في كل قافية بحسب المواضيع ترتيباً معجمياً، ثم ألحق بالمجلد الأخير فهرساً متميزاً في٣٦٠ صفحة، ضمنه سلسلة المواضيع التي يشتمل عليها المعجم واسم الشاعر وأول البيت وأخره وعدد الأبيات ورقم الفقرة والصفحة، فيسر بذلك للمراجع عمل البحث والوصول إلى بغيته بأسهل صورة.

وجاء بعد ذلك مؤلف الباحث شمسي باشا المعنون: "مجمع الألغاز" وقد تكون من قسمين: الأول للألغاز الشعرية التي ضمت الألغاز اللفظية والألغاز المعنوية، والقسم الثاني خصصه للألغاز النثرية، والأحاجي، وختم كتابة بمجموعة من الألغاز العامية. بداية شرح الباحث في مقدمة واسعة الدلالة اللغوية للفظ الألغاز، ثم الدلالة الاصطلاحية لها والمستخدمة في الشعر والنثر، وهي هنا مصطلح بلاغي يعني الإتيان بعبارة يدل ظاهرها على غير الموصوف بها، ويدل باطنها عليه، ويتوصل إلى معناها بالحدس والحزر، وعرض الباحث المصطلحات البلاغية المتصلة بالألغاز بعلاقة، عرضاً وافياً مميزاً بيّن دلالاتها الدقيقة كالإشارة والتعريض والتلميح والتمثيل والتوجيه والتورية وغيرها، مؤكداً بذلك ما يتمتع به من علم غزير وصبر كبير وجهد مضن، ولعل من أهم ما يميز هذا العمل هو توقف المصنّف بشكل خاص أمام "الرمز" لما له من أهمية في الشعر، قديمه وحديثه، ولارتباطه بالصراعات السياسية والخوف من بطش السلطة. وهو بذلك يتقاطع مع

دلالات الرمز في الشعر المعاصر في كثير من جوانبه، ووفق المصنّف أيضاً في إيراد الشروح للألغاز - لغة ودلالة - في المتن غالباً وفي الحاشية أحياناً، وأرفق عمله بثلاثة فهارس، أولها لمصادر الجمع ومراجعه، وثانيها لعناوين أقسام الكتاب. وفصّل في الثالث ورتّب الألغاز حسب حروف المعجم مع بيان رقم الصفحة بجانب رقم اللغز.

وثمة في أعمال الشاعر المنجزة مصنّفه: "محاسن حواء في ديوان الشعراء" أخرجه في جزئين (٨٠٠ صفحة) هو في الواقع موسوعة متكاملة في محاسن المرأة عامة، وينقل الباحث فيه قارئه إلى بستان مترع بالعطر والثمر وألوان الجمال المتألق، وقد تألقت شواهده التي جمعها من قديم الشعر وحديثه ورتبها وصنفها بدقة وموضوعية، ثم ختم مصنفه بالفهارس الضرورية كما فعل في مؤلفاته الأخرى، ولهذا المصنف ملحق مخطوط بعنوان: أشواق العشاق، وفيه ما قالت العرب في الغزل ووصف محاسن حواء.

إصدارات جديدة على الطريق:

تواصلت رحلة الباحث "شمسي باشا في عالم التأليف والتصنيف، وتوالي إنجازه لمخطوطات جديدة بالعشرات، من بينها "شوارد الشواهد" عرض فيها الشعر الجاري على ألسنة الناس من دون أن يُعَرف ناظمه، ومخطوطته: بديع الشعر في مراحل العمر، وتشتمل على ما ورد في شعر العرب في مراحل العمر: الشباب، الشيب: الشيخوخة، وما يتعلق بها من مظاهر الصلع والخضاب وأثر الطعام في الصحة والمرض.

وثمة في مخطوطات الباحث: بديع الشعر في الآباء والأبناء، وسجع الحمام، وظرف من السلف، ونوادر الظرفاء، وأخبار حواء في جدها وهزلها، وأباريز من التراث العربي، وسمات إنسانية حضارية من تراثنا، وعشرات غيرها من المخطوطات التي أنجزها الباحث وننتظر أن تخرج إلى النور في قابل الأيام.

من المؤكد أن هذه المصنفات المطبوعة منها والمخطوطة خير شاهد على مـا يمتلكه الباحث من ثقافة موسوعية ودأب فـوق التـصور علـى الـسهر والبحـث واستقصاء كنوز التراث الفكري العربي، وقبل ذلك كله عشق ذلك التراث والحرص على إخراجه من عتمة النسيان، ليعود من جديد متألقاً ونابضاً بالسمو والجمال، وقد أغنى الباحث بذلك رحلة عمره وجعلها كثيرة النفع للأمة والأجيال القادمة، وحـسبه ذلك الهدف النبيل.

الأمثال: ثمرة البلاغة وحكمة الزمان..

الأمثال حكمة الدهور، وصدى التجارب، وخلاصة الفلسفة، وثمـرة البلاغـة، تجري على الألسنة الموهوبة في خلال حديث، أو فـي أعقـاب حـادث، فتتناقلهـا الأفواه، وتتوارثها الأجيال لوجازتها، وحسن صياغتها، وصدق مغزاهـا، حتـى إذا وقع في الأمر ما يشبه الحال التي ورد فيها المثل تمثَّل به القائل، فيكون كالبرهـان يؤيد قوله ويؤكده، أو كالبيان يوضح معناه ويقرره.

والمثل: فن إنساني من فنون القول، لا يتميز به زمان على زمان، ولا تخـتص به أمة دون أمة، ولم يسر شيء كما سار، ولم يعّم كما عمّ، حتى قالوا: أسـيَرُ مـن مَثَل، والشاعر يقول:

مـــا أنـــت إلا مثـــل ســـائر   يعرفـــه الجاهـــل والخـــاير

وللمثل ميزة عن سائر فنون القول، في تقريب المعنى مـن فهـم المخاطـب، وتقديره في ذهن السامع، لذلك كان من الأساليب المختـارة فـي الكتـب المنزّلـة والأحاديث المرسلة والمواعظ العامة.

بعض الأمثال التي وردت في القرآن الكريم:

أورد القرآن الكريم الكثير من الأمثال للتفكر والتبصر والاحتكام إلـى العقـل، ووصف لنا بهذه الأمثال أخلاق المشركين واليهود: {أولئك الذين اشـتروا الـضلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، مَثَلهم كمثل الذي استوقد نـاراً فلمـا أضاءت ما حوله، ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون}. البقـرة: ١٦، ١٧.

وما أروعه من مثل يصف الذين اشتروا الضلالة بالهـدى، واسـتبدلوا بنـور

الهداية، ظلمات الإلحاد والكفر قال تعالى: {إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً، يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يُضل به إلا الفاسقين}. البقرة: ٢٦. ومعظم هذه الأمثال أوردها الله بحق الكافرين من بني إسرائيل، ذلك أنهم عتوا وكذّبوا الأنبياء وحرّفوا كتابي الله اللذين أنزلهما على سيدنا موسى وعيسى عليهما السلام.

وبعض الأمثال التي وردت في القرآن الكريم تصلح لأن تكون ثوابت ومرتكزات لكثير من القوانين الدولية، ومنها قوله تعالى: {ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون}، البقرة: ١٧٩. وقوله: {كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون}. البقرة: ٢١٦. وقوله: {ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم، كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين، فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير}. البقرة: ٢٦٥.

وضرب الله الأمثال للذين أنكروا ميلاد عيسى بن مريم من دون والد، وبعضهم من قال وكفر بأن عيسى ابن الله، سبحانه وتعالى لم يلد ولم يولد: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب فيم قال له كن فيكون}. آل عمران: ٥٩. فبهذا الخطاب يبين الله أنه خلق آدم من دون والد ولا أم، وهذا أمر من أموره هين: كن فيكون.

والأمثال أوردها القرآن الكريم لأصحاب العقول ليتدبروا أمرهم وينتفعوا بحكمتها: {وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون}. العنكبوت: ٤٣. وهي كثيرة يخاطب الله بها أصحاب العقول الكبيرة.

الأمثال في الأحاديث النبوية الشريفة:

في رحاب النبي - صلوات الله وسلامه عليه - تنتشر الروحانية الصادقة

وتشرق الحكمة الناطقة وتنبثق الموعظة الحسنة، ويأخذ العلم دوره الكريم في هداية المسلمين، ومجالس النبي مشرقة يحف به أصحابه الأطهار مضيئين كالنجوم، وادعين هادئين، ويطرح النبي – صلى الله عليه وسلم – المسألة من العلم، فتأخذ عقولهم المتفتحة باحثة وفاهمة، ويدير النبي صلى الله عليه وسلم دفة الحوار بالمجلس ليرشدهم بحكمه وأمثاله كما في هذا الحديث:

(قال البخاري – رحمه الله – حدثنا قتيبة، حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟)، فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله، قال: (هي النخلة).

في هذا الحديث الشريف محادثة طيبة، وحوار هادئ جميل، يطرح فيه النبي المعلم – صلوات الله عليه وسلامه – المسألة على أصحابه في جو من المطارحة العلمية الهادفة، وقد مثل صلوات الله عليه بجماد فقال: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم..).

ويتضح وجه الشبه بين المسلم والنخلة بما تلتمسه من منافع النخلة حتى النوى في علف الدواب، والليف في الحبال، والسعف في بناء العرائش وظلها في الصحراء ...الخ، فبركة المسلم عامة، في جميع الأحوال مثل بركة النخلة.

وفي حديث طويل قاله النبي – صلى الله عليه وسلم – في حجة الوداع، (... كلكم لآدم وآدم من تراب ...)، فحديثه – صلى الله عليه وسلم – مثل يصمد أمام الحقائق العلمية. وأصبح من القوانين الدولية، ومن مبادئ الأمم المتحدة، وقال – عليه الصلاة والسلام – (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً...).

ومن الأمثلة الحكيمة قوله – عليه الصلاة والسلام – في الحديث الشريف الذي رواه الشيخان في صحيحيهما: (كلم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته).

وهذه الأمثلة من مآثر الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأمثاله الحكيمة.

الأمثال بعضها واقعية وأخرى فرضية:

تنقسم الأمثال قسمين: أمثال واقعية، وأمثال فرضية.

فالواقعية: ما انتزعت من واقع الحياة، وأعمال الناس كقولهم: (رجع بخفي حنين)، وأصله أن إسكافياً من أهل الحيرة يسمى حنيناً ساومه أعرابي على خفين يشتريهما منه، فاختلفا حتى أغضبه الأعرابي، فأراد حنين أن يكيد له، فلما انقضت السوق أخذ أحد الخفين، وألقاه في الطريق الذي يعود منه الأعرابي إلى أهله، ثم ألقى الآخر بموضع آخر من الطريق وكمن عنده فلما مر الأعرابي بالخف الأول: قال في نفسه: ما أشبه هذا الخف بخف حنين، لو كان معه صاحبه لأخذته، فلما مر بالأخر ندم على تركه الأول، وأناخ بعيره وعاد في الطريق يبحث عنه، فخرج حنين من مكمنه، وأخذ الجمل بما حمل، ورجع الأعرابي إلى أهله بخفي حنين.

والأمثال الفرضية: ما افترض وقوعها على ألسنة الحيوان، أو النبات، أو الجماد، كقول الإمام علي – رضي الله عنه – حينما رأى تخاذل أصحابه، واختلاف من اختلف فيه، وخروج من خرج عليه: (إنما أُكِلتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض)، يعني أنه خُذِل يوم خُذِل عثمان، وأصل المثل أن أسداً وثوراً أبيض، وثوراً أسود، وثوراً أحمر، عقدوا في بعض الأجمات – غابات – معاهدة صداقة، فقال الأسد ذات يوم للثورين الأحمر والأسود: (إن هذا الأبيض يكشفنا للناس بلونه، فإذا تركتماني أكله أمنا من الناس واتقينا الفضيحة، فأذِنا له في آكله، ثم قال للأحمر: هذا الأسود يخالف لوني ولونك: ولو بقيتُ أنا وأنت، لظنك من يراك أسداً مثلي، فدعني آكله، فسكت عنه وأكله، ثم قال للثور الأحمر: لم يبق إلا أنا وأنت، وأريد أن أكل، فقال له الثور: إن كنت فاعلاً – ولابد – فدعني أصعد هذه الهضبة، وأصيح ثلاث صيحات فقال له الأسد: أفعل ما تريد، فصعد الهضبة وصاح ثلاث مرات، يقول: (إلا إنما أُكلت يوم أُكِل الثور الأبيض).

والأغراض من الأمثال الواقعية لا تكاد تُعدّ ولا تُحد، لأنها لفتات من الذهن، وفلتات من اللسان، تقال عفو الساعة، وفيض الخاطر، في شتى المناسبات، فتعلق بالأذهان لاشتمالها على حكمة أو لدلالتها على طبع أو خلق، وهي صورة للطباع، ومرآة للمجتمع، ومن الأمثال الاجتماعية ما يكشف عن عقلية القائل، وطبيعة بيئته، كذلك المثل الذي سار عن ذلك الأعرابي القاسي الذي حكم على رجل جنى على نفسه بعقوبة قطيعة من غير شفقة ولا رحمة، قالوا: إن رجلاً أراد أن يعبر نهراً وهو لا يحسن السباحة، فنفخ قربة وربطها وعام عليها، فلما توسط النهر أنفك الرباط وخرجت الريح وأوشك الرجل أن يغرق، فاستغاث بأعرابي على الشاطئ فتركه يغرق، وقال له: (يداكَ أوكتا وفوك نفخ)، يعني أنه هو الذي نفخ القربة بفمه، وربط فمها بيده، فجنى على نفسه، ولم يجن عليه.

والأمثال الواقعية قلما تسير إلا في الأمة التي نشأت فيها كقول امرئ القيس، حين بلغه موت أبيه، وهو عاكف على اللعب: (اليوم خمر وغداً أمر)، وقول يوليوس قيصر لأقرب الناس إليه وأعزهم عليه، وقد ائتمر به مع المتآمرين ليقتلوه: (حتى أنت يا بروتس...).

ولكن الأمثال الفرضية عالمية تتناقلها الأفواه من قبيل إلى قبيل، وتتوارثها الأعقاب من جيل إلى جيل، والغرض المقصود منها تقويم الأخلاق بالحكمة، ورياضة النفوس بالموعظة، من طريق التعويض والرمز وهذه الأمثال وليدة الشرق، لأنه كان موضع الحكم المطلق والاستبدال العنيف، انبعث من صدور الضعفاء المستعبدين صدى خافتاً لاحتجاج مكظوم صامت، لم يجدوا له متنفساً ولا طريقاً إلى آذان الأقوياء المستبدين، إلا هذه الكتابات والرموز، يسترون وراءها ما يريدون من نصيحة وعظة، وربما عرض الأمر الذي ينكل عنه عقل الطاغية، فيحتاج إلى المشورة، فيلجمهم عنها بالخوف والهيبة فيلجؤون إلى هذه الأمثال يضربونها، فيدركون بها ما يريدون من غير تعرض لسخط، ولا مواجهة لخطر، فقد ذكروا أن الطاعون فشا سنة بدمشق، فهّم عبد الملك بن مروان بالفرار منها،

فدخل بعض الفضلاء وقال: بلغني يا أمير المؤمنين أن ثعلباً صادق أسداً على أن يجيره من السباع، فكان أبداً بين يديه، فظهر في يوم من الأيام عقاب في الجو فخافه الثعلب ووثب على ظهر الأسد، فانقض عليه العقاب واختطفه، فصاح الثعلب: يا أبا الحارث: العهد، العهد، فقال الأسد: (إنما عاهدتك على أن أحفظك من أهل الأرض، أما أهل السماء فلا قبل لي بهم). فلما سمع عبد الملك ذلك قال: لقد وعظتني، ثم أبى أن يفارق المدينة، وربما احتالوا ببراعة المثل ولطف مدخله لنيل مأرب، أو دفع بلية، وقد نشأت الأمثال الفرضية أو الرمزية في بلاد الهند، ثم انتشرت منها في الصين، ثم انتقلت إلى فارس، ثم إلى بلاد العرب، ثم إلى بلاد الإغريق، وأشهر من كتب فيها من أدباء العرب: ابن المقفع مترجم (كليلة ودمنة)، وسهل بن هارون في كتابه (ثعلة وعفرة) الذي وضعه على نسق كليلة ودمنة، وقد عالجها بعض الأدباء في العصر الحديث، فوفقوا فيها، أمثال أحمد شوقي في الشوقيات.

بعض الأمثال عند بعض الشعوب:

ولكل شعب من الشعوب خصال من المدح والذم، رسخت في أصوله بحكم الفطرة، فتناقلتها الأجيال، وسارت بها الأمثال، وتندرت بها المجالس، فكما تضرب الأمثال بالسكسونيين في البرود والصبر والأناة، تضرب باللاتينين في الحدة والتهور، وكما تضر بالأمثال بشجاعة العرب وكرمهم، تضرب اليهود الأمثال في حبهم للمال وفي لؤمهم وبخلهم وجبنهم، ومن الأمثال التي وردت في بني إسرائيل قوله تعالى: {مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها، كمثل حمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله}. الجمعة: ٥. أرسل الله سيدنا موسى بالتوراة إلى بني إسرائيل وكلّفهم العمل بما فيها فلم يعملوا، فكان مثلهم مثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره الكتب القيمة، ولا ينتفع بها لجهله، وقلة عقله.

ومن أمثال العرب في حب اليهود للمال، قول حافظ إبراهيم يصف غادته

اليابانية:

(كنت أهوى في زماني غادة   وهب الله لها ما وهبا

ذات وجه مزج الحسن به   صفوة تنسي اليهود الذهبا)

ومن الطريف ما يتداعب به الناس على حب اليهود للمال، أن حاخاماً كان عائداً من الكنيسة مساء السبت، فأبصر على جانب الطريق قطعة من النقود الذهبية، فوقف أمامها جامداً، كأنما سمّرت قدماه في الأرض، ماذا يعمل؟ أيلتقطها ودينه يحرم عليه أن يقبض مالاً، أو يعمل عملاً يوم السبت؟ أم يتركها، وطبيعته تأبى عليه أن يترك قطعة من قلبه، وشعلة من روحه؟ وأخيراً اهتدى إلى حل يوفق بين عقيدته وطبيعته، فخلع رداءه وطرحه على القطعة الذهبية ونام فوقه حتى طلع فجر يوم الأحد.


على أنهم بهذا المال المعبود، استطاعوا أن يشتروا إنجلترا، وأن يحكموا أمريكا، وأن يغتصبوا فلسطين مشرق الهدى والسلام، ومجتلى عين موسى ومسرح قلب عيسى، ومسرى محمد – صلى الله عليه وسلم – وقبلة الإسلام الأولى، وقلب العروبة النابض ووطن مليون ونصف مليون من العرب المسلمين.

ومن تلك الأمثال قول العرب: (أذل من يهود يثرب)، وذلك أن يهود المدينة كانوا قد عاهدوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – على الأمان والضمان، ولكنهم نقضوا العهد وظاهروا العدو، وائتمروا بالرسول ليقتلوه، فحاربهم المسلمون حتى أجلوهم عن يثرب إلى الشام وخيبر، فكان اليهودي إذا دخل يثرب، دخلها ذليل النفس، وضيع المكانة.

ومن أمثال الأندلسيين فيهم قولهم: (أضلّ من اليهودي التائه)، وهو رمز على شعب إسرائيل، بعد أن مزقهم الله في الآفاق، وضرب عليهم الذلة والمسكنة، وأصل المثل أن المسيح – عليه السلام – مر بدار أحد اليهود، وهو منهك القوة من ثقل ما

يحمل، مكروب النفس من شدة ما يعاني، فأراد أن يستريح قليلاً في ظل الدار، فدفعه اليهودي عن ظلها بقسوة وشدة، فقال له المسيح وهو يخاطب في شخصه كل اليهود: (ستظل تائهاً في الأرض حتى أعود).

إن لعنة الله ودعوة المسيح لا تزالان تحرقان قدمي كل يهودي، فهو لا تثبت له قدم في أرض، ولا تطمئن له نفس في وطن، وكان من أثر ضلاله البعيد في الأرض، أن اكتسب أخلاق الغجر - الزط - فهو يلص ليعيش، ويخدع ليغلب، ويتوحش ليأمن، ويتعصب ليدافع، حتى انقطعت بينه وبين الناس علائق النوع، فأصبح خلقاً آخر لا يألف ولا يؤلف، فمحاولة إسكانه في غير أهله، وفي غير أرضه، تكذيب لكلمة الله، وتزوير على قانون الطبيعة، ولن تدوم بإذن الله: {لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون}. المائدة ٧٨، ٧٩.





الدكتور عبد الله عبد الدائم :

وضع إستراتيجية التربية العربية، وأسسّ لفكر قومي أصيل

أتاح لي المفكر الرائد "الدكتور عبد الله عبد الدائم" لقاءه مرات عديدة، وكنت في كل مرة أجلس مصغياً إليه بكل حواسي، متلقفاً بالمتعة والمحبة أحاديثه الفكرية العميقة، الصادرة من عقل متفتح مبدع، وقلب فياض بالمشاعر الصادقة ... وتمضي الساعات كأنها دقائق، وهو متدفق يؤكد قناعاته الفكرية التي أمضى سنوات عمره ينادي بها ويدافع عنها بحماس وصلابة، وأنا أعترف بأن تلك الساعات الحميمة كانت تملؤني بسعادة لا توصف، ورحت أتمنى في كل لقاء أن يطول ويمتد أكثر وأكثر، لولا خشيتي من إرهاقه وهو في هذه السن المتقدمة.

ولقد كتبت وكتب الكثيرون ممن يعرفون قدر هذا المفكر المقتدر، الذي مثل بحق عبقرية متميزة نذرت فكرها المتوقد لأسمى قضايا الأمة العربية: التربية والنضال من أجل الوحدة العربية، وهما وحدهما السبيل لانتشال الأمة من وهدة التخلف والتفكك، واستعادة مجدها المنيع الخالد، وهو في هذا السياق يمثل امتداداً متطوراً لساطع الحصري بل لعلّه كان أكثر عمقاً منه في طرح وتبسيط وتحليل الظاهرة القومية "كوجود ومصير للأمة العربية"، وما هو مطلوب لتكون هذه الظاهرة حالة سلوكية تربوية وثقافية لجيل يتطلع إلى الوحدة والقوة بل والثورة، وإلى بناء وطن ممتد من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، ومن جبال طوروس في الشمال إلى جزيرة العرب في الجنوب.

بدايات المسيرة:

ولد الدكتور "عبد الله عبد الدائم" بمدينة حلب عام ١٩٢٤، ونشأ في أسرة أنجبت عدداً من العلماء، وتربى تربية دينية منذ حداثته، فأطلع على علوم الدين،

وأهتم بمطالعة التراث الفكري الإسلامي، مما هيّأه لإدراك عمق العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام، وفي مرحلة الدراسة الثانوية أبدى اهتماماً باللغة الفرنسية، واستهوته أعمال الروائيين الفرنسيين الأعلام وشعراء الكلاسيكية والرومانسية، فأقبل على قراءة هذا الأدب بظمأ لا يرتوي، ولكن ذلك لم يصرفه عن عشقه للأدب العربي قديمه وحديث، فاستغرق في قراءة روائع التراث العربي والأدب الحديث...وأتاح له ذلك أن يكون من أوائل الناجحين في فرعي الشهادة الثانوية: الأدب والعلوم، وبالبكالوريا الثانية، قسم الفلسفة في عام ١٩٤٣. ولما أوفد إلى القاهرة التحق بجامعتها ونال منها الليسانس عام ١٩٤٦، وكان ترتيبه الأول بين الخريجين، وتابع بعدها الرحلة إلى باريس ليحصل من السوريون على دكتوراه الدولة في الآداب عام ١٩٥٦.

محطات في مسيرة طويلة:

عمل الدكتور عبد الدائم بعد عودته للوطن مدرساً بكلية التربية بجامعة دمشق، واختير وزيراً للأعلام والتربية عدة مرات، ثم أصبح أستاذاً وخبيراً للتخطيط التربوي في بيروت والقاهرة، ومديراً لمشروع اليونسكو لتطوير التربية بسلطنة عمان، وممثلاً لليونسكو في دولة غربي أفريقيا، ورئيساً لقسم مشروعات التربية في الأقطار العربية وأوربا، بمقر المنظمة في باريس، وعضواً بلجنة النظام التربوي في الكويت، وعضواً بمجلس أمناء مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، وعضواً في المؤتمر القومي الإسلامي. ومن العجيب حقاً أن هذا العمل الدائب والمضني طوال سنوات لم يشغل الدكتور عبد الدائم عن عطائه الكبير في ميداني واسعين: الأول ميدان النضال القومي، والثاني ميدان التأليف والترجمة والنشر.

في الميدان الأول كان الدكتور عبد الدائم في طليعة مؤسسي حزب البعث العربي الاشتراكي، فنشط في مجال الدعوة القومية فكراً وعملاً، وأسهم في تأسيس مركز دراسات الوحدة العربة في بيروت، وفي نشاطات المؤتمر القومي العربي،

إضافة لمشاركته الدائمة في معظم الندوات الفكرية والقومية على ساحة الوطن العربي.

وفي ميدان العمل التربوي، أسهم بكل الوسائل في تطوير نظم التربية في مختلف الأقطار العربية وشارك في وضع اتفاقية الوحدة الثقافية بين مصر والأردن وسوريا، ومن خلال عمله كخبير وأستاذ للتخطيط التربوي، والإدارة التربوية أتيح له أن يتولى تدريب أفواج متتالية من كبار موظفي التعليم في الدول العربية، مما كان له كبير التأثير في تطوير القيادات التربوية العربية، وتحديث نظم التربية فيها، وأتاح له عمله بمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وضع استراتيجية تطوير التربية ومراجعتها وقد أنجز هذا العمل الهام عام ١٩٩٥، وقد ثمنت المؤسسات التربوية والثقافية إسهاماته الرائعة فمنحته أوسمة عديدة وجوائز ثمينة كان آخرها جائزة مؤسسة سلطان العويس الثقافية، في ميدان الدراسات الإنسانية عام ١٩٩٢.

فكر متألق في خدمة القضية القومية:

رافق عمل الدكتور عبد الله عبد الدائم التربوي والقومي، نشاط إبداعي فكري واسع في مجال النشر والتأليف، فتوالت كتبه الكثيرة التي اشتملت على دراساته القيمة، وأفكاره القومية، حتى بلغت الأربعين كتاباً. ونشر ما بين ١٩٥٧ – ١٩٦٥ سبعة كتب متميزة عرض فيها نظرية القومية العربية: (مقوماتها، أبعادها) وهي على التوالي:

القومية والإنسانية – دروب القومية العربية – التربية القومية – الجيل العربي الجديد – الاشتراكية والديمقراطية – الوطن العربي والثورة – التخطيط الاشتراكي.

وكانت هذه المؤلفات في مضمونها وروحها، انعكاساً للأفكار القومية التي سادت في الوطن العربي إبان تلك الفترة، ومن المدهش والمثير أن تلك المؤلفات بما حملته من دراسات علمية وأفكار واضحة ما تزال ذات قيمة رفيعة ومضمون هام، برغم مرور نصف قرن ونيف على ظهورها، بل وما تزال منطلقاتها نفسها

أساساً سليماً للعمل القومي المنشود في زمننا، ويصعب تصور أي تقدم أو نهضة إلى مستقبل عربي كريم يحقق للأمة أهدافها المشروعة في القوة والانتصار، بدون تلك المبادئ، ونعين بها: الحرية والوحدة والعدالة الاجتماعية، فهي وحدها السبيل إلى تفتيح طاقات الأمة إلى الأبد الأبعد، وترسيخ وجودها المفاعل، القادر على مواجهة المطامع الأجنبية، ومواصلة المسيرة في دروب الحضارة الإنسانية.

وتابع الدكتور "عبد الدائم" نشر مؤلفاته طوال السنوات الماضية بغير كلل فظهر له:

في سبيل ثقافة عربية ذاتية، القومية العربية والنظام العالمي الجديد، إسرائيل وهويتها الممزقة، دور التربية والثقافة في بناء حضارة إنسانية جديدة، نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، صراع اليهودية مع القومية الصهيونية - وأخيراً: العرب والعالم وحوار الحضارات.

أما في مجال الفكر التربوي، فقد أغنى المكتبة العربية بمجموعة من الدراسات العلمية الأدبية وبينها التربية عبر التاريخ، التخطيط التربوي، الثورة التكنولوجية في التربية العربية، التربية في البلاد العربية، نحو فلسفة تربوية عربية، مراجعة استراتيجية تطوير التربية العربية، الاستراتيجية العربية للتربية في المرحلة السابقة على التعليم الابتدائي، وكان آخرها في هذا الميدان: الآفاق المستقبلية للتربية في البلاد العربية.

ومع مطلع العام الجديد كانت المكتبة العربية على موعد متجدد مع الدكتور "عبد الله عبد الدائم" إذ قامت المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، بإصدار كتبه السبعة الأولى في مجلد واحد بعنوان: "الأعمال القومية: ١٩٥٧-١٩٦٥" وهي الكتب التي عرض فيها للنظرية القومية العربية، ونفذت طبعاتها المتلاحقة التي ظهرت منذ أربعين عاماً، وقد مثلت أيام ذاك محوراً أساسياً لأفكار العديد من الحركات القومية في الوطن العربي، كما أسهمت بشكل واضح في تكوين الجيل العربي الجديد.

وكان صدور الأعمال الكاملة مناسبة للقاء الدكتور عبد الدائم، الذي استمر يبشر بالفكر نفسه، وازداد إيمانه رسوخاً بأن الانتصار النهائي، سيبقى حليف الأمة العربية، مهما تكالبت عليها المحن، وستنهض قوية عزيزة بما تملك من مقومات القوة والحياة.

- **وفرض السؤال نفسه: كيف يقرأ الدكتور عبد الدائم واقع الأمة الراهن، وهل هو قدر حتمي لا خلاص منه؟ فيجيب:**

لا شك بأن ما ابتليت به الأمة العربية في العهود الحديثة، قلّ أن تبتلى به أمة من الأمم، والسبب واضح، وهو غرس هذا الكيان الهمجي في قلبها كالخنجر، مع كل ما يحمله من قدرة على تفتيتها ومنع تقدمها ... ومن ثم ابتلاعها جزءاً بعد آخر ... فإذا أضفنا إلى بلاء (الصهيونية) بلاء الاستعمار الذي كاد للأمة العربية وسيطر على مقدراتها منذ قرون بعيدة، توضحت لنا فداحة الأرزاء التي ابتليت بها الأمة العربية من خارجها، فعطلت قواها، ومنعت استعادتها لمجدها وإرثها الحضاري. غير أن هذا بمجمله لا يفسر كل شيء، بل إن الأمة التي أصيبت بخنجر سواها، أصابتها من داخلها عوامل وأمراض حالت بينها وبين ارتقائها وازدهارها، وحسبنا هنا أن نقول: إن الأمة العربية قصرت في إعداد العدة اللازمة لمواجهة التحديات الكبرى، والمخاطر التي أحاقت بها، تقصيراً غير جائز، ظل متراكماً ومستمراً من أيام استقلالها عن الدولة العثمانية وإلى اليوم.

كان على الأمة العربية أن تعي أن ما يحدث اليوم، كان لابد من حدوثه إذا لم تعمل بدأب متواصل من أجل تفاديه والنجاة من شروره ... لقد قامت (الصهيونية) في قلبها دون أن تعبئها التعبئة الضرورية ... بل ودون أن تعرف معرفة عميقة، حقيقة مقاصد الصهيونية، والمدى الذي يمكن أن تصل إليه ... وكثيراً ما كان يعني: عدم الاعتراف بالصهيونية وإسرائيل لدى الدول العربية، مجرد عدم معرفتها ... إن شارون السفاح ومن قبله، اليمين المتطرف كله وعلى رأسه، بيغن، وشامير،

ونتنياهو وسواهم من بناة الصهيونية، هم كما نعلم أبناء ذلك الصهيوني اليميني المتغطرس والتوحش (جابوتنكسي) المولود عام ١٨٨٠ والمتوفي عام ١٩٤٠، وهو رأس هذا اليمين الصهيوني المتطرف الخبيث ... شارون يطبق برنامجه اليوم بالحرف الواحد.

في عام ١٩٢٣ كتب (جابوتنسكي) مقالة شهيرة بعنوان (الجدار الحديدي) قال فيها قولاً لا لبس فيه: إن العرب لن يتخلوا عن أرض إسرائيل المزعومة!! طوعاً، ولابد لنا أن نكرِهَهم على تركها بالقوة، وليس في المستقبل القريب ولا المستقبل البعيد، أي أمل في أن يتخلى العرب عن ارض إسرائيل بمحض إرادتهم).

ومثل هذا القول كرره عتاة الصهاينة وخاصة نتنياهو في كتابه: (مكان تحت الشمس) ... وما دام المجتمع العربي ما يزال يأمل بأن تعود إسرائيل إلى رشدها، علينا أن نذكر أن (جابوتنسكي) هذا حين قيل له: إن استعادة أرض الميعاد بالقوة والعنف ووسائل القمع كما يريد، أمر بجانب القيم والأخلاق الإنسانية، أجاب بكل بساطة: إذا كان القضية التي تدافع عنها وتحارب من أجلها قضية مقدسة، فكل الوسائل التي يمكن أن تستخدمها لبلوغها مقدسة أيضاً!... هذا جانب من تقصير العرب بمعرفة عدوهم، وأفدح منه تقصيرهم في إعداد العدة الضرورية لاجتناب المصير الأسوأ الذي ينتظرهم ... لقد كانوا يتلقون النكبة تلو النكبة، وكأن ما يصيبهم هو ختام النكبات، وفي معظم الأحيان كان جهدهم يتوقف عند إيجاد حل لن يكون بطبيعة الحال، إلا منقوصاً بل وفاشلاً للنكبة على نحو ما تقع ... ثم يلي بعد ذلك صمت مطبق ... بل ونوم عميق!!.

- **كيف يرى الدكتور (عبد الله عبد الدائم) المخرج؟ وعلى من تقع مسؤولية الإنقاذ؟**

طبعاً، مهما يكن شأن المجتمع الدولي، ومهما يكن خاضعاً للقوة الغالبة العظمى فيه، يظل من الصحيح أن المجتمع الدولي لن يعيد إلينا ولو جزءاً يسيراً من حقوقنا،

إلا إذا تبين له أننا نملك الإرادة والقدرة و العزيمة اللازمة لتحرير أنفسنا. ومن هنا فالمسؤولية هي مسؤوليتنا جميعاً حكاماً ومحكومين، شعوباً ودولاً ... وفي هذا المجال لابد من القول بأن مقاومة الصهيونية ومقاومة أخطارها القائمة والقادمة، لابد وأن يكون رأس الحربة فيها جماهير الشعب العربي، والمؤمنة بأمتها وقيمتها وتراثها، ولكن شريطة أن تكون هذه الجماهير منظمة ... لأن الجماهير مهما يكن عطاؤها، غير قادرة على التأثير في الأحداث تأثيراً فعالاً إلا من خلال أقنية منظمة، سواء كانت حزبية أو نقابية أو مهنية أو غير ذلك ... المهم أن نؤمن بأن المعركة مستمرة، وأن نؤمن بأن النصر لنا في النهاية، إذا نحن أحكمنا تعبئة قوانا.

- **يلح العدو الإسرائيلي على موضوع التطبيع ويعمل له بكافة الأساليب، ما هو الخطر الذي يمثله التطبيع، وكيف للأمة العربية أن تواجهه؟**

من المؤكد أن أكبر خطر يتهدد أمتنا هو تصميم العدو الإسرائيلي، منذ قيام كيانه الغاصب، على القضاء على الهوية الثقافية العربية الإسلامية، فهذا المطلب مطلب أساسي، بل يكاد يكون المطلب الأول الذي جعلته إسرائيل، الهم الأول لها من أجل إنهاك الكيان العربي والقضاء عليه تماماً ... من الممكن أن ينهار الكيان إلى حين عسكرياً، وقد ينهار اقتصادياً، ولكنه يبقى قادراً على المقاومة والصمود إذا ظل متمسكاً بهويته العربية الإسلامية. تلك الهوية التي تمثل جداراً صلباً وعصياً يحول بين الأمة العربية وبين أن تذوب في الكيان الصهيوني الخبيث. نحن ندرك بأن وسائل الإعلام الحديثة، باتت أقدر على الغزو الثقافي للأمة العربية، وأقدر على اختراق الثقافة العربية بوسائلها المختلفة، ومن هنا، فمن غير الجائز أن نطمئن إلى عمق الثقافة العربية وقوتها لدى الكثرة الكاثرة من الجماهير العربية. ولابد بالتالي أن ندرك بأننا أمام عالم جيد، ووسائل إعلامية جديدة وقادرة، وسموم ثقافية أكثر فتكاً وتخريباً، وأيديولوجيات مختلفة، لابد أن تتصدى لها النخبة المثقفة في الوطن العربي، وتقاومها مقاومة علمية منظمة ومستمرة، ومن هنا كان شعار العمل

لمقاومة التطبيع مع العدو، أهم شعار على المثقفين أن يتمسكوا به اليوم، ويقلبوه على وجوهه المختلفة، ولا يكفي في ذلك العمل الثقافي الفردي، بل يترتب وبسرعة إنشاء شبكة عربية واسعة ومتكاملة، هدفها مقاومة التطبيع الثقافي مقاومة يومية متواصلة بأشكال عديدة واسعة ومتكاملة، ولا شك أن ميدان المقاومة واسع جداً... وبالذات إذا أخذنا المعنى الواسع لكلمة ثقافة اليوم، والتي لا تعني الفنون والآداب والأفكار وحسب، بل تعني كل أنماط السلوك المادي والمعنوي، السائدة في مجتمع من المجتمعات، والتي تميزه عن سواه، والتي تكون في نهاية المطاف قوام الهوية الثقافية لأمة من الأمم.

- **ظلت الوحدة العربية مطمح آمال الجماهير العربية طوال عقود ... فهل ما تزال اليوم مجدية، والعمل لتحقيقها ممكن؟**

من الخطأ أن نعتقد بأن العولمة تعني حتماً وحكماً زوال الكيانات القومية، والاتجاهات التي نجدها في العالم اليوم ويتحدث بعضهم أن يدعي أن الكيانات القومية لابد أن تزول في عصر العولمة ... في حين يرى بعضهم الآخر – على العكس – أن العولمة ستؤدي إلى احتماء الكيانات القومية المختلفة بجلدتها وكيانها تجنباً لمخاطر العولمة، ويصدق هذا بوجه خاص على البلدان النامية، ونحن نعتقد بأنه ليس هناك أي شيء في العولمة – إذا فهمناها بالمعنى الصحيح – يدعو حكماً وحتماً إلى زوال الكيانات القومية، بل نحن نرى بأم أعيينا من اليوم، أن كثيراً من الدول، بينها دول متقدمة أخذت تؤمن بأهمية الكيانات القومية المتجانسة، كما نرى في أوربا والاتحاد الأوربي، وكما نجد في آسيا واتحاد دول الباسيفيك، ودول أمريكا اللاتينية، وإن اتخذت الكيانات القومية هناك شكلاً أوسع. وفد سئل الرئيس (ميتران) عندما كان متوجهاً إلى (مايسترش) للتوقيع على دستور الوحدة الأوروبية: ما سر تأكيدك لأهمية الوحدة الأوروبية، وما الدافع لقولك: فرسنا وطني، ولكن أوربا مستقبلي؟ فأجاب بقوله: ولكن ما البديل؟... هل البديل هو العودة إلى صراعات

القرن التاسع عشر؟

ومنذ قرون أيضاً كتب (ماديسون) احد رواد الاتحاد في الولايات المتحدة، يوم كانت ثلاث عشر ولاية، مدافعاً عن أهمية هذه الولايات: (كل من يظن أن الجور بين الأمم يخلق الوئام لا الخصام، إنسان جاهل بحقائق التاريخ) وقد أراد بهذا التعبير أن يوضح للأمريكيين في ذلك، أن يختاروا بين ولايات ثلاث عشرة تتخاصم وتتنازع ويحكمها الأجنبي المستعمر من وراء البحار، من إسبان وإنكليز وسواهم، وبين ولايات يجمعها دستور اتحادي، وينظم العلاقات فيما بينها ... وخيرّها وقتها بين التمزق وبين الهيبة. ونحن هنا في وطننا العربي، نستطيع أن نقول كما قال ميتران ما البديل عن الوحدة العربية؟... إن الذين يشككون بالوحدة العربية هم أنفسهم يقرون ويعترفون بأن الدولة القطرية عاجزة عن التقدم والتنمية والأمن، ولا نقول جديداً حين نؤكد بأن أي دولة عربية عاجزة وحدها عن أن تبني مستقبلاً آمناً في وجه إسرائيل بوجه خاص، وأن تحقق التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وسائر ضروب التنمية، وأن توفر الطمأنينة والأمن لمواطنيها، وأنا أرى أن هناك مغالطة أو سوء فهم لدى الذين ينظرون إلى واقع الأقطار العربية المجزأ، ويستخلصون منه تعذر قيام الوحدة بينها، وذلك لأن هذا الواقع المجزأ بل والمتخاصم أحياناً – مع الأسف – والعاجز عن أن يقف في وجه إسرائيل والعاجز عن التنمية ... هو نتيجة طبيعية لغياب الوحدة، وليس مبرراً يبرر تعذر قيامها، فصورة الدول العربية إذا لم تصهرها قوة الوحدة هي بالضرورة ما نرى وما نشهد.

- **راهنت في واحد من مؤلفاتك على اندحار المشروع الصهيوني ... فعلام بنيت هذا الرأي؟**

لم أراهن تماماً على اندحار المشروع الصهيوني ... ما قلته بأن هذا المشروع فيه كل عوامل وأمراض التفتت والصراع، ومن الممكن بالتالي الإفادة من هذه الأمراض، ومن أجل حشد القوة العربية لمواجهته، وبتعبير آخر، هناك أمم كثيرة

ابتليت بالصراع الداخلي، والتفتت من داخلها، وتمزق هويتها على ما نشهد في إسرائيل اليوم، ومع ذلك استطاعت أن تبقى حين لم تتوافر قوة خارجية تقضي عليها، ومعنى هذا أن الدرس الذي يمكن أن نستخلصه مما نشهد في إسرائيل من صراع وفقدان للتجانس ومشكلات في تحديد الهوية، ومشكلات في تحديد القصد من كلمة يهودي ... الخ، هي أمراض تضعف الكيان الغاصب ولاشك، ولكنه لن يزول إلا إذا واجه قوة خارجية، وهي هنا قوة عربية، تفيد من هزال بنيته من أجل القضاء عليه.

- **العرب والعالم وحوار الحضارات. كيف ومن أين؟!.**

نحن في حاجة للحديث عن حوار الحضارات لهدفين: الأول هو: نحن ... علينا نحن أولاً، أن نحدد موقفنا وفهمنا الحضاري لحوار الحضارات بشكل دقيق وسليم. أقول هذا لأن الحضارات العربية الإسلامية قامت على أساس حوار الحضارات، بل على أساس تمازج الثقافات، ولك عهود التخلف التي مرت بها الأمة العربية من ناحية، وموقف الغرب المعادي للأمة العربية من ناحية أخرى، جعل أبناء أمتنا ينطوون على أنفسهم ويخشون من حوار الحضارات، خوفاً من النزعة التي يسميها (توينبي): (النزعة الزيلوتية) وتعني: الانطواء على الذات والاكتفاء بالذات ... بل ومحاربة كل شيء عدا الذات.

والسبب الثاني، أن العالم الغربي، الذي يحمل رواسب قرون طويلة من العداء للعرب ومن كره العرب، ومن تشويه لتاريخ العرب، أصبح في أيامنا هذه، بوجه خاص، بحاجة إلى فهم الحضارة العربية فهماً جديداً، وإلى أن يدرك منازعها الإنسانية العميقة، ونزوعها من البداية إلى الانفتاح على الثقافات كلها، والحضارات كلها والأديان كلها، كما حدث في أيام الدولة الأموية، والعباسية، وفي الأندلس بشكل خاص.

وموضوع الربط المغلوط الذي يربط به بعض أبناء الغرب بين الإسلام

والإرهاب، لابد أن يتولى النقاش حوله، وتوضيحه من قبل أبناء الحضارة العربية أنفسهم قبل غيرهم ... لست في حاجة لذكر أمثلة، كتابي الذي صدر مؤخراً بعنوان: "العرب والعالم وحوار الحضارات" فيه أمثلة كثيرة على المنازع الإنسانية للحضارة العربية، سواء في النصوص الدينية أو سواها، أو في الممارسات العملية..ثم يضاف إلى هذا أن موضوع (حوار الحضارات) أصبح مطلباً إنسانياً شاملاً، ولاسيما بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، فقد بينت الأحداث أن العولمة الوحشية لا تؤدي فقط إلى إفقار الدول النامية، تاركة الدول المتقدمة تنعم بخيراتها وثرواتها ... بل إن هذه العولمة صارت خطراً على الدول المتقدمة نفسها وفي عقر دارها. وأحد وسائل بناء عولمة سليمة لا عدوان فيها من أمة على أمة، لابد أن يكون بالتالي: حوار الحضارات.

تحضرني هنا كلمة لمفكر غربي ترتبط بالحوار، وبما يمكن أن يؤدي إليه انعدام الحوار من عنف، فيقول: وهذا القول يلخص في نظري الموقف العالمي كله، (لا تستطيع دولة قامت على العنف، واستطاعت أن تستمر عن طريق العنف، أن تتخلص من العنف الذي يتهددها إلا إذا تخلت هي عن العنف).

والحوار بين الحضارات بغير شك، هو عمل كل إنسان والمثقفين بشكل خاص ... ولكن في الظروف الحالية لابد وأن تكون له مؤسساته التي تخاطب العرب وغير العرب، والتي تنتظم المثقفين بشكل خاص.

المشروع القوميّ العربيّ في مواجهة الصهيونيَّة
((الملف)) الذي يجب أن لا يغلق

I – مدخــل:

عندما يُقْبل المرء على التصدّي للصراع بين القوميّة العربيّة والقوميَّة الصهيونيَّة، تزدحم المعاني في صدَّره، فلا يدري أيُّها يختار. ومع ذلك ففي وسعنا أن نُوجز الموقفَ بالقول إنّ على القوميَّة العربيَّة أن تنطلق في صراعها مع القوميّة الصهيونيَّة منذ نشأتْ، وعبر مراحل تطوُّرها جميعها. قوميّة أسطوريّة خرافيّة، وقوميَّة مصطنعة زائفة، وقوميَّة عنصريَّة إثنيَّة، وقومية عدوانيّة.

ومن هنا كان من العبث أن نتوقَع من إسرائيل، ربيبة الصهيونيَّة، أن تتخلّى ولو عن جانب من مطامعها العدوانيَّة المرسومة ... إلاَّ إذا استطاعت القوميَّة العربيَّةُ أن تَمْلك من القوّة والوحدة والتأثير ما يحْمل إسرائيلَ على إعادة النظر في منطلقات الصهيونيّة. وما يجعلها تُدْرِك من خلال المعاناة الواقعيّة أنّ هذه المنطلقات مستحيلة التطبيق وأنَّها سوف تعاني جرائرَ هذه الخطيئة الأوليّة، إذا هي لم تتخلَّ عنها نهائيّاً.

غير أنَّ تقرّي الأحداث يَكْشف عن أن سلوك إسرائيل كان وما يزال عكس ذلك فكلّما عصفتْ بها الأزماتُ ازدادت خوفاً على مصيرها، وازدادت من ثمّ عدواناً ولن يأتي اليومَ الذي تتخلّى فيه عن عدوانها، وتعيدُ الحقَّ لأصحابه، إلاَّ إذا أدركتَّ إدراكاً عمليّاً أنَّ العرب لن يستسلموا وإنْ غُلبوا على أمرهم إلى حين، وأنَّ الزخم القوميّ العربيّ في تصاعُد.

ولعلَ من البديهيّ أن نقول إنَّ الذي أوصلَ القضيّة الفلسطينيَّة إلى هذا المصير الذي تَشْهده، كما أوصل الأمّة العربيّةَ إلى الحيرة والاضطراب، هو أنَّ الحركة

---

* مرب ومفكر قومي، ووزير سابق والبحث أعلاه نصُّ المحاضرة التي ألقاها في المركز الثقافي بحلب.

القوميَّة العربيَّة لم تكن في شتّى مراحل نموّها وعملها في المستوى الذي تَستلزمه مواجهةُ رزء الصهيونيَّة وأطماعها. ومن المؤلم أن نقول إنَّ الصهيونيَّة استطاعت. بدأ بها وعملها المنظَّم، أن تَقلب خرافتها، خرافةَ الكيان الصهيونيّ إلى حقيقة، ولاسيّما في نظر العالم وإنَّ الأمّة العربية، بسبب عجزها وقعودها وتشتُّتِ أبنائها، هبطتْ بحقيقتها إلى مستوى الخرافة. وإذا استمرت الدولُ العربيَّة تقوقعها القُطْري وإذا عجزت القوميّة العربيّةُ عن إعادة صياغة أهدافها ووسائلها – وعلى رأسها بناءُ الإنسان العربيّ المصمم على النضال والمالك لوسائله، والقادر على الارتفاع ببنية الأمّة العربيّة إلى مستوى العصر – فلن تُفْلح محاولات السلام نفسها مع إسرائيل ولا أدلّ على ذلك من أنّ عقليَّةَ العدوان، الراسخةَ في نفوس أبناء إسرائيل، قد فرضتْ نفسها على عمليَّة السلام. بل تَكْشف مفاوضاتُ السلام بين الفلسطينيِّين والإسرائيليِّين كلّما تقدَّم الزمنُ عن عودة مطّردة إلى منطلقات اليمين الصهيونيّ المتطرّف، وعن بروز جديدٍ لأكثر اتّجاهات الصهيونيّة عدوانيّة منذ نشأتها – نعني الاتّجاه الذي مثّله منذ البداية الزعيمُ الصهيونيُّ جابوتنسكي، وعاد فمثّله مِنْ بعده ورثتُه من أمثال بيغن وشامير ونتنياهو وأخيراً لا أخراً شارون بل إنَّ الجناح الإسرائيليّ الذي يدّعي أنَّه جناح السلام. وعلى رأسه شيمون بيرس فضلاً عن باراك، يزداد مع الأيام جنوحاً إلى المواقف العدوانيّة والتصاقاً بمقولات اليمين المتطرّف. ولكي ندرك هذا كلّه، لابدّ من العودة إلى منطلقات الصهيونيّة الأولى منذ نشأتها.

II – معالم السياسة الإسرائيليَّة من خلال منطلقاتها الصهيونيَّة:

١ – القوميَّة الصهيونيَّة قوميَّة أسطوريَّة خرافية:

قامت الصهيونية على جملة من الأساطير التي حاولتْ من خلالها تزوير التاريخ اليهوديّ، وعلى رأسها أسطورة الأرض الموعودة. وهنا نحرض على الإشارة إلى الحقيقتين اللتين كشفت عنهما أحدثُ الدراسات التاريخيّة بهذا الشأن

الأولى تؤكّد أن التوراة – على نحو ما صاغها اليهودُ بعد حوالي خمسمائة عام من نزولها على موسى – لا يمكن أن تُعَدَّ كتاباً ذا قيمة تاريخيّة، وأنّ ما جاء فيها لا يعدو أن يكون أساطير الأوّلين. والثانية تؤكّد تهافُتَ ما ورد في التوراة المزيَّفة عن دولةٍ اسمُها إسرائيل وَضَعَها المؤرِّخون الصهاينة في مرحلة الانتقال بين العصر البرونزيّ المتأخر والعصر الحديدي (أيْ حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد) ويشير كيث وايتلام إلى أنَّ أورشليم في القرن العاشر قبل الميلاد لم تكن أكثر من مرتفعات صغيرة، وكانت أبعد ما تكون عن عاصمةٍ لمَلَكيَّة موحَدة شاسعة على نحوِ ما ورد في النصوص التوراتيّة المزيّفة. وهذا يعني "أنّ ما كان يُعتبر تقليديّاً أوجَ التطوُّر السياسيَ في المنطقة، ونَعني دولةَ داودَ وسليمانَ القوميّة، يختفي من الوجود نهائيّاً"[1] ويبيِّن الكاتب أيضاً كيف أدَّى هذا التزييفُ إلى إقصاء تاريخ فلسطين القديمة وسكّانِها الأصليِّين، وكيف تقدِّم المعطياتُ الآثاريّةُ معلوماتٍ قيّمةً حول الوضع السكانيّ والاقتصاد والتنظيم الاجتماعي لدى السكّان الأصليِّين لتلك البلاد (أي الفلسطينيِّين). بالإضافة إلى أنْ هذه المعلومات لا تَذْكر شيئاً عن كيانٍ اسمُه (إسرائيل) ومن هنا يرى الكاتب أنْ الفلسطينيِّين اليوم قد تَناسَوا التاريخَ الفلسطينيَّ القديمَ وتركوه لإسرائيل والغرب، وأنْ من اللازم استردادَ ذلك التاريخ بعد أن تمَّ إقصاؤه خلال القرنين الماضيَيْن (نتيجة للقبضة الخانقة التي أظهرها المتخصِّصون والمؤرِّخون والآثاريُّون الكتابيُّون، والتي تتحكَّم في دراسة فلسطين والشرق الأدنى القديم)[2] فقد بحث الباحثون الكتابيُّون (التوراتيُّون) دائبين عن وجود إسرائيل الماديّ بين خرائب الأرض وأثارها، ولكنَّ (ما عثروا عليه هو ما كانوا قد قرَّروا

---

(١) كيث وايتلام. تلفيق إسرائيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني، ترجمة ممدوح عدوان (دمشق دار قدمس) ص١٧، ٣٠٠، ٣٠٣.

(٢) كيث وايتلام. تلفيق إسرائيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني، ترجمة ممدوح عدوان (دمشق دار قدمس) ص١٧، ٣٠٠، ٣٠٣.

مسبقاً أن يعثروا عليه، نعني إسرائيلَ شبيهةً بالدول القوميَّة اليوم) [1] وهكذا تمّ تقديمُ إسرائيل إلى العالم بوصفها دولةً قوميَّةً بديئةً تَبْحث عن وطن تعبِّر فيه عن وعيها القوميّ التليد والجديد. [2]

٢ - القوميَّة الصهيونيَّة قوميَّة قسريَّة مصطنعة زائفة:

لعلّ أبرز ما تتّصف به القوميَّة الصهيونيّةُ أنَّها وُلِدتْ ولادةُ قيصريْة، بل أكْرهت الشعبَ اليهوديّ نفسَه على غيرِ ما كانت تريده أكثريَّتُه الساحقة. وإنَّ المرء ليعجب ما الذي دعا الفئةَ الصهيونيَّةَ القليلةَ العددِ إلى ركوب هذا المركب الذي لم يكن يهودُ الشتات في حاجة إليه، ولا يَحْمل لهم سوى الآلام والصراعات والحروب.

أ - اليهوديَّة والصهيونيَّة:

ولا شكّ أنَّ أول تساؤل يَخْطر على البال في هذا السياق هو عن دور الدين اليهوديّ في تيسير هذه المهمّة. وحسبنا أن نقول إنّ رجال الدين اليهوديّ (باستثناء قلّة نادرة) قد أنْكروا الحركةَ الصهيونيّةَ إنكاراً حاسماً يوم ظهرتْ على يد هرتزل عام ١٨٩٦-١٨٩٧: واعتبروا الدعوةَ إلى عودة اليهود إلى ارض الميعاد، بإرادة بشريّة لا إلهيَّة، كفراً وهرطقة، ورأوا في الصهيونيّة ثورةً ضد الإله ونفياً لليهوديّة واستعجالاً (مسيحانيّاً، أو مشيحانيّاً قبل أن تَظْهر الإشاراتُ الإلهيَّةُ الدَّالةُ على ذلك. [3] ومن هنا الموقفُ السلبيُّ الحاسمُ الذي واجه به اليهودُ وحاخاماتُهم في ألمانيا

---

(١) كيث وايتلام. تلفيق إسرائيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني، ترجمة ممدوح عدوان (دمشق دار قدمس) ص١٧، ٣٠٠، ٣٠٣.

(٢) تُراجع كتابات توماس طومسون الذي طُرد من الجامعة الأميركيّة التي يَعْمل فيها بسبب كتابه للتاريخ المبكّر للشعب الإسرائيلي.

(٣) من أجل مزيد من التفصيل، أنظر كتابنا: إسرائيل وهويّتها الممزقة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦).

رغبةَ هرتزل في أن يَعْقد المؤتمرَ الصهيونيَّ الأولَ في مدينة ميونيخ الألمانيَّة، فاضطُرَّ إلى عقده في مدينة بازل في سويسرا.

يضاف إلى هذا كلّه أنّ الصهيونيَّة كانت حركةُ علمانيةُ لا تتخذ من الدين اليهوديّ مقوّماً لها ومنطلقاً، وأنَّ زعماءها البارزين - من أمثال هرتزل وجابوتنسكي ووايزمان وبن غوريون - كانوا مُلْحدين ولم يُخْفُوا إلحادَهم. فممّا نقرأه في مذكرات هرتزل: (لقد قلتُ للحاخام الأكبر في لندن، كما قلتُ للحاخام الأكبر في باريس، إنّي لا أَخْضع في مشروعي الصهيونيّ لأيّ دافع دينيّ) (١) وممّا يقوله في مكان آخر من تلك المذكّرات: (لقد سألني أشر مايرز: ما هي علاقتك بالتوراة؟ فأجبته: إنّني مفكّر حرّ) على أنّه ناقَضَ نفسه بعد ذلك وتبنّى مواقفَ مزدوجةً وملتبسةً، لأسباب عمليَّة. هكذا نجده في خطابه الذي افتتَح به المؤتمرَ الصهيونيَّ الأوّل في بازل عام ١٨٩٧ يقول بصريح العبارة: (إنّ الصهيونيَّة تعني العودةَ إلى الديانة اليهوديَّة حتى قبل العودة إلى أرض اليهود) ومثله وأكثر منه فعله بن غوريون، مؤسِّسُ دولة إسرائيل. والقول الفصل في هذا هو أنّ الدين أصبح على يد الحركة الصهيونيَّة مجرّدَ أداةٍ للحركة القوميَّة، تتلاعب بها وفقاً للظروف والأحداث، ولا شكّ أنّ هذه اللُّغة المزدوجة قد ساعدتّ تدريجياً على تكاثر أعداد المؤيّدين للصهيونيّة لدى المتديّنين من اليهود.

غير أنّ علينا أن نضيف إلى هذا العامل الذي ساعد على المزج بين الصهيونيَّة والديانة اليهوديَّة عاملاً أخر، وهو ظهور محاولات فكريَّة حاولتْ أن تفلسف الصلةَ بينهما. وحسبُنا الإشارةُ إلى المحاولة التي قام بها أبراهام إسحق كُوك (١٨٦٥- ١٩٣٥). ونحن إذ نتوقّف قليلاً عند أفكار هذا الحاخام اليهوديّ الشهير فإنّما نفعل ذلك لهدفيْن متكاملَيْن: الأوّل أن نبيّن كيف أدّت أفكارُه وأفكارُ أمثاله من رجال الدين إلى تخفيف العداء الذي نَشَبَ في البداية بين دعاة الصهيونيَّة وممثلي

(١) الجزء الأول من الطبعة الإنكليزية، ص٢٧٠.

المذاهب اليهوديّة الكبرى، والثاني أن نبيِّن التزييف الذي مارسته الصهيونيَّةُ على اليهود أنفسهم.

ب – كُوك وتزييف العلاقة بين الصهيونيَّة واليهوديَّة:

لقد قام كوك، الذي أصبح أولَ حاخام اشكنازيّ في فلسطين، بتقديم تفسير جديد جذريّ وشامل للتاريخ اليهوديّ من أجل تحويل الأمل المسيحانيّ السلبيّ إلى أداة فعّالة لتحقيق التعاون بين هذه النزعة الدينيَّة من جهة، والحركة السياسيَّة المناضلة والعلمانيَّة التي تمثّلها الصهيونيَّة من جهة ثانية.

وكان منطلقه في ذلك هو التوحيدُ بين الديانة اليهوديَّة وأرض إسرائيل، وتأكيدُه أنْ أرض إسرائيل جزء جوهريّ من كيان اليهود القوميّ ومن رسالتهم الروحيَّة إلى العالم على أنّ أهمّ ما جاء به هو هجمته الحاسمة على حملة التقاليد الدينيَّة اليهوديَّة الذين استمرأوا الحياةَ في المنفى، ذلك أنَّ شعبَ إسرائيل والتوراةَ وأرض إسرائيل كلّ لا يتجزّأ، فيما يرى، وقَطْعُ الصلَة بين اليهوديَّة وإسرائيل يعني قطعَ جذور اليهوديَّة. بل إنَّه يَعْجب ممن يتّهمون ويَحْتقرون اليهودَ الذين يُضحُّون بحياتهم من أجل العيش في فلسطين لا لشيء إلاَّ لأنَّهم لا يمارسون الطقوسَ الدينيَّة.

وههنا يلجأ كوك إلى حيلة من الحيل الدينيَّة التي يعجَ به تاريخُ اليهوديَّة، وقوامُها قولُه إنَّ الدافع الحقيقيّ لأفعال الإنسان قد يَخْفى عن فاعلها. وهذا الأمر ينطبق في نظره على الروّاد الأوائل للصهيونيَّة: فقد يظنُّون أنُهم مدفوعون بدوافع سياسيّة علمانيَّة، في حين أنَّهم في حقيقة الأمر يَعْملون من خلال الإطار الكونيّ للإرادة الإلهيَّة لكون أعمالهم جزءاً من حركة الخلاص الإلهيّ. وعنده أنَّ هؤلاء الأشخاص يُمْكن أن يُسْهموا في ظهور المسيح، حتى ولو لم يكونوا يؤمنون به.

وهكذا يَمْضي كوك في هذا التزييف، على الرُّغم من أنُه يَرْبط بينه وبين بعض أفكار هيجل حول (جيّل العقل) كي يَخْلص إلى أنَّ معارضةَ القوميَّة الصهيونيَّة والحطَّ من قيمها أمران غير جائزَيْن لأنَّ روح الله وروحَ إسرائيل (يعني القوميَّة الصهيونيَّة) شيء واحد. وجملة القول عنده أنْ الصهيونيَّة العلمانيَّة اللادينيَّة هي

جزءٌ لا يتجزأ من الديانة اليهوديَّة (وإنْ جهلتْ ذلك): كما أنَّ أرض إسرائيل تعبّر عن المعنى الكونيّ المركزيّ للوجود اليهودي، وأنَّ الخلاص اليهوديّ جزء من عمليَّة عالميَّة شاملة، وأنَّ العالم كلّه يعاني ما يعاني من الفوضى لأنَّ الشعب اليهوديَ لا يَشْغل المكانَ الذي منحته إيَاه البِنْيةُ الغائيَّةُ للكون.

ج - الصهيونيَّة المفتعلة:

أشدُّ ما يَفْضح ما في الصهيونيّ من افتعال أنَّ الدعوة إليها جاءت في غير أوانها، أيْ بعد أن زالت المبرِّراتُ المتّصلةُ بالمشاعر اللاساميَّة ضدَ اليهود في أوروبا وسواها. ومن هنا حقٌّ للكثير من الباحثين - ومنهم يهود - أن يقولوا إنَّ الصهيونيَّة بُنيتْ من خلال مفارقة عجيبة، فالحركة الصهيونيَّة التي تَهْدف إلى عودة اليهود إلى فلسطين لم تَظْهر قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكانت أوروبا قبل ذلك قد شهدتْ بعد الثورة الفرنسيَّة بشكل خاصَ (عام ١٧٨٩) حركةُ تحرُّر أدَت إلى معاملة اليهود فيها على قدم المساواة مع سائر المواطنين وإذا نحن قارنّا بوجه خاصّ بدايةَ القرن التاسع عشر مع بداية القرن العشرين وجدنا أنَّ حياة اليهود لم تُشْهد من قَبْلُ مثلَ ما شهدتْه هذه الفترةُ من انطلاقة إيجابيَّة في ميدان الاقتصاد أو السياسة أو الفكر. ومنذ ذلك الحين أصبح اليهود يسكنون المدنَ والعواصمَ الكبرى في أوروبا، بل أصبحوا إلى حدٍّ كبيرٍ سادتَها وأصحابَ الخطوة فيها. ومن هنا يسأل المرء: ما الذي دفع إلى ولادة الصهيونيَّة في هذه الفترة بالذات؟

لا شكَّ أنَّ تحليل هذه المفارقة يحتاج إلى صفحات. وأهمُّ ما في هذا التحليل هو أنَّ اليهود أنفسهم، وقد فُتحتْ لهم أبوابُ الاندماج الكامل بالقوميَّات الوطنيَّة التي كانت سائدةً في أوروبا، ظلّوا يشعرون أنهم لا ينتمون إليها حقّاً، وأنَّ عليهم أن تكون لهم قوميَّتُهم الخاصَّة. وهكذا نستطيع أن نقول إنَّ حركة التحرير والتنوير في أوروبا ولُدتْ لدى اليهود في تلك الفترة البذورَ الأولى لوعي جديدٍ لا يصحَ أن نعتبره دينياً. إنَّما هو وعي مقابلٌ لصعود القوميَّات الحديثة العلمانيّة في أوروبا من

هنا نستخلص أنَّ الصهيونيَّة تمثّل ظاهرةً أعقبتْ حركةَ التحرير في أوروبا. وأنَّها - حين أكَدتْ على الصلة التاريخيَّة بينها وبين بلد الأجداد في إسرائيل - حولت مشاعرَ اليهود التي ظلتَ نائمةً طوال قرون إلى طاقة محركة. وجعلتْ من القوميّة اليهوديّة انعكاساً للأفكار التي ولدتها الثورةُ الفرنسية والحداثةَ والنزعةُ القوميّة.

ويعنينا من هذا كلّه أن ندرك كيف كانت الصهيونيّة حركةً مفتعلةً تسير في عكس اتّجاه التطوّر الذي حدث في العصر - ولاسيَّما بعد الثورة الفرنسيَّة، وبوجه خاصَ بعد نابليون وقوانينه الجديدة التي مَنَحَ فيها اليهودَ امتيازاتٍ خاصَّة. وهو تطوُّرٌ فَتَحَ البابَ واسعاً أمام اليهود للحياة حياةً كريمةً في المجتمعات الغربية التي كانوا فيها. وهذا شاهد آخر على ما في الصهيونيَّة من عنصريَّة تجعلها عاجزةً عن التعايش مع سواها، بل تجعلها تَبْحث عن السيطرة على سواها وعلى العالم.

ولا حاجة إلى القول إنَّ ما آل إليه وضعُ اليهود بعد خلق دولة إسرائيل يبيِّن أن الصهيونيَّة - نتيجةً لحلمها هذا - جعلت الشعبَ اليهوديَّ اليوم في مأزق، سواء في داخل إسرائيل أو خارجها، وأنُ حلمها لم يتحقَّق ولن يتحقَّق، وحلَّت محلَّه الكوابيسُ المنغّصةُ لحياة اليهود أنّى كانوا.

٣ - القوميَّة الصهيونيَّة قوميَّة عنصريَّة إثنيَّة متعالية:

وهذا ما نجده واضحاً في الأدب الصهيونيَ منذ تباشيره الأولى. وقد رافق هذا الشعورُ الحركةَ الصهيونيَّةَ في شتَى مراحلها وما يزال ذائعاً حتى اليوم. وحسبُنا أن نشير إلى أفكار زعيميْن صهيونيّيْن شهيريْن: أولهما هو جابوتنسكي وثانيهم أوري تزيني غرينبرغ (١٨٩٧-١٩٨١). الذي أقام في فلسطين منذ عام ١٩٢٤، وأسْهم في صحيفة دافار التي تمثل اتّحادَ الهستدروت العمّاليَ.

أمّا جابوتنسكي، رأسُ الفريق الصهيونيّ اليمينيَ المتطرّف وأكبرُ الدعاة على اللُّجوء إلى القوّة من أجل توليد الكيان الصهيونيّ، فقد وضع نظريَّةً متكاملةً حول دور العرْق في تاريخ الإنسانيَّة. وصَدَرَ له أولُ تحليلٍ مفصَّلٍ في هذا المجال في

مقالٍ كتبه عام ١٩١٣. عنوانُه (حول العرْق) وفيه يقول إنَّه ليس من المهمّ أن يوجد عِرْقٌ صافٍ أو لا يوجد، والأهمّ هو الفرق القائم بين مختلف الجماعات الإثنيَّة التي يميِّزها نَسَبُها العرقيُّ. وبهذا المعنى وحده يغدو مفهومُ الأمَّة ومفهومُ العِرْق متكامليَّن. وهكذا يريد جابوتنسكي في مقاله هذا أن يضع مكانَ الحتميَّة الماركسيَّة حتميَّةً يحدَدها العِرْق ويستخلص من ذلك أنَّ جوهرَ الأمَّة ومقوِّمَ وحدتها يَكْمنان في الصفات الجسديَّة المميِّزة لها، وفي العناصر المقوِّمة لتكوينها العِرْقيَ وهذا يؤدِّي به إلى القول بتفوّق الأمَّة اليهوديَّة على سواها من الأمم.

أمّا الشاعر الروسي غرينبرغ فقد كان يَنْظم القصائدَ الملتهبة ضدَ الآخر، كاتَهام المسيحيِّين بمعاداة السّاميّة، واتّهام العرب بتعطُّشهم للحقد ولتَهام اليسار الصهيوني نفسه بالاضطراب الخلقي والنساء بالغرور أمّا جوهر الانتساب إلى اليهود عنده فتحدِّده صفتان الدم والأرض. والوحدة البيولوجيَّة الكاملة والثابتة لدى الشعب اليهوديّ تقيم بينه وبين الشعوب غير اليهوديَّة اختلافاً وفارقاً مطلقاً. ومن هنا فالحوار مع غير اليهود هو قعقعة السلاح، وعن طريق الدم – كما يقول – سوف يكون البعث. واليهود سوف يحقِّقون وجودهم في أرض إسرائيل باللجوء إلى حرب لا تبقي ولا تَذَر ضدّ أولئك الذين يقفون في وجه تحقيق مشروعهم. ويبكي شاعرُنا بكاءً مرّاً على ما أصاب القدسَ، مدينةَ داوود التي هجرها الأنبياءُ، والتي ملأها أبناءُ العمومة العربُ بنهيق الحمير، ودنّسوها بروثْ الأغنام والبشر، ويدعو في خاتمة المطاف إلى تحرير إسرائيل بحدّ السيف، وإلى بناء ملكوت إسرائيل بالقوّة، وإلى إقامة دكتاتوريَّة إيديولوجيَّة مهمَّتُها تحقيقُ الرؤية المسيحانيَّة لملكوت إسرائيل.

٤ – القوميَّة الصهيونيَّة قوميَّة عدوانيَّة:

ولسنا في حاجة إلى البراهين فنحن نعيش مأساةَ هذا العنف الإسرائيليّ اليوم، كما عشناه منذ نشأة الصهيونيَّة ونمضي توّاً إلى أفكار جابوتنسكي (١٨٨٠–١٩٤٠)

الذي كان له وما يزال الدورُ الأولُ في مجرى الحياة السياسيَّة قبل ولادة إسرائيل وبعدها، وقبل طرح مشروع السلام مع العرب وبعده، وقد هزىء منذ البداية بمبادئ الحرية والعدالة، بل تهكَّمَ على ما ورد في بعض المواضع في التوراة نفسها من دعوة إلى عدم اضطهاد الآخرين. ومن أقواله في معاداة الإنسان والإنسانيَّة: (لا تأمنَنَ لأحد. وكنْ دوماً فطناً حذراً وسيِّئ الظنّ. واحملْ دوماً عصاك معك. وبذلك فقط تستطيع أن تعيش في قلب هذه الحرب التي لا هوادة فيها، حرب الإنسان للإنسان أنَّى كان).

وليسى المجال مجال الحديث عن دوره العمليّ في الحركة الصهيونيَّة، وفي تكوين حزبه المتطرّف، وفي تكوينه للفرقة اليهوديَّة في فلسطين أيّامَ الانتداب البريطانيّ، ثم لحركة إرغون الإرهابيَّة. وإنَّما نمضي إلى أفكاره العدوانيَّة المؤمنة بالقوّة، التي نكاد نجدها مجتمعةً في مقاليْن هاميْن له نشرهما عام ١٩٢٣ وعنوانُ أوّلهما: (الجدار الحديديّ والعرب) في هذا المقال ينتهي به تحليلُه لموقف العرب إلى إصدار حكم قاطع يقول فيه: (الاتفاق الطوعيّ بيننا وبين عرب فلسطين أمرٌ لا يمكن أن نتصوَّره اليومَ أو في المستقبل المنظور) فكما بيَن معظمُ الصهيونيِّين، ليس هنالك ولو حظّ يسيرٌ للحصول على موافقة العرب الفلسطينيِّين على قلب فلسطين إلى دولةٍ أكثريَّتُها من اليهود. وبعد أن يَشرح المنطقَ الذي يدفع العرب الفلسطينيِّين إلى كراهية الصهيونيَّة، يحدد الموقفَ السياسيَ الذي يَفْرضه هذا المنطق، وخلاصتُه أنَّه ليس ثمة إلاَّ أحدُ أمرين أن نوقف حركةَ الاستيطان، أو أن نستمرّ فيها دون أن نابه لمزاج أهل البلاد وليس أمامنا إذن إلاَّ أن نتابع حركة الاستيطان عن طريق القوّة، وإن نقيم بيننا وبين أهل البلاد (جداراً حديديّاً) لا يستطيعون أن يهدموه. وعندما انتقد بعضُ مَنْ يسمَون المعتدلين من الصهاينة موقفَه هذا لأسباب إنسانيّة وأخلاقيَّة، كتب مقالاً أخر عنوانُه (الأخلاق والجدار الحديدي) وخلاصتُه أنْ ثمّة أمريْن ممكنيَّن: أحدهما أن تكون الصهيونيَّةُ ظاهرةً إيجابيَّةً. والثاني أن تكون ظاهرةً سلبيَّةً. والجواب على هذا السؤال كان يَنْبغي أن يتمَ قبل ولادة الصهيونيَّة.

أما وقد وُلدت الصهيونيَّة واقرَّ دعاتُها كلُّهم بأنَّها ظاهرة إيجابيَّة وحركةُ خلقيَّةٌ وإنسانيَّة. فلم يعد ثمّة مجال لطرح هذا السؤال. بل علينا الآن أن نقول: (ما دامت القضيّة عادلة، فلا بدّ أن تَنْتصر العدالة، سواء وافق الآخرون على ذلك أو لم يوافقوا فالحقيقة المقدّسة التي يَسْتلزم تحقيقُها استخدامَ القوّة تظلّ حقيقة مقدّسة).

أصبح (الجدارُ الحديديُّ) توراة الحركة الصهيونيَّة التي سُميتْ باسم (الصهيونيَّة التصحيحيَّة) وتوراةَ متطرِّفي الصهاينة من اليمين وسواه، وعلى رأسهم اليوم شارون، وقد حاول جابوتنسكي أمام الرأي العالمي، كما يحاول شارون اليوم، أن يزيّف الحقائقَ وأن يقول إنْ الجدار الحديديّ ليس غايةً في حدّ ذاته بل وسيلة لكسر مقاومة العرب لمسيرة الحركة الصهيونيَّة. وإنَّه عندما تتحطّم هذه المقاومة فمن الممكن أن تأتي قيادة فلسطينيَّة معتدلة، وعند ذلك فقط يمكن أن تبدأ المفاوضات الجادة مع الفلسطينيِّين – وهي مفاوضات يقدّم الإسرائيليُّون خلالها للفلسطينيِّين حقوقاً مدنيَّة وقوميَّةً، ولم يحدِّد جابوتنسكي في هذا المقال ما يَقْصده بعبارة (الحقوق الفلسطينيَّة) ولكنَّه بيّن في كتابات أخرى أنَّه يقصد بذلك مَنْحَ الفلسطينيِّين بعضَ الاستقلال السياسيّ داخل دولة يهوديَّة.

ومن الجدير بالذكر أنَّ ناتانياهو قد تأثَّر بمقالة جابوتنسكي وجداره الحديديّ تأثُّراً كبيراً. وكتابه مكان تحت الشمس فيه أوجهُ شبهٍ كثيرة مع أفكار ذلك الزعيم – الذي هو من ابتاعه بل من أقربائه – لاسيَّما فيما يتصل بالموقف من العرب. وهكذا نجد في كتاب ناتانياهو هذا (تأكيداً على أنَّ فرص السلام مع العرب تشتدّ وتقوى كلّما بدت إسرائيلُ أقوى) كما نقرأ فيه أنَّ (السلام الحقّ والباقي هو السلام المبنيّ على الردع الإسرائيليّ). (١)

---

(١) بنيامين نتانياهو، مكان تحت الشمس، ترجمة محمد عودة الدويري (عمان: دار الجيل للنشر، ١٩٩٥).

III – خاتمـــة:

استطاعت القوميَّة الصهيونيَّة أن تحقّق بعضَ أهدافها، على الـرَّغم مـن هـذه العلل والعورات جميعها، بل بفضل هذه العلل والعورات. فلقد لجأتْ وما تزال على تزييف الحقائق أمام العالم، ولم توفِّرْ أيّ أسلوب مـن أسـاليب الكـذب والـضغط والعدوان من أجل إنفاذ مأربها. وقد يَسَّرَ لها مهمَّتَها هذه إدراكُها الواضحُ منذ البداية أنَّ كسب تأييد الدول الكبرى بشتى الوسائل هو السبيل الجَدَدَ لبلوغ ما تريد، ولو بدا ما تريده أمراً معجزاً في البداية. ومع ذلك هيهات أن تكون قادرةً على الوصول إلى نهاية الدرب، وممّا يجعلنا نستبشر ببداية نهاية الصهيونيَّة حقيقتان: **أولاهما** أنَّ ما تمّ من لجوء الصهيونيَّة على الكذب والخداع والترغيب والترهيب بدأ يتكشَّف جليّاً أمام الرأي العامّ العالميّ، وسوف يتبدَّى أوضحَ فأوضحَ بسبب وسائل الإعلام والاتّـصال الحديثة بوجه خاص. ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ كثيراً من يهود العالم – ولا سيَّما ي الشتات – أخذوا ينفضّون عن الـصهيونيّة وآفاتهـا ومجانبتهـا للمبـادئ الخلقيَّـة والإنسانية. فعلى سبيل المثال نشر جاك أتالي، الكاتبُ الفرنسيُّ اليهـوديُّ الـشهير والمستشارُ السابق للرئيس ميتران. إلى أثر أحداث القدس بعد زيارة شارون، مقـالاً أثار ضجّة كبرى عنوانُه: (إلى أين تمضي إسرائيل؟) وممّـا جـاء فـي مطلعـه: (لم تكن إسرائيل معزولةً كما هي اليوم، ولم تكن يوماً مهدَّدةً بالزوال كما هي اليوم) وفيه يقول: (وفي الجملة، إنَّ إسرائيل مهدَّدةٌ بالزوال عن طريق الحـرب، ومهـدَّدةٌ بالزوال عن طريق السّلْم، أو عن طريق هجرة النخبة منهـا خوفـاً مـن الحـرب والسلم). (١)

أمَّا الحقيقة **الثانية** التي تبشّر بنهاية الصهيونيَّة فواضحة فـي بنيـة المجتمـع الإسرائيليّ المتداعية إلى حدٍّ كبير، فالصراعات في إسرائيل قائمة على قدم وسـاق بين العـرب والإسـرائيليّين، وبـين المتـديّنين والعلمـانيِّين، وبـينّ الإشـكنازيم

(١) مجلة الأكسيرس، عدد ١٢ – ١٨ أكتوبر ٢٠٠٠.

والسوفارديم، وبين الصبرا وغيرهم، وبين الفلاشا وسواهم، وبين اليهود الروس ومَنْ عداهم، وبين الأحزاب الدينيَّة المتنافرة، وسوى ذلك كثير وقد كشفت انتخابات الكنيست الخامسة عشرة في ١٧ أيار ١٩٩٩ بوجه خاص عن تفتُّت المجتمع الإسرائيليّ، الذي بدا خلال تلك الانتخابات مجموعةً من القبائل تبحث كلُّ قبيلة منها عن مصالحها الخاصة غير أبهةٍ بسواها، وقد بدا هذا التشتُّت واضحاً حين حاول باراك جاهداً أن يؤلّف وزارتَه، ولم يصلْ إلى ذلك إلاّ بشقّ الأنفس، ومن خلال صيغة تشلَ الحياةَ السياسيَّة. وهذا التشتُّت الذي وصلتْ إليه هويّةُ إسرائيل، وهذا الدركُ الذي انحدرتْ إليه اللُّعبةُ البرلمانيَّةُ فيها، لا يمكن أن يُفسَّرا إلاَّ بكونها نتيجةً من نتائج فشل الإيديولوجيا الصهيونيَّة بعد أربعة أجيال وستّ حروب مع العرب، ويعبِّران عن عجز اللُّغة العبريَّة وأساطيرِ التوراة والخروج والسبي والاضطهاد المسيحيّ الأوروبيّ والغيتو والمحرقة. ويَشْهد على هذا العجز بوضوح سقوطُ باراك نفسه، ونتائجُ الانتخابات الأخيرة التي كشفتْ عن ذعر سكّان إسرائيل أمام زخم الانتفاضة الفلسطينيَّة – وهو ذعرٌ حملهم على أن يعودوا إلى أقسى أشكال سياسة العنف، على الرُّغم ممّا جرّته عليهم من ويلات.

وإلى جانب التمزُّق الإسرائيليّ الذي يعبّر عن فشل المشروع الصهيونيّ، ثمّة بعضُ الظواهر الفكريّة الجديدة التي تدلّ على أنَّ الفكرة الصهيونيَّة تواجه اليوم مواقفَ جديدةً تدعو إلى إعادة النظر فيها بل على النكوص عنها، وهذا ما نجده لدى أصحاب التيّار الذي يُعرف بتيّار (ما بعد الصهيونيَّة) والذي يرى ناتانياهو أنَّه أشدّ خطراً على إسرائيل من إسرائيل نفسها وهذا ما نجده على نحو أوضح لدى (المؤرّخين اليهود الجدد) من أمثال إيلان بابي وبني موريس وسِمْحا فلابان وافي شلايم. وقد ذاع صيتُ هؤلاء المؤرّخين منذ منتصف الثمانينيّات، بعد أن أطَّلعوا على وثائق وزارة الخارجيَّة ووزارة الدفاع في إسرائيل، التي تمّ الكشفُ عنها بعد ثلاثين عاماً من ولادة دولة إسرائيل، ولقد بيَّن هؤلاء المؤرّخون بوجه خاص أنَّ الفلسطينيِّين لم يَهْجروا فلسطين طوعاً عام ١٩٤٨. كما تقول المصادرُ الإسرائيليَّةُ

الرسميَّةُ، بل طُرِدوا منها أبشعَ طردة، وتعرَّضوا أثناء ذلك لمذابح مذهلة مقصودة (في دير ياسين وسواها) من أجل إكراههم على ترك ديارهم. وقد لقيتْ أفكارُ المؤرِّخين الجدد صدى واسعاً في إسرائيل، كما لقيتْ تجاوباً كبيراً في الأوساط العالميَّة، وليس المجال مجال الحديث عن هؤلاء المؤرِّخين، وجلُّ قصدنا أن نشير على أنَّ صورة إسرائيل الصهيونيَّة بدأتْ تهتزّ أمام أعين أبنائها وأمام أعين العالم، وأنَّها مُقْبلة لا محال - بحكم بنيتها الزائفة المصطنعة - على مشكلات داخليَّة وخارجيَّة جمّة تضع الصهيونيَّةَ نفسهَا ومنطلقاتها موضعَ التساؤل.

ويلخّص محمد حسنين هيكل أزمةَ إسرائيل اليوم وبالأمس ووصولها إلى طريق مسدود بسبب الصهيونيَّة، فيقول: (أزمةُ المشروع اليهوديّ أنَّه حاول اختراعَ ذاكرةٍ من الأوهام يؤسِّس عليها مشروعَ دولة أو مشروعَ إمبراطوريّةٍ مستحيلةِ التحقيق وإنْ كانت باهظةَ التكاليف بسبب المحاولة).

ولكنْ حذار أن تَدفعنا هذه الصورةُ المهتزَّةُ للكيان الإسرائيليَ إلى الاطمئنان على المستقبل، فجلُّ هدفنا من وراء الإشارة على بعض معالم العجز الإسرائيليَ والقصور الصهيونيّ أن نبيِّن أنَّ أمام العرب فرصةً نادرةً لتضييق الخناق على إسرائيل وفضح أهدافها الصهيونيَّة التليدة والجديدة، وما ينبغي أن نعيّه هو أنَّ إسرائيل تستطيع أن تبقى مهما تكاثرتْ أزماتُها الداخليَّة، وأنَّ ثمَّة بلداناً كثيرة في العالم استمرَّت في البقاء على الرَّغم من مشكلاتها الداخليَّة العميقة ما دامت لم تتعرَّض لخطر خارجيّ ولا ييسِّر انفجارَ إسرائيل من داخلها إلاَّ توافرُ قوّةٍ خارجيَّةٍ معاديةٍ. ولا شكّ أنَّ تصميم الأمَّة العربيَّة، ومعها الأمَّة الإسلاميَّة، على تطويق إسرائيل والتضييق عليها ومنعِها من أن تَخْرج من زنزانتها إلى رحاب الوطن العربي الفسيح يأتي على رأس العوامل التي تعجِّل في تداعيها وانهيارها بل إنَّ جيش إسرائيل الذي هو درعها ورمزُ بقائها لن يستطيع أن يقوم بمهمته في حماية إسرائيل من جيرانها، وسوف يَفْقد بريقَه وشأنه يوماً بعد يوم في أعين الإسرائيليِّين أنفسهم، لاسيَّما عندما يَنْقلب إلى جيش حقير يرابط في المدن العربيَّة المحتلَّة، ويَسْهر على منع التجوُّل في مناطق السلطة وفي المستوطنات، ويلاحق أطفالَ

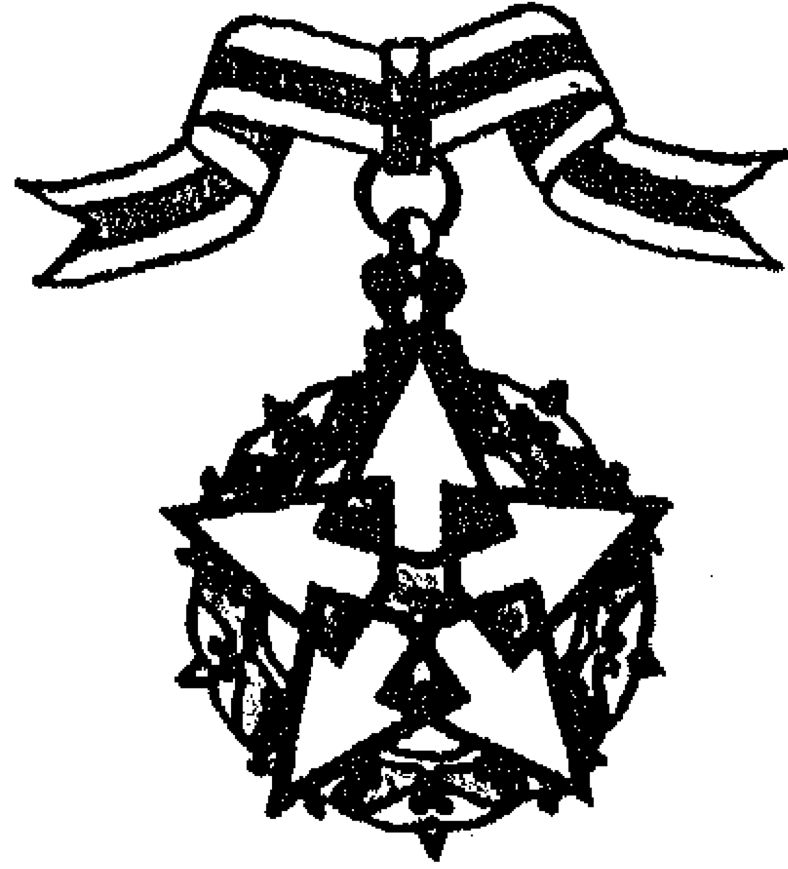
الحجارة، ويَقْتل الأبرياء من الكبار والصغار والأطفال الرضّع، وها نحن نرى الكثير من الجنود الإسرائيليّين يَرْفضون الالتحاقَ بوحداتهم العسكريَّة أثناء الانتفاضة الأخيرة، كما رفض أترابُ عديدون لهم من قَبْلُ الخدمةَ في صفوف الجيش الإسرائيليّ أيامَ معركة لبنان.

وجملة القول إنَّ إسرائيل، التي تملك القوَّةَ العسكريَّةَ وسواها، لا تَمْلك القوَّةَ المعنويَّة والبواعثَ الإيديولوجيَّة التي تشدّ أَزْرَ تلك القوَّة، وما دامت حربُها مع الفلسطينيّين والعرب حرب المغتصب المعتدي، فلن تستطيع أن تفلّ العزيمةَ العربيَّةَ، وسوف يظلّ جيشُها المدجّج بأحدث الأسلحة مضطرباً قلقاً، والأمَّةُ العربيَّة، وإلى جانبها الأمَّةُ الإسلاميَّةُ، تَمْلك الإمكانات البشريَّةَ والماديَّة والجغرافيَّةَ الهائلة، وإذا هي استطاعت أن تَجمَّع أمرها، وأن تَعْزم على أن تمارس بشتى الوسائل حقّها في استرداد ما اغتُصِبَ منها، فسوف تكون المنتصرةَ لا محالة، طال الزمنّ أو قصر وبعد، فإنَّ نظام الأيارتايد العنصريّ لن يدوم طويلاً، إلاَّ إذا وافق العربُ على بقائه على حساب ووجودهم ووحدتهم القوميَّة ومستقبلهم، ومن هنا يَنْبغي أن يكون مفتاح الموقف العربيّ اليوم تركُ الباب مفتوحاً وعدمُ إغلاق (الملفّ) مهما تكن التسوياتُ الموقّتة. فالأيام حبلى بالأحداث، وإرادةُ الشعوب لابدّ أن تَنْتصر في عالمنا على الرُّغم ممَّا يتخبَّط فيه اليومَ من بحران وفوضى وابتعاد عن القيم الخلقيَّة والإنسانيَّة.

ومعركة العرب ضدّ الصهيونيَّة لها، بالإضافة على أهدافها القوميَّة، أهدافٌ إنسانيَّةٌ وخلقيَّةٌ طالما أوقدتْ شعلتَها الحضارةُ العربيَّةُ الإسلاميَّةُ في شتى مراحل تاريخها، ومن هنا فمقارعةُ الصهيونيَّة مقارعةٌ للشرّ في هذا العصر الذي كان يُطْلَقُ عليه اسمُ العصر الصهيونيّ أَولَيست مثلُ هذه المهمّة الكبرى جديرةً بأن يعبَّأ لها الوجودُ العربيُّ كلُّه، ونَخْتم كلمتنا بقول الشاعر القرويّ: (أمّا السلامُ فإنّنا أعداؤه/حتى يَدينَ بحبِّه أقوانا) ونذكّر بالبيت الذي تحدَّث فيه عن الاستعمار الفرنسيّ آنذاك (أتيناهم بإنجيل المسيح/فجاؤنا بآياتِ الفتوح).



الجمهورية السورية



براءة وسام الاستحقاق السوري

منح رئيس الجمهورية بناء على اقتراح رئيس مجلس الوزراء
السيد شاكر مصطفى الملحق الثقافي للسفارة السورية في القاهرة
وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الثانية بالمرسوم رقم ٩٠٣ تاريخ ١٩٥٧/٣/٢٤

دمشق في ٢٢ شعبان سنة ١٣٧٦ هـ و ٢٤ آذار سنة ١٩٥٧

رئيس مجلس الوزراء

سجلت برقم ٢٩٥٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية مصر

من رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر

إلى الأستاذ شاكر مصطفى ، الملحق الثقافي

بالسفارة السورية بالقاهرة ،


تقديراً لحميد صفاتكم ، وجليل خدماتكم لتوحيد الثقافة العربية قد منحناكم

وسام الجمهورية من الطبقة الرابعة

وأمرنا بإصدار هذه البراءة إيذاناً بذلك .

تحريراً بقصر الجمهورية بالقاهرة في اليوم السادس عشر من شهر شعبان

لسنة ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين من هجرة خاتم المرسلين .



شاكر مصطفى :

أصابع على جراح العروبة لنصف قرن

- **قدر المؤرخ أن يحمل هموم أمته على كتفيه، ويمشي على الشوك..**
- **كل الدنيا تتقدم على التجمع والتكتل، ونحن إلى التمزق والضياع..**
- **التطبيع مع العدو الصهيوني: خرافة هدفها تدجين العرب وتطويع الأجيال..**

كان موكب الوداع حافلاً ومهيباً:

وكانت "دمشق" الوفية تسير في الموكب الصامت، الذي أحتشد فيه أبناؤها من كل مكان .. رجالات الدولة، الأدباء والمبدعون، المثقفون الشباب، وطلاب الجامعة، وحتى المواطنون العاديون، الذين جاءهم النعي، فأدركوا مدى الخسارة، بفقد هذا المفكر العظيم.

أدرت بصري فيما حولي، فرأيت وجوهاً حزينة، وعيوناً مغيمة بالدموع، وشفاهاً تتمتم بدعاء الرحمة والمغفرة. وما لبثت أن رأيتني أعود بخاطري القهقرى، إلى أربعين سنة خلت، لتشرق على ذاكرتي، صور حميمة من صور الرحلة الطويلة، بكل ما حفلت به من عذوبة وثراء.

حين بدأت أول حصة لمادة التاريخ. في ذلك اليوم – منذ أربعين عاماً – دخل المدرس إلى الفصل، بقامته المعتدلة، وبسمته اللطيفة، ونظرته المتألقة الحانية، وبعد أن حيّا الطلاب متمنياً لهم عاماً موفقاً، استدار إلى اللوح الأسود، وكتب عليه تاريخ اليوم، وعنوان الموضوع: "اليقظة العربية الحديثة" بخط فني جميل، استحوذ على إعجاب الطلاب وانتباههم، فما لبثوا أن اشرأبوا بأعناقهم يتابعون المدرس بمتعة كبيرة، وهو يعرض لهم تفاصيل الأحداث بأسلوب أدبي راقٍ وعبارات مشرقة، وفهم ودقة وتركيز.. وكان في هذا كله، أقرب إلى طلاقة الأديب الأسرة منه إلى

رتابة المدرس العادي، ولذلك تسابق الطلاب - من ذلك اليـوم - إلـى محاضـرة مدرس التاريخ ومتابعته بحماس وانبهار..

لكن الأمر لم يدم طويلاً ... لأن تعدد مواهب هذا المفكر، وتنـوع اهتماماتـه، ونشاطه المتوقد في كل ميدان، ما لبث أن حمله إلى منابر كثيرة أخرى، وراح اسمه ينتشر كواحد من أبرز الأدباء المبدعين، والمحققين الأصلاء، وهو ما أثار إعجـاب المتتبعين، ودهشتهم في آن معاً ... فدراساته التاريخية ومقالاته الأدبية، قل أن تخلو منها مطبوعة عربية، وإصداراته الثقافية الهامة تتـوالى علـى سـاحة الفكـر دون انقطاع، ومحاضراته الثرّة في الفن والشعر وألوان المعرفة، يحتشد لهـا المهتمـون من كل جيل في مراكز الثقافة في العواصم العربية ... ناهيك عن دروسه الجامعية، وبرامجه الإذاعية، وحضوره المشهود في كل منتدى ومهرجـان، وعـضويته فـي المؤسسات الثقافية، ولجان التخطيط ومستقبل الثقافة العربية ... وكان توق الشعراء والكتّاب الأول، أن يقدم شاكر مصطفى لمؤلفاتهم ودواويـنهم بعباراتـه الرهيفـة، وكلماته الأنيقة التي تمطر ألقاً وموسيقا.

الصالحية أول الطريق:

ولد الدكتور "شاكر مصطفى" في الأول من آذار - مارس - عام ١٩٢١م، في حي الصالحية بمدينة دمشق، وهو أقدم تجمع سكني في المدينة، أنـشأه المهـاجرون الهاربون من مظالم الصليبيين، عند سفح جبل قاسيون، وسرعان ما غـدا ضـاحية عامرة بالمباني الجميلة، والجوامع والمدارس والمكتبات والزوايا، ومـشرفة علـى البساتين الناضرة والجداول الصافية.

نشأ "شاكر مصطفى" في أسرة متواضعة، وكان فخوراً بأسرته والحـي الـذي درج فيه، إلى حد، بدأ معه إحدى محاضراته الأدبية يوماً: "يقولـون إن أفلاطـون" الفيلسوف العتيق حين افتتح مدرسته في "أثينا"، كتب على بوابتهـا: مـن لـم يكـن مهندساً فلا يدخل علينا" وأقول لكم سلفاً: من لم يعرف شيئاً عـن "الـصالحية" فـلا

يدخل علينا، سيفترسه الملل حين أحكي عنها، وأنا ابنها بالوريد المربوط برباط القلب منذ الطفولة...

تلقى "شاكر مصطفى" علومه الأولى بمكتب «عنبر» أول المدارس الرسمية بدمشق.

والذي تخرجت منه – فيما بعد – الصفوة المتميزة من رجالات الحكم والفكر والقضاء والصحافة، وانتقل إلى مدرسة التجهيز لمتابعة الدراسة الثانوية. وكانت المدرسة يوم ذاك، مركزاً للمجابهة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي، يقود طلابها المظاهرات اليومية الصاخبة، المنددة بالمستعمر الأجنبي، ويتصدون بجرأة لرصاصه..وكان «شاكر مصطفى» يشترك في نقل الأسلحة للثوار المجاهدين في بساتين «الغوطة» المحيطة بالعاصمة، ويساعدهم في التنقل الآمن بعيداً عن العيون، ولا يزال رفاقه، يذكرون إلى اليوم، صعوده الجريء إلى سطح الفندق الكبير، وسط «ساحة الشهداء» بدمشق، لينتزع العلم الفرنسي من ساريته، ويرمي به من علٍ، فلما صوب الجنود نيرانهم إليه ألقى بنفسه على رفاقه وأنقذوه من موت أكيد.

والغريب أن ذلك كله، لم يحل بينه وبين مذاكرته وإعداده لدروسه، فنال شهادته في نهاية العام الدراسي، حائزاً الترتيب الأول على أقران دفعته، مما حدا بإدارة المدرسة على تكريمه في حفل مشهود، دعي إليه رجال التعليم، وقدمت فيه مجموعة من الكتب الأدبية – عشقه الأول والوحيد – وبعدها تابع تعليمه بدار المعلمين العليا .. وغادر إلى مصر ليواصل تحصيله الجامعي. الذي أهلّه للأجازة في التاريخ عام ١٩٤٥.

وكانت لسفره إلى مصر حكاية طريفة يرويها بشغف لمحاوريه:

بعيد حصولي على الثانوية العامة، بدأت أتهيأ للسفر في بعثة إلى "فرنسا"، لدراسة الرسم في معاهد باريس، إذ لم يكن مسموحاً – بحكم الانتداب الفرنسي على "سوريا" – بالسفر إلى غيرها من عواصم الغرب، ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية الذي جعل السفر مستحيلاً، حوّل بعثتي إلى مصر، وفيها كان مقرراً لي أن

أدرس اللغة العربية، ولكني تحولت إلى التاريخ.

عاشق الحرف، والدبلوماسية:

بعيد عودته إلى "سوريا"، بدأ مسيرته العملية مدرساً للتاريخ في الفترة ما بين ١٩٤٦-١٩٥٣ وقام في المرحلة ذاتها بتأسيس القسم العبري في الإذاعة السورية. ليوجه برامج تفضح العدو الصهيوني. وتكشف أبعاد المؤامرة العالمية على الأمة العربية، بأسلوب علمي.

وراح يتدرج في المناصب الإدارية والعلمية يوماً بعد آخر، مديراً لدار المعلمين، وأميناً عاماً لجامعة دمشق، ومديراً للإذاعة، ثم مستشاراً ثقافياً بمصر، ونال في هذه الفترة شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة زيورخ بسويسرا.

على أن المحطة الهامة في مسيرته، كانت انتقاله إلى السلك الدبلوماسي في مطلع الستينات فبدأ قائماً بالأعمال في "السودان" ثم سفيراً في "كولومبيا" وقنصلاً عاماً في "البرازيل" حتى نهاية عهد الوحدة بين مصر وسورية. ثم مديراً عاماً للسياسة الخارجية في وزارة الخارجية، وأخيراً وزيراً للإعلام بين ١٩٦٥-١٩٦٦.

وظل عشقه للحرف مصاحباً له حيثما ترحل: "لم يفارقني حب العربية وأدبها لحظة، فبعد أن أتقنت الإسبانية والبرتغالية، وأنشأت في "بوغوتا" معهداً لتدريس العربية وآدابها، ودرّست فيه ثلاث سنوات، وقد لقيت تشجيعاً من رئيس جمهورية "كولومبيا" آنذاك "خوليو ترباي" العربي الأصل ... كما وجدت الدعم لدى الكاتب البرازيلي "جورج أمادو" الذي ترجمت روايته "صرخة الماء" إلى العربية.

لبى "شاكر مصطفى" دعوة المرحوم الشيخ "جابر العلي الصباح" وزير الإعلام بدولة الكويت عام ١٩٦٦ ليكون المتحدث الرسمي باسم مجلس الأمة الكويتي، وفي تلك الفترة نشبت حرب الأيام الستة - حزيران ١٩٦٧، فانبرى لفوره إلى إعداد البرنامج التلفزيوني الأسبوعي: "أعرف عدوك" الذي سلط فيه الأضواء على الحقائق التاريخية في القضية الفلسطينية وفنّد أكاذيب العدو الصهيوني بأسلوب

علمي رفيع، وقد استقطب البرنامج حماس الناس واهتمامهم على مختلف مستوياتهم ... وإلى الحد الذي كان فيه شوارع الكويت تكاد تخلو من المارة ساعة بث البرنامج.

وكانت "جامعة الكويت" وقد أشرعت أبوابها منذ أمد قريب - مايو ١٩٦٦ - فأسهم "شاكر مصطفى" بتأسيس كلية الآداب فيها، وعمل مدرساً للتاريخ، ثم رئيساً للقسم، فعميداً للكلية عام ١٩٨٢. ولم يشغله هذا كله عن اهتماماته الفكرية الأخرى، سواء في التأليف التاريخي والأدبي، وراحت دراساته المتعمقة في التاريخ الإسلامي تصدر تباعاً وفي مجلدات ضخمة من آلاف الصفحات، وحينما كنت أقول له: إن اليوم عندك ٤٨ ساعة، وليس ٢٤ ساعة فقط، يكفي بابتسامته اللطيفة ويقول: ليس المهم، كم ساعة هو اليوم، المهم كيف تتعامل مع ساعات اليوم.

الأدب أولاً وأخيراً:

حلق "شاكر مصطفى" في أجواء الفكر الرحيبة، بجناحين قويين: ثقافة رفيعة متنوعة، وحس فني شفاف، فأعطى في التاريخ والأدب، مؤلفات متميزة جعلته علماً متفرداً بين قلة لن تتكرر في عصرنا.

لقد سألته في آخر لقاء معه قبيل شهور من رحيله - وكان قد انتهى لتوه من محاضرة شائقة في النادي العربي بدمشق - كيف استطاع أن يجمع بين التاريخ والأدب، وأن يكون محلقاً ومبدعاً فيهما معاً فقال:

أنا للأدب أولاً ... وللأدب أخيراً، الكلمة الحلوة تأخذ من شرياني، وأنا والحرف عاشقان قديمان .. دفاتري الأولى كانت شعراً وأحرفاً ترقص وموسيقا بيان..

لقد درست التاريخ لأنه يمنحني الامتداد الثقافي وأبعاد الحياة وأزمانها والألوان وهذا فإن التاريخ هو مهنتي التي أحب، والأدب دنياي التي أعيش وهما منسجمان في جبيني وخاطري أروع الانسجام، فأنا أدرس التاريخ وأكتبه بولع من لا هم له

غيره، ويغزوني "عفريت" الأدب فأزيح كل شيء أمامي، وأظل ليلي بطوله على ترديد بيت من الشعر أو قراءة قصيدة، أو إعادة لأسطر في قصة من قديم ما عرفت".

وقد بهر أسلوب شاكر "مصطفى" الأدبي، قراءه ومستمعيه، وشغفهم بعبارته الوضاءة، وموسيقا صوره العذبة، وكان "نزار قباني" شاعر الورد والهمس والملحن، مأخوذاً بسحر المفردات تفتر عنها ريشة صديقه "شاكر مصطفى" فكتب له:

«بالنسبة لي، لا قيمة لكتاب يصدر عني ولا يحمل توقيعك، لأن لا أحد يعرف شعري، أكثر مما تعرف أنت .. أكتب عني يا شاكر، لأني أولد على يديك مرة ثانية».

قدر المؤرخ:

شغف "شاكر مصطفى" بتاريخ العرب المسلمين، فأعطاه جهده وضوء عينيه، راح يقلّب الصفحات المطوية، ويقرأ السطور وما وراءها، وينبش بأسلوب المحقق، في تفاصيل الأحداث، ليغربل في مصفاته الدقيقة، ما تحصل عليه بمهارة وتمكّن تفرّد بها، ثم لينشر منه ما يراه جديراً بأن يكون التاريخ الحقيقي للأمة: أحداثاً وشخصيات فاعلة في الأحداث، وألح - بخاصة - على الصورة الحضارية للأمة، التي تضيء من أعماق القرون، بإشعاع التقدم الفكري، ومنجزات العبقرية الخلاقة، ضارباً عما شاب الحقائق من تشويه وتزييف على مر العصور.

كان هدفه الأسمى الذي طمح إليه بصدق شديد، أن تقرأ الأجيال الطالعة، تاريخها المجيد باعتزاز وإكبار، وتؤسس على هديه، غدها المتألق المنشود، وقد لخص مهمته يوماً بقوله: "إن قدر المؤرخ أن يحمل هموم أمته على كتفيه، ويمشي على الشوك، شاء أو أبى ... وأن يضرم مجدداً جذوة تطلعاتها وأحلامها ... وهذه رسالة لا يقدر عليها إلا من أوتي بعض عزيمة الأنبياء..

وكان واقع العرب، والمأزق الحضاري الذي تمر به الأمة العربية، والتحديات الكثيرة التي تجابهها، محور أحاديثه اليومية، وكان يجيب كلما سئل عن حال الأمة وهمومها:

"ولو كان سهماً واحداً لا تقيته   ولكنه سهم وثان وثالث"

كانت مشكلة " الثقافة العربية" شغل "شاكر مصطفى" وهمه الأكبر، كان يشبهها بالزرع الذي لا غنى عنه لحياة المخلوق، وكلما لقي هذا الزرع، الرعاية والاهتمام، وهو بعد بذور في رحم الأرض، كلما ازداد نماء ووفرة وعطاء، سواء في حاضر الأمة ومستقبلها.

ويستطرد: إن الرياح المسمومة التي عصفت بأمتنا من كل اتجاه، ومخالب الغدر والشر التي انشبت في أرضنا وظهورنا طوال قرون، وأشبعتنا ذلاً في اقتصادنا وسياستنا، عجزت عن كسر العمود الفقري للأمة العربية، وخنق روحها النابضة، الثقافة، وهي خندقنا الأخير الصامد، وجدارنا الصخري المستعصي على السقوط برغم كل السهام والمعاول الشرسة. وانظر على كم جبهة تقاتل ثقافتنا.

صراع العرب والغرب:

في إحدى الجبهات يتواصل صراعنا الدائم مع الغرب، الذي يغيظه وجدونا كصخرة قائمة على العدو الاستراتيجية فيما بينه وبين قارات العالم. تاريخنا كله صراع مع الغرب ... لكن المشكلة اليوم، في عدوانية الغرب مختلفة عما كان في الماضي ... إنها الاجتياح المادي والثقافي ... إنه لا يسلب الثروات المادية كما في عهود الاستعمار البائدة، ولكنه يدمر القوى الفكرية والثقافية والروحية، التي يمكن أن تقول ذات يوم: لا، للغاصبين.

في أيام الاستعمار الأولى، كانوا يتخطفون العبيد ويسوقونهم إلى ما وراء البحر، وهذا عصر العبودية الجماعية المقنّعة ... عبيداً بدون هوية، ولا يحكمون

الأسيار والقيود في الأعناق، ولكن على الأرواح.

إن عمليات الاختراق للبنى الثقافية تتم في صمت ودأب كاملين: الأقمار الصناعية تطوق الأرض، وتوزع التوجيه والإعلام، ضمن المخططات المرسومة للآخر المتخلف، وكالات الأنباء العملاقة تملأ جماجم الناس، وأرشيف المعلومات لدى شعوب الأرض. وتلعب بالسياسة والثورات لعبها بالأسعار والدماء، ولا تنسى برامج التلفزيون وسلسلاته التي توطد قيم الغرب، ونماذج الاستهلاك والسلوك والبطولات الكاذبة لرجل الغرب، وكذلك أفلام السينما، ومطبوعات "الموضة" والموسيقا الهيستيرية، والثقافة المصنوعة للتهريج، ولعب الأطفال ... وتأمل الدورة السريعة التواتر التي تدورها كل هذه المؤثرات والوسائل معاً، ولا تعجب .. فهم يأخذون منا حتى أولادنا من الأحضان .. إنهم يختطفوننا ويختطفونهم في عمليات ثلاث، منظمة ومتكاملة:

"التغريب الثقافي": «تمزق الهوية الحضارية القومية، وتضليل الاتجاهات بالأهداف الزائفة التي توطد التخلف وتنميّه».

قلت له: ولكنك لا ترفض ثقافة الغرب بالطبع وهي التي دخلت في تكويننا الفكري، وتكوين غيرنا من الشعوب، وينعم العالم بآلائها في كل شبر من الأرض.

لا بالطبع، وكيف أرفضها وقد صارت إرثاً للإنسانية بأسرها، كما كانت حضارة العرب المسلمين يوماً .. ولكني أفرق بين الثقافة الغربية، وبين استغلالها للاستعباد، وسأظل أرفض أمرين اثنين: الأول أن تحل هذه الثقافة محل ثقافتي وفكري، والثاني، استخدامها العدواني ضد ثقافتي وأهلي، وجعلها وسيلة للفناء.

ولذا لابد لنا أن نعترف بأن شيئاً خاصاً في طريقه للتحطّم في أعماقنا، في نسيجنا الفكري التكويني، وأننا نسلب بالتدريج وبصمت، الهيكل البنائي الثقافي الذي تقوم عليه الذات العربية الإسلامية وأننا ننسحق حتى العظم بين فكي آلة تسطّح ... لا تدجّن الوجود الثقافي العربي وحسب، بل تمسح بالتدريج وبتصميم ودأب عدوانيين معالمه وينابيعه، تحرق النبتة المبدعة فيه..

خفافيش الإقليمية:

ويشير "شاكر مصطفى" بإصبعه إلى خريطة الوطن العربي فيقول:

الذي أعرفه أن جميع دولنا على الإطلاق، إنما قامت بتوجيه استعماري، بتسوية بين الطامعين الأجانب، ونحن نمثل توازن التجزئات الاستعمارية التي دمرتنا في القرن التاسع عشر ... كانوا يقررون ولا يطلبون حتى بصماتنا، ما من حدود في الأقطار العربية على الإطلاق سواء بينها، أو بينها وبين الدول الأخرى المجاورة، وضعها عربي، أو اشترك في وضعها، كل التواقيع على وثائق الحدود التي نتمترس وراءها، وندافع عنها بشراسة، وضعها المستعمرون، ومضحك حتى البكاء، أن نكون ضدها حتى الموت منذ قرن وأكثر، وأن نكون معها حتى الموت بعد الاستقلال وحرية المصير.

إن الحلق ليختنق بغصته، ونحن نرى الدنيا تمشي على التجمع والتكتل، ونحن نسير بالعكس على التمزق والبنى الصغرى، وقد انطلقت من المغاور الإقليمية كل الخفافيش السوداء، مرة بحجة الوطنية، ومرة بحجة حماية التراث الذاتي، وراحت حتى المجموعات الصغيرة والقبلية، تتحدث عن حقوقها بصرف النظر عن حقوق أشقائها ... ومن الضحية تحت الأقدام؟.. الثقافة .. الكتاب على الحدود مادة مشبوهة كالمخدرات، ومثقفو المشرق، لا يكادون يتذكرون اسمين من أسماء مثقفي المغرب، وبالعكس؛ يتساوى في هذا الكتّاب والشعراء ورجال الإعلام؛ وحتى قنوات البث الفضائية، التي تسرق الشعوب من وراء كل النظم، لا تروج إلا لحكايات المغنين والممثلين والوجوه الجميلة، وكأنه ليس في هذه الأمة مفكرون ومبدعون ... أم يتعمدون دفع الفكر الراقي إلى المتاهة؟

ثم أليس مخجلاً، ألا يطبع من الكتاب الرائع عندنا أكثر من ٣ آلاف نسخة لـ ٢٢٠ مليون إنسان؟ وألا يصدر لدينا في العام الواحد أكثر من ٥ آلاف إلى ٧ آلاف عنوان جديد في حين يطبع في أي بلد غربي ما بين ٥٠ إلى ١٥٠ ضعفاً من ذلك؟ أليس مؤسفاً ألا يكون في هذه الملايين العربية غير ١٦٠٠ شاعر يحصرهم

إحصاء بالاسم، والشعر منذ كان هو الشعر في العرب؟ وأخيراً أليس مدعاة للدهشة أن نهلل ونقرع الأجراس لأن بيننا واحداً نشر كتاباً بالإنكليزية أو الفرنسية؟ ترى هل خلقنا نحن لنستهلك أوكسجين الهواء وحسب؟

والمؤلم أننا نثبت الحدود الإقليمية بأيدينا وأسناننا، فتكبر الهوة بين أقطار العروبة، وتتعمق، لتترك في الروح القومية جروحاً وتشوهات، لن يكتب لها الشفاء إذا ما استقرت وترسخت.

وينتقل "شاكر مصطفى إلى جرح آخر نازف في جسد الأمة:

النفق المظلم:

إنها المشكلة المستعصية في وطننا، ٦٠ بالمائة من أبناء العروبة أميّون، لا أتحدث عن الأمية الحضرية التي تصل إلى ٨٠ بالمائة، ولكن عن الأمية الأبجدية ... والحديث عن ثقافة عربية معاصرة، ضرب من العبث، إن لم يأخذ بالحسبان، أن ثلثي أمتنا لا يعيشون عصرهم، وتحدث الإحصائيات أن هناك ١٠٠ باحث علمي لكل مليون نسمة، في حين تقدم البلاد الصناعية ثلاثة آلاف، ولا يجاوز ما تنفقه الأقطار العربية على البحوث والتنمية الـ٦ بالمائة من إجمالي ما ينفق عليها على المستوى العالمي .. في حين تنفق على صراعاتها الإقليمية والداخلية مليارات الدولارات ثمناً للأسلحة القديمة ووسائل التخريب ... ولهذا تبقى الثقافة ضرباً من الوهم إن لم تكن مبنية على قاعدة شعبية عريضة تساندها. وستظل الثقافة العربية مصطلحاً تجريبياً، إذا لم تهبط نسبة المحرومين من الأبجدية في القرى والأرياف إلى ما دون ١٠ بالمائة في أبعد تقدير..إن أمة ثلثا أبنائها من العميان. لا تستحق أن تتحدث عن الشمس والربيع، ورقص النجوم على القمم، قبل أن تخرج من النفق العميق المظلم.

ويزفر المفكر من الجوانح، وهو يتحدث عن جرح آخر نازف في جسد الأمة:

انتهى عهد المعجزات:

نحن نعلم أن الحرية هي الشرط الأول للإبداع .. بل للحياة برمتها ... في الجو المغلق تموت الثقافة، ويتعطل الفكر، ويتوقف نبضه، كما يتوقف القلب عن الحركة، هل رأيت سوسنة متفتحة في غرفة مغلقة، أو طائراً يرتل في قفص معَتم؟ كذلك يذبل الفكر ويتخشب حين يحرم من الهواء الطلق، وينتهي إلى التفسخ والعفونة، ويغدو طعاماً للذباب، ومن المؤسف أن حرية الفكر والتعبير هي الشرط الكبير الغائب في الثقافة العربية اليوم، وكلنا يعرف أن الثقافة الحقيقية لا تصنع بأوامر السلطة فكل شيء ممكن أن يتم بالأمر: إقامة المصانع الشامخة، وبناء الجسور وناطحات السحاب، وزراعة المساحات الشاسعة ... وتستطيع السلطة أن تتحكم بمجاري الأنهار. وبالسحب لتمطر أنى تشاء، وتستطيع حتى التجول في جنبات الفضاء وبلوغ الكواكب، ولكل من هو القادر على إبداع الفكر؟... ما من أحد يستطيع أن يخلق شاعراً أو مصوراً أو موسيقياً بالقوة، فضلاً عن أن يوجد أمثال المتنبي أو المعري والزهراوي وابن رشد. إن يد السلطة مغلولة عن مثل هذه المعجزات، ولكنها تستطيع أن تمهد لها الأرض الطيبة، وتتعهدها بالري والماء لتعطي أمثال هذه الثمرات..

والمؤلم فعلاً، أن النظم الحالية لا تولي الثقافة العربية عنايتها إلا كما يولي العابر، الشحاذ على الطريق: نظرة إشفاق وقرشاً في الكف ... بلى ولا تمثل الثقافة عندها، أكثر من شكل من الزينة والديكور. من يعرف أن الأقطار العربية لا تتفق إلا أقل من النصف بالمئة من ميزانيتها السنوية على الثقافة، يصمت "شاكر مصطفى" ملياً، ثم رفع وجهه لترى نظرة عينين مغرقتين بهمّ ثقيل:

خرافة السلام ووهم التطبيع:

ذلك كله كون، وخرافة التطبيع مع العدو الصهيوني كوم، ونحن نعرف بالبداهة، أن الغرب منحنا الاستقلال باليمين، وزرع الدولة الصهيونية بالشمال في

الوقت ذاته، ليستمر استغلاله الإمبريالي بعد الاستعماري..وحين تصدى العرب لهذه النبتة الشيطانية، أذلوهم بتأييدها المطلق بالمال والسلاح والدعم لتبقى هي الأقوى؛ هذه الدويلة تكلفنا كل يوم المليارات من الديون في السلاح على غير طائل، وتأكل عيوننا فلا نستطيع التنمية، ولا نكاد نقوم بمشروع منتج وهي في خاصرتنا شوكة ممتدة ... ترتع هذه الأجيرة الأمريكية في أرضنا بامتياز ودون رادع، ويريدوننا أن نمد لها يد السلام، ويدعون للتطبيع معها في كل ميدان، وبالذات في مجال الثقافة ... إنهم يقصدون بالتطبيع حالة لا يرتفع فيها صوت عربي برفض وجودها، تريد من ٢٢٠ مليون عربي أن يرفعوا الأيدي تائبين نادمين على كل ذلك التراث الذي يحملونه منذ أنزل القرآن الكريم، وحتى آخر صفة كتبها كاتب عربي ضد اليهود.

ثم ما الذي سنحصل عليه مقابل التطبيع، أعني ما هي الثقافة الصهيونية التي يريدون تطبيعها مع الثقافة العربية؟ إن مجرد الكلام عن ثقافة إسرائيلية تعبير خاطئ؛ فليس هناك ثقافة إسرائيلية أصلاً حتى الآن..

إن العلماء الذين تحصيهم "اليونيسكو" لحساب إسرائيل، ليسوا منها، إنهم بولونيون أو إنجليز أو فرنسيون (من دول أوروبا وأمريكا) ولا يكتبون أبحاثهم بالعبرية، بل بلغاتهم الأصلية وهم على كامل الاستعداد لخدمة المصالح الأمريكية التي تسوقهم إليها ونقدم لهم مليارات الدولارات لاستقرارهم علمياً واجتماعياً. إنهم مثل شجرة النخيل الذي تقتلعونه من منابته بترابه وجذوره لتغرسوه في البيوت والحدائق ... فإن طرحت النخلة عشرين عزقاً ... فمن ثمّرها وتعب بها وأنشأها؟ علماء إسرائيل نبت مستعار إنها عقول مهاجرة من الخارج جاهزة للعمل، إن أمطار الغرب تصب في إسرائيل كما تصب أمطارنا نحن في الغرب وحتى تفوق إسرائيل العسكري ليس لها ... إنه مسروق من هنا وهناك في دول الغرب وهل تستطيع أن تدّعي اختراع حتى أصغر جهاز من مبتكرات التقنية الأميركية.

وماذا تريد إسرائيل من التطبيع: أن نلغي من قرآننا وديننا ما يمس من هم (أشد الناس عداوة للذين آمنوا) ولا نذكر أنهم كانوا حرباً على الرسول الأعظم

(ص)؟ وأن نمحو من تاريخنا وجود العرب ٥٠٠٠ سنة في فلسطين؟

وماذا عن تباين اللغة؟.. هل نفتح ١٠ آلاف فصل لتدريس العبرية ولدينا ما يزيد على عشرين لغة هي أخرى بتعلمها هي كالصينية واليابانية وغيرهما. ما الداعي ثقافياً لتعلم لغة لا يتكلمها في إسرائيل نفسها غير مليونين فقط..ويتحدثون بها لغة شارع وليس لغة علم .. ثم أليس أفضل أن نصرف التطبيع الثقافي إلى البربر والأكراد الذي يعشون بيننا من أن نصرفه لهؤلاء؟ أليس أفضل وأكثر أهمية وفائدة أن نتوجه بالتقارب والتفاهم إلى أهلنا في كردفان ودار فور والأورس والأطلس؟

ألم يعد ينقص ثقافتنا إلا الثقافة الإسرائيلية ثقافة أربعة ملايين، ثلثهم لا يعرفون العبرية؟ وما الذي لدى هؤلاء من مكونات الثقافة؟ ماذا لديهم من طراز العمارة والفنون التشكيلية والإبداع المسرحي، أو الشعر ذي القيمة الرفيعة ومن المتاحف ومن المخطوطات؟ ولولا أن "يانيل دايان" كانت ابنة هذا القرصان، ما سمع أحد من العرب بقصصها، ولولا فضول بعض المترجمين، ومعونات الشين بيت ما سمعنا بأسماء بعض الكتاب وهم على أي حال أمريكيون.

التطبيع ... هزيمة إلى الأبد:

على أن نقطة المركز في التطبيع الذي يريدون: أن يمدوا أصابع الصهيونية تحت أعيننا على مستقبل أطفالنا وأجيالنا، وتدجين الجيل الآتي وما بعده فلا يعرف شيئاً عن الجريمة الصهيونية، ولا يرتفع صوت يطالب بالأرض والمقدسات، قرار التطبيع يعني بالضرورة تغيير المناهج الدراسية، وتغيير مواد الدين والتاريخ والأدب والشعر. ومحو كل ما ينمي الحقد ضد الغاصبين الصهاينة، ويدعو للثأر من عدو الأمة التاريخي، وقرار التطبيع الصهاينة، ويدعو للثأر من عدو الأمة التاريخي، وقرار التطبيع معناه أن نضع كتباً مطهرة يرضى عنها اليهودي البشع، وأن يقطع المربون والمدرسون في المدارس ألسنتهم التي ظلوا خمسين سنة يلهجون

بها بالحق، ويرمون بها للكلاب، إكراماً للتطبيع والسلام.

ونتساءل ولنا الحق، عن الثمن الذي سيدفعه الأعداء مقابل التطبيع فلا نجد جواباً ... إذن فأين ثمن الأرض المغتصبة والضحايا بمئات الألوف، والمشردون والمعذبون؟ هل ثمن ذلك أن نلقي أجيالنا في البحر، ونكتب تعاليم أخرى لديننا، ومناهج طاهرة لتاريخنا كي ننال شهادة حسن السلوك من العدو وعليها. خاتم الشمعدان السداسي؟

هل علينا أن نكتب شعراً بريئاً لأبنائنا، وجغرافيا كاذبة، وأدباً (سامياً) لينشد أطفالنا نشيد "هاتكفا" كل صباح بدل موطني، وبلاد العرب أوطاني؟

إنهم يريدون لنا أن نقتلع الجذور السامة من دمنا وأجسادنا ... فهل هم مستعدون لاقتلاع حقدهم غير المبرر علينا وعلى مستقبل أجيالنا؟ إنهم بطلب تغيير المناهج المدرسية – كرمى للتطبيع – يطعنون هويتنا الحضارية في الصميم، ويتدخلون في اخص مميزاتنا الثقافية بتشويه التربية، فإذا رفضنا اتهمنا بالعداء للسامية ... قل: بلى .. نحن لا ساميون إن كانت السامية تلغي من قرآننا العظيم آياته ومن أحاديث النبي الكريم أحاديثه، نحن لا ساميون بلى، إذا كانوا يريدون بالتطبيع تطويعنا، وأن يزوّروا التاريخ ليلغوا الوجود العربي ... نحن لاساميون إذا أرادوا جعل السلام شراباً نسقيه لأطفالنا كأساً كل يوم، فينشأوا مسالمين أرانب وقططاً.

إن التطبيع الذي يريدون ليس إلا عنواناً براقاً لهدف ماكر، يريد تفكيك العقدة النفسية التي كونها الوجود الصهيوني ظلماً وعدواناً في الوطن العربي، وهو وسيلة لتقليم أظافر العرب، وخلع أكتافهم، فلا يحمل السيف بعد ذلك ضدهم حامل، إنها الطريقة الأخيرة لهزيمة العرب إلى الأبد.

لكن أقول: إن هذا التطبيع في واقعه. تطويع، وهو عملية مرفوضة، وبناء على الماء .. إنه عملية مستحيلة .. إن سفير الأعداء بمصر يعتصم بأعلى بناية معزولة، وعلى بابه الحراس بالعشرات ... ولسوف تمر مياه كثيرة في بردى

ودجلة والنيل قبل أن ينجح صهيوني في السير آمناً على ضفاف هذه الأنهر..

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

- ويطرح السؤال نفسه - في ختام الحوار: ونحن: ما هو دورنا؟ وما هي سبيل الخلاص؟.

طريق الخلاص:

يرد المفكر الكبير: إن التخطيط للخلاص يقتضي أولاً: ردم الهوة المتزايدة في السعة والعمق، عن طريق تغيير المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها الفكر، إن ما نشاهده اليوم من صور التراكم العلمي الهائل يضعنا بالرغم منا على أبواب عصر مختلف، وقد انقلب التوازن العلمي والتقني القديم، كمّاً ونوعاً وسرعة في كل مجالات المعرفة في مدى لا يزيد على نصف قرن وإذن فلابد لنا والحال كذلك أن نفكر بالمستقبل ونخطط له على ضوء المتغيرات المستقبلي، وحاجات الغد...وهنا أشير إلى خطوط أولى وحسب:

- سد منابع الأمية، ليس بالمعنى الألفبائي ولكن بالمعنى الحضاري أيضاً.
- تكثيف الثروة البشرية العلمية وربطها لا بالأرض فقط، ولكن بالثروة المادية للأرض وبالمشاكل الإقليمية المتوطنة.
- دعم خبرات الترجمة وتقنية الترجمة.. الترجمة علم مهمل، ولابد أن تدفع به جامعات إلى المقدمة بقوة، تنظيماً وتقنية واختصاصاً.
- الاتجاه إلى تقنية المعلومات، التي أصبحت رأسمال الغد، والعلم المساند لكل العوم في المستقبل ... إن العالم كله يتجه من المجتمع الصناعي إلى المجتمع المعلوماتي.
- التوجه نحو تقنية الاتصال والإعلام .. لأن ثلاثة أرباع ثقافة الغد سوف تأتينا عن طريق وسائل الاتصال. لابد من السيطرة على عمليات الاتصال

والإعلام لتكوين القاعدة الثقافية التحتية الضرورية، ولمساندة العملية العلمية، وكذلك لابد من وجود الأجهزة البشرية التقنية بجوارها ووجود الإنتاج الجذاب الأسر الذي يبعث منافسة وسائل الاتصال الأخرى ويوقف تدفقها الوحيد الجانب حتى الآن..

إن خلاصنا لن يأتي عن طريق شعار يرفع ليلتحق به الناس، وإنما الجهد المضني، والعمل الدائب الذي يستهلك الشرايين والأعصاب .. عمل يشترك فيه المثقفون المنتجون، الذين يلتقطون النبض الحي في المجتمع، يسمعونه ويتجاوبون معه ولا يكلفون بتحليل الهزائم والبكاء، مثقفون مؤمنون بالديموقراطية، ويقدمون الشهادة على المصلحة الخاصة، وتشترك معهم كل طبقات المجتمع: العامل والفلاح، والجندي، في نضال فكري تمارسه الأمة بمجموعها خلال أكثر من جيل.

خيـــاران لا غيـــر:

إن الخلاص يتمثل في انطلاقة من أعماق الروح الشعبية القومية، تشترك فيها العملية الاقتصادية بقصيدة الشعر، وصنع الصاروخ باللوحة الفنية، والفلسفة بدخان المعامل، والموسيقا بالحرف الملتهب، وتربية الطفل بتمثّل الفكر العالمي والحوار معه ... إنه بكلمة نهضة تتساوق فيها وتتعانق كل الخطوط في وقت واحد.

وأستطيع أن ألخص ذلك كله بكلمة: إنه التحدي الداخلي ... وهو الأصعب والأقسى هو التوافق مع العصر، والإحساس بإيقاع الزمن المتسارع وإدخاله على منظومة القيم وعلى أسلوب الإنتاج .. هو التنسيق الاضطرادي مع حركة الإنسانية، وبالانقلاب الذاتي من الداخل ومن الجذور .. وأكاد أصرخ: لا تنسوا الزمن .. إنه يفر وبالسرعة المجنونة من بين الأصابع، فليبدأ العمل اليوم لا غداً .. الآن بلى ..

إن العرب اليوم أمام واحد من خيارين: إما وعي الطريق كله وتحدياته، والشروع باجتيازه بإيمان وشجاعة مع إطلالة القرن الجديد، وإما بقاء الطريق المشروع حلماً، حتى تفرغ الولايات المتحدة من تدجين المنطقة العربية على الذوق

الإسرائيلي الأمريكي. وحينئذ، ابحثوا إن شئتم عن الثقافة العربية بين أرقاء القرن الحادي والعشرين.

محارب على طريق التنوير:

هكذا، ظلت هموم الثقافة العربية، ترزح على عقل المفكر وقلبه إلى آخر يوم في عمره، وظل هو يعطيها من نبض روحه ووجدانه، ويبث همومه القومية والوطنية في محاضراته ومقالاته وكتبه، وراح يعمل "كما لو أنه ملتزم بعقد علم استعبادي مع الوقت".

ولقد أسهم "شاكر مصطفى" في نهوض الفكر العربي وحداثته، بتواضع خليق فقط بالكبار، وليس من سياسي مشرقي، أو مفكر أو عامل في إشغال الفكر، إلا و"لشاكر مصطفى" دين عليه، لقد بدأ محارباً يريد أن يغير نظرتنا إلى الأشياء، وأن يصحح إدراكنا لمضامين التاريخ، لكنه اختار مبكراً الهدوء، وبدلاً من الاستمرار في صياغة الأجيال، انصرف إلى التعليم الجامعي بدولة الكويت، التي اجتذبت ذات مرحلة، النخبة من صناع الشأن الفكري، وتركتهم يسقون بأنيتها البذور التي حملوها من الديار القديمة .. فكان "أحمد زيك" في صحافة التنوير المبسط وشاكر مصطفى في تبسيط التاريخ، وكان "أحمد بهاء الدين" في تنوير التنوير، وكان "أنيس صايغ" وآخرون..

ومثل كتاب كبار كثيرين، كان "شاكر مصطفى" رجل فكر وعطاء كثير، ولكن من دون جهاز إعلامي يطبل له ويزمر، وقد رفض دخول لعبة الشهرة الكاذبة، والألقاب الطنانة، ولهذا بقي بعيداً، أنوفاً، شغوفاً بشيء واحد هو العطاء. إذا قرأ وإذا كتب.

وفي اليوم الأخير من شهر تموز ١٩٩٧، انطفأت شعلة القنديل الدمشقي الجميل، الذي نور للعروبة كلها طوال نصف قرن، ودل جيلاً بأكمله على موضع قدَميه في طريق الغد الأفضل ... وبقّي على الجيل أن يتابع الطريق ... ولا بد أن يفعل!

الأساطير ثمنها الباهظ جداً

في الخامس من (آب) سنة ١٨٨٢ رست في ميناء يافا السفينة أصلان، تحمل أول المهاجرين من اليهود حركة (بيلو) الصهيونية إلى فلسطين، كانوا ثلاثة عشر رجلاً وامرأة واحدة...

اكذب! اكذب دائماً، فلابد أن يبقى من كذبك شيء، هذه القاعدة الذهبية التي وضعها جوبلز، داعية النازية المعروف، أشك في أن يكون أحد في الدنيا - إلا أن يكون الشيطان - قد طبقها أكمل التطبيق، واستغلها حتى النهاية كالحركة الصهيونية، تاريخها من أوله إلى آخره برهان على أنه لا حاجة لأن يكون لك حق لتصل إلى ما تريد، يكفي أن يكون لك مع العمل والقوة، بوق دعاية! واكذب ما شئت فليس ثمة إلا عدد محدود من العارفين بالحقيقة يعارضك، فإن رفع بعضهم الصوت تكفل بالتغطية عليه سيل الدعاية الجارف، وإذا ذهب ملايين البشر في القديم، ضحية الأساطير، واغتصبت الأرضون أو ذبحت في صليبيات الأوهام فما زالت الأسطورة - فيما يبدو- سيدة الموقف، حتى في أواخر القرن العشرين، يوم أضحى في إمكان الإنسان النزول على القمر والتحقق من حجارته!.

وفلسطين، ومعها الشرق العربي، ومصائر أهله، ليست ضحية أسطورة واحدة، ولكنها ضحية سلسلة مركبة من الأساطير، كقنابل الدخان (العنقودية) التي تعمي العيون ثم تعود لتعميها كرة أخرى، ثم أخرى....

أطلقت ثم كررت ثم كرست حقائق ونحن بمشقة نتلمس الطريق لمعرفة أبعادها، ولم تأت كلها معاً، لأنها كانت أساطير مرحلية، لكل مرحلة من الصليبية الصهيونية شعاراتها المناسبة، وأكذوبتها المبرمجة، هكذا مثلاً أطلقت مقولة (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض)، وأطلقت قصة اللاسامية وإبادة ستة ملايين يهودي في أفران الغاز، ومن مثل ذلك أن اليهود شعب مسكين مسالم يريد العرب أن يذبحوه، وأن اليهود هم الشعب الوحيد المضطهد في التاريخ الإنساني، وأنهم

شعب واحد مستمر الوجود منذ ثلاثة آلاف سنة إلى اليوم، وأنهم (شعب الله المختار)، وشعب العبقريات، وان فلسطين هي أرض الميعاد، والرب (يهوه) هو الذي وعدهم بها، وأنهم أيضاً وأيضاً هم أصحاب فلسطين الأولون.

تكرار هذه الأساطير، شعارات ومقولات مطلقة، أدخلها بين الحقائق والبدهيات، حتى لدى بعض العرب، وحتى صار دفعها بالحق والحجة والوقائع ضرباً من العبث إن لم يكن مدعاة للملل واليأس، بعد أن تجاوزتها المراحل، صار الحديث فيها لغواً من اللغو لا ينتهي إلى نتيجة، وفرض الأمر الواقع والقوة والزمن والظروف وقائع جديدة طرحت لها بدورها أساطير أخرى جديدة، كأسطورة إعمار فلسطين الموات، وهي عامرة قبل وجودهم في الدهر، وأسطورة الأمن التي تبرر الاستيلاء المتسلسل على الأرض والتوسع في حلقات متصلة، يظل الأمن دائماً مهدداً من بعدها دون نهاية ولا أمن للآخرين، وأسطورة الجيش القوي الضارب، ولولا الحبل السري الذي يربطه بالترسانة الأمريكية لما كان، ولما كانت (إسرائيل)! بين صورتين.

بين صورتين:

أكثر من مائة سنة مرت على مسلسل الأساطير هذا ونحن ندفع الثمن، وهو يمتد فصولاً ودماء وافتراس أطفال.

إنهم يسمّون هذا بعملية التنظير، يضعون النظرية أولاً لكل مرحلة، ثم ينحون عليها بالعمل والتنفيذ وصراخ الأبواق، الاستراتيجية هاهنا متكاملة :

نظرية، تخطيط استراتيجي، أعمال مرحلية، ونظريات فرعية متممة للنتائج، ثم نظرية أخرى تلائم النتائج والمكتسبات، وهكذا دواليك، وتدور الناعورة على النيام.

استعرض إن شئت تاريخ هذه الصليبية ما بين أول صورها وآخر الصور لترى كم دفعنا نحن وحدنا ثمن تلك النظريات – الأساطير.

الصورة الأولى: كانت منذ أكثر من مائة سنة (١٨٨٢) سفينة تافهة اسمها أصلان ترسو في الخامس من آب في ميناء حيفا بعد أن أبحرت خمسة أيام من رومانيا، وعليها بضاعة من البشر لم يأبه لها أحد: ثلاثة عشر رجلاً وامرأة واحدة من حركة لم يسمع بها أحد، من الشرق العربي على الأقل، أحباء صهيون (البيلو) نزلوا مهاجرين فأسسوا أول مستعمرة زراعية أجنبية عند عيون (قارة)، جنوبي يافا، هي التي عرفت فيما بعد باسم ريشون لوسيون (الأول في صهيون)...

قبل ذلك بأربع سنوات كان نفر من يهود القدس المتدينين قد خرجوا لحراثة الأرض، فأسسوا أول جماعة يهودية زراعية في بلدة ملبس العربية التي صارت فيما بعد (بتاح تكفا) (عتبة الأمل). الممول لهذه الحركة كان الرأسمالي اليهودي – الأخطبوط البارون روتشيلد – الوسيط هو الرأسمالية الاستعمارية، خلال خمسين سنة بعد ذلك ظل يدفع لهذه الهجرة، وظف في هذه الحركة الاستعمارية (حتى موته سنة ١٩٣٤)، ما مقداره ١٥٠ مليوناً من الفرنكات الذهبية.

الصورة الأخيرة: في آب ١٩٨٢، ما تزال طرية فاجعة على العيون، ربع مليون جندي صهيوني يحتلون نصف لبنان بآلات الدمار الأمريكية، يطوقون بيروت ويدمرونها بآلاف الأطنان من القنابل، ثم يذبحون الألوف ممن طردوهم، هم أنفسهم من ديارهم، لا يريدون أن يسمعوا أن على الأرض شيئاً اسمه فلسطين أو فلسطينيون، ويدخرون للغد العربي القنابل الذرية، الرجال الثلاثة عشر الأول المسالمون صاروا أربعة ملايين قاتل.

ومستعمرة ريشون لوسيون صارت تمتد من شرم الشيخ إلى جبل الشيخ ومن القنيطرة إلى القنطرة، وتفترس، فيما تفترس، الصخرة المباركة، (المسجد الذي باركنا حوله) وقبر السيد المسيح، ومهده، وبغرور قطاع الطرق في الغرب الأمريكي تتحدى وتشتم كل البشر.

بين الصورتين الأولى والثانية تمتد ملحمة المائة سنة الماضية في انتظار الآتي، يمتد قرن الآلام العربية الذي بدأ بثلاثة عشر رجلاً وامرأة واحدة يحملون

أسطورة ذات ثلاث شعب: الأولى أن فلسطين أرض بلا شعب، الثانية إن الله وعدهم بها، والثالثة أنها أرض يهودية في التاريخ، وإذا كانت وقائع قرن كامل قد كذبت الأولى، وكان الجنون التوراتي الصهيوني هو الأعمى الوحيد الذي لا يرِيد أن يرى الوجود الفلسطيني الثوري والبشري وهو يتضخم كل يوم، فإن الشعبتين الأخريين، الوعد ويهودية الأرض، ما تزالان من بضاعة السوق.

الوعد المزعوم:

ويسألهم الناس (ويقولون متى هذا الوعد إن كنت صادقين) فيشيرون إلى نص توراتي مما حاكته أحبارهم بعد أيام موسى بست مائة سنة أو تزيد، ونسبوه إليه زوراً، يقول النص (قطع الرب مع إبرام) (إبراهيم) ميثاقاً: لنسلك أعطى هذه الأرض مع نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات، اليقينين والقنزيين والقدمونيين والحيثيين والعرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين).

وإذا كان واضحاً أن اقتطاع جزء من النص دون ما يتصل به هو أشبه بقضية (ويل للمصلين)، فمن الواضح أيضاً إن الحبر الذي كتب النص كان يقصد حكم الشعوب المذكورة في النص بدليل تفصيلها الدقيق بعده، وإذا كان الوعد حقاً فإنه أعطى الأرض لنسل إبراهيم، ونسل إبراهيم هم العرب، أما هؤلاء الأشكنازيم فتعرف الدنيا أنهم من نسل الخزر ولا شأن لهم بإبراهيم ونسله كما تعرف الدنيا إن الدين ليس تناسلاً ودماً موروثاً ولكنه فكر ... لا دم له ولا أجناس.

..... ويسأل صاحبي وهو يحاورني: هل كانت فلسطين لهم حقاً في التاريخ؟ وهل كانوا هم؟ يا بؤسي للتاريخ كم يحملون عليه من الأكاذيب؟ وكم يحمل من أزوار الأساطير، هل نعود مرة أخرى للتاريخ ؟ إنسان هذه الأرض الفلسطينية عاش عليها مئات القرون، ومع ذلك يأبى العمى الصهيوني أن يرى منها أكثر من قرن واحد، قرن واحد فقط، دعنا إن شئت، من (إنسان فلسطين) القديم الذي كان

مرحلة متطورة من مراحل إنسان (النيندرتال) إن له ملفه الطويل وآثاره وحضارته في ملفات ما قبل التاريخ.

دعنا مما قبل التاريخ كله، وادخل منطقة التاريخ قبل خمسين أو ستين قرناً، اقدم من نعرف على هذه الأرض بشكل عام هم الشعب (الذي قامته قامة الأرز وهو قوي كالبلوط) هذا الشعب الذي يعود انتشاره إلى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، والذي استمر حتى مطالع الألف الأول ق.م، هو القسم من الشعب العموري (السامي- العربي) عرفه التاريخ باسم الكنعانيين، حتى التوراة تسمى فلسطين (أرض كنعان، هؤلاء الكنعانيون هم الذين زرعوا أرضها ألفي سنة، بالمدن، أريحا، مجدو، بيت شان، عكو (عكا)، يافو (يافا)، أورشليم (يبوس) غزة، عسقلون (عسقلان)، أشدود، بئر السبع، بيت لحم .... كلها من بنائهم.

جماعتهم الساحلية التي امتدت على البحر هم من نعرفهم بالفينيقيين أصحاب صور وصيدا وجبيل وعرقة وأوغاريت، والكنعانيون هم الذين منحوا البلاد ثقافتها التاريخية الأولى من لغة وعلم ودين وكتابة ونظم اجتماعية وفن وبناء وقيم وحضارة.

بعد الكنعانيين كان التغلغل البشري في الشام للجماعة (السامية - العربية) الثانية: الآراميين، وهم الذين منذ أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، جددوا الدماء التليدة في المنطقة، وأعطوها كرَّة أخرى مدنا جديدة، وحقولاً خضراء (تفيض لبناً وعسلاً) حسب قول التوراة نفسها، وضربوا فيها للثقافة (العربية السامية) الجذور والأبعاد.

ويوم جاء عرب الإسلام بعد ذلك، في القرن السابع للميلاد، وجدوهم هناك ينتظرون الخلاص (السياسي والديني والاقتصادي على السواء)، واندمج الشعبان الأخوان بسرعة اندماج اللبن والماء.

لم يعمر فلسطين سوى العرب:

ويقول صاحبي : يبقى سؤالان:

الأول: أين نسيت الفراعنة وآشور؟ وأين الفرس واليونان والرومان في هذه الجولة الصاروخية؟

الثاني والأهم: أين العبرانية والعبرانيين؟ وسليمان وداود وقوم يهود من هذا كله؟ وأقول لصاحبي : إنما ذكرت الأسس والجذور الراسخة، وعناصر الدماء المسيطرة والثقافة الباقية، ذكرت سفر التكوين البشري - الثقافي لهذه الأرض، أما الموجات العابرة التي لم تترك فيها سوى الألوان وجروح الجلد فقد كانت تعبر السطح، ولا تتصل أبداً بالأعماق، التاريخ السياسي لهذه المنطقة تلون، اضطراب، تنوّع، عرف أنواعاً من عروش الحكام، أما التاريخ الحضاري المتجذر فبقي على الصمود، جاء الفراعنة فاتجهوا إلى فلسطين أكثر من مرة (مابين القرن ٢٤ والقرن ١٢ ق.م) ولكنهم انحسروا دون أثر، ووصل الآشوريون (القرن ٨-٦ ق.م) فدمروا ما دمروا، ثم اختنقوا بالدماء التي سفحوها وجاء الفرس فلم يبقوا، وجاء الإسكندر وخلفاؤه (من سلوقيين وبطالسة، ما بين أواخر القرن الرابع وأواسط القرن الأول ق.م).

وجاءوا في استعمار استيطاني، ولكنهم بقوا غرباء (كما بقي الصليبيون من بعدهم غرباء)، حتى مساكنهم ولغتهم وأحياؤهم والمدن واللغة والثقافة بقيت معزولة، ثم تسلطت الآلة العسكرية الرومانية على البلاد، حرثتها بالسنابك وأقدام الجنود، ولكنها بدورها بقيت مجرد طبقة حاكمة ولا تفاعل بينها وبين الناس والأرض والثقافة الدهرية للمنطقة، بل أخذت منها أكثر بكثير مما أعطتها، وورثتها بيزنطة فكانت أكثر غربة، حتى نصرانيتها كانت غير نصرانية الناس في هذه الأرض، وتلك الآلاء من الآثار الجبارة والأعمال الفكرية (من قانون وشعر وفلسفة وفن وبناء) التي ننسبها للرومان والبيزنطيين ضلالاً منا وخسران رأي إنما قام بها وصاغها وبناها وأثلها أبناء هذه الأرض بأيديهم وجباههم وما يبدعون، هي منهم

ولهم وإن حملت القوالب الإغريقية – الرومانية من شكل وأسلوب ومن هذه المنطقة كان يذهب المعلمون في الفلسفة والقانون والرياضيات والبناء والفكر، والشعر إلى روما وأثينه، بل منها أيضاً خرج (المعلم) السيد المسيح جواباً على كل ذلك الغزو العسكري، وكل تلك الهيمنة السياسية الزائلة، إنما أتكلم عن الباقيات الصالحات، (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً)، إنها هي الإنسان.

أما العبرانية وقوم يهود فلهم بدورهم مثل هذا الحديث مع فلسطين، لابد من رد الأمور معهم إلى حجمها الطبيعي في الزمن، وفي الأرض، وإلى حقائقها في الأحداث ومداها التافه في التاريخ، وأسسها الثقافية والمستعارة.

إنهم في الزمن التاريخي (ولنعتبر هذا الزمن خمسين قرناً) لم يمروا في تلك الأرض إلا حوالي ستة قرون (بين القرن ١٢ والقرن ٦ق.م) ولم يظهروا إلا على بعض أجزائها (الشمالية والوسطى فقط).

ولم يكن لهم من ملك ودولة موحدة في تلك الأجزاء إلا أقل من قرن واحد فقط (بين القرنين الحادي والعاشر ق.م) حين ملك شاول (حوالي سنة ١٠٣٠ق.م) ثم داود (١٠٠٦-٩٧٢ق.م) ثم سليمان (٩٧٢-٩٣٢ق.م) وتمزقت بعد ذلك دولة سليمان إلى دولتين صغيرتين، استمرت الأولى (إسرائيل وعاصمتها السامرة) في شمال فلسطين حتى محيت على يد الآشوريين (٧٢٠ق.م) واستمرت الثانية (يهودا وعاصمتها أورشليم) في الوسط حتى استباحها وخربها وخرب الهيكل معاً، نبوخذ نصر (سنة ٥٩٢ق.م) في السبي البابلي المعروف، وبدأ عصر الشتات اليهودي (الدياسبورا) منذ ذلك الوقت، وبلغ أوجه بالطرد النهائي لكل ظل يهودي في فلسطين سنة ١٣٥م. على يد الرومان.

في فترة الأسر البابلي كتبت في التوراة قصة الوعد الإبراهيمي وأرض الميعاد هذا في الزمن، أما في التكوين العرقي فليس ثمة عرق يهودي أبداً، ولا عبراني ولا إسرائيلي، ولا ما يزيفون بأي معنى من معاني القوم العرقية.

الجماعة البشرية التي آمنت باليهودية كانت مجموعة خلائط عرقية، التاريخ

القديم عرف الأولين منها باسم حابيرو، أو عبيرو، وكثير منهــا كـــان مـــن قطـــاع الطرق ومن التجمعات البدوية التي لا أرض لها، وقـــد انـــضووا جميعـــاً، بعـــد أن استقروا في جوانب من شمال ووسط فلسطين، في إطار العبادة الدينية التـــي كانـــت تمارسها الجماعات المختلطة الذين خرجوا مع النبي موســـى، مـــن مـــصر. هـــذه الأخلاط العرقية والأمشاج المتفرقة، قضت أكثر من أربعة قرون وهي تجتمع فـــي نطاق عقيدة الرب (يهوه) قبل أن تجبرها الظروف على الاتحاد مـــع غيرهـــا مـــن القبائل أيضاً تحت حكم شاول ثم داوود، يبقى أن نضيف إلى هذا أن هذه الجماعـــات لم تكن المجموعة السياسية الوحيدة في أيامها في فلسطين، كان هنـــاك الكنعـــانيون، والفلسطينيون (من شعوب البحر)، والأدوميـــون، وممالـــك آرام (بيـــت عمـــوري) والمؤابيون، والعمونيون، والمدينيون واليبوسيون....

وتلك الأحداث صورت في التوراة، على أنها أحداث كبرى، وأضـــفت عليهـــا الهالة القدسية أبعاداً غير طبيعية وأدخلتها في الأدب الديني والفكري - ليست أكثـــر من أحداث متواضعة جداً لشعب صغير، تضخم تاريخه الخاص في ذاكرته الـــشعبية بمقدار ما كان يشعر به من صغر وضعف أمام القوى الكبرى، فتح أريحا لـــم يكـــن أكثر من انتصار مسكين على قرية محصنة جرى أعظم منه وجرى مثله ألف مـــرة في التاريخ القديم، وما كان ملك داوود وسليمان أوسع من ولاية من الولايات التابعة لمصر أو الأشوريين أو الحيثيين أو البابليين أو الفرس، وأعمال الجماعـــة العبريـــة في سفر الملوك أو القضاة قد تكرر مثله وأروع منه مئات المـــرات فـــي تـــواريخ مختلف الشعوب وفي مختلف العصور.

العهد القديم لو حوى قصص الشعوب الأخرى تلك لما كان ثمة مكان فيه لكـــل تلك القصص الأسطورية بحوارياتها وتفاصيلها وما تفضح أحياناً كثيرة مـــن عمـــل مخجل!

وأما في الجانب الثقافي فيكفي أن نعلم أنه لم يكن للجماعات العبرانية من لغـــة مشتركة، ولا صلة بين إسرائيل القديمة واليهودية.

بعد موسى اصطنع العبرانييون الآلهة الوثنية المحلية بجانب الرب يهوه، حتى سليمان! حسب نصوص التوراة الموجودة بين الأيدي عبد آلهة زوجاته الوثنيات جميعاً، أما اليهودية التي لليهود اليوم فقد تبلورت وتكونت، على أيدي الحاخاميين بعد سقوط إسرائيل، وبخاصة بعد السبي البابلي في القرن السادس ق.م.

ويقول صاحبي: إذا كانت هذه هي حقائق التاريخ فلماذا لم نفضح أو لا نفضح هذا كله؟ أليس من واجب العلم أن يرجع الحق إلى نصابه.

وأقول لصاحبي: كل هذا ليس أكثر من بعض اللغو، من الحديث البائد، من الصراخ الضائع في الفضاء، إن للأساطير أيضاً ثمنها الباهظ جداً، ولقد فات الأوان على نقضها، وليس بالمهم أن تزلزل الأسطورة، ولكن أن تدمر الآلة والمصالح التي تختبئ وراءها، المهم أن نفهم أن الأسطورة مثلها كمثل الحقيقة سواء بسواء، أشبه بالكيس الفارغ لا يقوم بذاته، ولكن بما يمتلئ به من قوة، والتاريخ إنما يصنعه ويكتبه الأقوياء ... أم أن الآية الكريمة **(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)** قد أنزلت في غيرنا، ولغيرنا؟.



حافظ الجمالي:

عاشق الحرية والعقل والجمال .. وداعاً..

لا أحد يستطيع أن يعرض سيرة الكاتب والمفكر القومي (حافظ الجمالي) بكلمات، كما فعل هو بنفسه حين كتب (إذا أردت أن ألخص حياتي في سطور قليلة، قلت: إنني شغفت منذ مطلع عمري بالقضايا الوطنية والقومية، وعشت تواقاً للعمل الدائب لأزيح عن الأمة ما هي فيه من تخلف، لتحقق أملها بفجر جديد ينتظره كل من له أنفاس عربية).

وهذه الكلمات على إيجازها تختزل بالفعل مسيرة نصف قرن حافلة بالنضال، لتحقيق أهداف سامية يطمح لها المفكَّرون النابهون، فيجنّدوا لها ضوء العيون ونبض العقول الخلاَّق..

هو واحد من أبناء مدينة (حمص)، التي أثرت ساحة الفكر بعشرات الكتّاب المبدعين، والأدباء والشعراء المجلّين .. ولد فيها عام ١٩١٦م، وفيها تلقى تعليمه الابتدائي، ولما انتقل مع أسرته إلى دمشق عام ١٩٣٤م أكمل تعليمه الثانوي بمكتب عنبر ثم داوم على دار المعلمين العليا، التي أهّلته للتعليم في المدارس الابتدائية، ولم تَطُلْ فترة عمله فيها إذ ما لبث أن نجح بمسابقة للإيفاد في بعثة دراسية إلى باريس، وكان في مقدمة الناجحين في تخصص الفلسفة، فغادر إلى فرنسا مع زميليه الأديبين المرموقين د. عبد الله عبد الدائم ود. سامي الدروبي، وحصل على الإجازة في الفلسفة عام ١٩٣٩، وحين عاد إلى سوريا تسلَّمَ العمل بالتعليم في المدارس الثانوية ودار المعلمين، وتنقَّلَ بين المحافظات السورية معلّماً وموجِّهاً لأكثر من ثماني سنين، أصبح بعدها عضواً بلجنة البحوث بوزارة التربية عام ١٩٤٧م، ونُدِبَ من ثمَّ للتعليم بالجامعة حيث أسهم في تحضير الخريجين لمهنة التعليم، ومرة ثانية أوفد إلى فرنسا عام ١٩٤٩م لتحضير الدكتوراه، وبُعَيْدَ عودته للوطن أخيراً عُيِّنَ مُدَرِّساً

بكلية التربية حتى عام ١٩٦٤م، وكانت تنتظره في هذه الفترة مرحلة جديدة في مسيرته الطويلة، إذ انتقل إلى السلك الدبلوماسي فاختير سفيراً لسوريا في السودان ثم في إيطاليا .. وأصبح بعده وزيراً للتربية، ثم رئيساً لاتحاد الكُتّاب العرب حتى تقاعده عام ١٩٧٣م.

عمل لا يكلّ في ميدان الثقافة:

بدأ (حافظ الجمالي) رحلته مع الفكر مبكراً، كان في السابعة عشرة من عمره حين كتب مقالات قصيرة نشرها في صحيفة ((النداء)) و((المكشوف)) ببيروت، واشتملت مقالاته على مواضيع قومية. وبعد عمله في التعليم ألَّفَ مجموعة كتب في علم النفس والأخلاق، وفي علم الاجتماع التربوي، وحرص على أن يضمِّنها توجيهه القومي، وأفكاره التقدمية مما كان له أكبر التأثير في نفوس طلابه، وقد اكتشف ذلك فيما بعد: ((قابلتُ رجالاً مسؤولين وهامين في الحياة العامة يرحبون بي أعظم ترحيب دون علم مني بسرِّ هذه المودة ... ثم اكتشفت أن قراءتهم لكتاب ((الأخلاق)) ولاسيما الفصل المتعلق بأسباب تقدم الأمم وتخلفها خاصة هو الذي أثَّر في هؤلاء وجعلهم أصدقاء دون معرفة سابقة. ومعنى هذا: أن كل مواطن هو صورة للمواطن الآخر، بنفس العواطف ونفس المطامح، وأن هؤلاء المراهقين الذين يعجبون بما يقرؤون من أفكار ذات طابع قومي، إنما يعلنون بإعجابهم عما يشعرون به هم، من الداخل، من العواطف والمطامح، وأنني فيما أكتب لا أزيد على أن أقول بصوتٍ عالٍ، ما يقوله المواطنون جميعاً عن أمانيهم وآمالهم، وهذا ما حملني دوماً على الضرب على الوتر نفسه، ولو بدا أني أكتب في مواضيع مختلفة، في الظاهر، فالهدف الأول والأخير هو إيقاظ كل وجدان نائم، وكل عقلٍ ساه، كيما يشاركني أو كيما نشترك معاً ف العمل من أجل ((وحدة عربية يسعد فيها كل مواطن بكامل الحرية الشخصية والفكرية، ويحاول مع الآخرين أن يحلّ العدالة الاجتماعية في ثنايا المجتمع)).

وخطر للكاتب أن يجمع مقالاته فكان له منها ثلاثة كتب ((حول المستقبل العربي)) و((بين التخلف والحضارة)) و((عربي يكفر))، وقام في الوقت نفسه بترجمة الكتب التي رأى أن فيها ما يزيد وعي الإنسان وإطلاعه على المشكلات العربية والعالمية، بأمل أن ينمّي الوعي الفردي والقومي والعالمي على حد سواء..وقد بلغت كتبه المترجمة الثلاثين، فيها ((عالم صوفي)) و((أميرة عثمانية في المنفى)) و((الديمقراطية)) وكتاب ((توفلر)) حول ((تحوّل السلطات)) وغيرها.

الهدف تكوين إنسان عربي جديد:

جايلَ ((حافظ الجمالي)) نخبة رواد الفكر القومي، الدكتور عبد الله عبد الدائم، وعادل العوا، وسامي الدروبي، وعبد الكريم اليافي، وبديع الكسم، وعبد الحليم سويدان، وأمجد الطرابلسي، وجميل صليبا، وفاخر عاقل، وغيرهم .. ويشهد الدكتور عبد الله عبد الدائم أن ((الجمالي)) كان فيما يتصل بميدان المعرفة إنساناً توّاقاً إلى المعرفة، نهماً في تقصِّي مظانها وألوانها، ولديه تأكيد خاص على أهمية الديمقراطية في حياة الشعوب، وفي بناء مستقبل الأمة العربية، وهو مطَّلعٌ إطلاعاً واسعاً على الثقافة العربية والتراث العربي، كما أنه محيط بأبعاد الثقافة العالمية، ولا نُغالي حين نقول: إن فكره هو وليد التزاوج بين الفكر العربي والثقافة العالمية.

ويتابع الدكتور ((عبد الدائم)): كان ((الجمالي)) شديد النقد للثقافة العربية أحياناً، لا إقلال من شأنها، ولكن حرصاً منه على أن يكون اليوم والغد أفضل من الأمس، وقد تميزت شخصيته بالانفتاح على الآخرين ومحبة الناس والإخلاص لإخوانه وأصدقائه .. كان قلماً يسيء الظن بإنسان، ولم يتحدث عن أي من الناس بسوء، بل لطالما غفر للآخرين أخطاءهم وإساءاتهم.

وعن المحور الأساسي الذي دار أفكار ((الجمالي)) حوله يتابع الدكتور عبد الدائم:

كان المحور الأساسي لديه هو نقد مسيرة الفكر العربي والحضارة العربية

والمجتمع العربي قديماً وحديثاً، نقداً جارحاً أحياناً، اعتقاداً منه أن كثيراً من علل أمتنا الحالية، يرجع إلى بنية الذات العربية، على نحو ما آلت إليه في عصور التخلف العربي، وكان هدفه، كما ذكرت – النضال الفكري المستمر من أجل الكشف عن عيوب هذه الثقافة المتردية، ومن أجل تكوين إنسان عربي جديد، لقد ناضل ((حافظ الجمالي)) في مجال السياسة من أجل القضية العربية، ويمكن القول: إنه استطاع أن يبني ويكوِّن البديل الفكري المتردي الذي يتحدث عنه، والذي أصاب الوطن العربي في عصر انحطاطه. ومثله مثل المفكر الراحل ((قسطنطين زريق)) كان كلاهما يؤكد على أهمية العقلانية والفكر العلمي والتحديث في بناء كيان الأمة العربية، ولكن ((زريق)) في هذا المجال كان أكثر وضوحاً وإيجابيةً ولم يكتفِ بأن يعدِّدَ المآخذ التي تؤخذ على الحياة والفكر العربي في عصره المتأخرة، بل قدَّمَ زاداً علمياً جديداً من أجل الخروج من هذا المأزق، ومن أجل بناء مجتمع جديد، فهو أكثر إيجابية.

الوحدة العربية ركيزة القوة والتحرر:

ويشهد المفكر العربي ((منح الصلح)) أن ((حافظ الجمالي)) عاش في حياته الغنية والجادة، قصور بلداننا جميعاً بعد استقلالها عن الأجنبي، على أن تصنع نفسها وفقاً لمثلها ومثل العالم المتقدم، ورأى أن حالة التأخر الحضاري التي لا نزالُ نُعاني منها، تضعنا على الساحة الدولية في حرج تاريخي، يتمثل في أن المطروح علينا – ظاهراً – كبلدان عربية أن نختار بين الحرب والسلام، ولكن واقعياً لا خيار إلا بين نصف حرب ونصف سلام، لأن الحرب والسلام كليهما يتطلب في مجتمعاتنا القدرات نفسها ولا يجدها. ((إن أخطر ما تُعاني أمتنا هذه الأذن الصماء تديرها الفئة للفئة الطبقة للطبقة والقطر للقطر، وهي حال لم تشهدها هذه الأمة من قبل ... وقد استطاع الحكم الأجنبي في الماضي أن يفعل كل شيء ما عدا سلب إرادة الناس في أن يتضامنوا ويتماسكوا في وجهه، فكان استقلال لبنان وسوريا أول

استقلالين في آسيا وأفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية ... يا له من يوم أسود، ذلك اليوم الذي تكون العروبة فيه، قد خسرت قدرتها على الحوار داخل البلد الواحد، وبين البلد العربي والبلد العربي الآخر ... وما عادت تأنس إلا لصوت الذات القطرية..).

عاش ((حافظ الجمالي)) وللعروبة عنده معنيان: معنى انفتاح العرب على العرب بروح الأخوة والاعتزاز بالذات والشراكة التاريخية، ومعنى آخر هو انفتاح العرب على العالم بروح الترقي والتقديم والقيم الإنسانية العليا ... إن العروبة المطلوبة ليست في اقتراب العرب من العرب فقط. بل هي في اقتراب الاثنين من كل ما يجعل الإنسان ابن عصره في احترام الحريات والحقوق، وفي التنوّر والإمكانات والإنجازات وبالتالي القدرة.

اليوم يُغيِّبُ الموتُ وجْهَ المفكر والإنسان النهضوي الذي جعل همه التقاء العربي بالعربي على قاعدة التطلع المشترك على الحداثة والعلم والحرية والتقدم الصحيح. لقد شغلته على الدوام مشكلة التخلف في مجتمعنا، وعاش باختياره المدة الأطول من عمره حياة المعلم والباحث والكاتب أكثر مما عاش المواقع الأخرى كالسفارة والوزارة ... وهذا هو موقعه الشامخ في نظر شعبه، بسيطه وكبيره، وبعض معناه في حركة نهضتنا المعاصرة.

إذا لم نعرف تاريخنا لا يمكننا أن نبدأ ببناء المستقبل

ترى أحقاً هناك إرادات قومية طيبة ومخلصة إلى أبعد الحدود؟ أم أن هذه الإرادات هي المشكلة الأولى في حياتنا؟ أولا يكفي أن يمر العالم العربي بتجربة "الجامعة العربية" ثم بتجربة السوق العربية المشتركة، وبتجربة حرية تنقل الرساميل والأشخاص العرب في البلاد العربية نفسها؟ وأنه في كل هذه التجارب لم نمش إلا خطوات ضئيلة، ما لبثت أن تراجعت بسرعة؟

أو ليس مما يدعو إلى الشك في سلامة هذه الإرادات القومية، أنه ما من تجربة قررتها الجامعة العربية للعمل القومي المشترك إلا وأخفقت باستمرار؟ وأنه حتى في المجال الضيق، مجال تنقل الأشخاص من قطر إلى قطر، لم تجد الحياة القومية أية استجابة، إلا من جانب صغير نسبياً، هو المجال السوري، وأن هذا التنقل أسهل للغرباء ألف مرة، من تنقل المواطنين العرب، وأن القاعدة المقبولة في هذا التنقل، هي القاعدة القائلة: كن ما شئت، إلا أن تكون عربياً حتى يسهل عليك هذا التنقل؟ أو تكون مصلحة الشعب العربي حقاً، في هذه النظرة المتوجسة خوفاً، باستمرار من كل ما هو عربي، أو أن تلك إرادة رأي عام سائد في الأقطار الخائفة، تحرص على إضعاف المشاركة العربية، تماماً كما يريد الأجنبي؟ أو ليس في هذا التماثل المتواصل منذ عشرات السنين ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الإرادة المتحكمة فيه عربية شكلاً وأجنبية مضموناً؟

الحق، أن هذا الأمر هو الشيء الذي يثير أكبر الشكوك. أو يكون حقاً من مصلحة الشعب العربي ككل أو كأجزاء أن تنفق الدول العربية كل ما أنفقته من أجل حربي الخليج؟ وأن تكون هاتان الحربان صادرتين عن إرادة عربية وطنية مخلصة؟ أم أن هذه الإرادة مملاة من الخارج علينا ونحن مرغمون عليها! ولئن كنا نحن أحراراً في إرادتنا، أفلا يكون من المشكوك فيه، لا إراداتنا الطيبة وحدها، بل عقلنا نفسه؟

وعلى كل حال، فإن بقاء الدول العربية على المستوى نفسه من التخلف، لا

تغادره إلا على سبيل الاستعارة من الخارج والاستيراد، لا يمكن أن يعني أن القيادات العربية كانت مضطرة اضطراراً، ومرغمة إرغاماً، على إبقاء شعوبها حيث هي من التخلف، وإذا لم يكن يعني ذلك، فإنه ينبغي أن يعني شيئاً آخر ينتهي إلى النتيجة نفسها، كعدم التوفيق، من الله تعالى، أو في أدنى الحدود، عدم البحث الجاد عن وسائل التقدم، أو يمكن أن نبحث جادين عن التقدم، ثم لا نوفق إلا إلى البقاء في عدم التوفيق؟ وهذا النوع من السلوك العربي العام اللا موفق، أيمكنه أن يعني أن كل الشعوب العربية لم تجد بين أفرادها من يحقق أي تقدم معقول لا على صورة القفزة النوعية إلى الأمام، بل على الأقل على صورة القفزة الجزئية التي تتبعها قفزات ثم قفزات، فتصل، في آخر المطاف إلاّ التقدم نفسه من غير أن نقارن أنفسنا دوماً بالتقدم الغربي كله؟ ونتساءل: هل من المعقول أل يوجد بين أفراد شعبنا العربي واحد ما، أو أكثر من واحد يوفقهم الله إلى درجة التقدم أعلى مما كنا عليه في القرن الخامس الهجري أو الحادي عشر الميلادي؟ وعلى فرض أن أحداً لم يوفق بيننا، كعالم أو رجل تقنية أو فنان إلى جعل الأمة تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، حتى على مستوى محو الأمية، أفيمكن أن يتساوى هنا التقدميون والرجعيون؟ وأين هي التقدمية إذا لم تقدم في هذا الموضوع، وفي غيره آيات تقدميتها؟

إن نسبة الأمية في سورية الآن ما تزال في حدود ٣٣،٣% وفي مصر ٥٠% وفي الجزائر ٣٩،٤%، وفي ليبيا ٥،٣٣ وفي العراق ٥،٣٧، وهذه هي البلاد التي تعرف بتقدميتها وثوريتها وبالمقابل فإن هذه النسب تبلغ في لبنان ٧،١٨% وفي الأردن ٩،١٧ وفي السعودية ٩،٣٥ وفي البحرين ٢١، وفي الإمارات ٣٥ وفي الكويت ٢٦، وفي عمان ٦٥، وفي قطر ٢١، وفي اليمن ٩،٥٨، والمغرب ٥،٤٧، وتونس ٩،٣١ ترى أين يقع التقدم والتخلف في مكانه في هذه البلاد المحسوبة على التقدمية، أو على الرجعية؟

وحتى في التعليم العالي نجد هذه النسب تصل في العراق إلى ٨،١٣% وفي سورية ٨،١٨، وفي ليبيا ١٨% وفي مصر ٢،١٩% وفي الجزائر ٨،١١ أما في

البلاد العربية الأخرى فتصل في المغرب إلى ١٠،٥٥% وفي تونس ٤،٩ وفي الأردن ٥،٢٤، ولبنان ٨،٢٧ وفي العربية السعودية ٣،١٣، والبحرين ١،١٨ والإمارات ٦،١٠، والكويت ٨،١٣، وفي قطر ٩،٢٥، وفي عمان ٢،٦ وهنا نتساءل أيضاً من هو التقدمي ومن هو الرجعي هنا؟

ونأتي إلى نوعية الحكم، ومدى ديمقراطيته، وضآلة استعماله أو اعتماده على القمع والقهر. ترى هل في وسعنا أن نقول: هنا يقوم التقدم، وهنا يقوم التخلف؟ أو هذا ثوري، وذاك غير ثوري؟ ومن غير أن نلاحظ نوعية أخرى معينة لكل حكم.

إن الرأي العام الداخلي والخارجي يريان معاً أن الأقطار العربية متخلفة، وأن الثوري منها ليس أعظم شأناً من النظام اللاثوري، فالعراق وليبيا ومصر الناصرية وما بعد الناصرية، لا تبز غيرها من الأنظمة المحافظة، بل كثيراً ما تكون البلاد المحافظة أرقى في المنسوب الاقتصادي، على الأقل من غيرها.

وهكذا نجد اليوم أن الوطنية ليس مجرد عاطفة، ولا مجرد قناعات فردية بسلامة ما نفعل. بل يجب أن نردد بأكثر من ذلك، أي بأجنحة لا متناهية من الحرية، وبنظام يعرف كيف يمحص الآراء، ويختار أفضلها، ولا يتيسر ذلك أبداً إلا في نظام أوله وآخره النظام الديمقراطي الجاد السليم.

ترى ألم يكن إخفاق الوحدة السورية - المصرية، وكل المشاريع الإنتاجية القومية الكبيرة، حتى الآن نتيجة لاستبداد الرأي الواحد بالناس والخلط بين الرغبات الفردية وبين المصالح العامة؟

ومن المعروف أن معرفة السبب الذي تنشأ عنه نتيجة معينة لا تتم إلا بتحري العناصر المحيطة بهذه النتيجة، على صورة ما يسمى في المنطق طريقة التغيرات المتطابقة، وعندما يقول الأجانب أو المستشرقون، إننا متخلفون، فإنهم يريدون القول: إن العرب مسلمون، ولذلك تخلفوا، وإذا قيل ما الذي يبعث في الإسلام على التخلف، قيل إنه الاستبداد الشرقي، لا لأن هذا الاستبداد لم يعرف في الغرب، ولكن صورته الشرقية غريبة جداً في مأساويتها.

والمهم أن العرب جربوا الحكم المطلق عشرات القرون، ترى هل حصلوا من ذلك إلا على ما نرى أنفسنا فيه الآن. وليس أمام الباحث الغربي في التخلف العربي إلا أن يقول: إن التخلف سببه الإسلام، وهو الشيء المشترك بين جميع الشعوب الإسلامية المتخلفة، فإذا وقفنا هنا، قلنا: حقاً إن السبب هو الإسلام، وانتهى الأمر، كما يريد بعض المستشرقين. ولكن ألا يعرف كل إنسان أن القرآن يأمر بحكم الشورى، لا بحكم الاستبداد؟ وهل كانت الآية التي تقول: "وأمرهم شورى بينهم" مجرد مزاح إلهي؟ أو تعني الآية: "وأمرهم شورى بينهم" أنه يجب أن يكون شورى لا استبداد؟

لا بد إذن من الاعتراف بأن الدين، أي دين، لا يمكن أن يقبل من بعض البشر أن يكونوا أشباه آلهة، يتحكمون بمفردهم بمصالح الناس، وتقرير حاضرهم ومستقبلهم. ولئن كان الله يترك لعباده حرية الإيمان أو عدم الإيمان، ولا يسلبهم هذه الحرية، وأهمية هذا الإيمان دينية. فكيف يجيز بعض الناس لأنفسهم أن يتجاوزوا مستوى الآلهة؟


والخلاصة:

إن أمر تقدمنا أو تخلفنا بين أيدينا وأيدي قادتنا، فإذا ظل الحكم التقليدي قائماً لدينا، فليبشر العرب باستمرار التخلف، وكل تغير آخر يقتضي تغيراً جدياً في صورة الحكم التقليدي.

بقي أمر أساسي جداً، وهو تساؤل بعض الناس عن أهلية شعبنا العربي لممارسة الحرية، ومن الناس من يرى أننا لسنا أهلاً لها، بكل صراحة، وذلك لأن الشعب متخلف، لا يخضع للقانون بسهولة، ويحاول الاحتيال عليه بألف مبرر، وإذن فلا بد من أن يكون الحكم ديكتاتورياً.

غير أن هذا المنطق ينتهي إلى أمور خطيرة جداً، أولها أن شعبنا المتخلف لا يستحق أن يكون مجتمعاً حراً وإذن فهو يستحق الاستعمار لا الاستقلال، لأن الاستعمار له رجال غير متخلفين، وسيحكموننا بعقولهم النيرة، ومهما يظلموننا

بسلطانهم، فإن حكمهم سيكون أكثر عقلانية بكثير من أي حاكم وطني، يعرف بالتخلف تلقائياً. أفيستوي الذي يعقلون والذي لا يعقلون؟ والثاني أن الشعب المتخلف من طبيعة إنسانية أدنى من الشعوب المتقدمة،وهو لا يعيش ولا يستقر إلا في الظروف التي تبقيه في التخلف. ولئن كانت الدكتاتورية تطغى أو تظلم وتقسو وتضطهد، بحق أو بغير حق، وتعاقب عقوبات قاسية جداً، فذلك لمنع الفتنة التي عرفها الناس أيام الحجاج وزياد بن أبيه وعبد الله بن زياد والتي كانت تدعو إلى اتخاذ أقسى التدابير ضد المتمردين، قلّ هذا التمرد أو كثير. ويظل المبدأ القائل: "أنج سعد فقد هلك سعيداً سليماً ومعافى بأفضل الصحة حتى يوم النشور"



د. عبد الكريم اليافي :

مثّل ذاكرة الفكر العربي ماضياً وحاضراً ودافع عن الحق والحقيقة

رأيته وهو يتقدم إلى منبر الاحتفال في الحفل المشهود الذي أعد لتكريمه في حزيران من عام ٢٠٠٢م، وقد مشى إلى المنصة بهيبة الثمانين التي يحملها كاهله، وبقامة منتصبة وجبين مضيء بالرضى، وعينين متوقدتين بوهج العطاء الخلاق، وبعد أن زها الوسام الرفيع متلألئاً على صدره، اعترافاً بدوره البالغ التأثير في حركة التطوير وتعليم الأجيال، ونشاطه الواسع في رفد الفكر العربي بعيون المصادر التربوية والعلمية، وقف الدكتور ((عبد الكريم اليافي)) متحدثاً:

إن المعرفة هي الشعلة الخالدة التي هي أخص خصائص الإنسان، وهي أصل كل تقدم، وينبوع كل ثقافة، ونسغ كل سعادة حقيقة، وركن كل ارتقاء أكيد على المستوى الفردي والاجتماعي والإنساني.

وتابع بعفوية وإيمان صادق:

لا يكفي المعلم أن يكون دؤوباً في البحث عن جوانب الفكر وينابيعه، وأن يحلّي نفسه بحلاها، ولكنه مسؤول عن بث المعرفة التي يختص بها، ونشر الثقافة على طلابه ومريديه بأفضل أسلوب وأمتع سبيل يصل على قلوبهم وعقولهم.

كنت متأكداً وأنا أصغي إلى عبارات العبارات العلامة الأديب بأنه يستعرض في ذلك الموقف شريط حياته الثرية بالعطاء الخيّر والمفيد من لحظة عمره الأولى.

ولد د.((اليافي)) بحي ((باب السباع)) في مدينة حمص عام ١٩١٩ وفيها تلقّى علومه الابتدائية، وكما أخذ عن مشايخها في المساجد معارف متنوعة في البلاغة والنحو والفقه والمنطق، ومن المفارقات أن معلميه لاحظوا شروده الدائم وعدم

قابليته للتعلّم، لكن الطفل ما لبث أن أبدى ذكاء متوهجاً، وذاكرة مدهشة وقدرة على الحفظ والفهم، أهلّته لمتابعة تعليمه الثانوي في فرع الرياضيات بمكتب عنبر عام ١٩٣٥، والفوز بالشهادة الثانوية بتقدير ممتاز لم يحققه أي طالب قبله، كذلك كان الأول على أقرانه في الشهادة الإعدادية لكلية الطب، وفاز بمسابقة بعثة الدولة للدراسات العليا في فرنسا عام ١٩٣٦، وهناك نال إجازة العلوم الطبيعية من السوربون عام ١٩٤٠.

حال اندلاع الحرب العالمية الثانية بين د. اليافي وبين عودته إلى الوطن، وواجه مصاعب كبيرة لم تمنعه من متابعة تحصيله في مجالات عديدة، نال بنتيجتها خمس شهادات دراسية عليا من السوربون، في: علم النفس، وعلم الجمال وفلسفة الفن، وفي تاريخ العلوم وفلسفتها، وفي الفلسفة العامة والمنطق، وفي علم الأخلاق والاجتماع، وتوّجها كلها وبالدكتوراة في الفلسفة عام ١٩٤٥، كما نال إحدى عشر شهادة ليسانس في التاريخ واللغة العربية والاقتصادية والإحصاء والأدب وغيرها.

دور المفكر في حياة الأمة:

مع انتهاء الحرب في عام ١٩٤٥، عاد الدكتور اليافي إلى الوطن، وبدأ مسيرته في التربية والتعليم بمدارس مدينة حمص، وعندما تأسست كلية الآداب في الجامعة السورية عام ١٩٤٧ انضم إليها وبدأ بتدريس علم الاجتماع فيها ثم علم السكان، وحاول أن يناقش مع طلابه أهم المشكلات الاجتماعية في الوطن العربي خاصة، وفي العالم عامة، فنشأ من ذلك بعض المؤلفات مثل: تمهيد في علم الاجتماع، ودراسات اجتماعية ونفسية، وفصول في المجتمع والنفسي.

وبالنظر إلى أهمية علم الاجتماع في عالمنا المعاصر، وما تلقيه من مسؤولية كبيرة على عاتق الباحثين فيه، فقد رأى الدكتور اليافي أن لأصحاب الفكر والوعي من أبناء الأمة دوراً في توجيه الفكر والتأثير في الحياة، والأمر هنا لا يقتصر على عالم الاجتماع وحده، وإن كان الأقرب على القضايا الاجتماعية ممن سواه، فعليه أن

يخرج إلى المجتمع ويسهم بما لديه من خيرات في التوجيه الصحيح، ولا يتوقف دوره عند حدود الوصف والتفسير، بل يتجاوز ذلك على تقديم الحلول واقتراح الخطط المناسبة لمعالجة المشكلات الاجتماعية، بما لها من انعكاسات ثقافية وحضارية عامة، وأكد كذلك على ضرورة تضافر جهود علماء الاجتماع العرب لدراسة المعطيات الاجتماعية على المستوى القومي، واقتراح الأمور التي تساعد على وضع المجتمع العربي على المسار السليم حاضراً ومستقبلاً.

الدراسة الفنية للأدب:

كذلك كان الدكتور اليافي من جديد رائداً في مجال الاهتمام بدراسة علم الجمال، وقد أدخل تدريس علم الجمال بكلية الآداب عام ١٩٤٨، وسعى من خلال ذلك إلى رفد الدراسات الفنية للأدب العربي بزاد جديد، لأن هذه الدراسات كانت مقتصرة على الجوانب المضمونة غالباً، وقد ألف كتابه المعروف "دراسات فنية في الأب العربي"، فلقي إقبالاً واهتماماً واسعين، ونال عنه جائزة الدولة زمن الوحدة بين سوريا ومصر، واتبعه بكتابه الآخر: "الشموع والقناديل في الشعر العربي"، وقد استطاع في الكتابين إبراز جوانب جديدة في المنحى الفني اعتماداً على دراساته الفلسفية وثقافته اللغوية.

قضية تعريب العلوم:

رغب د. اليافي في توظيف معلوماته الرياضية للوصول إلى المعايير العلمية التي تعتمد على القياس والإحصاء، فانتهى إلى الاهتمام بعلم السكان والديموغرافيا، وكان قد ألف في هذا المجال عدداً من الكتب، وألقى كثيراً من المحاضرات، وكان من أبرز أعماله "المعجم الديموغرافي المتعدد اللغات" الذي وضع نصه العربي، ولم يكن في مجال علم الاجتماع وحسب بل كان له قصب السبق إلى تدريس جملة من العلوم في جامعة دمشق ومنها: الفيزياء الحديثة بكلية العلوم، و"الإحصاء الحيوي"

في كليتي الطب والصيدلة" و"المنطق" في كلية الشريعة، وفلسفة العلوم في كلية الآداب، وألّف في هذا الميدان كتابيه المتميزين "الفيزياء الحديثة والفلسفة" و"تقدّم العلم" وظل مثابراً على شرح الظواهر العلمية الدقيقة في الفيزياء وما يتصل بها من نظريات، بلغة عربية علمية لا تشكو عجزاً ولا يعتريها لبس أو غموض، وكان يؤكد أن قضية المصطلحات ليست عائقاً أمام تعريب العلوم، فهي لم تكن في السابق كذلك ولن تكون، لأن المصطلحات تتوالد بالممارسة العلمية، وللباحث أن يسلك بها مسالك شتى فيترجم أو يعرّب أو يشتق، ثم تكون الغربلة والاصطفاء بعد تعدد الدراسات وتنوع المصادر، ويئول الأمر بعدئذ إلى وضع معاجم شاملة لمصطلحات كل علم من العلوم، فليس على المختص في علم من العلوم إلا أن يبذل جهد ويصرف وسعه في العمل الذي أو كل إليه تدريساً وتأليفاً.

اللغة العربية تعبير وبيان بليغ:

غني عن القول أن السمة البارزة في فكر د. اليافي، هي شغفه الشديد باللغة العربية واعتزازه بها، يوضح ذلك قوله: **لقد شغفت باللغة العربية منذ صباي**، ولا زلت مشغوفاً بها إلى الآن، فهي تجري مني مجرى الدم في العروق، ولو لم أكن مدفوعاً بهذا الشغف لما أمضيت السنين الطوال من عمري قائماً على خدمتها بكل ما أستطيع، فثقافتي بهذه اللغة واهتمامي الأول بآدابها وتراثها، كل ذلك هو الأصل ثم يأتي الجانب الآخر وهو اشتغالي بالعلوم، وليس في ارتباط هذا الجانب بسابقه أي عجب، لأن المعارف يرفد بعضها بعضاً، وهكذا تشكل الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم السكان جانباً مهماً من ثقافتي وحياتي، أما عن دعاوى المغرضين بأن اللغة العربية عاجزة عن استيعاب المصطلحات العلمية الجديدة، فهي دعاوى باطلة من الأساس، لأن لغتنا مطواع سائغة التعبير دقيقة البيان، إذا استطاع الإنسان أن يلم بها إلماماً كافياً، وقد نشرت بعض المؤسسات العلمية عندنا معاجم في مفردات الفيزياء النووية، ضمن مصطلحات مقابلة لمثيلاتها في اللغات الإنجليزية والفرنسية

والروسية والأسبانية، وهذا دليل طواعية اللغة العربية وإمكان تلافي أي نقص في كل مجال، والأمر ممكن إذا توافر لمؤسسات التعريب الرجال المحبون للعربية، العارفون بأسرارها ومواضع جمالها الكثيرة والمدهشة في آن معاً.

ظل حب العلامة اليافي للغة العربية يمتلك عليه فكره وجهده الدائب، وظلت العربية مع الآدب سميرَيْ هواه، فعكف على ترجمة ثمرات المعارف الأجنبية إلى العربية، ويصوغ بها مصطلحات جديدة، ويظهر من قدراتها البارعة ما يجبّبها إلى النفوس ويدنيها من العقول، وقد وظف خبرته الطويلة في مجال البحث في خدمة اللغة ومصطلحاتها وتراثها، من خلال عمله في تأليف "معجم العماد الموسوعي" الذي يشتمل على نحو مائتي ألف موضوع، يعرّف بها تعريفاً مفيداً وموضوعياً، وسيكون عند إنجازه ثروة فكرية ومعرفية، ومرجعاً ثميناً لكل مهتم وباحث في المعارف الإنسانية.

نبع الحكمة والمعرفة الجادة:

أغنى الدكتور اليافي المكتبة العربية بعشرات من مؤلفاته في كل جوانب الفكر التي ألمّ بها، ونشرت المجلات الثقافية في الوطن العربي بحوثه ودراساته القيمة، وقد نافت تلك المؤلفات على الثلاثين كتاباً، وجد فيها الدارسون والطلاب ينبوعاً ثراً يزودهم بالحكمة والمعرفة الجادة، يذكر الكاتب المعروف محمود أمين العالم:

رجعت في الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي إلى كتب اختلفت في محبتي وتقديري، واجتمعت محبتي واعتزازي في كتاب واحد من مؤلفات الدكتور "عبد الكريم اليافي" فقد عملت أيامها في موضوع شاق هو "المصادفة في الفيزياء الحديثة" ورحت أبحر في خضم هذا الموضوع دون الوصول إلى شاطئه، حتى وضعت يدي على الزورق الذي يقودني إلى هدفي: البساطة الرائعة والعلم الغزير، والحكمة والفكر النظري الذي يقتحم التفاصيل، ثم المصطلح العربي الجديد، وحقائق الإنسان وواقعه، وكل ذلك في كتاب اليافي: "الفلسفة والفيزياء" الذي استطعت

بفضله أن أواصل طريقي، وصار هذا الكتاب معنى حياتي:

ثقافة موسوعية مستنيرة:

اختير الدكتور اليافي بجدارة للعديد من المراكز العلمية والفكرية، فكان عضو المعهد العالمي لعلم الاجتماع، وعضو الاتحاد العالمي للدراسات العلمية للسكان، وعضو المجلس الأعلى لرعاية العلوم والفنون والآداب، وعضواً مؤسساً في اتحاد الكتاب العرب، وعضواً في مجمع اللغة العربية، كما عمل رئيساً للتحرير في مجلة التراث العربي، ورئيساً للتحرير في معجم العماد الموسوعي، فمن أين تتبع مكانة اليافي ودوره العام في مسيرة الفكر العربي؟

يوضح الدكتور "الطيّب تيزيني":

لقد برهن اليافي في كل الميادين التي عمل فيها عن ثقافته الموسوعية العلمية المستنيرة، ومقدرته اللغوية، وغوصه في محيطات التراث لالتقاط المناحي التقدمية في هذا التراث، من أجل متابعة المشروع النهضوي العربي، والدعوة إلى العقلانية التي تشترط الحرية الفكرية مع وقوف صريح ضد تيار الظلامية المتستر بعباءة العودة إلى الأصول، وضمن ثنائية بالغة السذاجة تقسم البشر إلى: مؤمن وكافر، ولا ثالث بينهما.

وقرأ د. اليافي الماضي على ضوء الراهن، وتصدى بشجاعة للذين يريدون تغييب التاريخ العربي وإلصاق تهم السلبية به، ودافع ببراهين علمية منطقية عن التراث العربي دون أن يقف عند حدود التراث، بل لينطلق إلى آفاق رحبة تبرهن على أن هذه الأمة بما راكمته من كنوز معرفية، قادرة على النهوض مجدداً.

دفاع عن الحق والحقيقية:

يتابع د. تيزيني: لقد تبوأ العلامة اليافي مكانة مرموقة في النزعة العقلية التنويرية التي ابتدأت منذ منتصف القرن الثامن عشر، ويمكن مقارنته بكثير من أعلام التنوير أمثال: ابن سينا وابن رشد وفولتير والطهطاوي وطه حسين، وغيرهم ممن أسهموا في الدفاع عن الحق والحقيقة ضمن مفهومهما الإنساني الشامل بشكل عام، وخصوصيتها الإسلامية العربية بشكل خاص.

ويضيء الدكتور بكري علاء الدين جانباً من قراءة الدكتور اليافي لابن عربي، الذي استقى فلسفته التصوفية من الفلسفة العربية والإسلامية، وخاصة من إخوان الصفا ومن التيارات الفلسفية والكلامية في شرق الدولة الإسلامية وغربها، وضمن هذا المعطيات فهم د. اليافي أهمية ابن عربي وأبرز قيمة أفكاره في كتابه المتميز "دراسات فنية في الأدب العربي"، وأوضح قيمة الرمز في التعبير الصوفي، وأطلعنا على جوانب مهمة عن مذهبه الفلسفي في الإنسان والخيال والحب، وهكذا صارت مؤلفات ابن عربي تدرس كأعمال فلسفية صوفية من جهة، وآثار خالدة في النمط الرمزي والسريالي من جهة أخرى.

لقد مثّل د. عبد الكريم اليافي بحق ذاكرة الفكر العربي ماضياً وحاضراً، وحين أراد أن يرد التحية للمتحفين به لحظة تقليده وسام الاستحقاق في السادس والعشرين من حزيران ٢٠٠٢، اكتفى بالقول: إن اعتزازي بهذا التكريم نابع من شعور بأنه تكريم للعلم والأدب وللمثابرة والدأب، وصرف سنوات العمر في جهد ينفع الناس لأن ما ينفع الناس، يمكث في الأرض، وأما الزبد فيذهب جفاء، لقد عشت مؤمناً بأن المعلم أشبه بالزارع الذي ينثر البذر، ويرعى الغراس ويشذّب ويثقف، لكي تأتي مواسم الخير والعطاء في أجمل وأغنى آياتها.

وكان ذلك حقاً!...

مسؤوليتنا: فهم التراث ووصل الماضي بالحاضر...

أرى في الكثير مما يثار حول التراث بلبلة وجدلاً لا طائل تحته، فنحن ننهل بصورة طبيعية من معين التراث العربي الإسلامي، ومن علومه وآدابه، ونستفيد من كنوزه ما يغني حياتنا ويطور مجتمعنا ويجدد علومنا. كما ننهل من التراث العالمي الإغريقي والروماني والهندي وسوى ذلك. كما نستفيد ونأخذ من الفكر الحديث والمعاصر. ولا عجب في هذا، لأن مصادر المعرفة متعددة. ولا يمكن للعالم أن يكون عارفاً - بمعنى الكلمة - ما لم يكن على إطلاع واسع وثقافة متنوعة. والتراث عندنا واسع جداً، وهذا ما يجعل مسألة التراث لدى الكثيرين مشكلة، وليس هناك في الأساس مشكلة. ففي تراثنا جانبان يخلط بينهما بعض الباحثين. وهما الجانب الديني الإلهي، وهو عنوان الأخلاق ومصدر الهداية. والجانب الفكري والعلمي الذي ينقسم إلى مجالات كثيرة. فالجانب الديني جوهره الحث على طلب العلم وبث الهداية والسعي إلى مكارم الأخلاق والمساواة والحرية والتعاون والتكافل الاجتماعي، ومن منا يكره هذه المبادئ، ومن منا لا يستجيب لهذه الحوافز؟. أما الجوانب الأخرى فينبغي أن نستفيد منها ونتصرف بها، لا أن نجعلها تتصرف بنا. وهذا هو الفرق بين أن نمتلك التراث، وأن يمتلكنا التراث. وإنني أستطيع أن أقول لك بإيجاز: إن التراث كنز وليس عبئاً، وعلينا أن نحسن التصرف حياله أخذاً وتوظيفاً..

كل لغة رهين التطور، وكذلك اللغة العربية، فلا مجال لإنكار التطور، وهو موجود فعلاً أياً كانت مواقف اللغويين منه. ولكل لغة خصائص ومزايا يمكن أن تقسم إلى قسمين: ذاتية داخلية تتعلق بطبيعة اللغة نفسها، وخارجية زمنية - بيئية تتعلق بتقدم المجتمع والعلوم وتنوع البيئات المكانية. ففي الخصائص الذاتية أرى أن العربية لا تجارى في دقتها وطواعيتها وسعتها وغنى تراثها، وما فيها من إمكانات التوالد الاشتقاقي والتغير الدلالي والنقل المجازي. أما في الخصائص الخارجية

فالأمور لا تمس اللغة نفسها لسبب يرجع إليها، بل لسبب يتصل بالعوامل الاجتماعية والتاريخية والبيئية. وهذا هو ما جرى للعربية في العصور المتأخرة، إذ توارت عن العلوم وغابت عن ميدان الاستعمال لتقهقر أبنائها وضعف ثقافتهم وتخليهم عن مسيرة التقدم والحاضرة. فلا خوف على العربية حقاً ما دام أبناؤها عاملين على خدمتها. ولنا في تجاربنا المعاصرة أدلة كثيرة على ذلك: فالناظر في حال العربية منذ مطلع هذا القرن حتى الآن يجدها قد قطعت أشواطاً بعيدة في التحديث، إذ غدت من جديد لغة التدريس والتأليف والصحافة والإعلام، ولا يعني هذا أننا راضون عن حالة العربية بين أهلها وعلى ألسنة أبنائها، بل نحن نشير إلى أمر غداً معروفاً وهو تطور اللغة في هذا العصر وتحديثها إلى درجة استطاعت بها أن تستأنف مسيرتها من جديد. أما الرضا عن جهودنا تجاهها فلن يكون إلا بعد أن نرسخ وجودها في سائر المجالات العلمية والاجتماعية، لتكون اللغة المكتوبة المنطوقة التي تتردد في ديار العروبة كلها دون حاجز من لهجة أو عجمية أو تعقيد.

لا شك في أن لأصحاب الفكر والعلم والوعي من أبناء الأمة دوراً في توجيه الفكر والتأثير في الحياة، فالأمر لا يقتصر على عالم الاجتماع دون غيره، وإن كان من المؤكد أن عالم الاجتماع أقرب إلى القضايا الاجتماعية ممن سواه. وينبني على ذلك أن على عالم الاجتماع المعاصر أن يخرج إلى المجتمع، ويسهم بما لديه من خبرات في التوجيه الصحيح.

فعالم الاجتماع لا يتوقف عند حدود الوصف والتفسير، بل يتجاوز ذلك إلى تقديم الحلول واقتراح الخطط المناسبة لمعالجة المشكلات الاجتماعية بما لها من انعكاسات ثقافية وحضارية عامة. ومن الممكن أن تتضافر جهود العديد من علماء الاجتماع العرب لدراسة المعطيات الاجتماعية على المستوى القومي، واقتراح الأمور التي تساعد على وضع المجتمع العربي في المسار السليم حاضراً ومستقبلاً. فعلماء الاجتماع من هذه الزاوية لهم ما يؤهلهم لكي يكونوا مهندسي الحياة

الاجتماعية. وقد يجد المرء أن شيئاً من تضافر الجهود يحدث هنا أو هناك، لكنه يبقى دون ما نؤمل بكثير.

التراث في رأيي كالبحر الواسع المتلاطم، أو كأنه خزائن ملأى بالكنوز، ولا يستطيع الناس جميعاً أن يطلعوا على تلك الخزائن ولا أن يغوصوا في ذلك البحر الخضم ليلتقطوا اللآلئ من أعماقه. المؤسسات العليا كالجامعات، ومجامع اللغة العربية، ومراكز البحوث هي المسؤولة عن الكشف عن تلك الكنوز وإخراج اللآلئ من البحار، وعندئذ يمكن القيام بنهضة جديدة في التعرف على قيم التراث والأساليب المفيدة لدعم اللغة العربية، وإنقاذ البيان العربي في الوقت الحاضر.

نادى فريق، كثير العدد، بضرورة تسهيل النحو العربي وتيسير الكتابة اللغة العربية، ونحن وإن كنا من أنصار تسهيل ذلك النحو وتيسير البيان العربي مبدئياً، فإننا في الوقت الحاضر لا نرضى عن مثل هذا الاتجاه، لأن التيسير قد يؤدي بكل بلد منا، أي البلاد العربية، إلى نشوء لغات متعددة تختلف عن اللغة العربية الأصيلة. نحن الآن من أنصار التجديد في المرحلة التي نعيش فيها، بحدود أن تقوى معرفة اللغة العربية من قبل الطلاب والأساتذة، وأن يستحكم البيان العربي السليم، وأن تصبح لغة الكلام، قريبة ما أمكن من لغة الكتاب. عند هذه الظروف والإمكانات يمكن النهوض بإصلاحات جديدة ومبتكرة في تسهيل قواعد اللغة العربية وأساليب البيان فيها. وعندئذ يمكن الاستفادة من الجوانب المضيئة في تراثنا العربي، وهي كثيرة جداً لربط الماضي بالحاضر، والحاضر بالماضي.

أعود إلى التراث العربي الإسلامي فأقول، إنه واسع جداً، وغني جداً، وليس المراد منه هو الإطلاع عليه فقط، وتقديم مختصرات منه، أو متون موجزة في مجالاته، وإنما المراد هو إدراك الحركة الحافزة التي كانت وراء كل تقدم في مجال من المجالات العلمية والفكرية والفنية والسياسية في تراثنا العظيم. وأنا شخصياً أعد التراث العربي ذاكرة الأمة العربية، فهو غني بالكنوز الفكرية والعلمية، وحسن الإطلاع على هذا التراث والاستفادة منه يقتضيان الإطلاع على أحوال الفكر

العالمي الراهن، وعندئذ يمكن وصل الماضي بالحاضر، ليحصل اتساق في شخصية المفكر العربي الأصيل، والطالب الذي نعده للمستقبل. أما العودة إلى التراث، دون فهم روحه والاستفادة من توجيهاته، فهذا لا يكفي، وكذلك في الجهة المقابلة الانقطاع عن التراث والإقبال على التراث العالمي دون الاعتماد على الذات العربية، إنما هو مسخ لهذه الذات العربية وتشويه لها.

لا أجد تناقضاً بين العودة إلى التراث العربي والنظر في مضامينه. والإطلاع على الفكر العالمي الحديث بمختلف أشكاله الروحية والعلمية، بل على العكس أجد في الجمع بين الأمرين توسيع لآفاق الذات الباحثة، وبحث عن أصالة جديدة ناضجة لا تدير ظهرها للتراث، كما لا تقبل الإقبال كله على جميع مشتقات الحضارة الراهنة التي قد لا تتناسب وشخصيتنا وما نطمح إليه.

والمشكلة عندي ليست هنا، وإنما هي في ترويج مقولات غير طبيعية حول الفكر العربي، والعقل العربي تحديداً، وهي دعوات عنصرية غايتها إنكار أصالة الفكر العربي، والمفاضلة بين شعب وآخر، وأمة وأخرى. وذلك لأن جميع الشعوب متساوية في إمكانية النهوض والتقدم والمشاركة في صنع جوانب الحضارة الإنسانية المتعددة. وتاريخ الحضارات، يشير بجلاء إلى أن الحضارات لم تكن وقفاً على شعب واحد، أو أمة واحدة ... وإنما كانت بفعل مشاركة شعوب متعددة. ولم توجد حضارة هي من إنجاز أفراد شعب بعينه، وإنما شارك هؤلاء الأفراد آخرون من شعوب أخرى. وتاريخ الحضارات يخبرنا دونما لبس أو مواربة بأن الحضارة العربية من أكثر الحضارات الإنسانية اتساعاً، وتقدماً، وإنسانية ... واعترافاً بأهمية القيم الإنسانية الرفيعة ... فالحضارة العربية ساهمت وتساهم في الإعلاء من شأن قيم المساواة، والعدالة، والحرية، والمحبة، والتعاون، والمؤاخاة ... بين مختلف شعوب الأرض. إذن دعوى التشكيك بقدرات العقل العربي أو المفكر العربي هي دعاوى عنصرية غاياتها معروفة ومكشوفة في آن واحد.

وعندي، أن عيب الحضارات الحديثة يتمثل في انصرافها إلى الجانب المادي مما أدى إلى إهمال الجوانب الإنسانية بعامة.



د. عادل العوا:

أول دروس الفلسفة: احترام الحق والحقيقة....

يعتبر الدكتور عادل العوا واحداً من أبرز أعلام الفكر العربي المعاصر.. إنه تاريخ بفكره وإسهاماته، فقد رفد المكتبة العربية بعشرات الكتب الفلسفية العربية بمضمونها الغني والقيم، وكان له الفضل في تأسيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية في جامعة دمشق، إلى جانب كونه واحداً ممن أرسوا دعائم كلية الآداب في جامعة دمشق.

كان الدكتور العوا على مدى سنوات طويلة، وسيبقى محط اهتمام من يقدّر العلم والفكر، وقد احتل مكانة مرموقة بين زملائه وكان موضع احترام وتقدير من تلاميذه وما أكثرهم، لما قدمه من نبيل الأعمال في مجال عمله التعليمي والفكري، فاستحق أن تؤلف عنه الكتب والدراسات، ويذكر على الدوام بالاعتزاز والتقدير.

انطلق الفيلسوف الدكتور عادل العوا من أن (أول دروس الفلسفة وأهمها على الإطلاق هو احترام الحق والحقيقة أكثر من أي شيء آخر .. ومن يحترم الحقيقة من واجبه أن ينتقد، ومن حقه أن يخالف)..

مسيرة عطاء خيّرة:

ولد الدكتور عادل العوا، في دمشق عام ١٩٢١، وتعلّم في المدارس الحكومية ونال البكالوريا السورية (فلسفة) عام ١٩٣٨، وسافر في خريف العام نفسه إلى فرنسا ليتابع دراسته العليا في كلية الآداب بجامعة باريس (السوربون)، فحاز على الإجازة ثم الدكتوراه من جامعة باريس (آداب / فلسفة) حزيران عام ١٩٤٥.

عاد إلى سورية في آب ١٩٤٥، وبدأ حياته العملية بالتدريس في المدارس الثانوية وفي دار المعلمين بدمشق حتى افتتحت كلية الآداب والمعهد العالي للمعلمين

في جامعة دمشق عام ١٩٤٦، فعيّن فيها أستاذاً، وكلف بإدارة المعهد العالي للمعلمين حتى عام ١٩٤٩، حين أصبح أستاذاً في كلية الآداب، وترأس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية منذ ذلك الحين وحتى إحالته إلى التقاعد بعد التمديد عام ١٩٩٠.

- ترأس إلى جانب عمله الجامعي لجنة التربية والتعليم في وزارة التربية بدمشق حتى ١٩٥٥/١٢/٢٦، حيث أصبح وكيلاً لكلية الآداب لمدة سنتين، ثم عميداً لهذه الكلية منذ عام ١٩٦٥، حتى عام ١٩٧٣.
- شارك في مؤتمرات ودورات علمية عديدة منها: اليونسكو (بيروت - ١٩٤٩) و (باريس - ١٩٥١)، ولدراسة فلسفة تربوية متجددة لعالم عربي متجدد (الجامعة الأمريكية) بيروت (١٩٥٦)، وللمستشرقين (ميونخ - ١٩٥٧)، وللفلسفة (كراتشي- ١٩٦١) ولتطوير التعليم العالي والجامعي (دمشق - ١٩٧١) وللعلوم الاجتماعية (الجزائر- ١٩٧١) وغيرها من الحلقات الفلسفية والاجتماعية.
- أسهم في أعمال اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية وهو عضو في المجلس الأعلى لرعاية الفنون الآداب والعلوم الاجتماعية، ومقرر لجنة الترجمة والتبادل الثقافي عن القطر العربي السوري.
- عضو مجمع اللغة العربية في دمشق، حاضر ودرس في الجامعات الأردنية واللبنانية والجزائرية، وفي جامعة هلسنكي بوصفه أستاذاً زائراً، كما حاضر في جامعتي الكويت واليرموك.
- واكب الدكتور العوا الحركة العلمية والفلسفية والتعليمية، وكان فاعلاً ومؤثراً فيها وله الكثير من المحاضرات والمقالات المنشورة في المجالات والموسوعات، مثل: الموسوعة الفلسفية، ومحاضرات - وزارة الثقافة، ومجلة الثقافة، ومن مؤلفاته: الفكر الانتقادي لجماعة إخوان الصفا (بالفرنسية) بيروت ١٩٤٨، المذاهب الأخلاقية (جزءان) جامعة دمشق ١٩٥٨-١٩٥٩، القيمة

الأخلاقية – جامعة دمشق ١٩٦٢، معالم الكرامة في الفكر العربي- دمشق ١٩٦٩، الأخلاق- جامعة دمشق ١٩٧٥، الإنسان ذلك المعلوم – باريس ١٩٧٧، أسس الأخلاق الاقتصادية – جامعة دمشق ١٩٨١، المدخل إلى الفلسفة (بالاشتراك) جامعة دمشق ١٩٨٢، المذاهب الفلسفية١٩٨٧، الفلسفة الأخلاقية ١٩٨٨، مذاهب السعادة – ١٩٩١، المزاج الحضاري في الفكر العربي دمشق ١٩٩٢، دروب الهموم والخلاص عربياً وعالمياً ١٩٩٣، لقاء القيم في الفكر العربي ١٩٩٣، أخلاقنا الاقتصادية ١٩٩٤، الفضائل العربية ٢٠٠٢...

أما ترجماته فهي كثيرة تنوف عن الستين ... وقد ترجم لريمون رويه: فلسفة القيم – عالم القيم – السيبرنتيك وأصل الإعلام، نقد المجتمع – نقد الايديولوجيات المعاصرة، الممارسة الايديولوجية، وترجم لكارل يسبرز : نهج الفلسفة – عظمة الفلسفة – فلاسفة إنسانيون، ولجان كزونوف: دعائم علم الاجتماع – السعادة والحضارة، ولشارل لالو : الفن والأخلاق – الفن والحياة الاجتماعية، وترجم لهنري آرفون: فلسفة العمل، ولجورج باستيد: المدينة سرابها ويقينها .. وترجم لروجيه غارودي حوار الحضارات ... يقول الدكتور أحمد أبو زيد تحت عنوان: ((عادل العوا بين الإبداع الفلسفي والإبداع الأخلاقي)).

إن الأستاذ عادل العوا باحث أخلاقي، عرض للمذاهب السابقة وفندها، ويتضح ذلك في معظم كتاباته ودراساته، فقد عمل على اتساق توجهه الفلسفي في سبيل فهمه الانتقادي، واقتناعه الفكري، فكان – بحق – فيلسوفاً ذا ثقافة انتقادية واعية.

وما يميز الدكتور العوا – من حيث هو فيلسوف – أنه أبدع اصطلاحاته بعد أن أعمل فكره الانتقادي..

وكتب الدكتور خالد قوطرش من يقرأ مؤلفات د. عادل العوا يشعر انه يمزج الفلسفة بالأدب، كأنما يريد أن يؤدب الفلسفة ويفلسف الأدب، فصار بحق أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ويخيل أن فلسفته والفلسفة تأمل لا خيال، تقوم على

النظرة إلى الوجود بعقل تأملي وواقعية يشوبها شيء من الصوفية الرمزية الميتافيزيقية، وعلى الجملة، فإن فلسفته على قدر ما تهتم بالذات الجماعية البراجماتية، فإنها مزيج من المنطق التقليدي والتصوف الديني الشمولي، فشموليته المعرفية وشموليته الروحية تتوازنان كتوازن السماكين في كبد السماء، وقد لقبه طلابه بـ (برجسون سورية).

كان رحيل الدكتور العوا في كانون الأول ٢٠٠٢، بعد مسيرة حافلة بالعطاء المبدع ، فكان جديراً بتقدير الوطن واعتزاز الأجيال.

مسؤوليتنا: فهم التراث ووصل الماضي بالحاضر...

أرى في الكثير مما يثار حول التراث بلبلة وجدلاً لا طائل تحته، فحن ننهل بصورة طبيعية من معين التراث العربي الإسلامي، ومن علومه وآدابه، ونستفيد من كنوزه ما يغني حياتنا ويطور مجتمعنا ويجدد علومنا. كما ننهل من التراث العالمي الإغريقي والروماني والهندي وسوى ذلك. كما نستفيد ونأخذ من الفكر الحديث والمعاصر. ولا عجب في هذا، لأن مصادر المعرفة متعددة. ولا يمكن للعالم أن يكون عارفاً – بمعنى الكلمة – ما لم يكن على اطلاع واسع وثقافة متنوعة. والتراث عندنا واسع جداً، وهذا ما يجعل مسألة التراث لدى الكثيرين مشكلة، وليس هناك في الأساس مشكلة. ففي تراثنا جانبان يخلط بينهما بعض الباحثين.وهما الجانب الديني الإلهي، وهو عنوان الأخلاق ومصدر الهداية. والجانب الفكري والعلمي الذي ينقسم إلى مجالات كثيرة. فالجانب الديني جوهره الحث على طلب العلم وبث الهداية والسعي إلى مكارم الأخلاق والمساواة والحرية والتعاون والتكافل الاجتماعي، ومن منا يكره هذه المبادئ، ومن منا لا يستجيب لهذه الحوافز؟. أما الجوانب الأخرى فينبغي أن نستفيد منها ونتصرف بها، لا أن نجعلها تتصرف بنا. وهذا هو الفرق بين أن نمتلك التراث، وأن يمتلكنا التراث. وإني أستطيع أن أقول لك بإيجاز: إن التراث كنز وليس عبئاً، وعلينا أن نحسن التصرف حياله أخذاً وتوظيفاً ..

كل لغة رهين التطور، وكذلك اللغة العربية. فلا مجال لإنكار التطور، وهو موجود فعلاً أياً كانت مواقف اللغويين منه. ولكل لغة خصائص ومزايا يمكن أن تقسم إلى قسمين: ذاتية داخلية تتعلق بطبيعة اللغة نفسها، وخارجية زمنية – بيئية تتعلق بتقدم المجتمع والعلوم وتنوع البيئات المكانية. ففي الخصائص الذاتية أرى أن العربية لا تجارى في دقتها وطواعيتها وسعتها وغنى تراثها، وما فيها من إمكانات التوالد الاشتقاقي والتغير الدلالي والنقل المجازي. أما في الخصائص الخارجية

فالأمور لا تمس اللغة نفسها لسبب يرجع إليها، بل لسبب يتصل بالعوامل الاجتماعية والتاريخية والبيئية. وهذا هو ما جرى للعربية في العصور المتأخرة، إذ توارت عن العلوم وغابت عن ميدان الاستعمال لتقهقر أبنائها وضعف ثقافتهم وتخليهم عن مسيرة التقدم والحاضرة. فلا خوف على العربية حقاً ما دام أبناؤها عاملين على خدمتها. ولنا في تجاربنا المعاصرة أدلة كثيرة على ذلك: فالناظر في حال العربية منذ مطلع هذا القرن حتى الآن يجدها قد قطعت أشواطاً بعيدة في التحديث، إذ غدت من جديد لغة التدريس والتأليف والصحافة والإعلام، ولا يعني هذا أننا راضون عن حالة العربية بين أهلها وعلى ألسنة أبنائها، بل نحن نشير إلى أمر غدا معروفاً وهو تطور اللغة في هذا العصر وتحديثها إلى درجة استطاعت بها أن تستأنف مسيرتها من جديد. أما الرضا عن جهودنا تجاهها فلن يكون إلا بعد أن نرسخ وجودها في سائر المجالات العلمية والاجتماعية، لتكون اللغة المكتوبة المنطوقة التي تتردد في ديار العروبة كلها دون حاجز من لهجة أو عجمية أو تعقيد.

لا شك في أن لأصحاب الفكر والعلم والوعي من أبناء الأمة دوراً في توجيه الفكر والتأثير في الحياة، فالأمر لا يقتصر على عالم الاجتماع دون غيره، وإن كان من المؤكد أن عالم الاجتماع أقرب إلى القضايا الاجتماعية ممن سواه. وينبني على ذلك أن على عالم الاجتماع المعاصر أن يخرج إلى المجتمع، ويسهم بما لديه من خبرات في التوجيه الصحيح.

فعالم الاجتماع لا يتوقف عند حدود الوصف والتفسير، بل يتجاوز ذلك إلى تقديم الحلول واقتراح الخطط المناسبة لمعالجة المشكلات الاجتماعية بما لها من انعكاسات ثقافية وحضارية عامة. ومن الممكن أن تتضافر جهود العديد من علماء الاجتماع العرب لدارسة المعطيات الاجتماعية على المستوى القومي، واقتراح الأمور التي تساعد على وضع المجتمع العربي في المسار السليم حاضراً ومستقبلاً. فعلماء الاجتماع من هذه الزاوية لهم ما يؤهلهم لكي يكونوا مهندسي الحياة

الاجتماعية. وقد يجد المرء أن شيئاً من تضافر الجهود يحدث هنا أو هناك، لكنه يبقى دون ما نؤمل بكثير.

التراث في رأيي كالبحر الواسع المتلاطم، أو كأنه خزائن ملأى بالكنوز، ولا يستطيع الناس جميعاً أن يطلعوا على تلك الخزائن ولا أن يغوصوا في ذلك البحر الخضم ليلتقطوا اللآلئ من أعماقه. المؤسسات العليا كالجامعات، ومجامع اللغة العربية، ومراكز البحوث هي المسؤولة عن الكشف عن تلك الكنوز وإخراج اللآلئ من البحار، وعندئذ يمكن القيام بنهضة جديدة في التعرف على قيم التراث والأساليب المفيدة لدعم اللغة العربية، وإنقاذ البيان العربي في الوقت الحاضر.

نادى فريق، كثير العدد، بضرورة تسهيل النحو العربي وتيسير الكتابة باللغة العربية، ونحن وإن كنا من أنصار تسهيل ذلك النحو وتيسير البيان العربي مبدئياً، فإننا في الوقت الحاضر لا نرضى عن مثل هذا الاتجاه، لأن التيسير قد يؤدي بكل بلد منا، أي البلاد العربية، إلى نشوء لغات متعددة تختلف عن اللغة العربية الأصيلة. نحن الآن من أنصار التجديد في المرحلة التي نعيش فيها، بحدود أن تقوى معرفة اللغة العربية من قبل الطلاب والأساتذة، وأن يستحكم البيان العربي السليم، وأن تصبح لغة الكلام، قريبة ما أمكن من لغة الكتابة. عند هذه الظروف والإمكانات يمكن النهوض بإصلاحات جديدة ومبتكرة في تسهيل قواعد اللغة العربية وأساليب البيان فيها. وعندئذ يمكن الاستفادة من الجوانب المضيئة في تراثنا العربي، وهي كثيرة جداً لربط الماضي بالحاضر، والحاضر بالماضي.

أعود إلى التراث العربي الإسلامي فأقول، إنه واسع جداً، وغني جداً، وليس المراد منه هو الاطلاع عليه فقط، وتقديم مختصرات منه، أو متون موجزة في مجالاته، وإنما المراد هو إدراك الحركة الحافزة التي كانت وراء كل تقدم في مجال من المجالات العلمية والفكرية والفنية والسياسية في تراثنا العظيم. وأنا شخصياً أعد التراث العربي ذاكرة الأمة العربية، فهو غني بالكنوز الفكرية والعلمية. وحسن الاطلاع على هذا التراث والاستفادة منه يقتضيان الاطلاع على أحوال الفكر

العالمي الراهن، وعندئذ يمكن وصل الماضي بالحاضر، ليحصل اتساق في شخصية المفكر العربي الأصيل، والطالب الذي نعده للمستقبل. أما العودة إلى التراث، دون فهم روحه والاستفادة من توجيهاته، فهذا لا يكفي، وكذلك في الجهة المقابلة الانقطاع عن التراث والإقبال على التراث العالمي دون الاعتماد على الذات العربية، إنما هو مسخ لهذه الذات العربية وتشويه لها.

لا أجد تناقضاً بين العودة إلى التراث العربي والنظر في مضامينه. والاطلاع على الفكر العالمي الحديث بمختلف أشكاله الروحية والعلمية، بل على العكس أجد في الجمع بين الأمرين توسيع لآفاق الذات الباحثة، وبحث عن أصالة جديدة ناضجة لا تدير ظهرها للتراث، كما لا تقبل الإقبال كله على جميع مشتقات الحضارة الراهنة التي قد لا تتناسب وشخصيتنا وما نطمح إليه.

والمشكلة عندي ليست هنا، وإنما هي في ترويج مقولات غير طبيعية حول الفكر العربي، والعقل العربي تحديداً، وهي دعوات عنصرية غايتها إنكار أصالة الفكر العربي، والمفاضلة بين شعب وآخر، وأمة وأخرى. وذلك لأن جميع الشعوب متساوية في إمكانية النهوض والتقدم والمشاركة في صنع جوانب الحضارة الإنسانية المتعددة. وتاريخ الحضارات، يشير بجلاء إلى أن الحضارات لم تكن وقفاً على شعب واحد، أو أمة واحدة .. وإنما كانت بفعل مشاركة شعوب متعددة. ولم توجد حضارة هي من إنجاز أفراد شعب بعينه، وإنما شارك هؤلاء الأفراد آخرون من شعوب أخرى. وتاريخ الحضارات يخبرنا دونما لبس أو مواربة بأن الحضارة العربية من أكثر الحضارات الإنسانية اتساعاً، وتقدماً، وإنسانية .. واعترافاً بأهمية القيم الإنسانية الرفيعة .. فالحضارة العربية ساهمت وتساهم في الإعلاء من شأن قيم المساواة، والعدالة، والحرية، والمحبة، والتعاون، والمؤاخاة .. بين مختلف شعوب الأرض. إذن دعوى التشكيك بقدرات العقل العربي أو المفكر العربي هي دعاوى عنصرية غاياتها معروفة ومكشوفة في آن واحد.

وعندي، أن عيب الحضارات الحديثة يتمثل في انصرافها إلى الجانب المادي مما أدى إلى إهمال الجوانب الإنسانية بعامة.



الدكتور نور الدين حاطوم :

مؤرخ موسوعي جدَّد عمل الرواد
وأسهم في تنوير الأجيال

حفلت مسيرة الإبداع الفكري في سوريا طوال القرن الماضي، بأعمال كوكبة متميزة من الباحثين والمؤرخين، في مجالات الأدب والشعر والعلوم والتاريخ، ومثّل كل واحد منهم عبقرية فذة أغنت المكتبة العربية بعشرات المؤلفات العلمية والدراسات الأدبية، أعادت للأذهان صورة الأعلام الأوائل في عصر النهضة الفكرية العربية، وبالتأكيد فإن سيرة المؤرخ والمفكر الراحل "الدكتور نور الدين حاطوم" تقدّم خير مثال لهذه الفكرة إذ نافت محصلة أعماله على الثلاثين مؤلفاً في تاريخ العرب والحضارة الإنسانية وفي الاجتماع والسياسة، أنجزها من خلال بحث دائب استمر نصف قرن، واعتبره الدكتور حاطوم رسالة وطنية شريفة يتحتم عليه النهوض بها، عن طريق تنوير العقول وبناء الأجيال.

خطوات على طريق المسيرة:

ولد الدكتور نور الدين حاطوم، بحي الميدان في دمشق عام ١٩١٣، وأتم تعليمه الثانوي بمكتب عنبر، الثانوية الرسمية الوحيدة يومئذ في سوريا، وتابع في دار المعلمين ليتخرج منها عام ١٩٣٣ ويعمل بالتعليم لعدة سنوات، غادر بعدها إلى فرنسا عام ١٩٣٨ مواصلاً تحصيله العالي ليتخرج حائزاً على: الإجازة في الآداب والتاريخ، وشهادة الدراسات العليا في تاريخ أوربا في العصور الوسطى، من جامعة "مونبلية" عام ١٩٤١، ثم شهادة الدكتوراه في الآداب والتاريخ الحديث والمعاصر من جامعة باريس عام ١٩٤٥، ولما عاد إلى الوطن بدأ مسيرته التربوية والفكرية فشغل عدداً من المراكز العلمية منها: عضوية لجنة التربية والتعليم بوزارة

المعارف، وأستاذاً مساعداً بكلية الآداب بجامعة دمشق، وأستاذاً ورئيساً لقسم التاريخ ما بين ١٩٥٤و ١٩٦٩ ثم عميداً للكلية لعدة سنوات.

اكتسب الدكتور حاطوم خلال عمله شهرة ذائعة كواحد من أركان النهضة العلمية والثقافية في سوريا، فتنافست المؤسسات الجامعية العربية تدعوه للعمل فيها، وهكذا عمل أستاذاً زائراً بمعهد البحوث والدراسات العليا التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة ما بين ١٩٥٨ و١٩٧٣، وأستاذاً زائراً بمعهد البحوث الآداب بالجامعة الأردنية منذ إحداثها عام ١٩٦٥ ولغاية عام ١٩٦٩ حين أصبح أستاذاً للتاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الكويت ما بين ١٩٦٩ و١٩٨٣.

إبداع فكري وعطاء متميز:

ولم تحل هذه الجهود الدائبة في ميدان التربية والتعليم بينه وبين نشاطه الفكري في البحث والتأليف والترجمة، إذ كان مشاركاً فعالاً في المحافل الفكرية والندوات الثقافية والمؤتمرات التاريخية العربية والدولية، وباحثاً ينشر دراساته في أمهات الصحف والمجالات الثقافية، ويذيع أحاديثه العلمية في أكثر من إذاعة عربية، ومن العجيب أنه وسط هذا النشاط الكبير وجد متسعاً من الوقت لإصدار مؤلفاته التاريخية القيمة التي بدأها بسلسلة من كتب التعليم الجامعي: تاريخ الحضارة، المدخل إلى التاريخ، دراسات في المجتمع العربي، تاريخ سورياً من الاستقلال إلى الوحدة، ثم كانت مجموعة محاضراته في القومية العربية، وقد اشتملت أجزاؤها السبعة على دراسات في المراحل التاريخية للقومية العربية، يقظة القومية العربية، حركة القومية العربية، نحو الوحدة العربية، دراسة مقارنة للحركات القومية، ونشاطات البعثات التبشيرية في الوطن العربي.

ثم قدم الموسوعة التاريخية الحديثة المؤلفة من عشرة كتب وهي:

"تاريخ الحركات القومية في أوروبا، خمسة أجزاء" تاريخ أوربا في العصر الوسيط " ثلاثة أجزاء"، تاريخ عنصر النهضة الأوروبية، تاريخ القرن السابع عشر

في أوروبا، تاريخ القرن الثامن عشر، وتاريخ القرن التاسع عشر، وتـاريخ القـرن العشرين، وتاريخ عصرنا، وقـضايا عـصرنا، التـاريخ الدبلوماسـي (جـزءان)، المحاكمات الكبرى في التاريخ، وقد مثلت هذه المؤلفات مراجع قيمة لطلاب البحـث التاريخي، كانوا في أمسِّ الحاجة إليها.

كان الدكتور "حاطوم" في كل هذا العطاء الـسخي، عالمـاً مقتـدراً، ومربيـاً متواضعاً يوجه طلابه ويناقشهم بموضوعية ومحبة، وأذكر أني حين كنت واحداً من طلابه في إحدى سنوات دراستي في قسم التاريخ، فوجئت بعدم نجاحي فـي مـادة "تاريخ القرن العشرين" رغم تقديمي إجابات صحيحة، فلما راجعته في الموضـوع، استقبلني بترحيب أبٍ حنون وقام لفوره يقلب أوراق الامتحان، وحين وضع يده على ورقتي، أخذ يعيد قراءتها معي، ثم يتوقف عند إجابة لم يعطها درجتهـا المـستحقة، فصحح الخطأ ليمنحني النجاح في المادة وهو يتمتم: لا بأس، إن الرجوع عن الخطأ فضيلة، وربت على كتفي باسماً وقال: لا يضيع حق وراءه مطالـب، وقـد مـرت سنوات عديدة بعد هذا الموقف وصرت زميلاً للدكتور حـاطوم إبـان عملنـا فـي الكويت، وصرت شاهداً على مثابرته وجدّه في العمل، وهـو شـيخ جليـل، بهمـة وحماس متقد، قابله الأساتذة والطلاب بكل الاحترام والتقدير، وجعلت في كل لقـاء أذكره بحادثتي معه، وسرعان ما ترتسم البسمة الوادعة نفسها على شـفتيه ليقـول: ولكن الحق عاد إلى نصابه..

ورحل الدكتور نور الدين حاطوم أخيراً بعد ما أدى رسالته العلمية حق الأداء، وبقي وجهه السمح متألقاً في أعماله الفكرية الراقية، وعطاءاته العلمية السخية، ثروة للوطن وللأجيال.

ما زالت آثار العرب مائلة للعيان

كان آذار هذا العام في باليرمو ماطراً على غير عادته، تفجـرت فيـه عيـون السماء فجاءت على الأرض انهاراً، وغام الجو فلم نر الـصحو إلا لمامـاً، وكنـت أسمع الصقليين يقولون: أصبح الطقس كالمرأة لا يعرف ما يريـد، ولقـد سـاهمت رداءة الطقس بأوفر نصيب في إنجاز أعمال المؤتمر الثقافي، وإلا لسحر المؤتمرين جمال الطبيعة، وألهتهم حرارة الشاطئ عن العمل.

وكنا رغم هذا الجو الحوّل القلّب، نهتبل فرصة اسـتجمامه لمعـاودة الكـرّة، فننتقل بين أحياء المدينة لنتعرف بمعالمها، ونمتع الطرف بآثارها الغنية التي عملـت فيها شتى الحضارات والعروق منذ أقدم العصور التاريخية حتى اليوم.

إن أعجب ما يستهوي الفتى العربي في هذه الديار الكريمة المضيافة أن يـرى آثار العرب مازالت خالدة مائلة للعيان، وما فتـئ الـصقليون يفخـرون بماضـيهم العربي، والعربي النورماندي ويجلونهما كل الإجلال، ويحفظون للعرب مآثرهم فـي الزراعة وأعمال الري التي جعلت من أرض باليرمو جنة شرقية تزهـو ببيـارات البرتقال وكروم العنب والزيتون وحقول القمح، وفي عالم الفن الذي يتجلى خاصـة بقصر العزيزة وقصر القبة، وكنيسة سان جيوفاني ديغلي أرمينيت التي كانت جامعاً وظلت تحتفظ باسم (لاموسكيتا)، وغير ذلك من الكنائس والقـصور المتنـاثرة فـي المدينة والتي نلمس في بنائها يد العرب، ونقرأ على جدرانها لغة القرآن، ونرى في تزييناتها أسلوب الإسلام.

وبعد أن انتهت أعمال المؤتمر يممت وجهي شطر روما، ولقد لبثت سبعة أيـام مشرقة مصحية وسبع ليال وضاءة براقة تعرفت فيها بمعالم (المدينة الخالـدة)، ولا أخال أني رأيت إلا النذر اليسير من أوابدها العديدة، ولا عجب فروما عـالم زاخـر بالآثار، وكيف يمكن لمشاهدة مدة قصيرة محدودة أن تستعرض كر العصور ومـر الأجيال.

على ضفاف التيبر الهادئ المتواضع الخجول في مشيئته، تقوم روما عرين (الذئاب) وقد تجمعت فيها عبقرية الفن، وإبداع الإنسان، وجلال الدين، وقدم التاريخ.

في إطلالتها القائمة يظلل النسر الروماني بأجنحته عالم الحضارة القديمة، وفي كنائسها العاجة بالحجاج والمصلين تظهر تقوى العصر الوسيط المؤمن الناسك، وفسيفساء بزنطة الفخمة، وأنوار عصر النهضة المشعة، وما أضافت إلى ذلك المدينة الحديثة من روائع تلذ النفس، وتردد في خلد الإنسان شتى الذكريات التي لا تحصى.

وفي روما التاريخ، ينعكس صدى الماضي التليد والمجد الأثيل: خمسة وعشرون قرناً مضت، ويد الزمان الفنية ما زالت تجمع بهدوء وإتقان معالم ست حضارات إنسانية، وإذا بروما الآن متحف خاص، فريد بنوعه وحيد لا يضاهيه متحف آخر، وفي كل حجر من أحجار روما صفحة مجد، وتاريخ لا ينطوي، فهي تتحدى الزمان والفناء، خالدة دوماً وإلى الأبد.

الفن في روما يتجلى في كل مكان: تراه في المعابد والهياكل والأبنية الضخمة، والملاعب الواسعة، والقبور الدارسة، والمساحات الفسيحة، تراه في متناول اليد عن يمين وشمال، وعلى قارعة الطريق، فأينما ذهبت وحيثما توجهت فأنت أمام كنيسة أو تمثال، أو نصب أو مسلة، أو لوحة أو فرسكة أو قوس نصر.

لقد طغى الفن في روما حتى عم مناسك الحج ودور العبادة، وأماكن الزيارات والقداسة، حتى ليبدو ونحن في الكنائس، أننا في متحف فني أو قصر فخم كل ما فيه جبار صارخ يسحر اللب ويأخذ بمجامع القلوب.

ولكن روما التي تسحر زوارها وقاصديها تأبى أن تثقل عليهم فتشغلهم بآثارها دون أن تدعهم يعودون إلى أنفسهم ولو إلى حين، لينعموا بلذة أخرى من نوع آخر في ظل الأشجار الباسقة، والمماشي الوارفة، والمنتزهات المترامية في (فيلا بورغيزه) قلب روما الأخضر، النابض بالحياة والحب ليل نهار.

هنا يأخذ العشاق بأيدي حبيباتهم ويبادلونهن القبلات والعواطف، وعن كثب شيخ أخنى عليه الدهر، يتأمل محاسن الطبيعة الفاتنة وراء الفن، ويسعد بما تبقى له من فرصة في الجنة الدنيا ليودعها قرير العين هادئ البال إلى الدار الآخرة، وهناك في الأفق جموع السياح الأمريكيين الغفيرة الساحقة الصاخبة، تسير بحيوية ونشاط، وفي أعناقها أجهزة التصوير تلتقط المناظر، وتستجمع الذكريات.

وروما التي عرفت قيمتها في قلوب الناس وشدة إقبالهم عليها من كل حدب وصوب، ما وسعها إلا أن زادت عنايتها في الحفاظ على آثارها بكل ما أوتيت من حيطة وحذر لتجعل الماضي يعيش دوماً في الحاضر، فهي تحول الطرق والمداخل والشوارع نحو هذه الآثار لتجعلها قبلة الأنظار، أو تجانبها، أو تدور حولها لتحافظ عليها وتحميها من العبث والهدم والتخريب، وهكذا نرى أن الفن في روما لا يتكيف مع حاجات الإنسان، بل على الإنسان أن يتكيف مع حاجات الفن.

وبعد فهل من دعوة إلى باريس لمن يحب الانطلاق، أو رجعة إلى روما لمن يهوى الفن! ولكن الفن لا ينافي الانطلاق، ففي الفن انطلاق وفي الانطلاق فن.





سامي الدروبي:

نهل الثقافة العالمية
وأعاد صهرها لتصبح عربية الوجه واللسان

يغبطني كثيراً كل من يتابع عناوين المؤلفات في مكتبتي، حين تقع نظرته على مجموعة الأعمال الكاملة للكاتب الروسي الأشهر: "دوستويفسكي" في ثمانية عشر مجلداً، هي في الحقيقة عالم واسع قائم بذاته، أتاح لي سعادة امتلاكه كاتب مبدع، ومترجم فذ، أثرى المكتبة العربية بما يزيد عن ثمانين كتاباً مترجماً من عيون الفكر العالمي، في الأدب والفن والفلسفة والعلوم، قدّمها في آلاف الصفحات، وكتب آخر سطورها على فراش المرض، وهو في اللحظات الأخيرة من عمره، يوم الثاني عشر من شباط عام ١٩٧٦.

ولد الدكتور "سامي الدروبي" في حمص عام ١٩٢١، وتلقى علومه الابتدائية والثانوية فيها، ليتخرج من قسم الفلسفة بكلية الآداب عام ١٩٤٧ ثم حصل على الثانوية العامة وشهادة دار المعلمين العليا من دمشق، فمارس التعليم حتى إيفاده إلى مصر عام ١٩٤٣، وبعيد عودته إلى القطر عيّن مدرساً للفلسفة بحمص، ثم معيداً في جامعة دمشق، ليوفد من جديد إلى باريس عام ١٩٤٩، لتحضير الدكتوراه التي نالها عام ١٩٥٢، وإثر عودته أصبح مدرساً ثم أستاذاً بكلية التربية في الجامعة.

شغل الدكتور الدروبي مناصب إدارية وعلمية ودبلوماسية في عدة أقطار، فكان مديراً بوزارة الثقافة المركزية بمصر، إبان عهد الوحدة بين عامي ١٩٥٩-١٩٦٠. ثم مستشاراً ثقافياً لسوريا في البرازيل، فوزيراً للتربية عام ١٩٦٣، وسفيراً في المغرب ثم في يوغسلافيا ١٩٦٤، ومندوباً دائماً لسوريا في الجامعة العربية ١٩٦٦، وسفيراً في إسبانيا من ١٩٧١ وحتى عام ١٩٧٥، حين طلب العودة إلى دمشق لأسباب صحية، ووافته المنية بعد أربعة شهور من عودته.

سيرة المفكر الراحل الدكتور الدروبي غنية جداً بما حفلت به من عطاء إنساني وفكري، وتحتاج إلى صفحات مطوّلة.

والواقع أن المكتبة العربية كانت بأشد الحاجة للتعرف إلى الآثار الأدبية والفكرية والسياسية لعمالقة الفكر في العالم، وهو ما حمل الدكتور الدروبي عبئه، فقدم في المجال الفلسفي:

أعمال الفيلسوف الفرنسي "هنري برغسون"، بعض أعمال الفيلسوف الفرنسي "غوبو"، ترجمات للفيلسوف الإيطالي كروتشه.

وله في مجال التربية وعلم النفس مؤلّفه: "علم الطباع" و"علم النفس التجريبي" و"سيكولوجية المرأة" مترجمان وترجم في الفكر السياسي كتاب "موريس دوفرجيه" مدخل إلى علم السياسة" و"تفكير كارل ماركس" عن "جان إيف كلافيز" و"جسر على نهر الدرينا" لليوغسلافي" "ايفواندريتش" وهي الرواية الفائزة بجائزة نوبل للآداب عام١٩٦١، وكان قد ترجمها ونشرها قبل أن تمنح الجائزة بعدة شهور، مما يدل على ذوقه الأدبي الرفيع، وحسّه الأصيل وترجم عن الروسية "ابنة الضابط" لاكسندر بوشكين، و"بطل من زماننا، للكاتب ليرمانتوف، و"مياه الربيع" لتورغنيف، وعن الفرنسية: "معذبو الأرض" لفرانز فانون.

بلغ الدكتور الدروبي ذروة إبداعه حين عكف على ترجمة الأعمال الكاملة لدوستويفكسي، والتي تكونت من ثمانية عشر مجلداً في أكثر من ١٢,٠٠٠ صفحة، وترجم المجلدات الخمسة الأولى من أعمال "تولستوي" الكاملة، وكان في يوم وفاته مقبلاً على الصفحات الثلاثين الأخيرة من المجلد الخامس بقيت بدون ترجمة.

وأذكر هنا أن صَحفياً سأل الدكتور "طه حسين" عما يقرؤه في تلك الآونة، فأجاب العميد: أقرأ ترجمات الدكتور "سامي الدروبي" لأعمال "دوستويفكسي "الكاملة"، ومما يثير إعجابي أن هذا الإنسان يقوم بعمل مؤسسة بأكملها بل وبشكل أفضل، ويتابع الدكتور "طه حسين": أذكر أنني حين كنت مديراً عاماً للثقافة في الجامعة العربية، أنشأت لجنة من كبار الأدباء لننقل آثار "شكسبير" إلى اللغة

العربية، وكنا نملك الإمكانيات المادية والمعنوية، ولكننا لم نستطع حتى الآن، وقد انقضت ثمانية عشر عاماً، من إتمام ترجمة "شكسبير" وها نحن الآن نرى شخصاً واحداً يقوم بهذا الإنجاز العظيم، فيعطي القارئ العربي أعمال "دوستويفكسي" كاملة، وبأسلوب واحد ولغة جميلة متينة، وبعمق وفهم لروح المؤلف.

كان الدكتور الدروبي في الواقع، فضلاً عن كونه مغرماً بالتواصل الإنساني، يحب أن ينقل مشاعره وإحساسه بالجمال إلى الآخرين، لذلك اختار أن يكون مترجماً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، كان غيوراً على أبناء أمته إلى حد كبير، حيث كان يصعب عليه جداً أن يجهل أبناء العروبة كنوز الثقافة الأوروبية، لذلك حرص كل الحرص كي يضع هذه الكنوز في متناول القارئ العربي.

فالترجمة في نظر الدكتور الدروبي - رسالة حضارية - ولطالما بشّر بأن هذا العصر هو عصر الترجمة، والسبب في ذلك هو أن الأمة العربية بأمسّ الحاجة إلى أن تفتح نوافذها للهواء والشمس، وبالطبع، لم تكن الترجمة رسالة يبشر بها وحسب، بل أنبرى بنفسه لحمل لوائها فكان علما من أعلامها البارزين.

ولم يكن عمل الدكتور الدروبي في ترجمة أعمال "دوستويفكسي" عادياً أو بسيطاً، يقول الدكتور هاني الراهب: لقد بذلت من قبل جهود كثيرة ومتعددة لجعل الترجمة عملية مبرمجة وانتقائية وذات وجهة نظر، وكانت ثمة محاولات جادة لتقديم قطاعات كاملة من الثقافات العالمية، بحيث يتمكن القارئ العربي من الإحاطة بما يريد ويحتاج إحاطة شمولية لدرجة كافية، وليس مبتورة أو منقوصة، ولكن شيئاً من هذا لم ينجح النجاح المنشود، وبقيت الصفة الغالبة لعملية الترجمة هي العشوائية التي يواجهها إما المزاج أو التجارة، ثم أصبح ذلك ممكناً بفضل سامي الدروبي، بفضل إيمانه ودأبه وحبه ... لم يتعذر بالمرض وينصرف على حياة الدعة والكسل التي ينصرف لها الآخرون بغير مرض، بل جالد ضعف قلبه الوحيد: الضعف العضوي، واستمر يعطي حتى النهاية.

يقول الدكتور جورج صدقني:

كان الدكتور الدروبي مفكراً من الطراز الأول، ولعل أبرز ما فكر به هو اعتقاده أن نهضة الأمة العربية وبعث تراثها وأمجادها يقتضيان الإطلاع الشامل على الحضارة الحديثة بوجوهها المختلفة فكراً وفلسفة وأدباً وفناً الخ...

وبالإضافة إلى كونه مترجماً كبيراً وأديباً ممتازاً، كان كذلك فناناً مغرماً بالجمال، ويصنع الجمال أيضاً، بالنسبة للغة العربية فكان يهيم بها ويتأمل جمالها وروعتها كالعاشق الولهان، فإذا ما قرأت ترجماته تنسى نفسك، وتتوهم أنك تقرأ نصاً عربياً أصيلاً، لم ينقل من لغة أخرى، ويعود السبب في ذلك إلى أسلوب الدروبي المرهف وعبارته الرشيقة الجميلة، وبيانه الساحر.

وكان وهو يترجم يمارس نوعاً من التقويم، إن صح التعبير، فكأن الفكرة في الأصل مُعبَّر عنها بلسان أعجمي معوّج، وهو بترجمتها يعّبر عنها بلسان عربي مستقيم وفصيح.

لهذا اكتسب الدكتور الدروبي شهرة عظيمة على المستوى العربي والدولي، حتى أن المترجم والمستشرق الروسي - فلاديمير كراستوفسكي - الذي رافق خروتشوف رئيس الاتحاد السوفييتي السابق أثناء زيارته إلى مصر - طلب من وزير الثقافة المصري - د. ثروت عكاشة - أن يطلع على الترجمة العربية - لدوستويفكسي - ليتعرف على مدى الدقة في الترجمة، وفيما إذا كانت اللغة العربية قادرة على استيعاب تحليلات - دوستويفسكي - النفسية، فكتب لوزير الثقافة المصري بعد أن أطلع على الترجمة: لو أن دوستويفسكي كتب باللغة العربية لما كتب أجمل من هذا، وطلب وزير الثقافة في الاتحاد السوفييتي مجموعة دوستويفسكي بالعربية ليصار على حفظها في متحف - دوستويفكسي - في الاتحاد السوفييتي، فكانت أول مرجع عربي يحفظ في ذلك المتحف.

يقول الدكتور حافظ الجمالي:

إن الذين يعرفون الدكتور سامي الدروبي، يـذكرون جيـداً المعـاني النبيلـة والجميلة التي كونت شخصيته وحياته، فقد وعى المعادلة الاجتماعيـة التـي كـان يعيشها في عصره، ولم تكن هذه المعادلة جديدة في التاريخ، فمنذ ابـن تيميـة فـي القرن الرابع عشر، ومحمد عبد الوهاب، ومحمد أفغاني ومحمد عبـده والكـواكبي، كانت المعادلة واحدة الحدود، واحدة المجاهيل، وتتجلى في عدة أسـئلة أو تحـديات يطرحها المجتمع على أبنائه. فالمجتمع متخلف، ولابد من حل لمشكلة الظلم. وأخيراً فإن الإنسان مستعبد من الداخل والخارج، ولابد من حل لمشكلة الاستعباد.

كان جواب سامي الدروبي عن هذا كله، وكان الحل الذي ارتضاه، هو انتسابه العقائدي وهو الانتساب الذي أصبح يتردد على كل شفة ولسان: الوحـدة، الحريـة، الاشتراكية، وكان الدروبي في ذلك كله، واحداً من جيل كامل آمن بهـذه المبـادئ، كما ستؤمن بها الأجيال التالية تباعاً حتى تتحقق، أو يتحقق منها ما يمكن أن يتحقق.

لكن سامي الدروبي، كسائر رفاق نضاله، ما لبث أن عرف أن المبادئ بـذاتها - مهما تكن سامية - تظل عاجزة، خائرة القوى، ما لم يكن وراءها مـن يحملهـا حملاً حضارياً معاصراً، ويغنيها بروحه، ويملؤها مـن عزمـه، فـأكبر المبـادئ وأعظمها تظل صغيرة إذا حملها إنسان صغير، وأصغر المبـادئ، وأدناهـا قيمـة، تكبر وتتعاظم، إذا حملها إنسان كبير، وعبثاً يكون السمو في المبادئ وحدها، إذا لـم يكن وراءها سمو الإنسان، وشموخ نفسه، وعظمة قلبه.

لابد إذن من إغناء الإنسان العربي بروح العصر، والثقافة العالميـة، وبالثقافـة جملة، ومن هنا كان اهتمام سامي الدروبي بالثقافة، ينهلها مـن ينابيعهـا الثـرة، لا ليبقيها لنفسه، ولكن ليعيد صهرها، لتصبح عربية الوجه واللسان، ولتكون مادة لثقافة الأجيال الجديدة، تستمد منها غنى الفكر وأصالة الروح، لتتسلق عليها على مـا هـو أسمى منها.

ولقد أقبل سامي الدروبي على هذه المهمة، بجد لا يعرف الكلل ولم يكن يطلب شيئاً عزيزاً، كان كل ما يريده ألا يشغل بحاجات العيش البسيطة، وألا تثقلـه هـذه

بالهموم، فتصرفه عن مهمته الجليلة، ولقد أنتج في ظروفه هذه ما يزيد عن ثمانين كتاباً من عيون الكتب. في العلم والفلسفة و الأدب والفن، وبصورة خاصة من تلك التي تمثل حضارة العصر، وآفاقه، وبالله كم نضيّق على نوابغنا أفق الحياة، فنخسر معهم الكثير مما كانوا يستطيعون أن يعطوه.

وليس القضية هنا أن الدروبي قد ترجم هذا كله. بل القضية أنه رزق فصاحة اللسان، وعروبة البيان، حتى لكأن من يقرؤه يحسب أن ترجمته هي الأصل، والأصل هو الترجمة.

والغريب أنه أنتج أفضل إنتاجه، بعد أن سد المرض أمامه آفاق الحياة التي كانت آنئذ تنفتح له أكبر انفتاح، لكأنه أراد أن يحيل كل حركة من حركات عضلاته، وكل خفقة من خفقات قلبه، وكل قطرة دم في شرايينه، على اثر باق يخلد هو بعد أن يموت صاحبه، ويجعل الحديث عنه متصلاً، كما لو أنه باق، حياً لا يموت، غير أن ما أراده سامي حقاً، هو أن يحيا شعبه، ويتألق حياة وغنى، وليس يعينه هو شخصياً أن تطول حياته سنة أخرى أو عدة سنوات، أما نحن فكان يعنينا دوماً أن تطول حياته، لا لأنه أثير لدنيا فحسب، بل لأن هذه الحياة ستكون كلها عطاء يتتابع بعد عطاء.

وعلى ذلك فإن جواب سامي عن تحديات عصره، لم تكن في المبادئ وحدها، فما أفقر هذه، إن لم يكن وراءها الإنسان ... الإنسان الذي يرقى على مستواها، بدلاً من أن يهبط بها إلى مستواه، ويجعلها أداة التقدم أمته، بدلاً من أن يجعلها رسائل جديدة للامعان في التخلف؟ ترى هل كان جواب سامي هو الجواب المعقول؟ لا ريب أنه اختار الطريق الطويلة الصعبة، ولكني شخصياً، لا أرى عن ذلك بديلاً.

وأنا أفهم جيداً أن تكون صيحات الرواد الكبار من ابن تيمية إلى الكواكبي، وجيهة جداً، وافهم أنه يجب القضاء على الخرافات، والعودة إلى روح الدين، والتقيد بمنظومة قيمه العليا، ولكن من هو هذا الإنسان الذي يحسن هذه العودة، وهذا التقيد؟ أما منظومة القيم المثلى فما أسهلها، وما أسهل العثور عليها: فما من إنسان لا

يعرف أن الحق خير من الباطل، والخير أفضل من الشر، والوحدة أدعى إلى القوة من التناثر، لكن حمل هذه القيم، وإشاعتها في الناس، والعمل بوحي منها، لا بوحي المنافع الذاتية والأهواء الشخصية، أمر صعب يحتاج إلى "إنسان" ما من نوع خاص، وهذا الإنسان هو الذي أراد الدروبي أن ينشئه بالتربية، ويغنيه بالثقافة، ويملأه بالعلم والأدب والفن، ولقد فعل في هذا الميدان ما استطاع، وهو كثير، لكننا سنظل بحاجة إلى ألف "دروبي" آخر، لنستطيع قلب معادلة التخلف الشائع، وخلق الإنسان الجديد القادر على حمل القيم السامية.

كان "سامي الدروبي" يقول د. هاني الراهب: أكثر من قطرة صافية عذبة، وشخصيته غنية مشعة، لقد عرف الدروبي، كيف يحافظ على ذلك كله في عصر شرس وحرباوي، ففي سوريا ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية، حدث من التغير كمّ متنوع لم يحدث خلال قرون عديدة سلفت، لقد توارت قيم كانت في حكم المندثرة، وحلت محلها قيم جديدة ما لبثت أن اندثرت بدورها، لتخلفها قيم أكثر جدة صارت الآن في طور النزع، وتبدلت علاقات مختلفة، وكانت الأعمار قصيرة في معظم الميادين في الأدب، لتخلفها قيم أكثر جدة صارت الآن في طور النزع، وتبدلت علاقات متخلفة، وكانت الأعمار قصيرة في معظم الميادين في الأدب والفكر والسياسة والاجتماع، فما أن يلمع نجم ويستبشر به الناس حتى يتكشف بعد حين قليل عن نيزك يعبر السماء الشاسعة إلى لحظة انطفاء وشيكة.

ولكن "سامي الدروبي" لم ينطفئ بل ظل خلال ربع القرن الأخير يضيء في مداره الذي حدده لنفسه، يضيء باستمرار ضوءاً متزناً، لا هو بالباهر فتعشى منه العيون ولا هو بالضئيل الهزيل فتتجاوزه العتمة على الأحداث ... كان واحداً ممن نسمّيهم: الرعيل الأول، وهم المثقفون ثقافة عالية وعميقة، اتجهت بهم من البداية إلى المنابع الأساسية الأصيلة فنهلوا منها ووصلوا إلى مكامن انبثاقها الأولية. لذلك كان حديثهم عنها، وخوضهم فيها، حديث العارف حقاً والتوجه ببوصلة العقل والأصالة. فهم لم يقرأوا عن، وإنما قرأوا، ولم يلتقطوا أفكاراً تصلح للاستشهاد في

نقاش عصبي، وإنما تمرسوا بأنظمة فكرية، وقد أدركوا منذ بداية نضحهم الثقافي ضخامة الحاجة على المعرفة، وضرورة البدء بها فوراً وبطريقة صحية مجدية، فمنهم من ساهم بإنتاجه، ومعظمهم انصرف إلى تكوين مناخ ثقافي كان حجر الأساس في أغلب ما ظهر بعدئذ من تيارات فكرية محلية وإنتاج ثقافي محلي. وإذا لم يبدعوا الشيء الكثير، فقد كان لهم الفضل التاريخي في أنهم وضعوا الخميرة في العقول، وكانت خميرة فعالة، وسامي الدروبي واحد من هؤلاء إنه لم يدّع ولم يتمدد إلى أكثر مما أهلته مقدراته، ولم يعتقد يوماً أن هذه الثقافة العالية لن تتاح إلا له، وبالتالي فهو المرجع الذي لا غني عنه، على العكس، لقد وضع مقدراته وثقافته في متناول الآخرين، وخاصة الأجيال التي تلت جيله وطعمت من مائدته، ورغم أن أجيالاً قد تلت جيله. فقد ظل محافظاً على اتصاله بعصره ليس فقط عن طريق نشاطه الثقافي المتواصل، وإنما أيضاً بإدراكه المرهف للقيم التي بلورتها الحضارة الحديثة، ويحكى عنه أنه كان دائم الانضباط بمواعيده، بالغ التقيد بها. وكان يتعامل مع الزمن كقيمة حضارية ومادية، وكضابط أولي للعلاقات والإنتاج والتوجه الشخصي، وتلك مزية نادرة في العالم الثالث حتى بين المثقفين وهي دلالة على تفاعل أصيل مع معطيات العصر وعلى تحقق صحي لمعاني الحداثة.

أمثال هذا الرجل لا ينتهون بالطبع، إنهم شموس صغيرة خالدة، ضياؤها المعرفة والحب، ونحن نراها كل يوم بعين الإجلال والامتنان والعرفان.

المصدر:

- سامي الدروبي: حكاية حب وكفاح: إحسان بيات الدروبي.
- سامي الدروبي شمس خالدة: د. هاني الراهب - الثورة ١٩٧٦/٢/١٧.
- مدرسة في الترجمة: رجاء النقاش - مجلة الدوحة.
- راهب في صومعة: جورج صدقني.

أنشودة الجمال والصبر والعذاب

رحيل الدكتور سامي الدروبي، العالم والأديب والفنان والإنسان العظيم، بعد رحلة عذاب طويلة مع مرض القلب، حيث عاش وهو يناضل هذا المرض القاسي عشر سنوات متصلة، متنقلاً بين الأطباء في مختلف أنحاء الدنيا.

تعلم سامي في القاهرة، فدخل كلية الآداب قسم الفلسفة سنة ١٩٤٢ وتخرج فيها سنة ١٩٤٦.

ونال الدكتوراه بعد ذلك من القاهرة أيضاً، وعندما قامت الوحدة المصرية السورية سنة ١٩٥٨ جاء إلى مصر وعمل بها مستشاراً ثقافياً في وزارة الثقافة المركزية. وحين وقع الانفصال سنة ١٩٦١، عاد إلى سوريا وظل يناضل ضد الانفصاليين حتى سقط حكم الانفصال سنة ١٩٦٣، وقامت حكومة جديدة كان فيها سامي الدروبي وزيراً للتربية، ولكنه لم يصبر على البعد عن مصر، فترك الوزارة وانتهز أول فرصة ليجيء إلى مصر مندوباً لسوريا في الجامعة العربية، ثم كان أول سفير لسورية في مصر بعد الانفصال، وقد ألقى أمام الزعيم الراحل جمال عبد الناصر كلمة قصيرة بعد تقديم أوراق اعتماده، وكان ذلك في نيسان سنة ١٩٦٧، ومما قاله في هذه الكلمة الرائعة: (.. إذا كان يسعدني ويشرفني أن أقف أمامكم، مستشرفاً معاني الرجولة والبطولة، فإنه ليحز في نفسي أن تكون وقفتي هذه كوقفة أجنبي، كأنني ما كنت في يوم مجيد من أيام الشموخ مواطناً في جمهورية أنت رئيسها، إلى أن استطاع الاستعمار متحالفاً مع الرجعية أن يفصم عرى الوحدة الرائدة في صباح كالح من أصباح خريف حزين يقال له ٢٨ إيلول، صباح هو في تاريخ أمتنا لطخة ستمحى)

والذين لا يعرفون سامي الدروبي لا يتصورون معنى الحزن العميق الذي كان يسيطر على قلبه، عندما شاءت الظروف له أن يكون أول سفير لسوريا في مصر بعد الانفصال، فسامي الدروبي كان مؤمناً بالوحدة العربية إيماناً شديد العمق والصدق، وكانت الوحدة العربية هي الأمل الأكبر في خلق حضارة عربية لها قيمة، وفي خلق

إنسان عربي جديد قادر على مواجهة ظروف العصر وتحدياته الصعبة. وقد كان إيمان سامي الدروبي بمصر وحبه لها نابعاً من نفس النبع الصافي، نبع إيمانه بالوحدة العربية. فقد كان مدركاً أشد الإدراك أنه لا وحدة بدون مصر، وان مصر هي الأساس في أي حركة لها قيمة في الوطن العربي كله.

لكن آراء سامي الدروبي النظرية في الوحدة العربية وفي دور مصر لم تكن مجرد آراء عقلية باردة، بل لقد تحولت هذه الآراء إلى عاطفة عميقة في قلبه، انعكست في محبته العميقة لمصر، وسعادته الغامرة عندما يكون في القاهرة عاملاً فيها أو زائراً لها، بل لقد انعكست هذه العاطفة الكبيرة نحو مصر في اختياره لأصدقائه، فقد كان أكثر أصدقائه وأهمهم وأقربهم إلى نفسه من مصر.

وإذا أردنا أن نرسم صورة عامة للدور السياسي الذي قام به سامي الدروبي فإننا نجد هذا الدور في تبشيره بالوحدة العربية تبشيراً صادقاً أميناً، وذلك دون الدخول في أي خلافات سياسية من أي نوع، لقد حرص سامي طيلة حياته على أن يعمل في خدمة "القضية الأصلية" دون أن يغرق في الفروع والتفصيلات ولحظات التوقف والاختلاف، وهي اللحظات التي تمليها السياسية اليومية العملية، والحقيقة أن سامي الدروبي بهذا المعنى يعتبر علماً من أعلام النضال العربي المعاصر، من خلال عمله كوزير وسفير ومفكر وأديب.

وعندما نتساءل بعد ذلك عن الدور الثقافي لسامي الدروبي فلا بد أن نعرف شيئاً عن نظريته بالنسبة للواقع العربي المعاصر، لقد كان يؤمن بأن الحضارة العربية في دور التكوين، وهي بحاجة ماسة إلى الترجمة التي تقوم على الدقة والأمانة وحسن الاختيار، ولذلك صرف الجزء الأكبر من حياته في الترجمة، وبدأ عمله بترجمة أعمال الفيلسوف الفرنسي الكبير "برجسون" وساعده الدكتور طه حسين في نشر هذه الترجمات عندما كان يرأس تحرير مجلة الكاتب المصري، ويشرف على مطبوعاتها. وترجم سامي الدروبي بعد ذلك عديداً من الأعمال الفنية والفكرية، كان أهمها رواية "جسر على نهر درينا" وهي الرواية الرائعة التي قدمت للعالم العربي كاتباً عظيماً لم

نكن نعرف عنه شيئاً قبل ترجمة سامي الدروبي لروايته، هذا الكاتب هو الروائي اليوغسلافي "ايفواندريتش" ثم ترجم سامي مع صديقه الدكتور جمال الأتاسي كتاباً خطيراً آخر هو "معذبو الأرض " للكاتب والفيلسوف المناضل " فرانز فانون" الذي وقف إلى جانب ثورة الجزائر، وعاش في قلبها، واستخلص منها أعظم النتائج والخبرات في كتابه الهام الذي ساهم سامي في ترجمته كتاب "معذبو الأرض" وترجم سامي أيضاً عن الفرنسية ثلاثية الكاتب الجزائري الكبير محمد ديب: البيت والحريق، والنول.

على أن أهم إنجاز ثقافي لسامي الدروبي هو ترجمته للأعمال الكاملة للكاتب الروسي الكبير دستويفسكي .. إن دستويفسكي بإجماع النقاد العالميين – تقريباً – هو أعظم كاتب روائي في تاريخ الأدب العالمي كله. ومن هنا حرص سامي الدروبي على ترجمته كاملاً وتقديمه للمكتبة العربية. وهذه الأعمال الكاملة نشرت في مصر، وقد أتمها سامي قبل وفاته، وبلغت حوالي ثلاثين مجلداً كبيراً، وقد حظيت هذه الترجمة باهتمام بالغ حتى في روسيا نفسها، وأخذ الروس هذه الترجمة ووضعوها في متحف دستويفسكي في موسكو، واعتبروها من أعظم الإنجازات التي تمت في أنحاء العالم بالنسبة لأدب دستويفسكي.

وفي اعتقادي أن الحياة الأدبية العربية لم تدرك بعد أهمية ترجمة سامي الدروبي لأعمال دستويفسكي، وسوف تمر سنوات أخرى قبل أن نحس بأثر هذه الترجمة على أدبنا، ولست أشك في أن الجيل الأدبي الجديد سوف يستفيد فائدة بالغة الخطورة من ترجمات دستويفسكي، وسوف تترك هذه الأعمال أثرها العميق عن الأدب العربي في الجيل القادم ... صحيح أن السينما العربية قد سارعت إلى الاستفادة من هذه الأعمال، فظهرت رواية "الأخوة الأعداء" على الشاشة العربية – وسوف تظهر بعض الأفلام الأخرى مستمدة من هذه الروايات .. ولكنني أعتقد أن الأثر الأكبر لم يظهر بعد في أدبنا وفننا السينمائي والمسرحي على صورته الحقيقية، وما زالت أعمال دستويفسكي التي ترجمها سامي الدروبي في "معدة" الحياة الأدبية العربية لم يتم هضمها بعد، ويوم

يتم هذا الهضم فإنها سوف تترك أثراً بالغ العمق على الثقافة العربية المعاصرة.

لقد ترجم سامي أعمال دستويفسكي عن الفرنسية، وكان سامي يتقن الفرنسية ويتقن العربية، ولذلك جاءت ترجمته رائعة وفذة، على أن هناك جوانب أخرى من الإبداع الفني والإنتاج الأدبي عند سامي لم تنشر حتى الآن، فأنا أعلم أنه كان يكتب الشعر وأنه يملك ديواناً كاملاً كان يقول أنه سوف يتركه لأولاده ينشرونه بعد وفاته. وله كتاب آخر لم ينشر هو "أغاني السكارى على ضفاف نهر العاصي" يبدو أنه نوع من الذكريات التي كتبها سامي الدروبي عن حياته في " حمص " التي تقع على نهر العاصي.

هذه بعض الخطوط العامة السريعة عن حياة سامي الدروبي كسياسي ومثقف وأديب. ولكن ماذا عن الإنسان؟ لا يمكن أن نكتب عن سامي الدروبي بعقل هادئ فقد كان سامي الدروبي إنساناً رائعاً يثير الحب والإعجاب حوله في كل مكان. وكان هو نفسه شعلة من الذكاء والعاطفة معاً وفي رأيي انه كان نموذجاً فذاً للإنسان "المتحضر" في مجتمعنا العربي المعاصر. بل كان مثلاً أعلى لهذا الإنسان المتحضر. كان مثقفاً وحريصاً أشد الحرص على تنمية ثقافته. كان مؤمناً بأن تكون له رسالة وله نفع في المجتمع الذي يعيش فيه. كان محباً للناس حريصاً على خدمتهم بأقصى ما يستطيع بل بأكثر مما يستطيع. وله في ذلك مواقف عظيمة سوف تكشف عنها الأيام وتكتبها بحروف من نور. وكان فوق ذلك كله من أكثر من رأيت في حياتي صبراً على المصائب التي واجهته بقسوة، وأهمها جميعاً مصيبة وفاة ابنته الرائعة "سلمى" في الثانية عشرة من عمرها في حادث مؤلم فقد اختنقت بالغاز في حمام منزل الأسرة بدمشق. أما مصيبته الثانية فقد كانت مرض القلب الذي ظل يعاني منه سنوات طويلة، ومع ذلك صبر سامي الدروبي أجمل الصبر في محنته، لم يتوقف سامي الدروبي أبداً، لم يغرق في الحزن. كان يتحدى الموت بالعمل. وكان شديد الإصرار على أن تكون حياته مثمرة ومفيدة حتى اللحظة الأخيرة. والحقيقة أن سامي الدروبي انتصر في معركته، لقد ظل يعمل وينتج وقلبه ينزف قطرة قطرة حتى مات.

صورة عدنان الخطيب



د. عدنان الخطيب:

عمر من الدأب والوفاء لحماية اللغة والتراث

درجت المجامع العربية في وطننا، على أن تقتصر عضويتها على المفكرين المقتدرين الذين أفنوا العمر في الدراسة والتحقيق، ووهبوا ضوء العيون للبحث والتدقيق في المصادر، لإغناء المجتمع بمحصلة أعملهم الراقية، وقلما كان المجمع اللغوي بدمشق يختار لعضويته باحثاً شاباً، لأنه ما يزال في أول الشوط الطويل إلى هيكل الفكر العتيد، ولكن رئيس المجمع العلمي العربي في عام ١٩٦٠ الأمير مصطفى الشهابي، كسر ذلك التقليد، ورشح للعضوية ثلاثة شبان توسّم فيهم الكفاءة والدأب والجدارة: شكري فيصل، سامي الدهان، وعدنان الخطيب، وقد فاز الثلاثة بالعضوية، وحل الدكتور الخطيب محل العلامة الشيخ عبد القادر المغربي وهو العالم الذي أوقف حياته الطويلة على العلم والتوجيه والإصلاح.

في حفل استقبال العضو العامل الجديد: الدكتور عدنان الخطيب، قدّمه الأمير جعفر الحسني، لأعضاء المجمع، وقال يخاطبه: "عرفتك وعاشرتك طويلاً، وعرفك غيري أديباً متواضعاً، صادقاً في أقوالك، مخلصاً في أعمالك، لم يعرف الغرور على نفسك سبيلاً، متحلياً بإباء العلماء، عازفاً عن الشهرة، زاهداً في المديح وأهله". وكان المجمعي الجديد عن حسن الظن به، فقد كرّس جهده وفكره لعمله في المجمع بإخلاص ونشاط بلا حدود.

ولد الدكتور عدنان الخطيب بدمشق عام ١٩١٥، في أسرة علم وأدب وتقوى، فهو ابن العالم الجليل الشيخ عبد القادر الخطيب، مفتي دمشق وخطيب الجامع الأموي الكبير، تعلم بمدرسة التجهيز الرسمية، وتلقى دروسه في اللغة والفقه على نخبة علماء دمشق، وتابع تحصليه الجامعي بكلية بغداد، حيث درس العلوم المالية والقانونية وحاز إجازتها بمرتبة الشرف الأولى ١٩٤٢، ثم غادر إلى باريس ليتوج

دراسته بشهادة الدكتوراه في الحقوق عام ١٩٤٧.

عمل بعيد عودته للوطن في حقل القضاء، وتدرّج في مناصبه ليصبح في عام ١٩٥٣ مستشاراً بمحكمة الاستئناف بدمشق، ثم نائباً عاماً في الدائرة القانونية لوزارة العدل، إضافة إلى تدريسه القانون المدني والجزائي بكليتي الحقوق والشريعة، كما كُلِّف بالتدريس في معهد الدراسات العليا التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة، وعيّن الدكتور الخطيب في عام ١٩٥٩ مستشاراً بمجلس الدولة، ورئيساً لمحكمة القضاء الإدارية في سوريا ومحافظاً للاذقية عام ١٩٦١، وأصبح نائباً لرئيس مجلس الدولة عام ١٩٦٧، ثم رئيساً له عام ١٩٦٩، وعند تقاعده عن العمل عام ١٩٧٤، انتخب نائباً لرئيس مجمع اللغة العربية، فأميناً عاماً له عام ١٩٨١، واختير عضواً عاملاً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٨٦، وكان قد سبق وأصبح عضواً مراسلاً في مجامع الأردن والعراق والهند.

أغنى الأديب العالم الدكتور الخطيب المكتبة العربية بنتاج خصب من أعماله الراقية في مجالات القانون والتاريخ واللغة والأدب، واهتم بشكل خاص بالدراسات الأجنبية واللغوية، وكان من أبرز مميزاته الشخصية وفاؤه للشيوخ والأساتذة من أعلام السلف الفكري، فحصرّ قرابة الثلاثين منهم بترجمات لسيرهم وأعمالهم، وكان في مقدمتهم أعضاء المجمع الراحلين من أمثال: محمد كرد علي، وعبد القادر المغربي، وعز الدين التنوخي، وساطع الحصري، وخير الدين الزركلي، ومحمد البزم، والشيخ محمد بهجة البيطار، والأمير مصطفى الشهابي، وغيرهم، كما ترجم لثمانية من علماء دمشق الأخبار فكان له الفضل بالتذكير بهم بعد أن نسي أكثرهم.

وفي مجاله العلمي، أصدر الدكتور الخطيب أكثر من اثني عشر مؤلفاً بينها: شرح قانون العقوبات، والوجيز في أصول المحاكمات وموجز القانون الجزائي، وتاريخ القضاء الإداري، ونظام مجلس الدولة في سوريا، وحقوق الإنسان في الإسلام – وقد أدت هذه المؤلفات لرجال القانون والقضاء، خدمات جلى، إذ قدمت الشروح العلمية للقوانين، وساعدت على فهم وتفسير ما أشكل فهمه وتفسيره.

وأرخ الدكتور الخطيب لحياة الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة الفكرية في الشام، ولحياة مؤسس المجمع محمد كرد علي، وللمجمع العلمي في خمسين عاماً، وله بعد هذا كله، عديد من المؤلفات الأدبية البليغة في الشعر الكلاسيكي والوطني والوجداني، إضافة إلى عشرات المقالات والدراسات في الأدب والنقد، نشرت في مجلة المجمع، وفي المجلات العربية الراقية بمصر وتونس والسعودية ولبنان.

كرس الدكتور عدنان الخطيب حياته لخدمة الوطن والحفاظ على اللغة العربية، ودأب على نشر ذخائرها، مع غيرة صادقة على التراث الأصيل، وحرص على رسالة مجمع اللغة العربية ليبقى منارة مشعة بالخير والعطاء للأجيال القادمة. واستطاع بما عرف عنه من نبل وأخلاق عالية أن يكسب إعجاب واحترام كل من عرفه واتصل به، وكان من بين هؤلاء الأديب المصري الراحل: أنور الجندي، الذي أرّخ لأعلام القرن الرابع عشر الهجري، وأدرج فيهم العلم الراحل فقال: "إذا أردت أن أصفه بكلمة واحدة تختصر حياته كلها لقلت: إنه أينع ثمار الأصالة العربة الإسلامية في أرض بردى، وريث المدرسة الشامية الزاهرة التي أنشأت ذلك التيار الإسلامي، الذي التمس المنابع الثرة، إنه حفيد الشيخ طاهر الجزائري، وعبد القادر المغربي، والقاسمي، وكرد علي، ومحب الدين الخطيب، هذه الصفوة من ذلك الجيل، الذي حمل لواء الفكر الإسلامي في أصفى وأنقى ما عرف الباحثون في العصر الحديث.

أما الشاعر العربي الكبير "بدوي الجبل" فخاطبه بقوله: إنك يا أخي وسيد لتزين كرامة الشام بكرامة عبقريتك، وتجمل تاريخ الشام بجمال ألمعيتك، وتجمع إلى التفرد بقدسية القضاء، التفرد بقدسية الوفاء، وشموخ الأدباء، والعلم عندك واسع عميق، ولكنه لا يتكبر ولا يتعالى، لأنه واسع عميق".

آذنت شمس المفكر الأديب بالمغيب، في الرابع والعشرين من أيلول عام ١٩٩٥، فرحل الدكتور الخطيب ليودّع مجمع اللغة العربية علماً شامخاً من أعلامه، وليوسده الوطن ركناً حميماً في صدره، مجللاً بأكاليل الاعتزاز والفخر والتقدير.

المصادر:

- معجم المؤلفين السوريين: عبد القادر عياش.
- مجلة مجمع اللغة العربية: أعداد متفرقة.
- عبقريات وأعلام: عبد الغني العطري.



د. شكيب الجابري :

الرواية التي هزت المجتمع بالاستنكار

نشرت مجلة "المقتطف الأدبية المصرية بعيد صدور رواية" نهم" عام ١٩٣٧ دراسة مطولة للرواية، اختتمتها بالعبارة التالية: "هوذا نجم أشرق في سوريا، يشير إلى ميلاد جديد في عالم القصة، وينقل الرواية العربية إلى مستوى عالمي"... ولم يكن ذلك النجم المشرق غير الروائي الأديب د. شكيب الجابري، الذي بدأ مع روايته تاريخ القصة الفنية في سوريا..

عاش الجابري حياة حافلة بالأحداث والوقائع والمغامرات في حقول السياسة والفكر وإعمار الطبيعة ... وقد كان ولادته بمدينة حلب عام ١٩١٢، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في "عاليه" اللبنانية وبالكلية الإسلامية ببيروت، وبعد تخرجه يتنقل بين سوريا وأوروبا من أواخر العشرينات وإلى أوائل الأربعينات، ونال خلالها شهادة الهندسة في الكيمياء من جامعة برلين وأتقن عدة لغات.

اتصل "الجابري" برائد العمل الوطني الأمير شكيب أرسلان، وشارك معه في العمل السياسي الوطني، فكان خطيب التظاهرات بباريس عام ١٩٣٥، دفاعاً عن القضايا العربية، واستقلال سوريا بوجه خاص، وجابه بجرأة وحماس غلاة الصهيونية، وتعرّض لأذاهم، وفنّد أكاذيبهم بإيمان صادق بعروبته وتاريخه ودينه.

افتتح "الجابري" عام ١٩٣٧ عهد الرواية الفنية السورية بإصداره روايته الأولى "نهم" وقد أحدثت هزة في أوساط القراء العرب، وقوبلت باستنكار قوي في سوريا ومصر، وعُدّت من "الأدب المكشوف" وذلك لأن أحداثها دارت في جو أوروبي بالكامل، وأسماء أبطالها ومواقع أحداثها ألمانية غالباً، وبطلها "كازاروف" ذو ثقافة غربية وأدبية وفنية، وتستمد الرواية حبكتها من علم النفس الفرويدي، في حين أن موضوعها يوضح قول الشاعر الألماني "غوتة": "الأنوثة الخالدة تجذبنا أبداً"

وقد أثبته الجابري على غلاف روايته، ولكن العاصفة ما لبثت أن هدأت، وبدأ استحسان النقاد والأدباء للرواية بالظهور في دراسات نقدية وبحوث مال أغلبها إلى تقدير أهمية الرواية، واعتبارها تجربة غنية في الأدب العربي، دلّلت على تمكن الدكتور شكيب الجابري من فن الرواية، وعلوّ كعبه، وقد ذكر بنفسه أن الرواية كانت محاولة متعمدة منه لإحداث هزة في وسط القراء العرب وشدهم إلى لون من الأدب الروائي الغربي الذي كان شائعاً أيام ذاك.

ظهرت بعد عامين رواية "الجابري" الثانية: "قدريلهو" عام ١٩٣٩ وأعقبها برواية ثالثة عام ١٩٤٦ بعنوان "قوس قزح" وكان موضوع الروايتين حب شاب شرقي لفتاة ألمانية.

وأصدر "الجابري" في عام ١٩٦٠ روايته الرابعة: "وداعاً يا أفاميا" وكانت مثل سابقاتها تأكيداً للخط الفكري الفني والتماسك لدى المؤلف، ودلّلت على وعيه لأهمية عمله وإخلاصه لفكرة إحداث تغيير في مسيرة الأدب العربي المعاصر، وقد ذهب الأمر بأحد النقاد إلى القول، بأنه قرأ سبع روايات عالمية، مُنِح أصحابها "جائزة نوبل" في الأدب، ولم يجد في تلك الروايات واحدة استطاعت الارتفاع إلى مستوى "وداعاً يا أفاميا": [إن هذه الرواية – يقول الناقد – أعمق فكرة، وأعظم فتنة، وأشد إثارة، وأوسع أفقاً وإنسانية من كل ما قرأت].

كانت حياة "الجابري" مسيرة متواصلة حافلة بالأحداث والتنقلات، وكان عربياً يأنف الضيم ولا يرضى أن يُغمزَ من جانب قومه أو دينه أو عروبته، ولاسيما في بدء مجابهته للرأي العام الأوروبي في مطلع الثلاثينات، إذا اكتشف عالماً جديداً قائماً على مقولات التفوق العرقي والتاريخي والحضاري ومنطلقاً من أوهام المركزية الأوروبية التي تصور لأصحابها، أن العالم كله كان – ويجب أن يبقى – دائراً في فلك الفكر والحضارة الأوروبية، ومن هنا دارت روايات الجابري، حول محور واحد هو الصراع بين الشرق والغرب، بين تقاليد الشرق وقيمه العريقة وبين مفاهيم الغرب وعناصره الحضارية المختلفة، وأبطال الجابري شرقيون يحاولون

التأكيد على أن الغرب ليس بديلاً للشرق، ولا يجوز أن نتخذه نموذجاً في الحياة بما يطرح من أفكار، ويقدم من صورة العلاقات والتعامل بين الناس ... بطل "تهم" مثلاً: شرقيٌّ عاشق لوطنه - وهو الجابري على الأغلب - يدافع عن أصالة بلده وعراقة قيمه، والغربي يجادل لتأكيد حضارة الغرب وسبقه، ويحاول البطل أن يكون منصفاً حين يؤكد أنه يمكن للشرق أن يتأثر بتقدم الغرب ونهضته، تماماً كما تأثرت أوروبا بحضارة العرب المسلمين، أيام نقلت عن علمائها منجزاتهم الرائدة في سائر ميادين الفكر والإبداع ... شرط أن يبقى الشرق محافظاً على أعرافه وتقاليده ويتمسك بها باعتبارها هويته الأصيلة.

على أن رحلة "الجابري" في عالم الأدب والرواية لم تستمر طويلاً، فقد شغلته أنشطة كثيرة متنوعة، صرفته عن التأليف فعدا عن المناصب المتعددة التي شغلها في الدولة كمدير للمطبوعات والإذاعة، والتدريس، وعمله في السلك الدبلوماسي وإصداره لمجلة "العالمان" وبعدها "أصداء".. فقد كان عشقه كبيراً للطبيعة وما تحفل به من الجمال والنقاء، فقام بإعمار منطقة جرداء في جبل الزبداني، وحّلها بروح الفنان إلى جنة وارفة، أعطاها سنوات من عمره وجهده لتغدو معجزة عمرانية بديعة الأناقة والانسجام، وكانت "تلة الكوكو" على جبل الزبداني أمتع رواية واقعية ألّفها الجابري في حياته.

"وأمضى الجابري" سنوات عمره الأخيرة حالماً بتحقيق مطامح عملية متنوعة، وإن كان في داخله شاخصاً إلى اللحظة المناسبة لمعاودة النهوض بمشروعه الفني، وكان كل من حوله من أصدقاء ومعجبين يوقظ تلك الرغبة في نفسه، ويحثه للعودة على الكتابة، ولكن خوفه من الهبوط عن المستوى الراقي الذي بلغه في ما قدّمه من إبداع، إضافة إلى انقطاعه الطويل عن تطورات لغة الإبداع، أوقعه في شرك التأجيل، لعل اللحظة المنشودة تأتي في قابل الأيام.

وكانت سعادته تتوهج حين يهدي له الأدباء الشباب بواكير نتاجهم، ويبدي إعجابه بما يقرأ، ثم ينصرف عن تلك الأعمال انصراف من لا يجد فيها كبير غناء.

عاش "الجابري" صديقاً طيباً ودوداً، متقد الوطنية، شديد الحيوية، برؤيا مجنحة وطموح متجدد، وحين رحل في الثالث عشر من تشرين الأول عام ١٩٩٦ دفن بالبقيع قريباً من المدينة المنورة، فودعت سوريا برحيله مفكراً علماً رفع شعلة النهضة، وظل وفياً للمبادئ الشريفة حتى آخر عمره.

المصادر:

- أخيراً ثوى: د. حسام الخطيب/الفيصل ٢٤٨.
- عبقريات: عبد الغني العطري.

إمعان في الاغتراب عن المناخ العربي

كان الجابري عربياً قلباً وفكراً وأعصاباً، وقد تبدى لنا هذا بوضوح في أعماله كلها، وهو على خصوصيته العربية هذه، يمتاز بعقل شمولي من الوجهة الإنسانية!.

قدم الجابري أحداث روايته الأولى (نهم) بأسماء غير عربية، وفي مناخات وتقاليد أوروبية، قاصداً من ذلك إبلاغ رسالة يؤمن بها دون أن يدع سبباً - للأقلام الزمنية - في ترصد رسالته والنيل منها.

بعد (نهم) كتب الجابري (قدر يلهو) ثم (قوس قزح) ثم (وداعاً يا أفاميا) بتسلسل زمني يرد على هذا النحو (١٩٣٧-١٩٣٨-١٩٤٠-١٩٦٠)، أي أنه صمت طويلاً بعد روايته الثالثة ليقدم لنا روايته الرابعة والأخيرة ليعود إلى التزامه الصمت عن العطاء الإبداعي حتى وفاته في العام ١٩٩٦.

احتوت رواية الجابري الأولى على عدد من الرسائل تتوجه بها فتيات إلى الشخصية المحورية في الرواية (إيفان كوزاروف) تتحدث كل منهن عن دور هذا الـ (إيفان) في حياتها، وانعكاس هذا الدور عليها شخصياً، ولقد نوع المؤلف في رسم شخصيات الفتيات من حيث الدوافع والاندفاعات، والمكانة المجتمعية والاجتماعية لكل منهن، ومثلما كانت تسمية الشخصية المحورية أجنبية، كانت تسمية نسوة الرواية، أمثال: ايفلين، غريتل، هيرتاه، دورويتا، هيلدا كارد هتزنجر.. وسواهن.

ولطالما لاحظ نقادنا الأسبقون إمعان هذه الرواية في الاغتراب عن المناخات العربية، وأسف بعضهم أيما أسف على هذا، حرصاً منهم على ما تميز به هذا النص من فن رفيع، نماء وبناء، إلا أن الناقد ابن ذريل كان من القلائل الذين لاحظوا ضرورة تغريب هذا النص انسجاماً مع الزمن الذي صدر فيه، فقال بعد وقت كاف على صدوره: (إني أتصور الآن، ما عسى أن يكون هذا النتاج الروائي الأول، في أدبنا العربي السوري، أو أيضاً ما عسى أن يكون أثره في الجمهور

الأدبي والقصصي آنئذ، لو أن صاحبه جعل شخوصه عربية، وسورية، أو جعل أحداثه تتسلسل في بيئة عربية وسورية)، ثم تساءل: (أو ليس في مجتمعنا العربي السوري، آنئذ، أمثال هذه الشخوص، المغامرة والعاطفية، والمتأبية على المرأة، والحب والضائعة بالأحرى).

في (قدر يلهو) رواية الجابري الثانية نجدنا هذه المرة أمام اسم عربي، هو (علاء) بيد أننا سنكون معه في بلد غربي، ألمانيا تحديداً، وبرلين منها على وجه الخصوص، في هذه المدينة يلتقي (علاء) بفتاة حكمت عليها ظروف التفكك الأسري بالتشرد، فيؤويها في بيته، ويطعمها ويسقيها، ثم تتنامى العلاقات الإنسانية في الرواية صعداً ناقلة عبرها، شهامة هذا العربي وفروسيته، لتعكسها على نفسية (إيلزا) تلك الفتاة التي غدت الآن بعد التشرد تقيم في مسكن وتتناول الطعام دون مقابل، ثم إن (علاء) الذي صارت (ايلزا) بفضله تحب قومه وتراثه، يسعى لها في برلين عن عمل، فيوفق إليه، وهكذا تصبح (إيلزا) عاملة تتقاضى أجراً.

في (قوس قزح) الرواية الثالثة للجابري نرى متابعة لحياة (ايلزا)، بل نجد صورة بانورامية لتلك الحياة عبر المذكرات.

بعد هذه الرواية توقف الجابري عشرين سنة ليقدم بعدها روايته الأخيرة (وداعاً يا أفاميا) التي أغرم بها الباحث حسام الخطيب فخصها بدراسة وافية عبر منظاره النقدي، ومنذ صدور هذه الرواية في العام ١٩٦٠ حتى وفاته في العام ١٩٩٦ لم نقرأ له أي نص روائي جديد، لكننا سنفاجأ في العام ١٩٨٨ بما وصف بأنه (صياغة جديدة) لرواية (قدر يلهو) فلماذا هذه الصياغة؟!.



د. جودت الركابي:

إشراق الرأي وصدق الأحكام..

هو أستاذ عملاق، وأديب بارع، انحنى تلامذته أمام تجربته العميقة، وخبرته الواسعة، وفكره المتميز وقبل هذا كله أمام تواضعه الكبير، وسماحته ووقاره.

الدكتور جودت عمر الركابي أديب وباحث ومرب وأستاذ جامعي، ولد في دمشق عام ١٩١٣، وتلقى دراسته الابتدائية والإعدادية والثانوية في مدرسة التجهيز التي كانت تسمى (مكتب عنبر) وحصل على شهادة أهلية التعليم الابتدائي عام ١٩٣٣، وشهادة البكالوريا الثانية (قسم الفلسفة) عام ١٩٣٤ بدرجة جيد جداً.

- بدأ حياته العملية معلماً في مدارس دير الزور بين عامي ١٩٣٥ - ١٩٣٧، ثم نقل إلى دمشق ومارس التعليم فيها بين عامي ١٩٣٧ - ١٩٣٨.
- أوفد إلى فرنسا عام ١٩٣٨ لمتابعة دراسته العالية، فنال شهادة الليسانس في الآداب من جامعة السوربون في باريس عام ١٩٤٧ بتقدير مشرّف جداً، وبعد أن عاد إلى دمشق عين مدرساً للغة العربية وآدابها في عدد من ثانويات دمشق، ودور المعلمين والمعلمات، وفي عام ١٩٥٠ عين موجهاً أول للغة العربية في وزارة التربية، وأسهم إلى جانب التدريس والتوجيه في تأليف عدد من كتب الأدب واللغة والبلاغة والمطالعة للمدارس الثانوية.
- بدأ التدريس في جامعة دمشق منذ عام ١٩٤٩ بصفة أستاذ محاضر في كلية الآداب وقام بتدريس مادة الأدب الأندلسي لأول مرة ثم أصبح عميداً لكلية التربية حتى نهاية عام ١٩٧٤ حيث أحيل على التقاعد.
- أوفد للتدريس في جامعة قسنطينة - الجزائر - فقام بتدريس مادتي الأدب الأندلسي والمغربي بكلية الآداب حتى نهاية عام ١٩٨٧، واسهم هناك في حملة التعريب.

- عاد إلى دمشق عام ١٩٨٧ وتابع نشاطه في ميدان الأدب والتأليف.
- شغل الدكتور الركابي منصب أمين سر جمعية الأدباء العرب التي تأسست في دمشق عام ١٩٥٩، وعمل عضواً في اتحاد الكتاب (جمعية النقد الأدبي) الذي تأسس عام ١٩٦٩، ومشرفاً على عدد كبير من طلاب الدراسات العليا الذين يعدّون شهادتي الماجستير والدكتوراه.
- شارك في عدد كير من المؤتمرات والملتقيات الأدبية والثقافية في دمشق وبغداد والقاهرة والكويت، ومؤتمرات الافروآسيويين التي انعقدت خارج الأقطار العربية، كالمؤتمر الأول للشعر الذي عقد في مدريد اسبانيا في كانون الأول عام ١٩٨٩، والملتقى الدولي لدراسة النص الأدبي في ضوء اللسانيات الذي عقد في جامعة قسطنطينة في كانون الأول عام ١٩٩٣، وألقى عدداً من المحاضرات في الجامعات والأندية العربية والأجنبية، ونشر طائفة من البحوث والدراسات والمقالات الأدبية والنقدية في الصحف والمجلات العربية والعالمية، وكان له حضور أدبي ملموس في الأوساط الأدبية العربية والعالمية، ولا سيما في ميدان الأدب.

عكف الدكتور الركابي على التدريس بجامعة دمشق، وأشرف سنوات على مناقشة الرسائل الجامعية في الأدب الأندلسي، وكان على الدوام يحلق عالياً في ملاحظاته القيمة وفي نقده لتلك الرسائل، وكانت آراؤه وملاحظاته دقيقة وفاصلة لا لبس فيها ولا غموض، يعرف المختص وغير المختص، وقد عرف بصدقه في أحكامه، لا يجامل ولا يداهن، ويقول الحق ولو على نفسه.

وكانت آراؤه واضحة مشرقة، يشير إلى الخلل مفنداً له، ومعطياً البديل المنطقي والموضوعي، ثم يقدّم حكمه الصادق.

آثاره الأدبية:

أسهم الدكتور جودت الركابي – إلى جانب عمله في التدريس والتوجيه – في تأليف وتحقيق عدد من كتب الأدب واللغة والبلاغة والمطالعة للمرحلتين الثانوية والجامعية ومنها:

١- الشعر الدنيوي في العصر الأيوبي وممثلوه الأساسيون (باللغة الفرنسية).

٢- دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك (تحقيق).

٣- في الأدب الأندلسي عدة طبعات منذ عام ١٩٦٠، ويعد مرجعاً مهماً في هذا الميدان.

٤- الطبيعة في الأدب الأندلسي.

٥- الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار.

٦- طرق تدريس اللغة العربية.

٧- مبادئ تخطيط التعليم (ترجمة).

٨- الوافي في الأدب العربي الحديث (بالاشتراك).

٩- الأدب العربي ونصوصه (بالاشتراك).

١٠- منهج البحث الأدبي في إعداد الرسائل الجامعية.

١١- بحوث في الموسوعة الإسلامية الفرنسية والإنكليزية.

شكل إنتاج الدكتور الركابي ثروة فكرية، وخاصة في مجال الدراسات الأندلسية عامة، والأدب الأندلسي خاصة، وكتابه ((في الأدب الأندلسي))، الذي طبع لأول مرة بجامعة دمشق عام ١٩٥٠ يعّد مرجعاً هاماً من مراجع الأدب الأندلسي.

وهو في الأصل محاضرات ألقاها على طلاب شهادة آداب اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة دمشق على مدى عدة سنوات، درس فيه الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية لبلاد الأندلس بشكل عام، وصور حياة الشعراء الأندلسيين وبيئاتهم الثقافية بشكل خاص، وقد كانت الحياة الأندلسية غامضة الجوانب قليلة

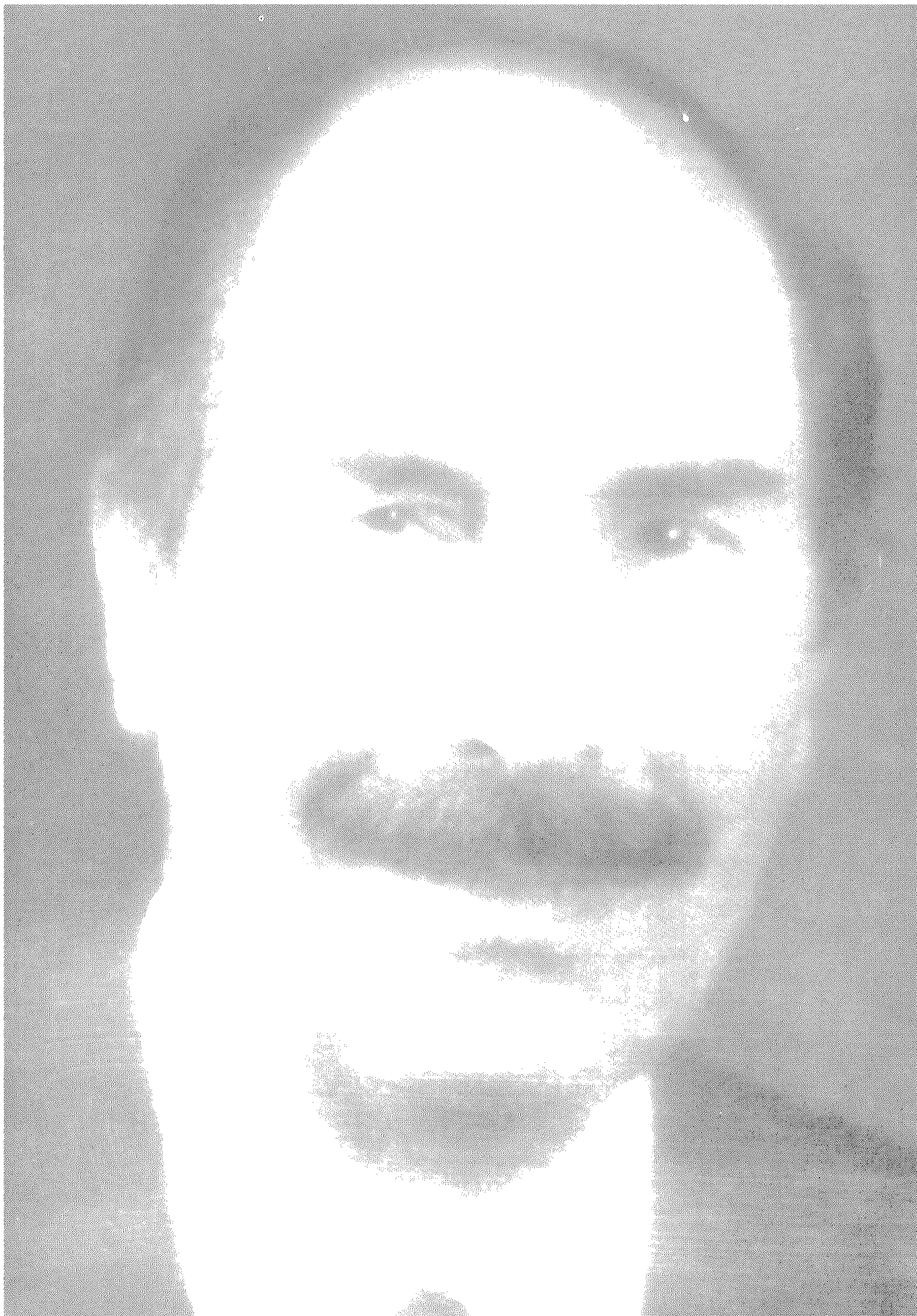
المصادر، ولذلك أفاض في وصفها بعض الشيء، لأن تفهم البيئة في رأيه يجب أن يعيره مؤرخ الأدب أقصى اهتمامه.

ثم عرض بشكل موجز الأغراض الشعرية الهامة التي طرقها شعراء الأندلس، ووقف بشكل خاص عند شعر الطبيعة، فأوضح بواعثه، وذكر خصائصه وأورد طائفة من المنتخبات الشعرية لبعض أعلامه أمثال ابن حمديس الصقلي وابن خفاجة الذي كان يلقب بـ (جنان الأندلس) وغيرهما ... كما بين أن هذا الأدب لم يعش فقط بين جدران القصور، بل عاش أيضاً في رحاب الرياض والبساتين الأندلسية، وجاء ثمرة لتلك الطبيعة الساحرة التي عرف الشاعر الأندلسي كيف يصف جمالها، وما دار من لهو وطرب ومرح في ظلالها، في كثير من الحذق والفن والأصالة.

ثم قدم في شخص ابن زيدون مثلاً للشاعر الأندلسي، ولذلك درسه بروح جديدة عكست أصالته الأدبية ورسمت خصائص الشعر الأندلسي الذي بقي على الرغم من جدته، ينظر إلى الشرق في شوق ولهفة.

وبين أخيراً الميزة التي انفرد بها أدب الأندلس عن أدب المشرق، فقام بدراسة الموشحات، هذا الفن المستحدث الذي غذته طبيعة الأندلس الجميلة وجادت به عبقرية العرب الخالدة.

كان رحيل الأديب القدير الدكتور جودت الركابي في الحادي عشر من أيار ١٩٩٩، بعد مسيرة حافلة بالعطاء، فكان جديراً بتقدير الوطن، واحترام الأجيال.



عاصم البيطار:

مسيرة نصف قرن من العمل الدائب
في محراب اللغة العربية المقدسة

كان في الخامسة والسبعين من عمره، مديد القامة، مهيب الطلعة، بشوش المحيا، حين اعتلى منصة مجمع اللغة العربية، يوم الثاني عشر من كانون الثاني عام ٢٠٠٤ الماضي، ليحمل وسط تصفيق الجمهور الحاشد من الباحثين والمؤرخين شارة المجمع، ترصّع صدره، معلنة انضمامه على أعضاء مجمع الخالدين ... وكان "عاصم البيطار" في اللحظة ذاتها يختزن في عقله وقلبه ذخيرة من ألق الفكر والعلم المفيد، ومن إشراق اللغة وجزالة البيان ... وكنت في الحضور مصغياً تتقلني خواطري بين كلماته في رجال العالم الخالدين، وبين مسيرته الغنية بالعمل الدائب، والنشاط الكبير في خدمة اللغة العربية والنحو والبلاغة والبيان العربي الرفيع.

أساتذته أعلام اللغة والأدب: نشأ "عاصم البيطار" في أسرة علم وأدب وصلاح، جدّه الشيخ: عبد الرزاق البيطار ووالده علامة دمشق الشيخ محمد بهجت البيطار، وكان من العلماء الأجلاء في اللغة والأدب، ومن أكثر أعضاء مجمع اللغة العربية همة وحيوية ... وقد ترعرع "عاصم" في ظلال هذه الدوحة، يرتوي من ينبوع الفصحى، ويجني من ثمرات المعرفة اليانعة ... تلقى تعليمه الابتدائي بمدرسة "خالد بن الوليد" في حين الميدان بدمشق، وكان من بين أساتذته فيها: الشيخ زين العابدين التونسي المحقق والمؤلف، و"قاسم القاسمي" شقيق علامة الشام الشيخ "جمال الدين القاسمي" كما تتلمذ على يد الأديب الشاعر أمجد الطرابلسي، وفي المرحلة الثانوية نال شهادة "القسم الأول" " العلمي" عام ١٩٤٧، ثم حصل على شهادة القسم الثاني "الفلسفة" وتوج تحصيله بالإجازة في الآداب من قسم اللغة العربية، والإجازة في

التربية والتعليم العليا عام ١٩٥٢. وحين تقدم للانتساب إلى دار المعلمين العليا، قابل لجنة من ثمانية أعضاء اختبرته في كتاب: "حياة محمد" لمحمد حسين هيكل، وناقشته في مسألة الوحي ونزول جبريل على الرسول الكريم صلى اله عليه وسلم، فنالت أجوبته تقدير اللجنة، واجتاز الامتحان بنجاح مشهود.

عمل بعد تخرجه في التعليم الثانوي بدمشق، ثم انتقل إلى قطر مفتشاً للغة العربية، ثم إلى السعودية ليدرس اللغة في كلية اللغة العربية، وانتدب بعد عودته عام ١٩٧٠ لتدريس النحو والصرف بجامعة دمشق ولمدة ١٧ عاماً ... وبعد تقاعده طلب للعمل مجدداً للتدريس بجامعة الملك سعود في المملكة الشقيقة، وعمل في الفترة نفسها في تقويم البحوث الفكرية وتدقيقها لمجلة "الفيصل" الثقافية .. ثم ليعود أخيراً إلى دمشق مختتماً بذلك مسيرة نصف قرن من الدأب والجد في التعليم والتأليف.

كتاب في النحو مقرر ٣٠ عاماً:

احتل "عاصم البيطار" منبر التعليم في المدارس والجامعات سنوات كثيرة، محاضراً منصفاً بالثقافة الواسعة، والعلم الغزير، والباع الطويل في علوم اللغة العربية وآدابها ... وقبل ذلك بالأخلاق العالية والإنسانية الرفيعة، وقد شغف طلابه بأسلوبه الشائق في التدريس، الذي قرّب أذهانهم القواعد والنحو، وحببهم باللغة العربية الفصحى، وظل كتابه في مادة " النحو والصرف" مقرراً على طلبة الجامعة لأكثر من ثلاثين عاماً، يعلّمه الأساتذة بدون تعديل، لما يجدون فيه من سهولة العبارة وبساطة الأسلوب، وما يزال طلابه – مدرّسو اللغة العربية اليوم – يذكرون ما تمتع به "البيطار" من دماثة الخلق، وروح الدعابة والنكتة الحاضرة الممتزجة بالعلم الواسع ... فكان الشاهد أو المثل حاضراً ومرتجلاً ومن صميم الواقع المحيط بالطلاب، وما تزال أبهاء المدرج الأول بكلية الآداب تردد صدى صوته المميز، وكذلك صورته واقفاً مهيباً يزوّد طلابه بما تختزنه اللغة العربية من بيان مشرق،

وبلاغة رفيعة، وقوة تعبير متميزة، وكان يحضهم على الاهتمام بها، وصونها من سهام الأعداء المسمومة التي تخطط لتشويهها وبالتالي طمس هوية الأمة العربية.

عمل دائب في التحقيق والتأليف:

أصدر "عاصم البيطار" مجموعة من مؤلفاته في اللغة والنحو، ومن بينها: "التسهيل" و"الدليل" و"المنهج الجديد" وشارك مع آخرين في السعودية بتحقيق "شرح ابن عقيل على الألفية" فصدر في ثلاثة أجزاء ... وكان "البيطار" معجباً بكتاب المفصل في النحو، للزمخشري، وشرحه لابن يعيش بأجزائه العشرة، فقام بتصنيف: فهارس من شرح المفصل لابن يعيش وصدر عن مجمع اللغة العربية ... وله في التحقيق أيضاً: الفصل المبين في علوم الحديث و"موعظة المؤمنين..

عاصم البيطار، شكراً:

لم يحل المرض بين "عاصم البيطار" وبين مثابرته على العمل في التدريس لآخر فترة من حياته، وكان يتنقل بهمة ونشاط بين "مجمع النور" و"الموسوعة العربية" ويعطيهما من دأبه ونور عينيه، وقبيل رحيله بشهر واحد، تفضل علي - وبأريحية غامرة - فدقّق كتابي" من جواهر البيان العربي" وقد تتبع صفحات الكتاب ودققه كلمة كلمة مصوّباً ما وجد من عثرات، وطوق عنقي بمقدمة جاءت آية في اللطف والمحبة، وفي اليوم الذي توجهت فيه إليه لأهديه نسخة مطبوعة من الكتاب ... كان هو قد التحق بالرفيق الأعلى، مودعاً بعرفان طلابه ورفاق دربه، وتقدير أمته التي تكن الفخر والاعتزاز لأبنائها العاملين الأوفياء ... ومطوقاً بدعاء القلب أن يجزيه الله تعالى خيراً عن عمله المثمر، ويثيبه مغفرة ورضواناً.

التلوث في العقول والقلوب .... والعلاج موجود

لا يمر يوم دون أن تتردد فيه كلمات التلوث مئات المرات ... فوسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية تحذر من مشكلات التلوث، ووسائل الاتصال جميعاً تنذر بعواقب التلوث الوخيمة، والندوات تعقد، والمؤتمرات تكثر، والاجتماعات تتعدد، والدراسات تحاول الإحاطة بالمشكلة من جميع جوانبها، والدول تسارع إلى اتخاذ وسائل السلامة، وتكثر من اصطناع سبل الأمان، غير أن التلوث يزداد في كل يوم، يكتسح البر والبحر، ويفسد الماء والهواء، ويهلك الحرث والنسل.

أقول هذا الكلام وأمامي مسودة التوصيات التي صدرت عن المؤتمر الإقليمي: (من بحر إلى بحر/حول الاستخدام المستدام للبيئة البحرية) وقد حضره أكثر من خمسين ومئتي مشارك من ممثلي الحكومات والبلديات من منطقتي المنظمة الإقليمية لحماية البيئة البحرية، والهيئة الإقليمية للمحافظة على بيئة البحر الأحمر وخليج عدن.

لقد تحدث المؤتمرون طويلاً عن التلوث الذي يصيب مياه البحر والمحيطات، فيؤثر تأثيراً بالغ السوء في الأحياء المائية، وتقدموا بتوصيات كثيرة دعوا العالم بحرارة أن يأخذ بها، لما في ذلك من إيقاف لزحف التلوث المروع، وتنشيط السياحة الساحلية، وترشيد الإنفاق في استعمال مياه البحر.

أنا لا أدعي أنني خبير في هذا الميدان، ولا أصدر في رأيي عن دراسة محكمة للبحر وشؤونه، والبر وشجونه، والعالم وآلامه، ولكنني إنسان يحس بفطرته السليمة أن هذه التوصيات وأشباهها إنما هي مظهر من مظاهر الدفاع عن النفس لشدة الإحساس بالذنب.

إن التعاون بين الحكومات والمنظمات الإقليمية والقارية والعالمية مدعو إليه، ولكن كيف السبيل إليه والأطماع تملأ القلوب، وحب السلطان يستعبد النفوس، هم صنعوا مشكلات التلوث، وهم يلهثون لحماية أنفسهم قبل غيرهم منها.

كم قرأنا عن تلوث أفسد حياة الناس في البر والبحر والجو؟ وكم روعنا الخطر الماحق الذي نشر سرطان الجلد بسبب ثقب أحدثوه في طبقة الأوزون الذي يغلف الأرض، ويمتص من أشعة الشمس ما هو ضار، ويسمح بمرور ما هو نافع بتدبير إلهي محكم؟!!

ما أكثر المؤتمرات والندوات والدراسات في الشرق والغرب، ولكني أتساءل لم يخطر في بال أحد من هؤلاء أن يقترح عقد ندوة باسم : ندوة معالجة تلوث العقول والقلوب، وحماية الضمير؟!

لقد خلق الله الدنيا بما فيها من منافع وثروة وخيرات، وسخرها جميعاً تسخير تمكين وانتفاع، واقتضت حكمته تعالى أن يخلق فيها من يستعمرها ويفيد من خيراتها، ويحافظ على نعم الله فيها...

لقد اختار الإنسان ليكون خليفته في الأرض، ولكن الإنسان خان الأمانة، وعاث في أرض الله فساداً.

أرسل الله الرسل مبشّرين ومنذرين، فآمنت طائفة وكفرت طائفة، غير أن العالم بقي رازحاً تحت سطوة الجبروت والعدوان.

يقول رب الناس وخالقهم لعبيده: (وتعاونوا على البر والتقوى...) (المائدة:٢) فلا يتعاونون إلا على الإثم والعدوان، ويقول لهم خالقهم: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم..) (الحجرات:١٣) فتناكروا، وجعلوا مقياس الكرامة هي القوة والقدرة على مد السلطان، واستبعاد الخلق، وكتم أنفاس المسالمين، علمهم الله أن يكونوا في دنياهم الجميلة إخواناً، فأبوا إلا أن يكونوا سادة وعبداناً، خاطب عقولهم التي خلقها نعمة لهم وسماهم: ذوي الألباب الذي يخلصون العبادة لله حمداً وشكراً (ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك..) (آل عمران:١٩١) فتاهت عقولهم، وجحدوا فضل ربهم، وملؤوا الدنيا كوارث ودماراً، وزرعوا في الفضاء مركباتهم وأقمارهم الصناعية للتجسس، وبث برامج الخلاعة والتهتك ..

كسا أرضهم خضرة نضرة، وأنبت لهم – جلت قدرته – الأشجار يستظلون بظلها، ويأكلون من ثمرها، وتعمل على تلطيف الجو، وتنقية الهواء الذي نستنشقه استدامة للحياة، فأحرقنا الخضرة، واستأصلنا الأشجار، وقطعنا عيدانها وجعلناها أدوات لقتل الحياة.

كلما أنبت الزمان قناة ركَّب المرء للقناة سناناً

إن العالم تعلو صرخاته حتى تبح الأصوات، يحذر من مرض الإيدز، وانتشار السرطان، وفك الأمراض الاجتماعية من فساد في العلاقات بين الناس، وتفكك في الأسر، وإباحية في الأخلاق، وهتك للأعراض، ووأد للمروءات في مستنقعات الخمور والمخدرات.. أليست قوانين البشر هي التي مهدت لذلك كله، ثم راحت تحاول عبثاً رأب الصدع بعد أن اتسع الخرق على الراقع، إنها لن تفلح أبداً لأن الارتفاع صعب المرتقى، ولأن الهبوط مزلق سهل.

فتح الله لهذا الإنسان أبواب العلم على مصاريعها، وأمره أن يخوض غمارها، ويتتبع حقائقها لعمارة الأرض التي استخلفه فيها، غير أنه اكتشف تفتيت الذرة، فصنع منها قنابل جهنمية خرب بها الديار، وقضى على الأعمار، وخلّف بعد ذلك مئات الألوف من المشوهين والعجزة الذين يرون بطن الأرض خيراً من ظهرها، بنوا البواخر، وسيروها بالطاقة الذرية، ولكنهم أثقلوها بالمدافع والصواريخ وراجمات النار والدمار، أحكموا صنع الطائرات فاستعملوها فيما ينفع الناس، ولكنهم سلحوها أيضاً فحملوا فيها الموت الزؤام.

لقد خنت الأمانة أيها الإنسان، ولم تحمد الله على الدرجة الرفيعة التي يسرها لك فجعلك في أرضه، مؤثراً إياك على ملائكة قدسه الذين لا يكفرون ولا يعصون، والذين يذكرون الله ليل نهار لا يفترون، يقول سبحانه: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال: إني أعلم مالا تعلمون). (البقرة ٣٠).

لقد خنت الأمانة أيها الإنسان فلا عجب إن وصفت بالجهل والظلم، يقول الله تعالى: (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً). (الأحزاب:٧٢).

شعوب مستضعفة يفتك بها الجوع، وتأكل أجسادها الأمراض، وأخرى تسبح في النعيم، وتنفق على لذائذها ما .. لو حول جزء منه إلى أولئك لعاش الجميع في نعمة وسلام.

شعوب يمنع عنها سلاح تدفع به عن نفسها العدوان، وأعداؤها يغذون بالسلاح من كل مكان، ولا ذنب لهاتيك الشعوب إلا أنها تقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ما كان إبليس اللعين في يوم من الأيام أسعد حالاً منه في زماننا هذا، فقد كثر أعوانه وزبانئه، وأحكموا قبضتهم على العالم، وادعوا أنهم رسل الحضارة وبناة التقدم، فهذه فرنسا والصين تجريان تجاربهما النووية ولا تأبهان لاعتراض المعترضين وجماعات السلام الأخضر وحماية البيئة في الدنيا كلها، لأنهما أسلستا قيادهما للشيطان عدو الإنسان الأكبر.

ماتت قلوبهم وتحكمت أهواؤهم: إذا رأوا طريق الحق تعاموا عنه وإذا تذوقوا طعم الباطل استساغوه واستكثروا منه .. لقد ظنوا أنهم غدوا أقوى من عاديات الزمان، ومن سنن الله في الكائنات، ولو عقلوا لأحسوا بالسوس ينخر في أساس بنيانهم، وأنهم صائرون إلى ما صارت إليه أمم أخرى قبلهم:

أتى على الكل أمر لا مرد له   حتى مضوا فكأن القوم ما كانوا

لو تبصروا لاعتبروا يقول الله في كتابه الكريم: (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد، فخر عليهم السقف من فوقهم، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون). (النحل:٢٦).

خلق الله هذه الدنيا وجعلها دار امتحان: (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل

شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفــور) (الملك:١،٢). وملأها بالخيرات والنعم فمن الناس من شــكر ومــنهم مــن كفــر: (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليـزدادوا إثمــاً ولهم عذاب مهين، ما كان الله ليذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميــز الخبيــث من الطيب...). (آل عمران: ١٧٨، ١٧٩).

أليس كل ما مضى – وكثير غيره – لوحات تصور ألواناً من تلوث الضمائر، وفساد القلوب، وضلال العقول؟! وما نفع ناطحات السحاب، وإنشاء المصانع، وشق الطرقات، وبناء ما يسمى بالحضارات إذا كانت تقام بيد، وفي اليد الأخرى وســائل تدميرها وضياع الغاية منها؟! أليس من حق الشاعر أن يقول:


وجبلة الناس الفــساد فــضلّ مــن يــســعى بحكمتــه إلــى تهــذيبها

قال هذا والحياة كانت أفضل حالاً والناس آنــذاك لا يعرفــون أدوات التــدمير الشامل، والحروب الكيماوية والجرثومية، نعوذ بك اللهم من ذلك كله.

أيها الناس: إنكم تسعون إلى الاجتماعات والمؤتمرات لتشخيص المرض بعــد استفحاله، ولمحاولة إيجاد العلاج له بعد استعصائه، فهلا فكرتم مرة فــي الاجتمــاع لدراسة أعراض تلوث العقول والقلوب، وفساد الضمائر؟

إن العلاج موجود: إنه الإسلام، إنه الإيمان، إنه المؤتمر العالمي الــذي يعقــد تحت شعار: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مــسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فــألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقــذكم منهــا، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويــأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون، ولا تكونــوا كالــذين تفرقــوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم) (آل عمــران: ١٠٢، ١٠٥).

لا تلم أحداً أيها الإنسان، بل لم نفسك على انحدارك في الهوة التي تشقى فيهــا، فإنك أنت السبب، وقديماً قيل في المثل: (يداك أوكتا وفوك نفخ).



د. سعيد محمد الحفار:

حمل هموم البيئة، وجاهد لحمايتها طوال نصف قرن..

هذا مفكر من طراز مختلف، وكانت رسالته مختلفة أيضاً...

أوقف جهد عقله، ونبض قلبه لقضية بالغة الأهمية في حياة البشرية: البيئة...

حاله مثل كل الغيورين على مستقبل الإنسان ورفاهه ما تتعرض له البيئة من تشويه وتخريب، وخبر بفكره العلمي ما يجرّه العدوان المتواصل على عناصر الحياة من كوارث وأخطار، فانضم إلى كوكبة العاملين بإخلاص، لنشر الوعي البيئي بكل وسيلة متاحة وفي أي مكان، وتوجيه الجماهير لتعمل على صون البيئة، والتنعم بخيراتها الوفيرة....

عمل في مجالات كثيرة خبيراً وإدارياً وموجهاً ومعلماً ونشر نتاج أعماله وأتاحه للجميع كي يكتسبوا حباً صادقاً للطبيعة، ويكونوا بدورهم مجندين لحماية البيئة والحياة تواصلت مسيرته طوال نصف قرن، ولما رحل أخيراً، كان قد ترك لأمته ثرة من المؤلفات والأبحاث، غنية بالمعلومات والأفكار العلمية، لتكون مرشداً للأجيال في الطريق الطويلة إلى حياة أكثر سعادة، وإشراقاً للأجيال وأمناً وسلاماً..

هو واحد من أبرز علماء سوريا، عمل طوال حياته في مجالات الفكر والتأليف العلمي، وأمضى عمره بين كتبه وأبحاثه.

- من مواليد دمشق عام ١٩٣١.
- حاز على درجة الليسانس في العلوم الطبيعية من جامعة دمشق، وتخرج من دار المعلمين العليا، كما حصل على دبلوم التربية وأصول التدريس، ليمارس مهنة التعليم في ثانويات دمشق لعدة سنوات.

- أوفد للدراسة في بلجيكا (جامعة بروكسل الحرة) وجامعة باريس (معهد باستور) للدراسات تطلبها تخصصه في تحضير دكتوراه دولة في العلوم.
- حصل من جامعة بروكسل على (ليسانس تخصص تأثير الأشعة على الأحياء)، وعلى (دكتوراه دولة في العلوم) (قسم الاختمارات، إنتاج مضادات حيوية، وخاصة البنسلين والستربتوميسين وحمض الليمون) أساس الصناعات كلها تقريباً.
- أستاذ في جامعة دمشق، رئيس قسم العلوم الأساسية في كلية الزراعة، وعضو قسم ما قبل السريالي في كلية الطب،
- أستاذ في جامعة قطر، ومؤسس وحدة الدراسات البيئية فيها.
- عضو عامل في مركز البحوث الأوروبية في (ريكسان سار) في بلجيكا، حيث تتم بحوث الشركات الدولية الكبرى.
- عضو في المجلس الأعلى للعلوم منذ إنشائه ورئيس اللجنة الوطنية للإنسان والبيئة، وعضو مجلس التعليم العالي في سوريا.
- خبير ومستشار خاص لمدة ثماني عشرة سنة في مكتب التربية العربي لدول الخليج العربي بالرياض، خبير في المنظمة الاجتماعية والاقتصادية لغربي آسيا، مستشار لوزارة النقل في سوريا حول البيئة.
- عضو منتخب في البرنامج الدولي للحفاظ على البيئة في جينيف، خبير استشاري دولي في الأمم المتحدة في اليونسكو، خبير في برنامج الأمم المتحدة للبيئة UNDP.
- اختير في مطلع شهر كانون الأول عام ٢٠٠١ مديراً عاماً لهيئة الموسوعة العربية التابعة لرئاسة الجمهورية العربية السورية.
- عمل على إعداد أكثر من ستمائة وعشرين دراسة ونيف، من بينها دراسة محورية رئيسية للمؤتمر العربي الوزاري الأول لوزارة البيئة والتنمية، الذي عقدته جامعة الدول العربية سنة ١٩٨٦ في تونس، بتكليف من الأمين العام

لجامعة الدول العربية.

مؤلفاته:

قام بإعداد سلسلة كتب ميسرة للجمهور على شاكلة سلسلة (ماذا أعرف) صدر منها:

- كتاب عن (الإيدز كمشكلة بيئية عالمية).
- كتاب عن (المخدرات مشكلة العالم الغني والفقير).

كما ألف خلال وجوده في جامعة دمشق عشرة كتب جامعية من مطبوعات الجامعة، وتسعة عشر كتاباً خلال وجوده في الأمم المتحدة منها:

- كتاب (الإنسان ومشكلات البيئة) جامعة قطر ١٩٨١.
- كتاب (نحو بيئة أفضل) دار الثقافة، الدوحة قطر ١٩٩٥.
- كتاب (بيئة من أجل البقاء) دار الثقافة الدوحة، قطر ١٩٩٠.

الموسوعة البيئية الشعبية: وتتكون من عدة برامج توعية بيئية جماهيرية، تم التخطيط لها بشكل حصيف، وتتكون من مائتين وإحدى وثلاثين حلقة تلفازية مدة كل منها ٦٠,٥٧ دقيقة.

تناول البرنامج أهم المشكلات البيئية لمنطقة الخليج العربي والوطن العربي وهي:

١- برنامج أنت والبيئة المعاصرة.
٢- برنامج البيئة والحياة.
٣- برنامج أخطاء تصححها حقائق.

وقد حازت هذه الموسوعة الشعبية في إطار الإعلام البيئي الشعبي على جائزة الإعلام الجماهيري الدولية مع البروفسور جاك كوستو.

يضاف إلى ذلك ست وسبعون حلقة قصيرة بعنوان (رمضانيات) مدة الواحدة منها ١٣ دقيقة.

وقد توج أعماله بإصدار أكبر عمل تأليفي موسوعي في الوطن العربي في مجال البيئة وهو:

- الموسوعة البيئية العربية الكبرى للباحثين: وتقع في (٢٥٠٠٠) صفحة، وقد جاءت في عشرة مجلدات تخصصية + مجلد حادي عشر هو (الدليل)، وقد أعدت في الفترة ما بين ١٩٧٨ ولغاية شهر آب عام ٢٠٠٠.

وقد شرع الحفار مؤخراً بإنجاز مجلدها الثاني عشر يدخل فيها الجديد بالتنمية المستدامة ومشكلاتها، بعد عودته من مؤتمر قمة الأرض في جوهانسبرغ الذي انعقد خخلال الفترة ٢٦/٥ ولغاية ١٢ سبتمبر ٢٠٠٢.

كذلك ألف كتاباً في أحدث العلوم التي تؤكد مسؤولية البيئة في إثارة الأورام السرطانية، كما ألف عدة كتب بتكليف من الإدارة العليا في جامعة قطر منها:

كتاب (هندية الأحياء وبيئة المستقبل) (للدراسات العليا)..

كتاب (المخدرات مأساة البيئة المعاصرة) (دراسة علمية مقارنة لستين دولة من حيث خبراتها لمعالجة الإدمان، ٩٠٠ صفحة)، كتاب (البيولوجيا ومصير الإنسان) سلسلة عالم المعرفة (طبع مرتين).

وكان قد أعد كتابين للأليكسو: الأول: في مجال التربية البيئية، الثاني: في مجال الحفاظ على البيئة.

وأصدر كتابين في مجال علم السرطان البيئي هما: علم السرطان البيئي ١٩٨٣، البيئة والأورام ١٩٩٢.

كما أصدر مع قدوم الألفية الثالث من مجلدات الموسوعة المجلدات: ٦,٥,٤,٣ حتى نهاية عام ٢٠٠٢.

- حقق فكرة استصدار كتيبات إلى جانب مجلدات الموسوعة كإسهام في تثقيف الناشئة من شتى الطبقات في المجتمع العربي، تكون موضوعاتها مما يدور على ألسنة الناس وتثير اهتمامهم، وتكون ميسرة في الأداء وعميقة في بعدها العلمي.

وكان الدكتور الحفار قد أصدر كتابين:
الأول: بعنوان (دراسة مقارنة ل ٦٢ دولة حول معالجة المدمنين على المخدرات) طبع في قطر.
الثاني: وهو بعنوان (دراسة مقارنة لـ ٦٢ دولة حول الوقاية من المخدرات) صدر في الشهر ٨ من عام ٢٠٠٢.
وله كتابان هامان حول هندسة الوراثة ومشكلاتها:
الأول: صدر عام ١٩٨٥ بعنوان (هندسة الوراثة وبيئة المستقبل) للدراسات العليا في قطر.
الثاني: صدر عام ١٩٨٥ بعنوان (البيولوجيا ومصير البشرية) سلسلة عالم المعرفة (طبع مرتان)...

البحوث والدراسات:

للدكتور الحفار بحوث كثيرة في صناعة المضادات الحيوية قام بها لصالح فايرز الأمريكية للعقاقير، له (٤٧٨) دراسة منها (٤٠٣) دراسات أدمجت في الموسوعة، ومنها: الدراسة المحورية باسم الأمين العام لجامعة الدول العربية لأول مؤتمر عربي على مستوى الوزراء لوزراء التنمية والبيئة، تقع في (٥٠٠) صفحة.

- أعد ١٢ دراسة موجزة ومقالات متنوعة في مجال التنمية الحقيقية، التنمية والبيئة، صحة البيئة، العلاقة بين البيئة والأورام، التنمية المستدامة ... نشرت في الصحف والمجلات العربية.
- له باع طويل في مجال التعريب، وله في الموضوع دراسات عديدة متعمقة.
- له العديد من الدراسات المتعمقة في مجال الإصلاح الإداري وما يرتبط به (الملتقيات الإدارية الثلاثة + كتاب (الثورة الإدارية في القرن الحادي والعشرين).

وقد أعدت الدراسات كلها بناء على تكليف من جامعات ومنظمات عربية في

طليعتها الأليكسو، ومنظمات دولية ومراكز بحوث ومركز التربية لدول الخليج العربي، ومجلس الوزراء في سوريا.

المحاضرات والندوات:

للدكتور الحفار برنامج تلفزيوني شعبي بث من دمشق تحت عنوان (أنت تسأل ونحن نجيب) لمدة ساعة أو ساعة ونصف، وله أكثر من ١٨٠ حديثاً إذاعياً في مجالات البيئة لإذاعتي دمشق وقطر.

وله ندوات تلفزيونية عامة في أبو ظبي ودبي والشارقة ودمشق.

قدم العشرات من المحاضرات العامة في دولة قطر، ألقى العديد من المحاضرات العامة المتخصصة في النقابات المهنية، وألقى في مجالات زراعية دقيقة تدور حول الأسمدة والمبيدات، تغذية النبات، العسل الهرمونات الزراعية واستخدامها في تربية، النبات خطورتها، وفي مجالات طبية متعددة.

دعي للجزائر كاستشاري في مشروع هيئة الموسوعة الجزائرية عام ٢٠٠٣، وقدم ثلاث محاضرات علمية.

تكريم وجوائز:

حصل في عام ١٩٨٨ وبعدها في عام ١٩٩٠ على جائزة العالم للبيئة (العالميون الخمسمائة).

ونال على جائزة العالم لتعليم الجماهير بالتربية الحلزونية.

كما حصل على جائزة المدينة العربية بعقد التسعينيات من القرن الماضي مناصفة مع الشيخ زايد آل نهيان أمير دولة الإمارات السابق.

وحدة جوهر الإنسان
والطبيعة تفرض فهماً جديداً للعالم

إن الإنسان ابن بيئته وهو جزء لا يتجزأ منها:

فمن طين أديمها أنسجته وخلاياه، ومن حجارة صخورها شيد أبنيته ومأواه، ومن مائها شرب وارتوى، ومن غذائها أكل ونما، ومن خيوطها نسج واكتسى ...

ورغم ذلك فهو في كثير من الأحيان وكعادته في الجحود والنكران يتصور أن البيئة خصمه، وانه لابد أن يعمل على مواجهتها ليصرعها وينتصر عليها، فهو سيدها المطلق، ولابد إذن من إذلالها وتشويه معالم وجهها العذري.

وكي لا تتباهى بيئته الطبيعية بذلك الوجه الجميل، خيّل للإنسان أنه إذا ما استطاع أن يفسد بدخانه وإشعاعاته هواءها، ويبقر بآلات حفره بطنها، ويلوث بمخلفات صناعاته مياهها، ويقل بكيماويات مصانعه عضوياتها، ويقتلع بمناجله أشجارها، فإنه بذلك سوف يعيش هادئ العين قريرها، وفي غمرة من السعادة وبحبوحة من العيش.

ولكنه حينما وقف ليفرح مزهواً لهذا (الانتصار) وليمايل الرأس غروراً بهذه (الفتوحات) وجد نفسه إنما أفسد عيشته وجلب الوبال على نفسه ومجتمعه، فأحدق به الخطر وركبته الأمراض فعاد يتباكى على بيئته البكر، ومزارعه الخضر وهوائه النقي، ومائه العذب، ومن هنا فقد عملت الموسوعة البيئية العربية، على توضيح فهم جديد للعالم من خلال إدراك (وحدة جوهر الإنسان والطبيعة) وهي نظرة جديدة ثورية إلى الصلة بين الإنسان وبيئته الطبيعية، تستهدف الارتقاء بإطار الحياة في المستقبل، بمكافحة تلوث الأرض، والماء، والهواء، والفضاء، بمخلفات الصناعات المعدنية والكيماوية وفضلات المدن والزراعة والاقتصاد في استهلاك الموارد الطبيعية، ذلك أن التوسع المكاني الهائل، وكذا ازدياد الأنشطة الصناعية والعادات الحديثة التي أوجدتها المدنية، كل ذلك يستثير وفرة هائلة من الفضلات، وأصبحت

معالجة الفضلات موضوع الساعة.

كما ظهرت في العالم بعض الأفكار الفلسفية عن الوجود وعن المادة والشكل وبكلمة موجزة: إن وحدة جوهر الإنسان والطبيعة تفرض فهماً جديداً للعالم، وينبغي أن يستثير العلم والتقنية المعاني الكامنة في الطبيعة، فالإنسان والطبيعة شريكان في الإنتاج، فالمجتمع الصناعي اليوم يلتقي علم البيئة لأن عصرنا اليوم أضحى يوصف (بعصر القمامة).

وإن فكرة الدفاع عن البيئة حافلة بالمعاني المبهمة، وبخاصة أن فكرة البيئة نفسها غامضة، وقد تم إدراك الوحدة بين الطبيعة والإنسان من خلال الأدب، وليس أدل على ذلك من مقال للألماني غوته عن الطبيعة نذكر وجيزاً عنه في الترجمة الآتية.

يقول غوته:

(الطبيعة تحيط بنا وتعانقنا، ونحن عاجزون عن الخروج منها، كما نحن عاجزون عن الغور فيها، تأخذنا في مدارها الراقص دون إنذار وتحملنا في مسارها حتى يصيبنا الإعياء فنسقط بين ذراعيها).

على الدوام تخلق أشكال جديدة: ما يوجد، لم يوجد من قبل، وما كان لا يعود فكل شيء جديد، وبالرغم من ذلك فهو دائماً قديم، نعيش في أحضانه، ولكننا نعيش في أحضانها غرباء عنها، وهي تحدثنا بلا انقطاع، دون أن تفصح عن طويتها، نحن نؤثر فيها على الدوام ولكن لا نملك أمرها، تطبع كل شيء بطابع خاص، ولكن ليس في عرفها شيء خاص، تبني بلا انقطاع وتهدم بلا انقطاع.

إننا أطفالها، لكن الأم، أين الأم؟ إنها الفنانة الوحيدة، فهي تخلق من أبسط المواد أعظم المتباينات، ودون بريق من جهد تخلق الكمال .... كل عمل من أعمالها مخلوق بعينه، وكل ظاهرة من ظواهرها كيان بذاته، وعلى الرغم من ذلك فالكل واحد، تمارس لعبها القاسي بكل شيء وتمرح لكل كسب منها.

اللا طبيعي هو أيضاً من الطبيعة، تحب ذاتها وتعشق ذاتها بأعينها وقلوبها التي لا تحصى ... تفرح بالوهم، وتنزل غضبها كأعظم الطغاة بمن يفسد وهمه ووهم الآخرين، من يتبعها بإخلاص، تحنو عليه كطفل حبيب، ليس لأطفالها حصر، ولا تبخل على أحد، ولكن لها أحباؤها الذين تبذل لهم العطاء وتضحي لهم بالكثير ... لعبها دائماً جديد، لأنها تخلق المتفرجين دائماً من جديد، الحياة أجمل مبتكراتها، والموت وسيلتها لإثراء الحياة، تغلف الإنسان في غفلته وتحفزه إلى النور على الدوام.

تقيده بسلاسل الأرض، بطيء الحركة، مثقل الجناح ومن جديد توقظه من سباته، تخلق الحاجات لأنها تحب الحركة ... تنطلق في كل لحظة إلى أطول المسافات وتحط كل لحظة عند نهاية المطاف ... نخضع لقوانينها، حتى حين ننفر من هذه القوانين، وحين نثور ضد هذه القوانين....

تمثل مسرحية، ولكن هل تنظر إلى ما تمثل؟ لا نعرف! ومع ذلك فهي تقوم بهذه التمثيلية من أجلنا، نحن الذين نقف في الركن.

تنبض بالحياة دون نهاية، وبالكينونة والحركة، ولكن دون أن تحيد عن مكانها تلبس شتى الأشكال بلا نهاية ولا تكف لحظة عن الحركة.

لا تعرف التوقف، والسكون لديها لعنة، وبالرغم من ذلك فهي ثابتة راسخة، حركتها بمقياس وقوانينها لا تتغير، ويندر أن تحيد.

تفكر وتتأمل دون انقطاع، ولكن لا تفكر كإنسان وإنما كطبيعة، تحمل مغزاها الشامل في ذاتها، وإن بدت دون مغزى، الناس جميعاً في باطنها وهي في باطن الجميع.

إنها كل شيء تكافئ نفسها وتعاقب نفسها، تفرح بنفسها وتؤذي نفسها،إنها خشنة ووديعة، محبة ومخيفة، ولا نهاية لقوتها، كل شيء حاضر في أحضانها، لا تعرف الماضي ولا المستقبل، ودائماً الحاضر حياتها وخلودها، إنها كل، وإنما لم تكتمل، وكما تمضي الآن، تستطيع المضي إلى الأبد.

تظهر للكل في صورة خاصة، وتختفي في آلاف الأسماء والتعاريف، ولكنها دائماً هي .... قادتني إلى العالم وستخرجني من العالم، سلمت لها المقود، فلتفعل ما تريد، لن تكره ما صنعت، لم أتحدث عنها، كلا .... كل شيء خطيئتها وكل شيء مجدها..

ثم تطورت الافتراضات العلمية دون أن تفقد طبيعتها العقلانية في نطاق تجريبي، وانتهت إلى مفاهيم مختلفة بشأن الطبيعة وبرز سؤال فلسفي مفاده:

- **هل تكف الطبيعة عن أن تكون خاضعة للسيطرة فنصبح شريكاً كاملاً للإنسان؟**

إن هذه الوحدة، وحدة جوهر الإنسان والطبيعة، تفرض فهماً جديداً للعالم، وبالتالي علماً آخر وتقنية أخرى، أما العلوم والتقنيات التي تطورت، فإنها ما زالت بعيدة كل البعد عن صفات الطبيعة ومعناها.

وأوضحت (الموسوعة البيئية العربية) أن التكنولوجيا تبدأ في خبرة الإنسان بمثابة كيفية لرؤية الطبيعية، والإحساس بها.

أما عالم البيئة فإنه يلقي على الطبيعة نظرة أخرى، ومن ثم يجعل منها شريكاً مساوياً للإنسان، ويقيم معها صلة مستمرة من التعاطف والتعايش في العلاقة.

وهنا لابد لنا من طرح عدد من التساؤلات حول الإنسان والطبيعة.

- **هل هناك حقاً اتحاد بين الإنسان والطبيعة؟**

إننا إذا أخذنا بالاعتبار مذهب وحدة الوجود الذي أشرنا إليه بإسهاب في كتابنا (هندسة الأحياء وبيئة المستقبل) والذي يذكرنا بالرأي الفلسفي القائل: إن المجتمع هو الذي يحقق الاتحاد بين الإنسان الذي أثر في الطبيعة، فإننا سنجد بالفعل اتحاداً صميماً بين الإنسان والطبيعة، لكن هذا الاتحاد من أجل إدراكه يتطلب فهماً جديداً للعلم، وبالتالي يتطلب علماً جديداً، وتكنولوجيا جديدة، ذلك أن العلم والتكنولوجيا

اللذين ظهرا حتى بعيدان كل البعد عن التفكير في تحسين نوعية الطبيعة، وإدراك معناها الصحيح.

ومن شأن الفكر الحاسب الذي يرتكز على كل ما هو كمي أن يحول إلى مادة كل ما يتصل به ويجمده، ويرى بعض فلاسفة الفكر البيئي اليوم تياراً دافئاً من روح التحرر، وتحقيق العالم المثالي المنشود، وتياراً بارداً تسيطر عليه الرغبة في إخضاع كل شيء للتحاليل والتجربة.

- **ترى من الناحية العلمية، هل لنا أن نرفض كل منهج عمل يتفق مع الجانب الكمي للكون؟**

لطالما أن الكون لا يمكن إنكاره، فلا يجوز من الناحية العلمية أن نرفض كل منهج وعمل يتفق مع الجانب الكمي للكون، بيد أن النماذج الرياضية، والوسائل التكنولوجية لا تدرك، ولا تستخدم سوى جانب واحد من الحقيقة.

وهنا أذكر ما قاله جيرار رولية: إن التكنولوجيا التي ترفض ترويض الطبيعة كما يروض الحيوان قد تصبح وسيلة للتحالف الحقيقي معها، وتعيد الاتصال بين الإنسان والبيئة الذي بدونه تصبح كل مظاهر الطبيعة غريبة عن الإنسان.

وهنا يتضح أن بعض منظري الفلسفة البيئية لا ينكرون التجربة التكنولوجية ولكنهم يسلكون في نقد العلم والتكنولوجيا مسلكاً يشبه مسلك روسو، الذي يستنكر الظروف الاجتماعية والإيديولوجية التي أفسدت المعرفة العلمية من الناحية التاريخية، كما أفسدت استخدامها واستغلالها، ولذلك يجب أن تهدف التكنولوجيا الجديدة إلى إبراز المعاني الطبيعية الكامنة بحيث يصبح الإنسان والطبيعة شريكين في الإنتاج، ويعملان معاً على تحقيق العالم المثالي المنشود وتحسين نوعية البيئة.

- **ترى هل الطبيعة بحد ذاتها فاعلة أو منفعلة، وما يترتب عن ذلك في الفكر الفلسفي للبيئة؟**

الحقيقة أن الطبيعة فاعلة لا منفعلة، وهذا يهيئ لنظرة عالمية جديدة ويبعث الرغبة في تغيير صورة العالم، وليس المقصود بذلك رفض المظهر الكمي للطبيعة، بل المقصود تغيير الطريقة التي تعامل بها الطبيعة.

حقاً (إن التكنولوجيا هي المظهر العنيف للمعرفة) كما ورد في مسرحية أنتيجون، وفي الوقت الذي أصبح فيه المجتمع الصناعي عالمياً لكل المجتمعات البشرية، يتضح لكل ذي عينين في الشرق والغرب أن التكنولوجيا تؤدي إلى غزو الطبيعة بطريقة وحشية.

ويفسر لنا التوسع العالمي في استخدام أساليب العنف السبب في مشروع تحسين البيئة الذي يرفض الخضوع لحكم أي نظام من النظم الاقتصادية.

وإن الاستقلال الذي أعلنه علماء البيئة نظرياً منذ الانتخابات التشريعية الفرنسية في عام ١٩٧٨ ليفسر لنا هذه الرغبة الجامحة في البيئات العالمية، في تجاوز الأشكال الحالية لكل من الرأسمالية والاشتراكية سواء بسواء، إنه حقاً لمشروع هائل، لأنه يتطلب تغييراً جذرياً في الاتجاهات السائدة، فالمجتمع الصناعي يدين بنجاحه الضخم الذي لا ينكر إلى تأكيده العنيف لموقفه، وهذا هو صميم التكنولوجيا باعتباره عملاً سابقاً على كل تجارب الكائنات والأشياء، إذ تبدأ التكنولوجيا باتباع الإنسان أسلوباً خاصاً في رؤية الطبيعة، واستشعارها والإحساس بها.

أما العالم البيئي، فإنه ينظر إلى البيئة نظرة مختلفة، ويعاملها على قدم المساواة مع الإنسان، إنه يهدف إلى استمرار التعاطف مع الطبيعة، وسبيله إلى تعديل المعاملة التقنية للبيئة هو: نبذ كل تطور غير طبيعي في المشروعات الإنسانية، واتباع التكنولوجيا اللينة أو المتوسطة ونبذ أساليب القهر والقمع في معاملة الإنسان.

وتحاول المجتمعات البشرية في الوقت الحاضر، حقن هذه النظرات الجديدة في التطور بجرعات صغيرة، كما تتجلى في الصيغة البيئية لكل برامج الأحزاب السياسية.

- **ولكن هل البرنامج البيئي الصحيح يتعارض مع الإيديولوجيات العامة للكفاية والربح؟**

الواقع أن البرنامج البيئي الصحيح يتعارض مع الإيديولوجيات العامة للكفاية والربح بحيث لا يعد إصلاحاً في ظاهر الأمر فمن هذا المعنى يمكن أن يعد برنامجاً ثورياً يخالف كل ما تعارف عليه الناس في الماضي، ويؤذن بمستقبل جديد تظهر فيه خطوط مشروع جديد لمجتمع تسود فيه علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية مختلفة تماماً عما نعرفه اليوم.

وأنا أرى أن العلم لن يكون عبداً للتكنولوجيا، ولا رفيقاً لها، ولن يضع نفسه في خدمة إنتاج مكثف لسلع مادية تكون غالباً عديمة القيمة أو مجرد مصدر للربح.

ولسوف يقف العلم بمعزل عن كل شيء ليعنى بمعرفة الكون معرفة منزهة عن الغرض.

وإلى جانب تجريد الطبيعة من النزعات المادية سوف تسود المجتمع الاستهلاكي نزعة روحية تؤدي إلى تنشيط إنتاج السلع الثقافية.

- **هل من برنامج جاد لتحسين العلاقة بين الإنسان والطبيعية؟**

الحقيقة أن برنامج تحسين البيئة ونوعيتها وخاصة من حيث صلاحية المواد الداعمة للحياة من هواء وماء، وتربة، والارتقاء بتعامل الإنسان مع بيئته كجزء منها لا سيداً جشعاً مستبداً فيها، أقول إن برنامج تحسين البيئة قد يكون مجرد إعلان برغبات تستعصي على التحقيق، ألفاظ تعبر عن خيالات وأوهام، ولكن قد يكون أيضاً برنامجاً يتضمن الرغبة الصادقة في ارتياد طبيعة جديدة ذات روح، ومعنى جديد، برنامجاً هائلاً لتحرير قوى الطبيعة من قبضة السيطرة الوحشية، ومن هنا وجب أن نتحاشى خطر التحليق في سماء الأفكار السامية الجوفاء.

- **بعد هذا ألسنا بحاجة إلى فكر جديد في علاقة الإنسان بالطبيعة؟**

الفكر الجديد يحتاج إلى عقل جديد، نحن نحيا اليوم في عالم جديد، ما بعد الصناعي الشديد التغيير المتسارع التبديل من حال إلى حال، بحيث أضحى الجهاز الذهني البشري يعجز عن تفهم العالم الجديد، وأضحت حواسنا لا تدرك العالم كما هو، لأن جهازنا العصبي قد تطور بحيث ينتقي من الأحداث خلاصة صغيرة، ويهمل ما عداها، وبدلاً من أن ينقل هذا الجهاز كل شيء عن العالم، فإنه لا يستأثر إلا بالتغيرات المثيرة، وهذه البؤرة الداخلية تجعلنا نحس ببدايات الأحداث ونهاياتها أكثر من إحساسنا بالتغيرات الوسطية.

- **إذا كان الأمر كذلك، فما هو المخرج في رأيكم؟**

إن المخرج لن يكون إلا بعد أن نعيد تدريب أنفسنا لنتعامل مع المستقبل في عالم جديد بتهديدات لم يسبق لها مثيل.

إن زمن تركيز العقل الإنساني البسيط على (المثير) في البيئة قد انتهى مع تعقيد الحياة المعاصرة، لأننا نواجه بأخطار في البيئة المعاصرة لا قبل لنا بها، ولم يدرب عقلنا التقليدي الذي يهتم بالتغيرات الفيزيائية المفاجئة في العالم القديم على التعامل معها، لقد أصبح جهازنا العصبي غير متلائم اليوم مع عالمنا.

إن المشكلة الكبرى في بيئة اليوم المتسارعة التغيير، لن يحلها مشروع سياسي جديد، أو برنامج حكومي، أو مقالات في نقد التربية، أو مؤتمر دولي، إنها مشكلة مستقبل البشرية، تلك المشكلة التي تتعلق بكيفية إدراكنا لبيئتنا، وأنفسنا، فنحن لو تتبعنا التاريخ، لاستطعنا أن نتعرف على العالم الذي تطور منه جنسنا والعالم الذي صنعنا، وشكل فينا طرقاً معينة لتفهم بيئتنا، طرقاً عززت بقاءنا، لكن هذه الطرق القديمة ليست بالضرورة ملائمة لنا في عالم يختلف تماماً عن العالم الذي عاش فيه أسلافنا، لذا لابد لصناع القرار من أن يعملوا على تغيير عقولهم، وتغيير الطريقة التي يتخذون بها قراراتهم، وهو ما يؤهل للتغير في اتجاه يؤمن مستقبل البشرية.

- **هل انتصارات البشرية في بيئة اليوم قد تكون عامل دمارها؟**

لقد استهلكنا نحن البشر مواردنا غير المتجددة من الوقود الأحفوري، وركاز المعادن، والأرض الزراعية الخصبة، والمياه الجوفية، وملايين الأنواع الأخرى التي عمرت معنا الأرض، دون أن نتذكر أن تجميع هذا التراث العظيم تم في بلايين السنين، وهانحن نبدده في عقود.

إننا نتصرف بطريقة لم تكن ضارة عندما بدأت البشرية تبديد ثروتها، لكن بطريقة أصبحت اليوم سفيهة ومدمرة.

لذا فإن انتصاراتنا قد تدمرنا، فالبشر يجاهدون، وما يزالون كي يمدوا سيطرتهم أبعد وأبعد، وهم بذلك إنما يحولون التجمعات السكانية في المدن لتصبح كوكباً قاحلاً يخنق المدينة.

والمشكلة الجوهرية في رأينا أن رأس المال الذي يبدده الإنسان المعاصر، لا يتجدد يومياً مثل ضوء الشمس، إنه نتاج آلاف أو ملايين السنين من التطور الجيولوجي والبيولوجي (الإحيائي)، ولا يمكن اقتراض رأس المال الذي يبدده الإنسان المعاصر في معظم الحالات بأسرع من الوقت الذي تكوّن فيه أصلاً، ورغم ذلك فإننا نبدده في فترة تراوح ما بين عشر وواحد على مليون من زمن إنتاجه.

هل ندري أن السيارات في الولايات المتحدة تحرق من البترول في عام واحد ما يزيد عما جمعه حقل آلاسكا البترولي في مائة ألف عام.

وهل ندري أن ما ينقرض من أنواع الكائنات الحية في الغابات الاستوائية كل عام في هذا الزمان، يزيد عما يمكن لعملية التنوع أن تحققه في مليون عام.

وأنا أعتقد أن (الزراعة) تعتبر النقطة الفاصلة التي مكنت الإنسان من تغيير بيئته بشكل مؤثر، فكان ابتكار الزراعة أساس نجاح البشرية في تكيفها مع العالم الخارجي، وتحويله إلى مكان أكثر ملاءمة لحياة الجنس البشري، لكنها أي الزراعة اليوم هي مصدر من كبريات مصادر التلوث البيئي.

- **هل يعني حديثنا السابق أن الموضوع مرتبط بضعف إدراك الإنسان لخطورة المشكلة البيئية؟**

أعتقد أن عقولنا القديمة تقودنا إلى إهمال اتجاهات خطيرة، واتخاذ قرارات يومية غير صائبة.

والسبب أن العالم الصغير الذي تخلقه أجهزة الإعلام يعزز العقل القديم في تشكيل خططه، فالمشاهد العادي للشاشة الصغيرة يرى مئات عمليات القتل، ولكنه يشكل لها تخطيطاً أعنف من الواقع، فالتلفاز يخطط أو ينمذج المجتمع، وعقولنا تخطط ما تراه بالتلفاز، والناس يهملون الأخطار الثابتة المألوفة في الحياة اليومية، حتى تلك التي تهدد بالموت.

والنتيجة في رأينا، أن الموت غير ضروري، وأن العيش على حافة الفناء في بيئة اليوم ليست سوى ثمن ندفعه لأننا لم نتكيف مع العالم الذي صنعناه أي البيئة التي أبدعها الإنسان لنفسه.

وإذا ما استمر عمى العقل تجاه التغيرات البيئية (الطبيعية والاجتماعية والثقافية) المتسارعة، فلسوف نصل في نهاية المطاف إلى نشرة جوية تقول (السماء صحو ما عدا بعض الانفجارات النووية المتفرقة بالمناطق الشمالية الغربية مع احتمال سقوط الجليد في غير أوانه لفترة تصل إلى بضعة شهور).

حقيقة الأمر أن هذا ليس بغريب مطلقاً، فقد أشرت في المجلد الثاني من الموسوعة البيئية المرجعية، إلى القضايا المذهلة التي ستتمخض عن حدوث كارثة نووية لا سمح الله، وخاصة في عصر الرعب الحالي حيث الترسانة النووية لم تعد تحت الرقابة الصارمة، ولم تعد تنفق على صيانتها آلاف الملايين حالياً.

وهنا أشير إلى ضرورة تغيير عقليتنا، وأسلوب تفكيرنا، ونهتم بالجوهر قبل المظهر.

- **وما هو طريق الخلاص، أو ما يجب اتباعه والقيام به للحفاظ على بيئتنا**

المشتركة (كوكب الأرض)؟

هذا هو بيت القصيد، أعتقد أن جوهر الحل مرتبط بمرونة العقل وتدريبه.

إنني أعتقد من خلال خبرتي المتواضعة في الإطار البيئي والتي تمخضت عن تأليف موسوعة بيئية مرجعية هامة، أن المحور الأساسي للحل، هو البدء بتغيير حقيقي يعتمد على مرونة العقل البشري وقابليته للتدريب.

إن التحول الواسع النطاق إلى العقل الجديد قد يأتي في النهاية طبيعياً مع التطور الحضاري.

صحيح أن البشرية قد أحرزت نجاحات سريعة نتيجة وجود إدراك عام، وجدل عام، وقرار بالعمل الجماعي من قبل فئات اتسمت عقولها بالمرونة ومسايرة التغيرات، إلا أنني أرى أن عاملاً أساسياً آخر قد لعب دوره في إدراك المشكلات البيئية العالمية الكبرى، وهو التعاضد بين الجانبين العقلي والروحي فكان هذا أحد منطلقات النجاح لعديد من الحركات البيئية في العالم.

إنني في هذا المجال، ومن أجل تنمية تفكير مرن جديد وعقلية جديدة قادرة على التلاؤم مع التغيير، أرى الأمر:

يتطلب ثورة في طرق تربية الجيل، ويتطلب ثورة في طرائق التدريس التي ندرس بها، لأن من المعروف أن التعليم يغيّر من تركيب عقل الطفل، فالقراءة والكتابة والحساب التي يدرسها الجميع، ليست من أفعال العقل الفطرية، وإنما هي تحولات أساسية للطريقة التي يعمل بها الجهاز العصبي.

إن مراكز المخزون بالعقل تختص بالكلام والاستماع، لكن التعليم ينمي صيغاً جديدة في مخ الطفل، تشكل عقلاً جديداً قادراً على القراءة والكتابة.

والمقصود هنا أن نتساءل قائلين: ترى لماذا لا تفيد برمجة مخزوننا في بناء عقل جديد أو فكر جديد يتوافق مع حاجات العالم الجديد، البيئة المعاصرة؟.

والجواب: إننا بحاجة بالفعل إلى تربية من أجل عقل جديد من خلال مناهج جديدة، وعندها يستطيع الناس توجيه انتباههم إلى مخططاتهم للواقع وإلى العالم

الجديد نفسه.

عندئذ فقط يتمكنون من التقويم الصحيح لنتائج أفعالهم في العالم.

وهنا أعني أننا نريد تربية عصرية تتبنى أجيال مجتمع مدربة على مواجهة تحديات بيئية تتغير بسرعة.

ولا ننسى أن الطبيعة البشرية تتغير خلال سنوات قليلة من عمر المجتمع، فتغير مخزون العقل الجاهز لن يحدث إلا بخطوة التطور البيولوجي البطيئة.

وليس ثمة طريقة سهلة للخلاص من الورطة البشرية، لكن قد تكون هناك فرصة للعقل الإنساني كي يبدأ بداية جديدة.

- **إذن ما هو المنهج التطبيقي الذي ترونه لحل المشكلة؟**

المنهج التطبيقي الذي أراه مناسباً للخروج من أزمة الإدراك البيئي في المجتمع يتلخص في اللجوء إلى تطوير بعض القدرات الذهنية العديدة والمتنوعة القابعة داخلنا، فإذا عرفنا طريقة تفكيرنا، وعرفنا بنيان عقلنا عرفنا حينذاك كيف نتغلب على العجز الملازم لعقلنا وتحيزاتنا.



د. إبراهيم الكيلاني:

حقق فرائد التراث، وعلّم الأجيال حب اللغة العربية

في أمسية أدبية انعقدت مؤخراً بحضور حشد من الباحثين والمهتمين بشؤون الثقافة، تقدم الشيخ الوديع بخطى متمهلة، واتخذ مجلسه بين الحضور مصغياً على المحاضرة بشغف واهتمام بالعين.

تفرست في الوجه الأليف أتتبع آثار السنين، فرأيت السمات الإنسانية الرقيقة التي عرفتها من نصف قرن: العينان متألقتان خلف النظارة بنور شفاف، وافترارة المحيا رقراقة على غضون الجبين، والقامة الناحلة ذاتها منتصبة برغم أثقال الأيام، ها أنذا بعد عمر من الغربة أصافح بغامر سعادتي الأديب الموسوعي د. إبراهيم كيلاني، وأستعيد في خاطري قديم لقاءاتي به، طالباً وباحثاً ومهتماً بالفكر والتراث، وقد بهرني دوماً بما عرفته عنه وبالذات ما يمثله من مكانة أدبية مرموقة، وما أداه للفكر من إنجاز متميز.

استعدت صفحات كتابه "الوجيز في الأدب العربي" الذي ألفه بمشاركة فريق من مجايليه أساتذة الأدب واللغة، وحدثته يومها أنني - مثل أترابي - تتلمذت على ذلك الأثر الأدبي البديع، وقد لفتني بإعجاب بالغ في ذلك اللقاء حديثه اللطيف وبديهته الحاضرة، وإطلاعه العميق، وقبل ذلك كله تواضعه الرفيق، وتأكدت أن هذه الصفات السامية لا تكون إلا لعالم واسع الثقافة، ومرّب متنور نبيل، وأتيح لي أن أتتبع مسيرته من المحطة الأولى.

رحلة عطاء طوال نصف قرن:

ولد الدكتور إبراهيم الكيلاني في دمشق عام ١٩١٦م، وتلقى علومه الابتدائية والثانوية فيها، وبعد نيله شهادة التعليم الثانوي، تابع دراسته العليا في باريس، فنال

الإجازة الجامعية عام ١٩٣٧، وعاد إليها من جديد عام ١٩٤٨ ليحصل من السوريون على الدكتوراة في الآداب، وكان موضوع أطروحته: أديب العرب الرائد "أبا حيان التوحيدي".

رجع الدكتور الكيلاني إلى الوطن وتنقل بين مدارس دمشق الثانوية يعلم الأدب واللغة العربية، فوجد فيه تلامذته أديباً موسوعياً يعطيهم من ينبوع ثرّ، وقد سحرهم بلغته الجزلة وأسلوبه البليغ، حين راح يعرفهم على مواطن الجمال في اللغة العربية، من خلال الشواهد المتألقة من النثر والشعر التي كان يختارها لهم بمهارة المنقب الخبير بجواهر التراث الفكري العربي.

وأسندت له لعدة سنوات مهمة الإشراف على تحرير مجلة "الآداب الأجنبية"، واختير عضواً في هيئة تحرير مجلة التراث العربي، ولم يمنعه عمله الجاد في هذه المهمات من مواصلة مسيرته الغنية في التأليف والتحقيق والترجمة، فأنفق سنوات عمره ساهراً وراء مكتبه يقدم لقرائه ثمرات فكره اليانعة: ٢٥ كتاباً في السيرة والأدب والنقد، من بينها: الوجيز في الأدب العربي، عبقريات شامية، الأوراق، شخصيات وصور أدبية، أسمار وأحاديث، أديبات من العرب، أدباء من الجزائر، محمد البرم شاعر العربية، أحمد الصافي النجفي، وغيرها.

التراث العربي في حلة زاهية:

كان "أبو الحيان التوحيدي" رفيق الباحث المحقق من بداية تعرّفه عليه خلال تحضيره لرسالته الجامعية، فجعله محور عمله في تحقيق التراث ... كانت آثار "التوحيدي" الكثيرة مخطوطات لم تمتد إليها يد لترفع الستار عن مكنوناتها لثمينة، ولم يتهيأ لها العقل المبدع المجند لمراجعتها وتدقيقها، فتصدى "الكيلاني" للمهمة بدأب واضح، وسهر على الصفحات سنوات طويلة يعيد لها الألق ونبض الحياة، ويقدمها لقراء العربية في حلة زاهية من اللغة الراقية، والأسلوب المتدفق والدقة العلمية، ثم يخرجها لتكون ثمرة من كنوز التراث الخالد: مثالب الوزيرين "الصداقة

والصديق، الإمتاع والمؤانسة (في مجلدين)، البصائر والذخائر في سبعة مجلدات، إضافة على رسائل التوحيدي العديدة، وما كتبه عنه بالعربية والفرنسية.

وتدفق عطاء الباحث المدقق د. كيلاني في مجرى آخر هو الترجمة عن الفرنسية، وقد أتاح له إطلاعه الواسع على آثار المفكرين الفرنسيين أن ينقل إلى قراء العربية عيون المؤلفات في الأدب والفن والمسرح، وبالذات ما اتصل منها بالأدب العربي، فبلغت حصيلته منها كتاباً من أبرزها: مجلدات تاريخ الأدب العربي لبلاشير، وتاريخ السينما في العالم لجورج سادول، الغزل عند العرب لجان كلود، الأدب الجزائري المعاصر لجان ديجو، النقد الكلاسيكي: "أعلامه وأصوله" لا لبيرتيوديه، ومسرحيات لمالرو وبانيول ورومان، وسيرَ أعلام ورجال فكر.

شهادات الأوفياء في حفل التكريم:

كان د. كيلاني يتابع نشر هذه الروائع بنشاط وشغف بعيداً عن الأضواء والمظاهر، مكتفياً بما يخلفه أداء الرسالة في نفسه من رضى وسعادة، وظل ذلك دأبه في سائر مراحل حياته وحتى في شيخوخته المهيبة، وفي الحفل المشهود الذي نظمته مجلة الثقافة الدمشقية ووزارة الثقافة تكريماً لمسيرته وعمله الخلاق، جلس الأديب المتألق منصتاً بحياء واضح إلى كوكبة الأدباء والشعراء يقدمون شهاداتهم فيه.

قال بديع حقي: "علّمني إبراهيم أن الصداقة أثمن من الحب، لأن الحب يأخذ ويستبد ويستأثر، في حين أن الصداقة تبذل وتعطي بلا مقابل، ويظل الوفاء الخالص، الصفة الثابتة الراسخة في خلق الكيلاني".

وصدحت الشاعرة "سعاد ميرزا" تخاطبه:

"يا حاملاً أدباً يفوح أريجه   في كل شبر من ثرى أوطاني

يكفيـك فخـراً أن تكـون منـارة   للعلـم ... للتـاريخ، للأزمـان

فنّدت أفكار الألـى صـنعوا العلـى   وسموت فـي علـم علـى الأقـران

وتركـت للأجيـال هـدي خطـاهم   حـين اعتليـت مـدارج العرفـان"

وترقرقت دمعة في عيني الأديب الكبير، أخبرت حضور المهرجان بأن جهد الكيلاني لم يذهب هباء، وأن غرسه القيّم أعطى ثماره اليانعة للجميع، وذلك حسبه.

في أعماق شخصيته طبيعة فنان وأديب أصيل..

لا يكاد أحد من المثقفين ودارسي الأدب يجهل الدكتور إبراهيم الكيلاني، فقد تخرجت به وبآثاره أجيال عديدة وسيرته العلمية طويلة حافلة: تحصيلاً مبكراً للعلم وعملاً دائباً فيه: تدريساً وتأليفاً وتحقيقاً وترجمة وإشرافاً علمياً في مؤسسات ثقافية، وهو بهذه السيرة الفنية المتعددة الجوانب أحد وجوه الثقافة العربية الحديثة في سورية وفي الوطن العربي.

أحرز الدكتور شهادتي الابتدائية والثانوية في دمشق، وكان لدراسته في المرحلة الثانوية في المدرسة العلمانية "اللاييك" أثر في تمكنه من اللغة الفرنسية استطاع معه أن يتابع المرحلة الجامعية في باريس موفداً من الحكومة السورية. فأحرز الإجازة العامة في الآداب "الليسانس" سنة ١٩٣٧ ثم الدكتوراه من جامعة السوربون سنة ١٩٤٨ بدرجة الشرف الممتازة.

أشرف على إدارة الدروس العربية في اللاييك منذ وقت مبكر، إلى تدريسه الأدب العربي فيها وفي ثانويات دمشق.. حاضر في الجامعة السورية "جامعة دمشق الآن" أستاذاً للأدب العربي ثم أستاذاً لمقرر اللغة الفرنسية في أواسط الستينيات من القرن العشرين، وقد رشحه علمه الواسع بالآداب الأجنبية فوق علمه بالأدب العربي، لأن يكون مديراً للفنون والتأليف والترجمة بوزارة الثقافة، ورئيساً لتحرير مجلة الآداب الأجنبية لمدة سبع سنوات إلى عضويته في هيئة تحرير مجلة التراث العربي وهما مجلتان يصدرهما إتحاد الكتاب العرب.

نال الجائزة التقديرية من اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٣، وكان مجمع اللغة العربية بدمشق قد رشحه لجائزة الملك فيصل العالمية، ذروة معاني التقدير والتكريم التي لقيها الدكتور الكيلاني وسام الاستحقاق وهو نهاية الشوط في تاريخ حياته الخير المثمر.

وجوه التميز:

بعض أعمال الدكتور إبراهيم الكيلاني، وهي تعد بالعشرات - كاف لإدراج اسمه مع الأسماء الكبيرة في تاريخ الثقافة العربية الحديثة، وفي هذه الأعمال من وجوه التميز ما هو جدير بانتباه الباحث والمنصف وتقديره. ولا ريب في أنه بمجموعها قد عملت عملها في تكوين صورة عامة له في الوجدان المعاصر.

ومن أشهر هذه الوجوه عند القارئ العام وعند الباحث المتتبع على حد سواء وجهان اثنان:

- اقتران اسمه باسم أبي حيان التوحيدي، دراسة له وتحقيقاً لآثاره.
- واقتران اسمه مترجماً مبدعاً لبعض الكتب ذات الشأن في تاريخ الأدب العربي وفي الثقافة الإنسانية عامة.

أما أبو حيان فعهد الدكتور به قديم، وقد كانت رسالته للدكتوراه التي قدمها في السوربون عن أبي حيان وهي أول دراسة جامعية عالية عن الرجل في العالم العربي /فيما نعلم/ وثاني التفات جاد موسع إليه سبقه إلى التنويه بأبي حيان المحقق المصري حسن السندوبي، حين أخرج كتابه "المقابسات" وقدم له بمقدمة أظهرت مكانته وفضله، ثم تتابع الاهتمام بأبي حيان في العالم العربي بعد ذلك.

رسالة الدكتور عن أبي حيان بالفرنسية لم تترجم إلى العربية بعد، إلا أنه ضمَّن لبابها كتاباً آخر لطيفاً بالعربية عن أبي حيان.

أول آثار أبي حيان التي نشرها الدكتور: ثلاث رسائل له وهي "رسالة السقيفة" و"رسالة في علم الكتابة"و "رسالة الحياة" نشرت في كتاب واحد بالمعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥١.

ثم عكف الدكتور على طائفة من أعمال أبي حيان الكبيرة فأخرج "مثالب الوزيرين" ١٩٦١ و "الصداقة والصديق" ١٩٦٤، و "البصائر والذخائر" في ستة مجلدات عام ١٩٦٤ وما بعده. وهو أكبر آثار أبي حيان المعروفة، وقد اتسعت دائرة العلم بأبي حيان عند القارئ العربي بما أخرج الكيلاني من آثار، وكانت هي المرجع في دراسة أبي حيان إلى أن صدرت لبعضها طبعات أوثق وأتم كما هو

الشأن في تاريخ العلم كله، باقياً للرواد مع ذلك فضل ريادتهم وسبقهم وتقدمهم.

أما عمله في الترجمة فهو اثر من آثار موهبته الأدبية وعلمه عامة وتمكنه من الفرنسية كما تقدم، ورغبته في أن يخدم العربية بنقل جملة من أكابر الأعمال إليها في نطاق الاستشراق وفي غيره.

وهكذا فقد ترجم "الجاحظ" لشارل بيلا، و"تاريخ الأدب العربي" في ثلاثة أجزاء لبلاشير و"المتنبي" لبلاشير أيضاً، و"الغزل عند العرب" في جزأين لجان كلود، و"الأدب الجزائري المعاصر" لجان ديجو، وترجم خارج نطاق الأدب العربي كتاب جورج سادول"تاريخ السينما في العالم" مع الباحث فايز كم نقش وغير ذلك.

والقول في علم الدكتور الكيلاني وأدبه يتسع لكثرة آثاره وتنوعها، وقد سر رحمه الله حين أخبرته منذ سنوات قليلة إن وقفت مصادفة على نسخة من كتابه "أصول المراسلات التجارية" المطبوع في دمشق سنة ١٩٣٩!!

صورة مجملة:

لا يخطئ من عرف الدكتور الكيلاني معرفة عن كثب ووقف على شيء من آثاره أن يتبين فيما وقف عليه ملامح شخصية أدبية مطبوعة اكتملت لها أدواتها بالاطلاع الواسع المستمر .. من حضور ذهن ودقة ملاحظة ورحابة نفس وأفق، تسهل معها ملاحظة المعاني الإنسانية في منشآت الأدب والفن، إلى جمال العبارة وشفافية دلالتها على المعنى الذي تجيش به النفس أو يلمح الفكر.

وبموهبته المطبوعة وباطلاعه الواسع أشرف على قديم الآداب ومحدثها، شرقيها وغربيها باقتدار مرهف واحد.

وبهذه الموهبة وهذا الاطلاع أقبل منذ وقت مبكر على قدره الأدبي بخطا جادة ثابتة، فنشر في "الرسالة" أشهر مجلات الثقافة والأدب في العالم العربي، وقد قال ذات مرة باعتداد خفي وبلطف وظرف معروفين فيه: (من نشر في الرسالة شيئاً فقد

تكرس أديباً) وبطبيعة الحال أنت تستطيع بسهولة أن تصل إلى النتيجة المطلوبة لهذه القضية المنطقية.

وبانغماس الدكتور في عالم الأدب كان مراسلاً أدبياً لمجلة "الكتاب" التي كانت تصدرها دار المعارف "١٩٤٥- ١٩٥٣"، وهي مجلة فكرية وأدبية راقية كان رئيس تحريرها الأديب الشاعر المجود عادل الغضبان، وكانت – كالرسالة – ملتقى أقلام كبار الكتاب في مصر والعالم العربي.

وفي أعماق شخصية الدكتور طبيعة فنان ككل أديب أصيل، مع ميل إلى السخرية المرهفة التي يولدها الانتباه الحاد للمفارقات. وأحسب أن ميله إلى هذا الضرب من السخرية هو الذي قرّب ما بينه وبين أبي حيان، لا مجرد العطف عليه أو التعاطف معه لما لقي في حياته من بؤس وشقاء كما ذكر هذا مرة في بعض ما كتب.

وطبيعته الفنية هذه وانتباهه الحاد للمفارقات في أطواء المعاني، هما اللذان جعلا منه قارئاً للنص يكاد يكون مسرحياً، وقد شهد منه هذا النوع من القراءة طلابه القدماء في جامعة دمشق حين كان يحاضر في أبي حيان ويقرأ من نصوصه ما اقتضاه المقام.

وبهذه الطبيعة الفنية الأصيلة وبالشباب الهاجع في موضع بعيد خفي من نفس كل فنان، كان منه ذلك المشهد في حفل تكريمه الذي أقامه له الأستاذ مدحت عكاش بالتعاون مع وزارة الثقافة، وقد شهد منه الحاضرون حينذاك مشهداً عجيباً إلا أن مثله في أصحاب المواهب ليس بنادر ولا عزيز: أقبل العالم الأديب الشيخ ابن الثمانين على المنبر كما يقبل عليه من كان في سنه. حتى إذا تمكن من نفسه وأخذ في حديثه نفض عن نفسه غبار السنين، و أنهدم الزمن بوثبة نفس واحدة وتطابق الأداء الحي الكامل الحياة مع الفن الشاب أبداً الذي تشتمل عليه نفسه الأصيلة، وعبر الرجل عن نفسه في مشهد بديع متفوق.



د. أحمد منيف العائدي:

الإنسان العالم والطبيب، والمربي، والاقتصادي في رجل واحد...

يقاس تقدم الأمم ورفعتها بعطاء أبنائها الصادق، وتضحيات قادتها، كما تقاس عظمتها وسموها بوفائها لرجالها المخلصين، الذين نذروا حياتهم لتقدمها ونهضتها، وحينما تحيي الأمة تاريخ عظمائها وأعلامها فهي تذّكر بعطائهم، وتقدمهم للأجيال الجديدة، قدوة صالحة تسير على نهجها، وتواصل العمل والبناء، وتمضي إلى تحقيق الأهداف النبيلة بجد وإخلاص، كما تؤدي الواجب الوطني على وجهه الأمثل.

إن سجل سوريا الذهبي يضم صفحات ذهبية كتبها الرجال الأفذاذ بصدق الإيمان ونقاء المحبة، ورفعة الإيثار، وسمو التفاني، لتكون سوريا وطناً للحق والخير والسعادة في كل ميدان وزمان ... وهنا نقدم سطوراً من سيرة رجل وطني قدير عمل، بجد وصمت وشجاعة في تنشئة الأجيال التي تقوم عليها أركان الأمة في ميادين الطب والعلوم والسياسة والاقتصاد والإدارة وسواها، هذه الأجيال التي تربت على يديه منتشرة في مختلف المدن السورية وفي البلاد العربية، فمنهم من رحل بعد أن أدى واجبه نحو وطنه وأمته، ومنهم من لا يزال يعمل بجد ونشاط وإخلاص في دعم المبادئ والتعاليم الوطنية والقومية، التي تلقوها على مقاعد الدرس وكانت لأعمالهم آثارها البارزة في كل مجال.

بداية المسيرة:

ينتمي الدكتور أحمد العائدي إلى أسرة عربية عريقة يعود أصلها إلى فخذ من جذام جاء على مصر مع عمرو بن العاص عند فتحها، نزلوا قريباً من القاهرة،

وكان كبيرهم شيخ العرب إبراهيم العائدي مسيطراً على قبيلة العائد حتى زمن الاحتلال الفرنسي، وفي مصر العربية منطقة واسعة تدعى كفور العائد تتوارث فيها الإمارة كابرا عن كابر، إلى أن كان رأسها المرحوم محمد العائدي الذي رافق إبراهيم باشا في حملته على بلاد الشام، وبعدها طابت له الإقامة في دمشق وأنجب فيها الأولاد، وكان أحدهم عثمان الذي اختار زوجة من أسرة عريقة هاجرت من ليبيا على اثر الاحتلال الإيطالي، أنجبت في (١٨٨٦) ولدها الأول (أحمد) فتربى تربية مثالية.

ترعرع العائدي في أحضان أبويه، وكان لأمه الحكيمة قسط كبيراً في تربيته الصالحة، فأخذ يزداد نموه ويكبر وعيه مبكراً وعندما بلغ سنة الثالثة أحجم أبوه عن إرساله إلى الكتاتيب، لأنها لم تكن أكثر من ملجأ يحشر فيه الأطفال الصغار الذكور والإناث، يجلسون على أرض مفروشة بالحصير وليس فيهما شيء من أسباب النظافة ولا من أسباب التربية والتعليم، فأخذ والده بتربيته في الدار على يد مربية صالحة، حتى إذا بلغ السادسة من عمره دخل المدرسة الأميرية فلاحظ أهله ومعلموه ملامح الذكاء عليه، فأضافوا إلى اسمه الأول (أحمد) كلمة (منيف) وصار اسمه أحمد منيف، وبعد تخطيه المرحلة الابتدائية نقل إلى المدرسة الإعدادية الوحيدة في دمشق آنذاك ومنها انتقل إلى الدراسة الثانوية، وفي الخامسة عشرة من عمره أبدى ميولاً لدراسة الطب فألحق بمدرسة الطب التابعة لمدرسة الطب في اسطنبول، وقد أرسلت إليها الحكومة العثمانية أفضل الأساتذة فتابع دراسته فيها بنجاح، ولاحظ أساتذته حدة ذكائه مما حمل أستاذ الفيزيولوجيا على اختياره لمساعدته في الدروس السريرية، وصار يتردد على شعبتي الأمراض الداخلية وأمراض الأطفال في المستشفى الوطني، والمستشفى العسكري، حيث تقام الدروس السريرية، وهكذا جمع بين دراسته وعمله مساعداً لأستاذ الفيزيولوجيا، وبين تردده على قسمي الأمراض الداخلية وأمراض الأطفال، غير أنه أكمل دراسته في كلية الطب بجامعة اسطنبول، ونال منها شهادة الدكتوراه عام ١٩٠٦ وعاد يمارس الطب

في عيادته، وعند قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ألحق الدكتور أحمد منيف طبيباً عسكرياً في الجيش التركي، ولما كان ضليعاً في الفيزياء والتشريح فقد تم تكليفه بتدريسها لطلاب المدرسة الحربية، واستمر كذلك إلى أن نفيت أسرته إلى أقصى بلاد الأناضول.

المساهمة في الجمعيات الوطنية السرية أيام الأتراك:

عمل أحرار العرب الوطنيون الناقمون على الحكم التركي، وعلى الظلم والجهل والفساد وعلى الأسلوب الغاشم الذي كانت تتبعه السلطات العثمانية ضد الجمعيات الوطنية التي تعمل لنيل الحرية والخلاص من الحكم العثماني، فتألفت جمعية الإصلاح الوطني الدمشقية، وكان أحمد منيف العائدي أحد أركانها ومؤسسيها، ولكثرة عيون الرقباء من جواسيس الحكام الأتراك إنسل فريق من أعضائها إلى فرنسا، فتأسست في باريس (جمعية سورية الفتاة) التي أخذت تنشر المقالات الوطنية وتحث فيها على مقاومة الحكم العثماني.

تأسيس المعهد الطبي العربي:

بعد مداولات بين المسؤولين في ذلك العهد وحرصاً على البدء بتأسيس الجامعة السورية المستقلة تمت الموافقة على تأسيس مدرسة لتعليم الطب باللغة العربية تدعى مدرسة الطب العربية، غير أن هذه التسمية لم تدم طويلاً فاتخذ لها اسم المعهد الطبي العربي وقد تألفت لجنة من خمسة من كبار الأطباء من بينهم الدكتور أحمد منيف العائدي، وأخذت هذه اللجنة تدعو من الأطباء من تتوسم فيهم الاستعداد للمشاركة في الانضمام إلى هيئة التدريس، واختارت اللجنة المؤسسة الأماكن التي تصلح للدروس والمخابر، أما الأستاذ العائدي فقد أسند إليه تدريس الفيزيولوجيا إضافة لإدارته الكلية العلمية الوطنية، وقيامه بتدريس أمراض الأطفال، وبتنظيم برامج التدريس الأسبوعية فوق دروسه المشار إليها إذ كان خبيراً بهذا التنظيم،

ونظراً لخبرته في الفيزياء أسند إليه كذلك تدريس الطبيعة الطبية لطلاب السنة الثالثة، كما أنه قصد باريس عدة مرات وكان يعود بجديد في كل مرة، فألف بعد عودته الثانية كتابه "الطب التجريبي وأمراض الأطفال"، وكان تدريسه لعلم الغرائز ينقسم إلى قسمين: النظري والعملي.

الدروس السريرية في طب الأطفال:

مارس الأستاذ العائدي في عيادته الخاصة الطب الداخلي وطب الأطفال الذي يتمرن عليه في المستشفى التعليمي منذ كان طالباً، فأسند إليه حين تأسيس المعهد الطبي العربي تدريس أمراض الأطفال، فأتخذ جناحاً في المستشفى التعليمي الوحيد وجهزه بأسرة صغيرة للرضع، وبأسرة كبيرة للأطفال من سن الثالثة حتى العاشرة، وكان يعرج بعد أن ينهي درسه العملي في مخبر الفيزيولوجيا على جناح الأطفال في المستشفى الوطني، فيقوم بفحص الأطفال ويطلع على مجرى معالجتهم ودرجة نموهم وسيرهم نحو الشفاء وبعد أن يطمئن إلى حسن سير العمل في جناح الأطفال مع الطلاب الذين استمعوا للدرس، ينصرف إلى أعماله الكثيرة الأخرى إذ لم يكن يضيع دقيقة واحدة دون عمل مثمر، كما كان يعالج كل الأمور المعروضة عليه بحنكة ونظام وحزم.

الرحلات العلمية:

اتخذ القرار بندب الدكتور العائدي للسفر إلى باريس للاستزادة من علوم الفيزيولوجيا وما استجد فيها، فسافر إليها عام ١٩٢٠ وتابع الدروس النظرية والعملية لدى الأستاذ الكبير (شارل ريشة) وقضى في إطلاعه نحو سنة، ثم عاد ليشرف على التدريس في المعهد الطبي من جديد، وقد ازداد معرفة وتجربة بهذه الرحلة العلمية الأولى.

وبعد سنوات رغب بمزيد من الإطلاع على ما استجد في علوم الفيزيولوجيا،

فسافر إلى باريس في السنة الدراسية عام ١٩٣١ مزوداً بقرار من مجلس المعهد الطبي للاستزادة في اختصاصه، وفي دراسة الطب التجريبي، وقد أقيمت له قبيل سفره حفلة وداعية حضر فيها زملاؤه وبعض طلابه الأدباء والشعراء وسافر مودعاً بالحفاوة، ثم عاد إلى دمشق داعياً الأستاذ الكبير (شارل ريشة) الذي ازدادت بينهما الصداقة خلال إقامته هناك، ولبى الأستاذ الدعوة بعد فترة وحل ضيفاً في رحاب الدكتور العائدي.

تعريب الطب:

رأى الدكتور العائدي أنه لا مستقبل لأمته إن لم تعلم أبناءها كل العلوم بلغتهم، لاسيما وأن هذه اللغة تعتبر اليوم من أوسع لغات العالم، وأنها لغة غنية بقواعد الاشتقاق لتستوعب كل المفردات الجديدة التي يستلزمها العلم.

انطلق الدكتور العائدي من مركزه كطبي متمكن، وكونه أحد مؤسسي المعهد الطبي العربي يعمل هو وكل كوكبة العلماء الأطباء المؤسسين في هذا المجال حتى نجحوا، ولكن بقي الاعتراف بذلك من الوسط الطبي العربي والدولي، ولتكون لشهادة المعهد الطبي العربي في دمشق قيمة لا تقل عن شهادات يسوعية بيروت، والجامعات الأمريكية في المشرق العربي والجامعة المصرية، وكان لابد لذلك من جهد دؤوب، فباشر الدكتور العائدي الاتصال بالأطباء المصريين الكبار وأقنعهم بذكائه وحميته بأن يأتوا إلى دمشق لعقد مؤتمرهم السنوي ... وقد عقد هذا المؤتمر بدمشق عام ١٩٣٦ وجمع أبناء مصر والعراق وفلسطين ولبنان وسورية، وسمي (المؤتمر الطبي الأول)، ومنذ ذلك الحين اعترف المصريون والعرب كلهم بالطب السوري وبالشهادة التي يمنحها المعهد الطبي العربي.

العمل الاقتصادي:

كان الدكتور أحمد منيف العائدي أحد الرواد الذين يجربون، ووجد بحق أن سورية بلد زراعي، فاندفع مبكراً ورائداً في زراعات متنوعة ولاسيما زراعة القطن الذي أصبح اليوم أحد أعمدة دخلنا القومي، وفي الصناعة المكملة لهذه الزراعات أهتم بصناعة حفظ الخضار والفواكه وتعليبها نظيفة ومعقمة وقابلة للتصدير، مما يرفع ثمنها ودخل المزارعين الذي يعملون في مجالهم التقليدي وتم ذلك عام ١٩٣٤.

العمل الزراعي:

اتخذ الدكتور العائدي مشروعاً زراعياً في إحدى قرى الغوطة، وبالنظر لأعماله الكثيرة فقد عاونه ابنه الدكتور عدنان في الزراعة كما في إدارة مدارس العلمية الوطنية، وكان ابنه قد أتم دراسته في الجامعة الأمريكية في بيروت، كما نال شهادة الدكتوراه في التربية وعلم النفس من جامعة السوربون في فرنسا.

ولم يرغب الدكتور أحمد بالتقاعد بعد بلوغه الستين من عمره، فقرر إقامة مشروع لزراعة القطن، واتخذ لذلك أرضاً واسعة في بطاح منطقة الحولة المشرفة على فلسطين، ولكن لحساسية تلك المنطقة وأخطارها، تحول من زراعة القطن إلى غيرها من الأعمال المجدية المثمرة والتي هي جزء لا يتجزأ من نشاطاته العديدة.

مدارس الكلية العلمية الوطنية:

لم تكن توجد في دمشق مدرسة أهلية، وكانت السلطة التركية قد سمحت بتأسيس المدرسة العازرية، غير أن عائلات دمشق المحافظة أحجمت عن إرسال أبنائها إليها، ولما لم تكن السلطة التركية راغبة بتعليم أبناء العرب، هب فريق من كرام الوطنيين الأفاضل للعمل على تأسيس مدرسة أهلية وطنية، وأقر المجتمعون أن يعهد بإدارة المدرسة وتسلم جميع شؤونها إليه، وبدأوا بتنفيذ المشروع دون أن يخشوا ما كان يبيته الحكام آنذاك، فعهد الدكتور العائدي إلى نقل المدرسة إلى دار

كبيرة واسعة وحازت المدرسة على ثقة الأهالي الذين أخذوا يدخلون أبناءهم فيها لما لمسوه من النتائج التي حققها لدى التلاميذ المنتسبين إليها، وبعد توسع المدرسة وانتساب أعداد كبيرة إليها قام الدكتور العائدي ببناء جناح خاص كبير وداخلي يتسع لما يقرب من مائة تلميذ.

وقد تولت التعليم والتوجيه في الكلية العلمية الوطنية كوكبة من أقدر الشيوخ والمربين العلماء، ومن بينهم: الشيخ عبد القادر المغربي، والشيخ جميل الميداني والشيخ كامل القصاب، والدكتور عبد القادر العظم، والشاعر سليم الزركلي، والشيخ راشد القوتلي، وشاعر الشام: خليل مردم بك، والمجاهد الوطني عثمان الحوراني، والأديب المحقق: منير العجلاني، وأعلام الخط العربي: ممدوح الشريف، وبدوي الديراني، وحلمي حباب، والأساتذة الأجلاء: عابدين حمادة، وأديب التقي، عبد الله رضوان، رشيد بقدونس، خيري الطرزي، محي الدين القضماني، لطفي طالو، شوكة الطرزي، وغيرهم من أعلام الأدب والعلم والفكر والتوجيه الفكري والوطني...

كلية البنات:

كانت كلية الذكور موضع ثقة الأهالي وأعجابهم، إذ زاد عدد التلاميذ فيها على ألف تلميذ، ولذلك تقدمت مجموعة من الأهالي الحريصين على تعليم بناتهم في مدرسة لائقة وموثقة بطلب إلى الدكتور الأستاذ العائدي لتأسيس مدرسة أو كلية للإناث على غرار كلية الذكور، فقام العائدي بتلبية طلب الأهالي، وأقام الكلية على أجدث الطرق، واستقدم للتعليم والإدارة بعض الاختصاصيين والاختصاصيات بشؤون الإدارة والتعليم من البلاد الغربية، واتخذ جناحاً كبيراً للإناث في القسم الداخلي، وكانت العناية كبيرة في سائر الفروع التعليمية مع العناية الكبيرة في تعليم اللغات الأجنبية على أحدث طرق التعليم، وكان قد تأسس فرع للحضانة تشرف عليه معلمة أجنبية قديرة أقبل الأهالي على تسجيل أطفالهم فيها.

الخريجون الأوائل:

لقد تخرج جيل كامل من الناجحين على يد الدكتور أحمد منيف عثمان العائدي، وبرز الكثير من الأطباء والأساتذة من أبرزهم: عبد الحميد دياب، الأستاذ عادل الخجا، الدكتور مدحت شيخ الأرض، الأستاذ خالد بوظو، الدكتور رشدي الجابي، أنور الدسوقي، الدكتور جمال الدين نصار، الصيدلي سعيد الرشاش، الشاعر الكبير نزار قباني، الدكتور عزة مريدن، الشاعر عدنان مردم بك، د. صباح قباني، د. بديع الكسم، د. يسار البيطار، المهندس موفق الميداني، د. صلاح الدين المنجد، عبد الحميد دركل، كمال فوزي الشرابي، وعبد الغني العطري، وغيرهم كثيرون من أعلام الوطن وقادة الرأي ورواد الحركة العلمية والاقتصادية.

أبناء الدكتور أحمد منيف العائدي:

- الدكتور عدنان العائدي، وهو بكر أولاده وكان مساعداً لأبيه في معظم أعماله.
- المهندس الدكتور غسان العائدي: وهو الابن الثاني، نال شهادة الهندسة في باريس وتخصص في الكيمياء الصناعية ونال الدكتوراه في العلوم الكيميائية ورحل مبكراً بحادث سيارة أليم.
- الدكتور المهندس عثمان العائدي: تخرج من فرنسا حاملاً شهادة الهندسة باختصاص في السدود والعلوم المالية والكهربائية، وتخرج بنجاح كبير، ثم انتسب إلى جامعة السوربون في باريس للقيام بالبحث العلمي والإبداع والاختراع بقصد الحصول على درجة الدكتوراه بنشاط مثالي رائع، وتم اختياره لوظيفة مدير للشؤون الفنية للمشاريع الكبرى في سوريا بما في ذلك مشروع الغاب، وعندها افتتح مكتباً للهندسة وأخذ يمارس الأعمال الهندسية الحرة في بناء السدود كسد الرستن ومحردة، وكذلك دراسة وإنجاز شبكة الارتباط الكهربائية ما بين المدن السورية، كما درس الهندسة المائية والهدروليك في كليتي الهندسة بجامعتي

حلب ودمشق، ولما تأسست الشركة العربية السورية للمنشآت السياحية واكتتب فيها المساهمون، انتخب رئيساً لها ونظراً لما اكتسبه من ثقة المساهمين تم انتخابه ثانية، وكانت باكورة أعماله أن أتم البناء الذي أشتمل على فندق الشام وعلى المحلات التجارية الملحقة به (مجمع وفندق الشام) واكتسب بعد ذلك ثقة رفيعة ومد نشاطه لكافة المدن السورية بإقامة سلسلة فنادق الشام.

من ناحية أخرى تابعت بنتاه (التوءم) الدراسة الثانوية واللغة الفرنسية، وكانتا تهويان العزف على آلة البيانو وشاركت إحداهما بتدريس اللغة الفرنسية في كلية البنات وتزوجت الثانية من الأستاذ الدكتور عزة مريدن، وأما البنت الصغرى لمياء فدخلت قسم الصيدلة في المعهد الطبي العربي (كلية الصيدلة اليوم) وكانت أول فتاة تحمل شهادة الصيدلة.

العمل الخيري .... حتى آخر أيام حياته:

حقق الدكتور العائدي نجاحاً متلاحقاً في حياته بما أمتلك من ذكاء حاد وطموح لا حدود له في الإقدام على الأعمال المثمرة المفيدة التي ترفع شأن وطنه، لقد كان الجد والعمل ديدنه، وكأنه قطعة من صميم وجوده وحياته، وضمت مكتبته العامرة كتباً طبية وعلمية وتاريخية ودينية، وقد أوصى بأن تهدى الكتب الدينية إلى مكتبة جامع الروضة القريب من داره، والذي كان يقضي فيه صلواته، وبقية الكتب إلى مكتبة جامعة دمشق، كما كانت له أعمال خيرية كثيرة سواء بإرساله على نفقته الخاصة بعض الطلاب المتفوقين الفقراء للاختصاص في ديار الغرب، والعودة لإفادة الوطن بما جنوه وتعلموه، أو بمساعدته لكثير من الأسر الفقيرة ولاسيما العائلات المستورة، وكان يقوم بذلك سراً ودون تبجح ولا ظهور، وقد أوصى بمبالغ مجزية للأعمال الخيرية المختلفة، ففي دار السعادة للمسنين والمسنات جناح كبير يضم غرفاً عديدة مخصصة لنزلاء هذه الدار، وقد وضعت على بابه لوحة رخامية كتب عليها: (جناح المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد منيف عثمان العائدي).

لقد كان واجباً وطنياً تقدير هذا الرجل، والاعتراف بفضله وأعماله الكثيرة المثمرة، فأطلق اسمه على إحدى مدارس دمشق الثانوية، وعلى الشارع الممتد من الحريقة إلى قصر العظم الأثري، مروراً بالبناء الضخم الفسيح الذي كانت تقوم فيه مدرسة الكلية العلمية الوطنية، وفي بلدة الزبداني طريق ممتدة من أمام دار الحكومة صعوداً إلى القصر الصيفي الذي بناه المرحوم، وقد دعي الطريق باسمه أيضاً.

كانت حياة هذا الرجل مفعمة بالخير والبركة، وقد انتهت رحلته الغنية بالأعمال الجليلة في أول يوم من شهر رمضان عام ١٣١١ الموافق ٥ شباط ١٩٦٢م.

وما أن ذاع خبر وفاته حتى هرع إلى داره جمع غفير من العلماء والمسؤولين وأساتذة الجامعة وكثير من الأطباء والمهندسين، حضروا يعزون أسرته ومحبيه المقربين والبعيدين، وكلهم ألسنة تلهج بفضله ومزاياه الكريمة النادرة، التي صارت ملكاً للتاريخ العلمي والثقافي والاجتماعي في وطننا الحبيب.

رحم الله الدكتور أحمد منيف العائدي، حامل راية العلم ومشعل المعرفة، وتحية عطرة إلى روحه الطاهرة في عالم الخلود، جزاء ما قدم لأمته ووطنه من أعمال خيرة، تبقى في ذاكرة الأجيال إلى آخر الزمان.

المصادر:

- سيرة العائدي: د. عزة مريدن
- د. العائدي: عبد الغني العطري
- شخصيات بارزة: زهير الصباغ

من حوار مع أحمد منيف العائدي ...

السواعد الحرة هي أمل الوطن في نهضته

– تقولون بفكرة التطور الفجائي في نهضتنا الحاضرة، أم تؤثرون أن تسير سيراً بطيئاً في هذا المضمار؟


– إن النهضة الحاضرة نهضة مبتورة على الرغم من أننا نتقدم عملياً وصناعياً وزراعياً، فنحن نتأخر ونتقهقر بأمور معنوية هي أشد خطورة من تلك، وإذا عالجنا الأمر من هذه الجهة، نحس أن المستقبل مظلم محفوف بالأخطار والمخاوف، فعلى المفكرين والذين يشتغلون في إعداد العدة للمستقبل تقع التبعة.

فالتطور الفجائي في هذه النهضة المزمعة هو لازم محتم، إذا كان يقوم على سواعد عاملة حرة ومخلصة، أقول إن التطور الفجائي محتم، وذلك مجاراة للعالم، ولا سيما الجوار الذي يسير بخطى واسعة في مناحي الاجتماع والأدب والصناعة والزراعة والتجارة .... و.... الخ، وبالنظر لمخترعات هذا الزمن الذي أصبح فيه البعيد قريباً في المواصلات والأخبار، وهبطت الدول في المعاملات والمبادلات من المجموع إلى حالة التفرد في التوريد والاستصدار وفي النقد والاعتبار.

أما إذا لم يكن لدينا تلك السواعد العاملة المخلصة، التي يجب أن تتبنى النهضة بها، فالتطور يجب أن يكون بطيئاً، عسى أن تتمكن بعض الشخصيات المخلصة من الإصلاح أو يأتي الله بالفرج.

– ما هو المثل الأعلى الذي تنشدونه في الشباب العربي؟

– المثل الأعلى الذي أنشده للشباب العربي هو أن يكون مفادياً في سبيل قوميته، جباراً بشخصيته ومعنوياته، متفائلاً بالمستقبل، على الماضي، مستعداً للطوارئ (كشافاً حقيقياً) ثابتاً في العمل ومؤمناً بالهدف النبيل، ومطيعاً لكل مخلص حرٍ.



عبد المعين الملوحي:

تسعون كتاباً ومئة مخطوطة
والنبع ما يزال متدفقٌ بالعطاء[1]

"لقد عشت بّحاراً قضى العمر تائهاً ولاح له شط فألقى المراسيا"

تسعون كتاباً مطبوعاً، وأكثر من مئة مخطوطة تنتظر خروجها إلى النور، وقامة مهيبة ما تزال، برغم السنوات الثمانين، منتصبة بشموخ، وذاكرة صافية متوهجة، وينبوع إبداع خيّر ما يزال شفافاً وتدفقاً، ومع هذا فأنت تجلس إليه لأول مرة، فتمتلئ نفسك بمشاعر المودة المشعة في قسماته، وفي حديثه اللطيف الرقراق.

أدرت نظرتي بين مئات الكتب التي احتلت رفوف جدران الغرفة الأربعة، وبين عينيه المفترتين ببسمة وادعة لا تتزايل، وأصغيت إليه يقدم شريط حياته الحافلة:

هو عبد المعين الملوحي الأديب والشاعر والمحقق، ولد عام ١٩١٧ بمدينة حمص، في أسرة متواضعة، ربّاه أبوه الشيخ سعيد الملوحي إمام الجامع النوري الكبير، وتلقى تعليمه الابتدائي وقسماً من التعليم الثانوي فيها، ثم تابع تحصليه الثانوي بدار المعلمين العليا بدمشق، غادر إلى القاهرة وحصل على الإجازة في الأدب من الجامعة المصرية عام ١٩٤٥، وكان من بين أساتذته فيها: الدكتور شوقي ضيف الذي علّمه حب العمل وتواضع العلماء، وأحمد أمين الذي أوحى إليه محبة الجمال والحياة. وإثر عودته إلى دمشق عمل في التدريس بثانويات القطر حتى عام ١٩٦٠، حين انتقل إلى وزارة الثقافة ليصبح مديراً للمركز الثقافي في كل

---

(١) رحل الأديب عبد المعين ملوحي بتاريخ ٢٠٠٦/٣/٢١م.

من حمص ودمشق لأكثر من عشر سنوات، وانتهى به المطاف في العمل الوظيفي مستشاراً ثقافياً في القصر الجمهوري، وشهدت مسيرته بعدها محطة جديدة عندما سافر إلى الصين، ونال لقب أستاذ شرف بجامعة بكين عام ١٩٧٧، واضطره المرض للعودة أخيراً إلى الوطن، والتفرغ للتأليف والنشر..

عقل حر وقلب متفتح على الحياة:

بدأ اهتمام "الملوحي" بالأدب منذ حداثته، فكان يخط مشاعره وإحساسه عن كل ما يقرأ في دفاتر خاصة به، وفي الرابعة عشرة من عمره وحسب نظم أول قصائده، ونشرتها له جريدة "ألف باء" الدمشقية عام ١٩٣٦، ومن بين العوامل الكثيرة التي كونت ثقافة كما يقول: "من خلال معايشة الواقع بقلب متفتح وعيون ترى وأيد تلمس، لا يحتاج الإنسان لأكثر من قلب وعقل وعينين ليتفاعل مع الواقع، إضافة إلى روافد ثقافية علمية وإنسانية فسَّرت أوضاع الإنسان في العالم من الناحية الفلسفية والفكرية والأدبية، كما أثرت الحرب العالمية الثانية تأثيراً كبيراً في تكوين عقلي".

تزين مكتبة "الملوحي" لوحة مخطوطة فيها عبارة "غاندي": لا أريد لبيتي أن يكون مسوراً من جميع الجهات، ولا أريد أن تكون نوافذي مغلقة، أريد أن تهب على بيتي ثقافات كل الأمم بكل ما أمكن من حرية، ولكنني أنكر على أي منها أن تقتلعني من أقدامي"، وقد مارس "الملوحي" ذلك عملياً فهو مؤمن وقومي عربي واشتراكي، يدور إيمانه حول محاور ثلاثة:

الإيمان بالله بدون تعصب، الإيمان بالقومية العربية، والإيمان بالاشتراكية بمعناها الواسع: العدالة الاجتماعية لكل البشر.

عطاء خير في كل مجالات الفكر:

ربما لم يعط أي مفكر آخر في وطننا ما أعطاه "عبد المعين الملوحي" للمكتبة

العربية من ثمرات إبداعه الخيرّ ... فقد مارس كل ألوان الفنون الأدبية الشعر والنثر والترجمة وتحقيق التراث العربي، والتأريخ في الحياة الاجتماعية والأدبية وكانت المحصلة: ١٥ جلداً في تحقيق التراث، و١٧ مجلداً في التأليف والدراسات والأدب الذاتي، و٣٥ كتاباً في تراجم الآداب العالمية شرقاً وغرباً، و٤ دواوين شعر.

أصدر في البداية ديوان "ديك الجن الحمصي" ثم توالت تحقيقاته لديوان "عروة ... شاعر الصعاليك" و"الحماسة الشجرية" ونشر كتاب "مواقف إنسانية في الشعر العربي" عرض فيه ستين موقفاً من روائع العشر العربي والعالمي، كما روى في مجموعته القصصية: "من تاريخ فرنسا في سوريا" حكايات من نضال الشعب ضد الاستعمار الفرنسي، ويعتبر من أهم أعماله مؤلَّفه "دفاعاً عن أبي العلاء"، ومجلداته الثلاثة في "أشعار اللصوص وأخبارهم" (٩٠٠ صفحة) التي أصدرها بعد جهود وبحث تواصل لأكثر من أربعين عاماً، أمضاها في تقصي أخبار الشعراء اللصوص وجمع تراثهم، وتسلّط هذه المجلدات الضوء على ظاهرة شبيهة بالصعلكة لم تدرس بعد في العصر الإسلامي "لقد أعجبني طرافة شعر اللصوص، واندفاعاته، وتصويره لحياة فئة من الناس خيّل إليها أن اللصوصية يمكن أن تحل مشكلة الغنى والفقر، فثاروا على المجتمع ثورة فردية، فقتل بعض، وسجن بعض، وهرب بعض إلى القفار يعاشر الضباع والذئاب، وقضى بعض حياته فقيراً ... هذه الطرافة في شعر اللصوص وهذا التصوير لحياتهم دفعاني لتتبع شعرهم في كل مظانه، ووصلت إلى صيد يمكن أن اعتبره ثميناً.

عيون آداب الشرق بالعربية:

تتجلى اهتمام "الملوحي" بالآداب الشرقية" في ترجمته لعيون الأعمال الأدبية لكوكبة المفكرين في الأدب الفيتنامي (٤ مجلدات)، و"تاريخ الأدب والشعر الصيني القديم والحديث" (مجلدان) "جناح جبريل" لمحمد إقبال "وداغستان بلدي" لرسول

حمزاتوف، إلى جانب مؤلفات "غوركي" و"ليني" وديستويفسكي" وكان اهتمامه بهذه الآداب عائداً لسببين، الأول: رفع وصاية الغرب وتحكمه في أدبنا وثقافتنا والتي تسبب في جهلنا بآداب الشعوب الشرقية، والثاني: أن هذه الآداب تحمل في مضمونها الكثير من تطلعاتنا وأفكارنا، فهي تحارب الرجعية والاستعمار والمظالم الاجتماعية، أي أنها تنقل لنا تجارب تلك الشعوب التي أنقذت نفسها، ويذكر "الملوحي" أنه زار الدكتور "شوقي ضيف" حين حاز على جائزة الملك فيصل في الأدب، فسأله: لماذا لم ترسل لي تاريخ الأدب الفيتنامي؟ فأجابه: أنت عميد الأدب العربي فماذا تصنع بالأدب الفيتنامي؟ رد الدكتور ضيف: "يا عبد المعين، إنك لا يمكن أن تكون أديباً عربياً إن لم تكن أديباً عالمياً" وأهتم "الملوحي" من جانب آخر، بالأدب الأوروبي والثقافة المعاصرة فأصدر مجلداً في الأدب السويدي من أول عصوره وحتى اليوم، إضافة إلى مجلدين لبرنادشو، ومجلدين لهنري هايني من الأدب الألماني، ومجلد لكوتستانتنون: "دور الأفكار التقدمية في تطوير المجتمع" وقد طبع أربع مرات متتابعة، وكل من يقرأ ترجمات "عبد المعين الملوحي" لروائع الأدب العالمي، يشعر بأنها كتبت أصلاً باللغة العربية، ويعود ذلك إلى أنه يقوم بالترجمة مرتين: "الأولى ترجمة حرفية يتقيد فيها بالنص الأصلي، والثانية ترجمة أسلوبية تحافظ على البيان العربي المشرق.

أمير شعراء الرثاء:

مثل الشعر للملوحي عالماً من السحر والجمال قائماً بذاته فحلّق فيه منذ يفاعته تحليق شاعر مجلّ، كان في الواقع نتيجة زلازل نفسية عاتية، وقد أجبرته مآسي حياته على أن يكون شاعر رثاء، إذ ذاق منذ طفولته مرارة فقد الأخ بعد الأخ، ثم الزوجة والبنت، ولعله تنبأ بهذه المآسي حين قال في رثاء صديق عام ١٩١٨:

"ما فيك يا ديوان شعري بسمة ... بل أنت قطر دم ونقع جهاد"

واستعاد هذه الفكرة حين تحولت النبوءة إلى واقع، فردد في رثاء ابنته "ورود":

"يـا طفلتـي هـذا أبـوك يظـل ينعـب كـالغراب
أشعاره سود تعشعش في الظـلام وفـي الخـراب"

وربما لم تنل قصيدة رثاء عربية من الشهرة والخلود ما نالته قصيدته في رثاء زوجته الحبيبة "بهيرة"، ومن بعدها قصيدته في رثاء زهرته اليانعة ابنته "ورود"، كانت الأولى ثمرة هزة عاطفية عنيفة عاشها الشاعر حين اختطف الموت رفيقة عمره، فرسم في ٢٥٠ بيتاً من الشعر الباكي لوحة فنية رائعة غنية بالصور واللحن الشجي، وعكست سخطاً على الحياة وصل بالشاعر إلى حد الإلحاد:

"الموت – مات الموت – وحش كاسر الأنياب قاس
يلهـو بـأفراح الحيـاة فتـستحيل إلـى مآسـي"
"أبهيرتي ... هذا الجنون، فعفو قلبك عـن جنـوني
لم أستطع فهماً لموتـك يـابهيرة ... فاعـذريني"
"بيني وبين الموت حرب لـم تـزل حربـاً عوانـا
وسقطت فيهـا فانثيـت أجـرّع الـنفس الهوانـا"

ولكن الشاعر في قصيدته الثانية والتي أفرغ فيها ذوب جوانحه مـن المعانـاة والعذاب لفقده ابنته، عاد من جديد إلى حـوزة الإيمـان الـصادق ورجـاء العفـو والمغفرة:

"يا رب عفوك – إن أطقت العفو – عن تلك القصيدة
هـذا اعتـذاري سـطرّته اليـوم مأسـاة جديـدة
جرّبتني يومين – يـوم رضـا علـيّ ويـوم نقمـة
في تلـك إيمـان العـذاب، وهـذه إيمـان رحمـة
آمنت لا إنـي أريـد الـربح، أو أخـشى الخـسارة

آمنت إيمـــان الهـــدى، وتركـــت للنـــاس التجـــارة"

كانت القصيدتان مثل شعر "الملوحي" كله مشبعتين بالأفكار الإنسانية والفلسفية العميقة، وتعكسان المخزون اللغوي والثقافي والغني والفكري الكبير الذي يمتاز به.

من جانب آخر لم ينس الشاعر في غمار مصابه الشخصي مأساة وطنه وأمته، بل بقيت تشغله، فيشخصها بدقة الخبير ولوعة الغيور الذي عرّض حياته للمخـــاطر في سبيل تحرر وتقدم بلاده والإنسانية كلها:

"مأساة شعب كدت أنـــسى عنـــدها مأســـاة بيتـــي
واحسرتا ... دهت المصاب أمتـــي وقـــتلن بنتـــي
وطنـــي الكبيـــر ممـــزق، فلكـــل مزرعـــة حـــدود
شـــعبي العظـــيم مـــوزّع فلكـــل مغتـــصب عبيـــد"

نبع رقراق من نفس صافية:

آمن "الملوحي" بالإنسان، وبالمستقبل المشرق الذي ينتظر الإنـــسانية، ولخّـــص سيرته في هذه الحياة المليئة بألوان العطاء، والتي لم ينتظر مقابلاً لها، وهو شـــعور نابع من أصالة نفسه، وعفته وقناعته.

"قصرت علي ربي وشـــعبي مـــودتي ... فياليتهم يبـــدو لهـــم مـــا بـــدا ليـــا
وما خنت عهدي للـــشعوب، وإنمـــا ... دعاني – فلبيت – الهدى إذ دعانيـــا
وآمنـــت بالإنـــسان يبنـــي حـــضارة ... ويهدم في الإنسان مـــا كـــان باليـــا
ولم أترقب – حين أعطي – عطاءهم ... كفـــاني أنـــي مـــا حجبـــت عطائيـــا
أصـــالة نفـــسي لا تـــضن بنفـــسها ... تدفق مثـــل النبـــع رقـــراق صـــافيا
وعشت عفيفاً راضي الـــنفس قانعـــاً ... يراني صحابي ناعم العـــيش هانيـــاً"

لقد تجمعت لشعر "الملوحي" كل عناصر البلاغة والفصاحة والصور الفنية والموسيقا الشفافة، كما اجتمعت في نفسه مبادئ خيرة مبنية على الوضوح والصدق والإيمان والعمل، وكان في كل ما أنجزه من إبداع، منسجماً مع ذاته، وطنياً في سيرته، محباً لأمته، وبقي يردد على الدوام بتفاؤل صادق:

"يقولون لي: لن تشهد الفجر ساطعاً   بلى كنت قبل الفجر للفجر هاديا

إذا ما طواني الموت قبل انبلاجه   فحسبي أني كنت في الركب حاديا

لقد عشت بحاراً قضى العمر تائهاً   ولاح له شط فألقى المراسيا

ولو خيروني لثم ثغر حبيبتي   ولثم ثرى أرضي لثمت ترابيا"

أصدر الملوحي موسوعة الطير والحمام في الأدب العربي، في أربعة أجزاء، وفي هذه الموسوعة سجل واف لكل ما قيل في الطيور والحمام من أشعار عبر الأحقاب، وفي هذه الأشعار رصد تاريخي للشعر العربي في معالجته لقضية واحدة هي الطير.

وقد استخدم الشاعر العربي الطير والحمام بخاصة، لبث لواعج روحه وتوجداته، وهي لحظات الحزن لدى الشاعر في أغلب الأحيان ومن الطريف أن كل هذه الأشعار التي غطت حوالي /٨٠٠/ صفحة تبين مدى أهمية الحمام والطيور بعامة، في بث حرقات النفس واللوعة عند الشعراء العرب.

وقد تبدت لنا عبر هذه الأشعار قصص طريفة عن الحمام وموقعها في النفس العربية، هذا في باب الشعر، أما باب النثر فقد أفرد الملوحي فصولاً عن الطير (الحمام) في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف وفي الأمثال العربية وما فيها من جمالية وجزالة تعبير ولغة.

يستهل الكاتب هذه الموسوعة بقصة حمامة صدحت قرب الشاعر جهم بن خلف المازني أنشدها أبو بكر بن دريد فقال:

أبكيت أن صدحت حمامة أيكة عجباً ... ورقاء تهتف في الأراك وتسجع
عجباً لمبكي عينها وجمودها ... وللوعة في صدرها ما تقلع
غردت بلحن فاستجاب لصوتها ... ورق على فتن الغصون تفجع

وحينما يهيم شاعر بحبيبته التي فارقته، كان يتخذ من الحمامة رمزاً للبوح بما تختزنه روحه من وجد وهيام، وهذا ابن الثرية يقول:

تذكرت ليلى أن تغنت حمامة ... وأنى بليلى والفؤاد قريح

إذن الحمام رمز للبكاء والنوح، ومقدمة للوجد والبوح في الأدب العربي، والشعر تحديداً وهذا ابن المعتز ينوح لنوح الحمامة فيقول:

وبكيت من حزن لنوح حمامة ... ودعت الهديل فظل غير مجيبها
ناحت ونحنا غير أن بكاءنا ... بعيوننا و بكاؤها بقلوبها

لقد اتخذت النساء من الطيور وبخاصة النسور رمزاً لوصف الحبيب فهذه جنوب الهذلية (أخت عمرو ذي كلب) تصف الحبيب قائلة:

تمشي النسور إليه لاهبة ... مشي العذارى عليهن جلابيب

ومن الطير ما هو نذير شؤم كالبوم والغربان، ومنها ما هو آية للجمال كالحجل، وكذلك النعام التي تحسب مع الطيور وهي أشبه بالبعير وفيها يقول الشاعر مزدرياً آخر:

كمثل نعامة تدعى بعيراً ... تعاظمها إذا ما قيل طيري
فإن قيل احملي قالت فإني ... من الطير المرتب في الوكور

أما الفخر فيرمز إليه بالنسر:

لا تعجبوا من صيد صقر بازيا ... إن الأسود تصاد بالخرفان

ومن أشعار عنترة ذات الأوجاع والحزن، تلك التي استخدم فيها الطير ومنها:

وسألت طير الدوح كم مثلي ... بأنينه وحنينه المتردد
شجا ناديته ومدامعي منهلة ... أين الخلي من الشجي المكمد
لو كان مثلي مالبست ملوناً ... وهتفت في غصن النقا المتأود

وفي باب النثر أفرد الأستاذ الملوحي فصلاً خاصاً بميزات الطيور فذكر أعمارها:

الورشان: ١٠٠ سنة، العقاب: ١٠٠٠سنة، النسر: ٢٠٠٠ سنة.

وعن حنان الطيور نذكر مما جاء في كتاب الحيوان الكبرى، أن ليس في الأرض طائراً أو سبع ولا بهيمة أحن من العصفور على ولده ولا أشد له عشقاً.

وذكر قصة على لسان علي بن العباس النوبختي عن أبي الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي الذي كان عليلاً فعاده ليواسيه وبعد طويل كلام نختصر قول ابن جريج بما يلي: واسكن في دار قليب وهو مشتق من الانقلاب، فقد انقلبت بي الدنيا كما ترى واعظم ما علي: يجتمع في السدرة في داري كل يوم العصافير يصيحون في وجهي: سيق سيق فأنا في (السياق) فغادره فإذا هو قد مات والطيور أجناس كما جاء في سرور النفس للتيفاشي.

كل طائر يهدل ويرجع مثل: القمري /هو الحمام عند العرب والدباسي/ والفاختة: جنس من القماري وهو هجين لا عنق له، والورشان واليمامة واليعقوب.

ثم أورد الكاتب الطيور في فقه اللغة العربية وفي غيره من بطون التراجم العربية وأمات الكتب والمراجع الكبرى، وأفاض في دراسته شرحاً وتفصيلاً ونقداً في معالجته للشعر العربي من بلاغة واستعارة وتشبيه وصور ...الخ، في موضوعه الذي اختاره وهو الطير ووقف على الأساليب الأدبية في شعر الحمام في مختلف العصور من طبع وتطبيع وصنعة وتصنع فهي كما قال تختلف من العصر الجاهلي إلى الأموي ومنه إلى العباسي لكن تشابهاً بين هذه العصور والمواقف في شعر الحمام وكذلك التعابير.



خليل مردم بك:

أنشد للوطن والقيم الإنسانية السامية

يعد شاعر الشام خليل مردم بك، علماً من أعلام الأدب في سوريا وواحداً ممن اغنوا ساحة الفكر العربي بمؤلفاتهم ما بين كتب محققة، ومجموعات شعرية راقية.

وقد سجل خليل مردم، الشاعر والأديب سيرة حياته بقلمه، فقال: "ولدت في دمشق سنة ١٨٩٥م وقبل أن أبلغ السنة السابعة من عمري جعلت أذهب إلى الكتاب، ولما تجاوزت العاشرة، دخلت إلى مدرسة الملك الظاهر الابتدائية الرسمية، وكنت منذ عقلت على نفسي، وصرت أقرأ وأكتب أجدني ميالاً للشعر وقراءته وحفظه، وفي هذه المدرسة وجدتني أقول الشعر دون أن يكون لي إلمام بشيء من علوم العربية.

وانتقلت بعد ثلاث سنوات إلى المدرسة الإعدادية الرسمية، ولم أمكث بها إلا سنة، وبعضها، ثم شرعت أتلقى دروساً خاصة في العربية وآدابها، كما أخذت مع النحو طرفاً من الفقه عن الشيخ عطا الكسم، وطرفاً من الحديث عن الشيخ بدر الدين الحسني، وكنت مع رفاق لي في الطلب نجتمع في أوقات معينة لمراجعة الدروس، ومطالعة بعض كتب الأدب، وكان أكثر اعتمادي في الأدب على دراستي الشخصية.

ولما جلا الأتراك عن دمشق في أواخر سنة ١٩١٨م، وقامت الحكومة العربية عينت مميزاً لديوان الرسائل العامة، وفي سنة ١٩١٩م عينت مدرساً للإنشاء في مدرسة الكتّاب والمنشئين التي جعلتها الحكومة لموظفيها خاصة، وحين أعلن استقلال سورية الأول، وبويع الملك فيصل ملكاً عليها وتألفت أول وزارة سورية نقلت من ديوان الرسائل العامة وسميت معاوناً لمدير ديوان الوزراء، وعند دخول الجيش الفرنسي دمشق وبرحها الملك فيصل صرفت من عمل الحكومة.

وفي سنة ١٩٢١م أسس فريق من الأدباء في دمشق جمعية (الرابطة الأدبية) فانتخبت رئيساً لها وكان من أعمال هذه الجمعية أن أصدرت مجلة "الرابطة الأدبية"

ونشرت كتاب "معاني الشعر" للأشناندانى وكان لي فيهما عمل.

ولم يطل عمر هذه الجمعية لأن السلطة الفرنسية أمرت بإلغائها، وفي سنة ١٩٢٥م انتخبت عضواً في (المجمع العلمي العربي) وكانت أطروحتي كتاب "شعراء الشام في القرن الثالث"

وكنت قد درست بدمشق اللغة الإنكليزية مدة يسيرة ثم ذهبت سنة ١٩٢٦م إلى لندن لأتمم دراستها بين أهلها، فمكثت في لندن ثلاث سنوات حضرت في أثنائها محاضرات في اللغة الإنكليزية وآدابها بجامعة لندن فضلاً عن الدروس الخاصة التي كنت أتلقاها هناك.

وفي سنة ١٩٢٩م درّست الأدب العربي في الكلية العلمية الوطنية بدمشق، واستمر عملي بها تسع سنوات ألفّت في أثنائها سلسلة "أئمة الأدب العربي" طبع منها خمسة أجزاء وهي (الجاحظ، ابن المقفع، ابن العميد، الصاحب بن عباد، الفرزدق)، وفي سنة ١٩٣٢م أصدرت مع الدكاترة جميل صليبا وكامل عياد وكاظم الداغستاني مجلة "الثقافة" فعاشت سنة واحدة.

وفي سنة ١٩٤١م انتخبت أميناً عاماً لسر المجمع العلمي العربي، وفي سنة ١٩٤٢م عهد إلي بوزارة المعارف، وفي سنة ١٩٤٨م أعيد انتخابي لأمانة سر المجمع العلمي العربي، وفي هذه السنة انتخبت عضواً مراسلاً للمجمع العلمي العراقي، وفي سنة ١٩٥١م رجعت إلى أمانة سر المجمع العلمي العربي، وفي سنة ١٩٥٢م عهد إلي بوزارتي المعارف والخارجية، وفي سنة ١٩٥٣م انتخبت رئيساً للمجمع العلمي العربي".

وظاهر من هذه السيرة عن حياته أنه كتبها في فترة رئاسته للمجمع العلمي العربي لتحفظ في ملف المجمع، كما جرت العادة بالنسبة لأعضاء العاملين في المجمع.

نشأته:

ولد خليل مردم بك في أسرة لها اهتماماتها الكبيرة بالأدب والسياسة، ومن هنا نمت لديه وترعرعت الموهبة الأدبية، ففي ديار أسرته من آل مردم (التقى بالدكتور عبد الرحمن الشهبندر خطيب الثورة السورية، وشكري العسلي، وعبد الوهاب الإنكليزي، ورشدي الشمعة، وهم من أعلام النهضة العربية وممن حكم عليهم جمال باشا بالإعدام سنة ١٩١٦، كما التقى بالعلامة محمد كر علي، وفارس الخوري، وأنيس سلوم، وجورج حداد، وسامي العظم، وعارف الشهابي، وفي الدار أيضاً انعقدت حلقة الرابطة الأدبية التي ضمت نخبة من رجال الأدب أمثال: سليم الجندي، وأحمد شاكر الكرمي، وعز الدين التنوخي، وشفيق جبري، ومحمد الشريقي، وماري العجمي، وفخري البارودي، وعبد الله النجار، وحليم دموس، وغيرهم..)، انتخبوا خليل مردم رئيساً لهذه الرابطة التي كانت تعقد جلساتها في داره، كما كانت هذه الدار تشهد حلقات أدبية خاصة من فرسانها الأمير شكيب أرسلان، والأساتذة: محمد كرد علي، وعبد القادر المغربي، وإسعاف النشاشيبي، وسليم الجندي، وجميل صليبا، وكامل عياد، وكاظم الداغستاني، وجميل مردم، حيث كانوا يعقدون الندوات الأدبية ويتبادلون فيها الآراء ويبحثون في الأوضاع السياسية والقومية.

كما كانت دار الخليل محجاً لرجال الفكر والأدب من خارج سوريا أمثال الشاعر أحمد شوقي حين زار دمشق سنة ألف وتسع مئة وأربع وعشرين، والشاعرين العراقيين: جميل صدقي الزهاوي، ومعروف الرصافي، والشعراء: خليل مطران، وبشارة الخوري، وإيليا أبو ماضي، كما كانت محجاً لكبار الكتاب من مصر أمثال: أحمد حسن الزيات، وإبراهيم عبد القادر المازني، ومحمود تيمور، وزكي المبارك.

هذا الجو الفكري الذي أحاط بدار الشاعر، طبعه بطباع أدبية وسياسية تجلت في صقل موهبته الشعرية التي بدت طلائعها في زمن مبكر، كما تجلت في شحذ نزعته الوطنية والقومية، وفي تعلقه بالشام وبأهلها وفي انكبابه على دراسة تاريخها وثقافة وعادات أهلها حتى أصدر كتباً عديدة في هذا المجال من أبرزها: شعراء الشام في

القرن الثالث الذي كان أطروحته حين دخوله إلى المجمع العلمي العربي، بالإضافة إلى تحقيقه وجمعه ونشره لشعر العديد من الشعراء الشاميين، كما فعل في دواوين ابن عنين وابن حيوس، وابن الخياط.

كذلك أكب الشاعر على التأليف في سن مبكرة، وكان باكورة إنتاجه الأدبي مؤلفه الأول "جمهرة المغنين"، أتمه وهو في الثامنة عشرة من عمره، وأعقب جمهرته بكتاب "الأعرابيات".

إن إنتاج الشاعر الأدبي، شعراً ونثراً ظهر في وقت مبكر من حياته وقد مرت بنا إشارته إلى محاولاته في نظم الشعر وهو لا يزال في المرحلة الابتدائية، كما أننا نلمح نضجاً فنياً في شعره الذي قاله في الخامسة عشرة من عمره وفي مرحلة المراهقة فهو في رثائه لأبيه ووصف جنازته يقول:

لا أقـول ونعـشه يختـال تيهـاً تحـيط بـه المـهابة والجـلال

خليلـي احـسرا دمعـي قلـيلاً لأنظـر كيـف سـيرت الجبـال

ويحس القارئ لهذه الأبيات نغمة الجزالة التي تطبعها بطابعها، كما أن المعاني والصور التي وردت فيها تنبئ عن مخزون شعري من التراث ترك طابعه على الفتى منذ مطلع حياته الشعرية، وهذه الأبيات هي تقليد للصور القديمة: قوموا انظروا كيف تسير الجبال. ولا شك أن كل شاعر يبدأ حياته الشعرية مقلداً ثم يبلغ مرحلة الإبداع إذا كانت ملكته الشعرية مواتية.

وقد حاول الخليل ترجمة بعض روائع الشعر العالمي، فترجم شعراً عدداً من القصائد عن الألمانية والفرنسية والفارسية، وكان في ذلك يستجيب لنزعة التعريب لروائع الآثار العلمية التي سادت في مطلع هذا القرن، والتي كان من فرسانها في مصر مصطفى لطفي المنفلوطي، وفي ديوان الخليل نجد عدداً من هذه القصائد المترجمة، ونسوق هنا مقطعاً من ترجمة شعرية لقصيدة فرنسية عنوانها (حتى القبر) لندلل على بروز هذه النزعة في أدب الخليل وهذا المقطع هو مطلع القصيدة وهو:

آليت في حبك رعي السعهد حتى أبيت هامداً في لحدي
جعلت نفسي لك وقفا عندي و ما أراك تحفظين ودي
فداك أمي وأبي ونفسي يا أملي و وحشتي وأنسي
كم ذا لقيت من شقا ونحس كي تظهر يوماً بمجلى السعد

تميز الخليل بحبه لعمله وتفانيه فيه سواء حين كان موظفاً أو مدرساً أو وزيراً أو سفيراً أو مجمعياً، وهذه الصفة الأخيرة هي التي ائتلف معها وأمضى شطراً من عمره فيها، تضاف إلى هذه السجايا خصال عرف بها وهي نزاهته وهدوءه، ولطف معشره، وعكوفه على المصادر القديمة. وكانت مجالسه في المجمع أشبه بمجالس القدماء حافلة بالنشاط الأدبي، ولم تكن تخلو من ذكر النوادر الأدبية التي كانت تلطف الجلسات بالرغم مما عرف عن الرجل من هدوء واتزان وميل إلى التشاؤم والاعتكاف، ومما يدل على إخلاصه في عمله، أنه حين كلف بتدريس الإنشاء العربي لموظفي ديوان الحكومة الفيصلية انكب على كتابة محاضراته لتخرج غاية في التركيز، فلم يترك الخليل بالرغم من إيجازها شيئاً إلا وأشار إليه، فقد ابتدأ بتاريخ الكتابة عند العرب، ثم عصر النبي صلى الله عليه وسلم، فالخلفاء الراشدين، فعصر بني أمية، فعصر بني العباس، وصولاً إلى الفترة التي كان يعيشها وذكر باباً في شروط الإنشاء، وآخر للمختارات التي اختارها من شتى العصور، كما كتب فصلاً عن الشعر، وذكر في آخر الكتاب أسماء طائفة من الكتب التي يمكن للدارس أن يستفيد منها، وأعتقد أن مدرسي الإنشاء العربي سيجدون في محاضرات الخليل عوناً لهم ومرشداً، وبالرغم من أنه كتب هذه المحاضرات وهو لا يزال في ريعة الصبا ولم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره.

كما أن إحدى الصفات البارزة في الخليل هي دراسته الشخصية فلم يقبل أن يحصر تعليمه ضمن مناهج محددة، بل تعداها إلى دراسات خاصة موسعة سواء في دمشق أو في لندن.

وفي ولهه بالشام الذي تحدث عنه دارسوه لا نستطيع أن نفصل هذه النزعة عن تعلقه بوطنه وقومه وعروبته، فالشام لديه رمز للأهل والقوم والوطن.

أجاد الشاعر في قصائده الوطنية أيما إجادة، وأثار المشاعر اللاهبة ليس في بلاد الشام فقط، بل في أرجاء المشرق العربي كله، فانتشرت قصائده في كل مكان، وهي المليئة بالمعاني الوطنية، وبالقيم التي كان يؤمن بها.

اعتمد الخليل أسلوباً خاصاً في التحريض وإثارة النفوس، وهو أسلوب تبيان الحقيقة عارية ولو بشكلها البشع في محاولة منه للتحريض والثورة، كما جاء في قصيدته "الحلف والجار" التي قيلت بمناسبة حوادث لواء الإسكندرونة الذي اغتصبه الأتراك من سورية.

بني (العروبة) كم من صيحة ذهبت — لو يستثار بها الموتى إذن ثاروا
إن الحوادث لو أدركتم عبر — فأين - لا أين - ألباب وأبصار
الرحم واشجة والدار جامعة — فلم تقطع أرحام وأقطار

إلى أن يأتي على ذكر فلسطين التي أصبحت فيما بعد في قمة اهتماماته القومية.

إخوانكم في فلسطين تنالهم — بالسوء والعسف أنياب وأظفار

والأسلوب نفسه اتبعه في ذكرى المولد النبوي، حين خاطب النبي الكريم، وقال:

نحن في الشام نقاسي — فوق أهوال القيامة
ما لنا من أمرنا حتى — ولا مثل قلامة
أخذوا الأمر وأعطو — نا المعالي والفخامة
هل يصير الهر ليثاً — حين تدعوه أسامة؟

وكان الخليل شديد الإعجاب ببعض معاصريه من الشعراء، وكتب عن بعضهم كتابات نقدية ضمنها آراء في فنهم، وفي توجهاتهم، ومن الشعراء الذين أعجب بهم

الخليل أحمد شوقي، فقد كتب عنه دراسة تدلنا على نظرته إلى شعره وإلى سلوكه، يقول فيه:

(يمتاز شوقي بقوة طبعه، ودقة حسه، وسرعة ملاحظته قبل كل شيء ويكمل ذلك فصاحة أسلوبه، وروعة بيانه، وكرم ديباجته وذوقه الموسيقي الشعري في ألفاظه وتراكيبه، فهو بذلك قد استكمل أدوات الشاعر الخلقية والكسبية فهو إذن الشاعر حقاً، لا أعرف شاعراً قادراً على تصوير كل ما يجول في نفسه، مجيداً في كل فن من فنون الشعر مثل شوقي فتراه يلج إلى الشعر من كل باب ويترجم به عن كل خالجة، وهو أطوع له من ظله، فتراه ينظم في المواضيع السياسية والتاريخية والاجتماعية، والفلسفية، والأدبية، والقصصية، وفي باب التربية والعلم ويتغزل ويتصابى، ويصف الخمر ومجالس الأنس والرياض، ومناظر الطبيعة والآثار الخالدة ويمدح ويرثي، ويفخر، ويعزي، ويتهكم، حتى أنه لم يشأ أن يتخلى نظم الشعر العامي المعروف بالموالية).

ويتحدث خليل مردم عن قصيدة شوقي في دمشق فيصفها بأنها: (غاية في البراعة، فلقد ضرب بها على الوتر الحساس من الدمشقيين، وبلغ مكامن عواطفهم، فاستثارها، فذكر لهم عدنان، وغسان، وأمية، وعبد الشمس، ومروان.

وحين يتحدث عن فلسفة شوقي في الحياة وعن انعكاس هذه الفلسفة في شعره يلمح التناقض بين أفكاره وسلوكه وينكر عليه أن تكون له هذه الفلسفة فيقول:

"ليس لشوقي فلسفة خاصة في الحياة، ولكنه مولع بالدعوة إلى مكارم الأخلاق على شكل سطحي عام، هي بالموعظة أشبه منها بالرأي الذي يعتمد على أسس وقواعد، قال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهو مع ذلك كثير التمتع بلذائذ الحياة"، ويريد الخليل من خلال حديثه عن شوقي وفلسفته، (ومن خلال عملية إسقاط نفسي)، أن يقول إنه صاحب فلسفة في الحياة وأن

سلوكه ينسجم مع ما يؤمن به من أفكار وقيم، وما يطرحه من آراء، عكس ما كان عليه الحال عند شوقي.

وكان الخليل معجباً أيضاً بحافظ إبراهيم الذي حرص على لقائه في مصر والكتابة عنه. وكان في الوقت ذاته معجباً بمصر محباً لأدبائها، وكان يهتم بكل إنتاج أدبي يصدر عن مصر من منطلق الاعتزاز بها وبدورها العربي ولهذا فهو حينما اضطر إلى مغادرة سورية اختار مصر ملجأ له.

سافر الخليل إلى الإسكندرية بعد فراره من السلطة الفرنسية، وفي الإسكندرية تأثر بجوها وثقافتها ورأى في هذا الثغر الجميل أثر الحضارة الغربية مما كان له الأثر التحريضي في سفره إلى بريطانيا وانتسابه إلى جامعة لندن لاستكمال دراسته العالية التي حرم منها في دمشق، وفي مقامه في مصر اطلع بشكل واسع على إنتاج شعراء مصر، واجتمع إليهم وحضر منتديات الشعر مما ترك في نفسه ذكريات عزيزة سجلها في مقالات كتبها بعد عودته إلى سورية ونشر معظمها في مجلة المجمع .. كما أفاد من وجوده في لندن ووقوفه على الأدب الإنكليزي حيث انقطع لدراسته وأعطاه وقته وجهده، وفي لندن توقف عن نظم الشعر في محاولة للتفرغ لطلب العلم والاطلاع على الثقافة الغربية، ولكنه خلال فترة اغترابه لم ينقطع عن الحنين إلى مرابع صباه ومرابع قومه في دمشق، ولكن عاطفته الوطنية التي طال احتباسها في الغربة تفجرت حين عودته إلى دمشق سنة ١٩٢٩ بعد صدور العفو عنه وتجلت في قصيدة وطنية مطلعها:

تلاقــوا بعــد مــا افترقــوا طــويلاً فمــا ملكــوا المــدامع أن تــسيلا

وفي هذه القصيدة عبر عن مشاعر انتابته بعد لقاء الأحبة، وفيها يهيب الشاعر بقومه أن يقلدوا الغرب في علومه، ويدعو العرب أن يجعلوا القوة شعارهم وأن يركبوا الأخطار، وأن لا يهادنوا في حقهم الصريح وأن لا يحسبوا حساب المستحيل وأن يحطموا القيود والأغلال.

وكان لغربته أثر واضح في دراساته الأدبية، فقد كتب عن أعلام الأدب العالمي وخاصة الأديب الإنكليزي (جورج برناردشو).

لقد اختير الخليل بعد تركه لوزارة المعارف ليكون أميناً لسر المجمع العلمي العربي إلى جانب صديقه الرئيس محمد كرد علي، كما أصبح عضواً مراسلاً في المجامع العلمية وفي المؤسسات الثقافية العربية والأجنبية، فقد منح عضوية مجمع اللغة العربية بمصر عام ١٩٤٨م والمجمع العلمي العراقي عام ١٩٤٩م، ودائرة المعارف الإسلامية سنة ألف وتسع مئة وواحد وخمسين، ومدرسة الدراسات الشرقية بلندن في السنة نفسها، ومجمع البحر المتوسط في باليرمو في السنة التي تليها، والمجمع العلمي السوفياتي عام ١٩٨٥م، وفي عام ١٩٥٣م اختير وزيراً للخارجية السورية، وفي السنة نفسها انتخبه المجمع العلمي العربي رئيساً له، "فحقق أسمى ما يصبو إليه أديب، أوعالم".

وانصرف إلى الاهتمام الكلي بالمجمع والعناية بشؤونه وتشجيع المؤلفين والمحققين بكل الوسائل المتاحة له، وبقي رئيساً للمجمع حتى عام ١٩٥٩م عام وفاته، وكان يحس في أخريات أيام بغصة على أيام الشباب.

واهاً لأيام الشباب الغض ... ما كان أهنا العيش لو لم تمض

وكان رحيل الشاعر صبيحة الثلاثاء الحادي والعشرين من الشهر السابع عام ١٩٥٩م عن عمر يناهز الرابعة والستين، عمل فيها مكافحاً في سبيل اللغة العربية وتراثها وتطوراتها ونشرها وتطوير فنونها ومجالاتها، وكان لفقدانه أثر عميق في قلوب الأدباء، والمفكرين العرب في شتى أقطار العروبة، مما يدل على المكانة الكبيرة التي حققها بجهده ودأبه وإخلاصه وموهبته ووطنيته.

نستطيع أن نلخص ملامح تكوين الخليل الثقافي ونحددها أنه في مراحل ثلاث هي:

١- مرحلة التحصيل الأولى:

وهي مرحلة مختلفة المشارب والاتجاهات، والطابع العام لهذه المرحلة أنها كانت على الطرق القديمة المألوفة شعراً ونثراً، وذروة نتاج الخليل العلمي الممثل لهذه المرحلة هو كتابه" شعراء الشام في القرن الثالث"، الذي قدمه أطروحة للمجمع العلمي سنة ١٩٢٥م.

٢- مرحلة التحصيل الرافد:

وهي المرحلة التي قضاها في مصر أولاً ثم في بريطانيا، حيث التقى في الأولى كبار الشعراء والأدباء وتأثر بمدارسهم، ودرس في الثانية الإنكليزية و وآدابها مطلعاً عن كثب على أسلوب في الحياة والثقافة مختلف اختلافاً كبيراً عن الأسلوب الذي درج عليه وتعلمه في المرحلة الأولى، ولم ينتج آثاراً في إنتاجه بشكل غير مباشر، وقد بدا تأثير هذه المرحلة واضحاً في دراسته عن أئمة الأدب العربي حين تدريسه في الكلية العلمية.

٣- مرحلة التكوين الأدبي المتعمق:

وهي المرحلة التي تلت مرحلة التدريس وامتزج فيها نتاجه بنشاط سياسي وثقافي واضح، وقد اختتم هذه المرحلة برئاسته للمجمع العلمي العربي وبإصداره دراسات وتحقيقات معمقة بالإضافة إلى نضوج في الصياغة والمضمون.

نفسي ومالي في سبيل بلادي

ولد والقرن التاسع عشر يلفظ أنفاسه، في دمشق لأب هو أحمد مختار مردم بك، وأم هي السيدة فاطمة الحمزاوي ابنة السيد محمود الحمزاوي مفتي الشام وعلامته، وكان ذلك عام ١٨٩٥.

وما كاد يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى فقد أباه، ثم أمه بعد أربع سنوات، فعلقت هذه الصورة الحزينة بذهنه منذ صباه فراح ينظم في رثائهما ويصوّر حزنه وأساه، قال في أبيه:

(أقول ونعشه يختال تيهاً   تحيط به المهابة والجلال
خليلي احسرا دمعي قليلاً   لأنظر كيف سيرت الجبال)

وقال في أمه يرثيها، ويفتخر بنسبها:

(يا قبر لم تدر ما ضمنت من شرف   عال تفرع من (فهر) و(عدنان)
أماه أبدلت بالأملاك مكرمة   (أهلاً بأهل وجيراناً بجيران)
ذهبت قانتة لله صائمة   فكان عيدك لقيا الله ذي الشان)

وهكذا افتتح حياته بالحزن والفاجعة، ففقد أبويه في مطلع عمره، وراح يسير في الدنيا يتيماً وحيداً يعتمد على الحذر والصمت، والصبر في حياء وخجل وتردد وقلق، فانطبعت شخصيته بذلك، وعاش كل عمره قليل الكلام، شديد التأمل، هادئاً متزناً، ووراء ابتسامته الدمشقية حزن قديم عميق، يستشفه الذين عرفوا نشأة الشاعر وتمرسه بالصبر والسكون..

ومضى الشاب في طريق التعليم على أسلوب ذلك العصر .. أقبل على الحديث والفقه والصرف، فدرس الحديث على المحدث الخالد الشيخ بدر الدين الحسني، والفقه على قاضي الشام الشيخ عطا الكسم، والصرف والنحو على الشيخ عبد القادر

الاسكندراني، وكان هؤلاء بمثابة الجامعة الكبرى في عصرهم.

كانت الدنيا العربية في مطلع شباب الشاعر تتحفز فتقفز، وكانت الحركة الأدبية عند أدباء العربية في المهجر في أوجها، فآثار (الرابطة القلمية) بدأت تصل إلى الشام التي فتحت آذانها على أصداء النغمات الحلوة، وتلقفت الأسماع والأفهام، شعر إيليا أبي ماضي، وأدب جبران ونعيمة والريحاني، ونسيب عريضة، وندرة حداد، فإذا بالأصداء تنعكس في الشام فتتشكل الرابطة الأدبية برئاسة خليل مردم يعاونه في ذلك المطران إيفانيوس (وكان شماساً آنئذ)، كما عاونه عدد غير قليل من الأدباء، وأصدروا مجلة باسم هذه الرابطة خدمت الأدب العربي خدمات جلى، كما خدمت بشكل خاص الصاعدين على سلم الأدب..

حين اقتحم الفرنسيون دمشق بحرابهم ترك الشاعر الوظيفة وانصرف إلى ميدان النضال العريض يغذي ديوانه بالشعر القومي، ويسلم إليه أجمل ودائعه وثقافته الحرة، ويجعل نفسه فداء للوطن، ويقول:

(أنا ما حييت فقد وقفت لأمتي — نفسي ومالي في سبيل بلادي)

وهكذا بدأ الشاعر يرتقي سلم المجد الأدبي ركضاً..

- عام ١٩٣٤ أصبح عضواً بارزاً في المجمع العلمي العربي. ثم رئيساً له.
- عام ١٩٤٨ صار عضواً في المجمع اللغوي بالقاهرة.
- عام ١٩٥١ انتخب عضواً في معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن.

وخلال هذه الآونة عكف على الشعراء الشاميين يحيي أدبهم، ويجمع مخطوطاتهم، ويقابل بين أوراقها ويصحح أخطاءها ويعلق على غوامضها، ويفسر المستغلق منها، فكأنه أصبح رجلاً آخر، يعنى بشعر زملائه ممن تقدموه سبعة قرون على الأقل، فأخرج للناس دواوين:

(ابن عنين الدمشقي، وابن حيوس الدمشقي، وابن الخياط الدمشقي، وعلي بن

الجهم). وقد كان شعر هؤلاء بعيداً عن مظانه، لا يعرف الأدباء منه إلا ما حوت كتب المختارات، فيسره ووطأ أكنافه على تدقيق واف، ومقدمات ودراسات..

وخلال هذه الفترة من حياته بدأ يتولى المناصب الوزارية، كما تولى السفارة السورية في العراق.

كان يقترب من المناصب الوزارية كلما أحس باقتراب المنصب من الأدب العربي، ويبتعد عنها كلما ابتعدت عن احترامها للإرث والتراث..

كان أستاذاً .. معلماً كما يقولون في الأوساط الأكاديمية. رجل صارم إذا تعلق الأمر باللغة العربية وآدابها وفنونها، عذب أعظم العذوبة إذا تعلق بالكياسة الشامية، ومنه سمعت ذات مرة تعريفاً للفظة (تدمشق)، لقد سأله أحد أدباء الفارسية: ماذا تعني كلمة (تدمشق)، فأجاب بصرامة وجدية:

إنها تعني (تحضر)

قاس كل القسوة إذا تعلق الأمر بماضي الأدب العربي العريق..

كان يحرس مع القلائل من إخوانه هذا الصرح العظيم المسمى (الشعر العربي الشامي)، وكان هذا الشعر قد تعرض لكل ما تتعرض له الأصالة حين تجور عليها الأيدي المختلسة.

لهذا رأيناه وسط دنيا لم تعد القيمة فيها للشعر الأصيل، ووسط جو صار فيه تملق غرائز المستمع والقارئ أسهل من تربية روحه وتغذيتها .. وسط هذا الجو راح الخليل ينبش الإرث الشامي، والتراث الشامي .. وكان متعصباً لثلاثة أشياء:

الإسلام .. الشام .. اللغة العربية

ولم يكن تعصبه ينبئ عن إحساس فاتر أو دعوى عاطفية، إنما كان يؤمن أن دنيا الشعر الشامي أغنى آلاف المرات من دنيا غيره .. لقد كان يرى في حب الشام وآدابها غاية مضيئة الوجود، وعطراً كونياً تنتشي به الروح .. ولعل هذا كان من حظ الشام التي أنجبته:

((أدال الله جلـــق مـــن عــداها وأحسن عــن أضــاحيها عزاهـــا
فكم حملت عن العــرب الــرزايـــا كــذاك الأم تــدفع عــن حماهـــا))

ثم يلتفت إلى الشهيد يوسف العظمة:

((أيوسف والــضحايا اليــوم كثـــر ليهنــك كنــت أول مــن بداهـــا
فــديتك قائــداً حيـــاً وميتـــاً رفعــت لكــل مكرمــة صواهـــا
فيا لــك راقــداً نبهــت شــعبـــاً وأيقظت النــواظر مــن كراهـــا
ويا لك عـــاثراً أنهــضت مـنــا عــزائم بعــدما وهنــت عراهـــا))

ويختتم القصيدة بقوله:

(سأقـــصر فـــالقوافي اليـــوم جمـــر أخاف على المـــسامع مـــن لظاهـــا)

وبينما ينظم للشام نشيدها الوطني (حماة الديار) نجده ينتقل في حبه إلى الغوطة، غوطة الشام، فيخاطبها:

((كم في أزاهير الريـــاض لنـــاظر من مقلة وســنى وخــد ناضــــر
ماست أماليد الغــصون بوشــيها معطـــارة وازينــت بجــواهـــر
لله ما صنعت وما جـــاءت بــــه في الغوطتين يد الربيـــع البـــاكر
بسطت وثير قطيفة فــوق الثــرى خضراء فيها كــل لـــون زاهــر
من أحمر قان، وأصـــفر فـــاقع أو أزرق زاه، وأبــيض ســـاحر
وكســت وحلــت سـمحة آثارهـــا فجلت عرائــسها بوشـــي فاخـــر
معقودة الإكليـــل، زهـــراء الحلـــى خفاقـــة الأقـــراط، ذات أســـاور
أرخت من الظل الظليـــل غـــصونها طرراً وأذيالاً وفــضل مـــآزر))

من هذه الحمىّ التي يسمونها الحب، صاغ الخليل كتابه (الشعراء الشاميون)، لقد اعتمد المؤلف في دراسته عن هؤلاء على النص وحده، أي على ديوان الشعر المخطوط، وقام باستقرائه واستطاع من قراءة النص النفاذ إلى البواطن الخفية للشاعر، إلى ثقافته العامة .. خياله الشعري .. لغته وإلى العصر الذي عاش به، وأعطى المؤلف لكل شاعر كتب عنه الصورة الكاملة لمجتمعة السياسي والفكري والاقتصادي، وذكر ما لهذه العوامل من أثر فعال في حياة الشاعر، كما أن المؤلف لم يهمل العامل النفسي والفطري وبيان ما لهذا العامل من أثر فعال.



شفيق جبري :

شع في شعره النور من قلب النكبات

هو أحد رواد الحركة الثقافية والأدبية في مطلع هذا القرن، وكان مع أصحابه الشعراء: خير الدين الزركلي، وعمر أبو ريشة، وخليل مردم، وبدوي الجبل، ومحمد البزم، وغيرهم، يمثلون الرعيل الأول من النخبة الواعية التي تصدت للاحتلال الأجنبي في سورية، وأذكت الحماس لدى الشعب العربي، للوقوف بحزم وصلابة في وجه هذا المستعمر الدخيل، وأشاعت بشعرها نور الأمل من قلب النكبات، واستلهمت نسائم الخلاص من أعماق الظلم والاستبداد، وأذكت أشعاره روح الثورة في إضراب الخمسين يوماً، عام ١٩٣٦، والذي سقطت على أثره الحكومة، واضطر الفرنسيون يومها إلى أن يمدوا أيديهم للتفاوض مع الكتلة الوطنية.

ولد الشاعر (شفيق جبري) كما خط بقلمه – يوم الأربعاء في (١٤) من شعبان عام ١٣١٤هـ والموافق لسنة ١٨٩٨م، فأرسله أبوه وهو من تجار دمشق إلى كتاب الحي، على عادة زمانه يتعلم القراءة والكتابة، فدرس القرآن الكريم، وتمرس في الخط والحساب، حتى بلغ السادسة من عمره، وانتقل إلى مدرسة اللعازاريين بدمشق، فبقي فيها تسع سنوات، حصل في ختامها على الشهادة الثانوية.

ثم سافر الشاعر إلى (يافا) في فلسطين، وإلى (الإسكندرية) في مصر، متنقلاً مع أبيه من بلد إلى بلد، وفي مدينة الإسكندرية، وقع على ديوان (المتنبي) وبعض (المعلقات)، وقرأ شعر البحتري والشريف الرضي، ثم عاد إلى دمشق عام ١٩١٨م، وانتسب إلى وظائف الدولة فأصبح رئيساً لديوان المعارف في أواخر الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م وكان ينشر المقالات والقصائد في الصحف، فامتلك قدرة على الشعر والنثر قلما تتشأ لغيره.

في كلية الآداب:

حين أنشأت وزارة المعارف كلية الآداب الأولى سنة ١٩٢٨م، عين أستاذاً فيها ووكيلاً لمديرها، وألقى خلال سنتين عدة محاضرات عن الجاحظ والمتنبي، كان لها أثرها في نفوس الطلاب.

وبقي مدة في الوظائف الحكومية، ثم انقطع عنها خمس عشرة سنة .. ثم عاد إليها عميداً لكلية الآداب، وقد اختير عضواً للمجمع العلمي العربي بدمشق، يملأ مجلته الرفيعة بمقالاته وبحوثه، ثم عضواً في اتحاد الكتاب العرب بدمشق، ومقرراً في لجنة النشر بالمجلس الأعلى للآداب والفنون بالقاهرة، واستمر عميداً لكلية الآداب حتى عام ١٩٥٨م، حين أحيل على التقاعد، وبعدها آلى على نفسه أن يظل رهين متنـزهه في (بلودان) يعابث الشعر والفكر حتى وافته المنية، ورحل عن هذا العالم لينضم إلى قافلة الخالدين.

شخصيته:

يتحدث الشاعر عن نفسه في كتابيه: (أنا والشعر) و (أنا والنثر)، ومن صفاته قلة الضحك، وقلة الكلام، أما قلة الضحك فناشئة عن كآبة دخلت على قلبه منذ صغره، فأضفت عليه طابع الحزن الذي غلب على حياته، وكان علامتها المميزة، وأما قلة الكلام فناشئة عن كثرة تفكيره وتأملاته.

كذلك اشتهر بحب العزلة، والابتعاد عن مخالطة الناس، فهو رقيق الشعور، تؤذيه الكلمة النابية، والنكتة الجارحة، ووصف حالته بأبيات تصوّر نفسه وعزلته عن العالم، فقال:

(تجافت عن الدهماء لم تحتفل بهم — ترى عبسهم بشراً وبشرهم عبسا

فما ألفت بالليل بارقة الدجى — ولاهي ناغت في رفيف الضحى الشمسا

ومالي وما للناس أبغي وصالهم — فما وصلهم نعمى ولا هجرهم بؤسا)

لقد آثر جبري أن يحدث الطبيعة، وأن تحدثه، فهي جميلة الوشي، عظيمة التنسيق، تبرز مفاتنها لمن يفهم ويتذوق المفاتن، وشاعرنا صحبها طويلاً فأخلص لـها وعاف الناس، فوجد عندها كما قال: (راحة البال ومتعة القلب وهدوء الأعصاب).

والذي دفعه إلى حب الأدب والتعلق به، زميل له في الدراسة، صرفه إلى مكتبة صغيرة عامة، أقبل إليها ينهل من كتبها مرة أو مرتين في كل أسبوع فينسخ شعر المتنبي في شرح اليازجي، أو يعلق بمجلة الضياء لليازجي نفسه، فيحفظ من هذا ويردده، ويتقن تقليده حتى وقع في حب الأدب، وتعشّقه مدى حياته.

وعندما انقضت الحرب العالمية الأولى، دخل شاعرنا غمار الحياة، وكانت البلاد في ثورة فكرية شديدة – ثورة على الحلفاء الذين نقضوا عهودهم ومواثيقهم – فاندفع في قول الشعر معبراً عن عواطف البلاد الوطنية، ونزعاتها نحو التحرر والاستقلال، فكانت قصائده ترجمان هذه الثورة، ومع كونه لم ينتسب إلى حزب من الأحزاب، ولا مارس السياسة بالفعل، فإنه كان صوت كل حزب وطني، رغم بعده عن الناس وإيثاره العزلة في أغلب حياته العامة.

ولم يعش الشاعر في محيط معين، وإنما عاش في محيط نفسه، فقد خلق لهذه النفس أفقاً يناسب مزاجها وتفكيرها وشعورها، إن نظمه للشعر ينبع من عاطفة جياشة متقدة، ولفظ منمق مختار، وأسلوب متين جزل، وقد كان (للمتنبي) و(للبحتري) أثرهم الكبير في نفسه وشعره، أخذ عن الأول الروح العالية، وأخذ عن الثاني سلاسة التعبير.

وتأثر بالكاتب (ابن المقفع) والأديب الفرنسي (أناتول فرانس) فاقتبس عن ابن المقفع وضع اللفظ في موضعه، حتى أصبح له أسلوب خاص يعرف به، وانصرف إلى أناتول فرانس، فأخذ عنه وضوح التعبير ودقة التصوير.

ويملك شاعرنا أربع صفات، اتسمت بها شخصيته خلال مراحل حياته، أولها الالتزام الأخلاقي، وثانيها صدق الحس الجمالي، وثالثها علم واسع، ورابعها الأسلوب

المنطقي العملي.

آثار المطبوعة:

- (المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس)
- (الجاحظ معلم العقل والأدب)
- (العناصر النفسية في سياسة العرب)
- (بين البحر والصحراء) سلسلة (اقرأ)
- (دراسة الأغاني)
- (أبو الفرج الأصفهاني)
- (محاضرات عن محمد كرد علي)
- (أنا والشعر)
- (أنا والنثر)
- (أرض السحر)
- (نوح العندليب)

آثار التي لم تطبع:

- (على صخور صقلية) رحلة إلى أوربة.
- (جبار القرن التاسع عشر أحمد فارس الشدياق).
- (أفكاري) مجموعة مقالات ومحاضرات.

شاعريته:

امتاز جبري بالروح العالية، والخيال المصقول، والأسلوب المشرق، وتبدو الذاتية قوية في كل سطر من سطور مقالاته وكتاباته وأشعاره، وطرق موضوعات مختلفة وحاكى المتنبي والبحتري والشريف الرضي في شعره وتمثّل شعرهم المتين، واختزن منه صورٌ رائعة، كانت تنفعه وتعينه، كلما دعاه شيطان الشعر إلى النظم.

وبدأ الشاعر بنشر قصائده في الصحف والمجلات منذ بلوغه العشرين من عمره، واقتفى آثار القدامى في نظم تلك القصائد، وضمت أغراض ذلك الزمان من مديح أو رثاء أو غزل.

فقد أورد في كتابه (أنا والشعر) أبياتاً، قالها في رثاء تاجر كان صديقاً لأبيه،

وجاء فيها:

(أودى المنـــون بواحـــد الآحــــــاد وعدت علــى ربــع الكــرام عــواد
والدهـــر يعثـــر بالكــــرام وقلمــــا عثـــرت صـــروف الـــدهر بالأوغـــاد
شلت يـــد الأحـــداث كيـــف تخرمـــت شـــرخ الشـــباب ونضـــرة الأعـــواد)

فهذا الشعر على ما فيه من تقليد الشريف الرضي في رثاء الصابي، كما يعترف صاحبه، فهو جميل السبك لفتى في العشرين من عمره، ويبشر بولادة شاعر أتقن موسيقى الشعر، وكأنه موصول النشأة بمن قبله من الشعراء، ضمن سلسلة متصلة الحلقات.

شاعر النضال:

وخاض جبري ميدان النضال، كزملائه الشعراء، فجسد بشعره أماني العرب جميعها لا يقتصر على قطر دون قطر، وقد امتدح العرب وافتخر بهم، وألمح للوحدة الشاملة فقال:

(للـــه ثـــورات تبــــارك أهــلهـــــا أثنـــى عليهـــا الـــواحـــد الـــقهـــار
في (النيل) منها ضجة مـــيمـــونـــــة حســـنت بـــها مـــن ربعــه الآثـــار
ومشى الضجيج إلى الـــشآم فـــرددت أصـــــداءه الأنـــــجاد والأغـــــوار
أكرم بوادي النيـــل إن رجالـــــــــه كرهوا الخضوع فلم يشنهم عار)

لقد جمع ثورة الشام إلى ثورة مصر، ورأى أن العرب ينهضون في ثورة عارمة، ثم يقول ثانية يعرض للعراق كما عرض لمصر:

أيثـــور أهـــل النيـــل دون لهـــاذم وعلـــى الفـــرات لهـــاذم وصـــفائح

دخل الفرنسيون بلاد الشام، في شهر تموز سنة ١٩٢٠م، وحلت الكارثة بالبلاد،

وضاع الحلم العذب الذي راود عيون السوريين، فانبرى الشعراء يبكون حال بلادهم، ويندون بالتفرق والذل، فقال (شفيق جبري) يصف حال البلاد:

(أيها السائل عن أرْبُعنا إنما الأربع صارت دِمَنا
ليس في أفيائها غير فتى واجف الأضلع يشكو الزمنا
يرسل الأدمع من أجفانه فيسلي بالدموع الأجفنا
فمروج الشام تشكو ضيمها أين من يكشف عنها المحنا؟)

وقلما تمر حادثة في مصر، أو في سورية، أو في قطر عربي، دون أن يقول فيها شعراً، قال في الذكرى الثالثة لوفاة (سعد زغلول) الزعيم المصري، وكأن قد تجاوز الثلاثين من عمره:

(لا خير في شعب يسا ق إلى الأذى سوق الضئين
من هان في طلب الحقو ق قضى بغصات المهين
عاشت لنا مصر وعا ش رجال مصر الأكرمون
وطن بناه كل تر بٍ للمحامد أو خدين)

إنه يهيب بالشعب السوري، أن ينهض كالشعب المصري لبناء الوطن، فما يبنيه إلا أبناؤه، وما يذود حماه إلا جنوده، وقد ظل الشاعر يفضل أشعار النضال والثورة، فكانت أكثر زاده في الأدب، كذلك تحدث عن بطولات العرب، في مهرجان الشعر الأول بدمشق عام ١٩٥٩م، فقال:

(يا دامي الجرح لا جرح ولا ألم الجرح بعد انتفاض العرب ملتئم
امسح دموعك إن ماجت موائجها فكل ثغر على الأيام مبتسم
تلك البطولات كالأهرام راسخة فأين ما طمسوا منها وما هدموا)

وشارك جبري في رسم البطولات، وتحدث عن الأبطال، والرجال العظام في الأدب والفكر والتاريخ، فرسم لوحة رائعة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأطلق في ختامها صيحة جديدة في فلسطين بعد صيحاته ضد الأتراك والفرنسيين، فقال:

(فأيــن رســول الله يشهد أمـــــة تئن أنين الطير من كل ذابــح؟
فهل صيحة في العرب تبعــث ملكهــم ألا ربما هبوا بصيحة صائــح!)

أصبحت فلسطين شغل شعره الشاغل، فأعاد القول فيها بقصيدته (ثورة العرب) ووصف اليهود الصهاينة كما يستحقون أن يوصفوا به، فقال:

(أيــعــيــث اليهود في حــرم القــد س فســاداً والــــنوم يأخـــذ منــا
لفــظتـــهم جوانــب الأرض شـــذا ذاً فتاهوا الــقرون قــرناً فقرنا
ضجرت منهم الــشــياطين والأنـــ س فأنى نــحنو علــيــهم أنى؟
أحصدوهم حــصد الــســنابل حتــى تتداعى (صهيــون) ركناً فركنـــا)

فالصهاينة شذاذ الآفاق، لفظتهم الأرض، فتاهوا وسيظلون تائهين أبد الدهر، ولن تكون فلسطين موطناً لهم، ولا بد من تحريرها بعد طردهم منها وتدمير بيوتهم ركناً .. ركنا.

وبلغ جبري السبعين من عمره، وهو ما يزال يعتلي المنابر ليصدح بصوته الجهوري أغانيه في تمجيد العروبة والبطولات حتى وافته المنية، وهو يتحدث عن قضايا الأدب والوطن.

شاعر الطبيعة:

اشتهر (شفيق جبري) بحب العزلة عن الناس، يحدث الطبيعة وتحدثه، فهو شاعر مرهف الإحساس، يتأثر بأدنى المؤثرات قوة، وينفعل لأقل الانفعالات شدة، فالطبيعة جميلة الوشي، عظيمة التنسيق، تبرز مفاتنها لمن يتذوقها، وقف مرة على شاطئ

بيروت، فبهره البحر، فقال:

مـــاج الخـــضم وزلـــزل الـــصدر　　مـــالي ومالـــك أيهـــا البحـــر
للعاصـــفات عـــلى شـــواطئه　　حنـــق علـــى الأيـــام محمـــر
فكأنمـــا هاجـــت بـــوادره　　أمـــم يهـــدم حوضـــها الـــدهر

وسمع مرة هديل الحمام، فقال:

نـــاح الحمـــام علـــى الغـــصو　　ن فهـــاج معتـــلج الشـــجون
وصـــبا إلـــى مـــضض الهـــوى　　وأنـــا صبـــوت إلى العـــيون
لكنـــه حبـــس الـــدمـــو　　ع ومـــاج دمعـــي بالجـــفون

اختار الشاعر بلدة (بلودان) مصيفاً، وبنى فيها داراً صغيرة، تطل على الروابي الخضراء وهي محاطة بحديقة صغيرة امتلأت بأشجار التفاح، ودمشق الفيحاء على جمال غوطتها لم تلق من الشاعر إلا التحية بعد التحية، والدعاء بعد الدعاء، فرسم لها لوحة مزدانة بالألوان والظلال:

قالت دمشق وقد ناجيت غوطتهـــا　　ومائـــج الدوح فـــي جنبّـــي مطّـــرد
أتترك الروض والأنـــغام تمـــلؤه　　وتنتحـــي البيـــد لا روض ولا غـــرد
ما تسمع الأذن حساً فـــي مـــسارحها　　كأنمـــا المـــوت فـــي أطـــرافهـــا لبد

شاعر الرثاء:

رثى (شفيق جبري) الزعماء والرؤساء وأعلام الفكر، وقد وفق هنا أكثر مما وفق في عواطف الطبيعة والحب، وقد تأثر من غير شك بالرثاء في الأدب العربي القديم، لقد رثى ولي الدين يكن سنة ١٩٢١ ، فقال:

(يا حـــاوي الآفـــاق مـــن آيـــاتـــه　　كيف احتوتك رموســـها وقـــبورها

**وضحــت لــك الظلمـــات في أجوائنا		فــعلمت كيــف تــضيئها وتنـــيرها**

**بصحـــائف بيــض تـــلألأ نـــورهـــا		تجلو الظلام عن القلـــوب ســطورها**

صور المرثي في أوج حياته ومجده، ثم رسمه ميتاً قد خلّف الأمجاد والمفاخر وقضى، وبذلك يكون قد جمع المديح والبكاء معاً.

ورثى الشاعر أحمد كرد علي (شقيق العلامة محمد كرد علي) سنة ١٩٢٧ فقال:

**لم ألف وجهك في الحــوادث عابـسـاً		تلهو وتضحك في عنيــف وثابهـــا**

**لك في عواقبـــــها منـــى معــســـولة		ما كنت تيأس في كثيــف حجابهـــا**

**كنت الضنيـــن بـــأن تـــــفوتك لـــذة		لم تشـــرب اللألآء مـــــن أكوابهـــا**

تحدث عن صفات الفقيد ومنها طلاقة الوجه، واللهو والبعد عن اليأس، إنها صورة صادقة قوية، رثى الشريف الحسين بن علي سنة ١٩٣١م فقال:

**يا ابن النبي ومـــا الآذان ســـــامعة		فهل تلبــي زحـــوفاً أنت داعيها**

**لما رأيت قلـــوب العـــرب واجفـــة		من الشدائد ما تـــسجو ســـواجيها**

**وأهـــل جلـــق بـــالأعواد عالقـــة		أعناقهـــم وســيوف القــوم تفــريها**

**مبعثرون عـــن الأوطــان تلحظهـــم		عيـــن المنيـــة مـــا تغفو غـــوافيها**

**بعثتها ثـــورة دهــــواء مائـــــجة		بالهاشـــميين مخضوبـــاً حواشـــيها**

**حمراء أوقد جنبيهـــا القنـــا وســـقى		فتيانهـــا من نجيع التــرك ســـاقيها**

وصف فيها حال العرب في الشام، وقد علقت المشانق وشرد الأحرار، فثار الحسين وبعثها حمراء دامية من نجيع الترك.

موهبة النثر:

إن اهتمام (شفيق جبري) بالنثر، لا يقل عنه في الشعر، وهو موصول النسب

بكلتا الموهبتين، موهبة الشعر، وموهبة النثر، فأسلوبه جميل ينزل من النفس منزلة سهلة، فهو لا يتقعر بألفاظه، ولا تتنافر كلماته، بل نرى التماسك قوياً بين جميع جمله، منذ بداية البحث حتى نهايته، وقد أصدر عدداً من المؤلفات النثرية، التي تضم مقالاته المنشورة في الصحف والمجلات، والمحاضرات التي ألقاها على طلاب كلية الآداب، وهي على جانب كبير من القيمة الأدبية.

في مقالة له، بعنوان: (وطننا الروحاني) يقول: " لم يعد الوطن، على ما قرره أحد علماء الاجتماع، عبارة عن أرض الآباء والأجداد الذين يتمم نسلهم حياتهم الأولى، ولكن الوطن إنما هو جملة تقاليد وأفكار وعواطف مشتركة، تجعل أهل البلد الواحد يشعرون بأنهم أخوة، وإذا أردنا أن نؤمن بقوة هذا التعريف فلننقل رجالاً من وطنهم إلى وطن رجال آخرين، حتى يدركوا أعماق المهاوي الروحية التي تفصل بين شعوب تختلف حالاتهم الذهنية، ونستطيع أن نشهد هذا الأمر في مؤتمر يجتمع فيه رجال من أوطان شتى فلا تلبث أن تنشأ الاختلافات بينهم، ولا تنشأ اختلافات المصالح وحدها، ولكنا نرى اختلافات العواطف والأفكار التي تمنعهم عن أن يفهم بعضهم روح بعض، وقد تؤلف بينهم المعتقدات السياسية ساعة من الزمن، ولكن ماضيهم البعيد لا يلبث أن يفصل بعضهم عن بعض، وهذا أمر لا يطول زمن شعورهم فيه".

في هذه المقالة، يسكب (شفيق جبري) روحه بالوطن، ويمزج نفسه بالعروبة، ونراه موصول الأسباب ما بين شعر ونثر فقد وقف حياته ولسانه على التغني بوطنه وعروبته، فبرع فيهما، وسكت عن كل ما عداهما، حتى وافته المنية ولسانه يلهج بالوطن والأدب والشعر.

ويمتاز شعر (شفيق جبري) – كما رأينا – بقوة الألفاظ، وتدفق الأحاسيس لأنه يسكب فيه من روحه، وهو متين ذو جرس جميل، وقوي التراكيب ومنسجم الأبيات في وحدة متكاملة متسلسلة، لا يتقدم بيت ولا يتأخر بيت، واهتمامه بالنثر لا يقل عنه في الشعر.



محمد البزم :

شاعر جاهلي في القرن العشرين

"أنا الفحل في صوغ القوا في مجرب وإنّ ضـــلالاً أن يُــزار المُجَــرَّبُ
وإنّي أفعــى الــشعر أحمــي ذمــارَه وإن دبَّت الـضَّراء للـشعر عقــرب"

مما يثير الدهشة أن قائل هذا الشعر ليس واحداً من عمالقة العــصر الجــاهلي، الذين تميز شعرهم بجزالة اللفظ، وعبقرية السبك، ومتانة القوافي، بل هــو شــاعر معاصر من جيلنا، وواحد من أربعة شعراء يحملون لقلب "شاعر الشام" وهم: خليــل مردم بك، شفيق جبري، خير الدين الزركلي، ومحمد البزم، وكلهم جــدير باللقــب وأهل للتكريم والتقدير، ولكن البزم ينفرد من بينهم بنفحة جاهلية في أكثــر شــعره، وفحولة في لغته، ولهذا لقَّبه بعض النقاد بالشاعر الجاهلي الذي يعيش فـــي القـــرن العشرين.

و"محمد البزم" الذي مرت على رحيله في الثاني عشر من أيلول عــام ١٩٥٥ قرابة نصف قرن، من مواليد دمشق عام ١٨٨٧، بعد حياة حافلة علّم فيها مواكــب من تلاميذه، وقدَّم للمكتبة العربية عشرات المؤلفات في اللغة والنحو والشعر، ومــن المفارقات العجيبة في سيرته، أنه بلغ العشرين من عمره وهو لا يعرف من القــراءة غير سور قصيرة من القرآن الكريم، فلما سنحت له زيارة دار الكتب الظاهرية تنبَّه لضرورة تعلُّم العربية وفنونها، فأخذ يتردد مع صديقه الشاعر والمؤرخ: "خير الدين الزركلي" على حلقات شيوخ الفيحاء وعلمائها، يقرأ عندهم دواوين فحول الــشعراء، وأمهات كتب اللغة والبلاغة والنحو والمنطق، فكان من أساتذته: الشيخ الأديب عبــد القادر بدران، وجمال الدين القاسمي، وصالح التونــسي، وغيــرهم، ثــم انــصرف للمطالعة بنفسه، وخاصة في كتب النحو، وما لبث أن انتدبه الشيخ كامــل القــصاب

لتدريس فنون البلاغة والإنشاء في المدرسة العثمانية وكان في السادسة والعشرين من عمره، وفي تلك الفترة المبكرة بدأ ينظم الشعر، مقلداً القدماء في ألفاظهم وأساليبهم، فلقي حظوة وتشجيعاً من ذوي الخبرة في الأدب والشعر، مما دفعه لنشر قصائده ومقالاته النقدية في الصحف والمجلات، وخاصة مجلة "الميزان" لصاحبها" أحمد شاكر الكرمي" والتي صدرت بعيد الحرب العالمية الأولى، حافلة بالنقد الرفيع، والدراسات الراقية.

تقلّب "البزم" لمدة خمسة وعشرين عاماً في منابر التعليم، وأمضى أكثرها في مدرسة التجهيز (الثانوية الأولى)، وكانت تجمع نخبة المدرسين في مختلف فروع التعليم، وبالذات في قسم اللغة العربية، الذي ضم الفطاحل من أعضاء المجمع العلمي العربي أمثال الشيخ: عبد القادر المبارك علَم اللغة، وسليم الجندي: حجة النحو، وعز الدين التنوخي، وآخرين وراحت تدور بينهم محاورات ونقاش في الأدب واللغة والنحو والشعر، ليتحول القسم إلى مجلس من مجالس القدماء في الكوفة والبصرة وبغداد، حتى إذا خلا "البزم" إلى نفسه التفت إلى نظم الشعر في أبوابه المختلفة، وخاصة الفخر بأجداده العرب، والإيمان بوحدة الأمة وعبقرية لغتها، ومدح شعراء العربية الأفذاذ، كما أبدع في شعره الوطني الحماسي، وفي نقده لأخلاق الناس والمجتمع.

اعتز البزم بوطنه العربي الكبير فأنشد يقول:

"جلّق منبت جسمي وعلى — دجلة محتد قومي الغابرين
وإلى بغداد مهوى النفس لي — أنة تنتابني حيناً فحين
وحشا تهفو على أم القرى — مهبط الوحي ومهد الراشدين
وفؤاد سؤله في يثرب — كاهل المجد وارض الفاتحين
وبنجد لا تعدّاها الحيا — منعة العرب ومثوى المتقين
وبصنعاء تخطّاها الأذى — عزة البيت إذا ملّ العرين

وهكذا جعل البزم لكل أرض في دنيا العروبة ركن في قلبه جدير باعتزازه وفخره، وشغاف الشاعر بمدينته "دمشق" فخاطبها بقصيدة اربت على المئة وستين بيتاً تعدّ في فرائد الشعر العربي المعاصر، يقول فيها:

"رفعتْ على حرم الخلود بنوداً | وَمَضتْ تحلّق في الإباء صعوداً
بنت العصور الحاليات نحورها | بالزهر تسطع ما عرفن خمودا
ريحانة الدنيا وظل نعيمها | من قبل مولد يعرب وثموداً

وترنّم بنهرها الخالد "بردى":

"أخت الخلود وما الخلود مفارق | برداك ما عشق الأنس خلوداً
صافٍ كأخلاق الكرام يحثه | كرم النِجار لينعش المفؤودا
مترقرق طوع النسيم مسلسل | كخواطر الشعراء رُمْنَ قصيدا
متهلل الجنبات بسّام البشرى | يُغريكَ بالحسن الجديد تليدا"

وأنشد لغوطة دمشق الغناء: التي تألقت بمفاتن الطبيعة، وسحرها الباهر:

"وثنت معاطفها الغصون فكلها | ثملٌ يعانق من أخيه ميودا
يتمازج الدمعان دمع غمامها | بحبيس خضرتها فتنضر عودا"

أثقلت الهموم على "البزم" وواجه الحسد والضغينة، وتملّك اليأس نفسه، فصاح يناجي أبا العلاء المعري هاتفاً:

"وعلّمتني أن أصحب اليأس رامياً | سعيداً وبعض اليأس ينعم زاخره
يمزق جلد الصبر صبري على الأسى | كأن الأسى في مهجتي شبّ عاصره

وبرم بالناس وخداعهم فبرع في نقدهم وذمهم، وسلَّ عليهم سيف هجائه فقال:

"لا يخدعنَّك من خِبِّ موادعة فكلهم وأبيك الخير، حرباء
إن آنسوا الضعف من ذي غرة دلفت إليه موارة بالشر شهباء
لهم نفوس بغير اللؤم ما نزلت وهل تقوم بغير الجسم حوباء"

كانت الشكوى من الناس في صميم شعره الإنساني، فغمرت ديوانه مسحة من الكآبة التي رافقته في الهزيع الأخير من عمره، فعاش بعيداً عن الناس في حجرة نائية بالمشفى العسكري، وأصابه العمى وركبه الشلل، وقضى وحيداً غريباً بعدما ملأ الصحف بقصائده الرائعة ومقالاته النقدية البليغة.

وبعد وفاته قام المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بنشر ديوانه الكبير، كما طبع عدداً من مؤلفاته في النقد، وما تزال مخطوطاته الكثيرة والقيمة تنتظر الطباعة والنشر، لتحكي ذكرى عَلَمٍ غيورٍ على لغته عاشق لوطنه، تخرجت على يديه أجيال من المعلمين والأدباء، ورجال السياسية، يفخرون جميعاً بأنهم من تلامذة الشاعر الخالد: محمد البزم

المصادر:

- الشعراء الأعلام في سوريا: د. سامي الدهان
- موسوعة الأعلام: خير الدين الزركلي
- حديث العبقريات: عبد الغني العطري

ولو شئت سيرت القوافي جحافلاً

أولع محمد البزم باللغة العربية الفصحى، وهاله ما يعاني الطلبة من صعوبة في النحو، مما ينفر الطلبة من اللغة العربية وهي روح هذه الأمة، فراح يجهد نفسه في البحث عن حل يسهل الأمر على الدارسين، ويقرب اللغة لطالبيها، فعكف على كتب الأقدمين - الكتب الصفراء - درساً وتنقيباً وبحثاً وحفظاً، وراح يتكلم الفصحى في كل موقف ومكان، حتى صارت عادة لديه، في حين كان سواه لا يتكلمها إلا بين جدران الصفوف ومما يروى عنه، أنه كان يكلم خادم المطعم قائلاً:

"ائتني بقصعة من الحمص، وإياك أن تذر عليه شيئاً من التوابل والأفاويه، وجنبني ما استطعت الحامض والزيت" فجمد الخادم في مكانه وراح ينظر إلى رفاق البزم لعلهم ينقذونه من هذه الورطة، فلما لم يضحكوا أدرك أن الأمر جد وليس هزلاً، كما أن طلبته يروون عنه الكثير من الأقوال الفصيحة التي تجمع النكتة والبلاغة معاً، مثل قوله لمن كان يلعب بقدميه في الصف لإحداث أصوات مزعجة: يا هذا أليس لعقلك سلطان على رجليك ؟ أو مناداته لطالب يقعد في زاوية الصف: قم يا جار الحائط، أو قوله لطالب يتكلم برطانة: "يا هذ ابحث عن أرومتك لعلك تنتسب إلى جد أرمني أو بربري أو أعجمي".

إن استعماله الفصحى للتخاطب والحديث جعل خصومه ينعتونه بالمتفاصح، لكن كل الذي عرفوه عن كثب كانوا يدركون عمق الدوافع لتصرفه هذا، والمتمثلة في حبه للتميز عن سواه. وما يمنحه شرف التفوق بتحقيق ما يعجز عنه الآخرون.

لقد كان البزم متعصباً للعربية وللعرب، وللبزم آراء طريفة ولطيفة في النحو، وأفكار جديدة وجيدة في طرائق وأساليب تدريسه يسرته لطالبيه وحببته لمريديه، منطلقاً في ذلك من قول أبي سعيد السيرافي "منطق اليونان فطنة، ونحو العرب فطرة" وقد صاغ البزم تعريفات جديدة وتأويلات لطيفة لا نجد لها مثيلاً في النحو المدرسي مثال ذلك تعريفه للحال: نعت خالف منعوته بالتعريف فعوقب بالنصب"

وقال في أنّ: استحقت إن الزعامة على أخواتها بشدة نفوذها، أي أنها تعمل وهي غائبة، ولأنها كثيرة الورود في الكلام..

كان البزم يثق بنفسه وبقدرته على تجديد النحو، وكان ينظر للنحو على أنه جسم سليم، وأعضاء كلها سليمة، لولا غدد علقت فتقرحت وأصبح الصديد يسيل منها.

والنحو في نظر البزم بسيط أصيل، وعملي لا تجريدي، لذلك لا بد من إعادته لبساطته وعمليته "يجب أن يكون عملياً لا نظرياً ظنياً، فيرى ويلمس أثره في كل كلمة من كلام العرب، لا أن تتكلف له وضع الأمثلة مما يجود به خاطر سليم، أو لسان فصيح، ولا نكذب على العرب بما لم يقولوه، ولا نحرف لهم ما قذفته خواطرهم حسب طبيعة إقليمهم ووفق لغتهم، ولا نختلق على ألسنتهم ما لم تجر به ألسنتهم، ولا نتتبع ما أثر عنهم من ضرائر شعرية فنوسع بها القواعد سعة لا تحتملها أمة في لغتها، ولا نترك الأمانة في النقل والرواية، فلا يبقى في كثير من شعر الشواهد إلا ما يعين على تعدد القواعد، وتبليلها خدمة لشيء اسمه أغراض النحاة، تلك الأغراض التي انتهت بالنحو إلى أبعد غاية، وأقصى مدى من الوثوب على كلام العرب. فأصبح النحو وليس في الأرض من يدعي الإحاطة به، ولو لم يقرأ من عمره شيئاً سواه، مهما طال عمره، وتراخى أجله، لكن البزم لم يجمع أفكاره، الموزعة في كراريس تلاميذه على مدى خمس وعشرين سنة قضاها في التدريس، منها سبع عشرة في التجهيز التي كانت أشبه بكلية الآداب، حيث كان أكثر أعضاء المجمع العلمي العربي يدرسون فيها، يقول الدكتور سامي الدهان في كتابه "الشعراء الأعلام في سورية" متحدثا عن البزم "وتخرج على أيدي البزم جيل من المثقفين يحفظون له يده في شرح قواعد النحو ومعرفة أسرار الإعراب، وإدراك غور اللغة والمفردات، وتملك ناصية الفصاحة والبيان، فكان في نظرهم حجة قويمة، ومصدراً كريماً وينبوعاً فياضاً، يرجعون البصر إليه في ذكرى مقدسة وإكبار عظيم.

البزم الشاعر:

يتألف ديوان البزم من جزأين، ضم كل ما تركه من أشعار، إلا تلك الأشعار التي فقدها أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان قد أودعها والدته لتخفيها عن عيون الأتراك، والديوان حافل بالقصائد الجيدة، التي تدل على شاعرية البزم من جهة، وعلى لغته المتينة من جهة ثانية، كما يلمس القارئ المتمعن أن أفكاره ومشاعره تنوء تحت وطأة الكلمات الفخمة والضخمة المنتقاة بيد خبير لغوي، والمستلة من ذاكرة حافظة للتراث. البزم شاعر مقلد أكثر منه مجدد، اقتفى آثار القدامى، ونهج منهجم أو صاغ على منوالهم، ولا ينفي البزم ذاته ذلك فيقول: إن أول ما نظمت من القصائد قصيدة عنوانها "اليوم خمر وغداً أمر" يقلد فيها امرؤ القيس ومنها قوله:

(خليلي هيا للعلــى أو دعانيـــــا ... فقد يدرك العلياء من بــات ســاعيا
عققت العلى إن لم أكــن ذا نـــباهة ... أحلي عويــصات وأظهــر خافيـــا
لقد ذل من يهوى ظبي الغيد والمهـــا ... وعز امرؤ يهوى الظبــا والعواليــا)

إلا أن المتنبي والمعري كانا أكثر تأثيراً في البزم وشاعريته، حيث وجد نفسه في كليهما، فقد كان ثائراً متمرداً على زمانه، مترفعاً على الناس مستصغراً لشأنهم كالمتنبي. وكان سوداوياً، انعزالياً، ناقماً على الحياة كالمعري.

عبر البزم عن إعجابه بالمتنبي في مطولته – وهو مولع بالمطولات – التي ألقاها في ذكرى المتنبي ومنها قوله:

كسوت بنات الضاد نـسجاً مــسرداً ... ترف على عمر الزمــان غلائـــلـــه
وأثبت في جيــد الزمــان قلائـــــداً ... سينزعها إن مات ذا الدهر غاسله
تصيخ لـــه أذن الزمان وتنتــشـــي ... برناتـــــه أسحــــــاره وأصائلـــه
تهب لـــه الموتى، ويكتئب البلـــى ... وتعنو له شمس النهى وتراسلـــــه

وقاده إعجابه بالمتنبي إلى تقليده، في فخره وافتخاره، وفي حكمه وأقواله، ولا

سيما وأن المتنبي أعظم من افتخر وأقدر من أرسل الحكم ونظم الدرر:

وهاهو ذا البزم ينسج على منواله:

ولا تكنزن المال ضناً ببذله فلست بدار من يكون له الكنز

أو:

ولو شئت سيرت القوافي جحافلاً وأوقرت اسماعاً وكان لي الفوز

وإن قناة الشعر لوماد متنها لقومها مني ومن قلمي غمز

أما إعجابه وتأثره بالمعري – فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة – فواضح في العديد من المقطوعات أو الأدبيات المتفرقة التي تدفع بمواقف أبي العلاء إلى الخاطر مثل قوله:

نزلت من الوجود بدار غي وداء الغي في الدنيا قديم

نحب حياتنا ونذب عنها وفي أجسامنا منها كلوم

إذا نزل المصاب بنا وجمنا كأن الهول يدفعه الوجوم

نهدد بالجحيم إذا نبذنا أموراً مجها العقل السليم

لعمرك ما بنو حواء إلا لمن صحب النهى أبداً خصوم

ويعترف البزم بتلمذته وأستاذية المعري في قصيدته المطولة التي ألقاها في ذكرى المعري والتي كانت السبب في خلافه مع صديقه محمد كر علي، ومنها قوله:

فما في قريض الأرض أو في معاذ لمن يوفيك ما هو نادره

وما أنا إلى صوب مزنك هامراً وروض توالت بعد عد مواطره

نقعت غليلي من خضمك حقبة أتت بالربيع الفخم تزهو حبائره

هو الشاعر الأعلى فمن ذا يكابره وقد طبق الدنيا فمن ذا ينافره

ولو نشرت أي النوابغ جملة ... لربت عليها آيه ومآثره

وقد اهتم البزم بقضايا أمته ومشاكلها، فكان للهم القومي الحظ الأوفر في شعره، فهو طوراً يستنهض الهمم ويستفز العزائم ويصور واقع حاله لعل من يجيب:

يا أيها الوطن الذي عبثت به ... أبناؤه فترأست جهاله
وتناوبته الكارثات فساسه ... في النازلات المصميات رذاله
وتفرقت شيعاً به أبناؤه ... وتخاذلوا فتقطعت أوصاله
جالت به خيل العدا فاستوبلت ... أرباعه وسهوله وجباله

وطمح إلى أن يرى العرب أسرة واحدة ، والعروبة الدم الجاري في عروقهم، فإذا ألمت بأي قطر ملمة، نادى مذكراً مستنجداً:

بني الجزيرة والأنساب جامعة ... والحازم الشهم يلقى الدهر يقظانا
أين الحمية، بل أين العروبة هل ... غاض الوفاء وآض الود هجرانا
أما سمعتم ورسل البرق جائلة ... بما تعانيه إسراراً وإعلاناً

أو يصف حال الأمة، والأمراض التي اعتورتها، واختلال القيم والموازين وتفشي الفساد والفوضى. إنه شاعر صاحب رسالة ورسالته تقتضي أن يذود عن أمته، وأن يثير عزائم أبنائها:

إذا أنا لم أنهض لإسعاد أمتي ... عزائم مرخاة عليها ستورها
فلا حملت كفي اليراعة وترتمي ... على مهرق يصمي القلوب صريرها

كذلك لم يهمل الشاعر وصف الطبيعة الساحرة في دمشق والمدن السورية الأخرى، كما أنه لم يهمل الحياة الاجتماعية، وديوانه حافل بالقصائد الرائعة.

وبالإجمال فإن شعر البزم يتسم بصورة عامة بالفصاحة والجزالة، ومتانة التراكيب واستعمال الغريب - نوعاً ما- لعرض عضلاته اللغوية، ساعده في ذلك حفظه شعر الأقدمين وثقافته العربية، وتمكنه من اللغة، لذلك صفت ديباجته وبرزت مقدرته اللغوية، وتنوعت موضوعاته، وبالمقابل غاصت عواطفه ومشاعره في ردائها اللغوي، إذ لا بد للوصول إليها من نزع هذا الرداء اللغوي.

البزم الكاتب الأديب:

بالرغم من قسوة النقاد عليه، وقسوته ضدهم، فإن هناك جانباً مشرقاً من حياة البزم ما يزال مجهولاً وهو النزعة الأدبية التي كان يفرغها في جريدة (الميزان)..

وجريدة الميزان حدث أدبي في تاريخ سورية، وكان صاحبها (أحمد شاكر الكرمي) على ذكاء واسع وقوة خارقة في أدب النقد، فاتفق الرجلان في هذا السبيل، وغدت مقالات (الميزان) موضع الحديث في الأسمار والمجالس وفي المدارس.. ولقد وجد البزم في هذه الجريدة متنفساً لأدبه ومجالاً لشعره، وتدل المقالات التي كتبها البزم على ثقافته العربية الواسعة، وعلى عمق معرفته واطلاعه على التراث، إلا أن مقالاته النقدية لم تجمع ولم تنشر في كتاب بل بقيت موزعة في صفحات الصحف، ورغم إلحاح أصدقائه ومريديه، فإنه لم يعمد إلى جمعها ونشرها كما فعل سواه.. وله كلمات في شعراء دمشق، رسالة نشرها متتابعة في جريدة الميزان لكنها لم تر النور مجتمعة.

وكان رفاق محمد البزم في التجهيز، ومنهم سليم الجندي شيخ الأدب العربي لجيله، وعبد القادر مبارك شيخ اللغة في أيامه يشكلون الثلاثي الأدبي، وكانت مجالسهم من أروع ما حفلت به مجالس تلك الأيام الحلوة،فيها الآراء الأدبية، والنكات النحوية، والمشاكل الإعرابية، وربما احتدم الجدل أو ربما بلغ حد التفاخر والتهاجي بحيث ينتهي ذلك كله إلى التقاطع والتباعد إلى أن يقيض لهذا الثالوث ما يجمع شمله ويرأب صدعه.

تحدث البزم مرة عن أحد الأدباء فقال: إنه معدن الغلاظة - بفتح الغين - فأجابه المبارك بأن صواب هذه اللفظة بكسر الغين (غِلاظة)، ولم يطق البزم أن يرد عليه أحد في هذا الباب، ولجأوا إلى القاموس، فثبت خطأ فما كان منه إلا أن قال على البديهة:(الحمد لله على أنه غلبني بغلاظته).

وكان البزم يقول إن (إذما) الشرطية حرف لا اسم، وكان أحد الأدباء يقول بأنها اسم، وسئل الجندي فقال: نحن هذه الأيام بأزمة (إذما)، وروي أن أحدهم اعترض على حرفية (إذما) ونقل الاعتراض للبزم فقال: (إن هذا القائل يجب أن يصفع على قفاه مدة ستة أشهر متوالية)، وعلق الجندي على ذلك فقال: (نحن حائرون الآن من المظلوم؟ المصفوع أم الصافع؟ الذي سيستمر على العمل المضني كل هذه المدة الطويلة).

كانت هناك حكاية في مجلس عباس محمود العقاد، وفي حضور الشاعر كامل الشناوي، والرسام محمد عبد المنعم رخا، والصحفي الأديب محمود العزب موسى، والأديب الظريف محمد مصطفى حمام، وتكلم الحضور عن الشعر والشعراء في دنيانا العربية والعقاد صامت ... كان يريد أن يفرغ الجميع من الكلام ليتكلم، وحين يتكلم العقاد يصمت التلاميذ في حضرة الأستاذ.

كان حديث العقاد في تلك الأمسية الحالمة أشبه ما يكون بملحمة ساخرة، فيه النقد اللاذع لمعظم من عاصروا أديب العربية من الشعراء، وفيه أيضاً الكثير من النقد المر لكل شاعر ارتزق.. الوحيد الذي أفلت من لسان العقاد هو محمد البزم .. الذي وصفه العقاد يومها بقوله: (حرام أن يغيب اسم هذا الشاعر الفحل، ومن الجريمة الأدبية أن يعقه تلاميذه الذي أدبهم فأحسن تأديبهم .. فكل ما سكبه محمد البزم من شعر، يحس مستمعه أو قارئه أنه نبع من عقل الشاعر ليستقر في عقول الناس .. وتلك هي أشعة الإلهام التي يهبها الله لمن يشاء من عباده الموهوبين..

إننا لنحس في شعر محمد البزم قسوة الإنسان المترفع عن الدنايا الحريص على كرامته ألا تهان أو تمس .. وليس عجباً أن يكون البزم مدافعاً عن عمود

الشعر وأصالة اللغة، فإن رسالة الفنان هي الذود عن كرامة لغة القرآن، فإذا فقد الشاعر هذه الأصول فقد أضاع رسالته..

من المؤسف أن عديداً من مؤلفات البزم ضاعت، ولم يتيسر لأحد أن يعثر عليها. ومنها كتاب في اللحن الذي سرى في كلام العرب، ودرس أسبابه وأنواعه، وكتاب (النحو الواقع) حرره نتيجة تجاربه على منابر التدريس وقراءاته في كتب العربية، وكتاب عنوانه: (الجواب المسكت) وهو مجموعة كبيرة لكل جواب مسكت قالته العرب، وكتاب آخر هو (الجحيم) وفيه أقام الدليل على أن اللغة العربية سهلة جميلة في عامة فنونها، وهي قادرة على السير مع الحياة التي سارت، وفيه حملة على الشعوبيين من اللغويين والنحاة الذي عقدوا قواعدها، ليختصوا بعملها ويجعلوه وسيلة إلى كسبهم، وامتطاء أعناق الناس، وفيه الدليل المشرق على أن ما أحكمته الطبيعة من جمال العربية وفتنتها لم يكن خاصاً بقواعدها بل هو شامل لكل فنونها..

تكالبت الأمراض على الشاعر والأديب "محمد البزم" في هزيع عمره الأخير، وفقد بصره، ثم بارح الحياة عام ١٩٥٥ بعد رحلة عطاء خيرة، اقترنت بالألم والضنك الشديدين.



خير الدين الزركلي :

قاوم الاستعمار بشعره، وأغنى مكتبة الفكر بمؤلفاته

ثمة في الناس نماذج مجسدة للإبداع الفكري الخلّاق، وللعطاء الإنساني الخيّر، تفتحت عيونهم مبكراً على كنوز التراث العربي الإسلامي الخالد، فملكت ألبابهم، وأصبح محور حياتهم الرئيسي، فوطّدوا العزم على إضاءتها، وجندوا طاقاتهم للكشف عن فرائدها، وتقديمها للأجيال نابضة ومتألقة بالحياة، وقد عرفت تلك النخبة من المحققين والباحثين المبدعين، من البداية، ما ينتظرها من مشاق، وهي تخوض عمار بحر واسع من المصادر والمخطوطات، تتطلب في الواقع جهود مؤسسات ثقافية متكاملة ... ولم يثنها ذلك ويوهن همتها، بل وعلى العكس، ازدادت إيماناً بقدسية الهدف الذي تسعى لبلوغه، وتصميماً على المضي فيما نذرت له عزيمتها الوثابة.

وسط هذه الكوكبة المبدعة من أعلام الفكر الذين أثروا المكتبة العربية بألوان المنجزات الثقافية الباهرة، يتألق الباحث والشاعر والمجاهد "خير الدين الزركلي" رائداً متميزاً قدم لأمته عملاً موسوعياً فريداً، بذل له سنوات طويلة من عمره، وهو ساهر مستغرق في أكوام المجلدات والمذكرات والوثائق والفهارس، يتتبع سير الأشخاص وصورهم ورسوم أعمالهم وخطوطهم وتواقيعهم، يتأمل ويدقق، ويدرس ويقارن ويفحص ويقوّم، لا تفوته كلمة ولا فاصلة، حتى إذا أنجز مهمته كما رجا، خرج مشروعه القيّم إلى النور، موسوعة "الأعلام" في ثمانية أجزاء ضخمة، مثّلت للمحققين مرجعاً غنياً وللباحثين مصدراً موثقاً في تراجم الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين.

ومما يثير الدهشة حقاً أن "الأعلام" حقق للزركلي صيتاً ذائعاً كموسوعي قدير، ومحقق بارع، وحجب – إلى حد ما – صورته كشاعر محلق تلك التي وسمت

حياته ومسيرته الفكرية، فكان بحق واحداً من أربعة شعراء رفعوا راية الشعر الرفيع في سوريا في النصف الأول من القرن الماضي، وهو مرحلة الثورة والجهاد ضد المحتل الأجنبي.

ولد "الزركلي" في بيروت عام ١٨٩٣ لأسرة دمشقية، وعاد فترعرع بدمشق، وتعلم بمدارسها الأهلية، وتلقى على مشايخه علوم اللغة العربية، فعشقها وأولع بالتراث العربي، وتنفس أريج الشعر في صباه لكثرة ما ردد من الشعر القديم، وداوم في المكتبة الظاهرية، مصاحباً كتبها كأنها جزء منه، وما لبث أن أصدر مجلة "الأصمعي" لينشر فيها خلاصة فكره، ويحث على حب العروبة، مما دفع السلطة العثمانية التي كانت تحصي على العرب أنفاسهم، إلى إغلاق الصحيفة.

انتقل "الزركلي" إلى بيروت وتعلّم الفرنسية، وأصبح مدرساً للأدب والتاريخ العربي وهو بعد في الخامسة والعشرين من عمره، ولما عاد إلى دمشق ثانية أصدر مجلة "لسان العرب" التي حددّ لها خطة قومية، وهدفاً وطنياً خالصاً، فلم تعمر طويلاً، وما لبث أن نشر جريدة "المفيد" اليومية وصادف ذلك دخول قوات الاحتلال الفرنسي إلى سوريا وصدور حكم بإعدامه لمواقفه الوطنية الجريئة التي تجسدت في شعره المتدفق حماساً، وقصائده التي أججت مرجل الثورة ضد المحتلين، فتراه يهتف في وجه الغاصب:

"إن في الشام أمة لا تطيق الضيم.. تأبى لها العُلى أن تطيقا
أوسعوها تعلّة ووعوداً سقوها من الخداع رحيقا
أنذرونا بالموت ما أعذب الموت إذا كان للحياة طريقا"

ويصور نكبة دمشق يوم سلط عليها المستعمر الغاصب نيرانه:

"الأهل أهلي والديار دياري وشعار وادي النيربين شعاري
ما كان من ألم بجلّق نازل واري الزناد، فزنده بي واري

إن الدم المهراق في جنباتها لدمي، وإن شفارها لشفاري
النار محدقة بجلّق بعدما تركت "حماة" على شفار هار
فإذا المنازل وهي شامخة الذرى منهار أطلالٍ على منهار"

وتلاحق سلطات الاحتلال "الزركلي" فيضطر للتنقل بني فلسطين ومصر والحجاز، والالتحاق برجال الثورة العربية، مناضلاً معهم لتحقيق الوحدة الكبرى، ويمتلئ قلبه بالحنين للوطن فينشد:

"العين بعد فراقها الوطنا لا ساكنا ألفت ولا سكنا
والقلب لولا أنّة صعدت أنكرته وشككت فيه أنا
يا موطناً عبث الزمان به من ذا الذي أغرى بك الزمنا
إن الغريب معذب أبداً إن حلّ لم ينعم، وإن ظعنا

أمضى "الزركلي" عامين في "عمان" تولى خلالهما منصب مفتش المعارف العام، ورئيس ديوان الحكومة، وأكسبه ذلك خبرة في الحكم وتمرساً في السياسة، فلما اندلعت الثورة السورية ضد الفرنسيين عام ١٩٢٥، وتزايد نشاطه الوطني، وانتشرت قصائده الحماسية، صدر حكم جديد بإعدامه، وانتقل مرة أخرى إلى القدس ليصدر فيها جريدة "الحياة" اليومية، التي عطلّتها سلطات الاستعمار البريطاني.

وتواصل عطاؤه الشعري، مؤثراً في النفوس، ومثيراً للعواطف، وجاءت قصائده متوهجة الألفاظ، قوية المعاني، يسكب فيها روحه بأسلوب عميق مشرق، طافح برهافة الحس ورقة الجرس ... جاهد الزركلي مع المجاهدين بالكلمة ورفع صوت الوطن عالياً في العالم، ونادى بوحدة الأمة العربية، طريقها الصحيح إلى الاستقلال والحرية.

وفي تلك الفترة اختارته الحكومة السعودية ليعمل مستشاراً بمفوضيتها في

القاهرة وانتخب في العام نفسه عضواً بالمجمع العلمي العربي، وتدرّج من جانب آخر في المناصب السياسية ليغدو أخيراً سفيراً للسعودية في المغرب.

وفي الهزيع الأخير من حياته أقام الزركلي في بيروت، ولم يمنعه المرض من متابعة مسيرته الحافلة في التأليف فأنجز ديوانه الشعري، وعدداً من الكتب النثرية، منها قصة شعرية بعنوان: ماجدولين والشاعر، وكتاب "الملك عبد العزيز في ذمة التاريخ" وغيرها، إضافة لمراجعة موسوعته "الأعلام" وكان في زيارة عابرة للقاهرة حين وافته المنية في تشرين الثاني من عام ١٩٧٦، فدفن فيها مودعاً بالإجلال والإكبار اللائقين بالمجاهد والشاعر والموسوعي الرائد، الخالد بشعره ومؤلفاته.

المصادر:

- الأعلام – ج٨.
- الشعراء الأعلام في سوريا: د. سامي الدهان.
- عبقريات من بلادي: عبد الغني العطري.





عمر أبو ريشة :

مغني العروبة ... وفارسها الحزين

في أوائل الأربعينيات كان مقهى البرازيل في دمشق موئلا للكتاب والشعراء، تعقد الحلقات حول طاولاته، وكان أبو ريشة ذو القامة الفارعة والهندام الجميل، والمحيا المؤنس والعينين الشهلاوين المؤطرتين بنظارة أنيقة مذهبة، مركزاً لتلك الحلقات (سيد الكلمة الشاعرة)، (كما يصفه د.بديع حقي).

وأصبح الشاعر فيما بعد سفيراً، ليس لبلاده فقط بل للغة العربية وللشعر العربي، مجدداً في صوره ورافضاً الخروج بنفس الوقت عن نمطية الأشطر المتساوية (التفعيلات) في القصيدة العربية.

نعرف أننا، ولو قدمناك، لا نفيك حقك من التقديم، لذلك نترك لك تقديم نفسك بنفسك .... وشعراً إذا شئت.

((تتساءلين على م يحيا هؤلاء الأشقياء
المتعبون ودربهم قفر ومرماهم هباء
الذاهلون الواجمون أمام نعش الكبرياء
الصابرون على الجراح المطرقون على الحياء
أنستهم الأيام ما ضحكُ الحياة وما البكاء
تتسائلين وكيف أعلم ما يرون على البقاء!
امضي لشأنك ... اسكتي ... أنا واحد من هؤلاء!!))

وأوضح من هذه الصورة، الصورة التالية:

((ربَّ ضاقت ملاعبي في الدروب المقيده!
أنا عمر مخضَّبٌ وأمانٍ مشرده
ونشيد خنقت في كبريائي تنهُّده
ربّ مازلتْ ضارباً من زماني تمرُّده
بسماتي سخية وجراحي مضمَّده))

وأوجع من الصورتين السابقتين الصورة التالية:

((صاح وكؤوسي لا تشفي غصصي، لا تسكر آلامي
أستعرض أيامي فأرى ما تنفر منه أيامي
فجفوني لا تعرف إلا أحلامي تقتل أحلامي
ودروبي لا تذكر أني نقلت عليها أقدامي!
صاح ...... وأحبك يا دنيا في الوهج، من الشفق الدامي
ما أوجع نفرة أهوائي مني، وتثاؤب أصنامي!!))

- **قال أحد الفلاسفة: القصور الوحيدة التي لا عيب فيها هي تلك التي يبنيها أصحابها في الأحلام، ماذا بنيت في الأحلام وأنت صغير؟**

– أحلامي في الكبر هي امتداد لأحلامي في الصغر، نشأت في بيئة متصوفة، كنت وأنا طفل أستمع فيها إلى أناشيد لم أكن أسمع مثلها خارج تلك البيئة، كنت أرددها مع الأهل وأصدقاء الأهل دون أن أدرك أبعاد معانيها، كانت مع ذلك تنقلني إلى أجواء جمالية تتجلى فيها الذات الكبرى في أروع وأسنى التجليات، كانت تلك الأناشيد لكبار المتصوفين، أمثال ابن مشيش وبحر الصفا وعلي وفا وابن العربي وعبد القادر الحمصي وابن زروق، وكان حلمي الكبير أن أصل إلى ما وصل إليه هؤلاء السادة في تجوالهم الروحي ومعاناتهم الحياتية.

- **عفواً، هل تذكر شيئاً من تلك الأناشيد؟**

- أجل ..... أذكر الشيء الكثير منها ومازلت أشعر بفيض من النشوة يغمرني عند ذكري لها ولإيقاعها الحنون. خذ على سبيل المثال قول الحمصي:

((لاح برق الذات من ذاك اللوا – قد بدا حبي
وبه قد زال من عيني الشوى – وانجلى قلبي
يا ندامى كل من يصحبنا – ما عليه باس
سار في بحر الصفا مركبنا – ريحه الأنفاس
ليس يدري في الهوى مشربنا – غير ذي قلب))

كما أذكر قول بحر الصفا:

((إني أنا شيء عجيب – لمن رآني
أنا المحب والحبيب – ما ثمَّ ثانِ))

كما أذكر قوله:

((علم التوحيد – كشف العيون
أصل التجريد – هدم الحصون
حل التقييد – جمع الشؤون
عز التأبيد – أن لا تكون!))

وهكذا تعودت أذني على استساغة ألحان الشعر لكثرة ما كنت أردد تلك الأناشيد، ولطول ما كنت أصغي إلى ما كان يجري بين أمي وأبي وأقاربي من مساجلات شعرية، كانت تعرف (بمذكرة الأنفاس) فلم أكن في المستقبل بحاجة إلى تعلم الأوزان الشعرية، تلك الأوزان التي مازلت أجهل أسماءها وتفاعيلها حتى اليوم.

- **وفي المدرسة، ألم تتعلم قواعد اللغة وأوزان الشعر؟**

- درست قواعد اللغة بتوجيه وعناية أساتذتي: جبرائيل شاهين، وجرجس المقدسي وجبرائيل جبور، وأنيس المقدسي، أما دراستي للشعر وأوزانه فلم تتجاوز الشهرين، ولذلك سبب غير مجرى حياتي: فقد جاءنا أستاذ مؤقت وأراد أن يفرض علينا آراء في رواة الشعر في الماضي السحيق، وأنا منذ الصغر تعلمت في البيت أن أتمرد على كل ما لا يستسيغه العقل والذوق، ففي أحد الأيام طلب إلينا هذا الأستاذ أن نناقش قول القائل (أراد البحتري أن يشعر فغنى)، فما كان مني إلا أن سفهت هذا القول واصفاً البحتري بأنه متسول مسكين، يريق ماء وجهه على أقدام ذوي الجاه وأصحاب الثروة، وليس بالشاعر الذي يستمد وحيه من عالم أسمى!.

قرأ الأستاذ على التلاميذ ما كتبت بلهجة استهزاء دون أن يشير إلى اسمي، فما كان مني أن وقفت بعد فراغه من القراءة، ودافعت عن وجهت نظري بكل عناد واعتزاز، فطردني الأستاذ من الصف، وغادرته إلى غير رجعة وعندها تحولت إلى فرع العلوم، هذه الحادثة جعلتني أستغل سليقتي الشعرية للتفريج عن نفسي، ولأول مرة أكتب قصيدة مازلت نادماً على مضمونها التافه، أذكر منها واصفاً الأستاذ:

((لم يدر من لغة الجدود سوى قفا — نبكي على الثرثار في هذيانه
وإذا تكلم والتراجم ودعت — فافهم من الأستاذ سحر بيانه
قد شاء ربي أن يصور هيكلاً — ويدس سر العقل في آذانه
وأراد إعلاء المنار لمعهد — أعلامه أولى بمارستانه))

- **وكيف استطعت بعد ذلك أن تؤلف بين سليقتك الشعرية هذه وانطلاقك صوب العلوم؟**

- تستغرب إذا قلت لك: إن سليقتي الشعرية هذه قد حققت لي بعض المكاسب أيام

دراستي الابتدائية والثانوية، وعلى سبيل المثال أذكر أن علم النبات كان أكره العلوم إلى نفسي، وكان من المستحيل علي أن أحفظ أسماء المئات من الأصناف النباتية وفوارق نموها وتفاعلها الحياتي كالكلوروفيسيا والرودوفيسيا، والفووفيسيا، والألج والفنج والفرن والزواوسبور والأووسبور، والزايغوت إلى ما لا حصر له من مشتقات، وكانت دهشة الأستاذ والتلاميذ بالغة حدها عندما كنت في كل الامتحانات ذلك الفارس المجلي، استدعاني الأستاذ بعد أن نلت العلامة الكاملة في الفحص النهائي، وسألني أمام إخواني الطلاب عن سر المعجزة التي لم يحققها غيري – السر، قلت له: أني طويت أسبوعاً كاملاً في نظم كتاب علم النبات فيما يشبه ألفية لبن مالك وبلغة أتفه لا يفهمها إلا صاحبها، فسألني على الفور، ما الفرق بين الكين والفوليكل من فئة الكلورفيسيا فأجبته على الفور:

واكيننا فاقت على فلكيلك بالحجم يوماً ثم بالفلق الكثير!

أي أنهما متشابهان في جميع المميزات فيما عدا الحجم وكثرة المسامات! وهنا انفجر الجمع بالضحك والإعجاب، والعجيب في الأمر أني حتى اليوم أستطيع أن أتلقى أي فحص في علم النبات وأنجح بتفوق!.

- **نعلم أنك بعد أن أتممت دراستك الثانوية ذهبت إلى إنكلترا وتخصصت هناك بالعلوم، فما فعلت بموهبتك الشعرية؟**

– كنت أكتب في أوقات فراغي ما كانت تتركه في نفسي بعض أهوائي من هواجس، كنت اكتبها للتسلية وللتسلية فحسب، ولا أقيم لها أي وزن، فقد كانت في منتهى السطحية والتفاهة، أذكر أني قبل وصولي إلى إنكلترا، بقيت أسبوعاً في باريس وخرجت منها بقصائد خلاعية، ندمت فيما بعد كل الندم على

تعميمها بين أصدقائي، إنها تذكرني بقصائد بعض شيوخنا المراهقين في هذه الأيام.

- **هل تذكر شيئاً منها؟**

- كيف لا ؟ أقول في إحدى القصائد:

((أفدي الحسسان وأي صب لا يكون فداءهنه
اللينات قدودهن المضرمات خدودهنه
المسبلات شعورهن الشقر فوق نحورهنه
الساحرات بطرفهن وذاك أضعف ما بهنّه))

إلى أن أقول:

((سقياً لعهدك يا زمان تنعمي بوصالهنه
العيش مخضل الأديم ولمتي ذوب الدجنة!
كم حلية علقتها قبلاً على أعناقهنه
كم قد غضبت تدللاً وهممت أترك جمعهنه
فلحقن بي وجذبنني ولثمنني ولثمتهنه
ورتعت في نعم الشباب
وما ثنيت له الأعنه!))

إلى أن أقول:

((كم من ليال قد مضت وعشاؤهن كفجرهنه!
نشوان من حدق العيون وكم لها في القلب طعنه
لله كم عاهدت نفسي أن أشبّع حُبهنّه
في الصبح أبرمت العهود وفي المساء نقضتهنه
هذي ذنوبي إنما العشرون تشفع لي بهنّه!))

- **تقول إنك نادم على كتابه مثل هذا الشعر؟!**

- أجل، كل الندم.

- **ومتى إذن بدات تنظر إلى الشعر بمنظار آخر؟**

- في أعقاب حادث عاطفي كان له الأثر العميق في حياتي، لقد أوحى إلي هذا الحادث بمجوعة من القصائد قدمت لها بهذين البيتين:

((يا فؤادي أما تزال كئيباً شاكياً باكياً على غير جدوى

لا تكن ظالماً فإنك إن مت تركت الآلام من غير مأوى))

وقد تناول هذه القصائد وكتب عنها أديبنا الراحل الدكتور سامي الدهان في كتابه عني، وكنت خلال دراستي العلمية أملأ أوقات فراغي بقراءة نتاج الشعراء المفضلين لدي أمثال: روبرت براوننغ، وادكار آلان بو، وأوسكار وايلد، وكيتس، وروبرت بروك بالانكليزية، وبودلير، وفاليري، وسولي برودوم بالفرنسية، إني في تلك الأيام ما كنت أعرف غير هاتين اللغتين، ولكن فيما بعد اتجهت إلى تعلم لغات أخرى فأعجبت بعبد الحق حامد التركي، واوروبندو وساروجيني نايدو الهنديين، كما أعجبت بالشعراء الذين كتبوا بالأسبانيولية والبرتغالية أمثال: مشادو، والبرتودا اليفيرا، وأولافو بيلاك، وكاسترو ألفس.

- **هل تأثرت بشاعر معين من بين هؤلاء الشعراء وقبست عنه؟**

- إنهم في مجموعهم وعلى اختلاف وتباين أساليبهم ونزعاتهم، لم يكونوا مقلدين لأسلافهم، لقد كانوا مبدعين، كل في طاقته الوجدانية والفنية، لقد مهدوا لي السبيل لأن أخلق شيئاً جديداً، فأنا بنيت بيدي الكوخ الذي أحبه وأقيم فيه، وليس لأحد منهم حجر واحد بين أحجاره.

- **وكيف إذن أصبحت تقيّم أو تقوّم الشعر بعد هذه المعاناة الطويلة؟**

- إنه التمرد على واقع الحياة، والحياة فيه حكاية عابرة، أما هو فتلك الأكذوبة المبدعة التي تصبح حقيقة، إنه وليد الحرمان الذي يدر عطاء، وقيمته تتوقف على عمق التجربة الفردية وقوة التعبير هذه التجربة.

- **أستاذ عمر و في ضوء ما تقدم، ما هو موقفك من الشعر الحديث؟**

- ليس هناك شعر قديم أو شعر حديث، هناك شعر، وشعر فحسب، فبينا تراه مقيداً بلون ونغم في بعض الأحيان، تراه مطلقاً من هذين القيدين في كثير من الأحيان، وهو هو يفعل في النفس بمقدار ما يحمل من عطاء، وبمقدار ما عند تلك النفس من قدرة على التلقي، إن بعض الشعراء تأثروا كثيراً بدراسة الإنسان وعقله الباطن الذي أسميه الخزان الأكبر، فالصور التي يطلقها العقل الباطن غير واضحة ولا يبلغ العقل الواعي منها غير كلمات مبعثرة لا رابط بين الواحدة والأخرى منها، فتأتي القصيدة إن شئت أن تسميها قصيدة، مجموعة من الألفاظ المتباينة التي كانت إطاراً كاملاً لصورة من صور العقل الباطن، فكان الشعر السريالي والتشكيلي وما يتفرع منهما، ولكن لم اعمل به لأن ما يهمني من الصورة أو الفكرة هو الكل لا الجزء، أذكر أني تعرفت إلى سيدة ذات عينين عجيبتين، وفي أحد الأيام وبينما كنت أتأمل جمالها سمعت عقلي الباطن يقذف بالكلمات التالية:

- العينان وحشيتان، اهرب، النيل، الكهان، المعبد، رأيت السيدة مطرقة في ذهول، شعرت أني عشت مع هاتين العينين في عصر من العصور البعيدة، سألت السيدة إن شعرت بشيء فظنتني أهذي، الشاعر السريالي المخلص يكتفي بتسجيل هذه الكلمات الست ويعتبرها قصيدة، أما بالنسبة لي أنا المؤمن بخلود الروح، وبأني زرت هذا الكوكب أكثر من مرة، فقد جمعت تلك الكلمات الست وجعلتها إطاراً لصورة ارتاحت إليها نفسي فقلت:

((عينـــاك ســـوداوان وحـــشيتان أقـــرأ فـــي طرفيهـــا عمـــري
فكـم طــواني فــي مــداه الزمــان ومــا طــوت نجواهمــا صــبري!
فهـــذه ليلتنـــا الحاليـــة عــادت بأشـــتات المنـــى الغاليـــة
ليلـــة نـــام النيـــل مفتـــراً محتـــضاً حـــسناءه البكـــرا

وزمر الحسان – في رقصها الفتان – تواكب الألحان بالصنج المزهر
– والنـــد والعنبـــر – وخلفهـــا الكهـــان والمعبـــد الأكبـــر!
ونحـــن ؟ هـــل تـــذكرين – كيـــف انـــسللنا كيـــف شـــفينا الحنـــين
وفي حمى نخلـــه ترنحـــت قبلـــه فسلـــسلت نهلـــه فأطفـــأت غُلَّـــه

وبعـــدها، لـــم نلمـــح الفجـــرا ولـــم تـــزل ليلتنـــا ســـرا
أعـــرف منهـــا هـــذه الـــذكرى مـــا بـــك يـــا حـــسناء، يـــا ســـمرا

أراك لا تــــــدرين مــــــا مــــــرا
مــــن أنـــت؟ ردي علــــيَّ ســــؤالي
ولا تحــــــدي مــــــدى خيــــــالي
أتعرفينـــي؟ وتنكرينـــي؟ وتـــسألينى؟ وتمنعينـــي؟
ويـــح يقينـــي. لابـــد أن يحنـــو علـــي الزمـــان
وأن تلاقينــــــي بفــــــيض الحنــــــان
عـــينـــان ســـــوداوان و حـــشـــيتـــان!

▪ طالما وصلنا إلى أبواب مملكة المرأة، و ما رأيك أن ندخل تلك الأبواب المرصودة لنسألك عن تلك التي تملأ الدنيا وتشغل الناس، إلى أي حد شغلتك

وملأت دنياك؟

- لقد درجت في هذه الحياة الدنيا وليس في قلبي فراغ أو متسع لغير الحب، الحب المتجلي في المرأة، في الوجود، في القيم التي أؤمن بها، وكان للمرأة نصيبها الأوفر مني، أول ما عرفتها، وأنا في فجر العمر، قلت فيها:

((ألفتها ساهمة شاردة تأملاً
طيف على أهدابها كسّرها تنقلاً
شق وشاح فجرها خميلة وجدولاً
وماج فيها رعشة حرى وشوقاً، منزلاً
ناديتها فالتفتت نهداً وشعراً مرسلاً
واللحظ في ذهوله مغرورق تململاً
طوقتها يا للشذا مطوَّقاً مقبلاً
فما انثنت حائرة ولا رنت تدللاً
ولا درت وجنتها من خجل تبدلاً
كأنها في طهرها أطهر من أن تخجلا!))

واستوقفتها في يوم من الأيام، ورددت إليها رسائلها حتى تطمئن ومعها هذه الأبيات:

((قفي لا تخجلي مني ... فما أشقاك أشقاني
كلانا مر بالنعمى ... مرور المتعب الواني
وغادرها كومض الشو ... ق في أحداق سكران
قفي لن تسمعي مني ... عتاب المدنف العاني

فبعـــد اليـــوم لـــن أســـا ل عـــن كأســـي ونـــدماني
خـــذي مـــا ســـطَّرت كفـــاك مـــن وجـــد وأشـــجان
صـــحائف طالمـــا هـــزت بـــوحي منـــك ألحـــاني
خلعـــت بهـــا علـــى قـــدميك حلـــم العـــالم الفـــاني
لنطـــو الأمـــس ولنـــسدل عليـــه ذيـــل نـــسيان
فـــإن أبـــصرتني ابتـــسمي وحيِّينـــي بتحنـــان
وســـيري ســـير حالمـــة وقـــولي كـــان يهـــواني!))

ورأيتها بعد عشر سنوات فإذا ذلك الجمال أثر بعد عين، وأول ما وقـع عليـه بصري بعد عودتي إلى بيتي كان تمثال فينوس الواقف في إحـدى زوايـا المكتـب فقلت:

((حـــسناء هـــذي دميـــة منحوتـــة مـــن مرمـــر
طلعـــت علـــى الـــدنيا طلـــو ع الـــساخر المـــستهتر
ومـــشت إلـــى حـــرم الخلـــود علـــى رقـــاب الأعـــصر!
عريانـــة ســـكر الخيـــا ل بعريهـــا المتكبـــر!
أبـــداً ممتعـــة بينبـــو ع الـــصبا المتفجـــر
نرنـــو إليهـــا فـــي وجـــو مِ الحـــالم المـــستفـــسر
والطـــرف بـــين منقـــل فـــي ســـحرها ومـــسمر
وشّـــى بهـــا إبـــداع ناحتـــــــها الجمـــال العبقـــري
ومـــضى وبنـــت رؤآ ه لـــم تكبـــر ولـــم تتغيـــر
حـــسناه مـــا أقـــسى فجـــآ ءات الزمـــان الأزور
أخـــشى تمـــوت رؤا ي، ان تتغيـــري ... فتحجـــري))

وأسير مع الأيام وتبدأ خيوط الشيب تطل من شعري فأنـصرف عـن الزهـو

والادلال إلى التواضع والمداراة، فأراني أردد بيني وبين نفسي:

((وحـــدي لـــو انـــك أقـــصى   مـــن ظـــل كأســـي ظـــلاً
أبلـــى عليـــك الليـــالي   بهـــاجس لـــيس يبلـــى
ولـــم أزل فـــي ذهـــولي   أبغـــي لـــسرّك حـــلا
أردت أنـــت انطلاقـــي   إلـــى الخبـــاء المعلـــى
إلـــى ملاعـــب دنيـــا   مـــا زارهـــا الـــوهم قـــبلا
ولـــم أكـــن لـــك كفـــوا   ولا لحبـــك أهـــلا
وغبـــت لـــم تتركـــي لـــي   مـــن القليـــل الأقـــلا
لـــم أدر كيـــف تـــصدى   لـــي النعـــيم وولـــى
لعلـــه كـــان أشـــهى   مـــن أن يـــدوم وأحلـــى!))

وكتبت في إحدى الليالي في كتمندو عاصمة النيبـال الرابـضة علـى إحـدى هضاب الهملايا، وكانت هذه المدينة الجميلة مكسوة بالثلوج ومطفأة الأنوار:

((قالـت مللتـك، إذهـب، لـست   على فراقك .. إن الحب لـيس لنـا
نادمة سقيتك المر من كأسي شـفيت   حقدي عليك فما لي عن شفاك غنـى
بها حسبت دنيا نعيمي فيـك ماثلـة   فخاب ظني فألقيـت النعـيم ضـنى!
لا أشتهي بعـد هـذا اليـوم أمنيـة   لقد حملت إليهـا الـنعش والكفنـا!
قالت، وقالت ولم أهمـس بمـسمعها   ما ثار من غصصي الحرّى وما سكنا
تركت حجرتهـا والـدفء منـسرباً   والعطـر منـسكباً والعمـر مرتهنـا
وسرت في وحشتي والليل ملتحـف   بالزمهرير وما في الأفق ومض سنا
ولم أكد أجتلي دربي علـى حـدس   واسـتلين عليـه المركـب الخـشنا
حتى سـمعت ورائـي رجع زفرتها   حتى لمـست حيـالي قـدّها اللـدنا
نسيت ما بيَ ..... هزتني فجاءتهـا   وفجرت من حناني كـل مـا سـكنا
وصحت: يا فتنتي ما تفعلـين هنـا   البرد يؤذيك.. عودي.. لن أعود أنا!

وأسير مع الأيام ويشتعل الرأس شيباً، فانصرف عن المداراة إلى الاستسلام فأردد:

((وتسأليني: ما يريحك؟ ما أجيبك؟ لست أدري
غالبت فيك غوايتي فخسرت فيها كل كبري
وتبعت طيفك عاقداً بالذيل منه زمام أمري!
وأهنت تحت لهاثها ما كان من زهري وعطري
كم وقفة لي دون دا رك خضَّبت بالذل صبري
وغضضت من طرفي كأ ني ما لمحت خيال غيري
وتسائليني: مايريحك؟ ما أجيبك؟ لست أدري!
أنا إن ذكرت نشرت عا ري، أو نسيت طويت عمري!))

وهنا أطلب إليها أن تحتفظ بأوراقي، إنها أوراق ميت:

((إنها حجرتي! لقد صدئ النـ ـسيان فيها وشاخ فيها السكوت
ادخلي بالشموع فهي من الظلـ ـمة وكر في صدرها منحوت
وانقلي الخطو باتئاد يجـ ـفل منك الغبار والعنكبوت
عند كأسي المكسور حزمة أورا ق وعمر في دفتيها شتيت
احمليها، ماضي شبابك فيها والفتون الذي عليه شقيت
اقرأيها، لا تحجبي الخلد عني انشريها ... لا تتركيني أموت!))

وفيها أقول:

((لم أزل أسحب قيدي متعباً وجراحي لم تزل تشتم قيدي
أنا أقبلت عليه راضياً بعدما غيبت في عينيك رشدي
كل أهوائك كانت بدعة من غوايات عنيدات التحدي

أخذت مـن كبريـائي مـا اشـتهت وتلهـت بتبـاريجي ووجـدي
انطوى في غيهب النسيان ذكري وانتهى في ذلة الغفران حقدي
وجفـاني كـل أترابـي فمـا حفظـوا ودي ولا أوفـوا بعهـدي
مـا تبقّـى غيـر هـذا القيـد لـي في بقايـا الليـل مـن هـم وسـهد
إنـه عمـري، فلـن أرمـي بـه لا أطيق السير في الوحشة وحدي))

تجليات المرأة، ومعاناتي الحياتية معها، يطول الحـديث عنهـا، هـل لـي أن أختصرها بقولي:

((هـي والـدنيا، ومـا بينهمـا غصصي الحرى وأهوائي العنيـدة!
رحلـة للـشوق لـم أبلـغ بهـا ما أرتنـي مـن فـراديس بعيـده!
طـال دربـي وانتهـى زادي لـه ومضى عمري على ظهر قـصيده!))

جاء كاهن إلى الفيلسوف الفرنسي الكافر فولتير وطلب منه أن يتوب عن كفره وهو على عتبة الثمانين، وكان فولتير مشهوراً بانصبابه على العمـل، فأشـار إلـى الكتب والأوراق حواليه وصاح بالكاهن، أترى عندي وقتاً لكي اموت يا محترم؟

- **فكرة الموت ماذا تعني بالنسبة إليك؟**

– نحن لا نموت، بل لا نقدر أن نموت، ولكننا نتغير، الروح قوة، والقوة لا تفنى، الكون كله قائم على روعة التناسق بين النقيضين الروح والمادة، الروح باقيـة والمادة زائلة، من يدري، قد يأتي يوم يسمع فيه احفاد أحفادنا خطبة طارق ابـن زياد على الشاطئ الاسبنيولي، او خطبة نابليون أمام أسوار عكا، هذا الإيمـان العلمي انتزع من عقلي فكرة الخوف من الموت، من عهد قريب ركبت الطائرة في جو عاصف من لندن إلى واشنطن لإجراء العملية الجراحية في قلبـي فـي

مستشفى كليفلاند، كنت أتخيل شبح الموت يجالسني حيناً وينفر مني أحياناً، لم أخف، رأيتني أتناول القلم وأكتب:

((حبيبتي لا تخبري إخوتي كيف الردى، كيف عليَّ اعتدى
إن يسألوا عني وقد راعهم أن أبصروا هيكلي الموصدا
لا تجزعي، لا تطرقي خشعة لا تسمحي للحزن أن يولدا
قولي لهم سافر ... قولي لهم إن له في كوكب موعدا))

إن هذا الإيمان العلمي المطلق بخلود الجوهر وزوال العرض، أي بخلود الروح وزوال المادة حبب إلى دنيانا هذه الحياة فيها، فلم يكن بإمكاني أن أتجنى عليها كما يتجنى عليها من دب فيهم العجز والهرم من أهل العلم والأدب في العالمين الشرقي والغربي، إنني في حالتي المرضية كنت دائماً أردد بيني وبين نفسي ما فيه من حبي للأرض وتقديسي لها على كل ما فيها من أتراح وأفراح، واكثر ما كنت أردد كان قولي:

((ملاك الموت طاف بي الأعالي وشق بها غياهب كل تيه
وأبرز لي النجوم وكل نجم يتيه بما لديه على أخيه
وقال لي انتق المأوى فإني أريدك تنتقي ما تشتهيه
فأنت طويت عمرك بالتغني بفردوس الجمال وساكنيه
وأنت شقيت في دنياك مما بلوت بها من العيش الكريه
فأين تريد أن تحيا بعيداً عن القلق المرير وعن بنيه!
ولاح إلي نجم من بعيد تفلَّت من مواكب راصديه
توشَّح بالغيوب فكان بدعاً يتيم الند منفرد الشبيه
فقلت: هناك ! قال بكل رفق هو النجم الذي قدمت فيه!))

وكنت وأنا مثخن بالجراح وملقى على سريري في المستشفى، أستعرض

الماضي واتلفت إلى ما أنا عليه، فأسمعني أنشد وبسمة السخرية لا تفارق شفتي:

((كلما الموت لاح لي كنت أرميه بطرف بالكبرياء خضيب
وابتسامي على شفاهي ترنيمة شكر إلى شبابي اللعوب!
وتمر الأيام .... والموت غاد رائح راصد عليَّ دروبي
كلما شئت أن أصافحه ازورَّ وولى في صمته المستريب
إنه حاقد علي وما يثنيه عن حقده وقار مشيبي
ليس ينسى الماضي وما كان مني في التلاقي من قلة التهذيب!))

- **لا حظت في كل ما أوردت من قصائد أن البيت الأخير هو بيت مفاجأة يخلق فكرة لم نتوقعها، فهل كان ذلك صدفة أم عن سابق تخطيط؟**

– هذا أسلوبي في الكتابة، القصيدة عندي وحدة متكاملة تحمل فكرة جديدة، تعودت أن أختمها ببيت الاستثارة أو كما تقول بيت المفاجأة.

- **هل لنا أن نعرف ما يوضح هذا الأسلوب في مواضيع أخرى؟**

– في قريتي، أيام العز، كان هناك طلل روماني لا يستطيع غير الظن أن يتحدث عن ماضيه، وقد استرعى انتباهي نظافة تربه وخلوه من العناكب والأشواك، فقلت في نفسي هنا يقف الموت مجروح الكبرياء، فنشأت الفكرة وتبلورت في خيالي فقلت:

((قفي قدمي إن هذا المكان يغيب به المرء عن نفسه
رمال وأنقاضُ صرحٍ هوت أعاليه تبحث عن أسّه
أقلب طرفي به ذاهلاً وأسأل يومي عن أمسه
أكانت تسيل عليه الحياة وتغفو الجفون على أنسه
وتشدو البلابل في سعده وتجري المقادير في نحسه

أأستنطق الصخر عن ناحتيه وأستنهض الميت من رمسه
حوافر خيل الزمان المشتّ تكاد تحدّث عن بؤسه
فما يرضع الشوك من صدره ولا ينعب البوم في رأسه
وتلك العناكب مذعورة تريد التفلت من حبسه
لقد تعبتْ منه كف الدما ر، وباتت تخاف أذى لمسه
هنا ينفض الوهم أشباحه وينتحر الموت من يأسه!))

وكثيراً ما سمعت الناس يقولون في جميع بقاع الدنيا : إن المرأة حريصة كل الحرص على كتم حقيقة عمرها، والواقع أن الرجل أحرص بكثير من المرأة في كتم حقيقة عمره، فقلت في ذلك:

((هذي الربى كم ضاق فيَّ فضاؤها مالي على جنباتها أتعثر
شبَّ الحصى فيها ودون زحامه درب يغيب وآخر يتكسر
وملاعبي ومجرُّ أذيالي بها بعدت فما ترقى إليها الأنسر

ما كنت أحسب أنها تتغير!

و الخمر، ويح الخمر، كان أقلّها يوري أماني الرحاب ويسعّر
ويطوف بي دنيا مخضّلة الجنى لا أنتقي منها ولا اتخير
واليوم لا وهج، ولا أرج بها فكأنها من مزنة تتحدَّر

ما كنت أحسب أنها تتغير

وأرى الشتاء تطاولت أيامه وازداد عسفاً قلبه المتحجر
كم زارني وكشفت عن صدري له فأقام لا يزهو ولا يتكبر
مازلت اذكر كيف كان لهائه من دفء أضلاعي يذوب ويقطر

ما كنت أحسب أنه يتغير

وأتيت مرآتي، وعطري في يدي فبصرت مالا كنت فيها أبصر

فغضضت طرفي ذاهلاً متوجعاً ونفرت منها عاتباً أستنكر
خانت عهود مودتي فتغيرت ما كنت أحسب أنها تتغير!))

* وأخيراً ماذا قلت، وهو من اجمل ما قيل في التوبة؟

((عشتُ ياربّ مرة عبد أهوا ئي شريداً لا أعرف الوجلا
كم تركت الهوى يطل على تيـ ـهي ويندى جبينها خجلاً
كم شققت الدجى ونار غوايا تي الغوالي تنير لي السبلا
كم بلوتُ الشجون تمضغ في رو حي وتزكي جراحها غُللا
إن أمسي إذا التفتُّ إليه جُنّ في الخيال واقتتلا
ذلك العهد لن أحنّ إليه إنه عن مناهلي ارتحلا
صرتُ حراً، بلغتُ جنة دنيا ي... وجفني بنورها اكتحلا
إنها نعمة أقطع فيها الـ ـعمر مستغفراً ومبتهلاً
أعف عني يا ربّ، بدّد همو مي، فلقد عشت مرة رجلاً))



بدوي الجبل :

غنى للوطن على قيثارته..

لم يعرف الشعر العربي المعاصر .. صاحب ديباجة جميلة ولا لفظة مترفة غنية تقطر عسلاً وحلاوة، وتكتنز شهداً وجنى .. ولا عبارة فيها السهل الممتنع وإباء النفس وعزتها وسموها .. مثل ألفاظ وعبارات بدوي الجبل .. هذا الذي يعد أهم القمم التي عرفها الشعر العربي في العصر الحديث، وما زال رغم غنى هذا الشعر بأسماء وقامات سامقة يقصر عن بلوغها السحاب!!

ولد الشعر محمد سليمان الأحمد عام ١٩٠٣م في قرية (ديفة) التابعة لمنطقة الحفة في محافظة اللاذقية، عروس الساحل السوري، كان أبوه الشيخ سليمان الأحمد من أعلام الديار الشامية فقهاً ولغة وأدباً. وقد تلقى علومه الابتدائية والثانوية في مدارس اللاذقية، وشب ونفسه ميالة إلى الأدب، قرأ أكثر دواوين العرب، ورسائل أئمة البلاغة، ويكاد يكون القرآن الكريم، الكتاب الوحيد الذي أدام القراءة فيه، وتمثل بالكثير من آياته البينات.

بدت فيه ملامح الشاعرية، وهو في العقد الثاني من عمره، وبرز على أقرانه،وحوالي هذه السن أظهر ديوانه الأول، فأقبل العلماء والأدباء عليه إقبالاً لم يشهده شعر شاب قبله، فكتب رئيس المجمع العلمي بدمشق (محمد كرد علي) يرحب به، ويثني على نبوغه، كما رحب به خليل مردم وغيره، وقد كتب عنه (سليم الجندي) أحد أعضاء المجمع العلمي يقول:

(ضرب في الإجادة في الشعر بسهم وافر، وانقاد إليه من المعاني الأدبية والقوافي الصعبة، وهو في صحوة عمره، ما يقصر عن إدراكه فيه كثير ممن بلغ الأصيل من حياته، وإن الواقف على ديوانه هذا ليرى في تضاعيف شعره الشاب من جزالة اللفظ، ومتانة التأليف، والمعاني الغضة ما ينم عن موهبة واسعة،

وقريحة مطواعة، وحذق في صناعة الشعر. وإذا صح أن يبنى حكم المستقبل على الحاضر ساغ لنا أن نقول إن بدوي الجبل سيكون شاعر الشيوخ غداً كما كان شاعر الشباب اليوم!

عرف الشاعر محمد سليمان الأحمد بلقب (بدوي الجبل) أكثر مما عرف باسمه، ذلك أنه أرسل في بدء حياته الأدبية قصيدة إلى جريدة (ألف باء) الدمشقية، مطلعها:

أتغنى وما أجدى الحسام ولا أغنى قوافٍ من الأشعار تبقى ولا تفنى

أعجبت صاحب الجريدة الأستاذ يوسف العيسى، وخشية من أن لا يلتفت إليها القراء نشر القصيدة غفلا من اسمه، ونسبه لبدوي الجبل، وحين ظهرت جاء الشاعر يسأل الأستاذ العيسى عن هذا الإغفال فأجابه بقوله: لقد ابتدعت لك هذا اللقب لأن القصيدة فائقة الجمال، وخشيت أن لا تقرأ من كثرة الأدباء، فاستعرت هذا اللقب لأجلب نظر القراء فيعرفوا الأديب من قراءة قصيدته، ثم يقول: (والقصيدة جزلة كشعر البادية، فناظمها بدوي، ولكن ما هذا البدوي؟ إنه من الجبل) وبسرعة البرق جرى هذا التفكير في مخيلتي وظهر هذا اللقب.

خاض (بدوي الجبل) المعامع السياسية في عهد الانتداب الفرنسي على سورية، فكان في طليعة شباب الكتلة الوطنية المكافحين عن حرية الوطن وسيادته، وكان من الشعراء الذين اندفع صوتهم في تلك الفترات. ولقد انتخب لسن مبكرة في (المجلس التمثيلي) مرات عدة، نائباً عن اللاذقية ودخل الوزارة، ولكنه ظل الشاعر المغرد لكل حدث كبير بشعره، وانتخبه (المجمع العلمي العربي) بدمشق عضواً عاملاً بين أعضائه، لمتانة شعره وشدة أسره.

حقد عليه الفرنسيون لمواقفه الوطنية، فلاحقوه، واعتقلوه، وأدموا قدميه ضرباً، وبعد عام ١٩٣٩ لاذ بالعراق محتمياً بصديقه أكرم زعيتر، وشارك مشاركة إعلامية في ثورة الكيلاني عام ١٩٤١م ، ولما عاد إلى سورية اعتقله الفرنسيون،

ولم يستطع الشاعر السجين حضور تعازي والده الذي توفي أثناء سجنه .. وتشرد بعد عام ١٩٥٦م ست سنوات بين بيروت والآستانة وروما وفيينا وجنيف، ثم عاد إلى العراق فاستفزته هزيمة حزيران في فلسطين سنة ١٩٦٧م، فأطلق عاصفته المدوية (من وحي الهزيمة) في مائة وخمسة وستين بيتاً مطلعها:

(رمل سيناء قبرنا المحفور وعلى القبر منكر ونكير)

أمضى بقية حياته في دمشق مع أخيه الشاعر احمد سليمان الأحمد، حتى وافته المنية، طبع ديوانه كاملاً عام ١٩٧٨م، تحت عنوان (ديوان بدوي الجبل) ويقع في (٥٥٥) صفحة من القطع الكبير ويضم (١١٥) قصيدة، وقدم له الأستاذ أكرم زعيتر بمقدمة قيمة.

شخصيته:

الشاعر بدوي الجبل، ربع القامة – إلى القصر أقرب – أسمر اللون، وفي عينيه بريق وإشعاع ينم عن عبقرية وشاعرية، تعلو البشاشة وجهه، نحيف في طفولته وشبابه، ممتلئ الإهاب في كهولته، يفيض بالحس الدقيق والشعور المرهف، سريع الحركة، جم النشاط، يتأثر لكل شيء، ويبكي على كل شيء:

(أنا أبكي لليل أوحشه البد ر، وللقلب هدّه الحرمان
أنا أبكي للهم يأوي إلى القلب فيقسو على الغريب المكان
أنا أبكي لكل قيد فأبكي لقريض تفله الأوزان)

وديع كالحمل، متواضع كالبنفسجة، طاهر الضمير كزنابق الحقل، يكره الظهور، ويمقت الأبهة، ويعشق البساطة في جميع مظاهرها، يرفه عن نفسه بالمأكل والمشرب والملبس، ويغتسل بالماء البارد صيفاً شتاءً، خريفاً ربيعاً، فهو مترف أنيق:

(وأنـا المتـرف الأنيـق ولكـن ترفـي مـن صـاغه الـرحمن)

دمث الأخلاق، سمح، طاهر، نقي السريرة، همومه كبرى، حلو النادرة، بـارع النكتة، متواضع لصديقه، لطيف المعشر، حلـو الحـديث، ذرب اللـسان، حاضـر البديهة، معتز بمواهب وعروبته، ومن كلماته "..... لم أته على الدنيا لأنـي خلقـت عبقرياً، ولكني تهت على الدنيا لأني خلقت عربياً..."

شعره:

يمتلك (بدوي الجبل) أدوات الشعر العالي: الخيال واللفـظ والعاطفـة واللغـة والنغم والموسيقا.

يتسم خياله بالجدة والطرافة والعمق. إنه مخترع أخيلة، وألفاظه أنيقة مـصطفاة فصيحة، تساير الأخيلة والمعاني وإشراقة وجزالة أو رقة ولوناً، كأن لها أرواحاً.

إن قصائده تدخل في منهاج المدرسة القديمة، فلا تخرج على الأوزان المعتادة، ولا تتحرر من القافية الواحدة إلا ما كان من اندفاعات طارئة أيام الصبا في ديوانه. أما قصائده بعد الديوان فهي القصائد العربية ذات القافية الواحدة، والـوزن الواحـد والموضوعات المتعددة، ففيها الوصف والنسيب والمدح والعتاب والسياسة والهجاء، وكأنها قصيدة جاهلية أغناها الشاعر بتجاربه.

ما من حدث قومي إلا وله في وصفه قصيدة كبرى، لا تكاد تذاع حتى تتناقلهـا الصحف، وتصبح على لسان الكثيرين من الـشيوخ والـشباب، وتـرى الـصحافة السورية أنه الشاعر الذي غنت البلاد على قيثارته في أفراحها، ومـسحت بـشعره الدموع في أحزانها.

في شعره جدة وقوة وانسجام، وفي عاطفته صدق ونقاء وحنان، وفـي إلقائـه عذوبة وفصاحة وبيان.

وصف (بدوي الجبل) حال قومه بالشام خلال الانتداب الفرنسي، وما أصـاب الأباة من زعمائه، فأصبحوا بين نازح وسـجين.. ويطـوف فـي جـلال التـاريخ

بالعظماء ، فيذكر قومه بالأبطال القدماء، يقول:

(هذا صــلاح الـدين فاخـشع إنــه ملك الملـوك مـسـالماً و مـــغيراً
طاف الجــلال بـــه مليــكاً فاتحــاً حيــاً وطــاف بلحـده مقبــــوراً)

ونلاحظ أن الشاعر يعمد في شعره الوطني إلى إيقاظ الحمية العربية، وإثــارة الذكريات الماضية من أمجاد سالفة، ومفاخر موروثة.

وقف مرة في نادي (المثنى) ببغداد خريف عام ١٩٨٠،يندّد بالمستعمرين فــي قصيدته:

(يا سامر الحي هل تعنيـك شـكوانا رق الحديـد ومـا رقـوا لبلوانـا
خلّ العتاب دموعاً لا غنــاء بهـــا وعاتـــب القـــوم أشــلاء ونيرانـــا)

وماج النادي حين جلجل الشاعر:

(إني لأشمت بالجبار يـصرعـــه طــاغ ويرهقــه ظلمــاً وعدوانـــا
سمعت باريس تشكو زهــو فاتحهــا هلا تـذكرت يــا بــاريس شـكوانا
عشرين عاماً شربنا الكأس مترعــة من الأذى فتملَّــي صــرفها الآنــا)

واستثارة الحس الوطني، والدفاع عن العروبة، من أغــراض الـشاعر.. فهــو يدعو إلى الحقد الوطني على المحتل الظالم، ويقول:

(آمنت بالحقد يذكي من عزائمنـــا وأبعـــد الله إشفاقـــاً وتحنانـــا
ويل الشعوب التي لم تَـسقِ مــن ثاراتها الحمــر أحقــاداً وأضــغانا)

وفلسطين، قضية العرب الأولى، وشاعرنا يثير النخوات، ويؤجج الثارات مــن أجلها، ويندد، وينذر، ويهدد:

(قد اســترد الــسبايا كــل منهــزم لم تبــق فـــي رقهــا إلا سبايانـــا
وما لمحــت ســياط الظلــم داميــة إلا عرفــت عليهــا لحــم أســرانا)

وفي أغرودة الجلاء عن سورية، يقول:

(يا فلسطين هوى مستعر من ربى الشام ونصر وولاء
وتحيات الرضى من دجلة وسلام الله من غار حراء)

وهكذا نرى أن شعره الوطني والقومي، لا ينفصل عن الفخر بوحدة العرب وبطولاتهم.

وقف البدوي على قبر (إبراهيم هنانو) أكثر من مرة، يذكر المآسي التي مرت بالبلاد، ويحفز قومه إلى العمل وحب العرب والعروبة:

(أبا طارق) هذي سراياك أقبلت يرف على أعلامها النسر والنصر
لقد قدتها حياً وميتاً فما ثنى شكيمتها عنف ولا هدها ذعر)

أما شعره في وصف الطبيعة والغزل، فقليل، ويقتفي آثار القدماء في صوره، ويصف محبوبته أوصافاً حسية تقليدية، قال مرة في وصف محبوبته:

(من بسمات الحور قد صاغها ومن شذاه الطهر سواها
لله عيناها : فقد أنزلت على آي الشعر عيناها
وثغرها: آها على قبلة طهورة من ثغرها آها)

إن شاعرنا عنيف الهوى في شعره، فإذا أحب اعترف بحبه، وفي مهرجان أبي العلاء المعري، يعاتب (المعري) في انصرافه عن المرأة ، ويقول:

(يا ظالم التفاح في وجناتها لو ذقت بعض شمائل التفاح)

إن أبياته في المرأة تنم عن حب عميق لها، وهذا يدل على أن شاعرنا تغزل بها كثيراً، ولعل ما قاله قد طوى أكثره، ولم يصلنا. فالشاعر (بدوي الجبل) قوي

الأسلوب، دقيق التعبير، بديع الصياغة اللفظية، ويمتاز بروحه المثالية، وبموسيقاه الشعرية، وبقدرته الفائقة على رسم نبضات القلوب، وخلجات الصدور، وانطباعات العواطف. بارع في وصف الطبيعة، وتصوير أرضها وسمائها، وحسنها وبهائها. ينقلنا على أجنحة الخيال إلى عوالم ثانية كلها زهر وظلال. وإذا حمل على الجور والباطل، فعاصفة هوجاء تقتلع جذور الشر، وتجتاح دعاة السوء.

مضى الشاعر الكبير (بدوي الجبل) شاعر العربية، مع قافلة الخالدين. عاش حياة حافلة بالمجد والعطاء، فقد صارع الانتداب الفرنسي، وقال كلمته بكل جرأة وعناد، وسجن وعذب وشرد أكثر من مرة، لمواقفه الوطنية الصادقة.

ومن يقرأ قصائده، يألف روحاً شاعرية صادقة، ويجد أن ما من قصيدة له تخلو من بيت سائر يستشهد به، تلخص فيه حكمة، وتختصر تجربة.

لقد كانت قصيدته الطويلة (الكعبة الزهراء) المهداة إلى أعتاب أبي الزهراء، محمد صلوات الله عليه من أروع ما نظم البدوي، وفيها قوله:

(بنور على أم القرى وبطيب ... غسلت فؤادي من أسى ولهيب

لثمت الثرى سبعاً وكحلت مقلتي ... بحسن كأسرار السماء مهيب

وأمسكت قلبي لا يطير إلى (منى) ... بأعبائه من لهفة ووجيب

فيا مهجتي: وادي الأمين محمد ... خصيب الهدى: والزرع غير خصيب

هنا الكعبة الزهراء والوحي والشذا ... هنا النور فافني في هواه وذوبي

ويا مهجتي: بين الحطيم وزمزم ... تركت دموعي شافعاً لذنوبي

وفي الكعبة الزهراء زينت لوعتي ... وعطّر أبواب السماء نحيبي)

المراجع:


١- الأدب العربي المعاصر في سورية: سامر الكيالي - ص ٣٤٧.

٢- الشعراء الأعلام في سورية: الدكتور سامي الدهان - ص ٢٢٧.

٣- المدارس الأدبية: الدكتور نسيب نشاوي - ص ١٣٥.

٤- ديوان بدوي الجبل - دار العودة - بيروت - ١٩٧٨م.

٥- بدوي الجبل: حياته وشعره: محمد الخطيب - ص ١٥.



د. أمجد الطرابلسي:

تحدي اليتم والغربة وعلم الأجيال الاعتزاز بالتراث

كانت مجلة "الرسالة" القاهرية كبرى مجلات الثقافة الجادة في الوطن العربي لسنوات عديدة في القرن الماضي، بالنظر للبحوث والمقالات الراقية والمواضيع المختارة، التي حررّها مشاهير المفكرين العرب ... ومن هنا يبدو مثيراً للدهشة أن تظهر في "الرسالة" عام ١٩٣٤ قصيدة لشاعر ناشئ لم تسمع به ساحة الأدب قبلاً، سمّاها مؤلفها: "اليتيم" ليتحدث فيها عن أمه، وما أشعله فقدها في جوانحه من لواعج الحسرة والأسى:

"ما لفؤادي ذاب ... يلفحه الوجد
وللدجى قد شاب ... ولم أنم بعدُ؟
ما للأسى قد ثار ... في كبدي الحرّى
وما لدمعي حار ... في مقلتي الحيرى؟
أحنوا إلى التذكار ... وليس من ذكرى
خيال أمي غاب ... وإلفي المهد
غدا مع الأحقاب ... ولم يزل يعدو
في زمن لغّاب ... ليس له عهد
يروح بالأوصاب ... وبالجوى يغدو؟"

وقد حظيت القصيدة باستحسان القراء المثقفين، لأنها دلّت على إحساس الشاعر المرهف، ومشاعره الرقيقة، وكشفت أيضاً عن مقدرته وتفوقه، وامتلاكه ناصية اللغة وأسرار البيان وهو بعد في السابعة عشرة من عمره وحسب.

كان ذلك الشاعر الشاب هو كما تنبأ له أصدقاءه في وقت مبكر، المربي القدير والكاتب المحقق الدكتور "أمجد الطرابلسي".

على طريق مسيرة طويلة:

أحاط الحزن بالشعر منذ طفولته ... كان في الثانية من عمره عام ١٩١٨ حين فقد أمه، وفي التاسعة لحق بها أبوه، فعاش يتيماً في رعاية جده وأعمامه، وبعد مرحلة التعليم الابتدائي، انتسب "الطرابلسي" إلى "مكتب عنبر" أول مدرسة ثانوية في سوريا، وكانت في الواقع مؤسسة تربوية قائمة بذاتها، ولها نظمها وطرائقها، كما كانت حصناً من حصون الفصحى، ومعقلاً من معاقل الوطنية الصادقة، وقد ضمت كوكبة من فحول اللغة العربية: عبد القادر المبارك، وسليم الجندي – عضوي المجمع العلمي العربي – ومحمد البزم، الذي تتلمذ الشاعر على يديه سنتين، وكان قريباً منه خلال سبع سنوات، فروّى نفسه من علوم العربية وآدابها، وامتلك ناصية اللغة العربية وأسرار البيان، وبدا ذلك جلياً في قصيدته "اليتيم" التي نظمها وهو يودع مدرسته بعد نيله الشهادة الثانوية – قسم الفلسفة – ونشرها في الرسالة فاتحة سلسلة من القصائد: عاصفة في قلب، عرس في مأتم، وفي الروض المحزون، والتي عبرت عن إحساسه المرهف، ومشاعره الرقيقة، اختار "الطرابلسي" العمل في التعليم فعين معلماً في مدارس وزارة المعارف، وتابع أثناءها الدراسة في معهد المعلمين العالي فلما نال شهادته، حصل على بعثة للدراسة في فرنسا عام ١٩٣٨، وقد أمضى فيها نحو سبع سنين، نال بعدها الإجازة الجامعية في اللغة العربية والدكتوراه في الأدب العربي عن أطروحته التي عالج فيها قضايا "المعنى والمبنى في النقد العربي" في القرن الرابع الهجري، باللغة الفرنسية، ثم عاد إلى الوطن عام ١٩٤٥، ليحتل كرسيه في كلية الآداب بجامعة دمشق ويبدأ مرحلة جديدة في حياته امتدت اثنتي عشرة سنة، درّس فيها الأدب العربي، وأرسى قواعده، وضرب المثل الصالح في طرائق التدريس التي سلكها لينشّئ طلابه وفد

تزودوا بالمعرفة وحب البحث، مما يمكّنهم من أداء رسالتهم العلمية على الوجه المرضي، وطالما أثنى طلابه وعارفوه على طريقته البارعة في التدريس، وأفاضوا في ذكر سعة علمه وتمكّنه من مادته.

التعبير عن مشاعر الأمة:

أفسح الدكتور الطرابلسي متسعاً من وقته لتأليف كتب تعزّز مواقفه في دراسة الأدب، وتعين طلابه فكان من نتاج هذه المرحلة عدداً من المؤلفات القيمة من بينها: كتاب "النقد واللغة في رسالة الغفران (١٠٥١)، نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب (١٩٥٥) وهو الكتاب الذي ترك بصمات عميقة في ثقافة الشباب الذين درسوا بجامعة دمشق وفي المغرب بعدها، وقد صدر في عدة طبعات، كان المؤلف يضيف إليه في كل طبعة لمسات وأفكاراً جديدة، ثم أصدر كتابه: "محاضرات عن شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام" من أواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، أراد المؤلف منها أن يعبّر عن مشاعر الأمة ويستثير حميتها، ويحدو بها أن تمضي في طريق النهضة التقدم لتعيد سالف مجدها".

"لقد قدّمت فصول الكتاب الكثير المفيد عن شعر العروبة الحماسي منذ جذوره البعيدة إلى أيام النهضة الحديثة والبعث الجديد، وأوضحت نضال شعرائنا في المعارك القومية، وتمجيدهم بطولات الأبطال والشهداء، وتنديدهم بمظالم المستعمرين الطغاة، وتعلّقهم الراسخ بالوحدة العربية المنشودة.

طقس احتفالي بالشعر والشعراء:

مثّل عام ١٩٥٨ محطة بارزة في مسيرة المربي والشاعر، فقد قامت الوحدة بين القطرين الشقيقين: مصر وسوريا، فحملت للأمة العربية آمالاً كباراً، وآفاقاً فساحاً، وأسندت إلى الدكتور الطرابلسي وزارة التربية والتعليم في الإقليم الشمالي، فأدى عمله فيها بوطنية وإخلاص صادق، ولكن التجربة القومية لم تمض إلى غايتها

وحدث الانفصال بين القطرين، مما دفعه للمغادرة إلى "المغرب" ليعمل في التدريس بجامعات الدار البيضاء، وفاس والرباط، طوال ثلاثين عاماً، أشرف خلاله على أكثر من ٦٠ رسالة دكتوراه وماجستير، كون أجيالاً من الأساتذة والعلماء، درّبوا على أساليب البحث العلمي الرفيع، وتمرسوا بتقدير العلم والاستزادة منه على الدوام، يذكر أحد طلابه بكلية الآداب في فاس "لقد كنا ونحن بين يدي أستاذنا العلامة الطرابلسي نعيش في طقس احتفالي بالشعر والشعراء في الجاهلية والإسلام وفي العصور الأخرى، طقس يستحضر فيه أستاذنا النصوص والأخبار والشروح والتعاليق والهوامش، يستنطقها ويمحصها وينخلها ويلقي بها في أفئدتنا ووجداننا، لقد تعلمنا منه الصبر والمجاهدة، وتعلمنا السفر والإبحار خلف رصيد وكنوز الأدب العربي القديم" وفي هذه المرحلة (١٩٦٠) انتخب الدكتور الطرابلسي عضواً في مجمع اللغة العربية خلفاً للشاعر محمد البزم وظل على صلة المجمع يتصل بزملائه فيه ويشاركهم في مباحثهم ويبادلهم الرأي في القضايا التي يطرحونها.

ولم يتوقف عطاء الدكتور الطرابلسي الفكري، بل تابع إصدار مؤلفاته، فنشر تحقيقه الممتاز لكتابي "أبي العلاء المعري" زجر النابح (١٩٦٥) ورسالة "الصاهل والشاحج" (١٩٧٤) كما صدرت عام ١٩٩٣ أطروحته للدكتوراه: نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة، بعد أن ترجمها إلى العربية إدريس بلمليح (المغرب ١٩٩٣) الذي يعبّر عن احترامه وتقديره للدكتور الطرابلسي في مقدمته للكتاب: "لقد كان رائدي في التعلق والاعتزاز بالتراث العربي والإسلامي، رجلاً عشق التاريخ العربي إلى حد التصوف، ولكن عشقه ذاك لم يكن انفعالاً متشنجاً، أو انكفاء على الذات التي تجتر وتعيد ما قيل سلفاً، بل هو عشق الباحث المتفتح والعالم الذي يضمن التوازن الحيوي والفعال بين مقومات الذات العربية والإسلامية، وبين معطيات الفكر والحضارة الإنسانية أياً كان مصدرها".

نفس حرة، وشموخ حتى النهاية: وسط عمله الدائب في التدريس وفي التحقيق والتأليف ظلت مشاعره القومية متوهجة في عقله ومشاعره وبقيت إمارات الإباء

والشموخ العربي سمة من سماته المميزة "لقد كان منتصباً في وقفته ومشيته وتحيته، كما كان شامخاً في أفكاره وقناعاته وقد عبرت قصائده العديدة عن تمسكه بالعزة والشمم والكرامة:

"أحب الجبال الشامخات كأنها | على جبهة الدنيا تصول عواتيا
تضاحك من عصف الرياح وزأرها | وتحتضن السيل الحرون المعاديا
وتلهو عن الزلزال وهو مزمجر | يضج ببطن الأرض غضبان واريا
واحتقر الكثبان مرعشها الصبا | ويفزعها الإعصار إن مر لاهياً
وتحملها الأرياح أنى توجهت | ألا عيب في أسفارها وألاهيا"

ويتابع في قصيدة أخرى بحس الأبي الصلب:

"أحب الفتى والغلّ يثقل عنقه | وسيف المنايا بين عينيه مشهر
يصيح بأعلى صوته ينكر الأذى | ويضحك من بطش الطغاة ويسخر
ويشمخ بالأغلال رأساً وإن غدت | تحز ومن أنيابها الدم يقطر
وأحتقر الأحرار يحنون هامهم | وليس عليهم سيد أو مسيطر
إذا كان قلب المرء عبداً ورأيه | فقل لي – هديت الخير – ماذا تحرر؟

ولم يقطع "الطرابلسي: صلته بالشعر بل راح ينشد وينظم على فترات وفي مواضيع مختلفة جمع منها أربعين نصاً في مجموعته كان شاعراً (١٩٩٣) استهلها بقوله:

"قالوا: سكت عن الغناء فقلت: لا | في مسمع الأكوان رجع غنائي
الكون لحني كله رتلته | في نشوة الإصباح والإمساء
ألفته من آهتي وتبسمي | فاستنشدوه يُعِدْ لكم أصدائي"

غربة لا انتهاء:

ورحل أمجد الطرابلسي في الثامن والعشرين من كانون الثاني عـام ٢٠٠٠م وانتهت مسيرة متألقة حافلة بالحب والعطاء، ولوح الشاعر من بعيد لأحبائه ومقدري مكانته الأدبية والتربوية:

كنـــا نقـــول: غربـــة يومـــا لهـــا انقـــضاء

ثـــم نعـــود حيـــث ننـــسى البعـــد والـــشقاء

ونلتقـــي فـــي حينـــا أهـــلا وأصـــدقاء

هـــا هـــي ذي تـــصرمت وانكـــشف العمـــاء

مـــن بعـــد غربـــة الحيـــاة غربـــة الفنـــاء

وهـــذه يـــا صـــاحبي لـــيس لهـــا انتهـــاء



أنور العطار:

الشاعر الحزين الذي أنشد للوطن والحب والجمال

في ذكرياتي، ثمة صفحة أثيرة إلى قلبي، تطوف سطورها في خاطري كلما تردد اسم الشاعر الكبير "أنور العطار" لقد كنت واحداً من طلابه في مرحلة الدراسة الثانوية، وفي احتفال المدرسة بذكرى جلاء الفرنسيين المحتلين عن سوريا، شاركت بأبيات نظمتها بالمناسبة، نالت تقديره واستحسان الحضور، وكان أن كرّمني بإهدائي نسخة من ديوانه: "ظلال الأيام" وجدت فيها آنذاك هدية رائعة لم أكن أحلم بها يوماً. وسارعت إلى البيت أقلّب فخوراً صفحات الديوان، وأتنقّل بين قصائده تنقّل الفراشات على أفواف الزهر النضير، ثم أتوقف عند قصيدة بعينها واقرأ مشغوفاً:

"كل شيء يحيا بدّر فالسطح يغني والدوح يندى ويعبق
والنسيم الرقيق ينفخ بالعطر وينشي كالبابلي المعتّق
والأزاهير في الدروب تهادي بين ورد نضير وفلّ وزنبق
وهفا الياسمين مدّ على الصخر شباكاً من نوره وتألّق
تتغنى الحقول سكرى من العطر ومن سجعه الحمام المطوّق
بلبل في غصونه يتشكّى ونهير بدمعه يترقرق"

ويمضي هزيع طويل من الليل وأنا مستغرق في حنايا القصائد، هائم في فضائها، وعرفت حينها سرّ شهرة العطار، ومكانته المرموقة في ساحة الفكر: شاعراً مجدداً تتبض قصائده بالحياة، وتتألق بالصور المشرقة والموسيقا الشجية.

بداية المسيرة:

ولد أنور العطار بمدينة بعلبك عام ١٩١٣ لأبوين دمشقيين، وتلقى تعليمه بعد انتقال أسرته لدمشق بمكتب عنبر – أول ثانوية رسمية في سوريا – ثم تابع دراسته العالية بكلية الآداب في الجامعة السورية، وتخرج منها حائزاً شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها، هو ما أهله لتعليم اللغة في المدارس الثانوية بدمشق، وينتقل بعدها إلى بغداد ليعلّم في معاهد وزارة المعارف العالية لمدة أربع سنين، وبعيد عودته إلى سوريا عهد إليه برئاسة ديوان الإنشاء، ثم ساهم بتأسيس المجمع الأدبي بدمشق، وفي هذه الآونة أصدر ديوانه الأول والوحيد "ظلال الأيام" عام ١٩٤٨، وقد ترجم المستشرق الإنكليزي (آربري) عدداً من قصائده إلى الإنكليزية شعراً في كتابه: "أزهار الشعر" المطبوع في لندن.

عطاء خير لم ير النور:

بدأ أنور العطار ينظم الشعر منذ حداثته المبكرة، وكانت قصيدته "الشاعر" باكورة إنتاجه، وتألفت من ستة وخمسين بيتاً، عبّر فيها الشاعر عن خلجاته وعواطفه المتدفقة، ثم توالت قصائده حافلة بالمعاني المبتكرة والألفاظ البليغة، وبدأ اسمه يذيع في دنيا الأدب مترافقاً مع ظهور شاعرين مجددين: زكي المحاسني، وجميل سلطان، مما حفز مجمع اللغة العربية لإقامة حفل تكريم تشجيعاً لهم وتقديراً لنبوغهم، ونشر "العطار" طائفة من قصائده في مجلة "الزهراء" الأدبية التي كانت تصدر قبل عام ١٩٢٨، وفي المجلة الأدبية الكبرى "الرسالة" وبعيد إصداره ديوان "ظلال الأيام" أخذ الشاعر يجمع قصائده في عدد من الدواوين، من بينها: وادي الأحلام، ربيع بلا أحبة" منعطف النهر، البواكير، والبلبل المسحور، إضافة إلى مجموعة من كتب النثر وبينها: الوصف والتزويق عند البحتري، أسرة الغزل في العصر الأموي، الخلاصة الأدبية، وشوقيات لم تنشرها الشوقيات، وألف بيت وبيت، ولم يقدّر الشاعر نشرها، فبقيت لدى أسرته تنتظر من يخرجها إلى النور.

غربة في عالم مزدحم:

لم يكن "أنور العطار" فتى عادياً منذ صباه وتعلّمه في مكتب عنبر، ويصفه صديقه ورفيق فتوته العلامة الأديب "علي الطنطاوي" بأنه "كان شارداً ومحباً للعزلة ... نظراته حالمة وهمساته حائرة، يتأمل الزهرة وكأنه يناجيها، ويبحر بنظراته في الأفق فترتسم على شفته ابتسامة رائقة تنبئ بالغبطة والسعادة، ثيابه تدل على فقره، ونحول جسمه ينطق بمعاناته وقلقه، ورافقت هذه السمات الشاعر في مراحل حياته، فعاش منطوياً على نفسه، بعيداً عن الناس والمجتمع، وبالتأكيد فقد طبع ذلك قصائد الشاعر بطابعه المميز، فجاءت قصائد حافلة بتصويره لأحزانه، وشعوره بالغربة في عالم يموج بالزحام، ويصطخب بالكذب والنفاق، والتلوث الخداع، يقول العطار:

"مررت بصحراء هذي الحياة كما مرّ في الغمض طيف الكرى
على منكبّي بياض النهار وفي مقلتّي سواد الدجى"

وكثيراً ما شكا من وحدته الصماء ووحشة قلبه فيقول:

"أقتات بالأوهام في وحدة الرعب فيها شيخ يمثُلُ
تطفح بالأهوال أرجاؤها والفكر تيّاه بها يحفل"

وأول ما نلمس في شعره تلك النبرة الرومانسية الحادة الممتزجة بالصوفية حيناً وبالمثالية حيناً أخر فهو يكثر من تصوير حالاته النفسية وانفعالاته الجياشة وعواطفه العطشى، يرى في قلبه الذي لم يخلق إلا للحب والعذاب مضنى يشقيه:

"في فؤادي اللهيف داء قد استعصى وجرح يمضني تعذيباً
صاغه الله للعذاب وللحب وأحياه بالدماء خضيباً"

أما همومه وشجونه ومعاناته، فهي ثقيلة ولا تكاد تنتهي حتى تبدأ:

"تعال!...فلليل حزن طويل وهول إذا ما تناهى ابتدا"

ولا ينتشله من هذه التصورات المرعبة غير طيف حبيب يعانق أحلامه ويناغيها:

"وعيني على ملك نائم يجمجم في الحلم أحلى اللغى
أناديه من طول شوقي الملح فيبسم والقلب منه هفا
وأنت أيا طيف ظللتني يعطفك حتى ازدهاني الرضا
تكلّمْ علام تطيل السكوت وفي شفتيك كلام يرى؟"

وهو على الرغم من شجونه التي تمضّه، يبقى جذلان كالشمعة التي تضيء وهي تحترق:

"يهدني شجوي لكنما أظل في غمرته أجذل
على فمي قيثارة تشتكي وفي ضلوعي زهرة تذبل"

ينبوع نشوة وانفعال:

كذلك كان حب العطار رومانسياً مثل الينبوع الأبدي الدائم للنشوة والانفعال.

ومن خلاله حاول الشاعر أن يتعرف على الوجود وحقائقه، ويطل على مملكة الروح ويقيم فيها، وهو حين يخاطب محبوبته يتدفق رقة وشاعرية في تصويره لسحرها وعذوبة حديثها:

"وجهك هذا أم رؤى حلوة وثغرك اللماح أم سلسل
يفتنني فيك صبا ناضر آذار في أعطافه يرفل
مزّوق الأفياء ينْدى منى كأنه من ضحكه جدول
تضيع في أمواهه حسرتي وما يعاني القلب وما يحمل"

ويعود فيؤكد هذه الصفات المعنوية البعيدة عن الماديات التي كثيراً ما يغرق فيها الشعراء فيقول:

"أحببتها مغرية كالدنا لا سحره يغني ولا يبطل
تترك في النفس أحاديثها أعذب ما يترك البلبل
أشم منها عالماً عاطراً يكاد من فرط الشذا يثمل"

هيام بالطبيعة والجمال:

ومثل الشعراء الرومانسيين هام "العطار" بالطبيعة، ولجأ إليها يتلمس في أحضانها عزاء لقلبه المهموم، ومن يقرأ قصائده تطالعه مفاتن الطبيعة بكل سماتها الساحرة، وتفاصيلها الخلابة: الأشجار والأزهار والأنهار والأنوار، الأنسام والعطور، الألوان والألحان ... كل نسمة وكل رفة لها في شعره حضور، وهو جاهد لجعل الطبيعة تفصح عن مظاهرها المتألقة من خلال اندماجه فيها بروحه ومشاعره وانفعاله برونقها الأخاذ إن الطبيعة كما يقول:

"عالم من نضارة واخضرار فاتن الوشي عبقري الإطار
ضمّ دنيا من البشاشة والبشر وما تشتهيه من الأوطارِ
وينابيعَ حُفّل بالأغاريد تناجي بالسواكب الهدارِ
وحقولِ بالزهر مؤتلقات من أقاح ونرجس وبهار
ونسيم يُنشي النفوس ندي أرج نافح الشذّا معطار
وأقاصيص تسكر القلب والروح روتها قيثارةُ الأطيار"

سمّو فوق تفاهات الحياة:

وإضافة لهذا فإن النبرة الرومانسية في شعر "أنور العطار" تمتزج عنده بالصوفية التي تدعو إلى السمو والارتفاع بالنفس الإنسانية فوق تفاهات الحياة اليومية، وفي هذا المجال نجد في عديد من قصائد "العطار" ابتهالاً هو مزيج من الحب والخوف والرجاء:

"يا إلهي! قلبي الرفيق تنهّد مذ صداك الحبيب فيه تردّد

يا إلهي! طيف الفناء يناجيـ ـك ونجواه أنة تتصعد
يا إلهي! أنا الفناء أناديك وأنت البقاء ترجى وتقصد
يا إلهي! عنا لوجهك وجهي وفؤادي من طول حمدك معبد
فنيت مهجتي بحبك يا ر ب وغلغلت في الفناء لأشهد
أجد الفرحة العظيمة في الذل لو بي في انكساري سؤدد
شفني الحب فاستحلت نداء ومن الحب أن تذوب وتسهد
وأنا العبد هام وجداً بمولا ه وإن أفن في المحبة أوجد"

وعاش العطار بوطنية صادقة، مرحلة كفاح سوريا من أجل حريتها واستقلالها كما عاش مأساة فلسطين، المغتصبة، وتجلى إبداعه في هذا المجال في قصائده الوطنية والقومية التي تغنى فيها بوطنه ونضال مجاهديه، وبأبطال فلسطين الذين افتدوها بأرواحهم ودمائهم.

بقي "أنور العطار" ملتزماً بكل القضايا التي وهب لها عصارة قلبه وفكره، وبقي شعره صادحاً بالحب والإيمان والخير والجمال إلى آخر نبضة في حياته، ثم رحل بصمت كما ترحل العنادل، بعد ربيع أخضر سخي العطاء.

من رباعيات أنور العطّار

أرضي الطيبة:

علمتنـــــي الحيـــــاة أن حيـــاتي ملك أرضي، عزت على الدهر أرضي
مـــن ينابيعهـــا تلقيـــت شـــدوي مـــن شـــحاريرها تعلمـــت قرضـــي
فجرتنـــي هـــوى فبغـــضي حـــب بالحـــب مـــا إن يلـــم بـــبغض
هـــي نجـــواي إن جنحـــت لـــصحو والخيـــالات إن جنحـــت لغمـــض

الأمانى أزهار:

علمتنـــــي أن الأمـــــاني أزهـــــا ر نـــــدايا بالحـــب والإشـــفاق
عاشـــت العمـــر كلـــه بالأعاليـــل ولـــم تـــدر حـــسرة الاخفـــاق
يذبل الزهر فـــي الريـــاض ويـــذوي ويحـــول الفـــراق دون التلاقـــي
الأمـــاني لا تـــزال علـــى العهـــد كـــأن النعـــيم فـــي الأرض بـــاقي!

الوجود عراك :

علمتنـــي أن الوجـــود عـــراك وشـــباك منـــصوبة وشـــراك
ينقـــضي العمـــر والأمـــاني تلهَّـــى بريـــاض أورادهـــا الأشـــواك
فارتقب ســـاعة الخـــلاص ارتقابـــا فهـــي تنجيـــك والطريـــق هـــلاك
وامض لا تلتفت إلـــى عـــالم الغـــد ر فـــإن النجـــاة منـــه فكـــاك

السلاسة:

علمتنـــي أن الـــسلاسة أن يـــصدح شـــعري بأعـــذب الأنغـــام

وأصوغ القصيد من أرج الزهر، ووشي الضحى ، وسجع الحمام
من دموع الندى على وجنة الفجـر ، ومـن در ثغـره البسام
هكذا أسكب الطبيعة في قلبي ، وأسقى الرحيـق مـن أحلامـي

الصلاة:

علمتني أن الصلاة هي الأصل لمن شـام فـي العبـادة أصـلاً
هي سر الخلود ما عرف الخلد جنـان مـن بابهـا قـد تـولى
صلة القلـب بالـذى جعـل القلـب مـلاذاً ومـوئلاً ومـصلى
كل مسعاك لا يعـد إذا فاتتـك فـارع الـصلاة فرضـاً ونفـلاً

الاستقامة:

علمتنـي أن أسـتقيم فـلا أتـرك بـرّى ولا أفـارق نـسكي
نظراتـي إلـى الوجـود اعتبـاراً ويقينـي محـا وسـاوس شـكي
أدبتـى الـدنيا فـصمتي فكـر وحـديثي ذكـر وضـحكى مُبـك
وانتهـائي مـن الحيـاة ابتـداء وبقـائي حـتم إذا حـان هلكـي

الصداقة وردة:

علمتنـي أن الـصداقة كـالور دة خلـواً مـن شـوكها وأذاهـا
تـنفح الكـون بـالعبير، ويحيـى العـالم الرحـب عطرهـا وشـذاها
ينضب الـورد فـي الريـاض، ولا ينـضب منهـا رواؤهـا ونـداها
رب ذكـرى صـداقة عـاودتني لـم يـزل بعـد الفـؤاد صـداها

الجمال:

علمتني أن الجمال هو النور لعين تميّز الأشياء

طابع الله قد تجلى على الخلق فزان الحياة والأحياء

وهوى القلب بالذي فجر القلب اشتياقاً ولوعة وبكاء

ماالآلي الفنون إلا عطاياه ، ولولا الجمال كانت هباء

التغني بالديار:

علمتني الحياة أن أتغنى   بدياري ، واسكب الروح لحنا

هي مهد الصبا وعش الأماني   وأخو الحب بالديار معنى

مر قلبي على مرابعها الخضر   فغنى الرياض غصناً فغصنا

ويراه الهوى فذاب حنيناً   ومن الحب أن تذوب وتغنى

روعة الحسن:

علمتني أن الصبابة شعر   والمحبون كلهم شعراء

فتذوقت لذة الحب والشعر   كأني الأزهار والأنداء

وتغنيت بالجمال ملياً   ولكم أسكر الجمال الغناء

وسباني من روعة الحسن معنى   حار في درك كنهه الحكماء

النسيان:

علمتني الحياة أن من النسيان ما يزدهي به النسيان

تتخفى الأرزاء في صدره الرحب وتطوى الهموم والأحزان

هو أنسي الساري إذا اعتكر الليل، وغابت في صمتها الأكوان

وهو برء الجروح إن مضه الجرح وعز الآسي وجار الزمان

الكون شعر :

علمتنـــي أن أجعــل الــصمت فكــراً ... والـــدنا عبـــرة ، وقـــولي ذكـــراً
أقرأ الكون خيــر مــن قــرأ الكــون ... وأتلـــو النهـــار والليـــل شـــعراً
وأرى في السماء مــا يخلــب اللــب ... ومـــا يمـــلأ النـــواظر ســـحراً
فــإذا مـــا أطـــل فجـــر جديـــد ... صحت من فرحتي : تباركــت فجــراً

البشاشة:

علمتنـــي أن البـــشاشة نـــور ... وكتـــاب مـــن النـــدى مـــسطور
كرم الـــنفس ينجلـــي فـــي حماهـــا ... وهـــي عنوانـــه الحبيـــب الأثيـــر
إنمـــا الوجـــود فرحـــة وانطـــلاق ... لـــيس فيـــه مـــنٌّ ولا تكـــدير
ثغـــره الثغـــر قـــد عـــلاه ابتـــسام ... وجهه الوجـــه قـــد جـــلاه الحبـــور

البسمة نور:

علمتنـــي الحيـــاة أن مـــن البـــسمة ... مـــا يمـــلأ الـــدياجير نـــوراً
فابتـــسم تـــشرق الـــسموات والأر ... ض انـــشراحاً وفرحـــة وحبـــوراً
إنهـــا الـــنفس دمعـــة وابتـــسام ... فامح سطر الأسى، وخـلّ الـسرورا
وابـــتهج فـــالوجود يـــوم ويمـــضي ... لـــيس يرجـــى لطيفـــه أن يـــزورا



زكي المحاسني :

أحيا تراث العرب الفكري وجسّد مضمونه الإنساني ورصد نهضة الأدب الحديث وقدرته على استيعاب قضايا العروبة

عُرف عن علامة الشام الراحل "محمد كرد علي" أول رئيس للمجمع العلمي العربي، حرصه الكبير على تشجيع المواهب الناشئة، التي يتوسم في نتاج أصحابها الأدبي وعداً بعطاء قيّم، وإبداع فكري متميز، وكان من وسائله التي سلكها في مجال التشجيع، أنه دعا شاعرين شابّين هما: زكي المحاسني وأنور العطار، فقدّما قصائد لهما، حظيت بإعجاب الحضور، وأكدت فيما بعد صدق نبوءة العلامة "كرد علي" في نبوغهما، إذ غدا كل منهما مرموقاً بين معاصريه، ومحلّقاً في فضاء الشعر:

ترنم "المحاسني" أمام الجمهور صادحاً:

"يا راويَ الشعر كم روّيتَ ظمآننا	وكم تركتَ الهوى بالودّ يلقانا
الشعب بالأدب الخلّاق عزّته	كما روى الماءُ تحت الزهر بستانا
والشعرُ حقٌ على شعبٍ له سندٌ	من مجده، وحوى التاريخ أزمانا
وما يقوم لجمهوريةٍ وطنٌ	بغير شعبٍ يزيد العهدَ بنيانا
وللبيان على الآباد حارسُه	باقٍ على الدهر في الآيات قرآنا"

وقد أدرج الشاعر بتلك القصيدة اسمه في كوكبة شعراء الشام المتألقين، متابعاً بذلك سيرة أسلافه من العلماء والأدباء والقضاة في أسرة "المحاسني" وبينهم: "البوريني" المؤرخ والخطيب الشهير وسليمان بن أحمد الإمام الشاعر، ومحمد المحاسني شيخ القضاة بدمشق وغيرهم.

ولد الأديب الشاعر الدكتور "زكي المحاسني" بدمشق عام ١٩٠٩، ونال شهادته الثانوية بمكتب عنبر، ثم تابع تخصصه العلمي بجامعة دمشق فحصل على شـهادتي الحقوق والآداب عام ١٩٣٦، ليغدو معلماً للغة العربية في مدينة "أنطاكية" وبعده في التجهيز الأولي بدمشق وحتى إيفاده إلى القاهرة عام ١٩٤٣، ونيله الـدكتوراه مـن الجامعة المصرية، وهو أول عربي يحوز عليه من غير المصريين. وبعيد عودتـه إلى دمشق عمل بالتدريس في كلية الآداب، ليوفد من جديد إلى مصر ملحقـاً ثقافيـاً بالسفارة السورية، ومندوباً للشؤون الثقافية بالجامعة العربية، وشغل بعد ذلك عديـداً من المناصب الثقافية: مديراً للتراث بوزارة الثقافة، وأستاذاً للآداب العربي بجامعـة مكة، ومحاضراً بالجامعة اللبنانية، كما اختير عضواً مراسلاً في المجمـع الملكـي الأدبي الإسباني، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة.

شغف "المحاسني" مبكراً بالأدب، وعرف بنهمه في طلب العلم بالكتب قـديمها وحديثها، وكانت الكتب عنده ولود، وكل كتاب إنما يسلمه إلـى عـشرات غيـره.. وهكذا..

انكبّ على التأليف والنظم والتحقيق، فأثرى المكتبة العربية بأكثر مـن سـبعة عشر مؤلفاً قيّماً مطبوعاً، في ألوان الثقافة من أدب وشعر، ومن بحث ونقد، خاطرة وملحمة، وكان في إنتاجه يتفجر عن طاقات إبداعية كبيرة، ترفدها الحياة بمعطياتها، ويخصبها التمرس، ويطلقها الزمن في دورانه، كان يعمل مخلـصاً علـى تـصوير الماضي وإحيائه بتجسيد مضمونه الإنساني، ليصله بالحاضـر المتـوهج بـالثورة الفكرية، وبالتحول الاجتماعي.

أدب الحرب في شعر العرب:

أصدر كتابه "شعر الحرب في أدب العرب" أول مرة عـام ١٩٤٧، فاسـتقبله النقاد والمفكرون بحفاوة بالغة، وكان بينهم الكاتب الرائد: "عباس العقاد" الذي اعتبـر مؤلف "المحاسني" نفيساً بمنهجه العلمي وأسلوبه البليغ "لقد جاء زبدة منتقلة وذخيـرة

ممتعة تجمع للقارئ ما تفرق من مئات المراجع، وتزيد على ما لا يجد في تكل المراجع من تعليقات النقاد ومواضع الاستدراك ويودعها خلاصة تفكيره وملاحظته في هذا الموضوع، كذلك نوّه الدكتور "عبد الوهاب عزام" في تقديمه للكتاب أن الدراسة انطوت على عناصر الريادة والأصالة والجدّة، خاصة وأن المحُدثين لم يطرقوا هذا الموضوع من قبل، وقد أعيدت بطاعة الكتاب مرات فيما بعد.

أمضى المحاسني ثلاث سنوات بطولها عاكفاً على كنز ثمين من المجلدات الضخمة المذّهبة خصّه بها أمين دار الكتب الكبرى بالقاهرة، حين توسمّ فيه الألمعية والمثابرة، ووجد المحاسني فيها مسرح الوطن العربي الحربي والحضاري منذ عهد الرشيد إلى أواخر عهد سيف الدولة، ووجد شعر المتنبي مترجماً بقصائده وأوصاف الحروب بين العرب والروم ... فسجد شكراً لله الذي ساقه من دمشق للقاهرة ليرى صور المجد الذي عاش فيه العرب وهم يقرعون بحوافر خيولهم على نجوم السماء...

وكان "المحاسني" في مؤلفاته الأخرى أديباً ملتزماً، ومتصفاً برقّة الحسن ويقظة الوجدان، متجاوباً مع آمال أمته ومجتمعه، ومتأثراً بمن يشاطره مشاعر الوفاء والإخاء، وكان في مباحثه الفكرية – كما في كتابه: "نظرات في أدبنا المعاصر" يعالج مواضيعه بحصافة العالم، وذوق الفنان، ويرصد نهضة الأدب الحديث فيما واكبها، وما تجدد فيها من خلال ظروف الأقطار العربية التي أكسبت هذا الأدب مقوماته، وأسفرت عن القيم الجديدة المتأثرة بالمُثل الحضارية، وبمدى قدرة هذا الأدب على التفاعل مع الأحداث، واستيعاب الإنسان العربي في سائر الأقطار والإعراب عنها بطلاقة وإخلاص.

المحاسني الشاعر:

في ميدان الشعر الراقي كان "زكي المحاسني" ناظم درّ، ومبدع صور متألقة، نابعة من قريحة خصبة، وكثيراً ما كان يستجيب لشعوره وخياله، فتفيض على

لسانه القصائد في سائر المواقف والسانحات، ولطالما جاءت لحظات الإلهام وهو بين الناس فيتدفق شعره بالمعاني والصور الموّاجة بالظلال والألوان، وفي ألفاظ موسيقية معبّرة أرقّ تعبير عن مكنون جوانحه.

نظم "المحاسني" في نكبة فلسطين شعراً يفيض بصدق الشعور، والحس الوطنين وحظي الأندلس "الفردوس المفقود" بعنايته، فطالت مناجاته له، ووقوفه عند أمجاده، رابطاً بني الفروسية العربية والأمجاد الإسلامية الغابرة في تلك الربوع البهية.

"يا بنت أندلس مريّ بخاطرة ... فخفق قلبك منهم في دم سُكبا
وأنتِ يا فتنة الأنظار طيف ندى ... قد جال فيك من العرباء وانسكبا
العين فيك بها كحلٌ بأسودِه ... عيونُ غيد عِرابٍ رفرفتْ هُدُبا
والقصر في جنة الحمراء آتيةٌ ... أرواحه من خيامٍ شدّت الطنبا
في أرض "قرطبة" لي مسجد عبق ... بالطيب قرآنه ما زال مقتربا
حنّ الدم العربي اليوم في دمها ... فأطلعت في هوى عدنان ما غربا"

وبرع الدكتور المحاسني في لون آخر من ألوان الشعر، فنظم الملحمة العربية الإسلامية، ونشر عدداً من الأناشيد صورّ فيها بطولات الأمة وأمجادها، فكان نشيده الأول عن واقعة "ذي قار" بين العرب والفرس، ثم تناول "داحس والغبراء" في الجاهلية، وفروسيات العرب منحدراً إلى عهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ثم تتبع المعارك الكبرى التي ألفّت المجد الأول للعرب في عصر الأمويين، وكان آخرها وقعة اليرموك ... وحال الموت بينه وبين إكمال أناشيده التي دلت على طول باعه وموهبته الشعرية الفياضة..

أدب الرسائل والأخوانيات:

ثمة لون آخر من ألوان الإبداع الأدبي برع فيه الشاعر وتألق وهو "أدب الرسائل" الذي سما به إلى قمة ربما لم يضارعه في بلوغها غير الريحاني وآخرون من كبار المترسلين.

وقد تناول المحاسني في رسائله شؤون الأدب والفكر، وأبدى آراءه في الأدباء وآثارهم، وروى ذكريات من حياته وعلاقاته بأعلام الفكر والأدب في مصر وأقطار العروبة، راح يدّبجها بأسلوبه المعروف فتأتي مطبوعة ببلاغته وذوقه، ويتصل بهذا المجال موضوع "الاخوانيات" التي ازدحمت بها حياته في سنواته الأخيرة، ودلت على وفاء الأديب وعاطفته الصادقة، وقد صاغ أغلبها في قالب شعري، وإن جمع أحياناً في الأخوانية الواحدة بين النثر والشعر معاً، جاء في إحدى اخوانياته الموجهة إلى (البير أديب) رئيس تحرير مجلة "الأديب" الشهيرة قوله:

"قال للأديب وعينُ الله ترعاه ... أقمته أدباً يعلو به الجاه

فأنت جامعةٌ تسعى روائعها ... من كل قطرٍ له في العرْب مغناه

إن قيل مدرسة للفكر كنتُ بها ... مريدها، وبها لفظي ومعناه

"البير" أنت كشمسٍ غير حاجبة ... لدى السطوع، كنجم شعَّ مسراه

في دولة الأفكار مشرقها ... تزداد عمراً بمجدٍ طاب ريّاه"

ومجالات "الأخوانيات" عند المحاسني تتسع باتساع المناسبات التي تفرضها، والظروف التي توحي بها وتمليها، فهو تلوة يهنيء أخاً بصدور كتاب له، ويحيّي تارة أخاً بعودته من ديار الغربة سالماً، ولم تكُ واحدة من إخوانياته تخلو من المحسنات البديعية، حتى عدّها الكثيرون "بحترية" في رشاقة اللفظ وجمال الصور وموسيقية الجرس، وكأنه كان يستسهل النظم أكثر من نثر الكلام، ومن الطرف أن أصدقاءه شاركوه في النظم، لكنه في الغالب كان البادئ في إثارتها ودفع إخوانه إلى مجاراته، أما مضمونها فكان دوماً صادراً عن روح الوفاء، وصدق الإخوة،

ومشاعر الوفاء والإنسانية الدفاقة...

حتى آخر لحظة من عمره، كان الدكتور زكي المحاسني، متفائلاً، متفتح القلب للحياة، وعلى رغم المرض الذي عاناه، ظل منصرفاً إلى التأليف، مقبلاً على نظم الشعر إقباله على حب الحياة وحب الربيع...

وفي اليوم الأخير من حياته "ودّع الشاعر دنياه بأبياته الأخيرة التي يقول فيها:

"دلَف الربيع ولستُ أنساه — قد هيّجَ الأرواح ذكراه

ساءلت إلهامي وخاطرتي — وأنا ضجيعٌ، كيف ألقاه

فتململَ الجسمُ الذي شقيتْ — أعضاؤه كحبيس دنياه

فَلْسفتُ أشعاري وقلت لها: — خليَّ الهوى يُدني سجاياه

أنا هائمٌ بالله أنشُدُه — رحماتِه، وحميمَ ملقاه"

ولم يُكتب له أن يلقى الربيع .. بل رحل بعد ساعات، مخلّفاً للأجيال روائع فكرية متميزة، وقبلها وجه إنسان عفّ اللسان، طيبّ النفس، مشرق البسمة، ومثله لا يغيب وإن مات..

أكّد على أصالة العرب الحضارية
ورفضهم الهزيمة الفكرية

حسب الأدب السوري الحديث أن يغدو الدكتور زكي المحاسني أحد رواده الناهضين في جيلنا الحاضر القلق، إنه ما انفك يواصل ترحاله في كل مسار ومدار، ما كف عن ارتياد شتى الآفاق، واستشراف التيارات والاتجاهات تطلباً لإبعادها وأصدائها، التقاطاً لأنوارها وخطوطها، وعياً لمفاهيمها ومضامينها وبحثاً عن جمالاتها وخصائصها، تغريه بذلك كله نزعة مكينة تحتضن التالد والطارف، وروح مجنحة تؤثر التحليق والانطلاق، وفكر مشبوب يستجلي الحياة ما فيها ومن فيها، ويستقطب المجتمع ما له وما عليه.

من هنا ما في اعتزاز الأدب العربي بسورية برجل تجلب فيه سمات النبوغ، وذكاء القلب ونقاء المعدن كالمحاسني من دلالة، حيث أوسع له وأحله المحل الحري به إنساناً وأستاذاً، باحثاً وشاعراً، مفكراً ومحققاً.

كفاه أنه من نوابغ دمشق، ومن بناة مجدها الأدبي الأصيل على مدى طويل ناهز الأربعين سنة وأن التاريخ يعرف كيف ينصفه، وكيف يقدر الرسالة التي أداها وقد قاد قافلة الأدب الحديث رائداً طليعياً إلى جانب عشرائه وزملائه يرتقي معهم سلم المجد، ويدعم النهضة الجديدة، وقد ازدهى به عمق الرؤية وشوق الفن وأمانة الغاية.

ومن أجل هذا كله نفح المحاسني الخزانة العربية بآثار بارزة هي ألوان من الثقافة المعاصرة في مجالها وفحواها من فكر وشعر، من بحث ومقالة، ومن نقد وملحمة ومن خاطرة وسانحة.

المحاسني في إنتاجه يتفجر عن طاقات إبداعية ضخمة، ترفدها الحياة بمآتيها ومعطياتها، ويخصبها التمرس وتجربة الذات، ويطلقها الزمن عبر سيره ودورانه.

إنه يحاول مخلصاً تصوير الماضي وإحياءه بتجسيد مضمونه الإنساني، وليصله بالحاضر المائج بالثورة الفكرية، بالتحول الاجتماعي، وبالتكالب المادي لبلوغ

المطامح الجائلة في أغوار الوجدان العربي، إيماناً منه بضرورة نفض غبار التخلف عنها، وإسقاط السلبيات ومعانقة التجدد والتطور، ثم إرهاصاً برضية ثابتة لغد أعم جوداً وثراء وأعظم بهجة وجدوى، غد يحبو إلينا بحكم ناموس الوجود، حتى أنك لترى المحاسني في مؤلفاته مؤكداً من جهة على أصالة العرب الحضارية ورفضهم التبعية والهزيمة الفكرية .. ومعبراً من جهة أخرى عن الشخصية الشرقية الإسلامية ذات المقومات الخاصة والمتميزة برصيدها الروحي والعقلي، وبإيثارها لهذا الرصيد. لأنه طالما رفد حضارة الغرب وتمازج معها قصد التأثير فيها والتأثر بها.

وأحسب أن المحاسني على حق في قوله: (وإذا كان شعر الحرب في الأدب العربي هو أقوى ما نظم الشعراء من ترادف الأحقاب، فذلك لأنه يتصل بالأمة فيضم مجد ماضيها إلى عزة حاضرها. إنه وحده سجل فخرها، وعنوان بأسها وأناشيد بطولتها).

يتعمد المحاسني هذا كله لاستغلاله كآلة دفع يحض بها قومه تبصرة لهم وتذكرة بأن لا مندوحة عن السير في هذا الدرب الطويل الشاق .. لتجديد الثقة بأنفسهم وتوطيدها على توالي الأيام، ولاعتماد العلم والعمل أساساً في التنظيم والإبداع، ولالتماس بواعث المجاراة للأمم البالغة السمو الحضاري، وذلك حفاظاً على كنوزهم وذخائرهم وتحقيقاً لما يخالجهم من الطموحات والأمنيات .. وهي مقياس التشوف والإطلال. معنى هذا أن المحاسني ديدنه، أولاً وآخراً، وحدة الهدف بعد وحدة الفكر، فقد قال: (إن فكرة "الأدب للأدب" لا تدخل في أعمالي الأدبية، وأن عديد الكتب التي ألفتها حتى الآن لا يقوم إلا على التربية الأخلاقية وبناء الجيل العربي بالمثل العليا).

مجال القول في المحاسني موسوعياً مثقفاً .. يعاني تجربة الفن الشعري، ويخوض مهامه الأبحاث الجادة، ويزاول مختلف ضروب التفكير والتعبير .. ذو سعة، يقتضي مني ومن غيري تفرغاً وانكباباً لا أملك من أسبابهما ما يعينني على ذلك، إذ تتعذر علي الإحاطة الكاملة بأعمال المحاسني الأدبية، وإشباعها دراسة وتحليلاً، خشية أن يفقد النهج العلمي، الذي لا أحيد عنه، عناصره، إضافة إلى كونها

مجانفة لمهمة التركيز التي أتوخاها في كتاباتي، على أن هذا لا يحول دون الزعم بأنني أوليت الجانب الملفت للانتباه في أعمال المحاسني الاهتمام الخاص الحقيق به، فالتركيب الفني لشخصية المحاسني الأدبية يمكن أن يتحدد في ثلاث نقاط، تلك هي رسائله الجامعية، ودراساته الأدبية وموهبته الشخصية في الشعر وإعداده للملحمة العربية.

ومن الفضائل العلمية التي يتحلى بها المحاسني في رسائله الجامعية إلزامه نفسه بقواعد صارمة من المنهجية في التأليف، والتجرد في البحث، والأمانة في القصد والإشارة إلى المصادر.

على أن اعتماده الأسلوب الموضوعي، وركوبه المركب الخشن في رسائله، وإن كان عملاً صعباً يتطلب المثابرة والجلد، فإنه لا يتهاون فيه، ولا يتعاجز عنه ولا يستهين به. قال فيه "شاعر الأهرام" محمد عبد الغني حسن: (.. وحين يسلك الدكتور زكي المحاسني المسالك الوعرة في التأليف يذهب مذهب الاعتدال والنزاهة في الأحكام، فلا يجور أو يبتسر الأحكام، أو يتابع في الآراء من غير تحقيق، ولكنه يقرأ ويحقق ويوازن ويزن ويحكم بعد اقتناع واعتقاد).

ومن خلال رسائله هذه، ذات الطابع الأكاديمي البحت، يتجلى لنا مذهبه كباحث علمي ومحقق أصيل، ويتضح حياده الفكري في معرض الآراء والأحكام المتعددة المضطربة، كذلك تبرز قدرته الفنية في التمهيد والتنسيق والاستقصاء.

فإنما هو يغربل الحقائق التي يلتقطها، ويحلل الوقائع التي يتلمس خطوطها بأمانة وثقة ثم يربط المقدمات بالنتائج بخيط دقيق يكاد لا يستبين، مؤلفاً ما بين أطراف المادة المبعثرة ومتدرجاً من التفصيل إلى التركيز .. ومن التركيب إلى التحليل.

ولئن كان من المسلمات أن عبد الوهاب عزام علامة جليل في نهضتنا الفكرية الحديثة، وهب حياته للبحث عن العلم في أنصع مظاهره وأنبل غاياته، وقصد الأصالة والأمانة في ما ألف وأنتج، فإننا لندرك في الحال إلى أي مدى تتبع خطاه تلميذه المحاسني على البعد والقرب، مقتفياً أثره، مغترفاً من ينبوعه ثم معترفاً بفضله. أوليس

هو القائل:

(وتتبعنا عزاماً رائد الأدب والبيان في مقالاته التي كان ينشرها في "الرسالة" و "الثقافة" كل أسبوع وكأنه، على البعاد، من أساتذتي الذي علموني في دمشق وكان لهم فضل التوجيه في حياتي الأدبية؟ ثم أليس هو القائل أيضاً: (وحين التقيت بالدكتور عزام كنت كحافر الأرض زمناً حتى بلغ إلى مواقع الكنز فيها)؟

ومن هنا جاءت رسالته " شعر الحرب في أدب العرب" – وقد نال بها درجة الدكتوراه – منطوية على عناصر الريادة والأصالة والجدة، لأن المحدثين لم يطرقوا هذا الموضوع – على حد قوله – من قبل. وفي التقدمة القيمة التي كتبها الدكتور عبد الوهاب عزام لهذه الأطروحة وقال: (وقد عكف فيها – أي المحاسني – عكوف الباحث المخلص المتشبث، الذي لا يقنع بما دون الغاية، ولا يسكن إلى الدعة ولا ينوء به النَصَب والدأب).

أما المحاسني نفسه فيقول: (وقد اتخذت لبحثي النهج العلمي في التبويب والتفصيل والترقيم، معتمداً على التحليل والتمحيص حيناً وعلى المقارنة والنقد حيناً آخر.. لاستكشاف الظواهر الأدبية الحماسية وربطها – إذا دعا الأمر – بأسباب السياسة والتاريخ).

والمحاسني مجدد على مستوى الأدب الصحيح، إن في قيامه بدراسة بعض الشخصيات الشهيرة في تاريخ العرب الأدبي، كأبي العلاء المعري وأبي الطيب المتنبي وأبي نواس من القدامى، وكأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وإبراهيم طوقان ومن إليهم من المحدثين، معنى من معاني الوفاء الإنساني .. ودلالة من دلالات تخليد الثقافة العربية، في آفاقها وأعماقها، في عظمتها ومثاليتها، لا لشيء إلا لأن هاتيك الشخصيات أفنت ذواتها وجندت قواها العقلية والشعورية من أجل تعميق القيم الحياتية والمبادئ الاجتماعية والحضارية التي آمنت بها الذات العربية واستمدت منها روح يقظتها ومفتاح شخصيتها ومهماز بقائها على العصور والأجيال، كذلك سخرت إمكاناتها وملكاتها في سبيل تطوير الأساليب الأدبية والمقاييس الفنية لتعمل تأثيراً

وتوغلاً في مجرى الأذهان ومسارب الأحاسيس .. ولتبقى قاعدة عريضة يلتقي على صعيدها القديم والجديد، الماضي والحاضر.

وكيف لا يعير المحاسني الشاعر أهمية لشعر كالمتنبي وهو، كما يقال، أبو المعاني، وهو أيضاً أعم شاعر في سمو الفكر وقوة الشعور، أنجبته الأمة العربية مفرداً في جميع عصورها الأدبية المتطاوفة؟

ودع كل صوت غير صوتي فإنني   أنا الطائر المحكي، والآخر الصدى

وأما أبو العلاء، الذي تناوله المحاسني في أطروحته التي نال بها درجة الماجستير، فحسبه أنه الرائد الذي أدخل الفلسفة في الشعر العربي بإقرار من تاريخ الأدب، والذي نقد المجتمع في أفكاره وأشعاره ذلك النقد الرائع العميق. إجهاضاً لترهاته وسقطاته، وإيجاداً لمناخ الحق والعدل فيه ثم نهوضاً بأفراده المنتمين إلى الجماعة الإنسانية، لذا يقول المحاسني: كذلك أحببت أبا العلاء على ريّق الشباب، فأخذت بكتبه مدارسة وممارسة، وخطوت الشباب، فإذا أنا بضفاف النيل أكتب عن شاعر، ولئن سبقني الكتّاب، على كثرتهم، في التصنيف عنه لداعية ألف عام مرت على مولده أو لسوانح تسنح لهم في أدب هذا العبقري الشآمي الذي خلد على الزمان، فما واحد منهم وقف كتاباً على نقده للمجتمع، وهل أبو العلاء إلا ناقد المجتمع في كل شعره وعميم نثره؟).

ثم من الذي يتجاهل أبا نواس، داعية الثورة على الأطلال الدارسة وداعية الحياة في تطلعاتها، فيه يقول المحاسني: (لقد كان هذا الكتاب من بواكير أعمالي الأديبة منذ ثلاثين عاماً، يوم لم يكن أحد من المعاصرين قد تقدم بدراسة جامعية ومنهجية لشعر أبي نواس وأدبه).

والمحاسني، كأديب ملتزم داخلياً، متصف بدقة الحس ويقظة الوجدان، لابد، أن يتجاوب مع الأحوال التي تحيط بشخصه، ومجتمعه وأمته، وأن يتأثر بمن يشاطره مشاعر الوفاء والإخاء ويساقيه كؤوس العلم والمعرفة.

ومن هنا كان كتابه "طوقان: شاعر فلسطين" وليد تفاعله مع الأحداث المفجعة التي رافقت قضية العرب الأولى.

فقد قال: (وإذ كان شعر طوقان قد ارتبط بقضية بلاده قبل النكبة وبعدها .. وعبر فيه عما لابسها قبل احتدامها فقد رأيته جديراً بالدراسة والتمحيص).

بينما كتاباه "أحمد أمين" و"عبد الوهاب عزام" هما عصارة زمالة، أو صداقة روحية استغرقتا شطراً من عمره واستوعبتا، بالنسبة إليه، وجوده الذاتي والفكري. وقد صور هاتين الشخصيتين، الرائدتين بلمساتهما، تصويراً واقعياً .. وعبر عن مبلغ تعلقه بهما تعبيراً أميناً. مثلاً يقول عن أحمد أمين: (.. أما أحمد أمين فقد رأيت صورته في كتابه "حياتي" كما رأيته في العيان والممارسة، ولم أجد الشخص الذي في الوجود مخالفاً للشخص الذي صور نفسه على الورق .. بل لمست فيه تواضع العلماء والبعد عن التبجح والغرور).

دراسات المحاسني للشخصيات تراوح ما بين الطريقة الكلاسيكية البحتة والطريقة التحليلية المعاصرة. فإذا كان كتاباه "المتنبي" و"طوقان: شاعر فلسطين" يخضعان لأسس الطريقة الكلاسيكية فإن كتابيه "أحمد أمين" و"عبد الوهاب عزام" يختلفان عنهما من حيث التعليل والتفصيل، والاستقرار والاستنتاج، ثم يحويان شيئاً غير ضئيل من عناصر الخلق والصدق. ولعل لعلاقة المحاسني الوطيدة بالرجلين دخلاً كبيراً في ذلك كله. لننظر ما يقول المحاسني بهذا الصدد: (.. وهكذا كنت أقرأ "أحمد أمين" فأتخيله في شكله وسمته .. وأستخرج صوراً حية من عاداته وصفاته من طول التنقيب في كتبه ومقالاته قبل أن أعرفه من قريب .. وتجمعني إليه مودة فكرية وتبعات حكومية).

أما كتاباه الآخران "أبو نواس" و"أبو العلاء ناقد المجتمع" فتتمثل فيهما الطريقة المعاصرة بالرغم من كون الأول صادراً قبيل الأربعينات وبعدها، إلا أنه دليل ساطع على ملكة المؤلف الفذة في البحث والمقارنة والدراسة، لقد أصاب الدكتور فوزي عطوي كبد الحقيقة حين عرج على المحاسني في كتابه "أبو نواس" بقوله: (.. وقد

انعكس في الكتاب أثر الثقافة العالية التي يتمتع بها الدكتور زكي المحاسني، وذلك من خلال الدراسات المقارنة التي أجراها ولو بصورة عاجلة).

وللمباحث الفكرية قدر كاف في آثار المحاسني، استهل بها اهتماماته الأدبية الأولى معالجاً إياها بحصافة العالم.. وحساسية الأديب وذوق الفنان، تحديداً لملامح الأدب المعاصر وتطوراته وأصدائه.. وتسمية لقادته من شعراء وأدباء ممن شيدوا صرحه الشامخ، القائم أبد الدهر.

ففي كتاب "نظرات في أدبنا المعاصر" يرصد المحاسني نهضة الأدب الحديث فيما واكبها، وما اشتجر حولها وما تجدد فيها، من خلال الظروف الموضوعية للأقطار العربية التي بلورت هذا الأدب وأكسبته مقوماته الخاصة .. وأسفرت عن القيم الجديدة المتأثرة بالمثل الحضارية، وبمدى قدرة هذا الأدب على التفاعل مع الأحداث .. واستيعاب قضايا الإنسان العربي في جميع البلدان والإعراب عنها بطلاقة وإخلاص.

على أن الشيء الحري بالانتباه هو أن المحاسني، وإن كان مؤمناً في قرارة نفسه بالأدب العربي بسبب خصائصه الذاتية والإنسانية، فإنه يرى أن هذا الأدب غير جدير بالارتقاء على المستوى العالمي .. أو إلى درجة القياس به .. لافتقاره إلى مياسم العالمية في الأصالة والعمق والجدة والتأثير. يقول المحاسني: (إن الحقيقة، التي هي بغية كل باحث، تقول: " ليس لدينا من آثار أدبائنا، شيوخاً ومحدثين، إلا القليل الضئيل مما نستطيع أن نقدمه إلى جنب الأدب العالمي").

ولكن هذا ليس بمانعه من الاعتراف بأنه كان لنا أدب عالمي، ولكن أين هو الآن؟ بل أين نحن منه .. ولم لم نصله بالحاضر الراهن؟ لقد تخلفنا وتخاذلنا، وغيّرنا ما بأنفسنا، مستمرئين نشوة الخمول والخدر، حتى غدونا حيث نحن اليوم.

(لقد كان لنا أدب عالمي في العصر العباسي والأندلسي، وكان لدينا أفذاذ فيه عالميون. وحين نذكر الجاحظ، وأبا الطيب المتنبي وأبا العلاء المعري نعتز بهم في كل عصر).

ومع هذا كله فالمحاسني لا يكفر بالضمير العربي ولا يفقد أمله، معتقداً أن بالإمكان اللحاق بالركب العالمي في ميدان الأدب والفكر إذا عرفنا كيف نقتحم آفاق هذا الميدان، وكيف نطبع ذواتنا بطوابع العصر وتحولاته، والحضارة ومبدعاتها والواقع ومتطلباته، ثم إذا عرفنا كيف نصور تجاربنا وما تعانيه نفوسنا. وعبرنا عن أصالتنا الإنسانية وتراثنا الحضاري بالارتفاع إلى ذروة الفن الحقيقي والفكر الواقعي ليتميز أدبنا العربي المعاصر بالعالمية في المعنى والمبنى.

و المحاسني المؤمن، يصوغ الحياة الأدبية بكل مناحيها وأهوائها على أساس من الدين .. متمثل في "القرآن الكريم" و"الحديث". إنه يدعو الناس إلى الالتزام بالقيم الإسلامية التي أخرجت البشرية التائهة من ظلام الجهالة إلى نور الهدى والرشاد، ويرى أن الأدب لا يمكن أن يزدهر إلا في ظلال الدين، فيقول: (لا يعيش الأدب منضوح البيان بالسحر الحلال وفصل الخطاب إلا في حمى الدين، ولقد عرفت الأمم القدامى في حياة الشعر والفن تراتيل العبادة في طقوس الدين).

صحيح ذلك .. ما دام الأدب هو النتيجة الطبيعية لدراسة الدين .. وكشف خصائصه وحقائقه بعد النفوذ إلى أغواره وجذوره وترك ما لا صلة له به. يتجلى ذلك كله في كتاب المحاسني "الأدب الديني"، الذي ينتظم دراسات أدبية في منتهى الروعة والتوافق الفكري .. لا لشيء إلا لأنه اعتمد "القرآن الكريم" و"الحديث" أساساً في طريقة تناوله الموضوعات الكونية والوجودية، والقضايا الفردية والبشرية في الجاهلية والحياة المعاصرة، علاوة على المذاهب الأخلاقية والأدبية في ضوء التطورات الحديثة ... وعلاوة على قصص بعض الشخصيات الإسلامية التي غيرت وجه التاريخ وأرهصت، في ظهورها، بمفاهيم لم يكن للمجتمع العربي قبل بها. ومن مطاوي هذا الكتاب: "التجسيم النفسي في القرآن الكريم"، "الوجودية المذهبية في القلق"، "من آثار القرآن الكريم في الآداب العالمية"، "شعر الجهاد في أدب الإسلام"، "الفلسفة الإسلامية عند ابن تيمية"، "الرسول يصنع وحدة العروبة"، وفي هذا الفصل الأخير يقول: (... ولا شيء يؤلف بين القلوب كالسلاح بين المجاهدين، فإن أجناد

الرسول وقواده كانوا كتلة واحدة كأنهم البنيان المرصوص، فخرجت هذه القبائل من معركة بدر تجرر أذيال النصر و تخفق فوق رؤوسها رايات العزة بظفر الرسول وصحبه. وقد تركت هذه المعركة في أدب العرب القديم شعراً كثيراً قيل في الفخر والرثاء .. ما زال إلى اليوم يهيج كامن العظمة في العروبة على الزمان).

وفي نهاية المطاف ينبغي أن نقف على ما هو واقع .. نشداناً للحقيقة العلمية التي عمل المحاسني من أجلها ولأجلها، إن المحاسني، وإن تمسك بنظرية "تين" في البحث والنقد، وهي التي تعنى بدراسة بيئة الكاتب أو الشاعر وظروفه الموضوعية .. وبتحليل العوامل المؤثرة في تكوينه وثقافته، فإنه كمجدد، يؤمن بمبدأ التطور والانفتاح على العالم، لا يغلق أبواب المباحث العلمية التي يعالجها .. بل يفتحها على مصاريعها ليجلوها من يشاء من بعدها وبما يشاء .. ومن طبيعة الأشياء أن يظل باب العلم مفتوحاً، هذا هو الصحيح.

على أن أسلوب المحاسني تكتنفه بوجه عام، استطرادات، ولعله بهذه الظاهرة التي شملت حتى رسائله الخاصة متأثر بالجاحظ، الرائد الذي اختص بهذه الخصيصة الفنية الفريدة، ثم هو- أعني المحاسني - في طريقة معالجته الموضوعات يستعير من القديم ثوبه ومن الحديث روحه، عملاً بقاعدة الجمع بين الأول لأصالته وفخامته وبين الثاني لطرافته وجدته.

وبسبب من سعة ثقافة المحاسني .. وتنوع روافدها العربية والغربية .. يتولى مهمة الموازنة ما بين الكتاب والشعراء في الشرق والغرب ممن رافقهم في رحلة الفكر، وذلك من خلال تفسيره لبعض الظواهر الأدبية المعينة، مع ما في الأمر من تعزيز لآرائه وأفكاره، وإفصاح عن غزارة علمه وتناهي أفقه، كما فعل حين وازن ما بين مالتوس وأبي العلاء المعري. وما بين رامبو وأبي نواس. وما بين فيكتور هيجو وأحمد شوقي .. الخ.

هذا والبعد الذاتي يترامى أمامنا واضحاً كلما توغلنا في دراسات المحاسني حيث يدخل طرفاً في الموضوع، فيبدأ بالتحدث عن ذاته في مساق الكلام، حديثاً تلقائياً

مستطاباً، محاولاً أن يربط، بينه وبين أسباب الموضوع الذي يتناوله بعامل فني، وتفسير هذا كله هو أن المحاسني يندمج بما يعالج اندماج المستغرق .. ليضفي على ذلك بعداً ذاتياً. والأديب الصادق يعبر، عبر سطوره ومؤلفاته، عن تجاربه ومعاناته بعفوية لحمتها الأصالة، وسداها الإخلاص.



الدكتور بديع حقي :

شاعر وروائي صوّر الحياة بلغة ساحرة وجسّد قضايا الوطن بأعماله المتميزة

تلقى المثقفون وعشاق الكلمة الحلوة في منتصف الخمسينات من القرن الماضي، بالترحيب والتقدير مجموعة شعرية أنيقة أصدرها الشاعر "بديع حقي" بعنوان "سِحر"، ورأوا فيها ظاهرة جديدة في الشعر العربي في سوريا مقارنة بالمشهد الشعري الذي كان سائداً في تكل الفترة من خلال أعلام الشعر: شفيق جبري ومحمد البزم وعمر أبي ريشة وبدوي الجبل وغيرهم، ولم تكن قصائد المجموعة منتمية إلى الكلاسيكية الجديدة أو الرومانسية أو الغزل، الذي فاجأ به "نزار قباني" الساحة الأدبية يوم ذاك، لقد كان شعر "بديع حقي" شيئاً مختلفاً، وأقرب إلى المدرسة الشعرية اللبنانية الجديدة التي تمثلت في شعر سعيد عقل، وصلاح الأسير، وبشر فارس، وصلاح لبكي، وآخرين كانت قصائدهم عابقة برائحة الحداثة، فيها من أزيج العطور الفرنسية، ومن أصالة البيان العربي، ما كان يصونها عن الانجراف نحو التبعية العمياء ... وهكذا بدا أن "بديع حقي" هو أحد المرشحين البارزين لأن يلعبوا دوراً هاماً في "حركة التجديد الشعري".

محطات في مسيرة طويلة: ولد الدكتور "بديع حقي" في ٢٦ حزيران من عام ١٩٢٠ بحي "سوق ساروجا" الشعبي بدمشق، ونشأ يتيم الأب لتتولى أمه تربيته، وقد شُغف بالمطالعة منذ حداثة المبكرة، فقرأ بتشجيع من معلميه بمكتب عنبر مثل الشيخ "عبد القادر المبارك"، بدائع البيان العربي كمؤلفات الجاحظ و"الأغاني"، الذي صحبه - فيما بعد - في سنوات غربته خلال أكثر من ثلاثين عاماً، وقرأه خلالها أربع مرات ... كذلك

استهوته مؤلفات المنفلوطي وجبران ونعيمة وجلّ شعراء المهجر، وشغفته أعمال الروائيين الكبار مثل: ديستويفكسيك وبلزاك وبروست وكامو وغيرهم.

وتابع "حقي" تحصيله العالي في فرنسا، فنال من "السوربون" عام ١٩٥٠ شهادة الدكتوراه في الحقوق الدولية، ودبلوماً في الحقوق الجزائية وكانت أطروحته حول القضية الفلسطينية، التحق بعد عودته بالسلك الدبلوماسي، وتدرج فيه حتى مرتبة السفير، متنقلاً بين عدد من العواصم العربية والأجنبية، وعرف في عمله مثلاً في الإخلاص للوطن، بما أثر عنه من أدب رفيع وتواضع عظيم، وروح شفافة، ومكنته إجادته للفرنسية والإنكليزية والروسية من نقل الكثير من روائع الأدب العالمي إلى اللغة العربية.

ترجم خلال عمله في السفارة بموسكو روايتي "غوغول": المعطف واللوحة، ورائعة "هيمنجواي" و"لا تزال الشمس تشرق"، وبتشجيع من الفيلسوف الهندي "راد كريشنان" قام بترجمة ثمانية من مؤلفات شاعر الهند الكبير "طاغور" سنة دواوين ومسرحيتين، ولما انتقل إلى "كوناكري" عام ١٩٧٣ ترجم إلى العربية ديوان "قصائد مناضلة" للزعيم الغيني "أحمد سيكوتوري".

رائد مدرسة الشعر الحر:

بدأ "بديع حقي" بالشعر، كما يبدأ كل مبدع، فكان رائداً من رواد الشعر الحر، نظم شعر التفعيلة فكان سباقاً في الخروج على بحر الخليل، وكسر طوق الأطر، ومثّلت قصائده انعطافاً في التجربة الشعرية العربية لتلائم الإيقاع الجديد في الحياة والفن، وتشير الشاعرة المبدعة "نازك الملائكة" في كتابها "قضايا الشعر العربي المعاصر" إلى أن الإرهاصات الأولى للشعر

الحر، انبجست من "بديع حقي" في قصيدته "غابة بولونيا" التي نظمها عام ١٩٤٦ وهو يصغي في مقهى بغابة بولونيا بباريس، إلى لحن لبتهوفن سمّاه "إلى أليز".

يوضح الدكتور حقي نظرته إلى الشعر فيقول: "كنت وما أزال أنظر إلى الشعر وإلى الفن الشعري على أنه الفن الوحيد الذي تأتى له أن يصور النفس الإنسانية وأن يسبر أغوارها فيجلو ما يضطرم فيها من نزوات وصبوات، ويخيّل لي أن الفنون الأخرى التي ابتدعها الإنسان، إنما تعدّ في جوهرها ولبابها لحقاً وتبعاً له، والنفس الإنسانية لغز ليس سهلاً فهمه وإدراكه، إنها كالبحر عمقاً وامتداداً وهيجاناً، وأمواجاً متلاحقة يأخذ بعضها برقاب بعض، لكن الشاعر الحق يمكنه الغوص في أعماق النفس الإنسانية التي لا ينفذ إليها النظر إلى اللاوعي كأعظم عظماء التحليل النفسي، وفي هذا المضطرب الواسع يصطبغ شعره بألوان زاهية، ويمنح من الرعشات الدفينة ظلالها القلقة الحائرة وما ينبغي للشاعر أن يكون شعره مبهماً، وكلفاً بالغموض وحده، إيثاراً منه للوضوح، فقد تغني الإشارة والإيماءة عن الإفصاح...على الشاعر أن يقبس من خلجات النفس، الواضح ومنها والمبهم، ويحظى اللفظ والمعنى بلقاء لا تهيئه المصادفة، ولكن حظاً سعيداً خلاقاً هو أزلي يهيئه ويعدّ أسبابه، ولعل اللفظ وهو يسرّب المعنى، يبدو كالثوب الذي ينتظم إهاب الغادة الحسناء فتتخيل العين المفاتن التي تختبئ وراء الثوب، وتتمثلها في شوق ونزوع وتطلع متصل.

مأساة فلسطين حولته إلى القصة:

لقد كان منتظراً للدكتور حقي بعد صدور ديوانه الوحيد "سحر" عن دار الآداب عام ١٩٥٣ أن يحتل مكانة مرموقة بين شعراء عصره، لكنه تحول فجأة إلى كتابة القصة القصيرة والرواية (لأنني وجدتها أكثر تعبيراً

عن روح العصر، وأرحب من الشعر أفقاً وأوسع مدى، وقد يكون أنني أمسكت عن النظم بعدما استنفدت مفرداتي الشعرية على نحو ما أشار إليه بول فاليري، حين وجّه له مثل هذا السؤال ... ولكنني بالتأكيد انصرفت إلى القصة ومن ثم للرواية إثر زيارتي لمدينة "قبية" الجريحة حيث التقيت امرأة تئن بجانب كومة من الحجارة، هي كل ما تبقى من بيتها المهدّم تلوح بمنديل مخضب الدم، وذراعها ترتفع به كجناح طائر يرقص مذبوحاً من الألم ... وحين صلّيت في المسجد الأقصى، راحت دموعي تغسل وجنتي، ولحظتها أدركت أن قَدَرَ أدبي موصول بقضية فلسطين فنذرت قلمي وفكري للأرض الطاهرة المعذبة ... وهكذا تركت الشعر وأنا في قمة العطاء".

ولكن "بديع حقي" لم يهجر الشعر ولم يفارقه، بل امتلأت قصصه ورواياته بروح الشعر ولغته، وكان في اختياره المفردة المشحونة بحرارة الروح وحساسيتها والصياغة المصقولة التي تقطر أناقة وعذوبة، ونغماً يبعث الحياة في أبسط المشاهد وأصغر الكائنات حتى ليعجب القارئ أحياناً كيف تجتمع له هذه المعاني والمشاعر الدفاقة، وذلك كله لا يكون إلا من خصوبة نفس وقوة ملاحظة وعمق إحساس بالأشياء، وقدرة الخيال على إحياء المشهد وبث الحركة في ثناياه، وهو يقول: إن لغتي الشعرية كانت عوناً لي على نفض المشاعر الجياشة في نفسي، وعلى تصوير مشاهد الحياة على نحو يشد القارئ ويجذبه، بما ارسمه من صور مجنحة تداعب أوتار القلب وتغمر حنايا الروح ... إن القارئ للأدب لابد أن يجد لغة أدبية صرفاً فيما يقرأ أو أفكاراً عظيمة، وإذا ما اجتمعت اللغة الأدبية، مع الفكرة العظيمة كانت المحصلة أدباً راقياً، خذ مثلاً قصة "حكاية النهر والجسد" التي ضمها كتابي "قوس قزح، فوق بيت ساحور" لقد كتبتها كما أكتب "سوناتا" موسيقية بحركاتها الثلاث، بانتقاء صورها وألفاظها وحروفها،

فتحولت إلى ما يشبه القصيدة، وكذلك الأمر في روايتي: "العكازة المسكينة"، وهي عمل جاد لموسقة الرواية، وهذه الموسقة تنبع من اللغة الشعرية...وهكذا ترى أن الشعر يسكنني وإن كنت قد هجرته ظاهرياً.

هكذا انعكست مشاعره الصادقة في مجموعته الأولى: "التراب الحزين" (١٩٦١) والتي مثلت محطة هامة في مسيرته الأدبية حين فازت بجائزة الدولة التقديرية، ومن بعدها رواية "أحلام على الرصيف المجهول" (١٩٧٣)، حين يورق الحجر، وقوس قزح فوق بيت ساحور (١٩٩٣) وفلسطينيات عام ١٩٩٥.

الحياة والنضال في أعمال حقي:

تتابعت أعمال "بديع حقي" القصصية والروائية (التي استمدها من معين نفسه الرهيفة، واختار مواضيعها من خلال تفاعل ذاته مع الواقع المحيط به)، ويمكن تصنيف هذه المواضيع في بابين عريضين:

الأول: القصص القومية الوطنية وتتناول قضية فلسطين وهمّ الانتفاضة، وهذه الأعمال لها جذورها في شخصية الأديب الدكتور حقي وحياته ومن يقرأ سيرته الذاتية في كتابه: "الشجرة التي غرستها أمي" (١٩٨٦) يتبين أن تكوينه الوطني قد اكتمل في طفولته، فهو سليل أسرة تمرست بالنضال والكفاح، إذ قضى عمه شهيداً وهو يقاتل المحتلين الفرنسيين، ونفي أخوه الطبيب إلى العراق بعد اتهامه بمعالجة الجرحى من الثوار، وقد اقتدى "بديع حقي" بمسيرة أفراد أسرته وشارك في المظاهرات وسجن، وقد عاش خلال عمله الدبلوماسي مأساة فلسطين والآلام التي يكابدها أبناؤها في نضالهم لتحرير وطنهم، وأما الباب الثاني فهو القصص الذاتية التي تناولت مواقف وشخصيات من حياته الخاصة انطبعت آثارها في نفسه، واختمرت في لا وعيه، إلا أنه جسّدها في مواقف قصصية تعود

في أساسها إلى وقائع حياته، ولكن الكاتب لم يسجلها تسجيلاً وثائقياً مطابقاً للواقع بل اختار بعض الواقع ليفصح عنه بمعادل فني تلتقي فيه الذات بالموضوع.

ومن أبرز أعماله في هذا الباب رواياته "جنون تستحق الصور (١٩٦٨)، أحلام على الرصيف المجروح (١٩٧٣) حيث تتمزق الظلال (قصص ١٩٨٠) همسات العكازة المسكينة (رواية ١٩٨٧) وأخيراً: جمرة الحرف وخمرة النغم، "صور في مقالات" و"مذاهب وأعلام في الأدب العالمي" و"نجوى زهرة البوكيسيا".

جسر إلى الأدب الخالد:

هكذا أبدع الدكتور حقي في مجالات الأدب والشعر والقصة والرواية والترجمة، وقدم للمكتبة العربية طوال أكثر من نصف قرن أعمالاً راقية تميزت بأسلوبه المميز، ولغته الأنيقة، وإحساسه المرهف، مما أهلّه للوقوف في صف الأدباء العالميين الذين تزهو بهم بلادهم، وتصفق لهم بإكبار وتقدير.

رحل "بديع حقي" في الثالث والعشرين من كانون الثاني عام ٢٠٠٠ وودع أصدقاءه وعشاق شعره ملوحاً لهم بكلماته "لقد ذهب شغفي بالنحل إلى أمنية مستحيلة من أماني الطفولة البريئة، فتمنيت أن أحور إلى نحلة تهب جناحيها الخفاقين لغوارب النسيم، حرة منطلقة، وتهب العسل الطيب للناس كافة ... وقد حقق الله طلبي بعد أن صرت نحلة صغيرة هائمة بين أترابها من النحلات في رياض الأدب وأفانينه وأزاهيره لأبني خلية متواضعة، لعل راحة ما تتقرى مكانها وتشتار الشهد الذي نسجته من ذوب نظراتي المتوثبة ومن خلجات قلبي العميد ولقد ذهب بي طموح الشباب – ويا لسره المخادع – إلى التمني بأن أضحي ملكة من ملكات النحل

المرموقة وأن أحتل من خليتها الأدبية ما أحتله عمالقة الأدب من مكان سام رفيع، ولكن هيهات فإن النحلة الصغيرة - فيما هي تستشرف الآن الخامسة والسبعين - لم تستطع أن تمنح سوى الشيء اليسير من الشهد أزجيه بمؤلفاتي، وأشعر أن على الرغم من ضآلته وقصوره عن مثلي الأعلى سعيت إليه بنشوة عارمة من الاعتزاز، لأني ألفيت من يتذوقه ويفصح عن حبه وإعجابه مردداً لنفسي بأني وجيلي من الأدباء المعاصرين لسنا سوى جسور مفضية إلى الأدب الخالد...

الطائر المحلّق الذي جفا سماء الشعر

حين تقرأ "بديع حتي" تأسرك نغمة إنسانية تتبدى في غلالة من ألفاظ وتعبيرات عذبة، وحين تلتقي به تحس أنك بإزاء نبع ثري من المشاعر، الإحساس المرهف الذي يصل إلى حد الشفافية. وإذا كان الرجل زاهداً في الشهرة، فإن التاريخ يسجل له ريادته في بعض مجالات الأدب، وسبقه فيها الآخرين، ورؤيته الأدبية المتميزة.

- **من المعلوم أنك بدأت حياتك الأدبية شاعراً، وأصدرت مجموعتك الشعرية "سحرا " عام ١٩٥٣ ثم غلب عليك الاتجاه إلى القصة والرواية، فهل تراك وجدتهما أكثر تعبيراً عن روح العصر؟**

ربما كان ما ذكرت صحيحاً من أنني وجدت القصة والرواية أكثر تعبيراً عن روح العصر وأنهما أرحب منه أفقاً وأوسع مضطرباً، ولئن بدأت بنظم الشعر وكتابة القصة معاً، في مستهل حياتي الأدبية، فقد كان ميلي إلى الشعر ظاهراً، وقد جاء في مقدمة ديواني "سحر": (إن الشعر هو الفن الذي يتأتى له أكثر من غيره أن يصور النفس وأن يسبر أغوارها، فيجلو ما يصطرع فيها من نزوات وبدوات، ويخيل إلي أن الفنون الأخرى التي ابتدعها الإنسان، إنما تعد في جوهرها لحقاً به وتبعاً له).

ولعلي أمسكت عن النظم لأنني استنفدت كل مفرداتي الشعرية وصوري الجمالية، أخذاً بمدرجة الشاعر الفرنسي "بول فاليري" الذي أمسك عن نظم الشعر، بعد ليلة مؤرقة في مدينة "جنوا " فقال: (لقد استنفدت كل الكلمات الشعرية التي صغتها من قبل، فعلام أكرر نفسي؟، ولعلي لويت بصري عن الشعر، إثر أزمة عاطفية ألمت بي، حتى لقد دار في خلدي، أنني لست بقادر على القريض، بعد أن غابت من أحب، وأن معين إلهامي، من دونها، قد نضب، وأن كل ما ضمه ديواني من صور غنية بأطايب الغزل والوجد ليس إلا عبثاً وسراباً، بيد أنني أحب أن أشير

إلى أنني انصرفت إلى القصة تمام الانصراف، منذ أن بلينا بمأساتنا الكبرى، مأساة فلسطين، فبينما كانت جبتهي تلثم سجادة المسجد الأقصى في القدس مصلياً، باكياً، إثر زيارة لقبته الشهيرة، ضمن وفد سوري، عام ١٩٥٣، آليت على نفسي، أن أنثر، بعد الآن، على تراب فلسطين أندى كلماتي ودموعي، في قصص وروايات، وكذلك كتبت مجموعة قصص "التراب الحزين" التي نالت جائزة الدولة للقصة عام ١٩٦١، ورواية "أحلام على الرصيف المجروح" التي استوحيتها من هزيمة حزيران "يونيو" عام ١٩٦٧، ومقالات "حين يورق الشجر" التي استوحيتها من ملحمة الحجارة، وأخيراً مجموعة "قوس قزح فوق بيت ساحور" التي ستصدر قريباً.

رائد شعر التفعيلة:

- **هناك أمر قد لا يعرفه الكثيرون، حتى معظم الذين كتبوا عن بدايات الشعر الحديث أو شعر التفعيلة، فقد اعتاد الباحثون، أن ينسبوا أولوية هذا الشعر إلى نازك الملائكة وبدر شاكر السياب أو إلى أحمد باكثير في مسرحيته الشعرية "أخناتون ونفرتيتي"، أو إلى محاولات لويس عوض أو إلى غير هؤلاء، معيدين كتابة أول قصيدة على نسق الشعر الحر إلى عام ١٩٤٦، في حين أنك كنت أسبق من هؤلاء جميعاً، إذ كنت، في الواقع، أول من نظم قصيدة التفعيلة، وهي حقيقة أشارت إليها نازك الملائكة، في كتابها "قضايا الشعر المعاصر"، ماذا تقول في هذا الشأن؟**

كان إنصافاً من الشاعرة نازك الملائكة أن تشير إلى ذلك في كتابها المذكور حول إرهاصات الشعر الحر في أدبنا المعاصر، مستشهدة بقصيدة "خريف غابة بولونيا" التي نظمتها بباريس عام ١٩٤٦، غير أنني أحب أن أشير، هنا، إلى أنني نظمت قصائد أخرى سبقت هذه القصيدة، منها قصيدة "أرق" التي نشرتها صحيفة "الصباح" التي كان يشرف عليها الأستاذ عبد الغني العطري وذلك بتاريخ

١٩٤٣/٨/١٦، ثم تابعت هذه التجربة المثيرة، بعد أن استمرأتها، علماً بأنني لم أعر سبقي إليها أية أهمية، حين يثار موضوع الإرهاصات الأولى في شعر التفعيلة، بعد أن هجرت الشعر وهجرني.

روائع طاغور:

- **لا يذكر اسم بديع حقي، إلا ويمثل في الذهن، ترجمتك لروائع طاغور، ولعل كثيرين من القراء سمعوا باسمك لأول مرة، من خلال تلك الترجمة، علماً بأن مترجمين بعدك نقلوا طاغور إلى العربية، إلا أن فضل الريادة يبقى، هنا، لك أيضاً، أضف إلى ذلك أنك جعلت القارئ العربي يعيش روحانية طاغور ويتلمس شفافيته، ويتأثر برمزيته المشوبة برومانسية عذبة؟**

بين كل ما نقلت من آثار أدبية أجنبية، إلى اللغة العربية، تظل روائع طاغور في الشعر والمسرح آثرها إلى قلبي، لما يترقرق في أدب طاغور كله من نزعة إنسانية وصور شفافة رمزية تأتلف مع نزعتي الرمزية المتجلية في ديواني "سحر". وقد بدأت بديوان "جيتنجالي" بعد أن قرأته مترجماً إلى الفرنسية بقلم "أندريه جيد" فأعجبت به أشد الإعجاب، وأفصحت عن رغبتي المتقدة في ترجمته مع بقية روائع طاغور إلى العربية، لسفير الهند في موسكو رادا كريشنان، المفكر الهندي الراحل، الذي أضحى فيما بعد رئيساً لجمهورية الهند، وكنت في ذلك العام ١٩٥٢ قائماً بالأعمال في سفارتنا بموسكو، فأهدى إلي رحمه الله، مجموعة تضم أهم آثار طاغور الشعرية والمسرحية، التي نقلها طاغور نفسه من البنغالية إلى الإنجليزية "طبعة ماكميلان - لندن" وقمت بترجمة خمسة دواوين ومسرحيتين، نشرتها كلها في بيروت ودمشق وأعيد طبعها في القاهرة عام ١٩٦١ ضمن سلسلة الألف كتاب، بمناسبة مرور مائة عام على مولد طاغور، وقد راجع أكثرها الأستاذ مصطفى حبيب، كما راجعت مسرحية "دورة الربيع" الدكتورة نجاح العطار، ونشرتها وزارة الثقافة عام ١٩٦٥. ورأيت فيما بعد أن أضم كل ما ترجمت، في مجموعة واحدة

تحت عنوان "روائع طاغور"، ونهضت دار العلم للملايين بنشرها خمس مرات، وأشاد بهذه الترجمة كثير من النقاد والباحثين.

لقد أعانني على هذه الترجمة الشائقة الممتعة، أنني كنت شاعراً، ويبدو لي أنه يحسن بأي مترجم يتصدى لنقل شعر طاغور إلى العربية أن يكون شاعراً، يتذوق الكلمة الموحية الملهمة، المجنحة، ويعرف كيف ينتقيها، ولعل تقدير القارئ العربي لترجمتي ورواجها في الوطن العربي كله هو خير مكافأة معنوية أصبتها، بيد أنني ما زلت أذكر موقفاً غصت فيه عيناي بالدموع،في مؤتمر العلاقات الدولية الذي دعيت إليه في نيودلهي عام ١٩٨٧، حين طلب رئيس الجلسة إلى أعضاء المؤتمر الوقوف لتحية بديع حقي الكاتب العربي السوري الذي نذر قلمه لنقل روائع طاغور إلى العربية، مسهماً بذلك في توطيد العلاقات العربية – الهندية الثقافية، ونهضت آنذاك، ودموع التأثر تفيض متدفقة على وجنتي، معانقة هدير التصفيق المدوي في أرجاء القاعة، كانت دموعي أنقى تحية أزجيها إلى أصدقائي الهنود الذين يعرفون كيف يقدرون وكيف يحبون.

النثر .. ولغة الشعر:

- **من يقرأ قصصك ورواياتك، يشعر بأنك لم تغادر فضاء الشعر، حتى وأنت تكتب القصة والرواية، وربما كنت من كتاب القصة الأوائل الذين يدققون في اختيار ألفاظهم ويكتبون بأسلوب ونفس شعريين بدءاً من مجموعة "التراب الحزين" حتى آخر رواية لك.**

في مقال نشره الصديق الدكتور عبد السلام العجيلي، بمجلة الأديب اللبنانية، عقب صدور كتابي "التراب الحزين" أورد فيه أنني كالطائر المحلق الذي جفا سماء الشعر، ونزل إلى رحاب القصة، محتفظاً بزغب الطائر وريشه.

ولئن لم يعد الشعر يذلل في أوزانه وقوافيه، لأنفض ما يمور في الصدر من مشاعر، لقد ظللت أحتفظ في نثري بصور الشعر وألفاظه وموسيقاه، أريقها في

رئات كلماتي وحروفي، فعلي أضحيت - كما كتبت ذات مرة، كالنعامة التي لا تقوى على الطيران والتدويم في الفضاء، ولكنها لا تزال تنسب إلى الطير، وترفرف مثلها، بجناحيها على استحياء، وتسبق الغزال السانح، إن راق لها أن تسابق، ولعل هذا يفسر علام راق لي، في رواياتي كلها وبعض قصصي، أن أطمح إلى ما طمح إليه الروائي البريطاني "ألدوس هكسلي" في موسقة الرواية والقصة، في حرصي الدائب، المتصل، على إيقاع الجملة، وتناسق حروفها وتناغم ألفاظها، لتكون الرواية أشبه بسمفونية، والقصة أشبه بسوناتا، حيث تجد، مثلاً، أن نقرات العكازة في رواية "همسات العكازة المسكينة" تتجاوب، حلوة الجرس، شجية، كأنها جملة موسيقية تتردد ضمن سمفونية عذبة، رحبة. ولئن كنت أعد، حين نظمت قصائد "سحر" الرمزية، مؤثراً الألفاظ الموسيقية الشفافة، من عبيد الشعر الذين يرون أن خير الشعر هو الحولي المحك، لقد أضحيت في نثري أيضاً، من عبيد النثر وخدامه، وإني لأعتز بأن أكون خادماً للغتي العربية الرائعة. هنا يطيب لي أن أورد ما ذكره الناقد الدكتور حسام الخطيب، في الندوة التي أقيمت تكريماً لأدبي، منذ قرابة خمس سنوات في اتحاد الكتاب العرب، فيما كان يتحدث عن جمالية نثري وموسيقاه، قال: (إن بديع حقي يسعى، حتى وهو يصور الشر أو القبح، في رواياته وقصصه، إلى أن ينفض صورهم بأسلوب آسر جميل) ولا أنكر هذا أو أنفيه، لأن استجلاء القبح على النحو الذي ارتضيت، قد يحسر بعض أسرار الجمال المتوارية خلف القبح، واستجلاء الشر، على نحو صاف، معبر، قد يبرز أبعاده وخوافيه، كما تبرز عدسة المجهر النقية، دقائق الجراثيم الصغيرة غير المرئية. وللشعر، فيما أحسب، جراثيم أكثر ضراوة من الجراثيم المعدية. وهنا أحب أن أشير إلى أن الروائي الأمريكي "فوكنر" يتكئ على الجمل الموسيقية الشعرية، في جل رواياته، لا سيما في "الصخب والعنف"، "النخيل البري" لأنه قرزم الشعر قبل أن يضحي روائياً، وأننا لنجد هذه النزعة الشعرية في الأسلوب المتكئ على الصورة والأسطورة في روايات "ماركيز" كما نجدها لدى "داريل" في "رباعية الإسكندرية" بسردها المشحون بصور شعرية

خلابة، حتى لقد شبه أحد النقاد روايتة هذه بسمفونية تنتظم في أربع حركات.

السيرة الذاتية.. وشجرة التاريخ:

- **سيرتك الذاتية "الشجرة التي غرستها أمي" ربما جاءت بعيدة كثيراً أو قليلاً، عما ألفناه في السير الذاتية، إذ ليس المهم ذكر تواريخ ووقائع، بل كنت مخلصاً لبديع حقي الشاعر ذي الشفافية، هكذا كان الحديث عن الأم وعن ذكريات بيت الطفولة، يعني الحديث عن البيئة الدمشقية والعادات والتقاليد ونشوة الماضي، بنفس رومانسي عذب.**

- كانت أمي رحمها الله امرأة بسيطة الفطرة، متواضعة مستقيمة، ذكية الفؤاد، وقد بنى بها والدي ولها من العمر أربعة عشر عاماً، وتوفي وهي لا تزال صبية، فلم تشأ أن تتزوج بعد أن ترملت وسهرت على تربية طفليها الصغيرين – أنا وأختي– وكانت تربيتها مزيجاً من القسوة والعطف والحنان، وقد غرست هذه الأم الطيبة في حديقة دارنا بسوق ساروجة، شجرة نارنج، انساقت في فيئها أحلام طفولتي وشبابي، مظللة كتبي وأوراقي وقلمي. من هذه الشجرة تسلسلت الذكريات الرفافة، الحزينة، الهنيئة معاً، لتصف الحارة الدمشقية، وفناء الدار القديمة، تهزج في فنائها بحرة مثرثرة، وتتأود على جنباتها أصص الفل والياسمين والتمر حنة، وتجلو إلى ذلك كله، مواجع الحياة القاسية المضنية التي عشتها، وتقاليد المجتمع القديم وعاداته، وفي هذا النسق من الذكريات، لا سبيل إلى إيراد تاريخ، فإن كل حجر، كل ذرة من تراب، كاف وحده، لينفض مدارج الطفولة ومعالم الدار الدمشقية ومتاهات الحارة الظليلة، في نفس حميمي رومانسي– كما شئت أن تصفه – وفي مقال غمز أوتار قلبي، كتبه صديق العمر الدكتور عبد السلام العجيلي أخيراً، يقول: (لقد غرست أم بديع شجرتين: شجرة، نارنج عرفتها في الأيام الفائتة، وتفيأت ظلها، ومتعت نظري بخضرة

أوراقها، والشجرة الثانية هي بديع نفسه الذي غرسته أمه فـــي أرض الـــوطن، وفي حديقة الأدب وروضة الفن من هذا الوطن).

نحلة لم تمنح سوى القليل من الشهد

حين كنت طفلاً صغيراً، سعيداً، قرير البال، في حديقة دارنا الممرعة الخضراء، بسوق ساروجة، كانت النحلة الرشيقة الدؤوب تستهوي عيني المتطلعتين إليها، أكثر من الفراشة المزهوة بجناحيها المفوّفين بأجمل الألوان والثياب، كان يحلو لي أن أتبعها ببصري تطوف حول برعم منور من الزهر، مسفة مصعدة، كما لو أنها تود أن تفضي إليه ببوحها ونجواها، ناقلة إليه من برعم مجاور أو بعيد، شذاه وغبار طلعه وبعض أسراره الخفية، وكنت معجباً بعطائها السائغ، بعد أن عرفت أنها ترتشف أعذب ما في الزهرة من ماء وحلاوة لتمجّه شهداً حلالاً في خلية قائمة من مكان مجهول في حديقتي الواسعة، وكنت أتساءل: ترى أين تتوارى تلك الخلية المترعة بعسلها الشهي، ودفعني الفضول ذات مرة على الإمساك بنحلة عاكفة على زهرتها، مغازلة تويجها، مرتشفة نداها، فلعلها أن ترشدني إلى كنزها الخبيء، ولم تثني لسعتها المؤلمة عن تعلقي بها حتى لقد ذهب شغفي بالنحل إلى أمنية مستحيلة من اماني الطفولة البريئة، فتمنيت أن أحور إلى نحلة تهب جناحيها الخفاقين لغوارب النسيم، حرة، منطلقة، وتهب العسل الطيب للناس كافة.

وقد حقق الله طلبتي وأمنيتي، بعد أن أصبحت نحلة صغيرة، هائمة بين أترابها من النحلات في رياض الأدب وأفانينه وأزاهيره، لأبني خلية متواضعة، لعل راحة ما، تتقرى مكانها، وتشتار الشهد الذي نسجته من ذوب نظراتي المتوثبة، ومن خفقات أجنحة أحلامي الرفافة، ومن خلجات قلبي العميد، أجل أنا نحلة صغيرة من خلية كبرى تضم نحلات معطاء، راضية بأن تبذل أغلى مالديها وأحلاه وألذه مساغاً للجيل القادم، لعله أن يستطيبه، مقوماً أدبي، حادباً عليه، حفياً به ولقد ذهب بي طموح الشباب – ويالسره المخادع – إلى التمني بأن أضحي، أنا النحلة المولعة برحيق الزهر، ملكة من ملكات النحل، المرموقة، وأن أحتل من خليتها الأدبية، ما احتله عمالقة الأدب من مكان سام رفيع، ولكن هيهات، هيهات، لقد انتسخت كل

الأماني وتلاشت، ولم تستطع هذه النحلة الصغيرة، بديع حقي، فيما تستشرف الآن الخامسة والسبعين، أن تمنح سوى الشيء اليسير من الشهد، أزجيته بمؤلفاتي، وأشعر على الرغم من ضآلة وقصوره عن مثلي الأعلى الذي سعيت إليه، بنشوة عارمة من الاعتزاز والهناءة، لأنني ألفيت من يتذوقه ويفصح عن حبه وإعجابه، في هذا الحفل الكريم، مردداً لنفسي مع ذلك، بأنني، أنا وجيلي من الأدباء المعاصرين، لسنا - كما أفضى لي ذات مرة صديقي المرحوم فؤاد الشائب رحمه الله، لسنا سوى جسور مفضية إلى الأدب الخالد، فلأقنع نفسي، إذن، بأنني جسر صغير، صغير من هذه الجسور.

ولا أخفي أنني أشعر، أحياناً، بالقنوط والإحباط ويمثل في وهمي أن كل ما ألفت لم يكن إلا عبثاً وسراباً، ويجاذبني، آنئذ، ما كان جاذب أبا حيان التوحيدي من خيبة ومرارة حين دفع بكل ما تبقى لديه من مؤلفات إلى النار، ضناً بها على من لا يعرف قدرها وقيمتها في زمانه، بيد أنني ظللت، أتمنى ما تمناه الكاتب الفرنسي (موروا) بأن يختطفني الموت، مابين نقطة وفاصلة، من جملة أكتبها في قصة أو رواية أو دراسة، لأفيء إلى التفاؤل، أملاً أن يكون الجيل القادم أقرب إلى التقدير والنصفة، من بعض من يرى في جمال الأسلوب الذي أنشده، غميزة تغض من شأن أدبي، في حين أن (أندره جيد)، أحد فرسان الكلمة في فرنسا، كان يردد، معتزاً، تياهاً، أن النسيان سوف يستبد بجميع أفكاره، فيما عدا جمالية أسلوبه، هذا الأسلوب الآسر، الساحر، بيد أن جمال الأسلوب لم يستأثر وحده باهتمامي، فأنا أعترف بأنني أناجي كلماتي، أضمها، أتذوق حروفها، أستنشيها، دون أن يصرفني ذلك عن القيم الانسانية التي تسربلها وتهب لها الحياة، والتي تقود قلمي وتهديه فيما هو يسعى فوق مضطربه الأبيض الملبس.

أجل، كان الشعر أول منهل عذب متحت منه من بين مناهل الأدب، وكانت الرمزية هي التي شدت، في البدء، نظري إلى أفق مستحدث، شائق في الشعر، تهوم في مداه وتتفيأ ظلاله الغائمة.

ولسائل يشاء أن يستوضحني: علام لويت نظري عن الشعر، بعد أن وسدت جفوني فوق رؤاه؟ تراني عزفت عنه، مثلما اتفق لفاليري بعد ليلة مؤرقة في (جنوا)، خيل إليه فيها أن كل ما نظمه ليس إلا عبثاً وقبض الريح، غير أنني أود أن أشير، هنا، إلى أنني آثرت الرواية والقصة، كمنسرح ملائم لإلهامي، بعد مأساة فلسطين، التي نكأت جراحي الرغيبة، فآليت على نفسي – إثر زيارة قمت بها، عضواً في الوفد السوري الرسمي، لقبية الشهيدة، عام ١٩٥٣ فيما كانت جبهتي تلثم سجادة في المسجد الأقصى، مصلياً، باكياً – آليت أن أنثر، بعد الآن على تراب فلسطين أندى كلماتي ودموعي، ومن خيوط هذه السجادة المقدسة المخضلة بعبراتي، تسلسلت قصصي ورواياتي ومقالاتي، كانت قبية إذن هي التي أشعلت الحرائق في حروفي، لأؤلف أربعة كتب عن فلسطين الغالية، المعذبة.

وكان ينبغي لهذه النحلة أن تنحو إلى افق بعيد، بعيد، لتتنقل بين أزاهير طاغور، شاعر الهند العظيم، وكذلك نقلت إلى العربية سبعة من مؤلفاته، من بينها ديوان (البستاني) وكنت بسبيل ترجمته، وأنا إلى جانب سرير أمي المريضة، رحمها الله، حين لمحت اللحاف ينحسر عن قدمها النحيلة، لأقرب شفتي منها وألثمها، قبل أن أغطيها فإذا هي تغمغم بدعائها الصالح المبارك، وتنطفئ، فجأة، وكذلك أهدي كتاب (البستاني) إلى روحها الطاهرة، لأن آخر أنفاسها في الحياة كانت تناسم كلمات طاغور الانسانية.

وكالنحلة التي تتذكر مكان خليتها فلا تخطئه وهي تتسمته وتتجه إليه، فإن ذاكرتي ظلت منوطة بسوق ساروجة ودورها المتعانقة، الظليلة، على نحو كنت أجدني أستعير حجارة جدرانها لأبني بها بيوت قصصي ورواياتي.

بل هي ذي النحلة الصغيرة، الهيمى، تبسط خليتها المتواضعة، الضئيلة، وتشعر فرحة جذلى، بأن هناك من يستطيب شهدها وعطاءها.

وهاهي ذي النحلة الصغيرة نفسها، يجاذبها الفخر والاعتزاز والعرفان، فيما هي تلمس التقدير والمحبة والرعاية الكريمة، وهأنذا، ألفي نفسي أشبه بطفل صغير،

ساذج، فاجأته هدية حلوة، فارتبك، ولم يدر كيف يجلو مشاعره، فيمــا هــو يرامــق العيون المحبة، الرانية إليه.



عدنان مردم بك :

القاضي الذي كتب بدايات المسرح الشعري في سوريا في مطلع العصر الحديث

اهتم عدد من شعراء العـرب بدراسـة الأدب الأوربـي، وأولـوا اهتمـامهم للمسرحية الغربية، التي لم يكن لها في الأدب العربي أصـل يُرجَـع إليـه، فعمـد بعضهم إلى ترجمتها إلى العربية كما فعل "خليل مطران" الذي نقل بعض مسرحيات شكسبير، واقتبس آخرون منها مثل أديب أسحق وسليم عنحوري وأبي خليل القبـاني ولم يحالفهم التوفيق، ثم طلع "أحمد شوقي" الـذي يُعَـد رائـد المـسرحية العربيـة بمسرحيتيه "مصرع كليوباترة" و"مجنون ليلى" متأثراً بالمـسرحية الفرنـسية إبـان دراسته في السوربون، وكذلك شأن عزيز أباظة الذي كان في مسرحياته أقرب إلـى الشاعر الملحمي منه إلى الشاعر المسرحي، ويعتمد علـى سـرد الأحـداث كأنـه قصاص كما يلاحظ في "غروب الأندلس".

لفت ذلك انتباه الشاعر الراحل عدنان مـردم بـك (١٩١٧- ١٩٨٨)، وأدرك حاجة المسرح العربي إلى مسرحيات شعرية ذات مستوى جيد، تلتزم بقضايا الأمـة القومية والوطنية وتعالج مشكلات المجتمع، وتستعيد بطولات العـرب وأمجـادهم، فلجأ إلى خزانة التاريخ العربي الإسلامي وأخرج منها مواضيع العديد من رواياتـه الشعرية ومنها: فتح عمورية (١٩٣٣) وكان في السابعة عشرة من عمره، نـشرها في مجلة "الشام" لصاحبها: خليل المحصّل، و"عبد الرحمن الـداخل" (١٩٣٤) التـي نشرها في مجلة "العرفان" لصاحبها "عارف الزين" وجميل وبثينة" (١٩٣٦) ونشرها بمجلة "الإنسانية" لصاحبها "وجيه بيضون" وتوالت مسرحياته بعـده تباعـاً: غـادة أفاميا، العباسة، الملكة زنوبيا، "الحلاج"، رابعة العدوية، "مصرع غرناطة، "فلسطين الثائرة"، "دير ياسين".

لقيت أعمال عدنان مردم بك إعجاب وتقدير النقاد والأدباء على المستويين العربي والعالمي، فترجم له البروفيسور "خوان فرنت جونيس" فصولاً من مسرحية "مصرع غرناطة" إلى الإسبانية وحازت "رابعة العدوية" على الجائزة العالمية الثالثة بمهرجان الكتاب الصوفي العالمي الذي، أقامته "اليونسكو" عام ١٩٧٢ في جامعة "بونابروس" ومنح الشاعر عنها لقلب "بروفيسور"، كما نال شهادة الدكتوراه من جامعة المركز "جنوب سيكلونا" عام ١٩٨٧، بعد سنوات من إدراج اسمه بين أعلام المسرح في الموسوعة الإنكليزية العالمية لتراجم الأعلام.

وقد وثّق الشاعر في هذه المسرحيات لنضال سوريا ضد المستعمر الأجنبي، ومجّد ماضي الأمة وتاريخها العريق فكانت كل واحدة منها تعكس حسّه الوطني، وفكره الاجتماعي.

ثم صدرت له روايات مسرحية أخرى تنوعت مواضيعها مثل: فاجعة مايريلنج، ديوجين الحكيم، الاتلنتيد، المغفل، القزم، ويوسف وزليخة (مخطوطة) وغيرها.

لم يكن عجباً أن يحظى "عدنان مردم بك" بهذا التكريم، بل كان في الحقيقة أهلاً له، وجديراً بكل صور التقدير فقد ظل طوال سنوات ملء العين والقلب ينشر أشعاره وأعماله في الصحف والمجلات، ويخرج إلى القراء بقصائده ومسرحياته الرائعة.

ولد "عدنان مردم بك" بدمشق عام ١٩١٧، في أسرة عريقة، وهو ابن العلامة "خليل مردم بك"، شاعر الشام وأديبها الكبير، الذي علّم أجيالاً الأدب واللغة والبلاغة والعروض، وتخرجت في مدرسته مواكب من الأدباء والشعراء، منحهم من علمه الواسع، وأدبه الرفيع، وتهذيبه العالي وكان له أكبر التأثير في مسيرة ابنه الشاعر وعطائه الأدبي: "لقد كان أبي صاحب مدرسة جديدة في فن الوصف بالشعر العربي، وقد درست عليه الأدب العربي أربع سنوات، أستقي من معينه، وأستفيد من توجيهه، ونظرته العميقة التي يشرحها لي، كان نقاداً نفاذ البصيرة، ذواقة بمواقع

الحسن، ولهذا كان دراستي عليه عظيمة النفع، لقد أعطى "الخليل" باب الوصف لوناً جديداً لم يسبقه إليه شاعر معاصر، وجعل من القصيدة وحدة تامة في موضوعها، مع بيان مشرق وأصيل.

تلقى الشاعر علومه الابتدائية في الكلية العلمية الوطنية، ونال إجازة الحقوق من الجامعة السورية في عام ١٩٤٠، ومارس المحاماة سبع سنوات، انتسب بعدها للقضاء، فعين قاضياً للتحقيق في عام ١٩٤٨، وتدرّج في السلك حتى عُيّن مستشاراً بمحكمة النقض في عام ١٩٦٢، واستقال عام ١٩٦٦ ليتفرغ لأعماله الأدبية.

بدأ الشاعر بنشر قصائده وهو في الخامسة عشرة من عمره في جريدة "البرق" لصاحبها الشاعر "بشارة الخوري" (الأخطل الصغير)، ثم نشر فصولاً من مسرحياته في عدد من المجلات العربية، وإضافة لتلك المسرحيات صدرت للشاعر مجموعاته الشعرية: نجوى، صفحة ذكرى، عبير من دمشق، ونفحات شامية، وقد نهج فيها أسلوب أبيه من حيث الوصف الجميل، والتصوير البارع. وقد تغنى في المجموعتين الأخيرتين بالوطن والأرض، وخصّ مدينته الأثيرة "دمشق" مثل سابقه من شعراء الشام، بغزله الراقي، وعواطفه الصادقة.

وكان الشاعر في أعماله كلها، عاشقاً للغة العربية الجميلة، يدافع عنها بحماس، ويصف المروجين للهجة العامية في الأدب بأبواق الاستعمار الذين يشنون على العرب حرباً صليبية جديدة، باسم الدعوة إلى تسهيل اللغة أو التحرر من قيود الأقدمين الرجعيين، وذلك بهدف طمس الهوية العربية، وإبعاد العرب عن أهم مقوماتهم التاريخية.

تعهد "عدنان مردم بك" أعمال أبيه الأديب والشاعر الكبير، وآثاره الفكرية، فقام بتحقيقها ونشرها، ومن بينها: ديوانه الشعري، ومؤلفاته: جمهرة المغنين، الإعرابيات، أعيان القرن الثالث عشر الهجري، شعراء الأعراب، دمشق والقدس في العشرينيات.

ويوم رحل الشاعر، ودعته دمشق، ممثلة بأدبائها ومفكريها، الذين عرفوا فيه

عفة اللسان، وصدق الوعد، ونبل المعاملة، فكان حفل التأبين تحية إجلال ووفاء لعلم خالد من أعلام الأدب العربي في سوريا.

المصادر:

- المسرح والحياة: حسين علي محمد / مجلة الفيصل.
- الأدب العربي المعاصر في سوريا: سامي الكيالي.
- عبقريات وأعلام: عبد الغني العطري.

الدعوة للعامية، حرب صليبية جديدة..

- **كتبتم الشعر والمسرحية الشعرية، فلماذا استأثرت المسرحية الشعرية باهتمامك أكثر؟**

في الواقع لم تستأثر المسرحية الشعرية باهتمامي فقط، وإنما عاشت مع أكثر أيام حياتي، فقد نظمت المسرحية الشعرية قبل أربعين عاماً، وأنا في السابعة عشرة من عمري، وظهرت في أول مسرحة شعرية عام ١٩٣٢م، (فتح عمورية)، على صفحات مجلة (الشام)، لصاحبها الأستاذ خليل المحصل، وفي عام ١٩٣٤م ظهرت في مسرحية (عبد الرحمن الداخل)، ونشرت مقدار خمسمئة بيت من الشعر على صفحات مجلة "العرفان" أيضاً لصاحبها الأستاذ عارف الزين، ونظمت مسرحية "مصرع الحسين" عام ١٩٣٥م، ونشرت الفصل الأول والثاني على صفحات مجلة العرفان أيضاً! ونظمت في عام ١٩٣٦م مسرحية "جميل وبثينة"، ونشرت الفصل الأول على صفحات مجلة "الإنسانية" الدمشقية، لصاحبها الأستاذ وجيه بيضون، ثم إني نظمت عام ١٩٤٠، مسرحية "الدون كارلوس" وهي مخطوطة، وفي عام ١٩٤٥م، نظمت مسرحية "يوسف وزيلخة"، وهي مخطوطة أيضاً.

فيتبين مما تقدم، بأن المسرحية الشعرية لم تستأثر باهتمامي منذ أمد قصير فحسب، وإنما استأثرت باهتمامي منذ كنت يافعاً، وكان حبي لها حباً قديماً مستأصلاً في حنايا نفسي.

- **صدرت لك عشر مسرحيات شعرية، بم تفسَر هذه الغزارة في الإنتاج؟ وهل تؤثر الغزارة على مستوى العمل الأدبي؟**

نعم، صدرت لي حتى اليوم المسرحيات التالية: غادة أفاميا، العباسة، الملكة زنوبيا، الحلاج، رابعة العدوية، مصرع غرناطة، فلسطين الثائرة، فاجعة مايرلنغ، ديوجين الحكيم، دير ياسين.

إن صدور عشر مسرحيات لشاعر مسرحي ليس بالعدد الكبير، ذلك أن إنتاج الشاعر المسرحي الأوروبي يكون أضعاف هذا العدد، ولا شأن للغزارة في الإنتاج على مستوى العمل الأدبي، لأن قدرة الشاعر المتمكن من فنه، كفيلة بنجاح كل أثر فني يصدر عنه.

- **كان والدك الأستاذ خليل مردم بك، من أكبر شعراء الشام وباحثيها فما تأثيره في فنك؟**

لا شك أن الوالد من أكبر شعراء الشام، وهو صاحب مدرسة جديدة في فن الوصف بالشعر العربي، وقد تأثرت به كثيراً واستفدت منه في ذلك، سبق ودرست على يديه الأدب العربي مدة أربع سنوات، أستقي من معينه بصدد التوجيهات التي يوجهني نحوها، وفي نظراته العميقة التي يشرحها لي، فقد كان نقاداً نافذ البصيرة، ذواقة بمواقع الحسن، فكانت دراستي عليه عظيمة الفائدة، كما أنني أعتبر نفسي تلميذاً له في فن الشعر، إذ سبق وأبنت بأنه صاحب مدرسة جديدة، فقد أعطى باب الوصف، لوناً جديداً لم يسبقه إليه شاعر معاصر، وجعل من القصيدة وحدة تامة في موضوعها، مع بيان مشرق وأصيل، وقد قام بطبع ديوانه المجمع العلمي العربي في دمشق، وديوانه شاهد عدل على ما ذكرت.

- **ما مدى تأثير المسرح الفرنسي في مسرحك، خاصة وقد تحدثت أكثر من مرة عن إعجابك بكورني وراسين؟**

إن المسرح الفرنسي الكلاسيكي التراجيدي مسرح عظيم ولا شك، رغم ضعف الحركة فيه، فقد اعتاض عن الحركة بروعة التحليل النفسي، في دراسة الطبيعة البشرية، فالتحليل النفسي بارع حقاً، والعبارات اللفظية مشرقة ساطعة، واللفظة نفسها تقطر عذوبة.

فتأثير المسرح الفرنسي علي من هذه الناحية بيّن الأثر، فأنا استفدت ولا ريب

من ناحية التحليل النفسي للطبيعة البشرية، والحرص على جمال العبارة وصحة الأسلوب، كما أني استفدت من قراءتي لمسرح شكسبير الشاعر الإنكليزي، في عالمه المسرحي الكبير المترامي الأطراف، وفي تنوع الحركة عنده، ذلك أن المسرح الكلاسيكي الفرنسي على أهميته وقوته تكاد تكون الحركة فيه معدومة، وهو أقرب على المحاورة منه على المسرح، الذي أبدعه شيخ المسرحية شكسبير.

- **نود أن نتعرف على عملية الإبداع عندك: متى تكتب؟ وأين؟ وهل لك عادات خاصة أثناء الكتابة؟**

إن الشيء المهم لدى كل شاعر أو كاتب، أن يكون بادئ ذي بدء هاضماً لموضوعه، وعارفاً تمام المعرفة بما سيقوم به من عمل فني، إذ أنه متى توضحت عنده الفكرة في مراميها الخفية وأبعادها الشاسعة وقابضاً على زمامها، فإنه يرى نفسه مدفوعاً إليها بكليته لا يستطيع أن يتحرر من ربقتها، فهو يريد أن ينظم إن كان شاعراً، ويريد أن يكتب إن كان كاتباً، تحت تأثير أثر الفكرة المسيطرة عليه، دون أن يكون للزمان أو المكان أي أثر عليه، لأن كل زمان مواتٍ له، وكل مكان صالح له.

وليس لي من عادة خاصة حين أنظم الشعر، سوى الانزواء عن الناس، والانطواء على نفسي، وإن المسرحية الشعرية عندي لا تسطر دفعة واحدة، لأنها وليدة تفكير عميق، وإنما تسطر على دفعات.

- **أين أنت من مسرحياتك؟ وهل تحمل بعضها أجزاء من حياتك؟**

لا شك أن أكثر مسرحياتي الشعرية – إن لم تكن كلها – نتف من مشاعري وحياتي، وسبق أن كتبت في مقدمة مسرحيتي "غادة أفاميا"، إنها في الواقع تسطير لنضال الأمة السورية ضد المستعمر، وتمجيد للحاضر في ماضيه الأصيل، فبلدة أفاميا، قطعة من الأرض السورية، ناضلت المستعمر الروماني، فكنت حين أسطر

ملاحم أفاميا، أتخيل نضال أمتي ضد المستعمر الفرنسي، وما كان يجري من عنف آنذاك، وفي مسرحية "رابعة العدوية" تلك المسرحية الشعرية التي أعتز بها، فهي تحمل مشاعري الحقيقية في كرهي الشديد للرق في شتى ألوانه الاجتماعية، وأبنت بها مشاعري الصوفية بلسان الإنسانة الكبيرة رابعة.

وفي مسرحية "فاجعة مايرلنغ" بكيت الشباب الذاوي، الشباب الثائر على التقاليد الاجتماعية، الثائر على الظلم، والشاب المحب للحياة في شخص رودولف، الذي كنت أرى فيه شخص شقيقي هيثم، الذي قصفته يد المنون ولما يكمل العشرين من عمره.

وهكذا، فإن كل مسرحية شعرية من مسرحياتي تحمل قطعة من نفسي أو قبساً من أفكاري الاجتماعية.

- **هل ترى أن المسرحية الغربية أثرت في نشأة المسرحية الشعرية؟ وفيم يتضح هذا الأمر؟**

إن الأدب العربي بمجمله أدب غنائي، وهو بطبيعته بعيد عن المسرح واستساغة المسرحية، وحين قام خلفاء بني العباس أيام الرشيد والمأمون بالتشجيع على ترجمة كتب اليونان إلى العربية، اقبل أهل الاختصاص على نقل الفلسفة اليونانية وعلومها، ولم يقربوا المسرحية اليونانية، التي كانت للأوروبيين المصدر الرائد والنهج لمسرحهم، ومرد ذلك بالنسبة للمسلمين عامل الدين.

فاليونان وثنيون يقولون بتعدد الآلهة، يضاف إلى ذلك أنه يتقاسم العمل في المسرحية رجال ونساء، والدين الإسلامي، يمنع مثل هذا الاختلاط، أضف إلى ذلك أيضاً تباين المفهوم ما بين الفكر الغربي والفكر العربي الشرقي، فالأدب العربي أدب غنائي وليس بتركيبي، يكتفي باللمحة الخاطفة، والإشارة الرقيقة، في حين أن المسرحية بناء هندسي شاهق محكم، يرتكز على الحوار والمنطق، وعلى التحليل النفسي، كل هذا صرف الأديب العربي عن معاناة فن المسرحية.

إلا أنه في مطلع العصر الحاضر، عكف قسم من أدباء العرب على دراسة الأدب الغربي في أوربا، وقام محاولاً بتذوق المسرحية الغربية، التي لم يكن لها في الأدب العربي من اصل يرجع إليه، فحاول أن ينتقل هذا الفن بترجمته إلى اللغة العربية، كما فعل الشاعر خليل مطران بنقل بعض مسرحيات الشاعر شكسبير، ومنهم من حاول أن يحاكي هذا الفن بالاقتباس، كالأديب سليم عنحوري وأديب أسحق ويوسف شاهين وأبي خليل القباني، ولكنهم لم يوفقوا، حتى طلع الشاعر شوقي بمسرحيته "مصرع كليوبترا" و"مجنون ليلى" وهو يعد الرائد الأول للمسرحية العربية، وقد تأثر بالمسرحية الفرنسية، حينما كان يدرس الحقوق في كلية الحقوق بالسوربون، وقد نظم آنذاك مسرحية "علي بك الكبير"، وأرسلها إلى الخديوي، ولكنه لم يشجعه على النهج الجديد، فانقطع مدة طويلة من الزمن، حتى عام ١٩٢٨م، حين صدرت له مسرحية "مصرع كليوباترة"، وهكذا كان شأن أكثر الشعراء المسرحيين العرب متأثراً بالمسرحية الغربية شأن الشاعر أحمد شوقي.

- **ما رأيك في فن المسرح الشعري عند أحمد شوقي وباكثير وعزيز أباظة، وهل استطاع هؤلاء أن يكتبوا المسرحية الشعرية بكل مقوماتها؟**

لم يتح لواحد من أولئك الشعراء الثلاثة، أن يكتب المسرحية بكل مقوماتها، على ما كان بينهم من تفاوت في الطبقة والفهم الفني للمسرحية.

فأحمد شوقي، وهو أكبرهم منزلة، شاعر عبقري، أدلى دلوه في عباب المسرحية الشعرية، وكان بحق الرائد الأول لها في الوطن العربي الكبير لا في مصر وحدها، ولكنه مع هذا لم يتح له أن يكتب المسرحية الشعرية بكل مقوماتها الفنية، فالعقدة المسرحية الواحدة عنده عقدتان، والفصول الجانبية التي لا تمت إلى صلب موضوع المسرحية قائمة، والاستطراد كثير في أكثر مسرحياته، ونشاهد ما ذكرته آنفاً في مسرحية "مصرع كليبوباترة" ومسرحية "مجنون ليلى" وهما من غرر مسرحياته.

فالعقدة في "مصرع كليوباترة" عقدتان: حب كليوباترة لأنطونيو وحبه لها من جهة، وحب حابي لهيلانة من جهة ثانية، في حين أن هذا الحب ليس بكبير أو بالأمر المهم في سير المسرحية الفني، ونشاهد في مسرحية "مجنون ليلى" فصلاً مستقلاً، ولعله الرابع، يصور الجن وأرضهم، وهو فصل دخيل لو حذف لما أثر على المسرحية بشيء.

أما الاستطرادات فهي كثرة، وهي من النوع الغنائي ومبثوثة في كل مسرحياته تقريباً.

أما الشاعر عزيز أباظة، فهو في مسرحياته أقرب إلى الشاعر الملحمي منه على الشاعر المسرحي، فوثباته خاطفة وسريعة، ويقودك إلى أجواء عديدة لا صلة وثيقة بينهما، ويعتمد على سرد الحوادث كأنه قصاص، فمسرحية "غروب الأندلس" فيها سرد لخصام أبي عبد الله الصغير وزوج أبيه، وكيف وقع بادئ ذي بدء أسيراً لدى الإسبانيين، بها سرد للخصومة ما بينه وبين عمه الزعل، فيخيل إليك أنك تطالع قصة لا تطالع مسرحية، كما أن الشاعر أباظة في مسرحيته "العباسة"، أكثر المشاهد بها، وجعل رقعة المسرح أوسع من مكان واحد لعمل مقتن، فقد جعل جعفر البرمكي ينتقل في أكثر من مدينة واحدة، وأتى على سرد أشياء لا تتسع للمسرحية.

وكذلك كان شأن الشاعر باكثير في مسرحياته في عدم التقيد بالمقومات الفنية مع العلم أن حظه في التجويد أقل شأناً من ا لشاعر أحمد شوقي وعزيز أباظة.

- **ظهرت بعض المسرحيات الشعرية باللهجات العامية المحلية، وظهرت بعض المسرحيات المكتوبة في إطار شعر التفعيلة، ما رأيك بهذه المحاولات؟**

إن لكل لغة من اللغات المعروفة، ضوابطها المقررة، وقواعدها المقننة، إذ لا يجوز لفرد أن يخل بتلك القواعد والضوابط، وكل أديب وقع في الخطأ فلغته ضعيفة، لا يعتد به عند بني قومه، ولا يعذره قارئ منهم عليها.

في حين أن اللهجة العامية لا يمكن أن ترقى على لغة تخاطب وأدب، ذلك أن

في القطر الواحد لهجات عديدة، حتى أن في البلدة والواحدة كمدينة دمشق مثلاً، عدة لهجات تختلف من حي إلى حي آخر، فلهجة "حي القصاع" هي غير لهجة "أهل الشاغور"، ولهجة باب السريجة هي غير لهجة حي الأكراد، فهل معنى هذا أن نكتب لكل حي بلهجته الخاصة؟ ومن الذي يقوم بضبط الأقيسة لكل لهجة ويقوم ببين القواعد؟ وكيف يمكن لابن سورية أن يفهم اللهجة العامية المصرية، أو لابن مصر أن يفهم اللهجة العامية اللبنانية أو المغربية أو الجزائرية، وهكذا دواليك في كل قطر أو مدينة.

إن المروجين لمثل هذه البدع هم أبواق المستعمرين الذي أدركوا حقيقة الخطر العربي الحاضر، فراحوا يشنون حرباً صليبية جديدة في ثوب جديد، باسم الدعوة إلى تسهيل اللغة أو التحرر من قيود الأقدمين الرجعيين، ووجوب مسايرة ركب الحضارة باستعمال الأحرف اللاتينية.

إن أولئك الأشخاص مشبوهون وشعوبيون، لأنهم يريدون أن يبعدوا المسلمين والعرب عن حظيرة لغة القرآن الكريم، حتى يتعذر على العرب والمسلمين فهم لغتهم، وإذا تم لهم ما يبتغون، تم التباعد والتقاطع ما بين الشعوب العربية المسلمة باعتبار أن من أهم مقومات القومية: وحدة اللغة والتاريخ المشترك.

وسبق منذ ستين عاماً تقريباً، أن قام بعض المستشرقين المشبوهين الذين عرفوا بكرههم للعرب، ببث مثل هذه الآراء العقيمة، وقد رد عليهم فحول من الأدباء أمثال: عباس محمود العقاد ومصطفى صادق الرافعي، وانتهت الزوبعة بسلام.

- **ما رأيك بقصيدة النثر التي انتشرت في ربع القرن الأخير في سورية ولبنان ... وهل يمكن أن تقوم بدور في إثراء الحركة الأدبية العربية؟**

من الأمور المسلم بها، أن الأدب لدى كل أمة عريقة يقسم إلى قسمين: النثر والشعر، ولكل من هذين الفنين مقوماته الخاصة به، ولئن كان الكاتب يشبه الشاعر

أحياناً، في استعماله الخيال والمحسنات اللفظية والمعنوية، ولكن الفارق مع هذا يبقى متميزاً ما بين الاثنين.

قام في الربع الأخير من هذا القرن، بعض الأدباء في سورية ولبنان، محاولين أن يحققوا ما يسمى بقصيدة النثر، إن هاذ الشيء له جذوره، فمنذ ستين عاماً تقريباً، قدّم مصطفى لطفي المنفلوطي أسلوباً جديداً على نمط آخر، ولكنه مع هذا لفت إليه أنظار الناشئة من المتأدبين، وحاول الشبان آنذاك تقليد كل من الكاتبين (المنفلوطي وجبران)، ولا شك أن الإنشاء أخذ طابعاً جديداً على أيدي هذين الكاتبين، وكان أن قام مؤخراً بعض المتأدبين بكتابة قصيدة النثر، كما أطلق عليها لفيف من الناس هذا الاسم، وهي حتى الآن لا تعدو عن كونها محاولة في مرحلتها الأولية، إذ لم تأخذ هذه القصيدة سمتها النهائي رغم ضعف أكثرها بيانياً وفنياً، ولعل كاتباً شاباً جديداً، يأتي ببراعة قلم الأستاذ أحمد حسن الزيات، ويعيد للقصيدة النثرية إشراقها وبلاغتها.

- **ما هي السمات العامة للمسرح الشعري العربي؟ ولماذا تحتل المسرحية التاريخية جزءاً لا يستهان به من المسرح العربي؟**

مما يتميز به المسرح العربي في هذا العصر، أنه مسرح ملتزم، يعالج القضايا الوطنية، والقومية، والاجتماعية، وليس بدعاً أن يكون الشاعر العربي المسرحي اليوم، أو الكاتب العربي المسرحي ملتزمين، وقضايانا اليومية، سواء أكانت اجتماعية أم قومية أم فكرية تقتضي ذلك الشيء.

أنا لا أود الإسهاب والتدليل على ذلك الأمر، وحالنا الحاضرة ليست بخافية، فالتخلف الاجتماعي في أكثر البلاد العربية أمر راهن، والفارق الطبقي لدى أكثر الشعوب العربية شيء محسوس ومشاهد، يضاف إلى ذلك الخطر الصهيوني الجاثم، فلذلك اتجه الشعراء المسرحيون إلى ناحية الالتزام.

هذا، وإن احتلال المسرحية التاريخية محل الصدارة لم يكن بالأمر العجيب،

فإذا رجعنا إلى أعلام المسرح الأوروبي، أمثال شكسبير وكورني وراسين وشـيللر، نجد أن أكثر مسرحياتهم مستمدة من النصوص التاريخية، ومرد ذلك أن التاريخ نبع ثر، وقبس منير يعكس على الحاضر ظلاله فيستخرج منه العبر، ولا شـيء يـؤثر على النفس كالتاريخ، فهو صورة الإنسانية الماضية المتمثلة بالحاضر.

هذا ما دعا الشاعر أحمد شوقي أن يقتبس جل مسرحياته من صلب التـاريخ، كمصرع كليوباترة، وعنترة، وقمبيز، وعلي بك الكبير، وأميرة الأندلس، وقـد حـذا حذوه الشاعر عزيز أباظة في مسرحياته: الناصر، والعباسة، وغـروب الأنـدلس، وست الشام وغيرها.

فلا بدع إذا ما قصد الشاعر المسرحي خزانة التاريخ، باحثاً عن الـنص الـذي يبغيه لمسرحيته، وللتاريخ هالته في نفس القارئ لنص المسرحية وللمشاهد معاً.



"أيتها الصديقة الغالية ...
لا أزال في آخر الدنيا ... أنتظر
الشريط الذي يحمل أغنيتنا "أيظن"
تعيشه في الصحف .. في السهرات
وعلى شفاه الأدباء ... وفي كل
زاوية من الأرض العربية ...
وأبقى أنا محروماً من الآلوف التي
أكلت أعصابه ...
يا لك من أم قاسية يا نجاة!...
أريت "المولود" الجميل لكل إنسان
وتغنيت بجماله في كل مكان .. وتركت
أباه يشرب الشاي في بكين ،
ويحلم بطفل أزرق العينين
يعيش مع أمه في القاهرة ...
لا تضحكي يا نجاة إذا طلبت
ممارسة أبوتي ، فأنا لا يمكن
أن أقنع بتلقي رسائل التهنئة
"بالمولود" دون أن أراه .. فانهضي
حالاً لدى وصول رسالتي ، وضعي
"المولود" في طرد بريد صغير ...
وابعثي به إلى عنواني .. إذا فعلت
هذا كنت أماً صحيحة وحقيقية
أما إذا تمردت فسأطلبك إلى
بيت الطاعة رغم معرفتي بأنك
تكرهينه ....."


صورة نادرة لنزار وهو فتى


نزار قباني عام ١٩٣٥ دمشق


طالب في كلية الحقوق بدمشق ١٩٤٤

نزار قباني :

الشعراء الذين يكتبون بلا أصابع، يظلون خارج الأبواب

زرت بيت نزار قباني "القديم بمئذنة الشحم في الشاغور" منذ يومين ... ومع خطواتي الأولى في الباحة الفسيحة التي حولها الذوق الدمشقي الخلاق إلى جنة وارفة، كان الربيع البهي قد سبقني إليها، وزرع هداياه الملونة في كل ركن ... زهوراً نضرة، وعطراً وألقاً، وكانت نافورة البحرة تتراقص في الهواء ثم تنثال خيوطاً رقراقة لتلثم صفحة الماء، وبدأت سيمفونيتها الحالمة تسقسق همساً ونجوى وموسيقا لم تدر ببال، وعلى غصون الليمون تعانق الحمام الأبيض يبث ترجيعه الحنون وطوّف الفراش رفوفاً بأجنحة معجزة الوشي على الورد الجوري يعب من رحيقه حتى الثمالة...

وفي لحظة كالحلم، دخل نزار إلى الجنة الأسطورية، وشرع يطوف في أرجاء البيت مثل طفل رشيق ملهوف، يلمس الأبواب والنوافذ والجدران، ويسلّم على شجرات النارنج والكباد، ويمسح بكفه جبين الشمشير والقرطاسية، ويطوق عنقه بخصلات الياسمين المعرشة على الشبابيك، فتمطره أزراراً ونجوماً مبللة بالعطر والندى، ومن غفوتها على الديوان العريض في الليوان، فتحت القطة البيضاء عينيها ثم نطت إلى صدر الشاعر، فحملها بين ذراعية وراح يدور بها مستفسراً عن حالها ... تحلقّنا حول الفسقية الرخامية نلاحق سمكات ملونة تسرح في مائها الصافي، فقال:

"هنا ولدت في ٢١ آذار ١٩٢٣، وكانت الأرض هي الأخرى في حالة ولادة، والربيع يستعد لفتح حقائبه الخضراء ... الأرض وأمي حملتا في وقت واحد، ووضعتا في وقت واحد ... هل كانت مصادفة يا ترى أن تكون ولادتي في الفصل الذي تثور فيه الأرض على نفسها، وترمي فيه الأشجار كل أثوابها القديمة، أم كان

مكتوباً عليّ أن أكون كشهر آذار، شهر التغير والتحولات؟... كل الذي أعرفه أنني يوم ولدت، كانت الطبيعة تنفّذ انقلابها على الشتاء، وتطلب من الحقول والحشائش والأزهار والعصافير أن تؤيدها في انقلابها على روتين الأرض...

أنا من أسرة تمتهن العشق، والحب يولد مع أطفال الأسرة، كما يولد السكر في التفاحة.

جدي كان هكذا ... وأبي كان هكذا ... وإخوتي، كلهم يسقطون في أول عينين كبيرتين يرونهما، يسقطون بسهولة، ويخرجون من الماء بسهولة ... كل أفراد الأسرة يحبون حتى الذبح. بيت أسرتي الدمشقي الأنيق هذا كان القصيدة الأولى التي نقلت عنها قصائدي ... إنه البطل الحقيقي في تاريخي الشعري، فهو الذي أعطاني الأقلام والفراشي وعلبة الألوان وقال لي:

ارسم ... فرسمت بالكلمات، وهو الذي أعطاني أول كاميرا من كاميرات الهواة، فصورّت بها كل وردة رأيتها، وكل حمامة أطعمتها، وكل امرأة عشقتها، حتى انتهت أفلامي، ولم ينته الكحل في عيوني حبيباتي...

مصادري الشعرية الأولى، شامية من الألف إلى الياء، فياسمين دمشق، وورودها وريحانها وحمائمها، وسيمفونية الماء في باحات بيوتها القديمة، وقاعاتها المطعمة بالصدف والفسيفساء هي المتحف الذي لملمت منه لغتي الشعرية...

في السادسة عشرة من عمري، وعلى ظهر مركب مسافر من بيروت إلى إيطاليا، خطر في بالي أن أرمي نفسي في بحر الشعر، لم أكن أعرف شيئاً عن العوم، أو عن أخلاق البحر، أو عن أسماء المرافئ، أو عن الحوريات اللواتي نصفهن أسماك ونصفهن نساء، ومع هذا فقد واجهت قدري الأزرق، وبقيت خمسين عاماً أصارع الرياح والأمواج، حتى دخلت في قصة حب عاصفة مع إحدى الحوريات، فأخذتني إلى بيتها، وتزوجتني على شريعة البحر، وعلمتني لغة مائية جميلة، وأنجبنا قصائد فيها شيء من جنون السمك وأشياء من أنوثة النساء...

يطوف الشاعر بعينيه مابين أصص الفل الندي وأحواض الغاردينيا. ويتابع:

في عام ١٩٤٤ باعت أمي أساورها الذهبية، وساعدتني في طباعة مجموعتي الشعرية الأولى: "قالت لي السمراء"، ولولا هذا القرض "الأمومي" لما تمكن من تحقيق حلمي الأول في تحويل صرخاتي الشعرية الأولى، إلى كتاب مطبوع، أساور أمي هي التي فتحت لي الطريق إلى المطبعة، وهي التي جعلتني أدمن رائحة الحبر والورق.

كانت قصيدة "نهداك" في ذلك الديوان الشرارة التي أطلقتني، والمفتاح إلى شهرتي، ولذا كان مدخلي الثاني على جسد المرأة معذوناً بديواني الثاني "طفولة نهد" عام ١٩٤٨، وكان الشعر أيامها يتوجه صوب ثورة جديدة في القول، مترددة بين بقايا المواضيع الرومانسية، وفي مقدمتها الحب، وبين المواضيع الأخرى التي جرفت بتيارها هذه الموجة، وكان "طفولة نهد، نقلة حضارية هامة بالنسبة لشعري، وما كتبته عن المرأة لم يكن اختراعاً وتأليفاً، وإنما معاناة ميدانية، النساء عالم فيه المرأة الحمامة، والهرة، والمرأة التي تقول عيناها شعراً، وأنا إنسان كسائر البشر يرضى ويغضب، ويثور ويتسامح، ويمزق في حالات احتراق الأعصاب كل ما بين يديه بما في ذلك رسوم الحبيبة ورسائلها المقدسة.

قالوا في البداية: إني شاعر المرأة ... وهي تهمة جميلة لا أنكرها، فالمرأة هي الريحانة واللؤلؤة والقمر في حياتنا، وكنت أيام المراهقة أحوم على القشرة الخارجية للمرأة حيث كنت منبهراً بعالم النساء، لكني ابتداء من الخمسينات، وبعد ذهابي إلى لندن تحولت المرأة إلى صديقة، لم تعد تعني لي الأسوار والأقراط ... صارت المرأة حواراً، وهي موضوع إبداع كبير، وهدف لبناء الحضارة ... قل لي كيف تنظر إلى المرأة، أقل لك من أنت...

أنا لم أخترع الأشياء من عندي ... أنا ولدت فوجدت الأشياء فتفاعلت معها وثرت عليها ... وجدت المرأة مضطهدة ومقموعة، ولم أكن أنا الذي سجنها واضطهدها، فحاولت بأسناني أن أدافع عن قضيتها، أن أكسر أقفال معتقلها وأطلقها كعصفور في السماوات الرحيبة، وأقول لك إننا معجونون بالمرأة ومختلطون بها

عضوياً وكيميائياً، ومهما أدعينا الذكورة، فنحن مرتبطون بها بواسطة حبل المشيمة منذ ميلادنا وحتى موتنا.

والرجل الذي يقول: إنه قطع حبل مشيمته وانفصل نهائياً عن المرأة، يتحول إلى شجرة يابسة بلا جذور ولا أوراق ولا رائحة، المرأة مجموعة من الأسئلة والفوازير يمضي الرجل حياته وهو يحاول حلها، ومتى وصل إلى الحل، سقط ميتاً، ولكن ليس من مصلحة الرجل أن يصل إلى اليقين، ويكتشف خريطة المغارة المسحورة، فحين تفتح المغارة أبوابها لألوف السياح، تتحول إلى مهرجان مكشوف كعروض الصوت والضوء.

لقد كانت نظرتي للمرأة دائماً نظرة حضارية، فأنا مع المرأة التي تعرف كيف تتوازن مع العصر حتى لا تصبح جارية، أو مجرد تفاحة في يد الرجل ... إن الأنوثة ليست مرادفة للضعف، ووداعة المرأة شيء يختلف عن كونها امرأة مهزومة ... ما أردته من المرأة العربية أن تبقى عربية في كبريائها وحياتها، وتظل محتفظة بكل ملامح المرأة الشرقية، شرط أن تكسر وتدمّر عالم الجواري ... وعلى مدى خمسين عاماً حولت المرأة في شعري من ذبيحة تؤكل بالأصابع إلى زهرة فواحة في حديقة المجتمع.

لقد كانت أفضل هواياتي وأقربها إلى قلبي: الخروج على القانون ... علاقتي مع القانون لم تكن في يوم من الأيام طيبة، جدي "أبو خليل القباني" حاول قبلي الخروج على القانون، فقام بتحويل "خان أسعد باشا العظم" إلى مسرح، فهدمه المحافظون على رأسه، وشحنوه في قطار بضائع إلى مصر وبقي فيها حتى وفاته ... وحين نشرت قصيدتي: "خبز وحشيش وقمر" حاولوا أن يعيدوا حكاية جدي معي ولكنني رفضت وقاومت، في الواقع أنا لا أعتبر القصيدة قصيدة إلا إذا أحدثت ثقباً في غلاف الأوزون، إن القصيدة التي تحاكم وتوضع في السجن الانفرادي، تعيش مائة عام دون أن يتجعد وجهها أو يشيب شعرها، بغير الخروج على القانون لا توجد قصيدة جميلة، ولا وردة جميلة، ولا امرأة جميلة، ولكي تكون القصيدة

ناجحة يجب أن تتجاوز الكلام الذي جاء قبلها، ولكي تكون المرأة رائعة وطاغية الجمال، يجب أن تلغي كل النساء قبلها.

يتساءل الكثيرون عن سر جماهيرية "نزار قباني"، وليس في الأمر سراً..

أنا شاعر أكتب قصيدتي، وعلى الورقة البيضاء تطل وجوه مائتي مليون عربي، لو نقصوا واحداً لاعتبرت نفسي مقصراً .. وأنا لا أؤمن بالأقليات الشعرية أبداً ... الشعر خبز يومي يُخبز لكل الناس، وقماش شعبي يرتديه جميع الباحثين عن الدفء والعدل والحرية، على الشاعر طبعاً أن يعبر عن قضايا الناس، وأن يكون صوت من لا صوت لهم، وإذا لم يعبّر الشاعر عن هموم الناس وأفراحهم وأحزانهم، فهل يعبّر عن هموم الملائكة؟ ومنذ الخمسينات بدأ الشعر السياسي يلوح في قصائدي فكانت" خبز وحيشيش وقمر "ثم" قصة راشيل شوار زينبرغ"، لقد كانت "لندن" محطة شعرية حاسمة في تاريخ الشعري، وأضرمت بي عشرات الحدائق الداخلية، ومنذ تلك الأيام بدأت أحب اللون الرمادي وأسئلة العيون الرمادية. وكانت السنوات الست من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٢ من أخصب سنوات إنتاجي الشعري وأكثرها تنوعاً، فقد نشرت ستة دواوين، ثم توقفت سنوات ستاً أخرى، وذلك لأن توقيت الشعر مثل توقيت الزلازل ... عمل مستحيل، في سنوات الخصب كانت حياتي في بيروت شعراً خالصاً، أتمشى على كورنيش البحر فيكون الشعر رفيقي، وأشرب قهوة الصباح فتختلط رائحة البن برائحة الشعر.

سألني أحدهم يوماً: من أنت؟ فقلت: أنا شاعر بسيط، يخاطب جيشاً من البسطاء، إن طفولتي الدائمة هي التي فتحت أبواب الوطن العربي أمام قصائدي، لأن العرب يحبون البراءة ويحبون الصدق، أما الشعراء الذين يكتبون بلا أصابع ولا لغة، ولا إحساس بقضايا الناس ... فقد ظلوا خارج الأبواب...

وماذا عن قضايا الأمة، وما تواجهه في هذا المنعطف الحاسم من تاريخها؟

الأحرار يدفعون دائماً ثمن حريتهم، والموهوبون يدفعون ثمن موهبتهم، والوطن العربي ما يزال يدفع ثمن جماله وذكائه وحضارته ... والمعركة اليوم دائرة بين شيلوك المرابي اليهودي، وبين العبقرية العربية الخلاقة، يريد "بيريز بيميز" أن يكون سمسار الشرق الأوسط بعد فرض السلام المزيف، وأن يكون صاحب السوبر ماركت الوحيد الذي يحتكر عمليات التسويق، ولكن العنفوان العربي يقف شوكة في حلق المرابي "شيلوك"، ولذا كان لابد من ضرب الوطن العربي وتهديم أركانه، وهذا ما يفعله الحلف الأمريكي - الصهيوني غير المقدس ولكنهم لن يفلحوا، ولن يفرضوا استسلاماً على الأمة ... وسيبقى الوطن العربي قنبلة موقوتة سوف تنفجر بعد زمن طال أو قصر ... لا أعرف متى، لأن انفجارات التاريخ لا توقيت لها.

... ساعة وبعضها، ثم همّ الشاعر بالخروج من بيته الدمشقي، وعند الباب الخشبي الأنيق سأل "نزار" صبية وقفت تتأمله بانبهار، إذا كانت تعرفه، فاحمر وجهها خجلاً وقالت:

أنا لا أعرفك، ولكن أمي تضع مجموعاتك الشعرية إلى جوار سريرها ... وعدتُ أنا إلى نفسي بعد سرحة طويلة طويلة..

صهيل جميل على الورق

- وظيفة الشعر الأولى أن يزيد مساحة اللون الأخضر في هذا العالم، وينقص مساحة التصحر وظيفته أن يجمل الحياة، ويمزق خارطة القبح، وظيفته أن يزرع فداناً واحداً من الحب، لقاء مئة فدان من الكراهية، وظيفته أن يكون من حزب الإنسان، فلا يمكن للشاعر أن يقف في المنطقة الوسطى بين الأبيض والأسود، بين الحرية وبين المعتقل، بين البحر وبين الزنزانة، بين حبل المشنقة وبين عنق المشنوق، بين الله وبين الشيطان.
- لا قواسم مشتركة في الشعر، ولا مناطق منزوعة السلاح، ولا اتفاقيات هدنة.الشعر هو صهيل جميل على الورق، ومتى توقف الشاعر عن صهيله، تحول إلى حصان من خشب في مدينة الملاهي!!.
- لا يمكن للشاعر الكبير أن يكتب في أحضان السلطة، لأن الشعر بحد ذاته سلطة، ولا يمكن للقصيدة أن تشتغل وصيفة، أو عارضة أزياء، أو مضيفة، أو (جيشاً) يابانية، تمارس عمليات التدليك لسيد القصر، فالقصيدة تكون السيدة الأولى، أو لا تكون.
- الشعر جبهة مقاومة، لا جبهة موالاة، وعلى الشاعر أن يعرف منذ أن يدخل (برلمان الشعر) أنهم سيضعون تحت كرسيه المتفجرات، ويقطعون أسلاك الميكروفونات، ويضعون في صندوق سيارته المخدرات، ويخترعون له ألف فضيحة مالية أو جنسية أو أخلاقية حتى يتم تدجينه، هذا ليس جديداً على السلطة وعلى الشعر، فالعلاقة بينهما على مدى التاريخ كانت علاقة سيئة وعدوانية، كالعلاقة بين القط والفأر.
- الشاعر لا يعرف شيئاً عن جنس المولود الذي بداخله، هل هو ذكر أم أنثى؟ فهو مثل السلك الذي ينقل الكهرباء، دون أن يعرف شيئاً عن طبيعة الكهرباء ومثل المرأة التي يقال لها: أنت حامل، فتسأل طبيبها: (أنى يكون لي غلام، ولم

يمسسني بشر، ولم أك بغياً....) وإن كان الشاعر يشبه الزوج المخدوع، الذي لا يعرف شيئاً عن علاقات زوجته – القصيدة التي تجري من وراء ظهره، وعن موعد خروجها من البيت وموعد عودتها، وعن الرسائل الغرامية التي تخفيها تحت ثيابها، فلماذا نطلب من الشاعر أن يقدم لنا تقريراً مفصلاً عن فن الزواج، وأسرار السعادة الزوجية؟؟

والحقيقة أن الزواج من قصيدة، هو مهمة انتحارية، والشاعر الذي يقول إنه صاحب السيادة المطلقة على قصيدته، وأن العصمة الزوجية هي بيده، هو شاعر يخاف أن يقول الحقيقة. فالعصمة الشعرية هي بيد القصيدة دائماً، وهي التي تستطيع أن تتعايش معنا في منزل واحد، أو ترسل إلينا ورقة الطلاق !!

- ثمة فوضى كثيرة حول الحداثة، حتى صارت الضوضاء أقوى من الحداثة فأي حداثة نريد ؟ إذا كانت الحداثة تعني أن أعيد النظر في الخطاب الشعري الموروث، وأن أغير الديكورات الداخلية للقصيدة العربية، وأجدد أثاثها القديم، وأصبغ جدرانها، وأشتري لها ثلاجة جديدة .. وغسالة جديدة، وتلفزيوناً ملوناً فعلى العين والرأس. نحن لا نريد من القصيدة العربية أن تبقى جالسة في خيمتها خمسة عشر قرناً آخر، وإلا أصابها الديسك، لكنني من جهة أخرى، لا أريد حداثة تقطع حبل المشيمة بيني وبين تاريخي وتحولني إلى صعلوك يجمع أعقاب سجائر المثقفين الأوروبيين ويعيد تدخينها، عندما أريد أن أدخن، فإنني أفضل أن ألف سيجارتي بيدي، وعندما أريد أن أسكر، فإنني أفضل أن أعصر نبيذي، وعندما أريد أن اعشق، فإن نساء بلادي أجمل.
- هل نحن بحاجة إلى شعر في العالم الثالث؟ أم نحن بحاجة إلى تكنولوجيا؟... هل الشعر هو فضيلتنا أم هو نقيصتنا؟ هل هو شرفنا أم فضيحتنا؟ وبالتالي هل علينا أن نبيع كتب الشعر لنشتري آلة حاسبة يابانية؟.

هناك أشياء تتعلق بقلب الإنسان لا يمكن المقايضة عليها ... أو إدخالها في عمليات الاستيراد والتصدير...

إن مصر لا تستطيع أن تبيع أهراماتها لقاء شحنة من القمح الأمريكي، ودمشق لا تستطيع أن تبيع قبر صلاح الدين الأيوبي، لقاء بناء سد على نــــهر الفرات، والعراق لا يستطيع أن يبيع برج بابل وحضارة ما بين النهــرين، لقـــاء بنــــاء مصنع للبيبسي كولا.....

إن الحضارات لا تباع أبداً لقاء قرض من البنك الدولي....

والشعر العربي ليس أبداً معروضاً للبيع، لأن روح الأمم غير قابلة للبيع....

غرناطة

من ديوان الرسم بالكلمات

في مدخل (الحمراء) كان لقاؤنا... | ما أطيب اللقيا بلا ميعاد
عينان سوداوان.. في حجريهما | تتوالد الأبعاد من أبعاد...
هل أنت إسبانية.. ساءلتها | قالتْ: (وفي غرناطة ميلادي)
غرناطة! وصحت قرون سبعة | في تينك العينين... بعد رقاد
وأمية.. راياتها مرفوعة | وجيادها موصولة بجياد
ما أغرب التاريخ... كيف أعادني | لحفيدة سمراء... من أحفادي
وجه دمشقي... رأيت خلاله | أجفان بلقيس.. وجيد سعاد
ورأيت منزلنا القديم.. وحجرة | كانت بها أمي تمد وسادي
والياسمينة رصعت بنجومها | والبركة الذهبية الإنشاد...
(ودمشق.. أين تكون؟) قلت: ترينها | في شعرك المنساب نهر سواد
في وجهك العربي في الثغر الذي | مازال مختزناً شموس بلادي
في طيب (جنات العريف) ومائها | في الفل، في الريحان، في الكبّاد
سارت معي... والشعر يلهث خلفها | كسنابل تُركت بغير حصاد...
يتألق القرط الطويل بجيدها | مثل الشموع بليلة الميلاد..
ومشيت مثل الطفل خلف دليلتي | وورائي التاريخ.. كوم رماد..
الزخرفات أكاد أسمع نبضها | والزركشات على السقوف تنادي

قالت: هنا الحمراء... زهو جدودنا فاقرأ على جدرانها أمجادي
أمجادها ؟ ومسحت جرحاً نازفاً ومسحت جرحاً ثانياً بفؤادي
يا ليت وارثتي الجميلة أدركت أن الذين عنتهمو أجدادي..
عانقت فيها عندما ودعتها رجلاً يسمى (طارق بن زياد)..

لا أمسح الغبار عن أحذية القياصرة

- **إذا أردت أن تعرفنا بنفسك فماذا تقول؟**

أنا شاعر حب جوال..
تعرفه كل الشرفات..
تعرفه كل الحلوات..
عندي للحب تعابير..
ما مرت في بال دواة

(من ديوان حبيبتي)

- **وماالذي قاله توفيق الحكيم عنك؟**

قال: "إنني شاعر نسائي دخلت مقاصير النساء ولم أخرج" ولكنني كتبت قصيدة قلت فيها:

ويقول عني الأغبياء
إني دخلت مقاصير النساء وما خرجت.
ويطالبون بنصب مشنقتي
لأني عن شؤون حبيبتي..
شعراً كتبت
أنا لم أتاجر مثل غيري بالحشيش
ولا سرقت ولا قتلت
لكنني أحببت في وضح النهار
فهل تراني قد كفرت؟...

- **ولكنك واجهت الكثير من النقد فلماذا هذا الهجوم ضدك؟**

لأنني لا أمسح الغبار عن أحذية القياصرة

لأنني أقاوم الطعون في مدينتي المحاصرة
لأن شعري كله..
حرب على المغول .. والتتار .. والبرابرة
يشتمني الأقزام والسماسرة

- **ولمن تكتب الشعر؟**

أنا أكتب الشعر للشعر
لا للوصول إلى جنة المعجبات
ولا أخلط الشعر بالعشق
ولست أساوم يوماً على مقتنياتي
فأقدس مقتنياتي هي الكلمات

- **وما هي صفات المرأة التي يكتب لها نزار قباني شعره؟**

لا بد من ثلاثة شروط: أولاً أن تكون تشبهني وثانيها أن تكون أمي وثالثها أن يكون شعري وفني جزءاً من عمرها كما هو جزء من عمري

- **وماذا تقول لشعراء الأرض المحتلة الآن؟**

شعراء الأرض المحتلة..
يا من أوراق دفاتركم
بالدمع مغمسة .. والطين..
يا من نبرات حناجركم
تشبه حشرجة المشنوقين
يا من ألوان محابركم

تبدو كرقاب المذبوحين..
نتعلم منكم منذ سنين
نحن الشعراء المهزومين..
نحن الغرباء عن التاريخ وعن أحزان المحزونين..
نتعلم منكم
كيف الحزن يكون له شكل السكين..

- **هل أنت إرهابي؟**

متهمون نحن بالإرهاب
إن نحن دافعنا عن الوردة .. والمرأة
والقصيدة العصماء
وزرقة السماء
عن وطن لم يبق في أرجائه
ماء .. ولا هواء
لم تبق فيه خيمة أو ناقة
أو قهوة سوداء
متهمون نحن بالإرهاب

- **وما هو حلمك القومي؟**

مازلت برغم صراع الأخوة .. أخترع الأحلام
وأقول بإذن الله سيجمع يوماً .. ما بين الأرحام
جسدي يشتاق إلى بغداد .. وقلبي عند نساء الشام

- **وماذا عن حلمك الشخصي؟**

أنا الذي أعطي مراسيم الهوى
للواقفات أمام باب مزاري
وأنا أرتب دولتي .. وخرائطي
وأنا الذي أقرر من سيدخل جنتي..
وأنا الذي أقرر من سيدخل ناري

- **لو أردت أن تقول شيئاً إلى امرأة تمردت عليك فماذا تقول؟**

لماذا كسرت الإناء؟
وأصبحت ضد الكتابة .. ضد الثقافة
ضد الأنوثة .. ضد الطفولة .. ضد النقاء
لماذا خلعت القصيدة عنك
أنا من جعلتك بالشعر ست النساء....
لماذا كفرت بآلاء شعري عليك؟...
ألا تعرفين بأني اخترعت بياض يديك
وأني اشتغلت نهاراً .. وليال وليلاً
لأرسم بالفحم .. غمازتيك، فكيف كسرت المرايا؟
وحطّمت ما صنعت يدايا
وكيف تكونين في مثل هذا الغباء؟

- **ومن أنت حتى تقول لها مثل هذا الكلام؟**

لا تسأليني من أنا .. وما الذي أفعله
كي أتحدى الموت والزمان
أنا الذي أسقطت ألف دولة .. ودولة

لكي أقيم دولة الإنسان

- **الآن في الوطن العربي قضية حرية الصحافة. فما رأيك فيها؟**

الكاتب في وطني يتكلم كل لغات العالم.

إلا العربية

فلدينا لغة مرعبة..

قد سدوا فيها كل ثقوب الحرية.

- **وبماذا تنصح الصحفيين والكتاب في الأمة العربية؟**

ادخل إلى المدرسة. تعلم الأمية

اكتب بلا أصابع .. وكن بلا قضية

امسح حذاء الدولة العليا

اشطب من القاموس كلمة الحرية

لا تتحدث عن شؤون الفقر والثورة في الشوارع الخلفية..

لا تنتقد أجهزة القمع.

ولا تضع أنفك في المسائل القومية

كن غامضاً في كل ما تكتب

والزم مبدأ التقية

خصّص عمودك اليومي للأزياء والأزهار والفضائح الجنسية

- **وفي الاعتراف .. ماذا تقول؟**

تورطت في الحب خمسين عاما

ولا زلت أجهل ماذا يدور برأس النساء

وكيف يفكرّن .. كيف يخططّن

كيف يرتّبن أشياءهن

قرأت كتابة الأنوثة
حرفاً فحرفا
ولم أتعلم إلى الآن
شيئاً من الأبـجدية

- **متى تتوب عن الحب؟ فقال:**

لا إجابة عندي لمثل هذه الأسئلة المستحيلة سأجيبكم بعد موتي.

ورحل نزار قباني بعيداً في نهاية نيسان ١٩٩٨.

من نزار قباني إلى جمال عبد الناصر

زمانك بستان، وعصرك أخضر   وذكراك عصفور من القلب ينقر
ملأنا لك الأقداح... يا من بحبه   سكرنا كما الصوفي بالله يسكر
دخلت على تاريخنا ذات ليلة   فرائحة التاريخ مسك وعنبر
وكنت... فكانت في الحقول سنابل   وكانت عصافير.. وكان صنوبر
لمست أمانينا، فصارت جداولا   وأمطرتنا حباً، ولا زلت تمطر..
تأخرت.. عن وعد الهوى، يا حبيبنا   وما كنت عن وعد الهوى تتأخر...
سهدنا، وفكرنا، وشاخت دموعنا   وشابت ليالينا، وما كنت تحضر
تعاودني ذكراك كل عشية   ويورق فكري حين فيك أفكر
وتأبى جراحي أن تضم شفاهها   كأن جراح الحب لا تتخثر
أحبك، لا تفسير عندي لصبوتي   أفسر ماذا ؟ والهوى لا يفسّر
تأخرت يا أغلى الرجال، فليلنا   طويل، وأضواء القناديل تسهر
تأخرت.. فالساعات تأكل نفسها   وأيامنا في بعضها تتعثر....
أتسأل عن أعمارنا؟ أنت عمرنا   وأنت لنا المهدي، أنت المحرر
وأنت أبو الثورات، أنت وقودها   وأنت انبعاث الأرض أنت التغير
تضيق قبور الميتين بمن بها.....   وفي كل يوم، أنت في القبر تكبر.
تأخرت عنا. فالجياد حزينة   وسيفك من أشواقه، كاد يكفر
حصانك في سيناء، يشرب دمعه   ويا لعذاب الخيل إذ تتذكر
رواياتك الخضراء تمضغ دربها   وفوقك آلاف الأكاليل تضفر
تأخرت عنا... فالمسيح معذب   هناك. وجرح المجدلية أحمر
نساء فلسطين تكحّلن بالأسى   وفي بيت لحم، قاصرات وقصر

وليمون يافا يابس في حقوله ... وهل شجر في قبضة الظلم يزهر
رفيق صلاح الدين .. هل لك عودة ... فإن جيوش الروم تنهى وتأمر
رفاقك في الأغوار، شدوا سروجهم ... وجندك في حطين صلّوا.. وكبروا..
تغنى بك الدنيا.. كأنك طارق ... على بركات الله .. يرسو، ويبحر
تناديك من شوق مآذن مكة ... وتبكيك بدر، يا حبيبي، وخيبر
ويبكيك صفصاف الشآم وورده ... ويبكيك زهر الغوطتين، ودمر
تعال إلينا... فالمروءات أطرقت ... وموطن آبائي.. زجاج مكسَّر
هزمنا.. ومازلنا شتات قبائل ... تعيش على الحقد الدفين وتثأر
يحاصرنا كالموت..ألف خليفة ... ففي الشرق هولاكو.. وفي الغرب قيصر
أبا خالد... أشكو إليك مواجعي ... ومثلي له عذر، ومثلك يعذر
أنا شجر الأحزان، أنزف دائماً ... وفي الثلج، والأنواء، أعطي وأثمر
يثير حزيران جنوني ونقمتي ... فأغتال أوثاني... وأبكي.. واكفر
واذبح أهل الكهف، فوق فراشهم ... جميعاً.. ومن بوابة الموت أعبر
وأترك خلفي... ناقتي وعباءتي ... وأمشي.. أنا في رقبة الشمس خنجر
واصرخ: يا أرض الخرافات، احبلي ... لعل مسيحا ثانيا..سوف يظهر



الدكتور عفيف البهنسي:

الفن إبداع ... والإبداع ثورة...

أكد الدكتور عفيف بهنسي في أغلب مؤلفاته أن هناك علم جمال عربياً ذا مواصفات معينة.. فما هي تلك المواصفات؟

عندما قدم أفلاطون مبادئ فلسفة الفن كان يتحدث عن الفن الإغريقي، ذلك الفن القائم على قانون جمالي محدد تركز في أنظمة معمارية ثابتة هي النظام الدوري والنظام الإيواني والنظام الكورنثي، وكان النحت يعتمد على نسب جمالية محددة ١/٧، ١/٨، ١/٩، وكان النموذج الجمالي الأمثل مأخوذاً من النموذج الهرقلي، حتى الآلهة كانت ذات جمال أولمبي وامتدت قواعد الجمال الأفلاطوني حتى وصلت إلى كمالها عند "بومجارتن"، وكان كأسلافه يعتمد على الجمال الفني.

أما الجمال في المفهوم العربي، فإنه لا يقوم على مقاييس الجمال الإنساني الرياضي، بل على مقاييس مطلقة تبدت في الخروج عن الطبيعة وعدم الخضوع للواقع المادي، فكان الفن العربي، الروحاني النزعة المتحرر من تأثير الواقع، ولقد فسر علماء الجمال سابقاً هذا الفن على أنه بدئي، لأنه لم يصل إلى الكمال الرياضي، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام فنون حديثة خرجت كلياً عن القاعدة والقانون، فعادوا لتمجيد الفن العربي الإسلامي، كما مجدوا الفن الإغريقي والفن الإقيانوسي والفن الصيني، وتبين لهم أن وراء كل فن فلسفة متميزة، هكذا رأينا منذ البدء أن الخلفية الفلسفية للفن العربي متميزة عن غيرها من الخلفيات، وإنه بقراءة متعمقة للتراث الفني الإسلامي والعربي نستطيع أن نستقرئ مبادئ هذه الفلسفة، إذ أن عدم محاكاة الواقع لم تكن نتيجة المنع، كذلك لم يكن تحريض الواقع مجرد خشية الوقوع في شبهة مضاهاة الخالق في مقدرته على الخلق، بل إن الفن التشبيهي سواء كان ترقيناً (تصويراً إيضاحياً) في مخطوط، أو كان منمنمة فارسية تزين ملحمة أو ديواناً، قد نشأ عن فكر

إبداعي يرفض التبعية ويسعى نحو الرؤية الذاتية المتفردة القائمة على حذف العناصر الهامشية، وتقديم الصورة بعيداً عن المحسنات البديعية والبلاغة المصطنعة والقاعدية التي تفرض نفسها على الفنان.

إن فلسفة الجمال العربي هي فلسفة روحانية وليست رياضية، إنها تقوم على مقاييس مطلقة وليست نسبية، وتسعى للتعبير عن المثل والتقرب منه سواء في العمارة أو التشكيل، والفن العربي فن الحياة، ففي كل الأشياء والأزياء فن، فليس من تفريق بين ما يسمى الفن الرفيع – والفن الوضيع – وهو فن الأدوات والأشياء، ولذلك فإن السجادة والمصباح والسيف والمنمنمة هي فنون إبداعية رفيعة المقام، ولم تكن وضيعة لمجرد كونها استعمالية، ثم إن العمل الفني وكذلك التذوق يقوم على الحدس وليس على الإدراك العقلي كما قال "ليوناردو دافنشي".

- **لقد كان هدفك من البحث عن جمالية الفن العربي الإسلامي وعن شخصية مستقلة للإبداع العربي، إيضاح ملامح فلسفية متميزة تساعد على التأصيل فما هو المقصود بالتأصيل؟**

إن سعينا المستمر، منذ نصف قرن لتوضيح معالم الفكر الجمالي العربي يهدف إلى وضع الأسس التي يمكن أن يقوم عليها الفن العربي اليوم، إن فننا الحديث كان وليد التيارات الغربية، وما زال تابعاً لها، ونحن نبحث عن فن يتمم مسيرة الحركة الفنية العريقة، فن متصل غير مبتور، فن أصيل وليس فناً دخيلاً هجيناً، ومن أجل ذلك، كان لا بد من توضيح ملامح شخصية الفن العربي، وذلك عن طريق تقديم التراث المعماري والتصويري وتحليله، وعن طريق تحديد مصطلحاته العربية وتخليصها من العجمة والرطانة، ثم عن طريق توضيح أبعاد الجمالية العربية من خلال آراء المفكرين القدماء، وخاصة أبا حيان التوحيدي.

- **ما العلاقة بين الإبداع والثورة والفن، وبرأيك هل الفن الحديث هو ثورة؟**

الفن هو إبداع، وهذا يعني أن الفنان يقدم شيئاً جديداً يختلف عن الأشياء المألوفة، وفي كل عمل يحدد الفنان موقفه من الواقع، والمتذوق يبحث عن الطريف ويبحث عن المدهش. هذا التغيير هو ثورة مستمرة عن الواقع المألوف، فالإبداع هو بحد ذاته ثورة، وهذا العصر ثوري لأنه يقوم على المغامرة الإبداعية والتحول من موقع إلى موقع مضاد، إنه في دوامة ديالكتيكية بالمعنى الهيغلي، فهو ثورة ولا شك، إن جميع تيارات الفن كانت نتيجة جدل بين الذات والموضوع، بين التاريخ والطبيعة، بين السكون والحركة، ومحصلة هذا الجدل كانت قطباً جدلياً يفرز محصلة أخرى، هكذا هو مسار الجدلية الثورية.

- **أنت تصر على أن تحديد حضارة أمة ما يبدأ من تحديد خصائص العمارة، فما هي خصائص العمارة العربية؟**

إن العمارة وعاء حضاري وهي شكل الحضارة المرئي والمشخص، وهوية مجتمع ما أو مدينة ما، تتوضح أولاً من خلال شكل العمارة، فالمدينة القديمة التي تدخر عبق التاريخ ما زالت رغم هرمها وفقرها المادي أغلى وأصدق تعبيراً عن الشخصية الحضارية لساكنيها، ولذلك فإن دعوتنا لحماية المدن القديمة، هي دعوة لحماية هذه الشخصية الحضارية المشخصة، وتجتاح الهجانة طابع المدينة الحديثة، حتى إننا لم نعد نفرق بينها وبين أية مدينة حديثة أمريكية أو استرالية، ونبحث وراء المشهد الحضري لمدينتنا الحديثة عن شخصيتنا القومية فلا نراها أبداً، هكذا نعيش غربة في مدننا، إن مشهد المدينة الحديثة التي انبثقت منها العمارات السحابية إلى جانب العمارات القزمية دون تنسيق، وامتدت فيها الحدائق بفراغات تخطيطية غير متوازنة مع كثافة العمارة في مركز المدينة وضواحيها، هذا المشهد لا يعبر عن مدينتنا وعن هويتنا، إن مشهد مدينة فاس أو القيروان أو حلب، بالبيوت المتداخلة التي تكون نسيجاً ملتحماً في مستوى واحد هو أخفض من مستوى المآذن التي تهيمن وحدها

على مشهد المدينة، هذه المدينة الهادئة المتلاحمة هي المدينة العربية التي يعيش فيها الناس بالتحام وتواضع وراحة وأمن قابعين في فردوسهم الداخلي، حيث أفنية الدور المضمخة بروائح الياسمين والنارنج، وحيث خرير المياه يلحن هذا السكون الوجدي الخاشع إلى المطلق والحق.

- **ما هو دور العرب في تقدم فن العمارة؟**

في مؤلفاتي الجامعية (الفن عبر التاريخ، اتجاهات الفنون المعاصرة، الفن والعمارة في العالم)، تحدثت عن جميع مراحل الفن والعمارة في العالم، بما يفيد الدارس ويساعده للرجوع إلى مصدر عربي موسع عن تاريخ الفن والعمارة، وكان عليّ أن أكون موضوعياً، فقدمت منهاجاً معرفياً أكاديمياً، وخارج نطاق الجامعة توسعت في موضوعين كان اهتمامي بهما بالغاً، حتى إنني قدمت بهما رسالتين جامعيتين أتبعتهما بكتب متعددة. الموضوع الأول هو (أثر العرب في الفن الحديث) وهذا يعني أنني جعلت المناخ الجمالي العربي مصدراً أساسيا من مصادر الفن الحديث في العالم. والموضوع الثاني هو (فلسفة العمارة والفن)، فلقد تبين لي أن وراء هذه الإبداعات العربية والإسلامية، يكمن فكر جمالي لابد من إيضاحه، ولأنني شديد الإعجاب باتجاهات الفن الحديث التي استمدت مواضيعها وأساليبها من الشرق، قدمت كتابي "أثر العرب في الفن الحديث" ثم كتابي " الاستشراق والفن " ولأنني شديد الاهتمام بالفلسفة الجمالية العربية، أفردت لها عدداً من مؤلفاتي، مثل "جمالية الخط العربي" و "العمارة العربية، الجمالية، الوحدة والتنوع" و"مصور الزخرفة العربية" و"جمالية الفن العربي".

- **كيف نعود إلى التراث بعد غيبة الفن العربي الإسلامي طويلاً عن ساحة الاهتمام العالمي؟**

لا أعتقد أن الفن العربي الإسلامي غاب عن الساحة العالمية، فمعارض هذا الفن

الإسلامي التي أقيمت في عواصم العالم، وروائعه التي ما زالت أغلى ما اقتنته المتاحف العالمية. ويجب أن أقول إن تدريس هذا الفن في باريس أوفي شيكاغو أو في كامبردج وهارفرد وإكسفورد، تأريخاً وفلسفة، هو أوسع وأقوى من أية دراسة تتم في أية جامعة عربية أو إسلامية. وإن المؤلفات والمراجع التي كتبها المؤرخون والفلاسفة والنقاد عن الفن العربي والإسلامي باللغات العالمية، ما زالت وحدها هي المرجع لكل باحث وإن عددها باللغة العربية ضئيل جداً، وفي البداية لم نقرأ الترجمات لهذه المراجع الأجنبية، مما دفعني إلى تأليف كتب تراثية في "الفن الإسلامي" و "العمارة العربية". وإذا أردنا اليوم أن نبحث عن التراث فإن ذلك يكون لردم القطيعة التي تمت بين الفن الحديث وبين الفن العربي الأصيل الذي آمن بأهميته جميع الباحثين في العالم، إن يوماً نعيشه، ويزدهر في الحاضر وليس في المستقبل، نرى فيه الفن التشكيلي العربي في مكان مرموق، ونراه يخوض غمار الحركات الفنية العالمية، وإذا تمسك هذا التيار المعاصر بهويته العربية فإنه يستطيع أن يحتل مكاناً عالمياً وتقديراً، ونحن نلمس هذا في دراسات كثيرة لكتّاب الغرب.

- **ما دور الفن في التعبير عن الأحداث التاريخية التي تمر بها أمتنا العربية؟**

ليست مهمة الفن صحفية وليست تأريخية، ولكني أعتقد أنه من سمات الأصالة "الانتماء" الانتماء للتاريخ، للأحداث، للأمة، والفن غير المنتمي للتاريخ، للأحداث، للأمة، والفن غير المنتمي هو فن معلق في الهواء تذروه الرياح، إن عدم الانتماء والحياد والهامشية هي آفة تيارات الفن الحديث في العالم، وفي جزء من اتجاهات الفن في البلاد العربية، ولقد تحدثت في ذلك مطولاً في كتابي "الفن الحديث في البلاد العربية" الذي صدر عن منظمة اليونسكو في باريس. ويجب أن نميز بين الانتماء للتاريخ بآناته الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل، وبين الانتماء للماضي فقط. إن الإنسان كائن تاريخي وليس كائناً سلفياً غير موجود في الحاضر والمستقبل، ولذل فإن الدعوة السلفية، هي دعوة فاسدة، إذ أنها تلغي الحضور الزمني للإنسان، وتلغي

الوحدة العضوية للتاريخ. والانتماء للتراث لا يعني الانتماء للماضي، والذين يقولون هذا القول يفسدون معنى التراث. التراث هو تراكم العطاء الإنساني عبر التاريخ، وما أنجز اليوم في الحاضر هو تراث الغد والمستقبل، وهكذا فإن الانتماء للتراث هو انتماء للتراث القومي عبر التاريخ بجميع آناته.

- **أي المدارس الفنية الحديثة أنت من أنصارها وإلى أي مدرسة تنتسب كفنان وناقد؟**

من الصعب على مؤرخ الفن أن يفضل عصراً على عصر أو أسلوباً على أسلوب، ولكنني كمصور ونحات فإنني أنتمي للمدرسة التعبيرية التي تحاول الدخول إلى أعماق الذات الإنسانية، والتي تسقط على الأشياء الجامدة المعاني والهموم والمطامح الإنسانية، ومثلي الأعلى في عملي الفني هو الفنان "فانسنت فان غوخ" الهولندي الذي أصدرت له كتاباً منذ نعومة أظفاري، وها هو اليوم يقدم للعالم بأغلى سعر عرفه تاريخ أسعار اللوحات الزيتية. هكذا أقول إن الفن لغة إنسانية وأنا أحاول أن أتحدث بهذه اللغة في أعمالي الفنية النحتية والتصويرية، وأنفق عمري في الكتابة عن هذه اللغة الإنسانية التي تعبر عن أرقى مراحل حضارة الإنسان.

ستون كتاباً في الفن والتراث والحضارة العربية

- **نهضة الأمة العربية تبدأ بالثقافة مع التمسك بالهوية القومية والتراثية.**
- **الهَجَانة شوهت مدننا العربية، وأفقدتنا شخصيتنا القومية.**
- **ليكن هدفَ إحياءِ تراثنا ردمَ القطيعة بين الأصالة والحداثة.**
- **التنقيبات الأثرية في القدس، قوّضت أسطورة الوجود الصهيوني في فلسطين.**
- **عَرْضُ تراثنا العريق بأسلوب علمي، هو السبيل لتحقيق الحوار والتواصل مع الآخرين.**

يبرز اسمه في مقدمة الكوكبة اللامعة التي جنّدت فكرها وعملها البحثي الدائب للكشف عن كنوز التراث العربي الإسلامي، والتصدي لحملات التشويه والحط من الدور الحضاري الهام للأمة العربية، أثرى الدكتور "عفيف البهنسي" المكتبة العربية بما يزيد عن ستين مؤلفاً ومرجعاً بحثياً، لإضاءة وجوه الحضارة الإسلامية، وقدَّم الدراسات الموثقة للدفاع عن الهوية القومية، فكان جديراً بما يحاط به تكريم وتقدير على المستويين العربي والدولي.

استغرقت رحلة الدكتور البهنسي في محراب الفكر قرابة نصف قرن من الزمن، توقف فيها عند محطات عديدة، وحين يعود بنا إلى أولى تلك المحطات. نتعرف إلى بدايات المرحلة:

ولدت بأحد أحياء "الصالحية" بدمشق، وهي منطقة شعبية عريقة، وفيها تلقيت تعليمي الابتدائي والثانوي وتابعت دراستي الجامعية بكلية الحقوق رغم أن ميولي كانت دوماً الكتابة والرسم والموسيقا، وبعد تخرجي سافرت إلى باريس، وانتسبت إلى مدرسة "اللوفر" وهي مدرسة خاصة بتاريخ الفنون، وهناك تعرفت إلى مجموعة من الأساتذة المتخصصين، وبدأت أول خطوة في طريق تاريخ الفن والعمارة، وقد بهرتني أعمال عمالقة الانطباعيين، كما استحوذت على فكري شواهد التراث

الإسلامي... ففي معهد الفنون والآثار بشارع "ميشيليه" في باريس، حيث تابعت دراستي، عثرت على أرقى مؤلفات المستشرقين حول الفن الإسلامي، من عمارة ونقش وزخرفة وخط، وهو ما دفعني للتعمق أكثر في أسرار الفن، وبعد نيلي شهادة دكتوراه الدولة في فلسفة الفن الإسلامي، وعودتي للوطن، تنقلت بين عدد من المراكز الإدارية التي ساعدتني في أداء رسالتي الفنية، سواء حين كنت مديراً للفنون الجميلة، أو مؤسساً لكلية الفنون الجميلة، أو مديراً عاماً للآثار والمتاحف، وقد ساعدني ذلك إلى نقل أفكاري إلى حيز الواقع، كذلك عكفت على التأليف، فنشرت مجموعة من المؤلفات نافت على ٦٠ كتاباً مرجعياً طبعت في عدد من العواصم العربية، وترجمت إلى الإنكليزية والفرنسية، دارت حول ما أطلقت عليه اسم "الجمالية" كتعبير عن فلسفة الفن، مثل كتابي: "جمالية الفن الإسلامي" في سلسلة "عالم المعرفة" الذي أصبح مرجعاً للباحثين في مجالات الفن العربي الإسلامي، ويبدأ حواري مع الدكتور عفيف بهنسي.

النهضة تبدأ بالثقافة:

- **خلال مسيرتك الحافلة ما هو الهدف الذي سعيت لتحقيقه، وقدر لك أن تنجزه فعلاً؟**

كان نصب عيني دوماً سؤال: من نحن؟ وإلى أي مدى نريد أن نحقق أهدافاً كبيرة فيما يتعلق بنهضتنا؟ وكنت أعلم بأن النهضة لا تتجلى في ميدان السياسة فقط، بل تبدأ بالثقافة مع التمسك بالهوية... الهوية القومية، والهوية التراثية، والخطوة الأولى في هذا المجال: العودة إلى الكنوز التي تركها الأجداد، وكان أن عشت خلال عملي مديراً للآثار والمتاحف لمدة زادت عن عشرين عاماً، ذلك الهاجس، ورافقت كل المكتشفات التي أسفرت عنها الحفريات في مناطق عديدة من سوريا، وأذكر أني أشرفت على نقل معرض ضخم بلغ التأمين عليه ١٠٠ مليون دولار، من اليابان إلى أمريكا عبر أوربا، وطاف في سبع وثلاثين مدينة كبيرة

خلال عشر سنوات، تحت عنوان "الفن والآثار في سوريا خلال عشرة آلاف عـــام"، وقدّم المعرض نماذج مشرّقة للحارة العريقة التي كانت مناطق عدة في سوريا مهـــداً لها، وحث الجمهور الحاشد على السؤال: من هي سوريا، التي تقدم هذا الفن الجميل الناضج خلال عشرة آلاف عام ... أي في الوقت الذي لم تكـــن فيـــه أوربـــا، ولا الغرب كله ... معروفين...؟

الفن العربي روحاني النزعة، ويعبر عن المثل:

- **تؤكد في دراساتك أن هناك علم جمال عربياً، بمواصفات محددة...فما هي تلك المواصفات؟**

الجمال في مفهومه العربي لا يقوم على مقاييس الجمال الإنـــساني الرياضـــي (الإغريقي) كما حدده "أفلاطون" في "فلسفة الفن"... بل على مقاييس مطلقة، تتجلـــى في الخروج عن الطبيعة، وعدم الخضوع للواقع المادي، ويرى علمـــاء الجمـــال أن الفن العربي الروحاني النزعة، المتحرر من تأثير الواقع، هو فن حديث خرج عـــن القاعدة والقانون، إن الفن العربي بكل صوره سواء أكان نمنمـــة تـــزّين ملحمـــة أو ديواناً، أو تصويراً إيضاحياً، نشأ عن فكر إبداعي يرفض التبعيـــة، ويـــسعى نحـــو الرؤية الذاتية المنفردة القائمة على حذف العناصر الهامشية، وتقديم الصورة بعيـــداً عن المحسنات البديعية والبلاغة المصطنعة والقواعد التي تفرض نفسها على الفنان.

إن فلسفة الجمال العربي هي فلسفة روحانية وليست رياضـــية، وتقـــوم علـــى مقاييس مطلقة وليست نسبية، وتسعى للتعبير عـــن المُثُـــل، ســـواء فـــي التـــشكيل والعمارة، والفن العربي بعد هذا هو فن الحيـــاة ... فـــي كـــل الأشـــياء والأدوات والأزياء فن، السجادة والمصباح والسيف والمنمنمة هي فنون إبداعية رفيعة، ومـــن ثم فإن العمل الفني وكذلك التذوق يقوم على الحدس وليس على الإدراك العقلي.

هدف التأصيل تخليص الفن العربي من الهَجّانة:

كان هدفك من البحث في جمالية الفن العربي الإسلامي والشخصية المستقلة للإبداع العربي ملامح فلسفية تساعد على التأصيل ... فما هو هذا التأصيل في نظرك؟

من المعلوم أن فننا الحديث اليوم، هو وليد التيارات الغربية، وجلّ فنانينا العرب يتبعون مدارس غربية بحكم دراستهم في البلدان الأجنبية، ونحن نبحث عن فن يكمل مسيرة الحركة الفنية العريقة، فن متصل وغير مبتور ... فن أصيل وليس دخيلاً هجيناً، ولهذا لابد لنا من توضيح ملامح شخصية الفن العربي، وذلك عن طريق تقديم التراث المعماري والتصويري وتحليله، وعن طريق تحديد مصطلحاته العربية، وتخليصها من العجمة والرطانة، ثم عن طريق توضيح أبعاد الجمالية العربية، من خلال آراء المفكرين القدماء وبخاصة "أبي حيان التوحيدي".

- **تلح في بحوثك ومقالاتك على أن تحديد سمات حضارة أمة ما، يبدأ من تحديد خصائص عمارتها ... فما هي خصائص العمارة العربية الإسلامية؟**

العمارة وعاء حضاري، وهي شكل الحضارة المرئي والمجسد، وهوية مدينة ما، أو مجتمع ما، تتضح من خلال شكل العمارة ... فالمدينة القديمة التي تدّخر التاريخ، ما تزال برغم هرمها وفقرها المادي، أقوى وأصدق تعبيراً عن الشخصية الحضارية لساكنيها، ومن هنا فإن دعوتنا لحماية المدينة القديمة وصيانة نسيجها المعماري، هي دعوة لحماية هذه الشخصية الحضارية المجسدة.

وكما نرى فإن الهجانة تحتاج طابع المدن العربية الحديثة، حتى إننا لم نعد نميز بينها وبين أية مدينة أجنبية حديثة، ونبحث عبثاً وراء المشهد الحضاري لمدينتنا الحديثة عن شخصيتنا القومية، فلا نعثر عليها أبداً، وهكذا نعيش غربة في مدينتنا ... تأمل كيف تتراص العمارات العالية جنباً على جنب مع العمارات القزمية بلا تنسيق أو تنظيم، وكيف تتناثر الحدائق في فراغات غير متوازنة مع

كثافة العمارات في وسط المدينة وضواحيها، تجد أننا أمام مشهد لا يعبر عن مدينتنا الجميلة، وهويتنا المتميزة، ثم أدر نظرتك إلى مدن فاس والقيروان وحلب تجد بيوتاً متداخلة تكوّن نسيجاً ملتحماً في مستوى واحد، هو أخفض من مستوى المآذن المهيمنة وحدها على مشهد المدينة ... هنا ترى مدينة هادئة متلاحمة هي المدينة العربية التي يعيش فيها الناس بالتحام وتواضع وأمن وراحة، يحتضنهم فردوس حقيقي، حيث باحات البيوت الرحيبة المعطرة بروائح الياسمين والفل والنارنج، وحيث رذاذ الماء الرقراق يموسق الفضاء، ويلحن هذا السكون الوجدي الخاشع إلى الحق المطلق.

الفن المعاصر المتمسك بالهوية العربية يحتل مكانة عالمية:

- **كيف نعود إلى التراث بعدما غاب الفن العربي الإسلامي طويلاً عن ساحة الاهتمام العالمي؟**

من المؤكد أن الفن العربي الإسلامي لم يغب عن الساحة العالمية، فمعارض هذا الفن تقام يومياً في عواصم العالم، وروائعه المتألقة ما تزال قبلة الأنظار، تتطلع لاقتنائها المتاحف والمراكز الفنية الراقية، وأؤكد لك بأن تدريس هذا الفن في باريس وكامبردج وهارفارد وأكسفورد، تاريخاً وفلسفة هو أوسع وأكبر من أية دراسة تتم في أية جامعة عربية أو إسلامية وأضيف بأن المؤلفات والمراجع التي كتبها المؤرخون والفلاسفة والنقاد عن الفن العربي الإسلامي باللغات العالمية ما تزال وحدها المرجع لكل باحث ... في حين أن عددها باللغة العربية ضئيل جداً وفي البداية لم نقرأ إلا ترجمات لهذه المؤلفات الأجنبية، ومن هنا فإن هدف بحثنا عن التراث اليوم هو ردم القطيعة التي تمت بني الفن الحديث وبين الفن العربي الأصيل، الذي آمن بأهميته الباحثون في العالم، ومن ثم إيصاله إلى المكانة المرموقة التي يستحقها ... إن التيار المعاصر المتمسك بهويته العربية قادر على أن يحتل مستوى عالمية متميزاً، ونحن نقرأ هذا في دراسات كثيرة لكتّاب الغرب.

آثارنا قدّمت التاريخ الصحيح للعالم القديم:

- **إلى جانب اهتمامه بالفن وعلم الجمال، شغل التراث المعماري العربي الإسلامي الدكتور عفيف البهنسي، فأعطاه سنوات من فكره وجهده، أمضاها في البحث والدراسة ... فماذا كان محصلة هذه البحوث؟**

رافقت في عقْدي السبعينات والثمانينات من القرن الماضي بعثات تنقيب عالمية متعددة، شمل نشاطها منطقة الغمر في وادي الفرات، حيث تم العمل – قبيل المباشرة ببناء سد الفرات – في أكثر من مئة موقع، عثر فهيا على آثار كثيرة بالغة القيمة يعود بعضها إلى عشرة آلاف عام، إضافة إلى بعثات أخرى نفّذت حفريات علمية في مواقع هامة، كما في موقع "إيبلا"، وتم اكتشاف مكتبات تضم ألواحاً طينية منقوشة بالكتابة القديمة، استطاع العلماء من خلالها استقراء التاريخ الصحيح للعالم القديم، وقد أثار ذلك حفيظة التوراتيين الذين وجدوا في هذا الألواح قصة التاريخ والحضارة مختلفة تماماً عما ورد في كتاب "العهد القديم" التوراة.

كذلك عثر في موقع آخر على أقدم موقع سكني يعود إلى الألف الثامنة قبل الميلاد، وعثر على أقدم أبجدية في أوغاريت، وعلى أقدم اللهجات العربية مكتوبة بالخط المسماري، وعلى أقدم نوتة موسيقية سابقة للمدرج السباعي الفيثاغورثي اليوناني بألف عام، إضافة إلى وجود العقيدة السماوية في تلك المنطقة منذ آلاف السنين.

- **وكيف تمت حماية هذه المكتشفات الأثرية الثمينة، لتقديمها للعالم بوجهها التاريخي المتألق؟**

لقد جرى إنشاء ما يزيد عن ثلاثين متحفاً في سوريا، جمعت فيها اللقى الأثرية التي ما تزال المنقبون يعثرون عليها في مواقع كثيرة من البلد، وتم ترميم العشرات من الأوابد الأثرية القديمة مثل مدينة "أفاميا" و"الرقـة" إضافة لتسجيل العمائر والمباني الهامة في السجلات الدولية لليونسكو، بهدف حمايتها من العبث والتعدي،

ونذكر بفخر إنشاء متاحف للفسيفساء، وللطب والعلوم عند العرب، ومتحف للخط العربي، مع تأسيس كلية للفنون بجامعة دمشق، ومراكز للفنون في محافظات القطر، ومعاهد للفنون والآثار، ومركز للتوثيق ... ويتخرج من هذه المعاهد والمراكز كل عام عشرات الخبراء والمتخصصين الذين يجنّدون في مهمات الحفاظ على التراث المعماري وصيانته، وعرض وجوهه الجميلة بأساليب علمية وفنية راقية.

التنقيبات الأثرية تكذب مزاعم الصهيونية:

- **وأسأل الدكتور عفيف البهنسي، عمّا يردّده إعلام العدو الصهيوني من مزاعم حول المكتشفات الأثرية في القدس وأريحا، والوجود الإسرائيلي عبر التاريخ؟ فيجيب:**

قام علماء صهاينة بإجراء تنقيبات عديدة في القدس وأريحا، ونشروا نتائج عملهم عن محصّلة اكتشافاتهم، بهدف تأكيد الوجود الإسرائيلي في فلسطين، وقمت من جانبي باستقراء دراسات ١٧ عالماً في الفترة ما بين ١٩٧٦-١٩٩٩، ونشرت بحثي الموثق في مجلة "وجهات نظر" مؤكداً أن أياً من أولئك العلماء لم يكتشف أي أثر للهيكل أو أي أثر آخر يبرهن عن وجود مدينة "داود". بل وأكثر من هذا لم يتوصلوا حتى على مجرد عمود يمكن أن يُنَسب إلى ما قبل القرن الثاني الميلادي – أي العصر الروماني، الذي ساد في المنطقة – وهذا الإقرار العلمي له خطورته البالغة، لأن العدو الصهيوني يقيم كيانه على أسطورة تاريخية مدعّمة بأفكار توراتية، علماً بان التوراة المتداولة هي توراة مكتوبة خلال أربعة قرون من قِبَل أحبار اليهود، علينا إذن أن نقوم بعرض هذه الحقيقة للآخرين بأسلوب علمي، يفضح مزاعم الصهاينة، ويدعم حججنا في نضالنا لتثبيت حقوقنا وتأكيد عدالة مطالبنا.

- **ويطرح السؤال نفسه: إن العالم يعيش اليوم في جو مشحون بالقلق والأزمات الملتهبة، ومن جديد تجد المنطقة العربية - بوجه خاص - نفسها بؤرة للأطماع الاستعمارية، فكيف يرى الدكتور البهنسي سبيل الخلاص والنجاة من الطوفان القادم؟**

القائلون بصراع الحضارات يجهلون معنى الحضارة العربية:

يبقى الحوار الحضاري طريق الخلاص أمام البشر، وأمام المثقفين بشكل خاص، وهو الموضع الذي يشغلني فعلاً، وقد أتيحت لي الفرص لأطلع جيداً على الحضارة في المنطقة العربية قبل الإسلام وبعدها، ولهذا أشعر بقدرتي أن أستغل هذه الخلفية الحضارية لتحقيق الحوار مع الغرب الذي يؤمن بعراقة التاريخ في منطقتنا، ولكنه يحتاج إلى وسيلة لتعريفه بتراثنا ... وهذه الوسيلة هي الحوار، الذي يتجلى في تقديم الكتاب الجيد باللغة الأكثر عالمية، أو بأكثر من لغة وبجميع وسائل الاتصال الحديثة ... إنني مهتم حالياً بنقل مؤلفاتي إلى اللغات العالمية لاحتوائها على كثير من المعلومات التاريخية والحضارية الموثقة، والتي تساعد على تحقيق الحوار والتواصل، ومن جانب آخر فإن القائلين بصراع الحضارات أثبتوا أنهم يجهلون فعلاً ماذا تعني الحضارة العربية، وعلينا أن نقم ثبتاً موثقاً بهذه الحضارة، لكي ينقلب الصراع إلى حوار، وينقلب العدو إلى صديق، لأن الإنسان عدو ما يجهل، فلا بد أن نزيل هذه الجهالة لتقديم أقصى ما نستطيع من التعريف سواء عن طريق المعارض الضخمة أو عن طريق الكتابة والترجمة أو وسائل الاتصال الحديثة. إن مسألة الحوار صارت أساسية في تصحيح كثير من المواقف التي يمكن أن تفكك العرى الإنسانية بين شعوب العالم، نحن نرفض هذا التفكيك ونؤمن بالعالمية كتصحيح للعولمة، لأن العالمية بحسب مفهومها، هي فضاء رحب تعيش فهي سائر الأمم، وتتفاعل فهي كل الثقافات بعيداً عن التسلط والهيمنة.

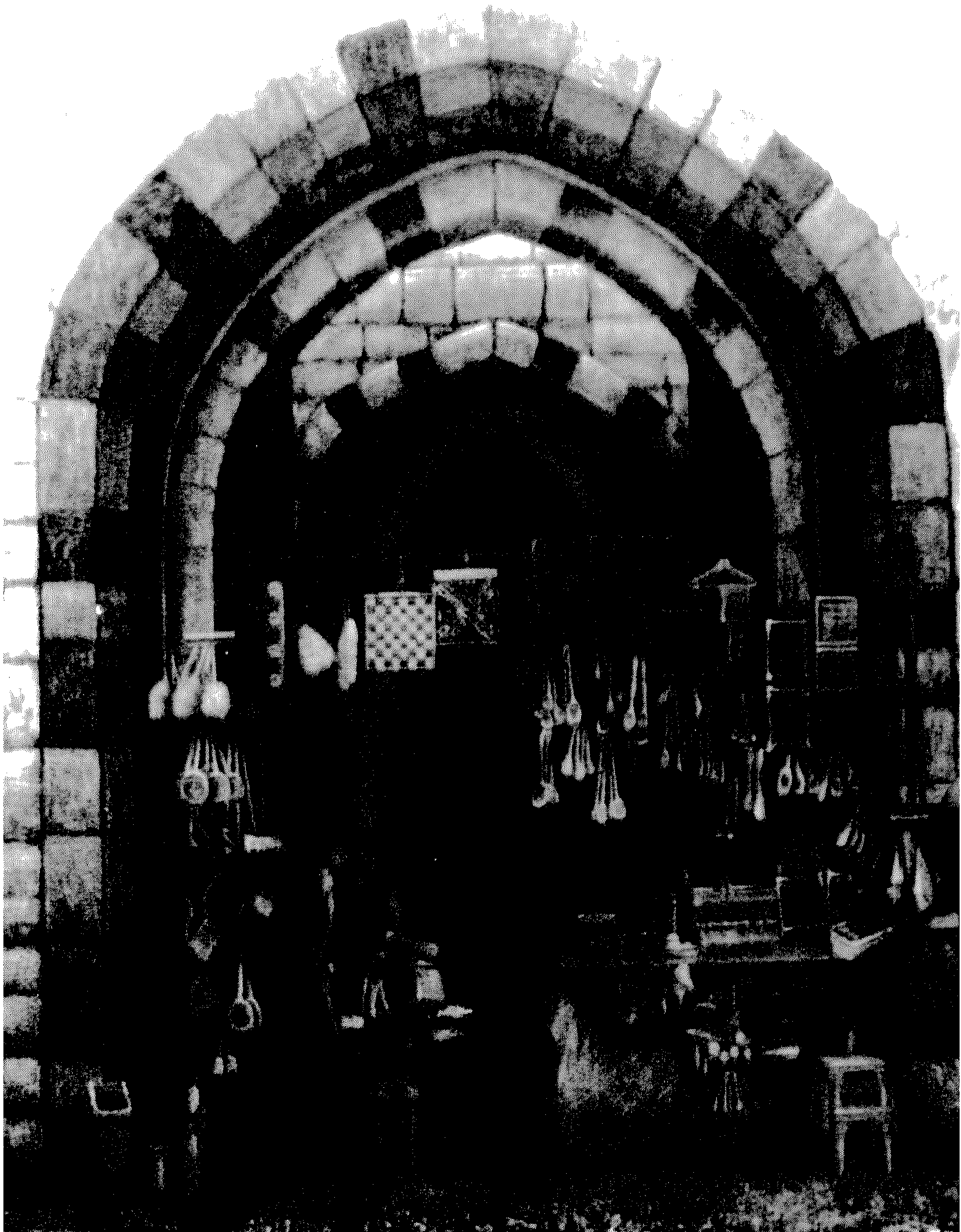
البطاقة الشخصية:

- ولد في دمشق عام /١٩٢٨/.
- إجازة دار المعلمين عام ١٩٤٦.
- إجازة في الحقوق ودبلوم العلوم الإدارية من جامعة دمشق عام ١٩٥٠.
- درس الفن في معهد (أندريه لوت) في باريس، ودرس تاريخ الفن في معهد اللوفر.
- حصل على الدكتوراه في تاريخ الفن من جامعة السوربون عام ١٩٦٤.
- حصل على دكتوراه الدولة في فلسفة الفن والعمارة العربية الإسلامية عام ١٩٧٨ من جامعة باريس أيضاً.
- مدير الفنون الجميلة ١٩٦٢ - ١٩٧١.
- المدير العام للآثار والمتاحف ١٩٧١ - ١٩٨٨.
- أستاذ تاريخ الفن والعمارة من عام ١٩٦٠ وحتى الآن في جامعة دمشق.
- يحمل العديد من الأوسمة والميداليات والجوائز.
- خمسون مؤلفاً مرجعياً في الفن والتاريخ وخاصة الفن العربي الإسلامي وفلسفته، وقد ترجم أكثرها إلى لغات أجنبية كالفرنسية والإنكليزية والإيطالية، وله تحت الطبع ثلاثة معاجم، معجم العمارة - ومعجم الخط والخطاطين - ومعجم الزخرفة. عدا معجمه عن مصطلحات الفنون الذي صدر عن مجمع اللغة العربية.

من مؤلفاته:

الفن الإسلامي - العمارة عبر التاريخ - الفن والقومية - تاريخ الفن والعمارة - الثورة والفن - الشام الحضارة - الجامع الأموي - الفن والاستشراق - الخط العربي - فلسفة الفن عند التوحيدي - الفن الحديث في البلاد العربية. وآخر مؤلف صدر له في روما هو العمارة العربية.





د. قتيبة الشهابي :

دمشق .. في عيون طبيب عاشق للأصالة والجمال

ربما ليس في العالم كله مدينة حظيت بهذا الاهتمام الطاغي، الذي حظيت به مدينة دمشق، التي كتب التاريخ اسمها مرادفاً للحضارة والمجد والخلود.

لقد أسرت هذه المدينة خيال الرحالة والمؤرخين، والشعراء الملهمين، فما من مؤلف في شتى مجالات الفكر، لم يفرد لها صفحات يعرض فيها صور الحياة المتألقة التي استمرت نابضة في المدينة طوال العصور، فلماذا دمشق وحدها، تستأثر بهذا الاهتمام الذي يصل إلى درجة العشق؟ ربما كان سرها، أن الذي يطوف بدمشق، يقطع مسافات قليلة في المكان، ولكنه يجوب أحقاباً متطاولة في الزمان.... إن كل خطوة على أديم دمشق في الحاضر تقابل مئات السنين في الزمن الغابر، لقد ورثت ((دمشق)) عديداً من الممالك والحضارات، وخبأت في خزائنها كنوزاً من الذكريات، وأصبحت بعد شروق شمس الحضارة الإسلامية جوهرة متفردة بالجمال، ومركزاً سياسياً من مراكز الإشعاع.

واليوم وأنت تمر في طرقات دمشق وشوارعها، تنتقل من تراث إلى تراث ومن حضارة إلى حضارة، فلا عجب أن يغدو فؤاد الدمشقي ممتزجاً بعطرها، ويصبح كل واحد من أبنائها شاعراً ومؤرخاً كما لم يعرف في مدينة قبلاً، ولكن مؤلفاً بذاته، صار حديث الدمشقيين منذ سنوات قليلة حين بدأت مؤلفاته عن (دمشق) تتصدر واجهات المكتبات، لتعرض وجوه (دمشق) القديمة الآسرة، التي كانت إلى عهد قريب مجهولة أو مهجورة وراء ستار من الإهمال والنسيان.....

لقد حرصت كغيري على اقتناء هذه المؤلفات القيمة التي بلغ عددها إلى اليوم، ثمانية كتب، غير مجموعة أخرى جاهزة للنشر، ولمست الجهود المضنية التي بذلها المؤلف لكل سطر فيها، وتطلعت للتعرف بشوق إلى هذا الدمشقي العاشق للتاريخ

والفن والجمال، ولكن ذلك لم يكن يسيراً كما تخيلت، لأن يوم الرجل يكون دوماً موزعاً على أنشطة عديدة، وعليك أن تترصده في أمكنة مختلفة لتحاوره وهو يمارس أنشطته .... في عيادته الخاصة التي يعمل فيها كطبيب للأسنان، وفي حارات (دمشق) القديمة، التي يحولها بفرشاته والوانه، إلى لوحات فنية نابضة بإشراق الحياة، أو في أركان الأبنية الأثرية التي تغص بها المدينة، حيث يصور بعدسته الشفافة، التفاصيل الدقيقة لكل حجر وقوس وزخرفة وكلمة، ويكشف ما خفي من أسرارها.

وهكذا كان علي أن أصبر أياماً، حتى استطعت أن ألقاه في ركن قصي من أركان زقاق شعبي ضيق، يضم أبنية قديمة ... وكان الرجل إلى دقائق، قد ارتقى سلماً، ليصل إلى لوحة فوق بوابة، ويسجل ما بقي من حروفها الباهتة التي تؤرخ للبناء وتعرف به.

ليلة لا تنسى:

دمشق اول ما قاله لي: هذه المدينة صديقتي الأثيرة، التي أعطت لحياتي طعماً مختلفاً، هو مزيج من العذوبة والفن والأصالة، وأنا مدين لها بكل أيام الفرح والألق والسعادة...

وقد بدأت صداقتنا الحميمة في لحظة لا تنسى، كنت قد أقمت معرضاً خاصاً لرسومي الزيتية، وصوري الفوتوغرافية عن دمشق عام ١٩٨٥م، ووسط حشد من المهتمين ببحوث الفن والتراث، فوجئت بالسيدة الدكتورة (نجاح العطار) وزيرة الثقافة – كانت تعرف عن مجموعتي الكبيرة من صور دمشق القديمة (الكارت بوستال) تعود إلى القرن التاسع ومطلع القرن العشرين، والتي جمعتها بصبر ودأب من بلدان كثيرة....

فوجئت بها تكلفني بتأليف كتاب عن (دمشق القديمة) وتراثها العريق ... وقد فاجأني التكليف فعلاً، وسهرت ليلة بطولها أقلب الفكرة .... ومن هنا بدأت رحلتي

مع حاضرة الأمويين دمشق : حيث جمعت بمساعدة أصدقائي، خرائط وصوراً قديمة لدمشق، وحصلت على مؤلفات منسية في رفوف المساجد العتيقة ومنها مثلاً : (كتاب الروضة البهية في فضائل دمشق الحميمة) لمحمد عز الدين عربي كاتبي الصيادي من عام ١٩١٢، ومنتخبات التواريخ لدمشق، لتقي الدين الحصني ١٩٢٧، وعشرات غيرها، ثم التقيت كثيراً من المعمرين ونقلت عنهم معلومات سدت ثغرات عديدة في النصوص، وصححت عبارات كان مسلماً بها، ثم رحت أمسح الغبار بأناة وصبر عن اللوحات والكتابات والتواريخ، وناقشت ذلك كله، مع المتخصصين والمهتمين، وكانت الحصيلة، مجموعة المؤلفات العديدة التي صدرت تباعاً وما تزال، سألته ما هي أول المؤلفات في ذلك فقال :

(دمشق .... تاريخ وصور):

اعتبر الباحثون والمؤرخون هذا المؤلف، (بيبلوغرافيا) مصورة، لكل ركن وزاوية في مدينة دمشق، فقد ضم حوالي ٥٠٠ صورة لمعالم دمشق قديمها وحديثها، وعشرين خريطة توضح مواقع هذه المعالم، إضافة إلى ٥٠ صورة لشخصيات وطنية وأجنبية لها ارتباط بالمدينة، عدا عن صور لأنشطة الحياة اليومية والاجتماعية في تلك الأيام، ولم يمّر غير سنوات قليلة حتى أتبعته بمؤلف آخر هو (معالم دمشق التاريخية) وثالث بعنوان (أسواق دمشق القديمة ومشيداتها التاريخية) وبذا أصبح لدى الناس مجموعة متكاملة، تعرفهم بالمرافق والمباني والمشيدات، والتطور الذي شهدته بمرور الزمان، وتحرر (الدمشقي) من جهله القديم بتاريخ الحي الذي يسكنه، أو المسجد الذي يصلي فيه، أو المدرسة التي تعلم فيها، والجديد في هذا كله أن الصورة هي الأساس في تلك المؤلفات .... لأن المؤرخ قد يخطئ، ولكن الصورة لا تخطئ، وهو قد يسهو أو يمر ببعض التفاصيل مر الكرام، لكن الصورة لا تترك حتى الجزيئات الدقيقة، وقد يكتب المؤرخ من وجهة نظره

الخاصة ملتزماً بفكر مسبق، لكن الصورة لا تعرف الالتزام، ومن هنا كانت مصداقية العمل، ومعها ينتهي الخطأ والشك إلى الأبد....

مآذن دمشق ... طراز عريق:

خرجت الكتب إلى الناس، واستقبلت بترحيب واسع، وأعيدت طباعة بعضها مرات عديدة، وترجم (أسواق دمشق) في الولايات المتحدة، مما شجع المؤلف على التقدم خطوة جديدة في هذا المجال، فعكف على موضوع جديد، طالما تشوق إليه (مآذن دمشق .. تاريخ وطراز) وسألته:

- **لماذا المآذن بالذات؟ فقال:**

هذا الموضوع يلقي الضوء على معالم عمرانية لم تتوفر لها ظروف البحث بشكل علمي موثق، وبقدر يغطي دراستها من جوانب أربعة: التاريخ، الطراز، نسبة التسمية، الصورة .... وفي (دمشق) تنتشر إلى اليوم أعداد كبيرة من المآذن القديمة والمعاصرة، وتتوزع أساليب عمارتها في اتجاهات شتى كانتشار الضوء عن سطح كثير الانكسار، فمنها ما حافظ على طابعه الأصيل لخصائص العهد الذي أقيمت فيه، ومنها ما تعرض للتجديد أو الترميم، أو حتى إعادة البناء، الأمر الذي أدى إلى تغير معالمها الأصلية كلياً أو جزئياً (تهجن) عناصرها المعمارية، ومنها أيضاً ما شيد أصلاً بأساليب لا تلتزم بنهج محدد، مما أفقدها هويتها الطرازية الخاصة.

لقد كانت مآذن دمشق أمامه في الشوارع والأحياء يتفقدها ويصل إليها حتى في مناطق الجبل القصية، ثم يضع المعلومات التي حصل عليها ضمن إطار علمي، فهو يتحدث أولاً عن نشوء المآذن، والفترات التاريخية التي بنيت فيها، ويعدد الطرز التي بلغت ١٩ طرازاً عمرانياً، منذ العهد الأموي وإلى يومنا.

ويشرح أهميتها الأثرية، ويفسر التسميات الفنية لتفاصيل المئذنة وعناصرها المعمارية (الجذوع والأقواس، والنوافذ والرؤوس، والمقرنصات، وغيرها)، وقام المؤلف بنفسه بإعداد الرسوم الموضحة لهذه العناصر، ووضع خرائط ميدانية

لمواقع المآذن في المدينة، ومخططات لأماكن إنتشار الطراز العمرانية المختلفة. وكذلك جداول تبين خصائص ومميزات هذه المآذن، ولم يترك واحدة منها دون أن يقدمها مصورة وبالألوان، فاحتشدت كلها أمام القارئ في عمل فني ونقني غير مسبوق.

مشيدات دمشق:

اعتقد الدكتور (قتيبة الشهابي) أن مهمته لم تكتمل بعد، وإن عمله سيظل ناقصا ما لم يوثق لمعالم أخرى من أبنية دمشق التاريخية، فكان مؤلفه الجديد : (مشيدات دمشق ذوات الأضرحة وعناصرها الجمالية) ويبرز الباحث اهتمامه الجديد بقوله:

(لقد أصبح كل معلم أثري في دمشق يشدني ويحثني على رفع الستار عن صوره الجميلة، ومثلت لي (مشيدات دمشق ذوات الأضرحة) دافعا جديدا لمتابعة العمل الذي بدأت به منذ سنوات .. وهذه المشيدات تنتشر في حارات المدينة ودروبها، وتتمثل في الأضرحة المبنية لتضم بين جنابتها مقامات الصالحين،وأضرحة المشاهير .... ومنها ما أقيم أصلاً للعبادة أو للتدريس، ومنها ما شيد لتخليد ذكرى معينة، وكثير منها اندثر.

وكانت فكرة بناء التربة أو المدفن قد نشأت بنشوء الحضارات القديمة، تخليداً للملوك والقادة والكهنة وما أهرام الفراعنة، ومدافن الحيثيين، وقبور الأنباط والتدمريين إلا شواهد على أن فكرة (التخليد) كانت عقيدة راسخة لدى تلك الشعوب، ويرجح أن اول تربة أقامها (المنذر بن امرئ القيس) بظاهر الكوفة بالعراق، كما تذكر المصادر أن أول قبة في الإسلام، هي تلك التي بناها الخليفة العباسي (هارون الرشيد) فوق ضريح الإمام علي رضي الله عنه، بالنجف، وذلك بعد عام ١٧٠هـ، وقد ظهرت عمارة الأتابكة والزنكيين، وشهدت عمائر الترب والقباب أوج ازدهارها في العصرين الأيوبي والمملوكي، وصارت أكثر غنى وترفاً معماريين، نتيجة

الاستقرار الذي ساد إبان هذين العهدين وولع السلاطين ونوابهم بإضفاء لمسة العظمة على أنظمتهم.

تواصلت رحلات الدكتور (الشهابي) ما بين هذه المشيدات وعكف شهوراً يدرس تواريخها والترميمات التي أقيمت عليها، وصور زخارفها ونقوشها وكتاباتها لتكون هذه الصور (وثيقة حقيقية لا جدال فيها لبيان الشكل الواقعي للعمائر التي استمر تواجدها إلى اليوم.

جاء الكتاب في٦٧٨ صفحة من القطع الكبير، وضمّت فصوله : تاريخ الترب عبر العصور وخصائص عمارتها في كل عصر، منذ الأمويين وحتى عصرنا، واشتمل الكتاب على صور ملونة ل١٦٠ تربة وضريحاً ومدرسة مشيدة، إضافة إلى ١٧ تربة مجهولة، لم تتوفر لها المصادر والمعلومات، وألحق ذلك بتسعة مخططات توضح مواقع هذه المشيدات في المدينة.

بوابات دمشق:

يتابع الدكور (الشهابي) حكايته الممتعة بانفعال جلي:

- لقد ظل شعور عجيب مفعم بالخشوع والإجلال، يمور في داخلي، بعد صدور هذا الكتاب، وكنت أحس كلما مررت بأبواب دمشق المهيبة، بأني أعبر من بوابات التاريخ وأسمع صهيل الخيول، وقرع الطبول، وصليل السيوف، وأشهد بعيني تقدم الغزاة وصمود الفاتحين ... تدافع أقوام، وتنوع أعراق، وغرابة ألسن، وتناقض أنساب ... بلى وأشهد ملاحم وأساطير وأهازيج انتصار... لقد اختصرت لي أبواب دمشق التاريخية، حكاية صمودها، ودفاع رجالها الميامين عن حياضها، ورأيت بأم عيني – وكأني أقرأ في كتاب مفتوح – خالداً وأبا عبيدة ويزيداً وشرحبيل وهم يدخلون (دمشق) تحت رايات التوحيد، وكنت أتسائل بعجب:
- ولماذا لم تنل هذه البواب حقها من اهتمام المؤرخين، ولماذا مروا عليها مر

الكرام، ولم يلحظوا أهمية دورها في حماية وجودهم، أيام الحملات والشدائد والغزوات؟ .... وأدركت أن المهمة تناديني، فتأبطت أدواتي مرة أخرى، وقضيت سنتين في عمل لا يكل، كنت خلالهما مقيماً عند تلك الأبواب، أصور كل نقطة وفاصلة، وأدرس كل حرف وكلمة خطت عليها، رسمت مخططات، وخرائط وصورت التفاصيل الدقيقة، ونقلت التواريخ، حتى أنجزت كتاب (أبواب دمشق، وإحداثها التاريخية).

زخارف العمارة الإسلامية:

ويقول الدكتور (الشهابي) : حول بحثه (زخارف العمارة الإسلامية في دمشق) (إن الفنان المسلم، اتجه إلى رسم الطبيعة، التزاماً منه بمبدأ منع تصوير كل ذي روح، فكانت الأشجار والنباتات والأزهار، ملهمه الأول، لإبداع تكوينات تجريدية وجمالية وزخرفية، من تشجير وتوريق وتزهير، وكذلك الأشكال الهندسية، والخط العربي، وقد برع هذا الفنان في إخضاع تشكيلات الزخارف وتطويعها لتتلاءم مع حسه الجمالي، ولم تطوعه هي، فكانت مدرسة الرقش العربي، أو فن الزخرفة العربي الذي يعتمد على توازن عناصر المساحة واللون والخط، ترابطها وانسجامها، والذي يطلق عليه في أوروبا، اسم: الأرابيسك.

وقد انتشرت الزخرفة كوسيلة وهدف في عمارات العصر الأموي (جامع بني أمية الكبير) وأمثاله، ثم ظهرت جلية في العهدين السلجوقي والمملوكي، وبلغت أوجها في الأشكال والتكوينات المتنوعة، ما بين قباب مقرنصة، وحجارة مزركشة، ومداميك حجرية متناوبة الألوان، وتيجان الأعمدة والفسيفساء الرخامي المشقف والملون، وكذلك الرنوك، واستخدام الجص والخشب والرخام والحجر والحشو بالصدف.

أوابد دمشق:

لا أحد في دمشق يعرف – على وجه التأكيد – ماذا تخبئ جعبة المؤلف من حكايات وأخبار تاريخ مدينة دمشق ولكنني عرفت مؤخراً أن المطبعة تدور الآن لتخرج مؤلفه الجديد : (النقوش الكتابية على أوابد دمشق) لينضم بدوره إلى قائمة مؤلفاته الجميلة.

طويت أوراقي، مستعداً لوداع الشهابي ولكن سؤالاً أخيراً ظل يلح على خاطري فأطلقته على عجل:

- أنت طبيب ورسام، ومصور وباحث ومحقق، وكل واحد منها عالم قائم بذاته، فكيف تستطيع أن توائم بين هذه العوالم كلها دفعة واحدة؟

رد الشهابي بابتسامة رضا:

- سئل (روبنس) سفير بريطانيا بباريس، وكان فناناً شهيراً:
- هل يلهو سيدي السفير بالرسم ؟ فأجاب لا ... ولكنني ألهو بالسفارة.

والحقيقة أن كوني طبيباً وفناناً وباحثاً، أمر يقع في إطار العطاء الإنساني الفكري.. إن الطبيب بحاجة إلى الفن لينتج ويعالج بطريقة سليمة، ويحتاج الفنان كذلك للطب، لأن الفن عمل فكري قبل أن يكون إبداعاً عاطفياً كما يروجون والفنان الذي يملك الثقافة قادر على معالجة الأمور لونياً وشكلياً أكثر ممن لا يملكها.

الدكتور قتيبة الشهابي في سطور:

- مواليد دمشق ١٩٣٤م، - باحث في التراث.

مؤلفاته المنشورة:

- دمشق تاريخ وصور، ط١ وزارة الثقافة ١٩٦٨، ط٢ مؤسسة النوري بدمشق ١٩٩٠.
- هنا بدأت الحضارة (سورية تاريخ وصور)، دار الأبجدية بدمشق ١٩٨٨.
- أسواق دمشق القديمة ومشيداتها التاريخية، وزارة الثقافة ١٩٩٠.
- مآذن دمشق القديمة (تاريخ وطراز)، وزارة الثقافة ١٩٩٢.
- معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية، وزارة الثقافة ١٩٩٥.
- مشيدات دمشق ذوات الأضرحة، وزارة الثقافة ١٩٩٦.
- معالم دمشق التاريخية (بالمشاركة)، وزارة الثقافة ١٩٩٦.
- أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، وزارة الثقافة ١٩٩٦.
- زخارف العمارة الإسلامية في دمشق، وزارة الثقافة ١٩٩٧.
- النقوش الكتابية في أوابد دمشق - وزارة الثقافة ١٩٩٧.
- دمشق الشام في نصوص الرحالة والجغرافيين -وزارة الثقافة -جزءان ١٩٩٨.
- صمود دمشق أمام الحملات الصليبية - وزارة الثقافة -١٩٩٨ .
- طريف النداء في دمشق الفيحاء - جزءان - وزارة الثقافة ١٩٩٨ .
- معجم الآثار السورية - وزارة الثقافة - ٢٠٠٦ .



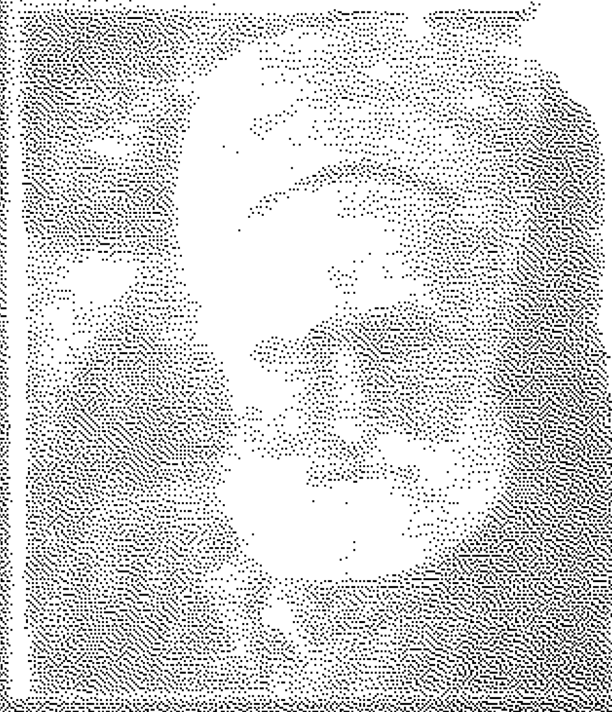
عبد الغني العطري

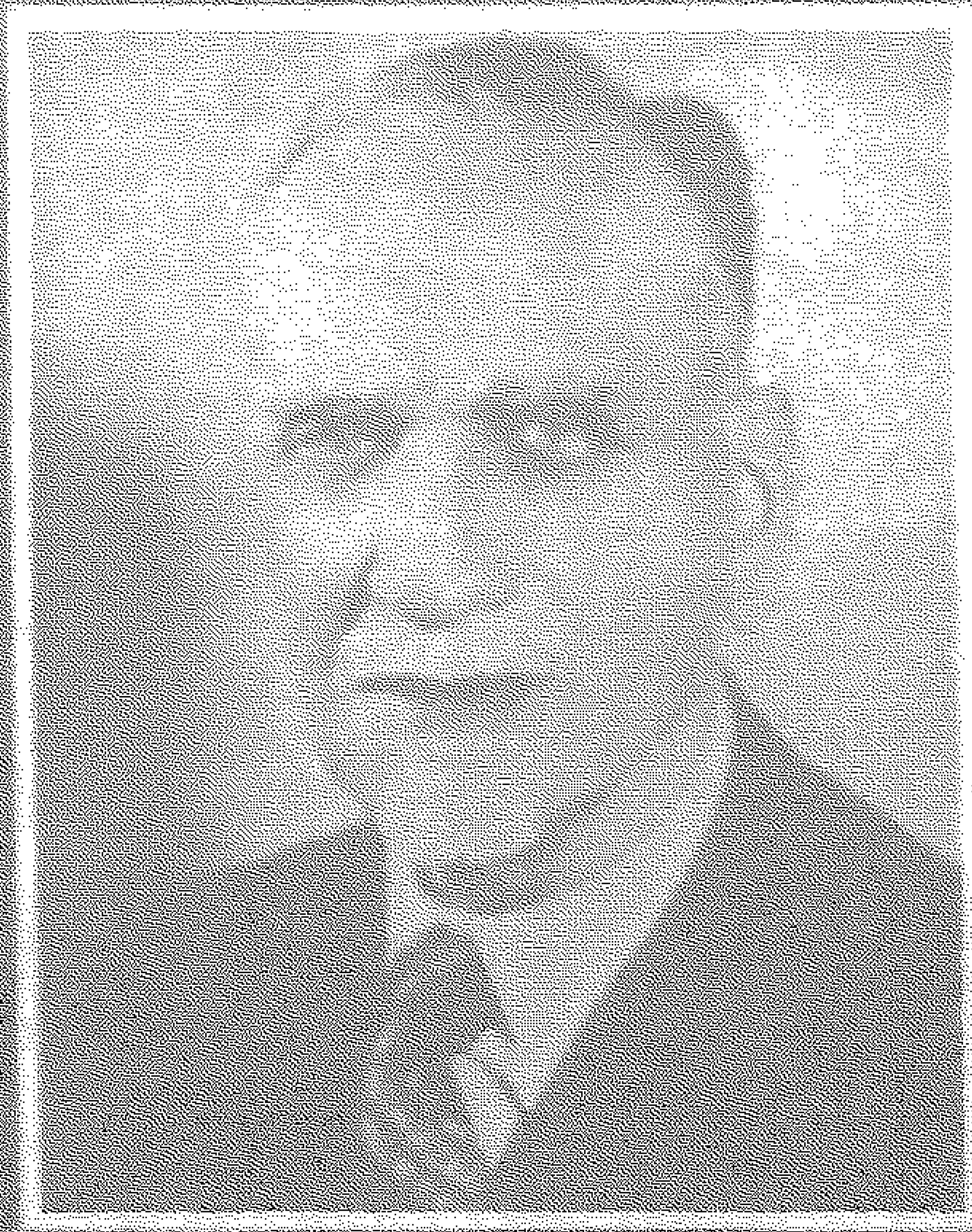
عبقريات وأعلام







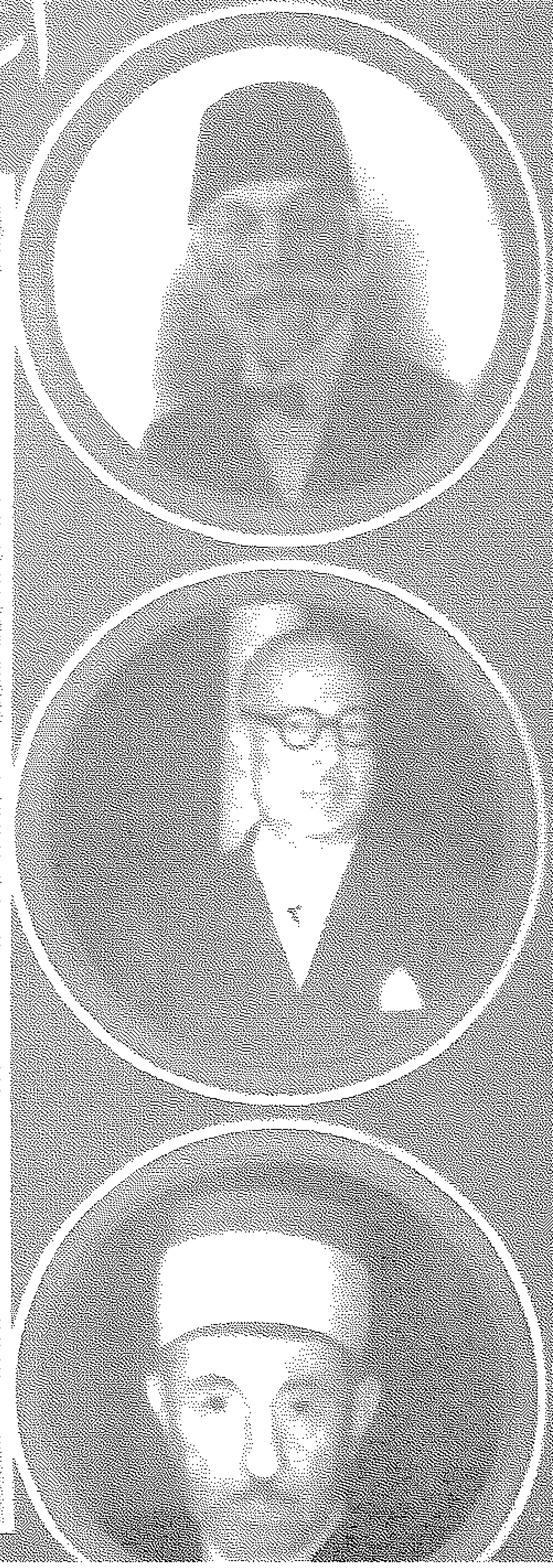


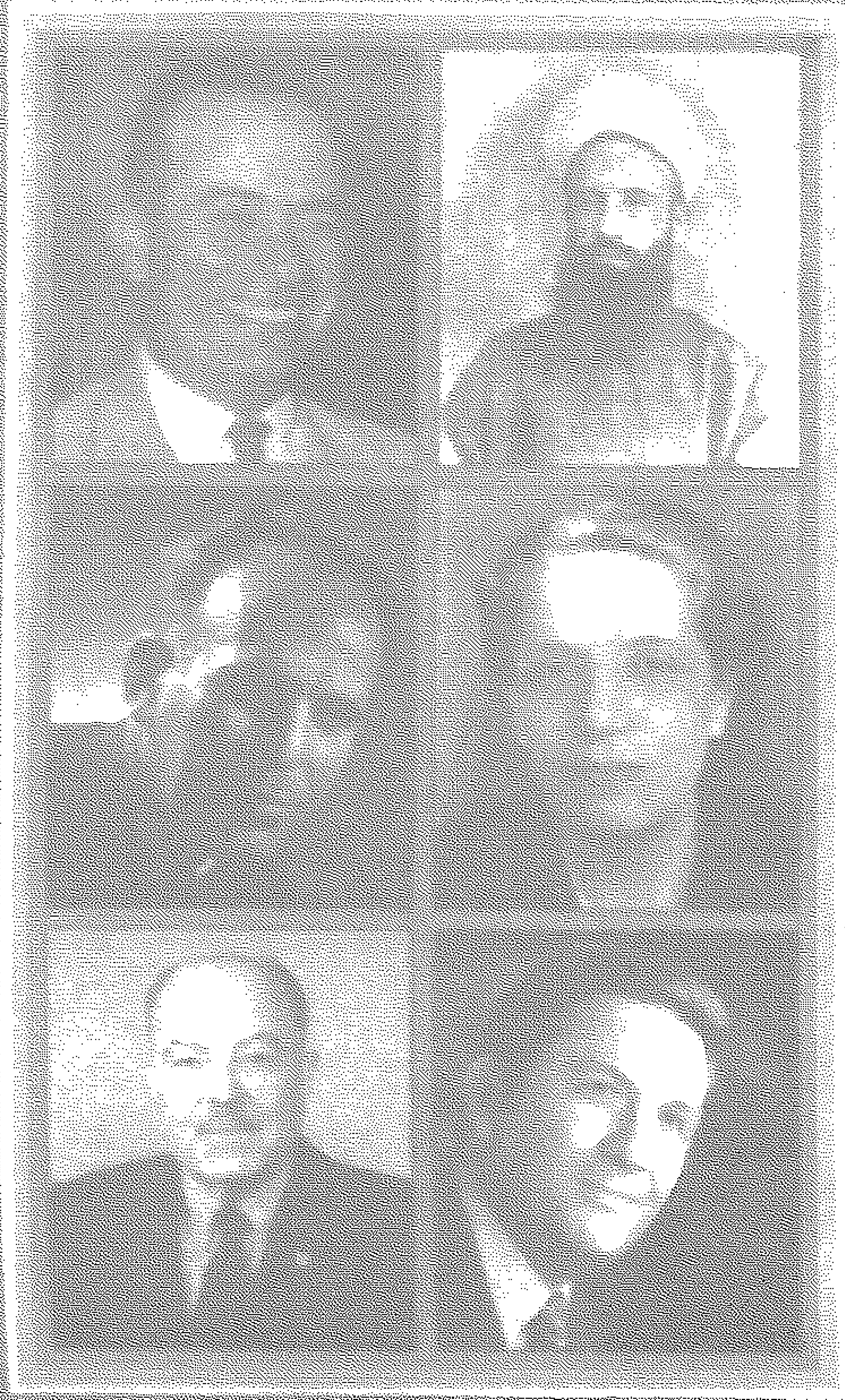


دار البشائر

عبد الغني العطري

أعلام ومبدعون





عبد الغني العطري :

بعد نصفِ قرنٍ طويت صفحات العطاء والوفاء والبسمة المشرقة

يقترن اسم (عبد الغني العطري) بلقب شيخ الصحافة في سورية وذلك حق، لأن مسيرته الطويلة في عالم الأدب والصحافة، قطعها بحماس واندفاع كبيرين، وأعطاها من عمره ودأبه ما لم تعطه غير قلة من أرباب الفكر والقلم. فأصدر مجلة الدنيا، وقبلها الصباح اللتان كانتا ملتقى أسبوعياً يتبارى فيه أعلام الأدب والفن لتنوير الناس...وظل صاحبها طوال خمسين عاماً مخلصاً للكلمة وفياً للمبدأ، وحين توقفت الدنيا لم يطو الرحالة شراعه ويستريح، بل تابع رحلته في إصدار المؤلفات وإلقاء المحاضرات بنفس العزم والروح الوثابة. وكان في مرحلة دراسته الثانوية، حين بدأت كتاباته وقصصه المترجمة تظهر في أشهر المجالات العربية، وطاب له أن يدخل إلى (قاعة المؤلفين) في المكتبة الظاهرية ليتصفح بعض الكتب النادرة والمخطوطات ولهذا طلب من مدير المكتبة – وكان يومها (يوسف العش) – بطاقة تخوّله ارتياد القاعة، فنظر له المدير باستخفاف، ودار بينهما الحوار:

– هذه القاعة مخصصة للمؤلفين وليس لصغار السن يا بني...

– ولكنني أيضاً من الأدباء، وأكتب وأنشر في المجالات...

– وأين تنشر حضرتك؟

– في مجلة (الرسالة) المصرية..

– في (الرسالة) مرة واحدة؟

– نعم يا أستاذ وسأوافيك غداً بعدد من المجلة لتحكم بنفسك..

وبالفعل قدّم الفتى في اليوم التالي لمدير المكتبة نسخة من مجلة الرسالة، وفيها قصص مترجمة تحمل اسمه وتوقيعه ... فما كان من المدير إلا أن سلمه بطاقة

تخوله دخول قاعة المؤلفين.

يسرد (عبد الغني العطري) تلك الواقعة بمتعة غامرة، ويستعيد تفاصيل حياته المثيرة فيما مضى من أيام العمر ... خلال تلك الفترة المبكرة من حداثتي، كانت الصحافة قد استهوتني وملكت علي فكري، فرحت أطالع الصحف اليومية والمجالات الفرنسية بنهم عجيب، وكتبت للمجلات العربية، فما أنهيت المرحلة الثانوية حتى كان اسمي يتردد في المطبوعات الشهيرة في ثلاثينيات القرن الماضي وبينها: (الرسالة للزيات) و(المكشوف اللبنانية لفؤاد حبيش) عام ١٩٤١، ثم حققت مغامرتي الكبرى باستئجار امتياز جريدة متوقفة عن الصدور، وخرجت بالعدد الأول من مجلة الصباح عام ١٩٤١، وكانت مفاجأة للمثقفين ورجال الصحافة، بما تضمنته من مواضع ومقالات للأعلام الأدباء والشعراء العرب، الذين قدموا روائع إبداعهم الفكري، وقد تألقت على صفحات المجلة أسماء: محمود تيمور، زكي مبارك، علي أحمد باكثير، سهيل أدريس، عبد السلام العجيلي، بديع حقي، فؤاد الشايب، عدنان مردم بك، نزار قباني وغيرهم...

ويواصل (العطري) حديثه مضيئاً تلك الفترة من نشاطه الصحفي، ثم يتريث ليعلمني بأن المجلة واصلت صدورها متألقة لمدة سنتين كاملتين، توقفت بعدها عن الصدور لظروف قاهرة، وهو ما اضطره للعمل رئيساً للتحرير بصحيفة الأخبار الدمشقية التي كان يصدرها (بسيم مراد) ومن ثم للتنقل بين فلسطين والأردن لتقديم أحاديث في إذاعة القدس، ومحاضرات في النادي الثقافي بعمان.

ثم جاءت الخطوة الرائعة الحاسمة: صممّتُ على المغامرة مجدداً، وقررت أن أصدِر أرقى مجلة عرفتها (سورية) في حينه وكان ذلك إبان الحرب العالمية الثانية، حين منعت السلطات المستعمرة ترخيص الصحف، كما كان الورق غالياً ونادراً، لذلك سموه الذهب الأبيض لكن حماسي للمشروع كان طاغياً، فاشتريت بمبلغ حصلت عليه من بيع أرض الأسرة، امتياز جريدة الوطن اليومية، بمئة ليرة ذهبية، وحولتها إلى مجلة أسبوعية جامعة باسم (الدنيا).

مثّلت (الدنيا) وثبة كبيرة في الصحافة الأسبوعية السورية وخرجت المجلة بحلة جديدة، وإخراج راقٍ ومضمون ثرٍ وبسعر زهيد حمّلها خسائر كبيرة مع كل عدد جديد، مما اضطرها للتعثر مرات عديدة لكنها كانت تعود وتنهض أقوى واشد عنفواناً، فلما ألغيت امتيازات الصحف مع الانقلاب العسكري الأول عام ١٩٤٩، استثنيت مجلة الدنيا وبقيت المجلة الوحيدة في البلاد، وهو ما أتاح لي إصدارها بشكل متميز إخراجاً ومضموناً، وأتاحت لقرائها فرصة المشاركة في تحرير أبوابها، وبمسابقاتها المتكررة، فما لبثت الدنيا أن حققت رواجاً كبيراً وانتشاراً لم تعرفه أرقى الصحف أيامها، وتوالت على سورية الأحداث السياسية، وانعكس ذلك على المجلة فالغي امتيازها عام ١٩٥٨ لفترة لم تطل، ثم عادت للصدور عام ١٩٦١، لتتوقف نهائياً عام ١٩٦٣ مع إلغاء امتيازات كافة المطبوعات.

رحلت للمكلة العربية السعودية، وعملت في وزارة الإعلام مستشاراً، ورئيساً لتحرير مجلة الإذاعة ونشرت مقالاتي الأدبية في مطبوعات المملكة ... ولما عدت لدمشق تفرغت لنشر مقالاتي في المجلات الثقافية العربية وأصدرت في تلك الأونة كتابي "أدبنا الضاحك" الذي ضمّنته أجمل ما في تراثنا العربي من طرائف وحكايات، وأتبعته فيما بعد بكتاب (دفاع عن الضحك) ثم عبقريات من بلادي وهو الأول في سلسلة مؤلفات ألقيت الضوء على سير أعلام الفكر والفن والصحافة والسياسة في سورية.

وحفزني الاستقبال الرائع الذي حظي به ذلك الكتاب على إصدارات مجموعات في ذلك المضمار بلغ عددها إلى اليوم ست مجموعات.

أما آخر مؤلفاتي فكان (اعترافات شامي عتيق) عرضت فيه حكايات واقعية، وصوراً لطيفة للحياة الشعبية، تستطيع أن ترى فيها وجه دمشق الحقيقي في القرن الماضي...وكانت من بين الحكايات الحكاية التالية: مع النسوان في حمّام السوق:

"كانت أمي تحب حمّام السوق كثيراً شأنها بنات الشام، وتستعد له قبل يوم، فتهيء بُقَج الثياب النظيفة المعطرة بالصابون الحلبي، كما تعّد أطايب الطعام

والفاكهة، وكانت لفرط محبتها لي تصر على اصطحابي معها كي تفرك لي ظهري، وتليّفني بليفتها الخاصة مرتين بعد أن تغسل رأسي بصابونتها الحلبية المطيبة ثلاث مرات، ثم تسمح لي أن أجلس على المسطبة لأستريح بعض الوقت، ريثما تنتهي من حمّامها..

وآخر مرة صحبتني فيها أمي لحمّام السوق، وكنت في السابعة من عمري، وهناك تصدت لها امرأة قائلة بغضب كبير:

- شو جايبة معك، رجال لحمّام النسوان ... موحرام عليك؟

أجابتها أمي بهدوء:

- يه...شو ها الحكي، والله بعدو طفل صغير.

فردت المرأة بخبث واضح:

- إذن تاني مرة ابقي جيبي أبوه معك كمان...

وبعد هذا الحوار، لم أعد أعرف حمّام السوق ولا حمّام النسوان ... كانت تلك آخر مرة..

استغرق حوارنا ساعة وبعضها، من الدقيقة التي انتشلت فيها (العطري) من بين أكوام الصحف والمجالات على مكتبه، فلما هممت بطيء أوراقي لوداعه، سألته عن مشاريعه القادمة، فأجاب:

نشرت مؤخراً كتابي: (بخلاء معاصرون) وهو مجموعة حكايات عن بخلاء معاصرين عاشوا بيننا، وهي حافلة بالظرف والطرافة، وتلقي ضوءاً على حقبة من حياة المجتمع، وبالذات بعض شخصياته المعروفة بالبخل ... وطبعاً دون ذكر الأسماء ... أضف إلى ذلك ارتباطي بمقالين أسبوعيين لمجلة (فنون) وجريدة (تشرين) ومشاركتي بتقديم محاضرات ثقافية واجتماعية في المراكز الثقافية والمكتبات العامة، كما أتابع العمل في مؤلف جديد عن عبقريات سياسية وفكرية واجتماعية، آمل أن أنتهي منه قريباً ... لكن عبد الغني العطري سرعان ما ودّعنا طاوياً الصفحة الأخيرة من مسيرة طويلة حافلة بالعطاء والوفاء والبسمة المشرقة...

اعترافات رمضانيّة

منذ أن تفتحت عيوننا على الحياة، وحب شهر رمضان مغروس في الصدور، لأنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن، وهو شهر الطاعة والتوبة والمغفرة، وفيه ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر.

والحديث عن شهر رمضان واسع طويل، يعرفه كل مؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

منذ أن وعينا على الدنيا، في سن الطفولة المبكرة، ونحن نحب هذا الشهر، ونهيئ النفس لاستقباله، ونروّضها على تقبّل الجوع، وأداء ما نعرف ونستطيع من واجبات دينية.

كنا نشارك الأهل بفرحة استقبال الشهر. كان أهلونا يستعدون لاستقباله استعداداً كاملاً: يغسلون ويغتسلون ويشطفون، وينظفون البيت تنظيفاً مضاعفاً، لأن عيد الفطر يقبل مع انتهاء رمضان، ولأن أعمال التنظيف والتعزيل ترهق الصائم، فهم يؤثرون القيام بها قبيل رمضان.

ومع أعمال التنظيف والتعزيل، والغسيل، يتفقدون "بيت المونة" وما يحويه من سمن وزيت وأرز، وبرغل وسكر.فإذا ما لمسوا نقصاً في بعض هذه المواد أو غيرها، بادروا إلى تداركها، وتأمين ضعف ما تحتاجه الأسرة منها في الأيام العادية.. لأن شهر رمضان، شهر الصيام والجوع من جهة، وشهر إكرام البطون الخاوية وتدليلها من جهات أخرى.. ولا بد من الاعتراف هنا، بأن أهل دمشق يعشقون بطونهم، ويؤثرون اللقمة الطيبة، على سائر ملذات الدنيا!..

ومع "حفلات" التنظيف والتعزيل والتموين يأخذون بإعداد برامج موسعة للزيارات العائلية والتهنئة بالشهر المبارك. وبعضهم يعيد الحياة إلى حلقات الأصدقاء وتنظيم السهرات، التي تبدأ عادة عقب صلاة العشاء والتراويح، ولا تنتهي إلا مع بدء السحور.

وتقبل أخيراً ليلة الشك مساء التاسع والعشرين من شعبان ليلة التماس هلال رمضان، وهي تبدأ عقب غروب الشمس. هذه الساعات كنا منذ الطفولة، وما زلنا وسنظل نعيشها بكثير من الحيرة والقلق ... ونتساءل عما إذا كان رمضان سيهلّ الليلة بطلعته البهية، أم يأبى إلا أن يزيد في دلاله والشوق إليه، ويتأخر إلى الغد، ليكمل شعبان أيامه الثلاثين ... إنها ساعات قليلة في عددها، ولكنها كثيرة وطويلة لمن يعيشها، منتظراً شيئاً مهماً، أو حدثاً معيناً.

وما يكاد أول مدفع من مدافع إثبات الشهر يدوي في الفضاء، وقد يكون ذلك عند منتصف الليل أو بعده، حتى يتعالى صياحنا نحن الأطفال، بعد أن سهرنا طويلاً مع أهلينا بانتظار البشرى. ويطل الجيران، بعضهم على بعض، فيتبادلون التهاني والتبريك، والأماني الطيبة للأهل والأصدقاء. وتفتح الأسواق من جديد، لتزويد الأهلين بما ينقصهم من جبن ولبن وقمر الدين ونقوع وغير ذلك.

مسحر رمضان:

ولشهر رمضان في الماضي البعيد، أيام الطفولة الضاحكة، ذكريات حلوة. ذكريات لا تمحى ولا تزول. ولعل من أحلى الذكريات، أننا كنا نحن أطفال الحي، وسائر الأحياء الدمشقية، عشاقاً للمسحر، الذي يحمل طبلته الصغيرة بإحدى يديه، وبين إصبعيه فانوسه الصغير. ويتأبط باليد الأخرى سلة كبيرة، تحوي مختلف أنواع الطعام، وقد اختلط بعضها ببعض، وصارت مضرباً للسخرية بين العائلات، وعندما يخطئون، فيمزجون لوناً من الطعام بآخر، فيصفونه بأنه شبيه بطعام المسحر!.. كنا أيام الطفولة عشاقاً للمسحر، وطبلته، وفانوسه، وسلة طعامه الكبيرة .. وقبل هذا كله، كنا عشاقاً لقصصه الخرافية، التي يرويها لنا، بعد أن نغرقه بإلحاحنا، ونمطره بتوسلاتنا. كان المسحر يتقن رواية الأساطير، ولا سيما أنه كان وهو يرويها ينقر على طبلته نقرتين، بين كل جملة وأخرى. كنا نجد كل السعادة بسماع هذه الأقاصيص الخرافية، ونجد في سماعها متعة لا تعدلها متعة. كنا نصدق ما يقوله في هذه

الأساطير. وما إن يفرغ منها، حتى نستعيدها منه، ونكرر إلحاحنا بطلب سماعها، أو سماع ما يماثلها من جديد.

كان المسحر يأبى إلا أن يطوف، بعد مغرب كل يوم في جميع الأحياء، حاملاً سلته الكبيرة، وفانوسه ذا الضوء الهزيل، وطبلته الصغيرة. كان يقف أمام كل بيت طالباً الطعام بشكل مؤدب ومهذب. كان يقرع على طبلته مرتين ثم يقول:

- كل سنة وأنتم سالمين.

ويكرر القرع على طبلته ثم يقول:

- وأولادكم سالمين.

ويقرع على طبلته للمرة الثالثة، ويقول:

- أحياكم الله إلى كل عام.

وتخرج إحدى سيدات البيت، حاملة إليه ما تيسر لديها من طعام، تناوله إياه من خلف الباب، فيسكبه فوق ما في سلته من ألوان الطعام، ويعيد إليها الأطباق، وهو يدعو لها ولصاحب البيت بالخير والبركة والرزق الحلال.

خلال ذلك، نكون نحن أطفال الحي، قد أحطنا بالمسحر من كل جانب، ونصيح به متوسلين:

- عمو احكي لنا حكاية.. الله يخليك بدنا حكاية.

فينهرنا بشيء من اللطف وهو يقول:

- يا الله يا ولاد .. تركونا نعرف نتسبَّب!.

فنكرر رجاءنا وإلحاحنا:

- دخيلك يا عمو .. الله يخليك يا عمو ... بدنا حكاية يا عمو!!

ويعود المسحر ليقول لنا بشيء من اللطف:

- الله يرضى عليكم .. تركونا نعرف نشوف شغلنا!

ومرة أخرى نكرر صياحنا وتوسلاتنا!

- بس هالمرة يا عمو ... حكاية زغيرة يا عمو.. الله يخليك يا عمو!!

وهنا يصيح المسحر بشيء من التذمر والاستسلام:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويبدأ صديقنا المسحر حكايته، ثم يقرع على طبلته مرتين، بعد كل فقرة، ويروي لنا حكايته المشهورة:

- كمشت البرغوت وفركتو
عنفظ وجبلي ولاد اختو
ولاد اختو هالشجعاني
ألفين يطبّلوا بالمطبال
وألفين يزمروا بالمزمار
هربت منهم عالتربة
لحقوني سربة .. سربة
أستغفر الله ما بكذب
أبو بريص ريّسها
والقط الأسود حارسها
أحياكم الله إلى كل عام .. يا كرام

حلويات رمضان:

وفي طفولتنا المبكرة، كنا نصوم إلى منتصف النهار فحسب، ونسمي هذا الصيام بـــ "درجات المادنة" .. أما من يستطيع متابعة الصيام إلى المساء، فكانوا يصنعون له سفرة خاصة تشجيعاً له، ويضعون له في أطباق صغيرة، ألواناً من الطعام التي يفضلها.

ويبقى الحديث عن حفلات الإفطار في رمضان، التي تقام للأهل والأصدقاء، وتقدم فيها مختلف ألوان الطعام الشهي، وكله من صنع سيدات البيت. وما إن يفرغ المدعوون من تناول طعامهم، حتى تحل مكانه الحلويات الفاخرة، التي يصفها أحد

الشعراء بقوله:

وكنافـــة محـــشوة بقطـــائف طافت بنـــا أكـــرم بهـــا مـــن طـــائف
شـــبهتها صـــفت علـــى أطباقـــها بوصـــائف قامـــت بجنـــب وصـــائف

أو كما قال الشاعر الآخر:

وقطـــائف مقرونـــة بكنافـــة مـــن فـــوقهن الـــسكر المـــدرور
هاتيـــك تطربنـــي بـــنظم رائـــق ويروقنـــي مـــن هـــذه المنظـــور

لم يكن أحد يستنجد في موائد رمضان السخية أو غيرها من الدعوات بالمطاعم أو الفنادق أو الأندية. كنا نشعر بأن الطعام الذي يطبخ في البيت أشهى، وألذ، وأنظف، وأرخص بكثير .. أما اليوم فقد تبدل كل شيء ... صارت سيدات معظم البيوت كسولات، لم يعد يطيب لهن الطبخ في البيت، صار استدعاء الطعام بالهاتف، من هذا المطعم الكبير، أو ذاك الفندق الضخم، أكثر راحة، وأضمن للوجاهة .. ولا مانع لديهن أن يدفع الزوج ضعف التكاليف ... ويكفيهن فخراً أمام الزميلات، أن الطعام وصل جاهزاً، وحسب الطلب، وفي الموعد المحدد ... ودون أي عناء.
وللناس فيما "يأكلون" مذاهب...



وداد سكاكيني:

كتبت القصة بروح المرأة، وحلقت في النقد والبحث وأدب السيرة والتزمت بالقيم الإنسانية بوحي من ذاتها وإحساس صادق بحاجات المجتمع

مرت اثنتا عشر سنة على رحيل الأديبة الرائدة السيدة "وداد سكاكيني" في اليوم الثالث من كانون الثاني عام ١٩٩١ المنصرم، ومضى نصف قرن تقريباً منذ أسعدتني الفرصة بلقاء الكاتبة القديرة لأول مرة، وكان ذلك إبان رحلة طلابية إلى القاهرة، أشرف عليها أستاذنا المفكر والمؤرخ الراحل د. شاكر مصطفى رحمه الله تعالى، وفي حفل أقامته وزارة التربية هنا، تحلّقت كوكبة من رجال الأدب والإعلام في مصر، حول شخصيتين فكريتين مرموقتين هما الشاعر الأديب د. زكي المحاسني، مراقب البعثات العلمية والملحق الثقافي السوري بالسفارة، وعقيلته الأديبة والناقدة وإحدى رائدات السيرة والقصة العربية السيدة وداد سكاكيني...وراح الحضور يشيدون بأدب الزوجين، ويثنون على ما صدر لهما من أعمال أدبية، كان جديدها أيام ذلك كتاب الدكتور المحاسني "شعر الحرب في أدب العرب" وكتاب "العاشقة المتصوفة" للأديبة سكاكيني، وقد استقبل المثقفون والأدباء كليهما بحفاوة واهتمام كبيرين، وصار الأديبان ملئ السمع والبصر في سائر الأقطار العربية، وقد توالى صدور أعمالهما المتميزة التي تفردت في مواضيعها، وسدت فراغاً كبيراً في المكتبة العربية.

ولدت "وداد سكاكيني" بمدينة صيدا جنوب لبنان، ونشأت وتعلّمت في بيروت، وكان منذ حداثتها متفوقة في تعليمها، متعشقة للغة العربية، وكان أستاذها الشيخ مصطفى الغلاييني بوجّهها لحفظ القرآن الكريم قائلاً: "إنه قاموس الفقراء يعلّم اللغة والبيان والدين والتاريخ" وأجادت "وداد" الكتابة فأنشأت مجموعة مقالات أدبية

وخواطر جمعتها، فيما بعد، في باكورة نتاجها "الخطرات" الذي نال رضي العلامة الغلاييني، وأشاد به في مقالة له، وما لبثت الكاتبة أن شقت طريقها إلى مجلات الثقافة الرائدة في سوريا ولبنان ومصر، حيث نشرت مقالات أدبية وقصصاً قصيرة، بدا فيها نبوغها وإبداعها المبكرين.

في العام ١٩٣٧ شاركت "وداد سكاكيني" في مسابقة القصة القصيرة لمجلة "المكشوف" البيروتية، وكانت في عداد نيف وستين كاتباً وأديباً، عرضت مشاركاتهم على لجنة محكّمة تكونت من رجال الفكر والقلم الأعلام: عمر فاخوري، توفيق عواد، فؤاد البستاني، خليل تقي الدنين يوسف غصوب، وعبد الله المشنوق، وفازت قصتها: "الشيخ حمدي" بالجائزة الأولى، وترافق ذلك مع اقترانها بالأديب الشاعر "د. زكي المحاسني" لينطلقا معاً في مسيرة فكرية متألقة، وقد توسم فيها علامة دمشق "محمد كرد علي" خيراً واعداً فرعاها بتوجيهه، وأضاف إلى محصلتها ما كان تأثرت به من أساليب أساطين الأدب: طه حسين والرافعي والزيات فشعّ أدبها باللفظ الجميل، والصورة المعبرّة، والأسلوب الأنيق، وتكاملت لها عناصر الأدب الرفيع، ومقومات العطاء الفكري الخلاق.

انتقلت الكاتبة مع زوجها إلى القاهرة وأقاما فيها اثني عشر عاماً، فسنحت لها الفرصة للاتصال بالمفكرين الأعلام: طه حسين، العقاد، تيمور، المازني، الزيات والحكيم، وغيرهم، وتألق نشاطها الأدبي مشاركة في الندوات والمؤتمرات الثقافية وإطلاعاً على ذخائر التراث، وتألقاً في إنتاجها الأدبي المتنوع، الذي توزع بين مجموعات قصص قصيرة مثل: "مرايا الناس" التي استلهمتها من أحوال الناس في مجتمعها الدمشقي، وتفوقت في تصويرها الفني للحياة الاجتماعية، والتحليل النفسي لأبطالها الحقيقيين.

أما مجموعتها الثانية فكانت "بين النيل والنخيل" التي عكست صوراً عن حياة المجتمع المصري بأجمل تفاصيلها وألطف مشاعرها، ونشر لها نادي القصة بمصر مجموعة جديدة بعنوان: "الستار المرفوع" اعتبرها النقاد لوناً من الأدب الرفيع

تجلت فيه النظرة العميقة للحياة ولقضاياها الاجتماعية، مع اتسامها بروح نقدية هادفة، كذلك نشرت لها دار المعارف في سلسلة أقرأ مجموعة جديدة عنوانها: "نفوس تتكلم" وصفها الباحث الأديب د.صفاء خلوصي في مقاله بجريدة العرب - لندن: "إنها أول كاتبة عربية تصف ببراعة وحذق روائي، كوامن المشكلات العائلية التي لا يقدر أي رجل قاص أن يعبر عنها مثلها، مهما أوتي من الإبداع والمقدرة".

ثم صدرت لها مجموعة جديدة بعنوان "أقوى من السنين" طبعت بدمشق عام ١٩٧٨. وعلى الجانب الآخر من اهتماماتها الفكرية، توالت أعمالها المتنوعة في مجال أدب السيرة، وتأصيل التراث العربي، فأصدرت مؤلفها القيم: "أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء" رصدت فيه لسير أربع عشرة من سيدات الإسلام الخالدات: "تألق نورهن، وبهرني إيمانهن، وإحسانهن، وقد اجتمعت لهن صفات الوفاء والإيثار، وآيات التقوى والفداء" واتبعت الكتاب بمؤلف عن "رابعة العدوية" العاشقة المتصوفة ترجم إلى اللغة الإنكليزية، ورواية "أروى بنت الخطوب" التي استمدت وقائعها من سطور التاريخ العربي، أما روايتها الثانية: "الحب المحرم" فقد نالت استحساناً لم تنله رواية أخرى حينها، وكانت "فدوى طوقان" في عدد الأدباء الذين أشادوا بالرواية وافتتنوا بها، فهي تخاطبها:

"لقد قرأت قصتك البديعة برغبة واستمتاع، وكان يبهرني، كلما توغلت في أحداثها، تحليلك الدقيق للنماذج البشرية في الرواية ودوافعها النفسية، وهذه البراعة لا تصدر إلا عن علم بطبائع النفوس لا يتهيأ لكل كاتب قصة ... إنني أهنيء القصة العربية بتحفتك الفريدة الرائعة".

ولم يفت "وداد سكاكيني" الالتفات إلى واقع المرأة العربية، وما تواجهه من مشكلات اجتماعية، فكونَت مع الأديبة الذائعة سهيري القلماوي والصحافية الشهيرة أمينة السعيد، فريقاً لامعاً أخذ على عاقته مهمة الدفاع عن قضايا المرأة، وأصدرت كتابها "إنصاف المرأة" الذي فنّدت فيه المغالطات.

والافتراءات التي ألصقها بالمرأة عديد من الأدباء المعروفين في تلك المرحلة.

وقد كتبت لها الشاعرة الرقيقة "فدوى طوقان" إثر ظهور الكتاب: "صدقيني، لقد انتزعت – من زمن بعيد – أعمق إعجابي، فأنت تكتبين دائماً بروح المرأة وقلبها وإحساسها، وهذا في نظري أهم عناصر الإبداع الإنساني:

كما بادر الأعلام من الأدباء والمثقفين لاعتبارها ركناً من أركان الأدب العربي الحديث، ورائدة من رواد الفكر المستنير. فهذا عميد الأدب العربي "د. طه حسين" يقول في مقال له: "اقرأوا هذه الكاتبة بروية، فهي مجلّية في باب البحث وأدب السيرة" وهذا "د.محمد مندور" الناقد المشهور يكشف عن منهجها في الإبداع فيقول:

"بالرغم من "وداد سكاكيني" كتب القصة والرواية، قبل أن تشيع عالمنا العربي فكرة الالتزام بالأدب آتية من أحدث المذاهب الأدبية في العالم، لكنها اهتدت إلى هذه الفكرة في أدبها، بوحي من ذاتها وإحساس صادق بحاجات المجتمع العربي، وكما عرفها القراء روائية وقصصية ملتزمة بالقيم الإنسانية الرقيقة، عرفوها أيضاً في مقالاتها ناقدة ملتزمة أيضاً".

وكان في عداد اهتمامات الكاتبة الراحلة مجال أدبي آخر، حققت فيه نجاحاً مشهوداً، وهو مجال النقد الأدبي والترجمة الأدبية، فتناولت بالدراسة سير شخصيات مرموقة في عالم الفكر، وجمعتها في كتابها: "شهيرات من الشرق" وعادت فأضافت إليه مجموعة شخصيات جيدة لتصدر في آخر مؤلفاتها" سابقات العصر: وعياً وسعياً وفناً"، وقد اشتمل على سير خمس وخمسين شخصية نسائية عربية جمعها العمل الفكر والاجتماعي لخدمة قضايا الوطن الكبرى. وأفردت المؤلفة الصفحة الأخيرة لتحكي بتواضع شديد سطوراً من ملحمة حياتها الرائعة، التي تتلخص في حكاية عمل دؤوب ومشّرف أعطته الكثير من روحها ووجدانها.

ورحلت "وداد سكاكيني" في مطلع عام جديد بعدما أضاءت طريقاً طويلة لقادمين بعدها.. ولكن موقعها ظلَ شاغراً..

المصادر:

- وداد سكاكيني: سابقات العصر.
- رائدة الأدب العربي سماء زكي المحاسني/الأسبوع الأدبي.
- الرائدة في السيرة والقصة: جان الكسان/المجلة العربية.
- رائدة الأدب النسائي: عبد الغني العطري/عبقريات وأعلام.

راضت نفسها على طلب المعارف في بطون الكتب دون أن تزدهيها بوارق النجاح أو تسكرها نشوة التقدير

إذا كانت القاعدة التي يقاس عليها الأديب هي قدرته على الإتيان بجديد مبدع، وامتلاكه ناصية البيان ليصوغ الأثر البديع في قالب أدبي رفيع، فإن وداد سكاكيني هي في الطليعة من كبيرات الكاتبات المعاصرات، ولعلها تتقدم على كثيرات من حاملات الألقاب الجامعية، وكثيرات غيرهن من اللائي ذاع صيتهن وشغلن الرأي العام على نحو أو آخر.

فمنذ ما انتضت وداد سكاكيني قلمها وهي بعد في طليعة الشباب، كانت مأخوذة في جميع آثارها القلمية بقاعدة الأسلوب والفكرة، فلا تترخص في أسلوبها بل تجاري فيه أعلام البلاغة كالجاحظ وعبد الحميد الكاتب وابن العميد، ولا تستهويها الفكر السطحية، وإنما تنشغل بجلائل الأفكار وأمهات القضايا دون أن تضحي في أسلوبها وفكرتها بالملامح الأنثوية الكريمة والأصيلة فيها.

وداد سكاكيني صانعة نفسها، فقد نالت من العلم المدرسي حظاً غير موفور لكنها تعلمت على السلف الصالح، ولا سيما الشيخ مصطفى الغلاييني الذي اكتشف موهبتها ورعاها وشجعها على الاغتراف من موائد الأدب حتى ملكت عليها هواية الأدب جميع حياتها، وبدأت مع ريق الصبا تعكف على مطالعة أمهات الكتب في الأدب العربي، وترجمات الآثار الغربية الباقية، حتى إذا تكاملت لها ثقافة ثرة من محصول هذه المطالعات جربت حظها في الكتابة، وإذا الطريق أمامها ممهدة، والشهرة على الباب، ولكنها مع ذلك راضت نفسها على المضي في طلب المعارف في بطون الكتب وفي غمار الحياة، دون أن تزدهيها بوارق النجاح المواتية، أو تسكرها نشوة التقدير التي صاحبت أول ظهورها.

ولئن عرفت وداد سكاكيني في الخافقين العرب، بانشغالها بالأدب، فلم يكن ذلك منها احترافاً يؤودها بباهظ الثمن، بل كان هواية تتخلل حياتها الدارجة كزوجة وأم

وربة بيت، فلم يُعرف عنها أنها أذعنت لمطالب المطبعة الملحة، ولا أنها اشتغلت بالكتابة الصحفية اليومية التي تعدو على العمل الأدبي بما تفرضه على الكاتب من سرعة ولهفة، ولكنها كانت تصيخ دائماً إلى هاتف القلم كلما ناداها من خلال هموم الحياة، فتخلو إليه، وقد تتركه إلى حين تتفرغ إلى إعداد طعام الأسرة، أو تفرغ إلى طفل مريض لا يجد لحنان الأم بديلاً.

وإن المتتبع لآثار وداد سكاكيني لا يعييه أن يصنفها في أبواب خمسة هي: القصة، والترجمة للأعلام، والنقد الأدبي، والدفاع عن قضايا المرأة، والدين.

فلها في القصة مجموعات عنواناتها: (مرايا الناس) و(بين النيل والنخيل) و(الستار المرفوع) و(الحب المحرم) و(أروى بنت الخطوب) و(نفوس تتكلم) و(أقوى من السنين) ولها في النقد: (نقاط على الحروف) و(سواد في بياض) و(شوك في الحصيد).

ولها في السيرة: (نساء شهيرات من الشرق والغرب) بالاشتراك مع تماضر توفيق، و(قاسم أمين) و(مي زيادة في حياتها وآثارها) و(عمر فاخوري أديب الإبداع والجماهير) و(العاشقة المتصوفة) و(سابقات العصر)، ولها في الدفاع: عن المرأة (إنصاف المرأة).

ولها في الدين: (أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء) وقد بدلت عنوانه في طبعته الثانية إلى (أمهات المؤمنين وبنات الرسول)، ولها كتاب مخطوط عن (مصر كما عرفتها).

وهي في جميع ما أخرجت من مصنفات اندرجت تحت الأبواب الخمسة السالفة الذكر تعرف أنها كاتبة أنثوية، فتبرز تلك السمات الأنثوية في كل ما تخطه على الطرس. ففي القصة نراها جادة في تصوير منازع المرأة وأشواقها في جميع مراحل حياتها، وفي النقد نرى وداد راصدة لجميع آثار المرأة، تعالجها بالتقويم والتقييم غير تاركة كاتبة واحدة دون أن تقول فيها كلمة صادقة لا تخلو من صراحة، وقد تكون صراحة جارحة إذا ما اقتضى المقام ذلك، وفي السيرة نرى

وداد سكاكيني معنية بالسير الملهمة للنساء الماجدات، أو الرجال الذين كان لهم في مناصرة المرأة فضل مقدور، فليس أحب إليها من أن تجلو للناشئة صوراً ناصعة من حياة الرائدات في كل إصلاح، والعاملات عملاً باقياً، وما أقدرها في استصفاء العبر واستخلاص الدروس من كل سيرة تسجلها بقلمها الصناع.

على أن الأنوثة الكريمة في وداد سكاكيني لم تكن لتنهاها عن خوض المعارك الأدبية بفروسية نادرة، وكان بعض هذه المعارك مع لدات لها من الكاتبات، وكان بعضها الآخر مع فحول من كبار الكتاب، ولم تكن تحدوها في تلك المعارك رغبة في المخالفة ابتغاء إثارة الغبار واجتذاب الأنظار، وإنما كان الصدق حاديها، والحق العلمي رائدها، والسمو الخلقي عاصمها من العثار ومبغاها، فلم تكن معاركها شخصية في جوهرها، وإنما كانت تدور على محور قضية عامة من مؤداها الانتصاف للقيم، ولعل أكبر معارك وداد سكاكيني هي معاركها في سبيل إحقاق حقوق المرأة الكاملة، لا لكي تنطلق في رحاب الحريات بغير حد، بل لكي تكتشف المرأة ذاتها، وتضطلع بدورها الأصيل في خدمة الأسرة والجماعة مراعية قواعد الاحتشام، حريصة على أقداس أنوثتها وخصائص جنسها، فإذا دعت إلى مساواة المرأة بالرجل، فإنها ترفض الاسترجال الذي يحول المرأة إلى مسيخ منبوذ، وإذا طالبت بحق المرأة في أن تشتغل بالحياة العامة، فما ذلك ابتغاء التعاون طرد الرجل من مجالي الحياة، بل ابتغاء التعاون في جو من المودة المتبادلة والكرامة المرعية، وإذا نادت بأن للمرأة أن تجهر بعواطفها وتكشف عن أهواء قلبها، فما ذلك عن تبادل بل عن رغبة أكيدة في صون أركان البيت ودعم قواعد الأسرة، فالسفور عند وداد سكاكيني هو سفور عاقل يزيل الجفوة بين المرأة والرجل، ولكنه لا يرفع الكلفة بينهما بغير حساب.

ولقد بلغ من غيرة وداد سكاكيني على قضية المرأة أن خصتها بكتاب برأسه عالجت فيه هذه القضية بواقعية العصر ومنطق العقل، كما تناولت سيرة قاسم أمين ببحث كبير اعترافاً منها بأياديه عل حرية المرأة، وإلى هذا وذاك أشادت بكثيرات

من الناهضات بالمرأة، وفي طليعتهن هدى شعراوي وروز أنطون حداد، فأنصفت فيهما كفاحاً ذائداً عن المرأة وحقوقها وقيمتها في المجتمع، ودفعت عن بنات جنسها جحوداً تلقاء المجاهدات في سبيل التحرر الكريم للمرأة العربية الشرقية.

ولوداد سكاكيني أسلوب بياني ناصع يتميز عن جميع أساليب الكتابة التي تجري عليها الكاتبات المعاصرات، ولا أكاد أستثني منهن واحدة، فهو أسلوب يستمد رصانته من فحولة الضاد، ويستقي رشاقته من سلاسة البلاغة، ويتدفق على قلمها كأنه ماء نمير عذب، فألفاظها مستقرة في السياق، لا تتململ ولا تتضجر، ومعانيها مصوغة في قالب يجمع بين جمال الأداء وبلاغة التعبير النافذة إلى صريح المعنى، ولها بصر بفنون الكتابة يقيها سوءات اللحن ومزالق الخطأ، ولها قدرة على التصوير بالقلم تبز التصوير بالريشة لدى أعلام المصورين، وهذه البلاغة الأخاذة كثيراً ما تصرف قارئ وداد سكاكيني عن متابعة أقاصيصها، لأن فتنة الألفاظ تستهوي العقل فتباعد بين العاطفة والانفعال السريع في معرض القصص المسرودة، ولهذا أراني إزاء بهرة اللفظ أعيد قراءة القصة وأستعيدها في تلاوة ثالثة حتى لا تفوتني بادرة من بوادرها أو لفتة من ذكي لفتاتها، فلكأن أقاصيص وداد سكاكيني عرائس سابيات ألبسن ثياباً من غالي الحرير، فالعين لا تملك إلا أن تزيغ بين فتنة الجمال وفتنة الشباب، ولابد إذن من إنعام النظر وإطالة التحديق حتى يتأتى للعين أن تلملم أطراف الصورة بكامل بهائها وفائق روائها.

فها هي وداد سكاكيني تصور بطلة إحدى أقاصيصها، وتسجل ما ظهر وما خفي من مشاعرها فتقول: (لقد استبدت الكهولة (بهاجر)، والرجل الذي يملأ خيالها ويلم بها في أحلامها بنجوة منها، لم تبعث به الأقدار إليها، إذ كانت تعبث بشبابها الريان وقلبها الظمآن، فظلت غريزتها حبية مكبوتة لا تسمع نداءها الملحاح، ولا تعبر عن شعورها المبهم، فتخامرها ذلة أليمة لا ينقذها منها إلا صوت العقل وأنفة الطبع، ثم خوف الشماتة من الأهل والأتراب، إذا حاولت أن تنفس عن صدرها هذا الهم الدفين الذي يثقل على روحها، وما همها إلا الرجل الذي توزع على حواسها

جميعاً، فصارت ترى شبحه خافقاً في يقظتها وفي منامها، وتتوهم صوته وهو يداعبها ويلقي في سمعها أعذب النغمات).

استطاعت وداد سكاكيني في هذه الكلم القصار أن تصور بعمق واقتدار، بل ببراعة معجزة، انفعالات امرأة تعاني من العنوسة، توزعت عواطفها بين رغبة ورهبة، بين ذلة وأنفة، بين واقع وحلم، بين إقبال وإدبار، وقد رسمت هذه الصورة بجمهرة من خيرة الألفاظ احسنت انتقاءها ببراعة الصائغ النقاد، فلم تفلت منها لفظة خسيسة المعنى، ولا انفرطت من عقدها المنظوم حبة نابية ناشزة.

كذلك تبده القارئ في اسلوب وداد سكاكيني سهولة مأتاه وقرب معانيه، فلا غموض يسربل الألفاظ، ولا رمز يغلف العبارات، وإنما هو السهل الممتنع عن كثيرين من كرام الكاتبين، وإن لم يمتنع عن أستاذية الكاتبة وداد سكاكيني، أضف إلى ذلك أن القلم الشريف الذي تحمله هذه الكاتبة قد جنّبها كل مبتذل من المعاني والألفاظ، فهي أبداً مترفعة عن السوقية، عارفة أنها تستطيع أن تصل إلى كل معنى متوسلة إليه بعفة اللفظ وشرف الأداء.

وهذه العفة في الأسلوب إنما تمتاح من معين العفة الخلقية التي نشأت عليها وداد سكاكيني بتربيتها الدينية في بيئة محافظة في جنوب لبنان، ومن ثمة انطبعت جميع كتاباتها بطابع المحافظة، ولكنها محافظة على غوالي القيم وعوالي المثل، ولا غرو أن تجيء جميع السير التي كتبتها وداد سكاكيني دالة على مناحي الخير في الإنسانية، منصرفة عن منازع الشر بألوانها وأشكالها، فهي لا تكتب عن شخص إلا إذا ملأ بالفضائل نفسها، وبرهن على أنه خليق بعناية كاتبة مبرزة مثلها، ولئن أنست في شخصية ما قصوراً أو عيباً، تجاوزت عنه بكياسة أو أشارت إليه تلميحاً أو روته تسجيلاً لحقيقة تاريخية، ثم ذهبت تبحث له عن تعليل مقبول أو تفسير يقوم له عذراً.

وإذا استوقفنا بيان وداد سكاكيني، فذلك لندرة هذا المستوى الرفيع في يومنا هذا، فقد استبدت بالكاتبين في عامتهم رغبة في مزاولة أيسر الأساليب وأبعدها عن

لغة البيان، حتى تساوت الأساليب جميعاً على أقلام الكتاب، ولم يعد في وسع المرء أن يميز بين كاتب وكاتب من حيث الأداء الأدبي.

ولكن وداد سكاكيني جعلت من بلاغة التعبير خصيصة ثابتة من خصائص شخصيتها الأدبية الناضجة، حتى قال عنها أديب من كبار أدباء لبنان هو المرحوم كرم ملحم كرم:

(لا أراني أسخو عليها بالمديح في قولي إنها ذات بيان يكسف بهرجة عدد كبير من المنشئين الذاهب لهم في دولة القلم صوت بعيد، ففي أسلوبها بلاغة وجمال، ومتى بلغت المرأة هذا المقام الأدبي السامق، أضحت من الموهوبين، فجاز لها الطموح، وكانت ذات حق في التفوق، وقد ضارعت الرجل حيث توهم أن ليس للمرأة أن تجاريه).

ولئن قيل إننا نغلو في تقدير وداد سكاكيني ونجزل لها تقديراً يكاد يجعلها فوق النقد، فلست أبرئ نفسي من تهمة الإعجاب بهذه الكاتبة المجيدة التي عرفتها على امتداد سنوات طويلة، وقرأت لها معظم آثارها، ولا يضيرني أن أجيء معترفاً بأن أسلوب وداد سكاكيني طالعني في فجر حياتي بآيات التحدي، فاجتهدت في أن أحتذيه، وجاهدت في أن آخذ النفس بمثله عسى أن ترتفع أسهمي في أعين القارئين، وإذا كان شيء من عدوى أسلوب وداد سكاكيني قد نالني، فأنعم بهذه العدوى وأكرم، وليتني كنت مستطيعاً أن أستزيد منها فوق ما استزدت.

سئلت وداد سكاكيني مرة: لماذا أنت مفتونة بالأساليب البيانية؟

فأجابت: لأني أعتقد أن الكتابة فن من فنون الجمال المتناهي، وإذا كان الرسام يتوخى أشد التدقيق في اختيار ألوانه وأصباغه وفرشاته ومناظره وسائر أدواته، متأنياً في إبداع ما يطيف بذهنه من لطيف الصور، فإن الأديب بدوره مجبول على أن يتأنى ويتأنق في إرسال أفكاره على الورق، حتى وإن طاوعته المعاني وانثالت عليه الصور، فالأدب الأصيل يقاس بنفاسته لا بحجمه بكيفه لا بكمه، بعمقه لا بوفرة ثرثرته، ولا ريب في أن الكاتب ذا الأسلوب أعلى مقاماً من الكاتب الذي

يطَّرد في كتاباته على كلام مكرور، وألفاظ معادة، ومعان مزجاة وصور سبق إليها أدباء تقدموا عليه، وإذا كان التطريز والوشي يغليان ثمن الثوب، فإن النصاعة في الديباجة الأدبية تعلي شأن الأثر المكتوب وترشحه للخلود إن كان ثمة خلود).

واستطراداً مع السليقة المحافظة التي فطرت عليها وداد سكاكيني، كان عليها أن تتجهم للكثير من مذاهب الكتابة المعاصرة استنكاراً لها ونفوراً منها، ومن ثم رفعت عالي الصوت في مناهضة ألوان العبث التي تسللت إلى الأدب تحت أسماء منها اللامبالاة، وغير المعقول، والتجريد، والواقعية، وعدم الانتماء، والسفور العاطفي الفج، وازدادت ثورة وداد سكاكيني عندما تبينت أن تلك المذاهب صادفت هوى في نفوس جلة من الأديبات العربيات الطالعات، فانتضت قلمها وشنت عليهن حرباً عواناً فزعن منها وإن لم يرتدعن، وفي هذا قالت وداد: (لقد زعم الرجل بأن المرأة أقدر منه وهي أديبة على تصوير نفسها وعالمها، وصدقته المرأة، فاستجابت لدعوته متغزلة به تارة، وتارة ثائرة عليه باحثة عن حريتها التي اغتصبها منها، حتى انطلقت في حلقة مفرغة لا تدري كيف تدور فيها على ذاتها، وإذ بأقلام غثة فجة تدوخها الدوامة الساغانية – نسبة إلى فرانسواز ساغان – ويستهويها ثناء الرجل الذي يطالبها بأن تحيا على خاطرها وتعبر بقلمها عن خفايا هذه الحياة دون خجل أو تخوف، على ما يسمى بالتقاليد التي صنعتها المجتمعات المتخلفة، إنه يريدها أن تعري نفسها وحسها بيدها، وأن تتغزل به وبمفاتنها، فيسمعه منها ويقرؤه بأدبها، وإذا بهذا الأدب خرافات وسخافات.

والذي لا ريب فيه أن وداد سكاكيني في مجامع أقاصيصها قد استطاعت أن تصور المرأة أدق تصوير، فصورتها في أمومتها المجاهدة، وعنوستها المستسلمة، وصورت حياة الضرة والحماة والشيخة ولية الله، والمدرسة المتعالمة، والساذجة المتعاظمة، والعقيم المحرومة، والولود المنجاب، وصورتها في حياة الحريم وفي مقاصير الثراء، وصورتها في شبابها المتفتح وفي كهولتها الذابلة وفي شيخوختها الفانية، وصورتها في سعادتها وعذابها، في آمالها وفي خيبتها، وفي إيمانها وفي

إذعانها للسحر والشعوذات، وصورتها غيرية باذلة وأنانية ماكرة، وصورتها جانية ومغلوبة على أمرها، ولم تترك المرأة على حال إلا رصدته بقلمها الرشيق، وإذا القارئ في معرض حي من معارض الوجوه والشخوص، يرى من المرأة أطواراً، ويأنس منها صنوفاً وألواناً، وكلهن ملء الحياة والحركة وكأنهن انتزعن من خضم المجتمع، وصرن نماذج بعضها يتكرر وبعضها فريد أو قليل المثيل، فالمرأة هي العالم الذي تعرفه وداد سكاكيني جيد المعرفة، وهي بجبلّتها الأنثوية وقدرتها على الملاحظة وموهبتها الأدبية كفؤ لتقديم هذا العالم إلى القراء نابضاً بالحياة، عامراً بالحركة، جياشاً بالعواطف والأحاسيس، مضطرباً بالانفعالات المتباينة.

ولما رغبت وداد سكاكيني في الاستشهاد من الحياة الواقعية بسيدات فضليات مثليات وقع اختيارها على سيدات كريمات عظيمات مثل هدى شعراوي ومي زيادة ونازك العابد وسهير القلماوي وليلى دوس وفدوى طوقان وماري عجمي وغيرهن وغيرهن.

ولكن هذا العالم الأثير عند وداد سكاكيني لم يستأثر بكل اهتمامها، إذ وجهت شطراً مقدوراً من عنايتها إلى عالم الرجل، فتناولت كثيرين من أعلام الفكر تناولاً يبعث على الثناء والإطراء، فرسمت صوراً سريعة، وإن تكن عميقة بليغة، لرجال تسنموا قمم الحياة الفكرية، وتهيأ لوداد أن تعرفهم في حياتها الأدبية الزاخرة، ومن أولئك فؤاد صروف ومحب الدين الخطيب ومحي الدين النصولي، وحبيب جاماتي ونقولا الحداد وخليل مطران، وخليل ثابت وسلامة موسى والمجاهد محمد علي الطاهر، وكرم ملحم كرم وبشير فارس وواصف بارودي، ونجيب العقيقي وعادل الغضبان وغيرهم وغيرهم، فلم يعيها أن تضع يدها على مكامن العظمة في كل منهم، وأن تحصي لكل واحد منهم خصائص يمتاز بها ويتفرد، فدلت بذلك على أمرين، أولهما: أن لها نظرة بصيرة لا تخيب، وثانيهما: أنها أشربت روح الإنصاف فذهبت توزعه على من يستحقه بقسطاس أمين، كما أن إنسانيتها ككاتبة ماجدة اتسعت فاستوعبت الذين تقف معهم على طرف نقيض، فقالت كلمة حق في سلامة

موسى وإن خالفته في كثير من آرائه، وجهرت بتقدير بشر فارس وإن ازورت عن رمزيته المستغلة، وهكذا هان عليها أن تفرق بين هوى ذاتي وحق باهر يفرض نفسه على تاريخ الأدب فرضاً.

على أن وداد ذات شخصية مستقلة تأبى عليها أن تسير في الركاب أو تنساق مع الإجماع، فالمعارضة ديدنها إذا خالف ضميرها ما استقر عليه ناموس الرأي بين سواد الناس، وعندها من الشجاعة الأدبية ما تستعصم به وقفاتها أمام التيار العرم، وما أمجد هذه الكتابة الأديبة وهي تذود عن الكتاب من غائلة أسباب الترفيه والتسلية والترويج كالمذياع والتلفاز والمجلة المصورة وأشرطة السينما، وما أسناها وهي تدفع عن الضاد الشريفة كل ضيم وترد كل كيد من القائلين بالعامية، الآخذين بالسوقية، الداعين إلى استبدال الرطانات واللكنات باللغة العربية الفصحى الشريفة.

ثم إننا نرى وداد، في سعيها وراء الإنصاف، تنفض آثار الزمن عن طائفة من الذين أدوا دورهم في الحياة العامة ثم غمرتهم غمرات النسيان حتى وهم على قيد الحياة.

وهكذا تنقب وداد سكاكيني عن القيم الأدبية حيث تكون، فتزيح عنها الستار، وتجلوها للعيان بكل مقوماتها وآياتها وذخائرها وعبقرياتها، ولست أنسى أن أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد قال لي ذات يوم (إن وداد سكاكيني أديبة من هامة الرأس إلى أخمص القدم، وهي راسخة الأصل في دنيا الأدب تعنو لها جباه النقاد في تقدير وإعزاز)، واستطرد العقاد العظيم فقال: (إنه كان يتوهم أن وراء وداد رجلاً يكتب لها وينطق باسمها، وأنها هي، (شبح كاتب) ولكنه تبين مدى ما ألحقه بها من ظلم عندما زارته وحادثته في شؤون الأدب والفكر، وناقشته في قضايا اللغة والبلاغة، وحاورته في طرائق الكتابة ومناهجها، فكانت له من أنداد الأفذاذ).

ولئن كانت وداد قد عالجت صنوفاً من ألوان الكتابة الأدبية، فإن ميدانها الأول هو القصة بشكليها الطويل والقصير، وهي في أقاصيصها جميعاً، سواء استمدت خامتها من حياة الواقع أو استلهمتها من خيال لا يحلق كثيراً فينأى عن الواقع،

قادرة على أن تقدم لنا صوراً نابضة بالحياة تتقراها اليدان باللمس، وتتفرس فيها الأعين فلا ترى نكراً، فوداد سكاكيني تعرف أن القصة مشهد من مشاهد الحياة مستقل بذاته، منفصل عن سائر مشاهد الحياة، ولابد للقاص من أن يصب عليه كل اهتمامه، فيسلط عليه كل أضوائه الساطعة حتى يصور خلجات النفس وسكناتها، وحقيقة المشاعر وبواعثها، فلا يزيد في الأقصوصة زيادة تبتذل، ولا ينقص منها نقصاً يشين، وعلى أساس هذا الفهم الصحيح لفن القصة، كتبت وداد مجموعات من الأقاصيص الفاخرة، فلم يكن بدعاً أن يجيء التوفيق حليفها من حيث إثارة متعة القارئ وحبك أطراف الأقصوصة فلا تتمزق، ومعالجة أمور النفس معالجة بصيرة فطنة، ودفع عجلة الحوادث دفعاً فيه سلاسة منطقية وبعد عن أسباب التكلف التي لا تخفى عن العين النفاذة النقادة.

ولن يعيينا أن نلتمس في أقاصيص وداد سكاكيني دلائل على الصدق الفعلي والفني، ولن نعدم الاهتداء في الحياة إلى شخوص يذكروننا بالشخوص الذين ابتدعتهم هذه الأديبة البارعة، ولا ريب في أن القلم البارع الذي ينصاع انصياعاً ليناً في يد وداد سكاكيني يسبغ على أقاصيصها جواً من البيان المحلق لا يتهيأ لكل حامل قلم.

فهي بموهبتها الفطرية، وبصيرتها الذكية، وقدرتها التعبيرية، ودرايتها الفنية، أديبة مكينة تعرف كيف تكتب، وكيف تكسب الإعجاب، وتؤدي للأدب وللبيان فوق حقوقهما.



إلفت الادلبي:

يخرج اسم دمشق من قلبي كعصفور صغير

"نكهة شامية" انتشر شذاها من كلمات نقية صافية، حملت صفات أقدم المدن على مقصوة الجمال .. لكن ألفة ادلبي ظلت خائفة على نسيج من العلاقات الإنسانية والاجتماعية، فسجلته في مؤلفات خرجت من قلبها مثل عصفور صغير.

ولدت في حي الصالحية، في تشرين الثاني من عام ١٩١٢، من أبوين دمشقيين، هما أبو الخير عمر باشا إدلبي ونجيبة الداغستاني. تلقيت علومي الأولى في مدرسة تجهيز البنات، وترعرعت في كنف والدي الذي لم يكن أديباً، وإنما كان ذواقة أدب، يحب الأدب القديم. وكنت مدللة عنده (فأنا وحيدة لخمسة أخوة ذكور) كان والدي يقرأ لي نصوصاً أدبية يحبها هو، ويقص علي أخباراً تاريخية استهوته، أظن أني بدأت أقرأ في كتاب "الأغاني"، وعمري لم يتجاوز الاثنتي عشرة سنة. كان لوالدي الفضل الأول في توجيهي الوجهة الأدبية، كان ينعم علي بالهدايا لأحفظ أبياتاً من المعلقات، وسواها من الشعر العربي القديم الجميل.

كانت مكتبته زاخرة بأمهات الكتب، مثل الأمالي والأغاني، والعقد الفريد .. وكان أترابي يتعجبون من قدرتي وصبري على قراءة تلك الكتب القديمة الصعبة. وكان لخالي كاظم الداغستاني الفضل الكبير في دفعي إلى كتابة القصة القصيرة تحديداً، إذ كان أديباً مرموقاً في تلك الفترة.

عرفني بالأدب الحديث بعدما عرفني والدي بالأدب القديم، عرفني بأدب طه حسين، وبمعارك النقد الأدبي التي كانت تثار على صفحات المجلات المصرية الحديثة مثل: "الرسالة" و"المقتطف". وكان لديه مكتبة كبيرة جداً. كنت أتجول فيها، وأنتقي منها ما أشاء من الكتب، وأقرأها.

في سنة ١٩٢٠ تحول التدريس من اللغة التركية إلى اللغة العربية، وعاد الملك

فيصل الأول من باريس، خرجت لاستقباله بزي مدرسي أعد خصيصاً لهذه المناسبة التاريخية. وفي السنة التالية أصبت بالحمى التيفية ونجوت منها بأعجوبة، فتأخرت عن الالتحاق بالمدرسة سنة كاملة، ولما أسست مدرسة (العفيف) القريبة من منزلي انتميت إليها، وكنت من المتفوقات في دروسي. وسنة ١٩٢٧ حصلت على الشهادة الابتدائية وانتقلت إلى دار المعلمات. وكان صفي قليل العدد لا يتجاوز ستة عشر تلميذاً، أما التلميذات فلا يكاد عددهن يذكر. وفي السنة ذاتها خرجت مع رفيقاتي في مظاهرة ضد الفرنسيين، وأنا محجبة.

تزوجت سنة ١٩٢٩ من الدكتور حمدي الإدلبي من دون أن أراه، ولكنه استطاع هو أن يراني خلسة بمساعدة صديقة للطرفين، وأنجبت منه ثلاثة أولاد هم: ليلى وياسر وزياد. وبدأت سنة ١٩٣٠ كتابة الخواطر لنفسي من غير أن أفكر بنشرها.

سنة ١٩٣٢ أنجبت ولدي ياسر، وأصبت بمرض أقعدني في الفراش سنة كاملة انقطعت خلالها عن القراءة انقطاعاً تاماً، وكان أحب هدية تحمل إلي في أثناء المرض هي الكتاب، وبعد شفائي تابعت القراءة وعشت حياة طبيعية، وانتسبت خلال هذه الفترة إلى عدة جمعيات خيرية وثقافية كجمعية دوحة الأدب، وكانت تعقد في داري ندوة شهرية يشترك فيها عدد من أدباء دمشق وأديباتها لتبادل الآراء حول الأدب والثقافة. وبعد خمس سنوات أنجبت ابن الثاني زياد، وعاودني المرض ولكن بشكل أخف، وزرت القاهرة لأول مرة فبهرت بها، وكنت أزور لبنان كل صيف حيث توثقت عرى الصداقة بيني وبين السيدة نازك العابد بيهم.

انتميت سنة ١٩٤٠ إلى جمعية الندوة وإلى حلقة الزهراء الأدبية. والتحقت بجمعية الرابطة الثقافية النسائية سنة ١٩٤٥، وكان من أبرز أعمال هذه الجمعية إصدار كتاب (مختارات من الشعر والنثر) لماري عجمي.

كتبت أول قصة سنة ١٩٤٧ (القرار الأخير) وأرسلتها للاشتراك في مسابقة إذاعة لندن، وحصلت على الجائزة الثالثة. وذات يوم أخبرت خالي الأديب "كاظم

الداغستاني) أنني كتبت قصتين وأرسلتهما إلى مجلة الرسالة، وعندها ضحك كثيراً وقال لي: (الم تجدي مجلة أقل تواضعاً من مجلة الرسالة .. كيف ترسلين بواكير نتاجك إلى تلك المجلة التي لا يكتب فيها إلا العمالقة) وصدر العدد الجديد من مجلة الرسالة وفيها القصة الأولى وهي بعنوان القرار الأخير. ثم صدر العدد الثاني وفيه قصة الدرس القاسي والاثنتان موجودتان في كتابي الأول (قصص شامية) الذي صدر سنة ١٩٥٣ وضم عدة قصص منها: مهدي أفندي، الكاسات المعدودة، ثوب سلمان، انتقام، الستائر الزرق، الدرس القاسي، كان سيئ الخلق..

أركز في هذه المجموعة على لحظة التغير النفسي في الشخصية الرئيسية، فهي تتماوج بين محورين نقيضين من نزعة تمرد إلى اطمئنان في قصة (الستائر الزرق)، ومن حركة وتفاؤل إلى ذبول وتشاؤم في قصة (مهدي أفندي) ومن شر وغطرسة إلى خنوع ومصالحة في قصة (الآغا أبو الدب) ومن إدمان على المنكر إلى تقوى وورع في قصة (الكاسات المعدودات). ويأخذ هذا التغيير النفسي مداه في عام زمني ينتقل مُن الماضي إلى الحاضر، وفي عامل اجتماعي حيث تغوص الشخصيات القصصية في مجتمع دمشقي أصيل، يحافظ على عاداته وتقاليده وإيمانه بالقضاء والقدر والسحر والتعاويذ والخرافات..

ويعلق الناقد حسام الخطيب على مجموعتي القصصية الأولى:

"تؤمن معظم شخصيات (قصص شامية) بالقدر الذي يلعب دائماً لعبته الأزلية، يعاقب الشر ويكافئ الخير، ويعقد المصادفات، ويجمع الأشتات، ويسخر من التوقعات، ويندر أن تصنع شخصية ما مصيرها بيدها. فهناك يد خفية حائكة تنسج خيوط المصير، ولكن الأشخاص مع ذلك ليسوا دمى فارغة بالمعنى القدري للمأساة اليونانية القديمة. وتصر يد القدر دائماً على جميع الأشتات، في عالم ألفة القصصي حتى يخيل إلى القارئ أنه لا يمكن لأية شخصية أن تفترق إلى الأبد عن الأخرى. وسبق أن أوضحنا أن السبب يعود إلى انحصار الشخصيات في بيئة دمشقية محدودة (مجتمع ما فوق الطبقة الوسطى) ولكن إلى جانب ذلك هناك تفسير قدري لا يمكن

استبعاده".

وبعد عشر سنوات أصدرت مجموعتي القصص الثانية "وداعاً يا دمشق" وضمت قصص: الرقبة المجربة، وداعاً يا دمشق، انهزم أمام طفل، سلاطين مخيفة، نسمة الصبا، الله كريم، خيط العنكبوت، سراب، ماتت قريرة العين .. وشكلت امتداداً لمجموعتي الأولى في عشق دمشق بأشجارها وزهورها وحاراتها، بشجيرات الياسمين الغضة التي تسيج أسوار منازلها .. وحرصت على تسجيل كل تقليد من تقاليدها لأصونها من الضياع والاندثار.

واستجابت قصصي للأحداث القومية في مجموعة "ويضحك الشيطان" (سنة ١٩٧٠) وضمت عدة قصص منها: الحل الوحيد، وراء الحدود، قضية خاسرة، بعد سبعين عاماً. وفي مجموعتي "عصي الدمع" (سنة ١٩٧٦) وضمت عدة قصص منها: على الدهر العلامة، الابتسامة المتوعدة، كبرياء التحدي، في العيون الجامدة، الصراع الذي لا ينتهي، المتبوعة، وعصي الدمع. نظرت إلى الوطن بصورته المطلقة. فناديت بالتضامن العربي في قصة (رسالة إلى مغتربة في أميركا)، وباركت العمليات الفدائية في (كبرياء التحدي في العيون الجامدة) وبكيت طويلاً لتوقف القتال في حرب تشرين في (عصي الدمع). كان عصي الدمع على الرغم من إصابته وعجزه، ولكنه بكى عندما سمع وقف إطلاق النار مع العدو الغاصب.

أصدرت سنة ١٩٦٤ كتاباً بعنوان "المنوليا في دمشق وأحاديث أخرى" ضم طائفة من المحاضرات والأحاديث التي ألفتها في مناسبات عديدة. وما كانت المنوليا إلا باباً للحديث عن سيدة أجنبية الأصل سيرتها أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع، لأنها جمعت كل التناقضات في حياتها الجديدة .. إنها "جين دكبي" الفاتنة المغامرة التي نشأت في مدينة "نورفوك" في إنكلترا"، وانتهت في حي "مسجد الأقصاب" بدمشق، بعد حياة حافلة بالعشق والتمرد والطموح، مليئة بالنزوات والمخاطرات.

ثم أتطرق في المحاضرة الثانية إلى "قصصنا القومي"، فتحدثت عن رواد القصة العربية في العهد العثماني، وفترة الانتداب الفرنسي، وتوقفت عند فرنسيس المراش مؤلف قصة "غابة الحق" عام ١٨٦٢ فاعتبرتها أقدم مشروع قصصي في الأدب العربي الحديث، وهي قصة رمزية عن مفهوم الحرية وتحرر الإنسان من العبودية.

أما المحاضرة الثالثة فتصور تخبط الشباب العربي في خضم من المذاهب الفكرية، وفي محاضرتي الرابعة عن "المرأة العربية والعقيدة" بينت أن المرأة أكثر ثباتاً على العقيدة من الرجل فهي نادراً ما تنقلب أو ترتد ولو أوردها ذلك الهلاك، وأخذت أمثلة من التاريخ العربي.

أما المحاضرة الخامسة، فهي عبارة عن جولة في الربوع الأندلسية، وفي محاضرتي الأخيرة تقمصت شخصية المحامي للدفاع عن المرأة العربية من النواحي التشريعية والتنفيذية والقضائية.

سنة ١٩٧٤ أصدرت كتاب "نظرة في أدبنا الشعبي" ويشمل على سيرة الملك سيف بن ذي يزن، وعلى دراسة موسعة عن "ألف ليلة وليلة".

وأصدرت بعد ذلك "نفحات دمشقية" توخيت أن أرسم فيها صورة لدمشق الماضي في المحاضرة الأولى. اسم دمشق يخرج من قلبي كعصفور صغير.. ويأتي بلا قصد في أكثر كتبي. واكشف في محاضرتي الثانية "إسرائيليات" ومن خلال العودة إلى التاريخ عن تحريف الصهاينة للتوارة لأغراض سياسية، وألقيت نظرة عجلى على الصين ماضيها وحاضرها في المحاضرة الثالثة. ورصدت سيرة النحاتة الفرنسية كميل كلوديل، وما حدث للأديبة اللبنانية مي زيادة والأديبة الشامية ماري عجمي. وسجلت "خواطر وتداعيات في رحلة إلى الشرق الأقصى". وفي الختام تناولت "المرأة والأم في الأساطير القديمة".

ترجمت قصصي إلى خمس عشرة لغة أجنبية هي: الألمانية، الإنكليزية، الفرنسية، الروسية، الأوزبكستانية، الشوفافية (لغة إحدى جمهوريات الاتحاد

السوفياتي)، الهنغارية، الهولندية، السويدية، الإسبانية، الصينية، الإيطالية، البرتغالية، التركية والفارسية .. ولدي نسخ من جميع هذه الترجمات.

ابتسامة تمحو جفوة!

(من وحي اسبانيا)

ما كان أغناني عن الاسترسال في هذا الجدل العنيف الذي نشب بيني وبين زميلي الشاب حتى انتهى بنا إلى جفوة أمضّت نفسي رغم أنها لم تدم إلا قليلاً.

كان أول ما عرفت زميلي في مركز شركة للسياحة في مدينة (مدريد) وكان كلانا قاصداً زيارة الأندلس، فآثرنا الانضمام إلى شركة من تلك الشركات التي اشتهرت بتأمين الراحة والرفاهية لمشتركيها، وكان من البديهي وقد عرف القيّم على رحلتنا أني وزميلي من بلد واحد أن يخصنا بمقعدين متلازمين في السيارة الكبيرة المعدة لرحلتنا، وان يتركنا في مائدة واحدة في كل فندق ننزل به، فأستأنست بزميلتي وأستأنس بي أنس الغريب يلتقي مصادفة بمواطن له في بلد بعيد.

وما أظن أن هذا الأنس يكون قوياً كما لو كان بين عربيين التقيا في اسبانيا التي لها في كبد كل عربي لوعة لا تنطفي مهما بعد العهد بالمأساة.

ولم نلبث حتى أصبحت وزميلي صديقين أو كالصديقين، رغم ما بيننا من تفاوت في العمر وتباين في الرأي، فهو لم يتخط مرحلة الشباب وأنا قد مضيت في الكهولة، وهو على عكسي تماماً مندفع اندفاعاً أعمى وراء كل جديد على علاته لاسيما إذا كان هذا الجديد غريباً، لقد فقد الإيمان بماضينا المجيد وأنكر، ما كان للعرب من تقدم في العلم والفن، ومن هنا نشأ الخلاف بيننا.

فلما صرنا في قصر الحمراء شعرت أنا كأني دخلت حرماً مقدساً، لقد رأيت فيه - شهد الله - فوق ما كنت أسمع وأكثر مما كنت أتوقع.

ففي قاعة السفراء ذات الأعمدة الرشيقة والقبة العالية التي نقشت كلها من أسفل الجدران حتى نهاية القبة نقوشاً فنية بلغت غاية الدقة والاتقان، في هذه القاعة، تملّكني زهو واعتزاز، كنت أحب أن أقول إلى كل من هم حولي من السياح: أنا عربية ....

ولكن آه يا لعقلي الطفل! مالي أوغل في الماضي فأتناسى المأساة وأتجاهل الحاضر؟؟

في هذه القاعة بالذات عقد أمراء العرب آخر اجتماع لهم قرروا فيه مصير العرب في اسبانيا إلى الأبد!!

ووجدتني أخرج من القاعة منكسة الرأس أكفكف دموعاً أبت إلا أن تتحدر سخية على مجد لنا ضاع!

وواجهتني باحة الأسود ذات الفسقية الشهيرة التي تحملها أسود تتدفق من أفواهها المياه، من هذه الباحة يبدو القصر بأجمعه بالغ الروعة والعظمة .... أين زميلي الشاب؟ هنا أستطيع أن أدحض مزاعمه بدلائل ملموسة تطل علينا من كل جانب، ولما عثرت عليه قلت له:

مالك يا أخي ألا تقف الآن أمام هذا البنيان الخالد وتسأله عن أخبار ذويه كما سأله معروف الرصافي الشاعر العراقي، دعه يحدثك حديث المجد والعيش الرفيه، فلا بد لقلبك إن كنت عربياً حقاً أن يقول آهاً، ولابد لأذنك أن تقول إيه، طالبة المزيد من هذا الحديث العجيب على ما فيه من لوعة وأسى، فإذا ابتسامة كلها تهكّم تعلو شفتيه ثم يقول لي: لقد بارت بضاعة الكلام...

فقلت له: أما هنا فدلائل ملموسة، ألا تجد أن فننا العربي نسيج وحده؟

ألا ترى في هذه الزخارف الهندسية فناً مجرداً بعيداً عن التقليد؟ إن فيه لخلقاً وإبداعاً، هنا حقاً كلما ابتعد الفنان عن الطبيعة كلما اقترب من الفن.

فهز برأسه وقال: علتنا هي لا تتبدل ولا تتغير، دائماً ننتحل الأعذار لتقصيرنا ثم نقنع بها أنفسنا ونبقى حيث نحن.

قلت: كأنك لا تفهم ما أقول، أنا لا أدافع عن تقصيرنا في بقية الفنون، وكل ما أريده منك هو ألا تبخس هذا الفن العربي حقه، ولا تنقص لهذا الأثر الخالد قيمته، وأنت وأمثالك أول من يشيد بهما، والآن استحلفك بالله وقد علمت منك انك زرت أفخر قصور أوروبا أمثال وندسور وفرساي وفونتين بلو وغيرها، لو قدّر لك أن

تختار أحدها أكنت تفضل على الحمراء مسكناً؟

فعادت إلى فمه الابتسامة الساخرة وقال: بعض آفاتنا الادعاء والغرور.

فكظمت غيظي وقلت لـه: لنفرض انك استيقظت ذات صباح فإذا أنت ربّ قصر فرساي ... وأحببت أن تستحم فماذا ستجد في حمامك؟ وعاء صغيراً لا أدري كيف كانت ماري انطوانيت الملكة المدللة تتكوم فيه، ثم تحمل إليك المياه بالجرادل من الطابق السفلي، بينما هنا في قصر الحمراء ما عليك إلا أن تخرج من غرفة نومك، فتهبط بضع درجات فإذا أنت في حمام أنيق لا يقل اتقاناً عن أحدث الحمامات في عصرنا هذا، أمامك مغطس قد سلّطت عليه ثلاثة صنابير أحدها للماء البارد والثاني للساخن والثالث للعطور، ألم تر هؤلاء الناس الذين أتوا إلى الأندلس من جميع أصقاع الأرض ليشاهدوا هذه الآثار العربية الخالدة، كيف فغروا أفواههم دهشة عندما قال لهم الدليل بأن العطور كانت تجري في الأنابيب في قصر الحمراء، ولفت نظرهم في غرفة الزينة الخاصة بسيدة القصر، إلى رخامة ذات ثقوب عديدة كانت تنفذ إليها العطور بأنواعها من الطابق السفلي فتتعطر السيدة بالنوع الذي ترغب.

فإذا انتهيت من حمامك وعدت إلى غرفة نومك، وطاب لك أن تستمع إلى شيء من الموسيقى ولكنك كنت زاهداً بمرأى الجوقة الموسيقية، فما عليك إلا أن تأمر الجوقة تصعد من درج خفي إلى شرفة خصصت لها، وبقيت على سدة في نصف جدار غرفة النوم، فتأتيك الأنغام دون أن ترى عازفيها، كأنك مثلاً تستمع إلى الراديو.

وكأني بمهندسي هذا القصر ومبدعي زخارفه قد خافوا عليك مغبة العظمة والكبرياء فكتبوا لك على الجدران فيما كتبوا: (العظمة لله) و (لا غالب إلا الله) فجاءت الكتابة منساقة مع النقش لم تقحم فيه إقحاماً كأنها فيه وكأنه منها، وأعجب الاسبانيون بهذه النقوش فقلدوها كما هي تماماً بآياتها القرآنية وخطها العربي الصميم، وزينوا بها فنادقهم الحديثة ودورهم الأنيقة، وهم يفخرون أشد الفخر بهذا

الفن الذي كانت بلادهم مرتعاً له حقبة طويلة من الدهر، حتى جعل لها طابعاً خاصاً يميزها عن غيرها من مدن أوروبا، فأخذ السياح يؤمونها من كل جانب ليروا هذه الآثار الخالدة، فكانت لإسبانيا مورداً لا ينضب، بينما أنت وأمثالك تتنكرون لهذا الماضي المجيد، فأجابني على الفور متأففاً: يالهذه الأغنية التي لا تنتهي، دائماً وأبداً: الماضي المجيد، وماذا جنينا منه؟ وأية أمة على وجه الأرض لا تستطيع أن تدعي أن لها الماضي المجيد؟؟ وشعرت أنا أن كلمة (تدعّي) تخز قلبي وخزاً، فلم أعد املك نفسي فقلت له:

إليك عني لقد أفسدت علي نشوتي بمرأى هذه الآثار العزيزة علي، أنا التي تجشمت ما تجشمت وتكلفت ما تكلفت لزيارتها، إنه لسخف مني أن أدخل معك في جدل كهذا الجدل، وأنا أدرك تماماً أنك وأمثالك ثمرة جهود المستعمر الذي استطاع بعد جهد أن يفقدكم الأيمان بماضيكم الذي يخشاه، ويخشى أن يكون أساساً متيناً لبناء مستقبلنا، وانحرفت عنه وأنا أحاول ألا أسمع ما يتفوه به من مزعجات.

وأخذت أصعد وحدي إلى جنة العريف التي هي على مرمى غير بعيد من قصر الحمراء، هنالك في جنة العريف دار صغيرة أظن أن أرباب قصر الحمراء كانوا يلجؤن إليها مع خلصائهم للاستجمام والهدوء، في صحن الدار تجري ساقية دفاقة قد زرعت على حافتيها أشجار السرو الواحدة تلو الأخرى، ومن أمام كل سروة انبثقت نافورة تلتقي بالتي أمامها فتشكل أقواساً مائية رائعة الشكل.

وأخذ النسيم يحمل إلي نفحات الورد البلدي والريحان والياسمين العبقة بذكريات الماضي، لقد بدأت أستعيد هدوئي، فإذا دليلنا السنيور ألبرتو ذو الأنف الطويل والرقبة الهزيلة يفسد علي متعتي هذه، إذ جاء يدعوني بشيء من الضجر للعودة إلى الفندق، آن أوان الغذاء، وقد سئم وهو يجري خلف السياح يحاول جمعهم ليعود بهم إلى الفندق فلا يفلح، لقد تفرقوا في المنعطفات الفيح الندايا وحول النافورات الدفاقة، وقد عز عليهم ترك الجنة، هنالك في الفندق في قاعة الطعام رأيت زميلي يزوّر عن المائدة التي أعدت لي وله، وينخرط مع زمرة من

الأميركان، بينما تأتي عجوز أمريكية تقاسمني مائــدتي، أخــذت تتحــدث بدهــشة وإعجاب عن الآثار العربية، وتسألني بكثير من الفضول: هل العرب الــذين كـــانوا يسكنون في اسبانيا في الماضي يمتون بصلة إلى عرب سورية وفلــسطين؟ وهــل كانوا يتكلمون ذات اللغة ويتدينون بنفس الدين؟ ولما أفهمتها أن العرب أمـــة واحـــدة ذات تاريخ واحد وحضارة واحدة، بدا لي أنها تتلقى كلامـــي بكثيــر مــن الــتحفظ والاستغراب فقد وقر في ذهنها ما تروجه إسرائيل عنا من أننا أمة لا نصيب لها من الحضارة والمدنية إن في الماضي ... أو الحاضر.

بعد الغذاء أعلن القيم على رحلتنا بأنه سيتركنا أحراراً في الــساعات الــثلاث القادمة، لنأخذ قسطاً من الراحة أو نجوب الأسواق إن شئنا.

أما أنا فلم أشبع من جنة العريف ووجدت في نفسي رغبة للعودة إليها، وهممت أن أعود إلى زميلي فأدعوه لمرافقتي وأزيل ما بيننا مــن جفــاء، ولكنـــي خــشيت ابتسامته الساخرة، وخشيت ألا أملك نفسي إذا رأيتها تعود إلى شفتيه مــرة أخــرى، فيحدث بيننا ما يجعلنا أضحوكة أمام هذا الجمع الرفيع التهذيب، فــآثرت الــسلامة وسرت وحدي، وأخذت أصعد مرتفعات جنة العريف كلما انتهيت من بضع درجات واجهتني فسحة صغيرة فيها فسقية ذات نافورة عالية، فلما صرت في آخرها جلست على إحدى هذه الدرجات حيث تنحدر من على يميني ويساري شلالات صــغيرات، وقد أشرفت على غرناطة من عل. ما أشــبهها بدمــشق تتخللهــا بــساتين وارفــة وتحوطها أشجار خلف أشجار، وفي أفقها البعيد جبال صغيرة محدودبات كـــالتلال، وهذا جبل تعلو قامته الثلوج كأنه جبل الشيخ، واسترسلت في تأملاتي، وأخذ يمر في خاطري كل ما وعته الذاكرة من تاريخ الأنــدلس وأدب الأنــدلس، هــذه الطبيعــة الخضراء الضاحكة ذات المناظر الأخاذة، أهي التي أوحت إلى ابن خفاجة روائعــه في وصف الطبيعة؟ وإلى ابن زيدون وولادة رقيق الغزل؟ وإلى غيــرهم وغيــرهم فرائد الشعر؟!...

إنها والله لخليقة أن توحي......

وهذا الوادي الذي ينحدر من على يميني ذو الظلال الحانيات حنو المراضع على الفطيم، أهي التي كانت ترد الشمس عن حمدونة الشاعرة أنىّ واجهتها فتحجبها، وتأذن للنسيم أن يلثم وجناتها، حتى وصفت الشاعرة الوادي بأبدع ما توصف به الأودية؟

فجأة، إذا صوت غير غريب عني يقطع عليَّ تأملاتي، فقمت من مكاني واتجهت نحو الصوت، فإذا زميلي الشاب ... نعم هو بعينه يقف خطيباً أو كالخطيب في زمرة من زملائنا السياح يحدثهم عن تراثنا العربي بلغة فرنسية، وبلهجة تنم عن إيمان صادق، وحماسة أين منها حماستي!!.

كان يقول لهم فيما يقول:

ألم تروا أن فننا العربي نسيج وحده؟ ألم تجدوا فيه خلقاً وإبداعاً؟ إنه الفن المجرد، ألم تلاحظوا أن في قصر الحمراء وجنة العريف من الفن الهندسي والذوق المعماري ما لا يوجد مثيله في كثير من الآثار القديمة، وأن هذه المياه الدفاقة التي ترونها تأتي من السدود الضخمة التي أقامها العرب، وحسبوا لها الحسابات الدقيقة كي تكفل جريان المياه مدى الصيف....

يا للعجب! أحقاً هذا زميلي المجادل العنيف العنيد ذو الابتسامة الساخرة؟

كدت أنكر ما أرى وأسمع فوقفت واجمة أصغي إليه، وكان كلامه يرتد برداً وسلاماً على كبدي، وأخذت أتفهم كلماته كلمة، كأن هذه الآراء ليست آرائي بل كأنني أسمعها لأول مرة.

ولما انتهى من حديثه وهم بالانصراف هو ومن معه أتيت بحركة بين الأغصان لألفت نظره إلي، فرفع رأسه فإذا نظراتنا تلتقي، فقلت له: ها أنت ذا قد عدت وكأنك مثلي لم تشبع من جنة العريف وماضيها المجيد، فغض الطرف وقال بصوت خاشع:

وهل يُشبع من الجنة؟

ثم ابتسم ابتسامة ود ورضى محت ما بيننا من جفاء.



صورة سلمى الكزبري

سلمى الحفار الكزبري :

يجب أن تكون الرواية ذات هدف ومضمون اجتماعي

كنت في الرابعة من عمري من عام ١٩٢٦، عندما نفي والدي، وكان وزيراً في حكومة المفوض السامي الفرنسي، مع ثلاثة وزراء آخرين هم أصدقاؤه في النضال: فارس الخوري، وسعد الله الجابري، وحسني البرازي، إلى منطقة (الجزيرة) شمال سورية مدة شهرين، بعدها نقلوا جميعهم إلى منطقة (الكورة) شمال لبنان وتحديداً قرية (أميون)، فسمح لعائلاتهم بعدها بالالتحاق بهم، قضيت في شمال لبنان فترة سنتين حتى بلغت السادسة من عمري، وأنا أحفظ إلى اليوم وداً ومحبة لهذه القرية الشمالية.

لم أتعلم في تلك الفترة ولم أدخل المدرسة، لكني كنت ألقي قصائد ترحيبية بالوفود الوطنية من لبنان وسورية التي كانت تفد لزيارة والدي، وكان والدي يدربني على تلك القصائد مع رفاق الدرب في المنفى، وبينهم صحافيون من آل الصفدي، ومن هذه القصائد: "سلام من صبا بردى.." لأمير الشعراء "أحمد شوقي"، وبعد سنتين أطلقت سلطات الانتداب الفرنسي سراح المنفيين، فعشت فترة في بيروت، عدنا إلى دمشق وأسس والدي مع رفاقه حزباً وطنياً عقد نجاحه في انتخابات الجمعية التأسيسية لكتلتهم.

رفض والدي في تلك الفترة فكرة التحاقي بالمدرسة، وأرادني أن أتمكن من اللغة العربية، وتتلمذت في حي الشاغور على يد الحاجة الشيخة عائشة، فعلمتني القرآن الكريم والنطق واللغة العربية الصحيحة مع إخوتي، لأدخل بعدها مدرسة "الراهبات الفرنسيسكان" حيث قضيت تسع سنوات، وبدأت أكتب وعمري ١٣ عاماً.

أول مقالة لي حملت عنوان "كيف يجب أن نستفيد من الزمن؟" ويومها كنت مقهورة أتساءل: لماذا تمضي النسوة أوقاتهن لوحدهن بعيداً عن الرجال الذين يلهون

ويمرحون في المقاهي، فكنت بذلك أتمرد على المجتمع، وقد نشرت المقالة في مجلة "الأحد" الدمشقية، بعدها كتبت شعراً بالفرنسية ومن ثم "يوميات هالة" الذي صدر عام ١٩٥٠.

و"يوميات هالة" جاءت انعكاساً لي، وأذكر أن أصدقاء والدي وأعمامي، والشاعر العظيم "بدوي الجبل" طلبوا إلي عدم مس أي جملة أو كلمة، لأن الكتاب سهل ممتنع فيه لغة بسيطة عفوية.

نشأتي كانت سياسية اجتماعية في بيت محافظ، والدي من الرعيل الأول فعشت تاريخاً مع رفاقه المناضلين السياسيين في سورية ولبنان ومصر والعراق.

وأنفق والدي المال الذي ورثه عن أبيه في سبيل سورية وحريتها واستقلالها. وقد أنشأني وعلمني وشجعني وقد كتبت كتابين عنه هما "عنبر ورماد" و"لطفي الحفار.. مذكراته وحياته وعصره" فوالدي مثلي الأعلى في الحياة وقد توفي عام ١٩٦٨.

تزوجت أول مرة من محمد رشيد كرامي شقيق الزعيم عبد الحميد كرامي في لبنان، لكن زوجي توفي بعدما وضعت ابني البكر نزيه وله من العمر ٥١ يوماً فقط، فصدمت، لكن الصبر والإيمان بالله ورعاية الأهل والحب الذي أحاطني به آل كرامي، كل ذلك دفعني إلى أن أقضي خمس سنوات جديدة متنقلة بين دمشق وطرابلس، وخلال تلك الفترة رحت أتابع دراستي في اللغة العربية فتتلمذت على يد الأستاذ أبو الخير القواص، فتناولت معه كل الأدب العربي والتاريخ الإسلامي، وراسلت الجامعة اليسوعية في بيروت، وحصلت من خلال دراستي على إجازة في العلوم السياسية باللغة الفرنسية، وبدأت أكتب مقالات في مجلة "صوت المرأة" في بيروت في تلك الفترة، أما ابني البكر نزيه فقد تابع تحصيله المدرسي في مدرسة "برمانا" بمنطقة المتن، ليدرس بعدها الحقوق في القاهرة ويصبح محامياً لامعاً.

في تلك الفترة بلغت الـــ ٢٦ ربيعاً، فدفعني أهلي وعائلة زوجي الراحل إلى الزواج، فتزوجت من نادر الكزبري، وهو دكتور في الحقوق من جامعة السوربون،

في جامعة دمشق وعضو مجلس الشورى.

أنا مدينة لرجلين في حياتي: والدي الذي علمني وشجعني ودربني، وزوجي الذي عرف بقصتي، وكان مصراً على رفيقة درب من نوعي، وهو محب للفن والأدب وله ذوق رفيع في تلك الأمور، وقد استفدت من آرائه كثيراً، وأتمنى أن يكون لكل السيدات أزواج مثل رفيق عمري "نادر".

من المعروف أن صداقة عائلية جمعتك بالشاعر الكبير الراحل نزار قباني:

العلاقة بيني وبين نزار علاقة زمالة أولاً، فأنا ناثرة وهو شاعر، وكنا نقرأ لبعضنا بعضاً قبل مرحلة إسبانيا التي انتقلت إليها مع زوجي بحكم عمله الدبلوماسي. ونزار كان تلميذاً لزوجي نادر ويكبرني بسنة واحدة فقط، وعمل كمستشار في السفارة السورية في إسبانيا حتى ١٩٦٦، ليعتزل بعدها العمل الدبلوماسي، وفي تلك الفترة أصبح جزءاً من العائلة، إضافة إلى الأعضاء الآخرين في السلك الدبلوماسي السوري في إسبانيا، فكنا نقضي سهرات عائلية، ولم يكن يومها نزار قد تزوج للمرة الثانية من المرأة التي أحب "بلقيس"، وكان له أولاد من زوجته الأولى، فتعرفت، زوجي وأنا، إلى نزار الدبلوماسي والصديق والإنسان والشاعر، وأنا أتعجب أحياناً عندما أقرأ شعر ومغامرات الحب لنزار، فهذا أمر لا يصدق، لأن نزار رجل خجول جداً في علاقاته الشخصية. مرحلة نزار قباني في إسبانيا كانت مهمة جداً، فتعرفنا نادر ونزار وأنا على الوسط الثقافي والمستشرقين في إسبانيا، وزرنا بلاد الأندلس وحضرت ولادة قصائد نزار عن غرناطة وعن والدته أيضاً، وشاركنا في مهرجان ابن حزم ١٩٦٣.

خلال تلك الفترة وبعدما تعلمت الإسبانية وبت أتحدث بها بطلاقة، شرعت في كتابة رواية من واقع الحرب الأهلية الاسبانية وذيولها، وكنت قد عدت إلى دمشق مع زوجي وعملت على مراسلة نزار، لأستوضح منه عن بعض الأماكن الجغرافية، لكن عندما انتهيت من الرواية توقفت عند عنوانها، واتصلت به مستنجدة وقلت له:

يا نزار أنا لا أجد عنواناً لتلك الرواية، وقد أطلق لي عنواناً بعدما عرف تفاصيل عن البطلة والرواية والحبكة هو (عينان من إشبيلية) فالبطلة صاحبة عينين جميلتين وموطنها إشبيلية.

- **هل احتل الرجل البطل حيزاً مهماً في رواياتك؟**

لا يمكن أن تكون هنالك رواية من دون رجل بطل حتى أحياناً في الرواية البوليسية أو التاريخية. فالواقعية ضرورية في الرواية لتشويق القارئ. والروايتان اللتان كتبتهما (البرتقال المر) و(عينان من إشبيلية) كانتا من قلب الواقع، والرواية يجب أن تكون ذات هدف وتحمل في طياتها دراسة اجتماعية. وهي رسالة تقدم لشخص حزين أو سعيد على السواء.

- **ماذا عن الصداقة بين الرجل والمرأة؟**

الرجل إما معلم أو أستاذ أو صديق. وأتوقف عند كلمة "صديق" لأقول إن الصداقة مهمة بين الرجل والمرأة، لكن يلزمها زمن معين من العمر وتحديداً الشيخوخة، لا أؤمن بالصداقة بين شاب وشابة، إذ هنالك رغبة وعلاقة من نوع آخر تجذبهما إلى بعضهما بعضاً. والصديق عادة هو الذي نحكي له ونشكو له همومنا ومشاكلنا ومشاعرنا.

والشاب والشابة عادة هم رفاق وليسوا أصدقاء، والصداقة هي فوق الحب أحياناً، كما ذكر أبو حيان التوحيدي في كتابه الشهير (البيان والتبيين)؟.

صداقات أدبية:

- **بمن تأثرت من الرواد في القرن الماضي؟**

تأثرت بما قرأت للمنفلوطي والمازني، وتأثرت بمعروف الأرناؤوط في دمشق، وتعرفت إلى توفيق يوسف عواد في لبنان، كما تأثرت أيضاً بأحمد أمين.

▪ **من هم أقرب الأصدقاء إليك في الصالون الأدبي؟**

لم تكن هناك صالونات أدبية عاصرتها بالمعنى الصحيح، ففي مطلع القرن الماضي وجد صالون "ماري عجمي" وهي أستاذة كبيرة، إضافة إلى صالون الأديبة "مي زيادة"، وفي بيروت عاصرت الندوات الأدبية في مدينة تجمع كل الأذواق والأهواء.

وأصدقائي كانوا أغلبهم في الجامعة الأمريكية في بيروت، ومنهم الدكتور فؤاد صروف وهو من كبار الأساتذة، وقد شجعني على دراساتي وانكبابي على إصدار كتاب عن "مي زيادة" بتأثر مباشر من عمه يعقوب صروف، صاحب جريدة "المقتطف"، إضافة إلى صداقتي مع الدكتور قسطنطين زريق رئيس الجامعة سابقا، وشيخ المؤرخين الدكتور نقولا زيادة.

▪ **وهل تعتبرين أنك حققت كلما تتمنينه؟**

لا، على الإطلاق، فأنا لست مغرورة لأقول عن نفسي هذا، على الصعيد الشخصي ككاتبة قد لا أكون تأسفت على أي شيء نشرته، فكل مرحلة زمنية كان لها نضج معين، فالكاتب عادة يتدرج والإنسان يتعلم وينضج، وقد تأثرت حقيقة في مرحلة النضوج، إضافة إلى كتاب عرفتهم، بشعراء عاصرتهم التقيت بهم أو شاهدتهم، ومنهم من رحلوا، لكنهم خلدوا عبر أعمالهم، وهم على سبيل المثال عمر أبو ريشة، بدوي الجبل، أمين نخلة، و الياس أبو شبكة.

وأتمنى اليوم حقيقة أن أقدم الأفضل والأحسن، أعد للألف قبل أن أنشر أي عمل جديد حتى يكون في المستوى المطلوب.

يا أيها الملك المأمون طائره...

سلمى الحفار الكزبري الأديبة الكبيرة، مؤرخة الأندلس، حضارة وأدباً في عصرنا الحديث، لم تزل تنهل من معين الأندلس وترويناً،مؤلفاتها القيمة، أبحاثاً وروايات (اندلسا خالصاً) عناوين ومحتويات: (في ظل الأندلس) (عينان من اشبيلية) و (البرتقال المر).

اقتفت الأديبة سلمى الحفار آثار زرياب في بغداد ... وأوضحت أنه ولد لأبويين قدما إلى بغداد من سواحل إفريقيا الجنوبية عقب الفتوحات، وقد ظهرت على (علي بن نافع) وهو الاسم الأصلي لزرياب، دلائل النبوغ منذ طفولته، كذلك ولعه بالفنون الجميلة ولا سيما بالموسيقى والغناء، مع ذاكرة قوية في حفظ الشعر والألحان، وعندما بلغ الرابعة عشرة من العمر، توجهت الأنظار إلى مواهبه المتعددة، فاشتراه الخليفة العباسي المهدي، ابن أبي جعفر المنصور ليكون أحد مواليه، ولما سمع المهدي صوته الساحر أعجب به وأطلق عليه اسم (زرياب) الذي اشتهر به تشبيهاً له بطائر أسود اللون ساحر الصوت، يدعى زرياب هذا الطائر معروف في بعض بلادنا العربية باسم (أبو زريق)، ومعناه باللغة الفارسية الذهب المصفى.

كان زرياب، يحفظ من الأشعار أجودها، ويستنبط من العود أنغاماً رائعة ويغني فيُطرب،لهذا رعاه الخليفة رعاية فائقة، ومن أجل استكمال ثقافته الموسيقية، اعتقه بعد أربع سنوات قضاها في بلاطه، موصياً به أكبر فنانين موسيقيين في ذلك العصر، إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، فانتسب (زرياب) وهو في ربيعه التاسع عشر إلى معهدهما الذي كان يخرج كل عام عشرات العازفين على العود، والمغنيين والراقصين من قيان وجوار وغلمان كانت تنتظرهم القصور لإحياء سهرات السمر والطرب في بغداد، قضى زرياب ما يقرب من عامين في معهد إسحاق الموصلي، تألق خلالهما في العزف على العود.

ويعود تفوق زرياب في الموسيقى والغناء وضبط الإيقاع، في رأي الباحثين، إلى أصله الإفريقي،لأن العنصر الأسود في إفريقيا، تميز منذ العصور القديمة، بإتقان الموسيقى والرقص، وقوة الأبدان وجمال الأصوات،وفي إحدى الأمسيات، طلب الخليفة هارون الرشيد من نديمه كبير الفنانين في ذلك العصر إسحاق الموصلي أن يأتي بالمع تلاميذ المعهد الموسيقي، فاصطحب إسحاق زرياب معه إلى مجلس الخليفة، وأراد الخليفة أن يمتحن الفتى،فسأله رأيه في الموسيقى والغناء، فأجابه زرياب بأدب وجرأة: إن هذا الفن غذاء للروح والعقل، وإذا سمح لي أمير المؤمنين بالعزف على العود والغناء، فأسمعه ما لم تسمع مثله أذنان، أعجب الرشيد باعتداد زرياب بنفسه، فأمر أستاذه اسحق بإحضار العود ليستمع إلى عزف تلميذه وغنائه ففعل، ولما جيء بالعود، تشجع زرياب وخاطب الخليفة.

- إن لي عوداً نحته بنفسي، وأرهفته بإحكامي له، فهل تأذن لي بالعزف عليه أمامك؟.

وكان زرياب قد أحضر عوده معه وتركه خارج المجلس، فسمح له الخليفة بإدخاله، ولما رآه معه قال له مستغرباً:

- إني لا أرى عودك مختلفاً عن عود أستاذك، فما الذي منعك من العزف عليه.

أجاب زرياب: صدقت يا مولاي، النظر إلى العودين لا يشير إلى الفارق بينهما،ولكن عودي أقل وزناً من عود أستاذي بما يقارب الثلث، وإن كان حجمه مماثلاً، وإن الأوتار في عودي اتخذتها من أمعاء شبل لأن لها أضعاف القوة التي لغيرها المصنوعة من أمعاء حيوانات أخرى، ولقد زدت على عودي وتراً خامساً يعطي صدى عميقاً، ومساحة للأنغام أكبر، أما الريشة التي أعزف بها فهي من قوادم النسر، اعتمدتها بعد تجارب متعددة قمت بها، لأنها أخف من المضارب الخشبية التي يستعملها العازفون وأرق وقعاً على الأوتار.

كان اسحق الموصلي يصغي إلى ابتكارات تلميذه التي فوجئ بها والحسد

يمزقه غيظاً لسببين: أولهما: خوفه من منافسة زرياب له في فنه ببغداد، لأنـه كـان زعيم الفنانين الأوحد فيها، والسبب الثاني: غيرته من أن يحتل زرياب مكانتـه فـي قصر الخليفة، أما زرياب، ذلك الفتى العبقري العارف قدر نفسه، فقد أدرك بذكائـه أن حضوره إلى مجلس هارون الرشيد هو فرصته الكبيرة لإظهار براعته فانتهزهـا ولا سيما أن أستاذه اسحق كان متكبراً عليه يعاملـه أسـوأ معاملـة فـي المعهـد، ويستخف به وبأصله، لذا احتضن عوده مستأذناً الخليفة وبدأ يعزف عليه بمهارة، ثم غنى له قصيدة في مدحه مطلعها:

يا أيها الملـك الميمـون طـائره هارون، راح إليك الناس وابتكـروا

وفي نهاية الجلسة، سمع زرياب عتب الرشيد على اسحق الموصلي لأنه كـتم عنه وجود زرياب ونبوغه، وفي صبيحة اليوم التالي استدعاه أستاذه الذي لم تغمض له عين في الليلة السابقة وقال له: لقد تفوقت علي البارحة يا زريـاب أمـام أميـر المؤمنين، وهذا مالا أرتضيه لنفسي، لأن الشراكة في الصناعة، تولد العداوة و أنت مخير الآن بين أمرين: فإما أن تبقى في هذه المدينة وتستهدفك سـهامي، وإمـا أن ترحل عن بغداد ولا تعود نهائياً.

صدم زرياب بحقد أستاذه (وقرر الخروج مـن بغـداد وكـان فـي الواحـدة والعشرين من العمر عندما بلغ (مصر) التي استقر بها عدة سنوات تـزوج أثنائهـا وأنجب أربعة ذكور وبنتين، وظل حينينه لبغداد ومرابـع طفولتـه، يتـأرجح فـي صدره، فغنى في القاهرة هذه الأبيات:

بـالله قـل للنيـل عنـي إننـي لم أشف من مـاء الفـرات غلـيلاً


وسـل فـؤادي فإنـه لـي شـاهد إن كـان طرفـي بالبكـاء بخـيلاً

وبفضل صاحب (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب)، نعلـم أن زريـاب غادر مصر مع عائلته إلى القيروان في تونس والفرقـة الموسـيقية الخاصـة بـه،

وجاريتيه البارعتين في العزف والغناء وهما: مصابيح ومتعة.

وقد استقر بتونس إبان عهد حاكمها الملك زيادة الله الأغلبي في الربع الأول من القرن التاسع الميلادي، ولقد وجد زرياب من ملكها زيادة الله ترحيباً وتقديراً كبيرين لأنه كان أديباً مولعاً بالشعر والموسيقى والغناء فكرمه، وقد استطاع زرياب أن يعلم العزف على العود والغناء لفريق كبير من سكان القيروان، فتحول أحد أقدم أحيائها إلى دارة للفنون، مؤلفة من زرياب رئيساً وفرقته التي ضمت أولاده وجواريه حتى سمي ذلك الحي باسمه، فأصبح معروفاً في القيروان باسم (الحي الزريابي).





غادة السمان:

لا توجد امرأة حرة في مجتمع غير حر...

الحياة قصة كبيرة وأخبارنا اليومية مجرد فصول تجمعت لتزيد من تفاصيلها، وكأننا لا نكتفي بالأحداث الحية، فنلجأ إلى الكتب لنستعرض قصصاً جديدة تبدأ عند أول مجلد وتنتهي في آخر صفحة منه.

وهذه القصص ليست جديدة بمضمونها لأنها مأخوذة من واقع تكثر فيه العجائب والغرائب، لكننا أحياناً نستمتع بقصة ما فيشدنا جمال السرد ويدفعنا سحر التشويق لمتابعة الأحداث ليل نهار، بينما يسبقنا الغبار إلى كتب أخرى تخلينا عنها في منتصف الطريق، الغبار لم يجد يوماً طريقاً إلى كتب غادة السمان، لأن الكاتبة تعيش القصة بأحاسيسها فتحركها وتدعو القارئ للمشاركة بها فيعيش قصته من خلال ما يقرأ، لماذا؟

لأنه عندما تكتب غادة السمان (يلتهب الداخل وتشتعل الأرض الداخلية الغامضة)، كما تقول، فتنفجر الأحاسيس صادقة ما بين السطور، الأدب هو فن الكتابة والأديب أو الفنان حساس لدرجة أنه يستطيع التقاط صور مستقبلية تتجلى في كتاباته بالحدس.

غادة السمان كتبت (ليل الغرباء) في صيف ١٩٦٦، فانتقدها البعض بإغراق الكتاب في الحزن والتشاؤم ووصفوه (كغروب ليلة هزيمة في ساحة حرب مغسولة بالأوجاع)... كان ذلك قبل هزيمة ١٩٦٧ بأشهر قليلة، (بيروت ٧٥) كتاب آخر صدر في مطلع العام ١٩٧٥، مات على صفحاته أبطال كثيرون ... أحداث مأساوية تخيلتها الأديبة لتشبك بها حلقات قصتها، فإذا بساحات بيروت تشهدها حية بدمائها وضحاياها بعد فترة وجيزة.

عالم الأدب مزدحم، فكيف تتميز كاتبة وسط حشد لا يُحدّ من الأدباء؟ لا بد

لغادة السمان أن تتميز لأن (شهية الاستمرار عنـدها متوهجـة، وحاسـة التحـدي المقترنة بالدهشة لا تنام)، هذا بالإضافة إلى ما تتمتع به من إحساس صادق وفلـسفة أدبية عميقة وعفوية.

غادة السمان لا ترى في الغيم إنذاراً للمطر، بل مركباً يحملها بعيداً عن عـالم الملموس لتغوص في دنيا لا تحتاج فيها للعين لكي ترى ولا لـلأذن لكـي تـسمع، الفرق بينها وبين الأشخاص العاديين أنها قادرة على إعطاء تفسير لكـل مـا يـدور حولها، همها الكبير هو العالم الكبير والوجود والأسرار والخفايا، أما الهموم اليومية فلا ترهقها لأنها تراها على حقيقتها وتعتبرها (مجـرد إلهـاء يـومي عـن موتنـا اليومي).

كتبت كثيراً عن الحروب، والموت تردد كثيراً في كتاباتها وأحاديثها.

عن وحدتها مثلاً قالت: (وحدتي هي المسافة بين لحظة ولادتي ولحظة مـوتي، بين لحظة سقوطي في سجن الولادة ولحظة يطلق الموت سراحي)، (خوفي الكبيـر أن لا يكون الموت نوماً بلا أحلام، وأن يكون مثقلاً بالكوابيس التـي لا نملـك لهـا شيئاً).

الكتابة عن الشقاء والحزن والموت لا تعنـي بالـضرورة أن يكـون الكاتـب مصاباً بشر المرض السوداوي، بل ذلك يخلف وراءه صورة واضحة عـن تمـرده ورفضه لتقبل ما يدور من حوله.

غادة السمان امرأة لها وجودها، ليس فقط في عالم الأدب، بل هي مـن خـلال أدبها تبدي تمردها على المجتمع الصغير والمجتمع الكبير، وتطالب بحقوق المـرأة والرجل في آن، لذلك قيل: إن أعمالها ليست محصورة في بيت أو بيئة أو مدينة بل إنها تخاطب الإنسان في كل مكان، إنها في الأدب فنانة وفي الفـن امـرأة، ولكنهـا ترفض التحدث عن المرأة الكاتبة بمعزل عن الكتاب، وترفض فكرة تقييمها كـأدب نوعي منفصل، فمن الطبيعي جداً، برأيها أن تكتب المرأة عن معاناة المرأة عامـة، (وهل نعتبر نزار قباني في طليعة نجمات الأدب النـسائي لأنـه وصـف مـشاعر

المرأة؟) إن القصة في النهاية هي قضية إبداع سواء تحدث الكاتب الرجل عن قضية المرأة أو تحدثت الكاتبة المرأة عن قضايا العمال).

لم توافق على تسمية أدب الأديبات (أدباً نسائياً)، ولم تطلب الحرية يوماً للمرأة فقط، غادة السمان مع الفرد الناجح ومع الأدب الجيد، لم ترض بتسمية أدبها (نسائياً)، غادة السمان مع الفرد الناجح ومع الأدب الجيد. لأنه لم يعد من المسموح أن يتحول التصنيف في الأدب كالسؤال التقليدي الذي كان يطرح على القابلة القانونية (بنت أم صبي)؟ أنها مع الإنسان وحرية الفرد ذكراً وأنثى، لأن (المرأة العربية لن تنال قضمة واحدة من رغيف الحرية إلا إذا كان ذلك الرغيف متوفراً للشعب بأكمله، والخطأ الذي يجب ألا تقع فيه المرأة العربية عامة، هو التوهم بأنه يمكن لمشاكلها أن تحل بمعزل عن حل مشاكل المجتمع ككل، لا يمكن وجود امرأة حرة في مجتمع غير حر، لا يمكن أن تعامل المرأة بعدل في مجتمع غير عادل، لا يمكن للمرأة أن تجد السلام في مجتمع بائس ... وخلاص المرأة لا يمكن أن يكون خلاصاً فردياً).

التعبير عن الرأي والذات بهذه الطريقة دليل واضح على الرحلات الطويلة التي تقوم بها الأديبة في العمق والأعماق.

ربما ليست قصصها نتيجة تجارب شخصية ولكن تحليلها العميق ومعاناة أبطال رواياتها نابعة عن شخصية مميزة لا ترضى لنفسها مركزاً إلا في العمق.

وغادة التي نشرت جميع أعمالها غير الكاملة من قصة ومقالة ورواية شعر، والتي طبقت شهرتها الوطن العربي بين أديبات عصرها، ما تزال تعطي وتعطي وتكتب وتنشر كتبها ضمن (دار نشر خاصة) بها أعطتها شعار (البومة).

و(البومة) هي رمز التفاؤل، حسبما تقول لا كما يعتبر البعض بأنها رمز التشاؤم.

ولدت غادة السمان بدمشق وهي: ابنة الدكتور أحمد السمان الأستاذ الجامعي الذي أصبح عميداً لكلية الحقوق طوال عقدين من الزمن، فرئيساً للجامعة، فوزيراً

للتربية والتعليم، وهي نفسها بدأت حياتها العملية كأستاذة محاضرة في جامعة دمشق، ولكنها سرعان ما تمردت على المجتمع البورجوازي السوري، فتركت الأسرة والجامعة ودخلت إلى أوروبا الغربية في جولات من التجارب الإنسانية الحرة والعميقة، ثم عادت لتستقر في لبنان وتعمل كصحافية وكاتبة فقط.

وقد كانت غادة (مفاجأة) لجيلها من الرجال والنساء لأنها قدمت نموذجاً جديداً على الحياة العربية المحافظة، جديداً في الفكر والسلوك، ومن هنا كان إبداعها الأدبي مغايراً ومختلفاً عن القيم الأدبية السائدة في الوطن العربي.

وهي بالطبع ليست مقطوعة الصلة بتراثها الأدبي، فهي جزء من التقاليد العريقة لأدب بلادها، ولكنها جزء أضاف إلى هذه التقاليد تجربة غنية لامرأة عربية من المشرق تعمل بالكتابة، وتتثقف بأهم تيارات الثقافة الإنسانية في الغرب، وخاصة الآداب الإنكليزية والفرنسية، وهي أيضاً تجربة (البنت الشابة) التي تركت وراءها الحياة البرجوازية لتعمل وتعيش في عالم قاس سريع التغيير، وقد ترك ذلك كله آثاراً واضحة على أدبها، سواء في القصة القصيرة أو في الرواية.

والملاحظ أن غادة السمان لم تكتب الرواية حتى العام ١٩٧٤ حين شرعت في كتابة (بيروت ٧٥) كانت تكتب القصة القصيرة طيلة الأربعة عشر عاماً السابقة، وكان أهم إنتاجها في القصة القصيرة هو كتاب (رحيل المرافئ القديمة) الذي كتبت قصصه الست على أثر الهزيمة العربية عام ١٩٦٧، ولكنها في أواخر عام ١٩٧٤ وقبيل بداية الحرب اللبنانية ١٩٧٥ فاجأت القراء بأول رواية في حياتها الأدبية والرواية العربية الوحيدة التي سجلت البدايات غير المرئية للحرب، فتنبأت بها على نحو من الأنحاء وهي رواية قصيرة من حيث الحجم ولكنها ليست قصة قصيرة طويلة).

وفي أثناء الحرب نفسها أنجزت غادة السمان روايتها الثانية الطويلة جداً (كوابيس بيروت).

وأثارت هذه الأعمال الثلاثة مجموعة من الأسئلة حول علاقة نوع الحرب

بالنوع الأدبي من ناحية ثانية.

فلماذا كانت القصة القصيرة هي التعبير الأدبي عن الحرب الوطنية عام ١٩٦٧؟ولماذا كانت الرواية هي التعبير الأدبي عن الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥؟ وما مغزى أن تكون رواية النبوءة قصيرة ورواية المعايشة طويلة؟ من الملاحظ أنه بالرغم من أن بعضاً من أهم أعمال غادة السمان قد تمت ترجمته إلى لغات أخرى غير العربية، كالإنكليزية والألمانية والإسبانية والروسية والفارسية والبولندية والرومانية، إلا أن شيئاً لم يترجم لها إلى الفرنسية، بعض النقاد كتبوا عنها بالفرنسية ولكن أدبها لم ينقل إلى هذه اللغة.

غادة السمان بصفتها أنثى تنتمي إلى الأقلية الجنسية التي كتبت عن الحرب، فكان هذا الحدث أحد عناصر التحرر الإنساني الذي حصلت عليه المرأة العربية، وكانت الكتابة من مظاهر هذا التحرر، ولكن غادة السمان لا تكتب أدباً خالياً من العقد النفسية كالكبت: وان المجتمع الذي ظهر فيه (عمل) غادة السمان قد شارك في (إبداع) هذا العمل، بما يسمى في علم اجتماع الأدب، بالإبداع الجماعي، وإن المجموعات البشرية التي ساهمت في الحرب بواسطة السلاح أو بدونه هي شريك أساسي في صياغة البنى الذهنية التي برز عمل غادة السمان من داخلها.

ولا بد من الحديث عن مكانة أعمال غادة السمان في المجتمع كونها الوجه البارز في الأدب العربي الحديث، ولأنها في الأصل امرأة برجوازية فهي حظيت باهتمام أجهزة الإعلام العربية، والنقد الأدبي وقد أدركت غادة في وقت مبكر أهمية (الوسيط) وبسبب بعض صفاتها الشخصية وبسبب القيمة الأدبية لعملها، فقد تمكنت من السيطرة على هذا الوسيط: في الصحافة والنقد الأدبي، فلأنها أنثى تمارس الكتابة، ولأنها من أسرة دمشقية معروفة، ولأنها مارست تجربة الحياة في الغرب والشرق بحرية نسبية، جذبت إليها الكاميرات والتلفزيون والأقلام والصحفيين، ولأنها تعمل في الصحافة قامت بتحقيقات مثيرة وغريبة على الصحافة العربية – داخل السجون ومستشفيات الأمراض العقلية، ولأنها تميزت بالشجاعة والأسلوب

الجميل الذي يجمع بين التراث العربي والتأثيرات الأجنبية، بسبب ذلك كله تمكنت غادة السمان من تحقيق شهرة واسعة، لا في الأوساط العربية المثقفة فقط، وإنما في دوائر البورجوازيات العربية الصغيرة من المتعلمين تعليماً متوسطاً.

إن اهتمام معظم تيارات النقد الأدبي العربي بغادة السمان لا يعني أنها حظيت بإعجاب الجميع، ولكنها في كل الأحوال حظيت بالاهتمام الواسع في عالم الأدب الرحيب.

الكتابة .. هي الطعنة والدواء في اللحظة نارية واحدة..

تروي إحدى القصص، (ألف ليلة وليلة) أن رجلاً وجد نفسه في قصر، فأعطي مفتاحاً لأربعين غرفة، وسمح له أن يفتح الغرف كلها ما عدا غرفة واحدة، لكنه لم يستطع أن يقاوم رغبته أمام المغلق.

- **لو كانت غادة السمان مكان هذا الرجل، هل كانت تتجرأ على فتح الغرفة الأربعين، وهي القائلة بأن (للأدراج المغلقة سحراً يتغلب على كل حس) وإنها كانت في طفولتها تعالج الأدراج المغلقة (سراً) في بيوت الأقارب والمعارف؟**

لم أعد أعالجها سراً، صرت أفعل ذلك علناً أينما وجدتها واتقاضى مقابل ذلك راتباً باهظاً!.. إنها حرفة الكتابة، ومحاولة كشف أسرار النفس البشرية .. والفنان لا يعاقب على (سرقاته) لكنه يعاقب إذا لم يتقنها! هل أتجرأ على فتح الغرفة الأربعين؟ أي أديب يستطيع مقاومة سحر المعرفة حتى ولو عوقب بدحرجة صخرة (سيزيف)، أو سهل وهج الحقيقة عينه كما حدث لـ (بروميثيوس)؟ الفن محاولة بشرية متواضعة لملامسة شمس غرفة الأسرار وتعرية صناديقها (المختومة بشمع اللعنة الأحمر) للضوء .. وتفكيك الغاز الصدأ الحي، لحروف أزمان مكتوبة بالدم والمعادن المائية الغامضة...

إن جوعي للمعرفة لا يوازيه غير وعيي بأحزان ما يقع خارج تلك الغرفة المحرمة الشهية، فأنا من جيل فتح عينيه على مأساة ضياع فلسطين، وانكسر صباه على حد شفرة هزيمة ١٩٦٧، وعايش نكبات هذا الوطن العربي، أحزان ما كان، ومخاوف ما قد يكون ... في زمن كهذا، تعجز حروفي عن ارتداء الدانتيل والذهاب إلى غابة النسيان لصيد الفراشات الملونة، والدم يسيل على أطراف أصابع زمننا العربي...

مازلت أشتعل شهية أمام الغرفة الأربعين، لكن واقع أمتنا يخطف إليه قلبي

وحروفي .. لا أستطيع مثلاً أن أراقب على شاشة التلفزيون عربدة الصهاينة واحتفالاتهم بمناسبة (عيد) دولتهم العنصرية إسرائيل، العيد رقم ٣٩، (كما كنت أفعل منذ دقائق)، ثم انفض عني المشاهد كريش الطيور، وأتابع الكتابة عن الغرفة الأربعين دون أن ألحظ سجادة الأرض التي تكاد تسرق من تحت أقدامي، مأساة الفنان العربي (وميزته في آن) هو أن يحاول سبر تلك الغرفة الشهية دون أن يفقد ارتباطه بما يقع خارج عتبتها، ولعل ذلك الهاجس المسكون بهموم ملايين القلوب العربية يمنح حروفه مذاقاً خاصاً شرساً ومتأججاً ... وطوبى لمن يحترف النوم على عتبة تلك الغرفة، والشخير على إيقاع النرجسية لا مبالياً بما يدور خارجها أو يقع داخلها!!!...

- **هل تصدقين الأبراج، ما هو برجك؟ وهل تؤمنين بالصدفة والحظ؟**

بالتأكيد لا أصدق الأبراج، خصوصاً وأنني كنت أكتبها ذات يوم لإحدى المجلات التي عملت بها!!.. ولكنني أيضاً أتبناها دفعة واحدة، وباستثناء (الأبراج العاجية)، الأبراج كلها لي ... وكل إنسان هو الأبراج كلها ... أنا (الدلو) حينما تكون أنفاسه بحراً من الأسرار.. وأنا (الحمل) حين يبسط حنانه غابات عطاء .. وأنا (العقرب) إذا لدغني بغدره، وأنا (الثور) الخرافي الذي يجعل الكرة الأرضية على قرنيه وهمومها في قلبه، وأنا (الجدي) الأسطوري الذي يطير بالأبجدية العجوز إلى قمم السحر، رغم قصف الذاكرة والنزوات وحتى الأحباب، وأنا (القوس) بين يدي حبيبي إذا عزم، وأنا (الحوت) الذي يعود دوماً إلى وطنه ليموت .. هناك.

- **تسألين هل أؤمن بالصدفة والحظ؟**

الحظ يا سيدي هو الاسم الذي يطلقه البعض على نعمة لا يستحقونها، أو لا يستحقها سواهم في نظرهم! وكل ما حصلت عليه في حياتي مدحت لأجله، وأعتقد

أن الحظ الكبير هو العمل ورفض اليأس .. إنني أؤمن بتصنيع الصدفة وترويض الحظ.

- **اسم غادة السمان مرادف لما هو غير مألوف، حتى في علاقتها مع الحيوانات، فمن الطيور مثلاً، طائر البوم هو طائرها المفضل، ما الذي يلفتك في هذا الطائر؟**

يلفتني موقف الناس منه: الكراهية المتوارثة والتحامل المسبق، أكرر: أنا لا أتفاءل بالبوم ولا أتشاءم منه، لكنني أراه بعين جديدة، فأحب عينيه الواسعتين الحزينتين (تبارك خالق هذا الكون)، اللتين يخافهما البعض لأنهما تذكرانهم بآثامهم، الناس يسقطون ذنوبهم على البوم، البعض يتوهم أن سبب موت طفله هو (زيارة) البوم، لا التغذية الرديئة والفقر والافتقار إلى الدواء .. وثمة من يعتاش من تغذية هذه الأوهام، لإلهاء صاحب العلاقة عن مواجهة العدو الحقيقي، وتحميله المسؤولية، بدلاً من إلقائها على قوى ما وراء الطبيعة الغامضة .. وإذا كان المألوف هو تبني الخرافات هرباً من مواجهة الواقع المرير فأنا أقع خارج المألوف، وفي صدري مجاعة لمواجهة الواقع بلا أقنعة الأوهام المتوارثة ... وكرمز لتلك المواقف قررت أن يكون شعار (منشورات غادة السمان) التي أسستها عام ١٩٧٧ طائر البوم .. و ها هي معظم كتبي في طبعتها التاسعة ونجاحها ليس مديناً للبوم، كما أنها لو فشلت لما كان البوم مسؤولاً عن ذلك .. المألوف أحياناً هو أخطر المخدرات .. أنه هيروبين الاستسلام بدل الرفض العفوي للبشاعة المتوارثة أو المكتسبة والرغبة في مقارعتهما.

- **هل تحب غادة السمان أن تحلم؟ ما هو أجمل ما تحلم به؟**

أحب كثيراً أن أحلم، وأجمل ما أحلم به هو الصحو.

- **كيف تستطيع امرأة حالمة أن تتحمل العودة إلى اليقظة؟**

لا أستطيع أن أتحمل حلمي إذا لم أحمله لأعود به إلى اليقظة، وأعمل على تحويله إلى واقع ملموس، أنا حالمة من نوع خاص أداتها الحقيقة المعاشة .. لست من أتباع (الحلم للحلم) بل (الحلم للبناء)، هل كان يشتعل (برج إيفل) كل ليلة دانتيلا معدنياً ضوئياً لو لم يحلم المهندس السيد ايفل ذات لحظة جنون، بتلك المنارة التي تحول الحديد إلى مادة شفافة؟... الأعمال الجميلة كلها في تاريخ الإنسانية لم تكن ثمرة تلقيح اصطناعي في أنابيب المصالح العملية الجامدة، بل جاءت نتيجة زواج جميل بين الحلم المجنون وشهية العمل في رحم العطاء..

أنا حالمة حتى ثمالة اليقظة لا الإغماء ... يمتعني أن أحلم بالصحو لأن معظم ما في حياتنا مكرس لتخدير أصواتنا الداخلية، وحتى الذين نحبهم يتحولون أحياناً إلى جرعات منومة وكمامات وقفازات مخملية لكنها قيود .. في الحلم تخلع الأصوات كماماتها وتركض حافية القدمين على شطآن الإبداع...

- **قلت مرة (يخيل إلي إنني أعشق الحب وأكره الحبيب، الحب يطلق سراحي والحبيب يقيدني)، هل يمكن أن يكون ثمة حب بلا حبيب، هل ثمة نغم بلا وتر؟**

أحلى الأنغام هي تلك التي تسري بلا وتر، تمر بك كحلم نصف منسي، وكوجه حبيب خلف نافذة قطار مسرع في ليلة ماطرة ... الموسيقى هي محاولة بائسة لالتقاط تلك الموسيقى الكونية الخفية المرهفة، التي تبث باستمرار رسالة المحبة وتومئ إلى الضوء والحنان والود، وتبوح بأسرار مدارات كواكب النفس البشرية والكون...

لقد اخترع الوتر في محاولة بائسة لتقليد تلك الموسيقى الكونية، التي قلما نتوقف عن عدونا في سباق الفئران لننصت إليها، وهي التي تصدح في أعماق كل إنسان، ويخفت صوتها كلما ابتدعنا عن الطفولة والحب والبراءة والطبيعة، ولوثنا

الزمن بالهموم أو الشهوات الهزلية .. بيتهوفن (الأطرش) كان الأقدر على سماعها وقضى عمره وهو يحاول أن يكتبها لنا على الورق .. والحب كالموسيقى الخفية .. وأولئك الأحباب الذين نتعلق بهم واحداً بعد الآخر (أو بواحد منهم) هم سفراء من مملكة الحب الشاسعة .. يوقظون أعماقنا المطحونة بزعيق المترو وهمسات التحلق وقصف الرصاص العدواني الخارجي والداخلي، وينعشون فيها تلك الواحة المنفية التي يحرص كل منا على نقائها .. فيحتفظ بها لنفسه ملاذاً أخيراً من الاستلاب تحت شعار الحب!.. دوماً يحدث الأمر على هذا النحو، وترتكب أبشع الجرائم تحت أعذب الشعارات! فيصير الحبيب قفصاً، بينما يظل الحب تحليقاً صوب لحظة حرية.

- **كيف يتمثل حبك للحب؟ ماذا يعني لك الحب في المطلق؟**

الحب بالنسبة لي ليس حالات عابرة، ورجالاً يحضرون ويمضون في المسافة بين الدمع والابتزاز ولعبة شد حبال التكبر المتبادل، بل أجده موقفاً من الوجود والآخرين من الكون.

إذا لم تلهبني كل صباح تلك الفرحة المتأججة المجانية لمجرد أنني حية ومعافاة، وممتلئة بشيء حار ويضيء اسمه المحبة، لا أقدر على مواجهة أوراقي ولا على الهبوط للسباحة داخل محبرتي ... الحب هو اتخاذ موقف غير عدواني من كوكبي، وهو تدفق إيجابي صوب عالم لا أهدف إلى امتلاكه بل إلى التفاعل معه وبه، وإذا تصادمنا فمن أجل المزيد من الانسجام...

في المطلق، الحب الكبير هو أن أغني على عود بلا وتر ... وأنا التي تغني على عود بلا وتر، وتجد ذلك ممتعاً!...

- **ماذا يعني لك الرجل؟ أية علاقة يمكن أن تقيمين معه؟**

الرجل ليس وثناً ولا شيطاناً، ولم أتقل عليه يوماً بالتحامل أو طلب الكمال ...

الرجل العربي يعني لي منجم كنوز لا نهاية لعطائها .... إنه كالحصان العربي من أنبل السلالات، في نظري يمنح غالباً بلا حساب شرط احترام كبريائه وعدم السقوط في فخ محاولة ترويضه ... ثمة شيء لا يطيقه الرجل العربي ولا يسكت عليه، هو محاولة إذلاله وتركيعه كما تفعل أقلية من مريضات النفوس اللواتي يتوهمن أن الدليل على حريتهن وقوتهن هو في إذلال رجلهن وسلبه حياته العامة والخاصة وتحويله إلى كائن هجين، بدلا من المساهمة في تغذية ازدهاره، وازدهارها إذا كانت قادرة على بناء نفسها في الحياة العامة وليس على أشلائه...

لا أنزه الرجل العربي عن الأخطاء، ولكن من قال أن المرأة معصومة عن الخطأ؟... لا أريد الدخول في الحالات الفردية الشاذة المتبادلة لأنني أريد أن أتحدث عن الجوهر، ومن حيث الجوهر أرى أن تحرر المرأة هو حالة حية من تبادل العطاء والتفاهم ووجهات النظر .. وليس في العلاقات رجل شرير وامرأة نعجة – بوجه عام – ولا العكس، بل ثمة عصور من التخلف وسوء التفاهم المتبادل تركت رواسبها (وحساسياتها)، والحل ليس بنبذ الرجل ووجهة نظره والعيش في (يوتوبيا) تسوية وهمية من الحس بالعظمة والاضطهاد في آن، بل في الانفتاح الصحي الودي على نصفنا الخشن ملمساً والناعم قلباً وعطاء...

أقيم مع الرجل كل الصلات التي تؤكد إنسانيتي وتساهم في ازدهاري ومجتمعي ووطني، وتشعل أصابعي وتنكس رايات أحزاني ... لقد عرفت الرجل الزميل في العمل، والرجل الحبيب، والرجل المواطن رفيقي في الهم القومي العروبي، والرجل الأخ والشريك ... وعرفت أيضاً (الرجل – الحرب) فأنا لست رومانسية تجري عمليات تجميل للحقائق، عرفت علاقات الأظافر والأنياب والحقد كما الضوء والفرح والأزهار ... وظل الرجل العربي هو ذلك الرفيق الذي امتلك احترامي رغم تخلفنا المشترك وسقطاتنا المتشابهة ... المهم أن نتعاون للزحف صوب الضوء لا أن نقتتل فيما بيننا والعاصفة عدوانية، والزمن يحاول سحقنا معاً بحذاء التاريخ..

- **هل تفضلين أو تقصدين أكثر الشخصيات التي تمليهـا عليـك مخيلتـك فـي رواياتك وقصصك، أم الشخصيات التي تطالعك في الواقع؟.**

أفضل الشخصيات التي تطالعني في الواقع و لأن القدر هو أعظم روائـي ... أحاول أن أتعلم من الشخصيات التي تمر بي (أو تقيم!)، فالسلوك البشري مـدهش، والإنسان العفوي مدرسة .. تلك العجوز مثلاً التي كانت تدخن بشراهة وظلت تسعل في المقهى حتى كادت تختنق وأرعبتنا، ماذا فعلت حين هدأت؟ أقسمت أن تكف عن التدخين؟ لا! وسط ذهولنا، أشعلت سيجارة أخرى!... وذلك الشاب (البانـك) الـذي أخافني منظره ورفاقه آخر الليل، هل غرس سكينه في عنقي حين جاءني؟ لا، بـل سألني خائفاً عن موقف التاكسي، ورافقه وصحبه المذعورين من ليل بـاريس وقـد حملوا لي حقيبة أوراقي!... الحياة مدرسة مذهلة، ووحده الفنان الذي انتهـى يقـع صريع حب شخصياته، ويكف عن تأمل متحف الحياة حوله.

- **كتبت مرة (اهجر صديقاتي، وأخون أحبابي مع أبطال قصصي) هل هذا يعنـي أنك تفضلين شخصيات رواياتك لأنك تبتكرينها أنت وتضبطين حركتها، بينمـا الشخصيات في الواقع هي غير ذلك؟**

شخصيات رواياتي أفضّل أن ابتكرها، لكنها هي التي تضبط حركتهـا الذاتيـة وتتمرد على أي إيقاع مسبق، وتختار لنفسها مـسارها المنـسجم مـع شخـصيتها وواقعها الاجتماعي والتاريخي ... بل إنني قادرة على التدخل في حياة الذين حـولي أكثر من قدرتي على تبديل رفة عين في جفن أحد أبطالي ... إنهم يكتبون أنفـسهم، وكل ما أفعله هو أنني أرصدهم وانقل اصواتهم (واتجسس) على سلوكهم ... وهـذا يتطلب التفرغ لهم في مرحلة الكتابة وهجر صداقات العالم الخارجي ريثمـا تنتهـي الرواية، ويتابعون حياتهم خارجها .. بدوني!...

- **ماهي المسافة بين تجربة روايتك (كوابيس بيروت) كواقع معاش، وبين كتابة**

هذه الكوابيس؟

شاسعة كالمسافة بين المذكرات التي تنقل الواقع المعاش، والفن الذي يخرج بها من ذاتيتها لتصير تجربة تخص كل إنسان يواجه حرباً مركبة كريهة ... لقد ترجمت هذه الرواية حتى الآن إلى (البولونية) و (الروسية) و (الألمانية) ضمن نطاق النشر الواسع، وإلى (الفرنسية) ضمن إطار اطروحة دكتوراة للسوربون .. وأولئك ليسوا معنيين بما عشت (بعضهم لا يعرف إن كنت كاتبة أو كاتباً، كدار نشري الروسية التي طبعت ٥٠ ألف نسخة من عملي كطبعة أولى وتخاطبني في رسائلها بعبارة: مستر السمان!) ... وتلك المسافة ليست بالضرورة شاسعة كالمسافة بين ألف ليلة وليلة وألف كابوس وكابوس، فالمهم هو لمسة قوس قزح الغنية التي تخرج بالتفاصيل من الذات إلى العام دونما افتعال أو إقسار .. وتنقل هموم شعب في محرق أفراد أحياء يتعذبون ويشتعلون ويصارعون، أقدارهم وحماقاتهم وعدوان الآخرين عليهم، قدمتَ المستشرقة حنا يانكوفسكا التي نقلتها إلى البولونية للرواية بأنها حكاية المأساة الفلسطينية، وواقعي المعاش يقول أنني لست فلسطينية، ولكن روايتي في أحد مستوياتها تترجم ذلك الهم ... وذلك ما لفت إليها المترجمة ودار النشر .. إذن، مع الكتابة يذهب الفنان ليصطاد كلمة مضيئة دون أن يعرف بالضبط ماذا، وإذا لم يفشل وجد الناس في عمله أشياء مختلفة وهواجس متعددة ... وتناولها كل من الزاوية التي يجد نفسه معنياً بها .... والكاتب معني بشيء واحد: محاولة الانطلاق من واقعه المعاش لرسم حقيقة فنية إنسانية.

- **معروف عن غادة السمان انها تهجس وتخاف من الموت، هل ضاعفت الحرب هذا الهاجس عندك؟ هل إن اللجوء إلى الكتابة هو سلاحك في مواجهة الموت، وطريقة ما في الاستمرار؟**

أخاف الموت العبثي الذي لا يجدي، ويفجعني في لبنان (الالتهام الأخوي) بدلاً من الانقضاض على العدو، أهمس أيضاً بأشكال الموت المتعددة الأخرى: موت

الأحياء وهم يتابعون حياتهم الخامدة ... موت الأشياء الجميلة ... موت القيم، الحرب ضاعفت وعيي بأهمية الحياة، لأنها المادة الوحيدة لصنع طموحاتنا (ما عدا الموت الاستثنائي، حين يكتب المرء سيمفونية حياة خارقة بضربة موت واحدة، كما فعل أولئك النبلاء الذين فجروا أنفسهم بالعدو، وكما فعل خليل حاوي حين سطر قصيدة احتجاجه على التخاذل العربي برصاصة على صفحة جمجمته).

ككاتبة، صار هاجسي عدم هدر الوقت قبل كتابة ما اشتهي قوله .. وفي المرات العديدة التي واجهت الموت فيها في بيروت، تحت القصف، وبين شظية وأخرى، وفي طوابير الأحباب الذين مزقتهم قذيفة أمام بائع الخبز واكتفت بجرحي، كنت أقول له: دعني أنجز هذا السطر... أعرف أنك حق. وإنني لن أملك ذات يوم إلا ركوب قطارك، ولكن محبرتي مازالت ممتلئة كبحر ....

أقول له ذلك وانا أعرف انه لم يستأذن أحداً من قبل ... هكذا نحن البشر ... هزليون تضحك منا ستائر مسرح الوجود! اللجوء إلى الكتابة قد يكون أحد الأسلحة العتيقة لمواجهة الموت لكنه استحضار للموت في آن معاً، لأنه الوعي والصحو، وكل وعي ينفي الموت يتحول إلى نكتة مملة تقهقه فقاعاتها وهي تنفقئ، الكتابة هي الطعنة والدواء في لحظة نارية واحدة ... أنها استحضار الموت من النسيان، ونفيه إلى الذاكرة في آن!...

- **بين الماضي والحاضر والمستقبل، أين تعيش غادة السمان اليوم؟**

ماذا يتبقى من جلدي إذا تخليت عن طعنات الماضي التي ترصعه؟ ارتدي الحاضر، وعيني على المستقبل، وأعيش امتزاج الأزمنة .. فالماضي لا يغادرنا حقاً، وشهية الحاضر تعني الانتماء إلى المستقبل كي يصير للأزمنة كلها معنى التفاؤل، بالنسبة لي، الماضي حاضر في حاضري، وحصان جميل علي أن أتعلم كيف أروّضه في ركضي إلى المستقبل، وإلا سقطت تحت سنابكه....

- **من المعروف عنك أنك سافرت كثيراً، وإنك مستنفرة دائماً للرحيل، ما هو سر هذا الرحيل، وإلى أين؟**

أعي بوضوح أنني في زيارة قصيرة على هذا الكوكب، وأريد أن أراه جيداً كأية سائحة مثالية قبل أن أمضي بعيداً .... لكن القلب لا يستطيع أن يكون مجرد سائح على جلد زمنه .... وحين نرحل، نحمل معنا هواجسنا وهمومنا، وكلما ابتعدنا عن الوطن نراه بمزيد من الوضوح كالنجوم في ليلة صافية صحراوية ... كأن الغربة رحيل سري إلى الوطن، والدروب كلها تفضي في النهاية إلى مسقط القلب...

الغربة توجعني أحياناً لكنها لا تخيفني، المرعب حقاً غربة الإنسان في بلده بين صحبه وأهله وخلانه .. وغربة المرء عن ذاته، عن جلده، عن صوته الداخلي الحقيقي ... الفراق الذي يكسر قلبي هو فراق المرء عن جوهره وحقيقته...

- **نشعر أمام عنوان كتابك (رحيل المرافئ القديمة) وكأن الرحيل قد رحل، وما عاد ثمة مرافئ يحط عليها المسافر رحاله..**

ذلك يعني ببساطة أن علينا غربلة (المرافئ القديمة)، وإعادة بناء جميلها بالمعنى الإنساني حتى ولو كان تراثياً ومتوارثاً، والتخلي عن الهياكل الفارغة الضخمة حتى ولو شفع التراث بها .. ويعني أيضاً أن علينا بناء مرافئ جديدة من صنعنا، لا يضيرها – ولا يشفع بها– أن تكون جذورها مغروسة في تربتنا منذ أقدم العصور.

حزين هو رحيل المرافئ .... أن يركض قطارك، والمحطات تهرول أمامه على السكك اللامتناهية، بلا توقف .. بلا عصفور يؤنس النافذة أو وردة تنبت في قحط الهباب المعدني .. لكن المفجع حقاً هو التخلي عن حلم بناء محطات ومنارات جديدة..

وعز الشرق أوّله دمشقُ

دمشق في القلب:

ثمة جراح لا تندمل مهما مر عليها الزمن... وجرح الابتعاد عن المكــان الأول من هذا النمط مع الأيام تنمو له قشرة سطحية كالقناع، لكنه يتــابع حياتــه الــسرية الداخلية متوجعاً نازفاً باكياً كالولد الصغير الضال عن أمــه فــي ســوبر ماركــت العصر.

تحتفظ الذاكرة بالمكان الأول داخل ما يشبه المصح العقلــي الــذاتي، تحنطــه بإتقان كما كان يوم فارقته كفرعوني محنك، تحافظ على كل ما فيه مــن أصــوات وروائح وأشجار ووجوه وشوارع وأعداء وأحباب ... تنقيه غالبــاً مــن الــشوائب، فتزيد من جرعة السعادة الماضية، الموهومة أحيانــاً، ورائحــة الياســمين الغــابر تتضاعف داخل الذاكرة ... ويرحل المرء وداخل رأسه مدينة تولى تحجيرهــا كمــا كانت بضوئها وألوانها وهمساتها وصرخاتها، يرفض القلــب أن يــصدق أن تلــك المدينة تبدلت، وكبرت، ودخلت العصر من أوسع أبوابه، ويتذكر أحيانــاً بفــرح أن ملايــين الأطفال الذين ولدوا خلال غيابه صاروا شباناً ، ثمــة جــزء منــه يفــرح بازدهار المدينة ونموها، كما أفرح بدمشق الحاضر وأباهي بها الناس فــي الغربــة، معلنة أنها مسقط قلبي ورأسي بمناسبة وبلا مناسبة، بالمقابل ثمة جزء آخــر منــي هزلي كمهرج حزين وعنيد كبغل مناكد، ومكسور الخاطر كيتــيم، جــزء يحــاول الحفاظ على صورة الماضي متحجرة داخل رأسه بأحبابه، فيها شباناً كما كانوا يــوم فارقتهم، وبشوارع الماضي على حالها وببساتينه خالية من أي مبنى جديد، وبــشبحه الشخصي، وحتى الذين ماتوا يرفض شطبهم من تلك اللوحة فأنا مثلاً مازلت أحتفظ بالشاعر الراحل أديب عزت وسواه نضراً وشاباً داخل ذاكرتي، ورفيقاً لأخي سلمان في المدرسة بالرغم من وفاة الشاعر منذ أسابيع كهلاً.

لقد هاجرت ذات يوم من سوريا لكنني لم أهجرهــا، وصــحيح أن جرثومــة النسيان تقرض الذاكرة كحشرة العث الأسطورية، وباكتيريــا الوقــت تــأتي علــى

صبوات الحنين، لكن ذلك لم يحدث لي، ربما لأنني بحاجة إلى دمشق في قلبي كـي أستمر.. فالحب الكبير يغني الدورة الدموية الكتابية برعـشات الحنـين وشـهوات المستحيل، ويخيل إلي أنني في اللاوعي أريد أن أحافظ على ذلك العشق مع مدينتي الأم، وهو غرام حوله الزمن من فحم إلى ماس.

سئل مرة فنان بالتوس: ألا تعود من وقت إلى آخر لزيارة بـاريس؟ (جريـدة الفيغارو ١٩٩٥/٧/٢٨) أجاب: لا أشعر بالرغبة في العودة إلى باريس، لدي انطباع بأنني سأرى شبحي هناك، ولدي من الذكريات فيها أكثر مما ينبغي.

ثم إننا – في حالات الحب الكبير – يجب أن لا نتوقع دائمـاً سـلوكاً منطقيـاً حسابياً بسيطاً من نمط أنا مشتاق إذن أنا ذاهب إلى الحبيب، يحدث أحيانـا العكـس تماماً، نتحاشى بعض الذين نحبهم كثيراً، فالحب جرح كبير، والوصول أحيانا نمـط من إدارة السكين داخل الوجع الدامي أو هو ببساطة انطفاء، ثمة فرح مروع وحزن مروع في العودة إلى مدينة الطفولة والصبا بعد فـراق دام زهـاء ربـع قـرن ... وأشعر أحياناً أنني لم أعد أجرؤ على مواجهة هذا الحب الكبير ولا علـى مواجهـة احتمال خسارته، ولا على مواجهة شبحي الذي مازال يتجول هناك كما كـان يـوم رحيلي.

ابتسم، فكل شيء مظلم!

الحزن البهيج:

حرت هل اكتب لكم اليوم عن مذابح الكونغو كنموذج لمذابح العالم الثالث التي لا نجهلها أم عن الأزمة الإيرانية، الطالبانية أم عن الدراما شبه الهزلية لكنتون/مونيكا أم عن أحزاننا العربية وهمومنا وأزماننا وحماقاتنا وخلافاتنا، أم عن صورتنا المؤسفة في الغرب، أم عن الرفيق يلتسين وحالاته أم عن الإرهاب الأمريكي ضد العرب في مجالات عديدة، أم عن هموم المدينة اللامنسية بيروت أم عن الفياغرا والتلوث وقنبلة إسرائيل الذرية، والمجاعات والزلازل والطوفان في بنغلادش وسواها من الهواجس اليومية لكوكبنا والمآسي..

ثم قررت أن أنجو بكم وبنفسي من وسادة أحزاننا، تلك التي ننام على شوك قلقها ونصحو على كوابيسها، لنذهب اليوم هاربين من ذلك كله في إجازة قصيرة مع الحب، ونترك الهم يذهب أيضاً في إجازة من نفسه، ستقولون لي أن الحب هو الحزن أيضاً؟ هذا صحيح، ولكنه حزن بمذاق عذب!!..

أهو الحب؟

الآن يبدو لي الخطأ وحده صواباً محكماً والجنون تعقلاً، والهذيان حكمة.

تراني أحبك حقاً؟

المتلصص:

في الفناء الخلفي لأسراري التقيتك متلصصاً على أحزاني، لماذا لم تقرع الباب الأمامي الفاخر المزخرف كما يفعل الآخرون؟

في الفناء الخلفي لروحي وجدتك، نهراً من الفرح فهجرت السباحة الحذرة، واخترت الغرق...

شيزوفرانيا:

من المرعب أن يقطن جسدك بيتاً
وتهيم روحك في قارة آخرى، في بيت آخر...
ولكن، تلك هي حال المغتربين جميعاً؟

سوء تفاهم:

يهمس قلبي: أريد الرحيل إلى الغيتار والزيتون والغناء..
يصرخ قلبك: اللعنة! لقد هبطت أسعار البورصة اليوم وانخفض الدولار.
ثمة خلل بيننا، وصوتي بدأ يشبه أصوات التفاحة مع سكين تخترقها.

حقيقة القمر:

حين كنت صغيرة
اقتنعت أن القمر وجه بشري مضيء...
الآن صرت قادرة على أن أراه بوضوح..
حين يشع متوحش البهاء فوق البحر البيروتي...
كيف لم ألحظ من قبل أنه يبكي ... يبكي...

رجل خرافي:

ثمة حكايا حب يقتلها أن تتحقق
وتزدهر بسمّ الفراق.
وثمة نسيان شائع لا يعرف النسيان
وثمة حزن شاسع كابتسامة طفل.
وثمة أنت...
حضور مكهرب مهيمن، وبلا جسد

أنجبت منه توأماً سيامياً اسميتهما: الحزن والفرح ... ولا حياة لأحدهما من دون الآخر، تلك هي المسألة.

مناضل ملتبس:

منحتك غبائي كله، منحتك تصديقي لأكاذيبك كلها واحتفائي بتزويرك وتصفيقي لخطبك المنبرية، منحتك الغفران والشوارع وأجساد أطفالي لمتاريسك ودم قبيلتي وعظام أسلافي والتفاح والورد الجوري والجمر ومفاتيح الجسد.

أما تلك الحديقة السرية داخل روحي، فلا أستطيع أن أعيرك مفتاحها الصدئ في تلك الحديقة المنعزلة تختبئ روحي ... وكما في الأسطورة، إذا قبضت على المفتاح بيدك، وخطوات داخل حديقتي السرية تلك.

صرت أنا رماداً:

أحبك؟ أحببتك بالتأكيد ذات مرة.

ولكن ما صلة الحب بالثقة، وأنا الناجية من النار التي أوقدتها؟ لم يكن ذنبي أنني حين رقصت رقصة الزهو أمام مصباحك، انفجر قبل أن يحرق أجنحتي، وكانت نارك برداً وسلاماً على جراحي.

ها أنا مختبئة في حديقة النفس السرية أحاول ترميم روحي من (التباساتك)

مناضل بوجه واحد:

في مدخل الفندق مرآة مشروخة تسمرني...

لماذا أحب أن أتأمل وجهي في مرآة مكسورة، لكنها مازالت متماسكة داخل إطارها على الجدار؟ ربما لأنني أحب الحقيقة...

أما أنت أيها الشقي، فناصع وشامخ.

تحدق فيك المرايا وتتأمل وجهها في عينيك الأكثر نقاء منها.

أمشي في مانهاتن والعفاريت تتنهد تحت الإسفلت، وتركض الجرذان والتماسيح والأبالسة وتزفر أنفاسها بخاراً أسود عبر شقوقه.

أيها الشقي، العمر بدون قط مذعور هارب.

في ليلة نيويوركية الزخام والوحشة، أغمي عليها فوق صدري.

وليمة الحب معلبات صغيرة قصديرية الطعم، علبة لعشاء المتوحد ... غرف كالمعلبات للسجناء، علبة لكل شخص في فندق بأقفاص انفرادية لعصافير شردت عن سربها، تلفزيون يسجن العينين مقابل حوض استحمام بارد مكهرب، وثمة قاتل مفرد لكل شخص، وحدها أكياس القمامة مشتركة...

كل ما في نيويورك يطحننا في معامل الكآبة المسائية الهامبرغرية النيونية الفاقعة البلاستيكية الصقيعية، في عاصمة من عواصم الإمبراطورية الحاكمة في ليل الظلمات.

العصافير التي تجرؤ على الطيران في درب البرق، وهي وحدها قد تنجو بنفسها من هول الأهوال.

إنني ابتسم، لأن كل شيء مظلم ... مظلم...

ثملة بالربيع، أم بحبك؟

الحب في بيروت:

على ناصية الفرح البحري التقينا، كنت جبانة، لا أمسك بغير مظلتي.

معك اكتشفت ملذات المطر الربيعي، حيث تتحول رئة الفضاء حقولاً من الأزهار البرية وعطور الغابات ... وتهب رائحتها من شعرك.

لعلي مازلت أحبك ... فما زلت حين أطالع قصائدك، أطلق شهقة الدهشة الأولى التي زقزقتها يوم شاهدت البحر للمرة الأولى.

أرحل في أجسادك عاصمة بعد أخرى دونما (فيزا)، وأتقدم من مخافر قلبك بطلب إقامة دائمة في دورتك الدموية وأكتب على إيقاع نبضك!

قلت لك بأنني أفتش عن الاستقرار

فاقنعتني بالإقامة في غيمة فوق الروشة، واقتنعت!

أهذا هو الحب في بيروت؟

ثملة بلقائك أم بالربيع؟

حبك يشبه العودة إلى الطفولة.

من جديد تتحول علب الكبريت الفارغة إلى قطارات

وتبدو الفراشة فوق الوردة لغزاً ذهبياً

ويعود قوس القزح دروباً معبدة بالألوان في السماء

من جديد يعود العالم جديداً، ونلتهم تفاح البراءة والأفعى ساكتة، والعمر لحظة خلود صغيرة...

من جديد نعيد الاعتبار إلى كلمة: أحبك ... بعدما تلوثت طويلاً، ومضغوطاً كاللبان و(الشيكلتس)، وعهّروها وباعوها في أسواق الرياء، وغطوها بالأقنعة ورموا بها ليلاً في براميل القمامة كأطفال الخطيئة.

حبك رئة الأوكسجين في كوكب ملوث حتى موت الأرانب البيض كلها...

زحام:

الحب ازدحام مكتظ
فأنا لم أعد وحيدة داخل جلدي
ما دمت تقيم تحته أيضاً

جماليات الفراق:

حبنا قوس قزح، قال للشمس:
لا تشرقي كثيراً وإلا رحلت!
ولا تغيبي تماماً وإلا رحلت!
فأنا الحب الكبير، يقتلني الوصال الكبير والفراق الكبير!

براءة:

لا تلم الرتيلاء
لأنها تنسج من بيتها مكيدة..
لعلها تدافع عن نفسها في زمن شعاره:
إما أن تأكل أو أن تؤكل!

متعة الوحشة:

سيدة الحكايا الأسطورية
وحيدة في قصرها الشاسع وقد طردت مهرجي البلاط والحاشية والخدم.
سيدة الحكايا الأسطورية.
يقتتل العشاق في باحة قصرها
وهي تحتضر في الظلام خلف نافذتها في غرف الكبرياء...

إلى دمشق... مسقط قلبي
رسالة من جبانة!

(١): كل الذين يكتمون عواطفهم بإتقان، ينفجرون كالسيل إذا باحوا، وها أنا أبوح وأكتبت عن مسقط قلبي.

حينما أكتب عن دمشق، تتحول ورقتي إلى شراع ابيض ويصير القلم في يدي سنبلة وأصابعي قوس قزح.

حينما أكتب عن دمشق تتوهج اللغة الآسنة بالخصب والضوء، تدب الروح فيها فتستحيل الكلمات إلى قبيلة أطفال بعيون فضولية، تهرول في ملعب الورقة تقز فوق السطور، تتهامس عليَّ في ركن الصفحة مثل أولاد الحضانة (العفاريت) الذين اكتشفوا أن معلمتهم عاشقة.

حينما أكتب عن دمشق انتحب على حضن الورقة بصمت، بدموع من حبر.

(٢): في دمشق ساحة، في الساحة بيت، للبيت شرفة، للشرفة صبية تروح جيئة وذهاباً طوال الليل، في يدها خارطة العالم، في عينيها مرصد للطائرات الذاهبة والآتية التي كانت تتمنى لو ترحل بها سائحة كونية إلى كوكبنا وكواكب أخرى – إذا أمكن

رحلت الصبية رقصت الدبكة طويلاً في مواكب الدهشة، وضعت قدماً في القطب وقدماً في خط الاستواء، وركضت وعربات الزمن تركض فوقها جيئة وذهاباً ألف عام.

ولكن لا تزال تلك الصبية في الساحة ذاتها، في البيت ذاته، في الشرفة ذاتها.

منذ أكثر من ربع قرن لم يتبدل شيء لكن خارطة الدنيا اشتعلت بين يديه وتحولت إلى رماد على الشرفة.

حين أموت سيكون بوسع الشعراء الصعاليك الثملين في آخر الليل، أن يشاهدوا تلك الصبية بوضوح، وهي لا تزال تروح وتجيء كشبح على الشرفة ذاتها، حتى

بعد هد المبنى.

(٣): قال صديقي خليل حاوي إن المرأة تولد في الشرق بغياً ثم تقضي العمر في لفق البكارة.

قلت له إن ذلك ليس، صحيحاً دائماً، أنا ولدت نورسا لكنه بلا أجنحة وقضيت عمري وأنا أنسج أجنحة بها بعيداً بعيداً، وحين اكتمل جناحاي وصلب عودهما كان قد حان وقت العودة إلى البيت في دمشق.

(٤): أتحدث عن دمشق وأنا أضمر سورية، كأن دمشق هي الاسم الحركي لسورية في قلبي، إنها اللاذقية مدينة أمي، والفرلق وكسب وصافيتا وجبلة وبانياس، وطرطوس وحمص ووادي العيون والدريكيش، وبلودان وحلب والرقة والحسكة، وتدمر والسويداء وغيرها من مرابع الطفولة والصبا، أسماء كثيرة لا منسية ارددها كمفاتيح موسيقية لأنشودة القلب السرية.

ليس قليلاً أن تكون أمك الملكة زنوبيا ووالدك صلاح الدين الأيوبي وخالتك ملكة ماري.

ربما لذلك ركبت في قطارات كثيرة، وأخطأت حين توهمت أنني سأجد درباً لا تقودني إليك كل الدروب تفضي إليك يا وطني، تراني سأعود إلى مدينة القبلة الأولى لأعيش حبي الأخير.

(٥): لم أسافر يوماً وحدي، كانت دائماً معي كأنها سجانتي، ترافقني مدججة الصدق القاسي، لا أكاد أغازل مجهولاً في القطار حتى تشهر أمام وجهي مرآة الحقيقة، فأرى فيها وجوه أحبابي الحقيقيين، لم تدعني يوماً وحدي، حاولت الهرب منها في الحانات للرقص مع الغرباء حتى آخر العمر وأقاصي التخدير، لكنها كانت تلازمني تلك السجانة المدعوة ذاكرتي، تسكب على رأسي الماء البارد من نبع الفيجة في لحظات جنوني تتلو علي اسم أبي وأجدادي، تجرني من شعري في أحلامي إلى مزار ستي زينب وسيدي خالد بن الوليد، فأستعيد وجهي ومحبرتي وأبجديتي.

(٦): لماذا، حين أكون ثملة في الطائرة، تتخذ السحب كلها شكل خارطة سورية، سحابة إثر أخرى؟

(٧): أحببت دمشق بجنون المراهقين، وكما في حكايا الحب الكبيرة كلها، كان لا مفر من شجار العشاق، والفراق ذلك الشجار الأهوج الذي ينتهي بعد لحظات أو سنوات – أو قرون – بعناق محموم وتساؤل صادق بلا جواب، لماذا تشاجرنا؟...

ربما لأننا أحببنا أكثر مما ينبغي، هل يتصرف المرء بحماقة نادرة المثال إلا حين يكون عاشقاً.

لقد كنت دائماً عاشقة رديئة، أقول لا، وأضمر نعم، وكلما كبرت (النعم) قلت (لا) بصوت أعلى.

ومثل عطيل، أحببتك يا دمشق ذات يوم أكثر مما ينبغي، وبتعقل أقل، وعلى حافة الرمادي بين الحنان والقتل رحلت مع (ياغو).

ومنذ التحمنا في عناق يشبه القتل وأنا أفضل أن أمارس الحب العذري معك من بعيد يا دمشق.

في الغربة رسمتك كما عرفتك، ومشيت في شوارعك الغابرة ولم أعد أعرف كيف أسافر ثانية منك فقد صرت أسيرة (الخارطة) اللامنسية.

وأنا في الوطن كنت أبكي شوقاً للرحيل إلى المنفى، وها أنا اليوم أبكي لأنني حققت أحلامي.

(٨): كل كتاب من كتبي يترجمونه لي في الغربة، أحمله راكضة على حضن دمشق كطفل منهوم بالجوع على الحنان، يحاول لفت انتباه أمه إليه لتحبه أكثر.

حاولت أن أغزو لغات أخرى وعيني على دمشق، مثل ولد شاطر يحاول أن يبهر أستاذه في المدرسة.

قبل أن يموت الرسام الفرنسي دافيد في منفاه البلجيكي أوصاهم بدفن قلبه في باريس وجسده في المنفى، وحي غادر شوبان وطنه بولونيا إلى باريس حمل حفنة من تراب بلده أوصاهم بدفنها معه في باريس.

لن أكتب في وصيتي – كما فعل الرسام دافيد – وأقول أدفنوا قلبي في دمشق وجسدي في باريس، فقد ظل قلبي مختبئاً طوال سنوات الغربة في تراب ياسمينة بيتنا العتيق في ساحة النجمة، ولم يغادر دمشق يوماً ليعود إليها.

ولم أحمل معي حفنة من تراب وطني كشوبان لدفنها معي في المنفى، فجسدي نفسه سيستحيل حفنة من تراب سورية أينما دفنوه.

(٩): في الليلة الماضية قالت لي ذاكرتي ارسمي لي خروفاً فرسمت لها مدينة اسمها دمشق، لم أرسمها طالعة في مرايا الماضي وصناديق الحنين، بل رسمت شهوة مستقبلي ماضي وحده.

في الليلة الماضية، رسمت شرفتي العتيقة في ساحة النجمة، ووقفت عليها أمشط شعري، لم تمر مواكب الماضي أمام عينيّ، ولم أنتحب بل ابتهجت إذ شاهدت تحت شرفتي الجيل النضر الذي ولد خلال غيبتي، والجيل الذي سيولد بعد أن أموت، أهطلي يا دمشق، وسأصير تراباً.

(١٠): ما الذي لا أفعله، لمن يعطيني بطاقة دخول عتيقة إلى سينما الفردوس في دمشق، تعود بتاريخها إلى عام ١٩٦٣ مساء الخميس الربيعي الأول حفلة الساعة السادسة، وتحمل رقم مقعد جلست فيه ليلتها إلى يمين أبي، ما الذي لا أفعله، لمن يسقيني اكسيراً يعيدني لأعيش تلك الثانية الأليفة ولو في ومضة عين، ما الذي لا أفعله لمن يمنحني لحظة ألفة أنيسة مشابهة لأسبح في النهر مرتين.

(١١): أحتسي الأغاني القديمة من كؤوس الذاكرة في الحانة البعيدة، أحتسي الميجانا والعتابا، وأدمدم بها سراً في صالة الأوبرا بباريس رغماً عن أنف "بافاروتي" وحنجرته المدهشة.

أدور في متاحف أمستردام نيويورك ولندن وأنا لا أزال أعلّق على جدران قلبي لوحات بريشة "التيناوي" رسم فيها عنترة بشاربي جدي.

(١٢): بهدوء أترك شفرة الذكريات تقطع شرياني، وأترك دمي يهطل على الورقة قطرة قطرة حرفاً حرفاً وردة جورية، وجهاً وجهاً.

وجوه الذين عرفتهم، والذين سأعرفهم

أقود حملة الغربة، وعيني على الوطن، مثل عاشقة تريد استفزاز حبيبها العسير.

(١٣): في احتفالات الغربة الباريسية، أقص الشريط التذكاري للمطر في مطعم (الماكسيم) بمنجل حقلنا العتيق في القرية الشامية.

لو كنت امرأة من الشوكولاته.

لأذابتني شموس سنغافورة ومانيلا.

ولو امرأة كنت من الملح.

لألتهمتني مياه البحار واستعادتني بين لشبونة وبرشلونة

لكنني سندبادة، دارت الدنيا وهي تفتش عن حبيبها وكان دوماً في قاعها، واسمه وطنها.

(١٤): كان متوحشاً وقاسياً، أحسست كفه كلوح من الجليد حين أخذ يدي، لكنني أحببته وتبعته حتى آخر العالم، والثلج يهطل من عينيه فوقي، وشفاهه تنفخ رياح جبال الألب حين يهمس باسمي وكان اسمه: الغربة.

لست بنادمة على ذل الحب الشقي فقد علمني أكثر من أي أستاذ آخر كيف أكتب اسم الوطن بالنجوم على سبورة الليل.

(١٥): حين عشت في دمشق لم أرها جيداً، كنت كمن يلصق وجهه بمرآة فلا يرى شيئاً واليوم بوضوح أراها من بعيد، بحلوها ومرها، فهل عين الحلم أكثر صحواً من عين الصحو؟

حين أعود إلى دمشق سأخلع قميص العواصف والأمطار والصواعق وأرتدي ثوب الشمس وسيكون بوسعي أن أرى سماء مرصعة بالنجوم حتى آخر الأزلية واللانهايات، وسأتعلم من جديد كيف يتهجى قلبي اسم الله في المدى، وكيف أصلي بلا صوت، وكيف أنام بلا كوابيس.

(١٦): تسألني، حسناً، بعد ذلك كله، لماذا لا تعودين غداً، لا أعود لأنني جبانة

في ملكوت الحب، لا أعود لأنني خائفة، ما الحب إلا الحبيب الأول: الوطن، لكنني خائفة أمام الحب الكبير، أنا ملكة الجبناء وليس بمقدوري أن أخسر دمشق مرتين، كأنني أريد أن أظل بعيدة كي تظل دمشق تحبني، مثل عاشقة لا تجرؤ على لقاء حبيبها كي لا يخيب أمله فيها، فأنا امرأة لا تصلح لغير الكتابة وأخاف ملامسة حبي على غير جسر حرفي، وأترك جبران خليل جبران يعبر عن نفسه وعني حين كتب إلى أحد أصدقائه يقول: تسألني يا منصور إذا كنت أود العودة إلى لبنان؟ طبعاً أريد أن أعود إلى موطن حداثتي، إلى مهبط الوحي، إلى ضفاف الوادي الذي منه تغذت روحي، نعم أود أن أعود إلى لبنان، إلى بشرّي، ولكن يا منصور: إذا عدت إلى لبنان...إلى بشرّي هل يبقى الناس هناك طويلاً على احترامي، أم أنه لن يمضي وقت طويل على بقائي بينهم حتى يبدأ يهزأ مني أقرب الناس إلي، لذلك يا منصور أؤثر البقاء بعيداً، أحب لبنان ولبنان يحبني.

ما أجبن جبران أمام حبه الكبير لبنان، وما أصدق بوجه، وها أنا أدخل بكل فخر في سلك العشاق الجبناء، وأرتجف خوفاً كقط صغير أما حبي الكبير دمشق.

فهل أجرؤ على العودة؟...

لا توجد امرأة حرة في مجتمع غير حر ...

الحياة قصة كبيرة وأخبارنا اليومية مجرد فصول تجمعت لتزيد من تفاصيلها، وكأننا لا نكتفي بالأحداث الحية، فنلجأ إلى الكتب لنستعرض قصصاً جديدة تبدأ عند أول مجلد وتنتهي في آخر صفحة منه.

وهذه القصص ليست جديدة بمضمونها لأنها مأخوذة من واقع تكثر فيه العجائب والغرائب، لكننا أحياناً نستمتع بقصة ما فيشدنا جمال السرد ويدفعنا سحر التشويق لمتابعة الأحداث ليل نهار، بينما يسبقنا الغبار إلى كتب أخرى تخلينا عنها في منتصف الطريق، الغبار لم يجد يوماً طريقاً إلى كتب غادة السمان، لأن الكاتبة تعيش القصة بأحاسيسها فتحركها وتدعو القارئ للمشاركة بها فيعيش قصته من خلال ما يقرأ، لماذا؟

لأنه عندما تكتب غادة السمان (يلتهب الداخل وتشتعل الأرض الداخلية الغامضة)، كما تقول، فتنفجر الأحاسيس صادقة ما بين السطور، الأدب هو فن الكتابة والأديب أو الفنان حساس لدرجة أنه يستطيع التقاط صور مستقبلية تتجلى في كتاباته بالحدس.

غادة السمان كتبت (ليل الغرباء) في صيف ١٩٦٦، فانتقدها البعض بإغراق الكتاب في الحزن والتشاؤم ووصفوه (كغروب ليلة هزيمة في ساحة حرب مغسولة بالأوجاع)... كان ذلك قبل هزيمة ١٩٦٧ بأشهر قليلة، (بيروت ٧٥) كتاب آخر صدر في مطلع العام ١٩٧٥، مات على صفحاته أبطال كثيرون... أحداث مأساوية تخيلتها الأديبة لتشبك بها حلقات قصتها، فإذا بساحات بيروت تشهدها حية بدمائها وضحاياها بعد فترة وجيزة.

عالم الأدب مزدحم، فكيف تتميز كاتبة وسط حشد لا يُحدّ من الأدباء؟ لابد لغادة السمان أن تتميز لأن (شهية الاستمرار عندها متوهجة، وحاسة التحدي المقترنة بالدهشة لا تنام)، هذا بالإضافة إلى ما تتمتع به من إحساس صادق وفلسفة

أدبية عميقة وعفوية.

غادة السمان لا ترى في الغيم إنذاراً للمطر، بل مركباً يحملها بعيداً عن عالم الملموس لتغوص في دنيا لا تحتاج فيها للعين لكي ترى ولا للأذن لكي تسمع، الفرق بينها وبين الأشخاص العاديين أنها قادرة على إعطاء تفسير لكل ما يدور حولها، همها الكبير هو العالم الكبير والوجود والإسرار والخفايا، أما الهموم اليومية فلا ترهقها لأنها تراها على حقيقتها وتعتبرها (مجرد إلهاء يومي عن موتنا اليومي).

كتبت كثيراً عن الحروب، والموت تردد كثيراً في كتاباتها وأحاديثها.

عن وحدتها مثلاً قالت: (وحدتي هي المسافة بين لحظة ولادتي ولحظة موتي، بين لحظة سقوطي في سجن الولادة ولحظة يطلق الموت سراحي)، (خوفي الكبير أن لا يكون الموت نوماً بلا أحلام، وأن يكون مثقلاً بالكوابيس التي لا نملك لها شيئاً).

الكتابة عن الشقاء والحزن والموت لا تعني بالضرورة أن يكون الكاتب مصاباً بشر المرض السوداوي، بل ذلك يخلف وراءه صورة واضحة عن تمرده ورفضه لتقبل ما يدور من حوله.

غادة السمان امرأة لها وجودها، ليس فقط في عالم الأدب، بل هي من خلال أدبها تبدي تمردها على المجتمع الصغير والمجتمع الكبير، وتطالب بحقوق المرأة والرجل في آن، لذلك قيل: إن أعمالها ليست محصورة في بيت أو بيئة أو مدينة بل إنها تخاطب الإنسان في كل مكان، إنها في الأدب فنانة وفي الفن امرأة، ولكنها ترفض التحدث عن المرأة الكاتبة بمعزل عن الكتاب، وترفض فكرة تقييمها كأدب نوعي منفصل، فمن الطبيعي جداً، برأيها أن تكتب المرأة عن معاناة المرأة عامة، (وهل نعتبر نزار قباني في طليعة نجمات الأدب النسائي لأنه وصف مشاعر المرأة؟) إن القصة في النهاية هي قضية إبداع سواء تحدث الكاتب الرجل عن قضية المرأة أو تحدثت الكاتبة المرأة عن قضايا العمال).

لم توافق على تسمية أدب الأديبات (أدباً نسائياً)، ولم تطلب الحرية يوماً للمرأة فقط، غادة السمان مع الفرد الناجح ومع الأدب الجيد، لم ترض بتسمية أدبها (نسائياً)، غادة السمان مع الفرد الناجح ومع الأدب الجيد. لأنه لم يعد من المسموح أن يتحول التصنيف في الأدب كالسؤال وأنثى، لأن (المرأة العربية لن تنال قضمة واحدة من رغيف الحرية إلا إذا كان ذلك الرغيف متوفراً للشعب بأكمله، والخطأ الذي يجب ألا تقع فيه المرأة العربية عامة، هو التوهم بأنه يمكن لمشاكلها أن تحل بمعزل عن حل مشاكل المجتمع ككل، لا يمكن وجود امرأة حرة في مجتمع غير حر، لا يمن أن تعامل المرأة بعدل في مجتمع غير عادل، لا يمكن للمرأة أن تجد السلام في مجتمع بائس ... وخلاص المرأة لا يمكن أن يكون خلاصاً فردياً).

التعبير عن الرأي والذات بهذه الطريقة دليل واضح على الرحلات الطويلة التي تقوم بها الأديبة في العمق والأعماق.

ربما ليست قصصها نتيجة تجارب شخصية ولكن تحليلها العميق ومعاناة أبطال روايتها نابعة عن شخصية مميزة لا ترضى لنفسها مركزاً إلا في العمق.

وغادة التي نشرت جميع أعمالها غير الكاملة من قصة ومقالة ورواية شعر، والتي طبقت شهرتها الوطن العربي بين أديبات عصرها، ما تزال تعطي وتعطي وتكتب وتنشر كتبها ضمن (دار نشر خاصة) بها أعطتها شعار (البومة).

و(البومة) هي رمز التفاؤل، حسبما تقول لا كما يعتبر البعض بأنها رمز التشاؤم.

ولدت غادة السمان بدمشق وهي: ابنة الدكتور أحمد السمان الأستاذ الجامعي الذي أصبح عميداً لكلية الحقوق طوال عقدين من الزمن، فرئيساً للجامعة، فوزيراً للتربية والتعليم، وهي نفسها بدأت حياتها العملية كأستاذة محاضرة في جامعة دمشق، ولكنها سرعان ما تمردت على المجتمع البورجوازي السوري، فتركت الأسرة والجامعة ودخلت إلى أوروبا الغربية في جولات من التجارب الإنسانية الحرة والعميقة، ثم عادت لتستقر في لبنان وتعمل كصحافية وكاتبة فقط.

وقد كانت غادة (مفاجأة) لجيلها من الرجال والنساء لأنها قدمت نموذجاً جديداً على الحياة العربية المحافظة، جديداً في الفكر والسلوك، ومن هنا كان إبداعها الأدبي مغايراً ومختلفاً عن القيم الأدبية السائدة في الوطن العربي.

وهي بالطبع ليست مقطوعة الصلة بتراثها الأدبي، فهي جزء من التقاليد العريقة لأدب بلادها، ولكنها جزء أضاف على هذه التقاليد تجربة غنية لامرأة عربية من المشرق تعمل بالكتابة، وتتثقف بأهم تيارات الثقافة الإنسانية في الغرب، وخاصة الآداب الإنكليزية والفرنسية، وهي أيضاً تجربة (البنت الشابة) التي تركت وراءها الحياة البرجوازية لتعمل وتعيش في عالم قاس سريع التغيير، وقد ترك ذلك كله أثاراً واضحة على أدبها، سواء في القصة القصيرة أو في الرواية.

والملاحظ أن غادة السمان لم تكتب الرواية حتى العام ١٩٤٧ حين شرعت في كتابة (بيروت ٧٥) كانت تكتب القصة القصيرة طيلة الأربعة عشر عاماً السابقة، وكان أهم إنتاجها في القصة القصيرة هو كتاب (رحيل المرافئ القديمة) الذي كتبت قصصه الست على أثر الهزيمة العربية عام ١٩٦٧، ولكنها في أواخر عام ١٩٧٤ وقبيل بداية الحرب اللبنانية ١٩٧٥ فاجأت القراء بأول رواية في حياتها الأدبية والرواية العربية الوحيدة التي سجلت البدايات غير المرئية للحرب، فتنبأ بها على نحو من الأنحاء وهي رواية قصيرة من حيث الحجم ولكنها ليست قصة قصيرة طويلة).

وفي أثناء الحرب نفسها أنجزت غادة السمان روايتها الثانية الطويلة جداً (كوابيس بيروت).

وأثارت هذه الأعمال الثلاثة مجموعة من الأسئلة حول علاقة نوع الحرب بالنوع الأدبي من ناحية ثانية.

فلماذا كانت القصة القصيرة هي التعبير الأدبي عن الحرب الوطنية عام ١٩٦٧؟ ولماذا كانت الرواية هي التعبير الأدبي عن الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥؟ وما مغزى أن تكون رواية النبوءة قصيرة ورواية المعايشة طويلة؟ من الملاحظ أنه


بالرغم من أن بعضاً من أهم أعمال غادة السمان قد تمت ترجمته إلى لغات أخرى غير العربية، كالإنكليزية والألمانية والإسبانية والروسية والفارسية والبولندية والرومانية، إلا أن شيئاً لم يترجم لها إلى الفرنسية، بعض النقاد كتبوا عنها بالفرنسية ولكن أدبها لم ينقل إلى هذه اللغة.

غادة السمان بصفتها أنثى تنتمي إلى الأقلية الجنسية التي كتبت عن الحرب، فكان هذا الحدث أحد عناصر التحرر الإنساني الذي حصلت عليه المرأة العربية، وكانت الكتابة من مظاهر هذا التحرر، ولكن غادة السمان لا تكتب أدباً خالياً من العقد النفسية كالكبت: وإن المجتمع الذي ظهر فيه (عمل) غادة السمان قد شارك في (إبداع) هذا العمل، بما يسمى في علم اجتماع الأدب، بالإبداع الجماعي، وإن المجموعات البشرية التي ساهمت في الحرب بواسطة السلاح أو بدونه هي شريك أساسي في صياغة البنى الذهنية التي برز عمل غادة السمان من داخلها.

ولابد من الحديث عن مكانة أعمال غادة السمان في المجتمع كونها الوجه البارز في الأدب العربي الحديث، ولأنها في الأصل امرأة بوجوازية فهي حظيت باهتمام أجهزة الإعلام العربية، والنقد الأدبي وقد أدركت غادة في وقت مبكر أهمية (الوسيط) وبسبب بعض صفاتها الشخصية وبسبب القيمة الأدبية لعملها، فقد تمكنت من السيطرة على هذا الوسيط: في الصحافة والنقد الأدبي، فلأنها أنثى تمارس الكتابة، ولأنها من أسرة دمشقية معروفة، ولأنها مارست تجربة الحياة في الغرب والشرق بحرية نسبية، جذبت إليها الكاميرات والتلفزيون والأقلام والصحفيين، ولأنها تعمل في الصحافة قامت بتحقيقات مثيرة وغريبة على الصحافة العربية - داخل السجون ومستشفيات الأمراض العقلية، ولأنها تميزت بالشجاعة والأسلوب الجميل الذي يجمع بين التراث العربي والتأثيرات الأجنبية، بسبب ذلك كله تمكنت غادة السمان من تحقيق شهرة واسعة، لا في الأوساط العربية المثقفة فقط، وإنما في دوائر البورجوازيات العربية الصغيرة من المتعلمين تعليماً متوسطاً.

إن اهتمام معظم تيارات النقد الأدبي العربي بغادة السمان لا يعني أنها حظيت

بإعجاب الجميع. ولكنها في كل الأحوال حظيت بالاهتمام الواسع في عـالم الأدب الرحيب.



ناديا الغزي :

دمشقية العطر والفكر وفي جعبتها رماح قاطعة لطعن الظلم...

إنها "ناديا الغزي" الدمشقية حتى شغاف القلب ... ورثت "جينات" الإبداع من أسرة عريقة في العلم والأدب والفقه، بدأت مسيرتها الأدبية بالشعر، فنظمت القصيدة الحرة الموزونة التي عالجت فيها قضايا المرأة الشرقية، وتمت ترجمها إلى الفرنسية والفلامنكية، ولما ضاق بها الشعر انطلقت إلى النثر المعبر أكثر عما في الأعماق ... كتبت القصة والرواية ودافعت فيهما عن إنسانية الإنسان، واختزلت بحكم عملها كمحامية مخزونها عن مخزونها من حكايات الناس ومشكلاتهم في مجموعات قصصية واقعية وثقت فيها الجريمة بأسلوب أدبي، كذلك أعطت النبض لوقائع تاريخية مدونة على الرقم الصلصالية من أيام الحضارات القديمة وأجرت فيها نسغ الحياة من خلال قصص مؤنسنة لنساء عانين منذ آلاف السنين.

خصت "نادياً الغزي" الورد والعطر والعادات والتقاليد في بلاد الشام بدراسات متميزة، وكانت المحصلة عشرات المؤلفات والمحاضرات، كتاباتها التي تعانق الروح والوجدان متواصلة منذ خمس عشرة سنة بغير انقطاع ... لكن "ناديا الغزي" زاهدة في الظهور، ومبتعدة عن الأضواء: "ليكون عطائي أكثر سلامة ونقاء"... والحوار معها – بعد هذا – حميمي ومثير، وفيه نكهة مختلفة تماماً، كما هو ورد "دمشق" وعطرها الأخاذ...

- **نريد في البداية أن نتتبع خطوات المسيرة الشاقة مع الإبداع...**

المسيرة متنوعة ... ولربما كان فيها بعض الاستراحات البسيطة التي يستجمع فيها الإنسان نفسه ويتمثل أنواعاً جديدة من المعاناة، ليعود (الإشراق) دفعة واحدة،

وبدون إنذار. وهكذا اكتب .. أسكت واشعر باعتمال كل ما يحبط بي، يتفاعل مع نفسي ليصبح نوعاً ممثلاً للدم الساري في الشرايين ... دم زاخر بالأوكسجين، أسكت ... وأنا أراقب وألتقط كل شيء، ابتداء من ذرة الغبار ونقطة المطر، إلى صمت كل شروق وغروب وإلى منظر كل غزالة تضع مولودها في الصحارى التي تشفق لها. وحتى يحين الأوان ترغب نفسي في التجرد وفي الانجراف نحو الورق، في وقت لا تحدده إرادتي إطلاقاً ... فأبدأ بالكتابة، هذا هو مجمل مسيرتي ضمن توقيعها السنوي أو الموسمي أو اليومي لكنني حين أبدأ بكتابة موضوعٍ ما أو دراسة أو قصة، أعكف عليها أياماً متواصلة، بل ربما شهوراً ... بل ربما سبباً حتى أنجز ما بدأت مضت في السنوات، انتقلت فيها من أشعار بسيطة نظمتها في يفاعي، انتقلت بعدها إلى نظم القصيدة الحرة الموزونة، وكل هذه الأشعار لم تنشر، ثم وجدتُ الشعر يضيق لي أو أن روحي تطلبت انشراحاً أكثر في معالجة المواضيع الواقعية في آن واحد ... والتي أهتم بها أشد الاهتمام ... فالواقع لا ينفصل عن العاطفة أبداً، سلباً أو إيجاباً. وهكذا فككتُ حصار الشعر الصعب وانطلقت نحو النثر ... ولعل نثري يعتبر نوعاً من الشعر الكامن في الأعماق. لأن النثر بحركتي ويهزني أثناء كتابتي له، أما كتاباتي فهي بين محاضرات ودراسات ومؤلفات أعدد بعضاً منها.

الكتب: "هديل" صدر عام ١٩٧٩، عام الطفل الدولي وهو يعالج مشاكل الطفولة العربية بلسان طفلة – "العبور إلى الشر" صدر عام ١٩٨٤، وهو مجموعة من القصص والوقائع الجرمية الحقيقية المصاغة بشكل قصصي – "هنّ" صدر عام ١٩٨٦، هو مجموعة من الجرائم الواقعية المرأةُ فيها إما جانية أو مجني عليها (قضايا خاصة وغريبة من الجرائم الواقعية التي كُتبت بخط إنساني وعادل – "من بساتين بلاد الشام" صدر عام ١٩٩٣، وهو دراسة تراثية عن تسعة أنواع من الفاكهة التي تنبت وتنضج في بلاد الشام، عولجت في الكتاب شعراً ونثراً، فلاحة وحفظاً وفوائد، ضمن ما جاء في الكتب العربية التراثية، مع بعض المقارنة مع

العلوم الحديثة – "**شروال برهوم**" صدر عام ١٩٩٣، وهي رواية تحكي عن المجاعات التي تعرضت لها سورية ولبنان أيام "سفر برلك" أي أيام الحرب العالمية الأولى – "عالم الطير بين القزويني وعلوم القرن العشرين" وهو مقارنة بين ما كتبه العلامة القزويني منذ ٨٠٠ عام، من عادات طيور المنطقة وبين ما ورد في موسوعة "اللاروس" من عادات هذه الطيور حصراً ... والكتاب لم ينشر لصعوبات في تصوير الطيور.

"حكايا صلصالية لنساء ميتات": صدر عام ١٩٩٧، وهو مأخوذ من الرُقُم الصلصالية التي دونت وقائع التاريخ .... وفي الكتاب قصص ثلاث مستقاة من (إيبلا) و(ماري) (وحضارة الفراعنة) وقد جعلتها قصصاً مُؤنسنة لثلاث نساء عانين منذ آلاف السنين – "**حكاية الفخار القديم**": وهو قيد الطبع ويعتبر الجزء الثاني من دراستي التي أُجريت على الرُقُم الصلصالية من حيث الواقع الجرمي والإنسان والجغرافي للإنسان، وقد صغتها بمحتواها الحقيقي، بشكل قصص فيها بعض من حضارات بابل – أور – أوغاريت – الحثيين وغيرهم – "**حضارة الطعام في بلاد الرافدين والشام**": سوف يصدر عن دار الفكر عام ٢٠٠٠، وهو دراسة موسوعية في أجزاء متعددة لحضارة الطعام في المنطقة وعن أهم المنتجات الأصلية فيها ... وعن أهم ما أخذته بلاد الشام من مآكل الفرس والمغول والتتار والسلاجقة الترك، والعثمانيين، والجراكسة والكلدان، والأرمن، يضاف إلى ذلك مآكل الجزيرة العربية التي قدمت إلى بلاد الشام ... ومآكل بلاد الشام في عهد الإغريق واليونان الخ ... والكتاب مزين ببعض الصور لبعض أدوات الجرش والخبز والطحن والتحميص الغارقة في القدم مما يؤكد دون أي شك استمرار حضارة كبرى – "**مذكرات هر مخصي**": رواية في قيد الكتابة تعالج وبدقة تدخّل الإنسان في أقدار الإنسان في أقدار الحيوان المدجّن وهي عبارة عن مذكرات يكتبها هر مدجّن مؤنسن.

الدراسات: – أبواب دمشق – البساتين التي كانت تحيط بدمشق قبل الهجمة

العمرانية وما كان فيها من أنواع النبات والخضر والفاكهة - أسباب الخلافات الزوجية في الأسرة السورية - العطر والورد في بلاد الشام - أسباب الإجرام عند المرأة - نُظُم التبريد في الماضي (لم تنشر) - العادات والتقاليد بين السلب والإيجاب، الطعام والإنسان - اضطهاد المرأة عبر التاريخ - صدرت عن اتحاد النسائي العربي السورية - طُرق التجميل البدائية (لم تنشر) - نظام إقامة (الحد) في التشريع الإسلامي (لم تنشر بعد)، وغير ذلك - أكتب في "مجلة طبيبك" منذ عام ١٩٨٦ زاوية شهرية دائمة عن التراث الطبي الشعبي، وشاركت في مجلة المرأة العربية بكتابة زاوية "ملفات وقضايا" لمدة ثلاثة عشر عاماً، بحكم مهنتي كمحامية، لي دراسات في الصحف السورية عن - المهر - الطلاق - التعسف - الحضانة، وغير ذلك.

- **ما هي العوامل التي حفزت الأديبة نادية الغزي وشجعتها على خوض غمار الميدان الثقافي ومن جانب آخر، العوامل التي عوّقت انطلاقتها في مسيرتها (إن وجدت).**

ربما كانت العوامل التي حفزتني على الكتابة شديدة التعدد واسعة الطيف: لكنّ المحرك الأول هو وجود (مهنة) الفكر في أسرتي من طرف الأب والأم، ولقد أورثني الله "بقدرته على إنقاذي"، جينات الفكر والتأليف والغوص الصبور في أرشفة الدراسات، وقدرة التعبير، من أسرة والدي المحامي والسياسي "سعيد الغزي"، ومنهم عبر تاريخ الأسرة العديد من العلماء والفقهاء والشعراء وأعدّد: العلاّمة "الشهاب الغزي"، العلامة بدر الدين الغزي، الشيخ المؤلف كامل الغزي، الكاتب أحمد الغزي، وقد غذى الشيخ العلامة "عبد الغني النابلسي" بحكم المصاهرة توقد الفكرة عند مفكري الأسرة، وافتخر من جهة أخرى بخالي المرحوم "عزمي الموره لي" وهو شاعر وفيلسوف معروف كتب في غير لغتي الأم، وها أنذي... أكتب من جديد ... بهذا القلم الذي يسحرني، فأنا لا أكتب بوساطة الآلة الكاتبة ولا

الكمبيوتر، وبهذا فإني لست شديدة التمدد ... فأنا أحب قلمي وهو يلاحق أفكاري السريعة وحروفي التي تخرج في المسودات متلعثمة، شبه غير مقروءة لا يفهمها أثناء إعادة كتابتها إلا أنا.

أما العوامل (غير الجينية) في عشقي للكتابة، فأولاً، تفاعلي المطلق مع كل ما هو حولي فأنا أتعامل مع النفس ومع المعنى، مع الروح الإنسانية بما يشبه الحدس الدائم، وأجد نفسي دائماً في موقع أية إشارة إنسانية لإنسان يحمل معاناة ما... لأتبنى هذه المعاناة، لأدافع عن إنسانيتي وإنسانية هذا الإنسان بما أملك ... وأنا أملك القلم. لكن هذا التداخل الإنساني بيني وبين الآخرين ليس بسيطاً ... بل تلزمي العشرات من القناعات ومن الإشارات السرية الروحية الصافية الصادقة، التي تخرج من مسامات الإنسان نحو الإنسان الآخر، وكم يقع الإنسان في ترجمة هذه الإشارات، في مطبّات لا حصر لها، حتى يتعلم ... أولاً يتعلم ....، فقد يقع في خطأ التفسير، وفي تبيّن الصدق من الكذب.

وكم أكره الرياء ... كم أكره الكذب، أكره خنق الخير، واختلاجات الحقد، والابتذال والاستجداء المشوّه. ومن العوامل الحافزة بدون شك عملي الأول في التلفزيون العربي السوري، والثقة التي اكتسبتها من قِبَل الناس قبل أن أوْثر، بعد عام واحد الابتعاد عن الأضواء، ليكون عطائي أشد سلامة ونقاء وإني أشهد رب العالمين أن كل ما كتبتُ ... وما شعرتُ ... وما أنتجت كان نقياً، حلالاً ... لا زيف فيه. بكل سلبيات الحياة وإيجابياتها.

وهنا أدخل في قاع الإجابة على الشق الثاني من السؤال ... فلربما خطّأني الكثيرون من الأصدقاء على عدم رغبتي في الظهور لأساعد على انتشار نتاجي، ولهم الحق في ذلك، فالإعلام له المرتبة الأولى في عوالم المدنيات العظمى، لكن ... وبصراحة فإني أقول: إن بعض الإحباطات الخارجية قد أثّرت في مسيرتي ... وها أنذي أترك للذين ينخلون الجيد من الغث أن يعرفوا وحدهم قيمة أدب ما أو يعرفوا أعماق كتابتي، دون أن ابرز عضلاتي أمام الجميع (مع العلم أنني جسدياً

قليلة العضلات). ولربما كان هذا التراجع أحياناً خطأ مع أخطائي الكبرى ... لستُ أدري، فأنا امرأة عنيدة عندما يُساء إلي. من عوامل إنتاجي أيضاً، عشقي للطبيعة، وانصهاري وانبهاري بها دائماً، وكم كتبتُ عن الورد والعطر والبستان، والطير والفراش، بنفس الاندفاع الذي دافعت فيه في قصصي عن كرامة الإنسان بل عن انفعالاته قاتلاً أو قتيلاً ... سارقاً أو مسروقاً ... متشرداً ومنكوباً. وإنـي لا أعتبر اتجاهاتي المتعددة في الكتاب انكسارات على زجاج محطم ... ففي جعبتي الكثير من الرماح والنصول القاطعة، أرميها بقوة لتطعن، من خلال الفكر، من أجده وتجده المبادئ جديراً بالإسكات. ومن العوامل في انطلاقي الفكري ... وضع المرأة! فهمها لنفسها أو عدم فهمها لنفسها، وعدم فهم المجتمع لها ... إحباطاتها، واندفاعاتها، وانفجاراتها التحررية غير المتوازنة أحياناً ... فالمرأة، سواء كانت مندفعة، أو منفجرة أو حاصلة، فهي تشعر بالظلم ... لا يرفع الظلم سوى إدراكه والتغلب عليه بالفكر الحكيم والإرادة والشعور بالواجب والعمل الدائم الدائب. والإنتاج الاقتصادي والأُسري والمعنوي. وبمعنى أدق: الشعور بالهدف الذي يمكن أن يتحقق.

أما الأهداف الضائعة، فأعتقد أن الكل يعرفها، رجالاً ونساء، والكل، يعرف المقدار المؤسف من الأحزان التي تسبّبها خيبات الأمل.

إن اهتمامي ببلدي، بأرضي، بلغتي، بانتمائي الجغرافي الشرقي هو ما دعاني إلى طرق باب الحضارات القديمة وكان عاملاً مهماً لأكتب عنها وعن آثارها، بل لأتفهم الشعور الإنساني الذي كان ينبض فيها ... لأعالج مفهوم جرائمها وأدرس عقوباتها، وأسجل تاريخ بعض نسائها اللواتي لم يكتب عنهن أحد ... نساء ولدن، وعشن، ورحلن، سعدن وبكين ثم مُتْنَ دون أن يُدوّن لهن قديماً أو حاضراً أي حضور ... إنهن المجهولات الباقيات الصامتات اللواتي أكتب عنهن ... المجهولات عبر التاريخ وإلى يومنا هنا. أعرف أنني خضت الميدان الثقافي من أصعب بوابة، لكني فخورة بنفسي ... فإذا لم يفهمني البعض اليوم فإني على ثقة بأنهم سيفهمون

وبشدة بعد أن يُدركوا الفجر ... ويعيشوا مع وعي الشمس ووعي الشجر لقدره ... ووعي الإنسان للإنسان. والكتابة في نهاية السؤال هي نعمة من نعم الله عز وجل ... عليَّ، إن العوامل التي تعيق انطلاق الإنسان وانطلاقي الفكري، تخضع لنوسان السنين، منها عوامل شخصية بحتة، فأنا أعرف أنني بالدرجة الأولى أم ... وأنني ربة بيت وهذا واجبي الأول في الحياة. فالأمومة لحظات هاربة من خلال الأولاد حين يكبرون ... أما القلم فهو بين أصابعي أملكه ويملكني ... أما الأولاد إذا يكبرون فهم يملكونني، ولا أملكهم. وأما الأصدقاء فهم ينتظرونني وأنتظرهم، وأما العمل فله أوقاته وبرامجه التي يتفهمها الصغار والكبار بصفتنا جميعاً داخل حزام هذا الوطن. عاملين آمنين وأما العوامل الخارجية التي حددت أحياناً ولو بشكل مؤقت ... هذا صحيح ... لكنني أؤكد أنني لا أشكل طرفاً سلبياً ... لكنها الدنيا المليئة بالمتناقضات.

- **ما هو المحور الرئيسي الذي كان مدار اهتمام الأديبة نادية الغزي وكان الطابع المميز لإنتاجها الفكري.**

بعد كل ما سردت، فالمحور لكتاباتي هو الإنسان ... بكل عنفوانه وعجزه.

ثم هو كل ما هو حي، ما له روح من خلق الله: الطبيعة والأعجم الذي لا يتكلم، ونظنه لا يفهم ولا يتكلم، محوري النبات بكل ما فيه من ورد وعطر وغذاء وشوك ... محوري لم يكن في أي يوم جمادا، بالرغم أنني تجاوزت في بعض قصصي وجاورت الجمادات إسقاطا أدبياً.

- **إلى أي حد استطاعت الكاتبة العربية (بشكل عام) التعبير عن المرأة وبصدق؟ ومن هي الكاتبة التي لفتت انتباهك ونالت تقديرك؟...**

بشكل أو بآخر فإن الكاتبة العربية قد عبرت عن المرأة، وهذا شيء أكيد. وأما الصدق في التعبير فهو ممكن وخاضع للإمكان ... أو اللاإمكان ولا ضير في ذلك.

أما أن تقول كاتبة عن نفسها أنها عالجت كل الشرائح الأنثوية في العالم العربي، كل المتاعب والمطاليب والانتصارات فهذا مستحيل وغير ممكن. فزملائي وزميلاتي من الكتاب العرب وأنا، تخضع للإقليمية بالنسبة لمعالجة قضايا المرأة العربية بالرغم من توحد الأهداف. وبصراحة ... فإنني أقول أننا نفتقر إلى الاضطلاع الكامل على أحوال المرأة في العالم العربي والإسلامي. إلا من خلال القوانين والصحف والأنظمة، وهي وحدها لا تكفي رغم دلالاتها الواضحة ... لكن الجزء الميداني هو الأهم والأهم هو الالتصاق بالمعاناة ... وإن من الواجب الحتمي، التعاون والتبادل بين الاتحادات النسائية في الدول العربية، وبين الجمعيات العامة والخاصة، لإجراء دراسات ميدانية واسعة تحدد بعدها طلبات الأسرة العربية، وتدرس الإمكانيات الممكنة لتحقيق هذه المتطلبات. وللجواب على الشق الثاني من السؤال ... فإنني أقول أن كل كاتبة حقيقية أثرت كتابتها في نفسي ... الكاتبات الأوائل في سورية ولبنان، والكاتبات المعاصرات اللواتي قرأت لهن، من فلسطين، من الجزائر من مصر، من لبنان، ومن سورية.

- **ما هو المجال الذي ترينه الأجدر باهتمام الكاتبة العربية، وما الدور الذي تستطيع أن تنجح فيه بصورة أفضل في حياة المجتمع؟**

إن المجال الأجدر بالنسبة للكاتبة العربية يتحدد حسب تواجدها الثقافي والعلمي والاقتصادي والاجتماعي، والسياسي، فبحسب خط السير الذي يتخذه، الكاتب، أو الكاتبة في الحياة يتحدد مجال الإنتاج، فالعالمة تكتب في العلم ... والباحثة في الدراسات ... والاقتصادية تفيد بلدها في إبداع تنظيمات اقتصادية جديدة ... والمتخصصة في التاريخ تكتب عن الحضارات ... والجغرافية تكتب عن المسافات والنجوم ... أما الأديبة فهي تملك المجال الأوسع للكتابة إذا أنها تملك اللغة وقوة التعبير بحيث تتمكن من خوض تجربة مجتمع كامل بكل أبعاده، ابتداء من المنطلق العاطفي على الوصول إلى لب الأسرة والطفل وحقوق المرأة داخل وخارج المنزل

... بل الوصول إلى الحقوق السياسية داخلياً وعالماً. أما المشكلات الحياتية التي يجب أن يركز عليها أدب المرأة.

فقد دخلت المجتمعات اليوم مرحلة التطبيع والفضائيات ومرحلة الصفقات الكبرى، وبطبيعة الأمر أصبح الدخل الأسري غير مقتصر على فرد واحد يقوم بكل واجبات الأسرة. وإن عصر الكمبيوتر والإنترنيت والمصارف لم يعد يسمح بتراجع المرأة وتقوقعها.

فالكتابة يجب أن تتركز (اليوم) على هذه المرحلة الانتقالية المهمة والصعبة التي تمر بها المجتمعات وتمر بها المرأة بشكل أعنف ... متقلبة الثمن الباهظ الذي تدفعه من جهدها وصحتها وصباها.

لتستطيع، في النهاية إتمام معاملة الحياة/البيت/الأولاد/الزوج/العمل/السوق/ المجتمع/الأهل/الفكر/الإنتاج/... إنها تسعة أحمال ثقيلة والله.

لهذا أكرر بأن الدور الذي تستطيع الكاتبة أن تلعبه في مجتمعها هو تفهم مشاكل ومتطلبات هذا المجتمع بدقة ... فإذا كانت الكتابة واقعية بمعناها الإنساني الفكري، الثقافي، اللغوي فإنها ستتوجه حتماً إلى القلب وإلى لب المشكلة ... إلى إنسانية المجتمع الذي تنتمي إليه محاولا إبعاد الخطأ وإدراك الحقيقة.

أما النجاح ... فهو الوسام الذي يهبه كل فرد في المجتمع، ليكون نعيماً وبرداً وسلاماً لكل كاتب وإنسان فعّال في مجتمعه.

وأقول بأني لست أبداً مع الذين يكتبون عن أنفسهم، ويدورون في متاهات رؤاهم المستمرة ... بل مع الذين يكتبون عن مشاعر الآخرين، ومشاكل الآخرين بعكس هذه المشاعر على الورق، وبصهر المشاعر الشخصية مع مشاعر الآخرين.

- **ما هي المشكلات الحياتية التي ينبغي أن يركز عليها أدب المرأة؟**

الواقع أني لا أقر بما يسمى أدب المرأة وأدب الرجل، فبحكم التطور الحضاري السريع، كتبت المرأة وما زالت نوعاً معيناً من الأدب المتعلق بمشاكل

المرأة والأسرة ... لكن هذه المرحلة مرحلة موسمية لا تنطبق عليها صفة الاستمرارية. فمع التقارب الحضاري السريع بين المرأة والرجل ... فإنهما سوف يكتبان حتماً في سبيل الأهداف نفسها، وفي المشاكل نفسها، والقادر هو الذي يستطيع أن يوصل إلى الآخرين ما أحسه من معاناتهم. وطالما بقيت مشكلة تطور المرأة ومعاناتها ما تزال قائمة في مكان ما على سطح الأرض، فإن على المرأة الكاتبة معالجتها بقوة، لأن الرجل قد يفهم المرأة من زاويته الخاصة، بينما تفهم المرأة المرأة من كل زواياها.

- **هل نالت الكاتبة العربية ما تستحقه من الحفاوة (إن كان لا ... ما السبب؟)**

لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال بدقة ... أما الحفاوة فقد نالتها الكثيرات المستحقات منهن وغير المستحقات، وهناك الكثيرات ممن يستحقون الحفاوة لكنهن لم ينلنها.

وعملية (غربلة) الغث من الثمين علمية صعبة للغاية ... فقد يمسك الرجال الغربال من جميع اتجاهاته وينصبّون ملوك ثقافاتهم، وقد تمسك النساء الغربال (وهذا أقل حدوثاً) من جميع اتجاهاته، خاضعات لمشكلتهن الكبرى، وهي مشكلة مقارنة المرأة لنفسها مع المرأة الأخرى، لا مع الرجل، مما يؤدي إلى إحباطات ثقافية كبرى وإلى ارتفاعات قد تكون في غير محلها.

لكن المُسعد أن وجود اللجان الثقافية الكبرى التي تختار الإنتاج الأدبي، قد حرّر الأهواء والاضطراب، وأوفي حق الكثيرين وهو ساع بكل تأكيد إلى إيفاء حق الكثيرين الذين يعيشون في الظل ومنهم أديبات نسائيات منتجات.

وبهذا...فإني أقول إن الوعي الثقافي الشعبي الكامل لمجتمع معين، لا يجب أن يخضع فقط إلى الإعلام والاحتفالات، بل على الفرد العربي تفحّص الكتب وقراءتها، ثم إطلاق رأيه فيها مستنداً بالطبع إلى أهمية الإعلام والإعلان.

- **ما هي آخر أعمال الأديبة نادية الغزي ومشاريعها الجديدة؟**

آخر أعمالي دراسة موسوعية عن "حضارة الطعام في بلاد الرافدين والشام" سوف تصدر عام ٢٠٠٠ عن دار الفكر وهي دراسة حضارية عن غذاء المنطقة وطعامها منذ أيام الحضارات الأولى في ما بين دجلة والفرات وفي المناطق الجنوبية والساحلية، وأذكر من هذه الحضارات حضارة إيبلا، ماري، أوغاريت والحضارة الجنوبية والصحراوية التي تشبه أطعمتها حضارة شبه الجزيرة العربية.

ثم أذكر الهجمات الحضارية، التي تعرضت لها بلاد الشام من خلال الغزوات والحروب والهجرات وما اكتسبته هذه البلاد من جديد الغذاء والوجبات نتيجة التمازج الحضاري عبر التاريخ.

مركّزة على مآكل الجزيرة العربية قبل وبعد الإسلام - مآكل اليونان والرومان وتأثيرها على بلاد الشام وتأثرها من بلاد الشام - مآكل المغول والتتار والفرس والسلاجقة والكلدانيين والآشوريين - مآكل الأكراد والجراكسة الأرمن - مآكل الأمويين والعباسيين - مآكل المناسبات الدينية والاجتماعية لدى المسلمين والمسيحيين. ثم تحضر الموسوعة مآكل بلاد الشام وأنواع الخبز... وبناء التنور والفرن في كل منطقة وتعدد أنواع (الكبة) التي تصل إلى تسعين نوعاً. وتتحدث عن تاريخ القهوة والخضر والأعشاب. ثم تفرد لكل جزء من بلاد الشام مآكله: فلسطين - الأردن - لبنان - سورية - لواء اسكندرون. وبعدها يتم تقسيم سورية إلى محافظاتها الحالية، حيث تقدّم الموسوعة أهم المآكل التراثية لكل منطقة وهي شديدة الاختلاف عن بعضها، ولدمشق ومآكلها فصل خاص موثّق تاريخياً. يليه ذكر لمشاهير النهمين والأكلة والبخلاء والكرماء عند العرب، ومن ثم ذكر لمآكل الأنبياء والملوك والمشاهير من علماء وقادة، أما مشاريعي القادمة، فهي قادمة بإذن الله...

إني أستحي أن أغازل من أحب، بمجلس فيه النرجس

في زمن .. طغى فيه التصنيع على عطاء الطبيعة ولم تعد هناك من حاجة للبحث في مشارق الأرض ومغاربها عن خامات تساعد على تجميل الحياة وفي مجال العطور بالذات، ومنها اليوم آلاف الأصناف، لا بأس أن نعود إلى الماضي في جولة توثيقية، جمالية وفنية، ليس من باب الحنين، إنما، تقديراً وإعجاباً بالأوائل، الذين كافحوا في هذا المجال وكانوا اللبنة الأولى في طريق الحضارة.

بدأ الإنسان بالعطر .. منذ أن بدأ يعي ماهية الجمال المحيط به.. ويكتشف الزمان.. زمان انبثاق العشب .. زمان انبثاق زهر البساتين الذي يرفرف ويرتعش، حول فاكهة لم تتوضح بعد.

أو ... لعله زمان انبثاق العطور البرية، للنباتات المخضوضرة، المنتشرة على أكتاف الجداول، تطلق عبيرها بين الحين والحين، صباحاً ومساءً، أو مع هبة هواء ناعمة، منادية من يفهمها .. ومعلنة عن عطورها، تتفاهم بها، مع المخلوقات الحية الأخرى ... ومنها الإنسان.

أو ... لعله قدوم صيف بعيد، حين ارتسمت على الأرض إشارات الذهول، وانبثق الريحان، والورد، الورد!!.

العطر الأول:

تقدم الأول.. تقدمت الأولى

نفثت الزهرة عطرها .. نشرت الوردة شذاها .. والحبق ترنح .. والياسمينة هرهرت ...

والبنفسج مات عشقاً..

بل تعطرت النباتات .. أكواز الصنوبر بعيدة المنال .. براعم الصندل، لحاء الأشجار الكبرى، والريحان، وغصون البان، كلها تعطرت حتى أقاصي العطر، حتى آخر منعطفات الاستنشاق .. حتى أعمق سنخ رئوي، حتى الغيبوبة والإعتراء.. هكذا استنشق أول عطر!.

ليس من الصعوبة أن يكتشف الإنسان الطيب، وليس من المستغرب أن يحبه، فالطيب موجود في قواريره الإلهية .. موهوب بعفوية خالصة، يهبه النبات .. يهبه الشجر .. ويهب المادة العطرية بعض الحيوان .. ونخبة من الحيتان.

مسحوب هو العطر من الجذور العميقة .. من الحب والغضب، من ثوران القدرة الربيعية، من تأكيد الخصوبة الصيفية، وشفافية القوة الخريفية، وتركيز السر الشتائي.

كيف لا يكتشف الإنسان العطر .. والعطر الفواح هنا، وهناك .. ألف رائحة ورائحة .. مسك .. مسوك .. وعطور لا تحصى!

عطور الشرق:

منذ القدم، تعطر البشر! تعطرت النساء .. وتعطر الملوك والكهان والعشاق..

وكان أول ما وصلنا عن الطيوب، مدونات العصور وآثار الحضارة، وأوضحها، الحضارة الفرعونية:

رائحة .. عطرة وغريبة، تتفجر نحو الحرية، حين تفتح قبور الفراعنة! زيت مسحور .. مستخرج من خشب الأرز .. مغموس به قماش المومياء..

رائحة خشب الصندل، وصموغ الصنوبر العطرة الدبقة اللاصقة .. بعض ورود جافة موضوعة على قبر توت – عنخ – آمون .. وضعتها أرملته عنخ – سن – آمون .. وكانت من أزهار عنب الثعلب، ومن أوراق الزيتون، وسنابل القمح.

أوراق بردي .. قصب ونيلوفر مجفف ومسحوق .. مسك .. عنبر!!

إنها بعض المواد العطرية، وبعض عطور الفراعنة، الغامضة، القديمة، أقدم طيوب وصلت إلينا!، فقد عرف الفراعنة الطيب منذ آلاف السنين، واشتهرت بلاد النيل بمصانع العطر، والمواد العطرية المتنوعة، وكان المسك معروفاً، كما عرف الغار – وعطر الصنوبر – وعطر اللوتس – والميعة (المثبت العطري الأمثل).

وكانت معامل العطور تعمل باستمرار، خصوصاً في عهد البطالسة وفي الإسكندرية بالذات.

والمعروف ... أن الفراعنة كانوا يخزنون الكميات الكبيرة من المواد العطرية من أجل التحنيط، والاحتفالات الدينية المتوجهة نحو رع ... أو آمون ... أو آتون.

وفي مثل هذه الاحتفالات، كان الكهنة، والمشاركون، يدهنون بالمسوح والمروخ العطرة (المراهم).

أما النساء.. فكن يغرقن أجسادهن الرشيقة بالمروخ المغذية العطرة، وبالزيوت النافذة، وكن يصبغن شفاههن وخدودهن، ويستعملن الحناء وقشور الجوز كصبغة للشعر.

كذلك عرفت حضارات الفرات وما بين النهرين، الزيوت والطيوب .. ففي ماري ... وإيبلا ... في سومر وآشور وبلاد الكلدان وغيرها عرفت أنواع العطور والدهون النباتية.

لقد عرفت حضارات الشرق، الطيب، بكامل وجدانياتها – تعطر الرجل، وتعطرت المرأة الشرقية .. وبرقت .. وأرعدت ضمن عطورها وبدت تشكل العنصر التوأم في الطبيعة!!

تعمدت بالزيت كما تعمد ملوك أوغاريت، وتقدمت نحو هياكل الغفران لتسكب زيوت الطهارة المقدسة فوق رأسها.

ايبلا – ماري – بابل – آشور – سومر – حاتوشا – الكلدان – الفينيق – العموريون .. كل هذه الحضارات عرفت الطيوب والعطور، العطور المنبثقة من نبات الأرض، والمتشكلة من البراعم والأزهار، المختبئة في الجذور والأخشاب، والقابعة مع لحاء الشجر!

اشتهرت حضارات الشرق الأقصى .. باستخلاص المواد العطرية الحيوانية، وعرفت أنواعها النادرة .. وكان أهل التيبت، أول من تبع ظباء المسك في أقاصي الهملايا والمناطق الوعرة .. وشاهدوها، وهي تتخلص من المسك، باحتكاكها على

الصخور.

وكان أهل الهند، وجنوبي الجزيرة العربية، يلتقطون العنبر المطروح على شواطئ من مفرغات الحيتان .. أو يلتقطونه من أجوافها، وأهم هذه الحيتان حوت الكاشالوت أي حوت العنبر.

وقد ذكر ابن سينا أن أحسن المسك قادم من بلاد (التيبت) .. وأضاف (موزاديوس) أن مسك التيبت له خاصية أفخم من مسك الصين، لأن ظبي المسك في التيبت يأكل الغاردين وغيره من النباتات المعطرة .. أيام التزاوج .. إنه الغاردين .. وإنها .. عطور البساتين.

عطور النارنج والبرتقال:

قبل مئات الأعوام .. كانت تستقطر في دمشق عطور النارنج والبرتقال .. هو عطر لا يوصف .. شذى لا يوصف.

ينتشر في الأمسيات الشامية يدعو المقيمين والعابرين والمهاجرين، من مكامنه الآمنة الساحرة في حدائق البيوت، وقد حرص أهل الشام أن يزرعوا أشجار الحمضيات في بيوتهم منذ مئات السنين .. لذا .. يكون موسم الأزهار شديد الخصوصية في الشام وسواحلها، موسماً يفوح منه العطر الساحلي الزهري .. الأمثل...

في بيارات البرتقال البعيدة، أو في الديارات الشامية الدمشقية، كانت تجمع أزهار النارنج .. بكميات كبيرة ... وتكون قد انتشرت على الأرض كالنجوم، وذلك بعد انعقاد الثمر الذي يتخلص من ردائه العاجي، ثم تستقطر الأزهار الدسمة بالأنابيق ومنها يكون (ماء الزهر) صديق القلب.

والنارنج وحده .. هو اللائق بالقلب ليكون صديقه!

وتستقطر أحياناً النموات الحديثة الورقية للنارنج بدلاً عن الأزهار ... فيكون ماء الزهر الناتج عنها هجيناً وفاقداً للزيت العطري، وللطعم المميز .. (نوع ثالث).

إنها أزهار تأسرها الشمس!

فتقدم صلاتها العطرية برائحة زكية، لا تفوح إلا في بلاد الشمس .. بلاد الحضارات .. والرمال .. والأنهار .. والحمضيات .. ماء الزهر..

نقطة من ماء الزهر .. في كأس ماء !! قمقم فضي أو نحاسي رشيق...

يا أهل بلاد الشام .. شموا رائحة عبير الحمضيات .. فهي (تغوّب القلب) لكنها تحييه!!

عطر شقائق النعمان:

هي زهرة الربيع زهرة الأسطورة .. زهرة الغوطة بين سنابل القمح .. زهرة السواحل .. هي زهرة أدونيس.

سمتها العرب: خدود العذارى، (تدور مع الشمس) .. وينفتح ورقها في النهار وينضم في الليل، ومنها يستقطر العطر المشهور الناعم ويؤخذ الخضاب الممزوج مع قشور الجوز، ومنها شراب السعال المهدئ، ولقد كانت صبايا دمشق .. يصنعن من بتلات شقائق النعمان حمرة لشفاههن.

عطر الهندباء البرية:

من سمات الإعجاز في طريقة استخلاص العطور قديماً .. أن أهل مزة دمشق عرفوا استخلاصه من النباتات البرية المليئة باليخضور والمنعشة في آن معاً .. شأنهم في ذلك شأن معمل العطور الحديثة التي تستخلص العطر من أكتاف الصنوبرات والنباتات البرية...

من هذه العطور عطر الهندباء البرية الذي ذكره البدري في (نزهة الأنام) وكانت الهندباء تستعمل صباغاً وطلاء وكمادات.

عطر القرنفل ودهن القرنفل:

في مربعات القاشاني الرائعة الفيروزية والزرقاء والبيضاء، تبدو رسوم

القرنفل البلدي .. تتصدر ملامح هذا الفن الرائع.

فالقرنفل .. من الورود القليلة التي ثبتها التراث الفني في الرسم العربي، وإضافة إلى انتشار القرنفل الواسع في دمشق وبلاد الشام، وشدة مقاومته للعوامل الجوية القاسية فإنه يتمتعه بألوانه التي تختلف بين الزهري والأبيض والخمري والأحمر والمرقش، تحمل نفس العطر – عطر شديد متميز يشبهه بشكل أكيد، رائحته أزهار كبش القرنفل التابل الهندي المعروف.

وأجود أنواع القرنفل للتقطير ما كان بلدياً .. ومنه تفوح الرائحة الأخاذة .. ولقد كان القرنفل قديماً بلدياً، فاستقطر منه عطر القرنفل واستخرج من بذوره دهن القرنفل.

عطر النرجس:

بوساطة الحراقات ... والتقطير كان يستخرج عطر النرجس كغيره من الأزهار..

وللنرجس أنواع: اليعفوري – البري – المدف – وهو من أول نباتات الظهور الربيعي .. وهناك النرجس الأصفر الذي يدعى (العرار).

قال كسرى: إني لأستحي أن أغازل من أحب بمجلس فيه النرجس.

ومن الأقوال المأثورة: شموا النرجس .. ولو في اليوم مرة .. ولو في الأسبوع مرة .. ولو في الشهر مرة .. ولو في السنة مرة .. ولو في الدهر مرة، فإن في القلب حبسة من الخوف والجنون لا يقطعها إلا شم النرجس.

ولقد كان أهل دمشق قديماً، إذا أرادوا تكثيف عطره .. يضعون في أصله عند زراعته شيئاً من الكافور، فينبت وقد زكت رائحته زكاوة عجيبة فيستعملونه في صناعة العطور.

عطر البنفسج ودهن البنفسج:

لقد اقترن اسم البنفسج، وعطره، وزهره، بالحب والتضحية والحزن .. ولعل

لونه الهادئ وشفافيته .. ورقته .. وشكل ورقه الذي يشبه القلب، ولعل قدومه السريع في أوائل الربيع .. واختفاءه .. وحياءه بين النباتات، هو الذي وسمه بهذه الصفة الشاعرية.

يعيش في الماء العذب .. ويموت في الماء الملوث، وإن وقوع الغبار عليه، والدخان .. يضعفه ويذبله، بمعنى أن عطر البنفسج الرائع لن يستخلص إلا في بيئة نظيفة بعيدة عن التلوث.

كانوا في الماضي يصنعون دهن البنفسج يطلون به الجبهة فيسكن الصداع .. وكانوا يشمون عطره ويتجملون به!، لذا طلبه الناس في كل مكان، قال العلامة محمد كرد علي في خطط الشام:

(ومن دمشق المعصور، والبلعيس، ودهن البنفسج).

إن مياه بردى الشريبة في الماضي.. هي التي كانت تساعد على بلوغ عطر البنفسج إلى منتهاه .. ليكون عطراً مستقطراً ومروخاً ودهناً ودواء.



ناديا خوست:

مشروعي: أن أقاوم التزوير الذي ينشره العالم الجديد...

تميزت الكاتبة والقاصة د.ناديا خوست دائماً بحبها للشام، وبلاد الشام كقطاع جغرافي واحد، وتفرع حبها إلى اهتمام بالذاكرة، ذاكرة المكان والمدينة والأدوات والحجر والإنسان وإلى إبداع تجلى في مجموعات قصصية ذات طابع خاص..

الشام ... القضية المحورية:

- **ماهي القضية المحورية التي تبنيتها في انتاجك الأدبي، منذ مجموعتك القصصية الأولى (أحب الشام) حتى روايتك الأخيرة (حب في بلاد الشام)؟**

من الصعب تحديد مسألة معينة يهتم بها الكاتب من بداية انتاجه حتى نهايته .. ألقيت ضوءاً على بعض العناوين، على قاسم مشترك بين عنوان أول مجموعة قصصية وبين كتابي ما قبل الأخير (حب في بلاد الشام) فهناك الشام .. ولكن دعني أوسع المسألة التي يتمحور حولها ما قمت بكتابته .. فالشام في البداية هي تلك المدينة (دمشق) التي كانت غارقة في الظلام بعد حرب (١٩٦٧) والشام في رواية (حب في بلاد الشام) هي البلاد السورية أي ما كان يسمى في بداية القرن بلاد الشام، هي عدة مدن (طبريا وحيفا ودمشق وبيروت) في جميع قصصي أو مجموعاتي تناولت الحياة العادية في مكان معين هو دمشق، وحاولت أن ألتقط العلاقات الانسانية هناك، لكن مسألة المدينة القديمة شغلتني عندما كانت تلك المدينة القديمة بهويتها العربية مهددة بالمخطط العمراني الحديث، عندئذ جعلت الدفاع عن الشام العربية مسألتي وعبرت عن ذلك في كتابين ليسا مجموعتين قصصيتين، هما (الهجرة من الجنة) و(دمشق ذاكرة الإنسان والحجر).

المكان .... والذاكرة:

لكننا نجد في بعض القصص هذا الدفاع عن دمشق، أو إظهار المكان أي إظهار سمات المكان مثلاً قصة الحب القديم أردت بها أن ترسخ في الذاكرة، مدخل دمشق وتحديداً منطقة الربوة، ومقهى أبي شفيق .. هناك وضعت البطلين وربطتهما في المكان..

.. هذا صحيح.. في مجموعتي الأخيرة (مملكة الصمت) هناك قصص تلمس تماماً مصير المدينة، مصير الأضرحة تتلامح المدينة كبطل في قصصي، (حب في بلاد الشام) أوسع من ذلك فهناك يبدو قلقي على ذاكرة المدن وعلى هويتها الضائعة ومصيرها، ولذلك عملت في الوثيقة عملاً جدياً كي استخرج المدن العربية (حيفا وبيروت ودمشق وطبريا) في بداية القرن، وفي المستوى الفني عملت على ربط هذه المدن بمصائر الأبطال وحياتهم وجعلت الذاكرة تشمل أيضاً، كنوع الشخصيات والملابس والعادات وبنية البيت العربي نفسه.

- **لاشك أن هذا الخوف على المكان من الضياع، سببه التغيير الذي يطال ملامح المدينة بسرعة هائلة، ولذلك أسباب متنوعة دعينا نتوقف عندها قليلاً؟!.**

كانت المدن سابقاً تتغير ببطء عندما تصحح الأجيال عمارتها بما يناسب خبرتها المعمارية وحاجاتها الإنسانية .. الآن يستطيع مخطط تنظيمي ان يهدم مدينة كاملة وان يقيم مكانها مدينة أخرى خلال سنوات قليلة جداً .. هذا يبدل المكان وينفي منه الذاكرة ويغير مسارات الناس والطرقات ويقطع الأجيال الجديدة عن الأجيال القديمة يعني، يحطم الذاكرة العامة تماماً بحيث لا تستعاد، هناك مثلاً سبب آخر هو الاحتلال (تبديل القدس) الآن، هو تبديل طابع وهوية مدنية تاريخية عرفتها أجيال كثيرة في شكل معين محدد وهوية معينة، درست جامعة (هارفرد) طوال خمس سنوات تقريباً مدينة القدس وأرسلت مجموعات من الطلاب والباحثين والأساتذة وجردت المدينة جرداً كاملاً اجتماعياً، طبوغرافياً، جغرافياً، أثرياً، اعتقد أن هذه الدراسات كانت مقدمة لمخطط تنظيمي يبدل هوية القدس تبديلاً جذرياً، مثلاً

بين الدراسات بحث في المستوطنات اليهودية (الأحياء) وأعتقد أن هذا البحث كان أحد المستندات التي اعتمدها من خطّط المستوطنات الحديثة في القدس.

هناك مدن (حيفا وعكا ويافا) نسينا على ما يبدو أنها مدن عربية متصلة بالذاكرة العامة لأنها كانت من بلاد الشام .. هذه المدن حدثت فيها تبدلات ونقلت من هوية وجنسية إلى أخرى .. يجري التبدل في مدن الشرق وهذا يفقدنا جزءاً مهماً من الحضارة العربية التي أنشأت تلك المدن، يحزنني أننا لا نقدر تماما فداحة تغير المكان فنتوهم أن ذلك من مستلزمات المعاصرة ولا نفهم أبداً أن ما نفقده هو هوية وطنية وتجليات حضارية في العمارة وذاكرة تاريخية، قلقي إذن على المكان آت من هناك، انظر إلى بيروت، زرتها قبل أيام فلم أعرف فيها المدينة التي مشيت فيها سابقاً واستمتعت بجمالها وطابعها الخاص، أفقدتها الحرب الأهلية اللبنانية بعض بيروت ويفقدها مخططها التنظيمي الجديد ما بقي منها، لهذه الأسباب أشعر بالخوف على هوية المدن العربية ولست متفائلة أبداً في حمايتها.

المكان ... الذاكرة التاريخية:

- **ماهي المصادر التي عدت إليها لتوثيق ملامح هذه الأمكنة هل للذاكرة الشخصية دور؟ خاصة مدن مثل حيفا وعكا وطبريا؟!.**

لم يتح لي أن أزور (حيفا ويافا وعكا وطبريا) لكنني عرفت من عاش فيها وسعيت إلى الذين عرفوها، لم أعتمد فقط على ذاكرة شخص محدد بل قاطعت المعلومات وعدت إلى الكتب والجرائد، عملي الوثائقي على هذه المسألة استمر سنتين متواصلتين، ولكن خلال عملي الفني أيضاً صححت وغيرت في الوثائق كي تصبح قريبة من الحقيقة، وقد أفرحني أن يشعر الذين عاشوا في تلك البلاد ممن أعرفهم بأنهم وجدوا المناخ والبيئة والملامح التي ألفوها في مدينتهم عندما قرأوا رواية (حب في بلاد الشام).

انقطاع خيط الشاعرية:

- **في الستينات حين أصدرت مجموعتك القصصية (أحب الشام) كانت فيها شاعرية وعذوبة وحميمية تصل إلى القارئ بيسر وسهولة .. يلاحظ النقاد أن هذا الخيط لم يستمر في أعمالك؟!**

طبعاً لا تتصور أن الشفافية تهبط بيسر من السماء فهي جهد فني وعمل في القصة أعتقد أن ملامح من هذه الشفافية لا تزال توجد حتى في مجموعتي الأخيرة (مملكة الصمت) لكن الشفافية لا توضع إلا في مكانها، لكل بطل من أبطالك مزاج يجب أن تحترمه وتنتبه إليه، ولكل قصة مناخ يجب أن تلتزم به.

في الرواية مناخات متنوعة لذلك أعتقد أنه يمكن أن تجد تلك الشفافية في بعض المواقف والمشاهد، في (حب في بلاد الشام)، لكن الكاتب في بدايته يعبر عن نضارة ما .. تنضج عينا الكاتب فيما بعد، تنكشف له الشخصيات والأوضاع والعلاقات وعندما يعبر عنها لا يكون ذلك كما كان يعبر عنها كما كان يعبر في الماضي .. أعتقد أن هذه البراءة الناعمة الشاعرية هي التي يفقدها الكاتب خلال نضجه فيما بعد.

- **تقصدين أن الثقافة المكتسبة فيما بعد تؤثر على التلقائية والعفوية؟!**

ليس تماماً ولكني أقصد أن للبراءة جانبين، جانب ساحر جميل ويبهرنا في رؤيته إلى الدنيا وجانب آخر فيه جهل، هذا الجهل جهل الحياة هو الذي تغيره الثقافة والخبرة ومراقبة الحياة عن قرب.

الأدب ... والإضافة

- **منذ مرحلتك الأولى وأنت تكتبين فما الذي أعطاك الأدب خلال كل تلك السنوات ... وماذا أضفت في رأيك إلى المشهد الثقافي والقصصي الراهن؟!**

الكتابة هي محور مهم ورئيسي في حياتي، هي مهنتي وقد أعطتني فرحاً كبيراً كما أعطتني قلقاً عظيماً .. مهنة الكتابة مهنة شاقة وهي ليست أبداً بريقاً اجتماعياً..

الكتابة تعني أن تكون دائماً واقفاً على قدميك في الليل والنهار مفكراً في موضوعاتك، مغموساً في شخصيتك في الكتابة تبذل أعصابك وروحك، يجب أن تتقمص شخصياتك المتنوعة أي أن تنتقل بين أجواء مختلفة كي تحيط بموضوعك يجب أن تهب نفسك كاملة، وفي هذا لا تستطيع أن تكون كالموظفين أو أصحاب المهن الأخرى محدداً بدوام معين وبساعات فقط من العمل، فما يستولي عليك يبقيك مستيقظاً، مستنفراً ليلاً ونهاراً لا تترك العمل ولا الشخصيات إلا عندما تنضج وتكتمل وتنصرف عن ذلك العمل لأنه انتهى، وعندئذ تشعر بفراغ كبير حتى يمسك بك عمل آخر وموضوع آخر.

تشعر خلال العمل الأدبي بتوتر تخاف في كل مرة من الفشل، تشكّ في كل مرة بما أنجزته وتعود إليه كي تصححه وتقلمه، لكنك عندما تصل إلى الصياغة التي ترضيك تحتفل .... أعتقد أن الفرح العميق حقاً هو هذا الفرح بالإنجاز والكمال الذي وجدته ووصلت إليه .. لكن سرعان ما تنسى ذلك الفرح وتنصرف عنه إلى ما لم تصل بعد فيه .. إلى الصياغة الكاملة .. الكتابة أحياناً تخرجك من أحزانك وتدفعك إلى مشروع ترد به على فشل مشروع راهن .. أما ما أضيفه هو تحديداً التنبيه إلى مكان الذاكرة في المستوى الفكري، أما الإضافات الأخرى فيستطيع أن يحددها الآخرون.

إبداع امرأة .. إبداع رجل

- **هل اتجاهك إلى هذا النوع الصعب من الأدب المرتبط بالوثيقة هو تحد للكاتب – الرجل – وخاصة أن ما التصق دائماً بإبداع المرأة مرتبط فقط بمشاكلها العاطفية مع الرجل، وهناك من شكك طويلاً بإبداع المرأة على سبيل المثال (فدوى طوقان) إذ نسب كثير من جهدها إلى أخيها في البداية، ولم يحزم في هذا الموضوع إلا بعد وفاته واعترف بإبداعها الهام؟!**

ما دفعني إلى كتابة (حب في بلاد الشام) والعمل على بقية أجزائها الآن، هو

كما قلنا خوفي على الأمكنة وعلى الذاكرة العامة من الضياع، شعوري بأن الأجيال الجديدة لا تعرف حتى الأحداث القريبة التي عاشها أهلها، من ضمن مشروعي أيضاً أن النساء اللواتي نقول عنهن أنهن أميات وهن جداتنا وأمهاتنا كن شخصيات غنية عاطفياً وإنسانيا وثقافيا، لكني أردت خلال ذلك أيضاً في السياق أن أبرهن أن المرأة قادرة على الدأب والعمل الكبير تماما كالرجل .. المعروف أن كثيرا من النساء درسن وقدمن الأطروحات التي قدمها زملاؤهن الرجال فلماذا يختلف الأمر في الفن والكتابة، (حب في بلاد الشام) عمل طويل استمر خمس سنوات (في الصباح والمساء) وأنا سعيدة جداً بأن أضيف برهاناً جديداً إلى قدرة النساء على الصبر في العمل الفني وعلى القدرة على الإحاطة بمسائل عامة، لكني يجب أن أتوقف هنا كي أقول الجزء الأخير أيضاً من الحقيقة .. هناك نساء كاتبات أكدن رغبة الرجل في أن الكاتبة لا تنطلق إلا من عواطفها الصغيرة الشخصية، ويؤسفني الآن أن تقع كاتبات وباحثات عربيات في مصيدة قضية المرأة مفصولة تماماً عن قضية الرجل، والمجتمع والوضع الاقتصادي والاجتماعي، يطرح علينا العالم الجديد الآن استبدال محاور الصراع الاجتماعي والوطني، فيقدم فيما يقدمه الحرية الشخصية وحرية المرأة مجردة عن المشروع الاجتماعي الواسع وعن الوضع الاقتصادي والسياسي، ومن المهم جداً الآن ألا نقع فيما يُهيأ لنا من محاور، ومن المهم جداً أن نقدم نحن الكتّاب محاورنا التي تنبت من واقعنا ومن حاجاتنا.

بقية المشروع الأجزاء (حب في بلاد الشام) سأكون قد قدمت محاور وسائل القرن الرئيسية التي عاشتها بلادنا، في سياق ذلك أكون أكدت أن الكاتبة كالكاتب تماماً يمكن أن تتناول مسائل جدية ومتعبة وأن تعبر عنها كالكاتب تماما .. (فدوى طوقان) كاتبة كبيرة وأعتقد أنها في سيرتها الذاتية المنشورة ارتفعت كثيراً عن كتاب رجال معاصرين من العرب وغير العرب، من الكاتبات الجديات أيضاً (سحر خليفة) رغم الخلل في بعض ما تقدمه حيث تنبهر بقضية المرأة وتبعدها عن السياق الاجتماعي.

وأيضاً (ليلى العثمان) .. إذن استطيع أن أستنتج أن المرأة كالرجل تماماً قد تكتب في محاور جدية وتصوغ عواطف عامة وشخصيات عامة، وقد تسقط في عواطف شخصية فردية وتغني أغنية الرجل المرأة المغلقة.

الأدب والآيديولوجيا:

- **يبدو أن الأيديولوجيا التي اعتنقتيها لا تظهر مباشرة في إنتاجك الأدبي، فهل هذا عن قصد أم أن الفنيات تطغى على المضامين في انتاجك؟!**

أعتقد أن الأفكار أو المنظومات الفكرية التي يتبناها الكاتب هي المرصد الذي يطل منه على موضوعاته وشخصياته، يفترض أن تهبه هذه المنظومات الفكرية سمة الرؤية والعمق، إذن لا يفترض أن تظهر كأسلوب وكوسيلة لإظهار العالم الإنساني الذي يتناوله .. لاشك في أن رؤيتي الفكرية هي التي أتاحت لي أن أضع في مشروعي محاور القرن الرئيسية كي أذكر بها وأقاوم التزوير الذي ينشره العالم الجديد المعاصر، لكن هذه الرؤية كما قلت هي المرصد المساعد وليست الهدف الذي يجب أن أنشره وأبحثه، وإلا لأصبحت كاتبة بحث فكري لا كاتبة علاقات إنسانية وأوضاع اجتماعية. دراسة الأدب ساعدتني على فهم أن (الأيديولوجية) يجب أن لا تظهر معلنة، مقحمة وساعدتني على فهم أن جميع الأعمال الأدبية مهما

كانت فنية هي تعبير عن أيديولوجية معينة، خذ مثلاً مشاهير الكتاب الكلاسيكيين (ديوستوفسكي)، (تولستوي)، (تشيخوف) ألم يكن هؤلاء مفكرين كباراً عبروا عن اتجاهات (أيديولوجية)، (الأيديولوجية) موجودة حتى في أولئك الكتاب الذين ينكرونها، لكن المسألة هي كيف نعبر عن هذه المنظومات الفكرية التي نتبنّاها، وكيف يمكن أن تفتح لنا الآفاق وتظهر لنا حقائق الحياة وتسمعنا صوت الزمن الذي لا يسمع دونها.

أخذت من روح دمشق أحلامها، وحملتها أنشودة الزمان والمكان...

حب الوطن بالفطرة، لا فضل لمواطن فيه، ولكنه الفضل.. أن نساهم في خدمته ورعايته وإعلاء شأنه والحفاظ على مكنوزه، واستلهام ثقافته ... نغنيه بالإضافات المادية والروحية ليظل عامراً، هانئاً بأهله وساكنيه وضيوفه، شامخاً بعزته وكرامته، منعماً بجماله، منيعاً عصياً على أعدائه.

ناديا خوست، امرأة حرة بالمعنى الأصيل، تشبه نساء كثيرات من وطني غير أن قلة من النساء مثيلاتها فكراً وسلوكاً ونشاطاً، أخذت من روح دمشق أحلامها المجلوة وحملتها على كاهلها أنشودة الزمان والمكان ... فمن قلعتها حصانة أسست لها: بالعلم والمعرفة والتجوال في المدن العربية والغربية، وقبل ذلك من سوق ساروجة وحي الورد فيه: الرفعة والجمال، قبست من أطياف الرجال والنساء في وطنها نوراً تهتدي به الأجيال في مساراتها المفتوحة على الدروب وهي تعلم أننا لن نستطيع أن نرافقهم فيها، حيث لم (تعد الحياة مدرسة نضع أولادنا فيها فلا يخرجون إلا وقت نستعيدهم).

وضعت دليلاً عربياً مصوغاً بالحب والوطنية الصافية التي لا تعكر صفوها الشدائد والصعاب، ونذرت عطاءها لبلاد الشام المعطاء، واحتضنت دمشق القديمة، وحنت عليها (حنو المرضعات على الفطيم) ... عرفت ناديا مبكرة أهمية المكان

الذي ينشأ فيه ومعه الإنسان، ويألف طيبه وأريجه، واكتشفت لذة العطاء وجدواها، فهذا هو الياسمين والعريش وأشجار النارنج والبرتقال، تعطي أجيالاً وأجيالاً عندما يغمرها الحب والعناية والاهتمام ... يذهب الناس، يودعهم أهاليهم إلى الأضرحة الموجودة في البيوت العتيقة وإلا لما اختبأت إحداهن في روايتها خلف الضريح تحتمي به ... ولا تلبث أن تكتشف موتاً من نوع آخر سيكون شاهدة ثقافية - عبر رواياتها ... ينضح بالتاريخ الوطني ومصير الأجيال ... إنه الموت الذي تحيا به الأوطان، ويعمر ذاكرة الأمة وشواهد قبور أبطالها وشهدائها بالمجد والغار، تكبر الشهادة دريئة متصدرة على مر العصور والأزمان في وجه كل غاصب ومعتد آثم .. فما تذكر (المرجة) إلا لزيمة أيار وشهدائه، والاستقلال الذي يتربص به عدو جديد ... إنهم الأعداء يتربصون بدمشق الجميلة المزروعة بالعشق والشهادة ... حتى يومنا هذا..

تكتب - ناديا - وتشد العزيمة، حفظاً لذاكرة الأجيال كي تظل الجولة الأخيرة لدمشق - كما كانت دائماً ... تيمورلنك دخل دمشق وأحرقها، وقتل أهلها، ثم عاشت مرة أخرى، ومات تيمورلنك، وصل الفرنجة إلى الربوة ثم ارتدوا مهزومين .. من دمشق خرجت الجيوش إلى حطين وحررت القدس .. وكلها ذكريات تهب الدمشقيين من الإيمان (بأن الجولة الأخيرة لهم) و (بأنهم قادرون على الصبر حتى يستنفد العدو وقواه..).

هي الدمشقية - وريثة أهلها في الحب والثقافة والسياسة، صاغت ملحمتها الروائية بأجزائها الأربعة عن (بلاد الشام) ذاكرة وهداية للمستقبل تعلن فيها الولاء لعزة دمشق.


وتنتظر على مفترق الدروب التي نحن بصددها اليوم ...

ندع الأديبة الناشطة لحفظ الذاكرة وشواهدها الباقية التي تؤكد على قدرة صانعيها ومبدعيها لنطلع في حياة (ناديا) الخاصة ما يعزز مروياتها من الوقائع والسلوكيات التي أتيح لنا التعرف إليها، ومازلنا نتابع مقالاتها منذ حوالي ربع

قرن.. نبتدئ بمعرفة الكاتبة التي تحرص على رعاية الحروف التي تصوغ وترافقها إلى التنضيد والتصحيح، وعند ظهور المقال في اليوم التالي نقرأ الفكرة الجادة والملتزمة بقضايا المجتمع والوطن والأمة وكانت من الأوائل القائلين بالتضليل الإسرائيلي ومظاهره الخادعة للرأي العالمي، وقصور العرب عن إيصال قضيتهم إليه، فكانت تفند بطلان مزاعمهم، وترى المقاومة هي الحق الطبيعي والشرعي لمن اغتصبت أرضه وتعرض للاحتلال وعانى الويلات والدمار، وفي هذا كله كانت تحرص على استلهام الثقافة العربية الأصيلة من غير ذوبان، وتقول بخطر تقليد الأوروبيين لأن ذلك يعد من مظاهر الخراب، غير أنها تقول بالعلم والعقل المبدع الذي يعلي شأن الهوية ويجددها، كما ترفض حياة الاستهلاك بكل ما أوتيت من معرفة.

على جانب آخر تبينت في ناديا السيدة الذواقة بما تختار من صناعة دمشقية لأثاث بيتها، وما تحتفظ به من موزاييك وصدف، وبعض المنسوجات العتيقة الجميلة وقطع الدانتيلا المشغولة بأيدي الأم أو الجدة، وكانت تحرص على اقتناء الأزياء الدمشقية والصناعات المحلية وإذ تلفت انتباه السيدات في حضورها المحبب والقريب إلى القلب ... يتساءلن عن مصدر ما تتحلى به فتبادر الإجابة بكل فخر واعتزاز (صنع في دمشق) ...

كما تصنع في منزلها: شراب الورد – قمر الدين – والتمر الهندي – وتجهز الأكلات الشامية لعائلتها بالجودة نفسها والذائقة الأدبية التي تخط بها أدبها.. ويحضرني هنا القول في واحدة من رواياتها .. المطبخ مهم يا حواء .. وعندما ترش إحداهن السكر الناعم على المعمول تؤكد أنه (صار مثل جبل الشيخ).



عبق التاريخ ودفء الحضارة...

امتدت الحضارة العربية الإسلامية على الكرة الأرضية قروناً، معبأة بالأصول السورية والرافدية، وكانت العمارة من ثمارها التي احتضنت الفنون والعلوم، عمارة تناسب حاجة الإنسان إلى الوحدة والتجمع، تستقبل النسيم وتحتمي من الريح، تنعم بالدفء وتتفادى الحر، وتحقق المساواة بين الناس في الهواء والخضرة والماء والظلال، ومن يتفرج على موزاييك الأموي يتبين أطياف تلك البيوت العربية التي نعم بها أهلنا وما تزال اسبانيا تزهو بها في الأندلس.

متحف دمشق التاريخي احد تلك البيوت، شيده المعماريون العرب كمن يعرف أنه يترك للأجيال تراثاً تفخر به، أدخلوا قطعة الرخام الصغيرة في الأخرى حول البحرة، ورسموا بأناقة حجارة أرض الدار، وتوّجوا مداخل الغرف ومطلاتها بالزخارف، ووسعوا فسحة للسماء المبهرة بقمرها ونجومها وألوان غيومها.

كان هذا البيت وسط نسيج حي سوق ساروجا، من بنية المدينة العربية التي تتجاور فيها بيوت الأغنياء والفقراء فلا تتمايز بالحقوق في السماء والماء والخضرة، بل في الزخارف، لكنه اختص بالتاريخ الذي تصنعه النخبة، ففيه عاش فوزي باشا العظم حياة سياسية طويلة، يستوقفنا تفصيل منها: وصل رسول في الليل كان صاحب البيت في انتظاره، همس له: سيشنق رجال أيار في الفجر! فنقل الخبر لزوجته، ومشى في أرض الدار عاجزاً وباكياً حتى الفجر، من الظاهر لا نعرف تلك الحقيقة السرية، نعرف فقط أنه كان من الوجهاء الذين ألزمهم جمال السفاح بأن يمضوا معه ذلك النهار الدامي في قرية عبد الرحمن اليوسف، شهوداً على احتفاله الأحمق بالحدث الذي غيّر مصير بلاد الشام، كان أحد شهداء أيار قريب صاحب البيت، وهذا ما شطر الأسرة، فلم يظهر ذلك الجزء منها في مأتم فوزي باشا فيما بعد. مع أن ما بين ضريحي الرجلين في مقبرة الباب الصغير بضعة أمتار.

عاش خالد العظم آخر أصحاب هذا البيت، حياة النخبة السياسية الاقتصادية،

فاتصل البيت بسنوات مهمة من تاريخ سورية، منها ان الحكومة السورية حوصرت في دار البلدية وقت قصف البرلمان، فعبرت ساحة المرجة تحت القصف، ثم عبرت البحصة وسوق ساروجة إلى بيت العظم وبقيت فيه حتى وجهت المدافع إليه، فعبرت حي السمانة ثم بساتين الصالحية إلى بيت رئيس الجمهورية شكري القوتلي في الجسر الأبيض حيث استدعي السفراء للجم ذلك العدوان في أيار.

أصبح البيت شطرين: متحفاً تاريخياً يعرض أثاثاً دمشقياً منه أثاث الملك فيصل، ودار وثائق تاريخية، تستضيف باحته الواسعة أحياناً بعض الاحتفالات الثقافية، لكن البيت شاهد أيضاً على خطأ تنفيذ مخطط ايكوشار الغربي فوق مدينة عربية، فالأبنية المرتفعة تحيط بالبناء، وتمهد ممراً للريح يعصف بباحته، فتفقده صفتين من صفات العمارة العربية: الحماية من الطبيعة ومن مطل الآخر عليه، ويوصل الشارع، الذي صممه ايكوشار في سنة ١٩٣٦ ليشق به الحي لمصفحات المحتلين، ضجة السيارات، ويصعب الوصول إليه.

هل يفاجئنا أن كثيراً من المثقفين لا يعرفون هذا المتحف؟ ربما يقع هذا الجهل في سياق فصل سكان المدينة الحديثة عن تراثهم المعماري، وفي سياق حجب البيت عن الطريق بأبنية مرتفعة كأنها الأصلية وهو الضيف، يزيد في إخفائه غياب أية إشارة إليه في الطريق العام، وانه دون مدخل واضح للجيران تقدره، فالمخازن والمكاتب الحديثة ترمي قمامتها أمامه، وسياراتهم تغلق بوابتيه.

تثير زيارة متحف دمشق التاريخي مسائل كثيرة، فالعمارة التي صاغها العرب في أناقة ودقة توحي لك بأنهم لم يتميزوا بتذوق الحياة فقط، بل أرادوا أن يتركوا للأجيال إرثاً عظيماً، واجبك الوطني إذن أن تحترم رسالتهم، وتحمي تلك الكنوز وتفيد منها كهوية ثقافية، ويفترض ذلك رؤية واسعة إلى التاريخ، تقدر وزن كل مقطع من مراحله ورجاله، لذلك نصبت حتى البلاد الاشتراكية تماثيل ملوكها في الساحات، ويوحي هذا بأن صور أصحاب البيت يجب ألا تغيب عن المتحف، وان نقرأهم تاريخياً بعيداً عن العواطف الخاصة.

خلف هذا المتحف تماماً بيت عبد الرحمن اليوسف، بيت واسع اتصل أيضا بمقطع من التاريخ السوري، ما تزال قاعته الواسعة وبعض زخارفه سليمة، بما يناسب حتى مطبخه وإسطبله اللذان يقعان خارج البيت توظيفاً متميزاً، وقد صغنا في التسعينات مشروع استملاك إنقاذاً له، لكثرة ورثته، وصوَّت على ذلك مجلس محافظة دمشق، وكان يفترض أن تستكمل معاملة الاستملاك، لكن هاهو البيت يفقد عناصر معمارية أخرى بالإهمال، بينما تبحث نقابة الفنانين عن مشروع تسند به تقاعد الفنانين، مثلاً، ويحتاجون مكاناً لمعارضهم.

تثير زيارة متحف دمشق التاريخي مسائل أخرى، منها أن حماية ما بقي من حي سوق ساروجا الذي يقع على الضفة الأخرى من شارع الثورة المزدحم، ضرورة وطنية وثقافية وبيئية، وان تلك الحماية تتصل بمصير محيطه في سوق العتيق ، فالزحمة الصاخبة في تلك المنطقة وأزمة السير تفترض ألا يضاف إليها ثقل جديد بأبنية مرتفعة، يرى أي عاقل يعبر تلك المنطقة التشويه الذي أصابها بالمخطط التنظيمي، ويتمنى أن يحاسب من نفذه فأفقد الأجيال تراثاً معمارياً تاريخياً، وخلق بؤرة التلوث، وخرق القواعد العالمية التي تلتزم باستبعاد الزحمة عن مراكز المدن.

تدفع زيارة المتحف، أيضاً إلى التفكير في علاقة المواطن بمدينته، استخفافه بتراثه الحضاري، غياب شعوره بأنه يجب أن يحرس أرض الدار من أعقاب السجائر، وأن ينظف البيت التاريخي الجميل، وألا يفسد الأثاث القديم، وأن يكون ممثل وطن وحضارة خلال اتصاله بالزوار، ولكن كأنما يوجد نمطان من الموظفين، يعمل الأول بمقدار راتبه القليل الذي لا يساوي أكثر من أن يشرّف المكان بحضوره وتظلمه المهمات التي تخلط عمل الآذن والحارس والدليل! والنمط الآخر يرى أن عمله في بيت تاريخي حظ، فيتذوقه ويشكر الأجيال عليه ويعي أن العمل علاقة بالوطن لا بالراتب فقط، فيتعالى بكرامته على طلب الرشوة والهبات!.

نعود من زيارة متحف دمشق التاريخي مبهورين بالهوية المعمارية الثمينة،

ومثقلين بالهواجس لأن المواطنين صنفان، بعضهم يعمل ليلاً ونهاراً ليحسن الأداء ويرمم التقصير، وبعضهم مشغول بقطف الثمار في الظلال، يهرع إلى أن تكون النفقات أعلى ما يمكن كي تحقق الأحلام بالقطاف، يناسب الجني موقعه، ففي الأسفل قد يقبل بالفتات والهبات، وفي المستوى المتقدم على ذلك قد يطلب بقوة ما لا يستحقه من امتيازات، فنتساءل عن العمل الذي كان يدفع إليه التطوع والهوى، ونستعيد الأرق الذي يبقي الإنسان غيوراً على الوطن، وكأنما يجيبنا هذا الرجل الذي يرمي من نافذة السيارة أوساخه؛ والآخر الذي يغسل بيته بالصابون فيسيل على الرصيف! متى وأين بدأت هذه العلاقة المختلة بالمدينة؟ هل بدأت بقطع شجرة وقلع بستان أم بهدم بيت عربي؟ هل بدأت من المدرسة أم من البيت؟

يا للأسى إذا لم نتبين أننا محظوظون بهوية تشهد على حضارة عالمية إنسانية السمات! يا للأسى إذا لم نميز بين الهوى في علاقتنا بعملنا، وبين حقنا في أن نجازى بما نستحقه كحق عام لا يستعاض عنه برشوة أو هبات!.



يا نديمي ...

• يا نديمي:
أَسمِعتَ هتافا
من بعيد
من سالفات القرون

أنْ كن المرءَ
لا يهاب مطافا
لنجاءٍ مشى به..
او كمين
ان "سقراطَ" ذاق
سماً ذعافا
ليرى الفكر فوق
ريب الظنون

يا نديمي:
ورغم كرّ السنين
ظل "سقراطُ" فوق
ريب المنون

محمد مهدي الجواهري

بغداد
٢٠-٤-١٩٧١

أنا عندي من الأسى جبلُ
يتمشى معي وينتقلُ
أنا عندي وإن خبا أملُ
جذوةٌ في الفؤاد تشتعلُ
إنما الفكر، عارماً، بطلُ
أبد الآبدين يقتتلُ

محمد مهدي الجواهري:

بركان الشعر الغاضب

لم يكن محمد مهدي الجواهري شاعراً رقيقاً ولا متأنقاً، ولكن كانت تمور في نفسه عواطف جياشة تجعل قصائده دوماً غاضبة، هذا الذي آمن بكل الثورات، وخانته كل الثورات، وبنى من الحلم عالماً عريضاً وثرياً، كان يستيقظ كل صباح ليرى دعائمه وقد انهارت.. كان شاعر التناقضات الكبرى، نصبه البعض أميراً للشعر العربي، ونقده البعض بأن شعره يمتلئ بالعجيج والصخب، عاش شاعرنا حياة متدفقة قاربت المائة عام، وجمع في راحة اليد الواحدة ما بين الماء والنار، كما كان يقول عن نفسه: ولد في مدينة النجف الأشرف في العراق في عام ١٨٩٩، وكان مقدراً له أن يكون شيخاً معمماً وفقيهاً من فقهاء الدين، ولكن بركان الشعر الغاضب في داخله اقتلعه من هذه المدينة الساكنة، فثار على فقره، وعلى التقاليد التي تكبله، ونذر حياته وكلمات شعره لقضايا الشعب، حصل على الجنسية العراقية بعد أن كان يحمل الجنسية العثمانية، أتاح له هذا الأمر أن يشتغل معلماً في المدارس الابتدائية، لكن الوظيفة لم تدم طويلاً، استقال منها ليصدر جريدة الفرات، وهو الاسم نفسه الذي أطلقه على أول مولود له، وكانت "أبو فرات" هي كنيته المفضلة، كان شاعراً غزيراً، لم يترك مناسبة وطنية أو قومية إلا ولاحقها بقصائده، ولم يترك غرضاً من الشعر إلا وطرقه – رغم رأيه السيئ في الغزل – أعانه قاموسه الشعري الغني، ومفرداته الحاشدة، وذاكرته الحافظة للشعر التقليدي العربي، رغم محاولاته الدائمة للثورة والتمرد، وكعادة كل شعراء العراق الكبار لم يهنأ له عيش في موطنه، ولكنه اضطر للمغادرة أكثر من مرة، هاجر أولاً إلى براغ حيث قضى فيها سبع سنوات، وعاد إلى بغداد بعد ذلك في محاولة منه للمواءمة مع نظامها الحاكم، ولكنه لم يستطع فاضطر للعودة للمنفى مرة أخرى، حيث قضى في صوفيا سنوات طويلة، وغادرها إلى دمشق التي قضى فيها

أواخر أيامه حتى وافته المنية.

الجواهري شاعر التناقضات والمتناقضات، فقد مدح الملك فيصل الأول بالقوة نفسها التي مدح بها عبد الكريم قاسم، وهلل للثورات، ثم هرب من بطشها إذ انقلب عليها حين رآها لا تحقق العدالة والكرامة، وقد خرج من كل ذلك منفياً صفر اليدين حتى صار سؤال الحاكمين والمثقفين على السواء: ماذا يريد الجواهري؟ والجواب أنه كان يريد أولاً أن يكون شاعراً حراً، وثانياً يريد تغيير هذا الواقع العربي المتحجّر المتخلف بأي ثمن من دم ونار. يريد الحرية والكرامة والعدالة لكل وطن وكل مواطن. يريد مملكة للقيم تساند رغبته الجامحة في التغيير.

وقد استجاب لها الجواهري بأقصى طاقة من الحدة والعنف والغضب. حتى أن قارئ ديوانه يتساءل عن مصادر هذا الانفعال الجامح: كيف تكون في نفس الشاعر، وما هي عناصره، ولماذا ظل في تفجر دائم متصاعد مدة ثمانين عاماً؟؟

ثورة أم إصلاح:

ما يجعل هذا السؤال محورياً هو أن الجو الشعري الذي نشأ فيه الجواهري لم يكن على مثل هذا العنف والتطرف والجذرية، فما بين البارودي وشوقي. وما بين الرصافي والزهاوي كان الشعر العربي في مطلع القرن يدعو إما إلى إصلاح السلطنة العثمانية أو استقلال العرب عنها أو إلى الإصلاح الاجتماعي، كما نطالع في قصائد بشارة الخوري وخليل مطران عن "اليتيمة" و "المشردة" و "الأم الجائعة" و حتى "فتاة الجبل الأسود" و "بزرجمهر". ولكن نرى الفرق في نوعية النبرة واختلاف الرؤى الدموية عند الجواهري عن كل من سبقوه.

ففي ٢٩/١٠/١٩٣٦ قاد العميد بكر صدقي وحليفه حكمت سليمان انقلاباً على حكومة ياسين الهاشمي التي تبنت معاهدة ١٩٣٠ مع بريطانيا بعد أن عقدها نوري السعيد. وربما كان أول انقلاب عسكري على الحكومات العربية، وقد أيد الانقلاب

رجال الحركة الإصلاحية من سياسيي العراق، وكان نوري السعيد قد عطل جريدة الجواهري الأولى "الفرات" (١٩٣٠-١٩٣١).

ولما كان الجواهري صديقاً للانقلابيين فقد أصدر بعد شهر صحيفة باسم "الانقلاب". أما القصيدة التي هلل بها لذاك الحدث، فلربما كانت من أشهر وأقوى شعره في الثلاثينيات، وقد وجهها إلى حكمت سليمان الذي كان رئيس وزراء حكومة الانقلاب، فقال له:

((أَقْدِمْ، فأنت على الإقدام منطبع — وابطُشْ، فأنت على التنكيل مقتدرُ

وثق بأن البلاد اليوم أجمعهَا — لما تُرجّيه من مسعاك تنتظر

فحاسب القوم عن كل الذي اجترحوا — عما أراقوا، وما اغتالوا، وما احتكروا

للآن لم يُلغَ شبر من مزارعهم — ولا تزحزح مما شيدوا حجر

فضيّق الحبل واشدد من خناقهم — فربما كان في إرخائه ضرر))

عنوان القصيدة "تحرك اللحد" لكن الشاعر قصد منها أن تكون لحداً حقيقياً للرجعية والإقطاع والاستغلال وكل الفساد الداخلي. بعد أقل من عام قتل الإنجليز بكر صدقي فسقطت حكومة حكمت السليمان وألف الوزارة جميل المدفعي، فسارع الجواهري إلى تبديل "الانقلاب" باسم جديد هو "الرأي العام" هذا النفس الموتور سبق أفكار "العنف الثوري" والتصفيات الجسدية "العقائدية"، إذ ما زال المجتمع العربي في ذلك الحين – حتى في مصر – لم يتبلور بعد كمجتمع مدني، فهو خليط من برجوازية وإقطاع وبدو يؤهلهم الاستعمار لتطوير اقتصادات محلية تابعة للمركز الأوربي، فإذا لم يكن العنف من تقاليد الشعر ولا من الفكر الأيدولوجي السائدين في تلك المرحلة، فقد نتلمسه في طبع الجواهري ونشأته. فالجواهري ابن البيئة النجفية والأسرة الفقهية يصفه حسن العلوي: (كان الجواهري طفلا في زي شيخ وقور يعتمر العمامة ويلبس الجبة ويتحدث بلغة الشيوخ، وقد خرج بعد عشرته الأولى بانطباع سلبي عن دراسة

الفقه التي أصبحت النقيض المضاد لهوى الشعر) ويبدو أن والد الجواهري توسم في أصغر أبنائه – محمد مهدي – النجابة، فكان يحرص على اصطحابه معه إلى مجالس الشيوخ والفقهاء، لكن الشعر أيضاً كان يحتل مكانة سامية في حياة النجف، رواية ونظماً، فيذكر الجواهري الطفل أنه حفظ (٤٥٠) بيتاً في ثماني ساعات، فحاز رهان المدرسة، لكن أباه زجره فقد كان الفقهاء يزدرون الشعر لأنه يشغل الناشئة عن طلب العلم، وهو الفقه لا غير، فكان الطفل ينتهز قيلولة أبيه في السرداب البارد، وينشد قصائد الفحول بصوت مرتفع – وقد لازمته هذه العادة وقت النظم إلى آخر حياته.

حرب على العقول الجامدة:

هذا القمع المطلق للطفل جعل أولى قصائده تهاجم ترف رجال الدين على حساب الشعب الجائع، وتحمل على العقول الجامدة التي عارضت فتح مدرسة للبنات في النجف. أخيراً هناك ولا بد الكبت الجنسي والعاطفي الذي لا يجد له متنفساً بأي صورة من الصور، وقد انفجر في قصيدة باقية تشهد على عذوبة في شخصية الشاب الشاعر، وثورة في رغباته التي لم يعد في وسعه إخفاؤها كما يدل عنوان القصيدة، "جربيني" (١٩٢٩):

((جربيني مـــن قبـــل أن تزدريـنـــي   وإذا مانممتنـــــي.. فـــــاهجريني

ويقينـــاً ســـتندمين علـــى أنـــك   مـــن قبـــل كنـــت لـــم تعرفينـــي))

* * * *

((أنجدينـــي فـــي عـــالم تـــنهش   "الذئبان" لحمي فيه.. ولا تـــسلميني

أخـــذتني الهمـــوم إلا قلـــيلاً   أدركينـــي، ومـــن يـــديها خـــذيني))

يروي سعيد عقل في حوار له مع الجواهري قال فيه سعيد: أصعب الشعر الغزل.

فيعلق الجواهري مهللا:

(إذ يكون الشاعر هنا معرضاً إلى ملامسة الدعارة. والشعر الشعر أبعد شيء عنها، الشعر عندي، شهامة بشهامة).

غير أن الشهامة في شعر الجواهري شهامة أمة وليس كبرياء فردية، تبتغي الترفع أو الغنى أو الجاه، فقد كانت هذه مبذولة له على الدوام، في القصر الملكي مع الملك فيصل ١٩٢٧، وفي النيابة أو إصدار الصحف بعد ذلك. كان الجواهري يطمع ثم يصد وينفر ويخسر ثم يطمع:

((عجيـــب أمـــرك الرجـــراج	لا جنفــــــا ولا صـــــــددا
تـــضيق بعيـــشة رغـــد	وتهـــوى العيـــشة الرغـــدا
ولا تقـــــوى مـــــصامدة	وتعبـــد كـــل مـــن صـــمدا))

ولربما ندر في الدنيا وجود رجل كالجواهري في قوة حواسه وعمق تمتعه بكل واحدة منها على حدة، فهو يتقرى سطوح الأشياء باللمس كأنه أعمى، ويصغي إلى خرير دجلة كأنما الإنسان يعيش بسمعه فقط، وقد قال مرة:

(المرأة التي لا يصيح بي عطرها: الحقني.. الحقني، ليست امرأة).

فأجبته: لكن "الأرتيست" فقط تضع عطرا صارخا بالناس أن يتبعوها.

قال: (صوت العطر الخافت ليس هامسا).

قوة الحواس:

ولربما كانت قوة الحواس في تركيبه الجسدي سببا من أسباب عنفه الشعري إذ تستوفز حواسه ويدخل في حال اهتياج يمتزج فيها الطرب والرقص والغضب والصخب:

(... مع كل قصيدة أشعر أنني أكتب الشعر لأول مرة. (أي والله) وأتعجب من ذلك مثلما هو البطل المسرحي حين يواجه الجمهور، ففي كل مرة يشعر بالرهبة،

وحين تكتمل القصيدة أشعر بالنشوة، وبالمناسبة فإنني أغني وألحن القصيدة.. يخيل لي وأنا أرقص في باحة القصيدة أن شيئاً من الجنون قد مسني أو أن نوعاً من الخبل قد اعتراني، إن شيئاً ما يحدث لا أعرف كنهه حين تنتابني الحال وأدخل مملكة الشعر. أحياناً تراودني حالة هيجان وصراخ حتى تهدأ روحي باكتمال الولادة .. وعندما كانت شياطين الشعر أو ملائكة الفن تنزل علي فلا أريد لأحد أن يقطع سلسلة أفكاري وإلا أنفجر. أريد عالمي الخاص، لا أريد لأي كان أن يشاركني فيه، حتى العائلة أدعوها لتذهب لأي مكان) فهذا التركيز يفجر طاقة الوجود الشخصي كلها في انفعال التعبير والمخيلة. لكنها مخيلة مضرجة دائماً بدم الضحايا. ففي عام ١٩٤٥ توفي صديقه الزعيم الوطني جعفر أبو تمن، فلما رثاه الجواهري رثى معه الملايين من قتلى الحرب العالمية الثانية:

طالت، ولو قصرت يد الإعمار … لرمت سواك.. عظمت من مختار

قسما بيومك، والفرات الجاري … والثورة الحمراء.. والثوار

والأرض بالدم ترتوي عن دمنة … وتمجه عن روضة معطار

إن الذي عهدتهم حطب الوغى … لولاهم لم تشتعل بأوار

ما إن تزال حقوقهم كذويهم … في القفر سارحة مع الأبقار

فرثاء الصديق ينقلب إلى رثاء الشعوب التي دفعت تكاليف الحروب من دمائها ثم ضاعت مع الأبقار، إن اندماج الخاص بالعام إحدى خصائص الشعر العظيم في كل لغة وعصر. ولعل ذلك أبرز ما يميز شعر الجواهري.

القصيدة الطلقة:

يسمي عزرا باوند مثل هذه القصيدة "القصيدة الطلقة" أي أنها مثل الرصاصة، تنطلق كلها دفعة واحدة، فتأتي كلها نفساً واحداً صادراً من القلب إلى القلب. ولعل

عنف تأثيرها وسرعته يشغل الناقد عن ملاحظة أن اختيار الموت العزيز على الحياة الذليلة قديم في شعر عنترة.

ولكن من يأبه؟ الجواهري وظف التراث وأخضعه للمناسبة، وهل يجرؤ ناقد "حداثي" على الزعم بأن الجواهري خضع للتراث وجعل شعره خادماً عند الأقاويل الشعرية للأقدمين؟ في هذا المقام ينبغي أن نفرق بين القصيدة التقليدية التي تنسج على النول العتيق والقصيدة الكلاسيكية التي تخضع التراث لمقتضيات الحداثة. فنضارة التعبير وحرارته، والحوار الذي يستحضر القتيل ثم الصرخة في وجه الجبان "تقحم، لعنت" أهم من تعدد الأصوات (البوليفوني) في القصيدة الحديثة. وهي من البقايا الحية في تراثنا التليد لأنها تردد الأصداء اللامتناهية للضمائر اليقظى في لا شعورنا الجمعي الذي يتوضأ بالدم في كل حين:

((سـلام علـى مثقـل بالحديـد ويـشمخ كالقائـد الظـافر

كـأن القيـود علـى معـصميه مفـاتيح مـستقبل زاهـر))

أليس من أهم مقاييس الحداثة تضاعف معاني القصيدة واحتمالها لوجوه متعددة في التأويل واختلاف القراءات؟ هذان البيتان. وبسرعة، يمكن قراءتهما على أربعة وجوه. فهما أولاً في الفخر، غير أننا إذا تجاوزنا هذا الوجه "الفاخر" حقاً، نجد فيهما انقلاباً مسرحياً في المواقف، فالمقيد يكون في العادة ذليلاً مستضعفاً إلا أنه "يشمخ". كما أن القيد يعيق عن الحركة لكنه هنا يحمل مفاتيح المستقبل. ولكن إذا كان المثقل بالحديد قائداً ظافراً إلى مستقبل زاهر، فمن هو السجين الذي أوصدت دونه أبواب المستقبل؟ إنه الحاكم الطاغية الذي لايعرف من فنون السياسة غير القمع وإرهاب الأحرار. فإذا كان الفخر أحد وجهي البيتين، فالسخرية بالسجان وجههما الأخر، ومن البلاغة العالية إغفال ذكره. والبيتان يحددان مصيرين أحدهما مستقبل زاهر والآخر بلا مستقبل إلى القبر !.

شاعر الصواعق:

السخرية والغضب في شعر الجواهري وجهان لعملة واحدة فهو شديد السخرية بالطبقة الحاكمة.

ما تتشاؤون فاصنعوا فرصة لا تضيَّعُ
فرصة أن تحكموا وتحطوا وترفعوا
ما تشاؤون فاصنعوا جوعوهم لتشبعوا
ما نهبتم فوزعوا للحواشي واقطعوا

وأما الغضب فليس في الشعر العربي كله صواعق تعادل ما في قصيدة "أطبق دجى" (١٩٤٩) فهو يجعل السماء تطبق على الأرض التي يرضى الناس أن يعيشوا فيها أذلاء:

((أطبق دجى، أطبق ضباب أطبق جهاماً يا سحاب
أطبق، دمار، على حماة دمارهم، أطبق تباب
أطبق على متبلدين شكا خمولهم الذباب
لم يعرفوا لون السماء لفرط ما انحنت الرقاب
أطبق على المعزى يراد بها، على الجوع، احتلاب
أطبق على هذي المسوخ تعاف عيشتها الكلاب))

غير أن قلب الشاعر يلين بعد الغضب فيسخر على "تنويمة الجياع (١٩٥١) سخرية لاذعة:

((نامي، جياع الشعب نامي حرستك آلهة الطعام

نـــــامي، فــــإن لـــــم تــــشبعي   مـــــن يقظـــــة، فمـــــن المنـــــام

نـــــامي علـــــى زبـــــد الوعـــــود   يـــــداف فـــــي عـــــسل الكـــــلام))

السخرية مفهوم من أصعب القيم في نقد الشعر، فالشاعر ينساق مع موقف يستنكره فيغدو في موقف الموافق الرافض. وبالرغم من أن الساخر يتخذ سمت تجاهل العارف، فإن الجواهري أبدى من البراعة في هذا الفن ما يشكل إضافة حقيقية إلى تراث الشعر العربي، حديثه وقديمه. بل إنه في هذا الصدد لا يباريه أحد، وإذن، فمحمد مهدي الجواهري شاعر حديث، وليس شاعراً معاصراً فقط. بل إن على الحداثيين أن يتعلموا من الجواهري كيف يكونون شعراء معاصرين، أي أن يعيشوا عصرهم ويتفاعلوا مع هموم الناس في مرحلتهم التاريخية فيكونوا ضمير شعبهم ولسان إنسانيته وكرامته.

الشاعر الملتهب:

بقي الحديث عن إلقاء الجواهري لقصائده وكيفية تأثيره في الجماهير، وهو ينشد شعره، فقد كنت حاضراً في الحفل المهيب الذي أقيم في دمشق عام ١٩٥٦ احتفالاً بذكرى مصرع الشهيد عدنان المالكي، وقد أقيم في "الملعب البلدي" الذي أصبحت أرضه الآن مكاناً لمعرض دمشق الدولي، ولا أغالي إن قلت إن عدد الحضور أربى على مائة ألف أموا دمشق من كل أنحاء سوريا، وقد كان الجواهري يحرك هذه الألوف المؤلفة بنبرات صوته وحركات يديه، فتنفجر وتتحمس وتتوثب مع كل بيت بشكل لم يتكرر إلا عند لقاء هذه الجماهير نفسها مع الرئيس جمال عبد الناصر حين زار دمشق عقب قيام الجمهورية العربية المتحدة بين سورية ومصر:

خلّفــــت غاشــــية الخنــــوع ورائــــي   وأتيــــت أقــــبس جمــــرة الــــشهداء

خلفتهــــا وأتيــــت يعتــــصر الأســــى   قلبــــي وينتــــصب الكفــــاح إزائــــي

مـــن عهـــد قابيـــل، وكـــل ضـــحية رمز اصـــطراع الحـــق والأهـــواء

ومـــرارة الثكـــر المقـــدس ســـنة مـــن آدم جـــاءت، ومـــن حـــواء

هذا شعر يخلق مناسبته ولا ينتظرها، إنه شعر يبحث في الشرط الإنساني، في صراع الخير والشر (الحق والأهواء). والشاعر مسلح بعظم الضحية، يمتشق عظم الضحية ليسطر بها ألم الضمير البشري، فيما يتوهج الدم المسفوك ليضيء العالم أمام عيني الشاعر.

على أن القصيدة – وكل القصائد التي نظمها الجواهري – ليست على هذا المستوى من جودة السبك وفوران المخيلة وعمق الانفعال، ثم إن هناك سلاسة التعبير وقربه من سرعة الإدراك عند المتلقي، وهي ميزات لا تتوافر دائماً في شعر الجواهري، فمخزونه اللغوي الهائل يورطه في اللفظية بحيث تتوالى الأبيات في كلمات غريبة حيناً ووحشية حيناً آخر، على غير طائل. وقد ورث طول النفس من الفحول الذين حفظ شعرهم في نشأته. ومع طول النفس تأتي قوة الأسلوب والتعقيد في السبك وأحياناً في المعاني. طبعاً يمكن أن نلقي جزءاً من اللوم على ركاكة المتلقي الذي يهبط مستواه الأسلوب ومخزونه اللفظي في عصر الترانزستور والتلفزيون والرطانة بلغتين أو أكثر على مستوى سطحي يتغلب فيه الكلام على "اللغة" بكل مجدها وتألقها وموروثها الجمالي. خاصة أن الجواهري جعل الحياة بكل خوالجها ومجاليها مسرحاً لشعره. وإذن، يجب إجراء قراءات عدة لشعر الجواهري لانتخاب روائع وملتقطات إبداع جادت بها عبقرية فريدة.

أجمل قصائد (الجواهري) على ضريحه بدمشق

في اليوم السابع والعشرين من يوليو/تموز ٢٠٠٢م، كان الموعد مع الذكرى الثامنة لرحيل الشاعر الخالد ((محمد مهدي الجواهري))، آخر الشعراء العباسيين كما أطلق عليه عميد الأدب العربي د.طه حسين، ومتنبي العصر كما كان يشير إليه د.جلال الخياط، أستاذ مادة النقد الأدبي في كلية الآداب في بغداد، في محاضراته في مطلع السبعينيات.

وفي الواقع يندر أن نجد شاعراً عربياً شبيهاً بالمتنبي، كالجواهري سواء في شموخه الفني، أم في مواقفه من الحياة وتقلباتها، ومما زاد في وجود التشابه بين الشاعرين أن كليهما من مدينة واحدة هي: النجف في العراق، وأنهما عانيا من الغربة والتشرد، ولكن قبل هذا وذاك كان التشابه بالعنفوان والطموحات في البيان الساحر والاستعارات المدهشة، في المخيلة الرحبة والصور الفنية المبتكرة، في اللغة الجزلة المتينة، في كل هذا نحن أمام صورة أخرى توازي وتماثل صورة (المتنبي) إلا أنها صورة متجددة، لها سماتها الفنية الخاصة، وبصمتها المتمايزة وتفاعلها الحسي مع روح العصر وإيقاعاته وتشابكاته الجديدة المغايرة.

برز الجواهري في القرن العشرين كظاهرة فنية وحياتية متميزة، ظاهرة تاريخية لا مثيل لها، وقد أثارت من الحوار السياسي والاجتماعي الثقافي المتعدد الأراء والرؤى، ما لم تثره أية ظاهرة شعرية عربية طوال القرن الماضي ...

كانت أشعاره سجلاً أميناً، وتوثيقاً تاريخياً وفنياً للأحداث المعاصرة المهمة التي مرت بها أمتنا، وقد شكلت ظاهرة ((الجواهري)) المتميزة كينونتها وتجوهرت كبنية مترابطة العناصر، تسامقت فتجلت عناصرها في التمرد، الإباء، الثورة على الظلم، الذات التي تعي رسالتها، الوعي الكلي والشامل بآلام الوطن والأمة والإنسانية جمعاً.

وبعد ما يقارب القرن ترجل الشاعر الفارس، وألقى عصا الترحال والتغرب عن الوطن من أجل كلمة الحق ... مخلفاً ينبوعاً ثراً من أجمل قصائد الشعر العربي،

ومدرسة تتعلم فيها الأجيال محبة الناس، والدفاع عن حقوقهم، وتقديس الوطن، وكراهية المحتل المعتدي.

.... وفي ذلك اليوم من تموز الماضي، توجهت إلى مقبرة (الغرباء) في السيدة زينب، حيث يثوى الشاعر العربي الراحل إلى جانب زوجته (أم كفاح) التي توفيت في لندن عام ١٩٩٢، ونقل جثمانها إلى دمشق لتوارى في مثواها الأخير.

قفزت إلى خاطري وأنا أتوقف عند الضريح، أبيات الجواهري:

قالوا سكت، وأنت أفظع ملهب وعي الجموع لزندها، قداح الحرف عندك من دم، وسبيله يوم القراع إلى دم، تفاح فأجبتهم، أنا ذاك حيث تشابكت هام الفوارس تحت غاب رماح قد كنت أحمل فوق أجنحة لهم واليوم أحمل مهجتي بجناحي.

مضى إلى عالم الخلود عام ١٩٩٧، وشيع في موكب رسمي وشعبي مشهود، إلى حيث دفن هنا وشيد له ضريح من المرمر الصقيل نقشت على واجهاته الأربع أبيات من قصائده الشهيرة الخالدة، ففي وسط واجهته الأمامية تطالعك خارطة العراق ينساب فيها الرافدان: دجلة والفرات مقترنان ببيت شعر خالد:

أنـا العـراق لـساني قلبـه دمـي   فراتـه، وكيـاني منـه أشـطار

وفي أعلى الواجهة الأمامية اليمنى نقشت الأبيات التالية:

يـوم الـشهيد تحيـة وسـلام   بـك النـضال تـؤرخ الأعـوام

بـك يبعـث الجيـل المحـتم بعثـه   وبـك (القيامـة) للطغـاة تقـام

يوم الشهيد: طريـق كـل مناضـل   وعـر ولا نـصب ولا أعـلام

وعلى الواجهة نفسها من اليسار خطت أبيات من إحدى قصائد الشاعر في الشام:

يا شام يا لمح الكواكب فـي دجـى   يا موكب الأعـراس فـي صحراء

لله أنـت أكـل يومـك حاشـد   برجولـة ومـروءة وإبـاء؟!

في أي جـو عـابس لـم تـسفري ريـا الجنـان نديـة الأضـواء؟!

وعلى الواجهة الأمامية للضريح (بالأسفل) نقرأ من شعر الجواهري:

أنـا عنـدي مـن الأسـى جبـل يتمـشى معـي وينتقـل
أنـا عنـدي وإن خبـا أمـل جـذوة فـي الفـؤاد تـشتعل
إنمـا الفكـر عارمـاً يطـل أبـد الأبـدين يقتتـل

وعلى صفحة الجدار الأيمن من الضريح دونت أبيات الجواهري من قصيدته التي رثى فيها الشاعر معروف الرصافي:

لغـز الحيـاة وحيـرة الألبـاب أن يستحيل الفكـر محـض تـراب
أن يـصبح القلـب الـذكي مفـازة جرداء حتـى مـن خفـوق سـراب
أنا أبغـض المـوت اللئـيم وطيفـه بغـضي طيـوف مخاتـل نـصاب
ذئـب ترصـدني وفـوق نيوبـه دم أخـوتي وأقـاربي وصـحابي

كما نقرأ على صفحة الجانب الأيسر للضريح أبياتاً من قصيدة الجواهري المشهورة المقصورة، والتي كتبها في عام ١٩٤٧ وهو يطل من شرفة بيته على نهر دجلة في بغداد:

سـلام علـى هـضبات العـراق وشـطيه والجـرف والمنحنـى
على النخـل ذي الـسعفات الطـوال علـى سـيد الـشجر المقتنـى
علـى الرطـب الغـض إذ يتجلـى كوشـي العـروس وإذ يجتنـى
سـلام علـى قمـر فوقهـا عليهـا هفـا وإليهـا رنـا

تدغــــدغ أضــــواءه صـــــدرها وتمـــــسح طياتهــــا والثنـــى

أما الواجهة الخلفية من الضريح فنقرأ على صفحتها أبياتاً من قصيدة دجلة الخير التي طبقت شهرتها الأفاق والتي كتبها في براغ عام ١٩٦٢.

حييت سـفحك عـن بعـد فحييني يا دجلـة الخيـر يـا أم البـساتين

حييـت سـفحك ظمأنـا ألـوذ بـه لوذ الحمـائم بـين المـاء والطـين

يـا دجلـة الخيـر يانبعـا أفارقـه على الكراهة بـين الحـين والحـين

إني وردت عيـون المـاء صـافية نبعـاً فنبعـاً فمـا كانـت لترويني

يا دجلة الخير: يا أطيـاف سـاحرة يا خمر خابيـة فـي ظـل عرجـون

يا سكتة الموت، يا إعـصار زوبعـة يا خنجر الغدر، يا أغـصان زيتـون

يـا دجلـة الخيـر: أدري بالـذي مجاريـك مـن فـوق إلـى دون

أدري بأنك من ألـف مـضت هـدراً للآن تهزين مـن حكـم الـسلاطين

وأنت يا قاربـاً تلـوي الريـاح بـه لـي النـسائم أطـراف الأفـانين

وددت ذاك الشراع الرخص لو كفني يحاك منـه غـداة البـين يطـويني

وفي نهاية هذه الأبيات سطور فيها: (الفاتحة) هنا وبعيداً عن دجلة الخير، يرقد شاعر العرب الأكبر: (محمد مهدي الجواهري): ١٨٩٩- ١٩٩٧.

ثوى (الجواهري) بمقبرة (السيدة زينب) إلى جوار زوجته (أمونة) وكان قد وقف يوم رحيلها عند قبرها يرتجل واحدة من أروع القصائد الفياضة بمشاعر اللوعة والأسى... مطلعها:

هـا نحـن أمونـة ننـأى ونفتـرق والليل يمكـث والتنهيـد والحـرق

والصبح يمكث لا وجه يصبحني بـه ولا بسمات منك تنطلق

... وأبيات القصيدة هي الأخرى منقوشة على ضريحها، عرفاناً بجميل الزوجة التي شاركت الشاعر حياته بحلاوتها ومرارتها.

تلوتُ الفاتحة على روح الجواهري وفي خاطري السؤال: هل كان الشاعر يخاطب نفسه وهو يردد:

أرخ ركابك من أين ومن عثر كفاك جبلان محمولان على الخطر

كفاك موحش درب رحت تقطعه كأن مغبره ليل بلا سحر

ويا أخا الطير في ورد وفي صدر في كل يوم له عش على شجر

عريان يحمل منقاراً وأجنحة أخف ما لم من زاد أخو سفر

بحسب نفسك ما تعيا النفوس به من فرط منطلق أو فرط منحدر

أناشد أنت حتفا صنع محتضر أم شابك أنت، مغتراً، يد القدر؟

أم راكب متن ذكياء مطروحة ترى بديلاً بها عن ناعم السرر

خفض جناحيك لا تهزأ بعاصفة طوى لها النسر كشحيه فلم تطر

... وحينما كنت أعبر البوابة للخروج، طافت في خاطري من جديد أبيات (الجواهري) الرائعة، وتمنيت لو نقشت على واجهة ضريحه، ليخاطب بها كل زائر روح آخر فرسان العصر:

سائل الحفرة المرموق جانبها هل تبتغي مطمعاً أو ترتجي طلباً؟

يا برج مفخرة الأحداث لا تهني إن لم تكن لأبراج السما قطباً

فكل نجم تمنى في قراراته لو انه بشعاع منك قد جذبا



١٩٥٤/١/٥

بغداد
في ٢٥/٥/١٩٥٤

المحترم الأستاذ صبحي الأعظمي :

تحية جميلة ..

لم أكتب إليك منذ زمن غير قصير ، فقد مرضت بحمى شديدة زمناً ، ولم أشف من الماضي بعد ، كما انشغلت بمسائل أخرى كثيرة بسيطة وغير بسيطة .

وقد قرأت لك خلال هذه الفترة كثيراً في صحف مختلفة ، وأنا ألاحظ أنك توقفت عن مجلة "القلم الجديد" بعد أن أصبح لك مجال الإنتاج المكثف وأنت المنتج الناقد ، ومع هذا انتظرت منك أن تكتب إليّ ولم تفعل شيئاً ، ولذلك لم أشأ أن أجرح أو أن أزعجك بمشاغلي ، وأرجو مع ذلك أن تعود إلى شيء من انتاجك .

لقد لفتت نظري عبارة وردت في مقالك عن ... ، حول الحداثة في الشعر العراقي . قلت :

"..هذا المذهب الشعري الجديد الذي انصرف إليه كثير من شباب الشعراء في العراق أخيراً ابتداء من بدر شاكر السياب الذي لعله أول من فتح الطريق لشيوع هذه الأقدام الجديدة.."

إني أحب أن أعرف لماذا حكمت هذا الحكم ، مع أن كل متتبع للحركة الأدبية في العراق يجب أن يكون سمع بالضجة العنيفة التي أثارتها الصحافة حين صدر ديواني (شظايا ورماد) وفيه أول محاولة صحيحة للدعوة إلى الشعر الحر ، ويجب أن يكون عارفاً بأن الصحف العراقية لم تشهد حيث نشر واحد على هذا الأسلوب قبل أن صدر ديواني هذا وثارت الضجة حوله . ولا أذكر أن أول قصيدة حرة قد نشرت بعد صدور ديواني ، فقد لفتت نظري في جريدة الوطن بعد صدوره بشهرين وكانت الضجة إذ ذاك على أشدها . وإن شئت أن تتحقق من هذا فلك أن تراجع الصحف العراقية (أكتب إلى المكتبة العامة في بغداد ، أو كلف صديقاً لك ليتحقق من هذا .) ..

نـــازك المـلائـكـة :

- **الشعر هو لهاث الحياة يعّبر به الشاعر عن حبه للوجود...**
- **كلما زاد تعقيد الحضارة زادت حاجاتنا إلى الشعر...**

نازك الملائكة ..! اسم عربي معروف، له ما يزيد على ثلث قرن وهو يحمل راية الكلمة .. (نقداً وشعراً)..!

ونازك الملائكة .. ليست شاعرة وحسب، ولكنها رائدة مجددة، وحسبها أنها أول من قال قصيدة في الشعر الحر، ثم وضعت كتابها (قضايا الشعر المعاصر) الذي يعتبر من أوائل الكتب الحديثة التي تناولت قضايا الشعر وهموم الأدب.

- **سألتها عن بدايتها، وهل كانت مع الشعر ثم النقد أم العكس ؟**

بدأت شاعرة ثم بزغ فجر النقد في حياتي، بعد أن صدرت مجموعتاي الشعريتان (عاشقة الليل) و(شظايا ورماد) وأول قصيدة نظمتها في حياتي كانت في عمر سبع سنوات وكانت باللهجة العامية البغدادية، في حين كان أول مقال كتبته في النقد الأدبي في سنة ١٩٥٠وعمري ثمان وعشرون سنة وكان عنوانه (الأبعاد الأربعة في الأدب) ونشرته مجلة (الكتاب) التي كان يصدرها الأستاذ عادل الغضبان في القاهرة، وقد تناولت فيه موضوع الزمن في الأدب الأوربي وأثر نظرية أينشتاين النسبية في خيال الأدباء. وأول مقال كتبته في نقد الشعر قد نشرته مجلة (الآداب) اللبنانية وكان عنوانه (حركة الشعر الحر في العراق). وانطلقت بعدها أكتب في النقد بحيث مشى تيار الشعر مع تيار النقد في حياتي معاً.

- **تعتبر نازك الملائكة من رائدات التجديد في الحركة الأدبية المعاصرة، ما هي حدود التجديد لديك ؟**

التجديد هو فرض أبعاد جديدة في القول والتعبير على الشعر حيث تنشأ عنه رؤية جديدة للعصر. وعندما صدرت مجموعتي الشعرية الأولى عاشقة الليل كان الجو السائد في الشعر العربي جواً رومانسياً، وكانت مجموعتي الأولى رومانسية في جوها العام، إلا أنني حاولت فيها أن أجعل القصيدة كياناً خاصاً بها يميزها عن كل قصيدة أخرى. وذلك هو عنصر الجديد في هذه المجموعة.

وكنت إلى جانب ذلك أحاول أن أعبر بلغة ذاتية تحمل الألفاظ طاقات جديدة لم يستعملها الشعراء غيري. وسرعان ما لاح تطور جديد على شعري بعد هذه المجموعة، فأصبحت أؤمن بقول نيتشه: (ما قيمة فضيلتي إن لم تستطع أن تجعل مني إنساناً عاطفياً؟) ولكن هذه المرحلة لم تدم طويلاً، وسرعان ما دخلت في مرحلة الرمزية والتعبير السريالي – المعتدل – عن الحياة، وظهر ذلك واضحاً في مجموعتي الثانية (شظايا ورماد) وقد جمع العنوان بين المرحلتين وفي هذه المجموعة دعوت إلى الشعر الحر أول مرة وقد صدرت سنة ١٩٤٩.

- **هل تعتبرين (عاشقة الليل) ممثلاً لأفكارك الحالية في الشعر ؟**

لا، لم تعد هذه المجموعة تمثلني بما فيها من خيالات رومانسية وعاطفية جامحة شديدة، (وشظايا ورماد) يمثلني أكثر مما يمثلني (عاشقة الليل) إلا أن المجموعة الأقرب إلى نفسي هي (قرارة الموجة) الصادرة ببيروت سنة ١٩٥٧، ومع ذلك فإني تطورت تطوراً عظيماً منذ مجموعتي (شجرة القمر) إلى مجموعتي (يغير ألوانه البحر) الصادرة سنة ١٩٧٧ ببغداد.

- **نازك الملائكة ممن يدعو لمبدأ الأصالة مع المعاصرة، بعض الأجيال الجديدة تندفع وراء التجديد وحسب، معتقدة أن نازك الملائكة وجيلها لم يلتفتوا إلى الماضي وهم يقدمون ظواهرهم الجديدة، ماذا تقولين لهؤلاء المجددين؟**

إن تجديد أي شاعر إنما يتجه اتجاهه المعروف نتيجة لضغط البيئة الأدبية التي

يعيش فيها ففي سنة ١٩٤٩ عندما كنت منغمسة في نظم قصائد مجموعتي (شظايا ورماد) كان الشعراء المعاصرون أكثرهم يقرأ ون الشعر العربي القديم والحديث ويستأثرونه فيما ينظمون من قصائد. وكنت أجد كثيراً من قصائدهم تقليدية ليس فيها من التجديد شيء يذكر - باستثناء بعض الشعراء وبعض القصائد، وكنت في اندفاعي نحو التجديد أجد في نفسي ميلاً شديداً إلى قراءة الشعر الإنكليزي المعاصر، لأنني كنت أجد فيه أجواء جديدة تلهمني، وتلهب شاعريتي لصور جديدة على الوسط الأدبي العربي كل الجدة، ولذلك لم أكن في ذلك الفترة أهتم بالشعر العربي القديم على اعتبار أن كل الشعراء غيري كانوا يتأثرون به، وأنا أحب أكون الصوت الفريد بين شعراء العصر. وأحسب أن الزميلين بدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي كانا يحسان بمثل إحساسي، فكان اتجاهنا كلنا إلى قراءة الشعر الإنكليزي بحيث يبدو لي أننا حقاً لم نلتفت إلى الماضي في تلك المرحلة، اللهم إلا أن الماضي يعشش في أعماق (عدم الوعي) الذي يصدر الشاعر عنه في إنتاجه فلا خلاص لنا منه حتى ونحن نتجه بعيداً عنه.

- **قيل الكثير عن الشعر الحر بداية ونهاية سؤالي أولاً: هل لا تزال نازك تبشر بهذا النوع من الشعر؟ ثانياً: ألا ترى الأستاذة أنه أخر مسيرة الشعر حين جعل الباب مفتوحاً للشعراء والمتشاعرين؟**

أولاً أتناول الشق الأول من سؤالك وجوابه: نعم لم أزل أدعو بحرارة إلى الشعر الحر، وقد صدرت لي منه مجموعتان شعريتان جديدتان أحداهما (للصلاة والثورة) المطبوعة ببيروت سنة ١٩٧٨ والثانية (يغير ألوانه البحر) المطبوعة ببغداد سنة ١٩٧٧، وكل ما فيهما من قصائد من الشعر الحر باستثناء قصيدة واحدة هي (الخروج من المتاهة) وقد نظمتها استجابة لفكرة زوجي الدكتور عبد الهادي محبوبة، الذي ضايقه أن شعري كله حر، فرغب إليّ في أن أنظم قصيدة واحدة من شعر الشطرين لتكون في المجموعة. وأنا أجد الشعر الحر يطاوع موضوعات

العصر، وينسجم مع طبيعة حياتنا المعاصرة ذات القيم التي نختلف بها عن قيم العصور القديمة في حياتنا العربية.

ثم أتناول السؤال الثاني من سؤالك، حول ما يلوح لك من أن الشعر الحر قد فتح الباب للمتشاعرين. والواقع الذي أراه أن الشعر الحر أصعب من شعر الشطرين الخليلي، لأن الأشطر المتساوية في النموذج القديم تسهل مهمة الشاعر، حيث تعتاد أذنه على وحدة الوزن فيلازمها ويرتاح من الخطأ، أما الشعر الحر الذي يعطي الشاعر الحرية في عدد التفعيلات في كل شطر، فانه يعرّض الشاعر إلى مخاطر الحرية من خطأ وزلل وسقوط في الفوضى والابتذال. والواقع أن المتشاعرين كما تقول، قد ارتاحوا إلى الحرية التي منحناهم إياها بالدعوة إلى الشكل الجديد، ولكن ذلك لا يرجع إلى سهولة الشعر الحر كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما لقلة العارفين بالعروض وأصول الوزن والتقنية في الشعر، إن هؤلاء المتشاعرين الذين ملأوا الشعر الحر أخطاء، لا يجدون الناقد الذي يفهم وينبههم إلى الأخطاء، ولو أن النقاد حاسبوا الشعراء على أخطاء العروض لخاف هؤلاء الشعراء واضطروا إلى التعلم وتحاشي الخطأ. ولا بد لي أن أقول أن الشعراء الأصيلين لا يخلو شعرهم الحر من الغلط، وكل السبب يرجع إلى عدم وجود الناقد الكفء، على أنني لا أحب أن (أطلق) التعميم لأن هناك نقاداً يعرفون العروض، وهم مع ذلك ساكتون سكوتاً تاماً عما نزل بالشعر المعاصر من أخطاء شنيعة. والواقع أنني أنا الناقدة الوحيدة التي تنبه الشعراء إلى أخطاء العروض، ولذلك ثارت علي ثائرتهم وهاجموني بعد صدور كتابي (قضايا الشعر المعاصر) عام ١٩٦٢.

- **يخلط الكثيرون بين الشعر الحر، والقصيدة النثرية. كرائدة للشعر الحر ما هو الفرق بينهما ؟**

الفرق بينهما وجود الوزن والقافية في الشعر الحر، في حين أن قصيدة النثر خالية منهما فهي نثر اعتيادي لا وزن له. وقد سبق لي أن بينت أن الاسم (قصيدة

النثر) متناقض، لأن النثر يكون نثراً ويتعارض مع كلمة (قصيدة) التـي تـشخص الوزن في القطعة المكتوبة. وليس يخفى بأن من المستحيل أن يخلط قـارئ يعـرف الوزن بين (الشعر الحر)(وقصيدة النثر) وإنما يقع في هذا الخلـط أولئـك الـذين لا يحسون بالوزن لأنهم يرون الشكل الخارجي للشعر الحر مـشابهاً تمـام المـشابهة لشكل (قصيدة النثر) الظاهري فلا يستطيعون التمييز بينهما.

- **ما هي فلسفة نازك الملائكة في هذه الحياة ؟**

السؤال واسع سعة كبيرة، وكنت أود أن تحدد موضوعاً معيناً وتـسألني عـن فلسفتي فيه. ولكن من الممكن إن أقول أن فلسفتي أن الله قد خلق الإنـسان، ليكـون فرداً عاملاً في المجتمع يلتمس خدمته في كل عمل يعمله وكل كلمة يقولهـا، فلـيس من الصحيح أن يظن الإنسان أنه وجد في هذه الحياة ليأكل ويشرب وينـام ويلهـو عبثاً لا تنتظره رسالة يؤديها إلى الحياة، ولا يقودها مثل عال يقيس أعماله وفقه. إن الحياة الإنسانية تصبح أجمل وأوسع عندما يحس الفرد أنه مـسؤول عـن سـلوكه وتصرفاته مسئولية كاملة. إذ ذاك تصبح لحظات اللهو البريء جميلة ومقبولة تمـام القبول، لأنها تأتي التماساً للراحة بعد عناء العمل في سبيل الجنس البشري المعـذب في هذا العصر في كل مكان. ففي أفريقيا وآسيا يموت البشر بالملايين من الجـوع، وتجرف بيوتهم الفيضانات وتدمرهم الزلازل، وفي فلسطين ينـسف منـزل الفـرد العربي ويشرد أولاده ويباد ويقتل على أيدي الصهاينة المجرمين. والرسول الكـريم يقول: (من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده فإن لم يستطع فبلـسانه، وإن لـم يـستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان) والحقيقة المؤسفة أن أكثر النـاس فـي هـذا العـصر قاصرون عن تغيير المنكر ولو بقلوبهم فهم يفتقدون أضعف الإيمان.

- **الرمزية في الأدب .. لا تزال موضوع حوار، كناقدة وكرائدة ما هـي حـدود الرمزية المطلوبة لديك؟**

الرمزية هي التعبير بالرمز عن الموضوع، واللجوء إلى الرمز حالة جمالية من جهة، ومطلب وقائي من جهة أخرى، أما الجمال فيتطلب الرمز، لأن التعبير الصريح يكسب الكلام صفة الوضوح، وكثيراً ما تكون الأشياء الواضحة مسطحة وخالية من روعة الحسن وفتنة الإبهام. وما يكاد الشاعر يستعمل الرموز حتى يكتسب القصيد جمالاً سحرياً يمنحه أبعاداً تذهب عميقاً في الجهات كلها، وأما أن الرمزية مطلب وقائي فإن ذلك يرجع إلى ظروف العصر وتعسف الحكومات، وقد رأينا كيف لجأ شعراء الأرض المحتلة في العقد الثامن الهجري من هذا القرن إلى الرموز، للتعبير عن مقاومتهم للمحتل الصهيوني المجرم، الذي كلن يحصي أنفاسهم ويفتح لهم زنزاناته الضيقة ويفرض عليهم الإقامة الجبرية. على أن من مقتضيات العصر أيضاً أن ألا يغرق الشاعر في الرمزية حتى تصبح تعمية، وتتحول القصيدة إلى لغز لا حل له. ذلك أن المفروض أن يوصل الشاعر مضموناً معيناً إلى القارئ، وإلا أصبح الأدب لغواً لا معنى له. أقول هذا وأنا ألاحظ مظاهر الغموض الشديد على شعر الشباب، الذين أصبحوا إذا قرأوا قصيدة على شيء من الوضوح – مع الرموز فيها – زهدوا فيها وقالوا عنها باحتقار: (إنها واضحة).

- **الشعر، هل له مكان في مثل هذا العصر الذي يطغى فيه صخب الحديد على دفء القصيد ؟**

الشعر له مكان العصور كلها، وما من فترة من حياة الإنسانية كان الشعر فيها غير مطلوب. وأن الشعر هو لهاث الحياة في صدر الشاعر يعبّر به عن حبه للوجود وانفعاله ورغبته في إيضاح رؤياه، بحيث تصله هذه الرؤية بأدق جهاتها، وتقيم جسراً بينه وبين معاصريه، الذين يعبّر عن أحاسيسهم ويرسم رؤيتهم للدنيا على فسحة الورق. والجديد نفسه يفتح للشاعر أبواب التعبير، إن المعامل العظيمة التي جاء بها هذا العصر تستثير الشعر في قلب الشاعر بما لها من مظاهر العظمة، إن الآلة التي تبدع الصناعات الثقيلة تفتن العقل بما فيها من روعة وحياة.

والكومبيوتر يذهل العقل البشري بقدراته العظيمة على تنسيق المعلومـــات وجمعهـــا وتقديمها. وهذه الأمور تستثير حاسة الجمال لدى الشاعر والفنان فكأن الحديد يـــتكلم ويشارك الإنسان حياته التي وسّعها العلم توسعة هائلة. الشعر كذلك واحة يفيء إليها إنسان هذا العصر بعد تعب يوم في العمل في الجامعة والمعمل والمرصد والمفاعـــل الذري. إن حياة الأرقام والعمليات العلمية تجعل الذهن البشري ظمآن إلـــى قطـــرة شعر تبل عطشه وتزيل حرقته، وكلما زاد تعقيد الحضارة زادت حاجتنا إلى الـــشعر والفنون الأخرى، التي تعطي للحياة رؤية فيها حس الإنسانية التي تبقى محتاجة إلى الجمال وإلى الحنان والى العاطفة التي تلون الحياة وتعطيها مذاقاً أحلى وأشهى.

النار شرعي لا الجمود

يسكنها الحزن، صديقها الليل، وحدها تبقى مع ليلها وحزنها .. تبثه لواعجها ووحشتها .. تحاور الشعر مع قلبها المسكون بآلاف الآهات والحسرات، كأن الحزن غرس بين أضلعها، وحده الشعر كان يمنحها الإحساس بالوجود في هذا العالم المليء بالمأسي .. تستشعره فتزداد حزناً وتمتلئ إحساسا باللاجدوى، فتركن لوحدتها مبتعدة عن الصخب لعلها تتنفس قليلا من هواء دجلة فترتد إلى روحها بعض النشوة.

شاعرة .. سليلة عائلة شعرية يمتد نسبها إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء .. عاشت وسط أجواء عائلية، كل فرد فيها شاعر من جدها حتى أمها وأبيها وصولاً إليها، لتكون محطة مهمة ليس في محيط عائلتها فقط بل على مستوى الشعر العربي في العصر الحديث .. هذه الشاعرة الحزينة المتوحدة هي (نازك الملائكة) التي ستثير حولها وحول شعرها الكثير من الجدل والنقاش، خاصة في مرحلة شهد فيها الشعر العربي تحولات كبرى على صعيد الشكل والمضمون، ولتدخل في قلب هذا الجدل متفاعلة معه ليكون من نصيبها مختلف الآراء، فمنهم من ناصرها ومنهم من وقف ضدها بذرائع شتى، ولكن (نازك الملائكة) انتصرت مع شعرها وتركت بصمات شعرية قل من أوجدها في منصف خمسينيات القرن العشرين.

لم تكن الشاعرة وعائلتها ممن يحبون الصخب والضجيج، وقد جاءت نسبتهم (الملائكة) لهدوء منزلهم على نهر دجلة، وقد طبع هذا الهدوء حياتها وشعرها المليء بالكلمات المعبرة عن هذا المعنى، مع أنها كانت تضيق بكل ما يحصل أمامها من أحداث ومواجع تهز أمتها العربية، وقد دخلت بأشعارها في صميم هذه القضايا معبرة عن مواقفها تجاهها، وعنونت ديوانها الأول الذي صدر العام (١٩٤٧) (عاشقة الليل) موحية فيه إلى ما تصبو إليه في حياتها سواء العادية أو

الشعرية، وقد أثارت بديوانها هذا النقاد والمحللين واللغويين، في وقت كان الشعر العربي يتوجه ببطء شديد نحو الجديد، خاصة على صعيد الشكل الذي كان للملائكة دور كبير في إخراجه إلى النور عبر قصائدها الجديدة التي ستنشرها لاحقاً.

مع صعود موجة الشعر الحديث أو ما يسمى (الشعر الحر) اختلف المؤرخون حول ما له الأسبقية في ظهور هذا النمط الشعري، فمن قائل إن الشاعر بدر شاكر السياب في قصيدته (هل كان حباً) الصادر عام (١٩٤٧) كان أول من قال هذا النوع من الشعر، (ونازك الملائكة) قالت إن قصيدتها (الكوليرا) الصادرة في العام نفسه كانت سابقة على قصيدة السياب، ومع ذلك لم يكن هذا الاختلاف لينزع عن (الملائكة) صفة الريادة في الشعر الحر، ولا سيما أنها درست الآداب الأجنبية وكانت تتقن الفرنسية والإنكليزية واللاتينية إضافة إلى العربية، كما كانت لها اهتمامات موسيقية فهي تتقن العزف على العود، وتعرف مقاماته الموسيقية ولعل ذلك كله قد ساهم في إتقانها للشعر الحر أو الشعر الحديث، الذي وقف النقاد حياله أيضاً مختلفين بين مؤيد ومعارض، في وقت لم تعتد الأذن العربية على هذا النوع من الشعر من مثل قصيدتها الكوليرا حيث تقول : (في كهف الرعب مع الأشلاء / في صمت الأبد القاسي).

حيث الموت دواء – استيقظ داء الكوليرا –

مع شعرها الجديد عاشت نازك الملائكة تدافع عنه وتدفع زهرة عمرها بين تنتظر أن تصدر دواوينها وترى أصداء أشعارها، فتارة تطمئن إلى شعرها ومكانتها، وأخرى يتنازعها الهم والقلق والسخط والحيرة، وقد أصدرت في وقت مبكر من سبعينيات القرن العشرين كتابها (قضايا الشعر العربي) الذي وضعها في مقدمة (النقاد أيضاً)، وقد قيل لو أنها اتجهت إلى النقد لكانت أبرع ناقدة عربية، لما تمتلكه من أدواته المعرفية وحسها المرهف، وقد كان هذا الكتاب ولا يزال من أبرز المراجع في دراسة الشعر العربي الحديث بالرغم من مرور أكثر من ثلاثين سنة على صدوره ومع ذلك ظلت (الملائكة) تتحاز إلى الشعر فتكتبه وتصدر دواوين

عديدة مثل (شظايا ورماد) (الصومعة والشرفة الحمراء)، (قرارة الموجة) الذي كان ديواناً صاخباً يضج بالحياة، بعد أن كانت تميل إلى الهدوء فتقول:

(اغضب

كفاك وداعة

أنا لا أحب الوادعين

النار شراعي لا الجمود

ولا مهادنة السنين)

ويقال إن الشاعرة في أواخر حياتها عادت إلى كتابة الشعر (العمودي) ولكن دون التراجع عن نظريتها وأشعارها في الشعر الحديث.

لقد نالت الشاعرة نازك الملائكة في شعرها على مكانة مهمة في الشعر العربي، فكانت فاصلاً شعرياً في مسيرة هذا الشعر، بها ومعها بدأت خطوة جديدة في هذا المجال، كما وكتبت الكثير من المقالات النقدية حوله، وأصدرت كتباً تشرح نظرتها ونظريتها، واحتفظت بمكانتها الشعرية بالرغم من قلة الشاعرات العربيات في هذا المجال، وكتب عنها وعن تجربتها ودواوينها الكثير أيضاً، فقد كتب الدكتور والناقد العراقي عبد الكريم راضي جعفر عنها: (كلمة حق لابد من قولها: إن نازك الملائكة كانت من أجرأ الرواد الذين تناولوا قضية الشعر الحر ... فنازك علامة واضحة من العلامات التي ارتسمت على خريطة الشعر العربي المعاصر، ليس على صعيد الشعر فحسب، وإنما على صعيد التنظير المستند إلى جهد مكتسب عربي وغير عربي.

مروضة الموج:

تمثل نازك الملائكة لدراسي الشعر ظاهرة شعرية متعددة الأبعاد، استطاعت أن تزاوج بين الثقافة العربية والثقافة الإنجليزية، فوصفوها حسب التعبير التراثي بأنها وصلت القوادم بالخوافي.

أخلصت لقضايا الشعر غير أنها وكما يقول عبد الله أحمد المهنا قد حولت حياتها أيضاً إلى شعر خالص، فهي منضبطة في حياتها كالوزن الشعري، ثم إن فيها الحزن والعمق اللذين يعتبران جناحين للشعر.

يقول عنها إحسان النص (على أني منذ قراءتي الأولى لديوان الشاعرة أحسست أن في قيثارتها وتر لا يوقع إلا أنغاماً حزينة تبعث الشجن في النفس، ويشف عن نفسية تنضح بالقلق، وعن نظرات قائمة متشائمة لا ترى من الوجود إلا جانبه الأسود الكالح). وقد ظلت هذه الغمامة السوداء تظلل شعر نازك وتهيمن على نفسيتها حتى أواخر عام ١٩٥٠ م، على انه منذ ذلك الحين – ولدوافع مختلفة انتهجت في شعرها اتجاها مغايراً ... وجدت الشاعرة في الإيمان والتسليم بقضاء الله بلسماً يشفي كلوم نفسها المعذبة ... وعكست أشعارها منذ ذلك الحين (قرارة الموجة، شجرة القمر) ما طرأ على نفسيتها من تحول:

وحدتي تقتلني والعمر ضاعا
والأسى لم يبقِ لي حلماً جديداً
وظلام العيش لم يبقِ شعاعاً
والشباب الغض يذوي ويبيد

***

ليس إلا الحزن يمشي في كياني
وأنا في ظلمة الليل الصديق

نازك الملائكة، رؤية الذات:

كيف كانت نازك تعبر عن تلك الذات، ما الذي قالته وهي دائمة الرصد لذاتها، وكأنها فأر التجربة لما تحاول أن تعبر عنه دائماً، وهي تحاول أن تلعب دور المريض والطبيب، الفأر والعالم في الوقت نفسه، ستتضح هذه الرحلة عبر قراءة للمجموعة الكاملة لدواوينها.

تتحدث نازك عن تأثير شوبنهور، وفكرة الموت عليها فتقول: (كان الموت يلوح لي مأساة الحياة الكبرى، وذلك هو الشعور الذي حملته من أقصى أقاصي صباي إلى سن متأخرة). ولقد كانت (مأساة الحياة) صورة واضحة من اتجاهات الرومانسية التي غلبتني في سن العشرين وما تلته من سنوات، وكان من مشاعري إذ ذاك التشاؤم والخوف من الموت وهما مفتاح هذه الصورة الأولى من المطولة : صورة ١٩٤٥).

عطش البحارة :

ونعود لما قالته الشاعرة في عام ١٩٤٩ م في مقدمة ديوانها (شظايا ورماد) :

(في الشعر يصح تطبيق عبارة برناردشو (اللاقاعدة هي القاعدة الذهبية)، ولسبب هام هو أن الشعر وليد أحداث الحياة، وليس للحياة قاعدة معينة تتبعها في ترتيب أحداثها، ولا نماذج معينة للألوان التي تتكون بها أشياؤها، وأحاسيسها .. وقد يرى كثيرون معي أن الشعر العربي، لم يقف بعد على قدميه، بعد الرقدة الطويلة التي جثمت على صدره طيلة القرون المنصرمة الماضية .. كأن سلامة اللغة لا تتأتى إلا إن هي جمدت على ما كانت عليه منذ ألف عام، وكأن الشعر لا يستطيع أن يكون شعراً إن خرجت تفعيلاته على طريقة الخليل .. ويقولون ما اللغة ؟ وأية ضرورة إلى منحها آفاقاً جديدة ؟ فينسون أن اللغة إن لم تركض مع الحياة ماتت، إن اللغة العربية لم تكتسب بعد قوة الإيحاء، التي تستطيع بها مواجهة أعاصير القلق والتحرق التي تملأ أنفسنا اليوم، إنني أحسست أن هذا الأسلوب الجديد في ترتيب تفاعيل الخليل يطلق جناح الشاعر من ألف قيد .. ثم نتحدث عن القافية، ذلك الحجر الذي تلقمه الطريقة القديمة كل بيت .. كان واحداً من الأسباب التي حالت دون وجود الملحمة في الأدب العربي .. مع أنها وجدت في آداب الأمم المجاورة كالفرس واليونان).

والواقع أن القارئ العربي يتهرب من الشعر الرمزي، لأن اللغة تجابه التعبير

عن مثل هذه الأحاسيس المبهمة أول مرة، فليس غريباً أن تتلكأ قليلاً، وتتوتر .. الإبهام جزء أساسي من حياة النفس البشرية، لا مفر لنا من مواجهته إن نحن أردنا فناً يصف النفس، ويلمس حياتها لمساً دقيقاً هكذا تحدثت نازك الملائكة، وفي الواقع من خلال خطابها الرصدي النقدي لذاتها، سنرى إنها انطلقت بثقة نفس كبيرة في عصريتها مع الأربعينيات من هذا القرن، متسلحة بشجاعة الزمن الجديد في مواجهة أسئلة القلق وتحدي الإنسان لواقعه .. ثم سنرى تذبذبها بها وحيرتها في الخمسينات .. لتتم ذلك كله بخطاب الاستسلام في السبعينات. وإنكار جزء كبير وحميم لا من ذاتها الشعرية فقط بل من تنظيراتها النقدية أيضاً.

امرأة تحاور قبراً:

أعبر عما تحس حياتي
وأرسم إحساس روحي الغريب
فأبكي إذا صدمتني السنين
بخنجرها الأبدي الرهيب
واغضب حين يداس الشعور
ويسخر من فوران اللهيب

***

يأتي صوت نازك في مجموعتها (عاشقة الليل) قادماً من غربة الروح، عالم المثالية، الحزن الرومانسي، والعاطفة التي تقاوم الانطفاء متسلحة بالغضب.

في قصيدتها (ذكريات ممحوة) تتضح تلعثمات الحب، وجهه خلف ضباب السنين، صوت الخافي، غياب لون العينين، الشعر الداجي

كم في سكون الليل
تحت الظلام رجعت للماضي وأيامه
أبحث عن حبي بين الركام

فلم تصدني غير ألآمه

الحب والألم هو تجربة الأنوثة المهشمة عند نازك في هذه المرحلة : الحـــزن المرير، الصبي الغرير، الوجه الشاحب، القلب الكئيب الغرير:

يا جسداً، كالقبر، ما فيه روح

سميته قلباً، فيا للغرور

القلب الجامد البارد:

لم يبق إلا ثورة واحتقار

ملء حياتي المرة الحالمة

وجهك القاسي:

تكتب نازك الملائكة في هذه الفترة قصيدتها (الحياة المحترقـــة) وهـــي تلقـــي بمذكراتها إلى النار في عام ١٩٤٦م.

كل ما مر بقلبي من شقاء وحنين

القفيه الآن لا تبقي ولا تستمهليني

هكذا هي ترمي بهذا الماضي في النار، ماضي الحب الجائع، الرجل القاســـي، كما ستفعل مراراً في المستقبل مع بعض قصائدها وأفكارها .. مرارتها وأحلامها..

تذهب من حال الانكسار إلى الرفض والثورة فتهدي قــصيدتها (ثـــورة علـــى الشمس) إلى المتمردين:

وقفت أمام الشمس صارخةً بها

يا شمس، مثلك قلبي المتمرد

ما أنت إلا طيف ضوء خادع

وأصوغ من أحلام قلبي جنة

حسبي نجوم الليل تلهم خاطري

هن الصديقات السواهر في الدجى

يفهمن روحي وانفجار مشاعري

ويتكرر في هذا الديوان موضوع الموت في قصائدها: بين فكي الموت، مرثية غريق، على حافة الهوة، سياط وأصداء، نغمات مرتعشة، المقبرة الغريقة، الغروب.

إن نازك تعيش بين ذلك الكبرياء النازف والكابوس المحيط بها دائماً: الموت ونهاية الأشياء.

وتتدفق في قصيدتها (عاشقة الليل) صورة من الماضي التراثي ممزوجاً بصورة رومانسية من واقع عائشة الشعري:

يجيء شبح بادي الشحوب

كالطيف الغريب

حاملاً في كفته العود يغني للمغيب

ليس بعينيه سكون الليل في الوادي الكئيب

هو يا ليل، فتاة شهد الوادي سراها

تضحك الدنيا وما أنت سوى آهة حزن.

السفينة التائهة:

ثمة اكتناه مبكر لأنثى نازك الملائكة في شعرها يتكرر ويتكرر مراراً .. وعبر سنسن طويلة ممثلاً الحالة التائهة، الضائعة، التي تنقب عن أحلام منسية بمعاول لا تستطيع كسر ذلك الجدار الذي يحجب نفس نازك عن أحلامها وإمكانية تحقيقها. كانت نفس نازك الملائكة هي الستر الحقيقي بين الرغبات، والأهواء يستمر الحلم في الديوان والبحث عن الحب في قصائدها: في وادي الحياة / أشواق وأحزان / مدينة الحب:

حيث هي في عمق صحراء الحياة

نهر تحيط به المفاوز والصخور

الماء يبدو وادعاً ووراءه الألم العميق

أمواجه السم الزعاف وان بدا حلو البريق.

وكذلك في قصائدها: إلى عيني الحزينتين / السفينة التائهة / الخيال والواقع، حيث تقول:

لم يكن حبي سوى حلم غريب

مده الوهم على قلبي الكئيب

صخرة سيزيف:

ويرصد الجزء الثاني من (الأعمال الكاملة) لنازك الملائكة تحولات الشاعرة في تجربتها من ديوان (شظايا ورماد) عبر قرارة الموجة) والى (شجرة القمر).

تقول في قصيدتها (كبرياء) ضمن ديوانها (شظايا ورماد) في عام.

(وقلوب تضم أشلاءها فوق	**جراح وأدمع وذهول**
تؤثر الموت كبرياء ولا تنطق	**بالسر بالرجاء الخجول**
ونفوس تحس أعمق إحساس	**وتبدو كأنها لا تحس**
وتظل الحياة تخلق من وجهي	**قناعاً صلداً يفيض رياء**
جامداً بارداً أصماً ويخفي	**بعض شيء سميته كبرياء)**

يتكرر ذلك في قصائدها يوتوبيا ضائعة / تواريخ قديمة وجديدة وصراع، حيث تقول وتكرر ذلك البوح الحزين:

(تعذبني حيرتي في الوجود	**وأصرخ من ألمي: من أنا ؟!**
منحت عيوناً تحب الدموع	**وقلباً يحبذ أن يطعنا**
وروحاً تعثر فيما يريد	**فمج الظلام وعاف السنا**

أريـــــد وأجهــــل مــــا أريـــــد أريـــــد وعــــــاطفتي لا تريـــــد)

تكاد هذه المقاطع تختصر مجمل مشاعر نازك في هذه الفترة:

الحيرة، وضياع الذات، والحزن، وخيبة القلب، وتململ الروح وكآبتها، وعــدم القدرة على الاختيار، والخوف من التعبير عن حاجة الذات، وهذا يعكس إحــساسها بمدى ضآلتها أمام العالم.

ويستمر ذلك في قصائدهــا: عندما انبعث الماضي / مــر القطــار / عــروق خامدة:

نحـــن هنــــا اللاأمــــس واللاغـــد نحـــــن هنـــــا اللاكيــــــان

يعـــــز أن تجمعنـــــا الأيــــــام وبيننــــــــا الأمـــــــــس

هذه الاستحالة، وتلك الحالة الحنينية لأمر غامض مبهم ومكسور.

ومن الأعماق تصاعد صوت مخنوق يهتف في حزن، في جزع: كيف أبوح؟

هذه هي قصيدة (الجرح الغاضب) ذلك الجرح الذي يرمي عميقاً فــي داخــل الأنثى، حتى عندما امتلكت قلمها وزمنها كانت الرحلة عميقة ومــضنية كــي تجــد صوتها المتعثر.

إنها تنطلق من مفهوم (اللاكيان) كما تقول في الباحثة عن الغد:

(غـــداً نلتقــي) ثــم مـــات الزمـــان وضـــــــــاع المكــــــــــان

وهـــل يلتقـــي أبـــداً عاشـــقان علـــــــــى لا كيـــــــــان ؟

إن المرأة لغز .. في ذات نازك كما سيتكرر في قــصائدها (ألغــاز) جامعــة الظلال / أجراس سوداء / نهاية السلم / أنا / غرباء / أغنية الهاوية تقول:

دعني في صمتي في إحساسي المكبوت لا تسأل عن ألغاز غموضي وسكوتي

فافهمني أن فهم الليل، افهم حسي والمسني أن لمَس النجم، ألمس نفسي

إنها المكبوت / واللغز / والليل والنجم القصي في قصيدتها الغاز.

مرت أيام لم تتذكر أن هناك

في زاوية من قلبك حباً مهجوراً

عضت في قدميه الأشواك

حباً يتضرع مذعوراً

هبه النورا

هكذا تتضرع للحبيب في قصيدتها (نهاية السلم) فاقدة لمفهومها، لذاتها كما تقول في قصديتها (أنا):

الليل يسأل من أنا

أنا سرة القلق العميق الأسود

أنا صمته المتمرد

أرنو وتسألني القرون

أنا من أكون

والذات تسأل من أنا

أبقى أسائل والجواب

سيظل يحجبه سراب

لقد ادعت الشاعرة في بداية الديوان أنها قد تغيرت .. أنها أصبحت أكثر تفاؤلاً وكأنما الأمر مرتبط بالتشاؤم أو بالتفاؤل، والحقيقة أنها عبر النصوص والمضامين والمعاني بقيت في الحيرة نفسها والضياع والبحث عن تلك الذات التي لم تتحقق في قصائدها إلا عبر الألم والحزن والأقنعة التي تداري بها ذلك النزيف الأنثوي

العميق، وفي (أغنية الهاوية) تقول:

وأين أسير وقلبي النزق

هنالك مازال لا يبرد

ولا يحترق

كقلب أبي الهول. أين الغد؟

وفي قصائد قليلة في هذا الديوان تخرج نازك من متاعب روحها لتقول قصائدها في مواضيع أخرى كالطبيعة في (جبال الشمال) والرثاء في (إلى عمتي الراحلة) والمشاركة الوجدانية في مصاب ألمَّ بمصرفي تلك الفترة (الكوليرا).

لكنها تعود مرة أخرى إلى ذاتها في قصائدها الأخرى: لنكن أصدقاء / جنازة المرح / يوتوبيا في الجبال / وجوه ومرايا حيث يعود ذلك الحاجز بين الحقيقة والقناع / الذات الداخل / والعالم الخارجي فتقول:

هذه أنا ليس من شك فلم لا أمسها بيديا ؟

لم لا أستطيع أن ألمس الذا ت؟ وأمحو تحرقي الأبديا !

وتقول في قبر ينفجر:

كنت وحدي لم يكن يتبع خطوي غير ظلي أنا وحدي، أنا والليل الشتائي .. وظلي.

القوقعة:

تتقدم تجربة الشاعرة نازك الملائكة في بحثها عن الذات المفقودة وانشطاراتها في ديوانها (قرارة الموجة) حيث تحاور الشاعرة نفسها في مقدمة الطبعة الثالثة في عام ١٩٥٧م، وتوضح ذلك في مقدمة أخرى كتبتها في عام ١٩٦٧م حيث تقول:

(وقد حاولت فيه أن أشخص تطوري النفسي بين الفترة التي نظمت فيها هذا

الشعر (١٩٤٧م - ١٩٥٣م) والفترة التي كنت أمرّ بها عام ١٩٥٧م حينما كنت أنظم قصائد ديواني الرابع (شجرة القمر).

وهذا هو نموذج من ذلك الحوار الذي تتناقش فيه ذات الشاعرة الأولى، مع ذاتها الثانية (الأولى: مهما يكن فان عنواني (قرارة الموجة) متفائل، الثانية: هكذا كنت تقولين عن (شظايا ورماد) إن لم أخطئ.

الأولى: كلا إن الشظايا قمة عالية حقاً، لكن الرماد هو النهاية، أما الموجة فهي لا تركد أبداً والنقطة السفلى فيها ليست إلا القفزة الجديدة نحو القمة. وهكذا ترى أن (قرارة الموجة) يرى الحياة على صورة تتعاقب قمماً وانحدارات لا نهاية لها وإذا كان هذا الشعر قد نظم منحدر الموجة فإنها محض صدفة لا أكثر).

(الثانية: لأنك تكرهين الوصول وحسب، انك لم تطيقي أن تصلي مرة، وعندما تحطمت المرآة تعدد وصولك فلم تطيقي الموقف). ولكن السؤال رغم تلك المحاورة التي تحاول أن تكتشف الذات هل تغيرت تلك الذات في تجربتها الجديدة عن بداياتها. هذه هي القصائد:

أول الطريق / أغنية / دعوة إلى الأحلام / الشهيد/ إلى العام الجديد / طريق العودة / الأعداء، حيث تقول:

نحن إذن أعداء
من عالم لا يفهم الأشواق
أعيننا لا تفهم النجوى
الحب فيها سيرة تروى
كان لها أمس
وضمنه رمس
من تربة البغضاء
نحن إذن أعداء

وان طغت في دمنا الأشواق

لقد نقلت حالة البحث عن الأخر من منطقة الغموض والضياع، إلـى العـداء وتصارع السادية والمازوشية في العلاقة. وتستمر قصائدها: حصاد المـصادفات / النائمة في الشارع / مرثية امرأة لا قيمة لها / الأرض المحجبة / لنفترق / سـخرية الرماد / صائدة الماضي / إلى أختي سها / الهاربون / ماذا يقول النهـر / ثـلاث مرات لأمي / يحكي أن حفارين / الزائر الذي لم يجئ.

حيث تقول:

وأدركت أني أحبك حلماً

ومادمت قد جئت لحماً وعظماً

سأحلم بالزائر المستحيل الذي لم يجئ

ويأتي ديوانها الأخير(شجرة القمر) ليحمل في مقدمته تـأبين مرحلـة طويلـة عاشت فيها الشاعرة زمن التمرد الشكلي والضياع النفـسي، حيـث تحـل الأمـر بالارتداء إلى الذاكرة العربية، هاربة من نزيف الأسئلة التي أتعبتها حيث تقول حول (الشعر الحر):

(وإني لعلى يقين من أن تيار الشعر الحر سيتوقف في يوم غير بعيد، وسيرجع الشعراء إلى الأوزان الشطرية بعد إن خاضوا الخروج عليها والاستهانة بها. ولـيس معنى هذا أن الشعر الحر سيموت، وإنما سيبقى قائمـاً يـستعمله الـشاعر لـبعض أغراضه ومقاصده، دون أن يتعصب له ويترك الأوزان العربيـة الجميلـة .. بـت أدعو إلى أن يرتكز الشعر الحر إلى نوع من القافية الموحدة ولو توحيـداً جزئيـاً، فبذلك نزيده موسيقا وجمالاً ونحميه من ضعف الرنين وانفلات الشكل).

يغيّر ألوانه البحر

وقفنا على البحر تحت الظهيرة
طفلين منفعلين
وروحي يسبح،عبر مروجك
في نهر عينين مغدقتين
وقلبي يركض خلف سؤال
حلمت براعمه عطر مرعى على شفتيك
سؤالك فيه عذوبة ريح الشمال
وروعة أغنية سكبتها، كمنجمات شوق مخبأة في يديك
سؤالك لون سماء على برك ودوالي
سألت عن البحر هل تتغير ألوانه؟
وهل تتلون أمواجه ؟ هل ترى تتبدل شطآنه؟
سألت وعيناك واسعتان اتساع الرؤى
ووجهك نجم نأى
وسفن مضيعة لم تجد مرفأ
سألت وهدبك دهشة طفل
ورعشة سنبلة، وتموج حقل
وكانت يداك شراعين منهمرين
على زورقين
وراء المدى والرؤى شاردين
وقلت، نعم، يا حبيبي
يغير ألوانه البحر

تعبر فيه سفائن خضر
وتطلع من مدائن شقر
ويشرب حينًا دماء الغروب
ويصبح حينًا بلون الفضاء
يلملم زرقته يا حبيبي
ويحلم، يرنو بعينيه شذريتين
سماويتين
إلى اللانهاية يأخذ لون الضياء
صباحاً ويطفئ ثرياته في المساء
سألت عن البحر هل تتغير ألوانه؟
وهل تتلون أمواجه ؟.. هل ترى تتبدل شطآنه؟
نعم يا حبيبي
وبحراً يلاطم وديان نفسي
ويرحل عبر موانئ لون وشمس
وعبر حقول مغيب
ويغتسل الغسق القمري بأمواجه ويبلل شعره
ويلقى إليه سماءً وفكرة
نعم يا حبيبي، نعم، ويلون خلجانه
نعم ويغير ألوانه فيشرب صفرة شكي وظني
وتبحر في شذر أمواجه أغنيتاتي وسفني
ويصبح أبيض، تصبح لجته ياسمينه
ويصبح أخضر، مثل أخضرار العيون الحزينة
ومثل زبرجد النهاوند في قعر حزني

سألت عن البحر هل تتغير ألوانه ؟ وعيناك بحر ترامى وضاعت
حدود مداه وشطانه
نعم يا حبيبي، يغير ألوانه ويصير بلون الرماد
له كل طعم ليالي السهاد
رمادية كل أسماكه
ورماد لآليه
إسفنجه
اخطبوطاته
ورماد مدائنه الغارقات القباب، ولون الرماد
جبين غريق طفا وتوسد أمواجه
الملح، مغمى عليه
ويبتلع الماء والملح عوسجة ورماد على شفتيه
وبحري وبحرك، بحر الرماد
حنون الفؤاد
له قسوة تلثم الجرح، تفرش لين وساد
وبحري وبحرك شاكس جسم الغريق الرمادي
أرسل موجته القاسية
لتلطمه، وعروس بحور لتحمله
للرمال النبيذية الناسية
ويرقد من دون وعي على الجرف، مغمى عليه
وبحر الرماد
يرشرش إغمائه، والشباب الغريق
تغازل خديه، موجة حب، وتغسل جبهته وتريق

عليه المحبة والملح والرغو،...
حيناً يغطى الجسد
وحيناً يعود ويرتد عنه
ويتركه لذهول الأبد
ويا من تسائلني : هل يغير بحرى وبحرك ألوانه ؟
ومثل الغيوم يلون، يرسم، بالزيت والفحم شطآنه ؟
حبيبي لقد كان لي في الطفولة جد طويل كمثل جدائل شعر ربيع وريف
وكان لجدي عمق
وظل
وبعد
له عنف عاصفة في خريف
وكان مدى في بحار مطلسمة لا تحد
وجدى كان قوياً كموجة بحر مخيف
وفي ذات يوم سرت ألسن النار في بيتنا
مضت تمضغ الباب، تشعل لين الستائر
يدور اللهيب دوائر
يزمجر في شرفات منانا، ويضحك من رعبنا
يهدد أن يتوسع، ويركض في حينا
وينذر أن يتغدى خدوداً
شفاهاً، ضفائر
ويغتال حتى شباب البيادر
وأقبل جدي مندفعاً مثل موجة بحر
وأرسل صيحة هول وذعر

تحدّر في عنف إعصار نوء، يسب ويلعن
شتائمه مطر وحنان، شراسته بيت شعر ملحن
وهمس صلاة، ونجمة فجر وزورق عطر
ومد السباب على شفتيه غدير ملون
وأطفأ جدي الحريق، وأنقذ هدبي وشعري
حبيبي، وجدي قد كان بحراً
يغيّر ألوانه وتصير محاجر عينيه سوداً وخضراً
يبدّل أمواجه، يترامى، يصوغ لآلئ
يسيل ينابيع، يرسى شواطئ
ويبدع مداً، ويصنع جزراً
يبعثر عبر ازرقا ق الخليج جزائر شقرا
وكانت جرادله وهي تلعن، كانت قماقم بلسم
تكسر أسورة النار، عن ساعد لين وذراع ومعصم
وقسوة أمواج بحري وبحرك صارت أكفاً
وصدراً لتحمل جسم الغريق الرمادي تمطره قبلات وزهراً
وترميه فوق ضفاف السلامة
رفيف جناح حمامه
وتعطيه عمراً جديداً
وتزرع إغماءه حلماً
وسنابل ذكرى
وبرد غمامه



أبو سلمى : (عبد الكريم الكرمي)

الزيتونة العطرة التي نبتت عليها أناشيد فلسطين

ولد الشاعر والأديب العربي الفلسطيني (عبد الكريم الكرمي) المعروف بأبي سلمى عام ١٩١٠ في مدينة (طولكرم) التابعة آنذاك لمدينة نابلس، وهو احد ثلاثة شعراء فلسطينيين كانوا علامات خضراً في الشعر الفلسطيني قبل نكبة عام ١٩٤٨ وهم: (ابراهيم طوقان) و(عبد الرحيم محمود) و(أبو سلمى).

ولابد أن نتعرف على المكونات الثقافية والاجتماعية، والسياسية والنفسية التي واكبت نشأة (أبي سلمى) وذلك بتقديم موجز عن شخصيتين تركتا أثراً كبيراً في حياته هما والده الشيخ (سعيد الكرمي) وأخوه (أحمد شاكر الكرمي).

ولد الشيخ (سعيد الكرمي) عام ١٨٥٢ وتوفي عام ١٩٣٥، وكان من حملة المشاعل القومية ضمن القافلة الأولى التي حكم على أفرادها بالإعدام في (عاليه) بلبنان، ثم أبدل بهذا الحكم السجن المؤبد نظراً لشيخوخته.

وكان الشيخ سعيد فقيهاً في الدين عالماً بأسرار اللغة، أديباً يحسن الخطابة، كما كان شاعراً مجيداً، وله قصائد يحاكي فيها شعراء الجاهلية، كما كان مرجعاً يعتمد عليه ويستشهد بأقواله وآثاره، عمل نائباً لرئيس المجمع العلمي بدمشق، كما عمل من بعد قاضياً للقضاة في حكومة الشرق العربي، وهو الاسم الذي كان يعرف به الأردن آنذاك، ثم رئيساً لأول مجمع علمي في الأردن، وبقي في هذين المنصبين حتى عام ١٩٢٦ حيث عاد إلى طولكرم، وبقي فيها حتى توفي عام ١٩٣٥.

ويسجل (أبو سلمى) ذكرياته عن هذه الشخصية الأولى المؤثرة في حياته فيقول (لا أزال أذكر وأنا طفل كيف كنت واقفاً مع بعض رفاقي أمام دارنا في طولكرم، عندما جاء جنود من الأتراك معهم ضباط ودخلوا إلى الديوان ثم خرجوا وذهب الوالد معهم ولم يعد، وكنت كلما سألت عن الوالد الذي طالت غيبته، كانوا

يقولون: إنه ذهب إلى الشام، ثم علمت بعد ذلك أن الأتراك سجنوه مع رجالات البلاد لأنهم يطالبون بالاستقلال.

ومضت سنتان وسبعة أشهر من الحرب العالمية الأولى، حينما ذهب أفراد الأسرة وأهل البلدة يستقبلون السيد الوالد القادم بالقطار من دمشق، وهكذا عاد الديوان في طولكرم إلى ازدهاره مرجعاً لطالبي الرأي والفتوى في الدين والأدب.

أما الشخصية الثانية التي أثرت على طفولة (أبي سلمى) فهي أخوه الناقد العربي الفلسطيني (أحمد شاكر الكرمي).

ولد عام ١٨٩٤ درس علومه الأولى في الأزهر، وحينما نشبت الحرب العالمية الأولى ذهب (أحمد شاكر) إلى الحجاز ليحرر في جريدة (القبلة) التي كانت تصدر في مكة، وبقي فيها سنة كاملة، ثم رجع إلى القاهرة، وحرر في جريدة (الكوكب) الأسبوعية التي كانت تصدر في مصر ويحررها (محمد القلقيلي)، ودرس اللغة الانكليزية وأتقنها، ثم عاد إلى طولكرم ومنها انتقل إلى دمشق حيث عمل كاتباً بالمحاسبة في سكة حديد الحجاز سنة ١٩٢٠، وبقي في هذه الوظيفة حتى سنة ١٩٢٤ ثم استقال، وكتب سلسلة من المقالات في جريدة (ألف باء) تحت اسم (قدامة)، واسهم في تأسيس الرابطة الأدبية، وأصدر كتاب (الكرميات) وهو مجموعة مقالات وقصص في موضوعات شتى، كما ترجم عن الانجليزية قصة (الخريف والربيع) للشاعر الانجليزي (جيوفري تشوسر)،كما ترجم رواية (خالد) للروائي الأمريكي (فاربون كروفورد)، وأصبح محرر مجلة الفيحاء المصورة بدمشق، وكتب في مجلة العروس الدمشقية لصاحبتها (ماري عجمي)، وفي الصحف والمجلات المصرية واللبنانية، وبقي كذلك حتى أصدر جريدة (الميزان) الأدبية الأسبوعية التي عاشت مدة سنتين، وتوفي شاباً في ١٩٢٧/١٠/٩.

أما شاعرنا (أبو سلمى) فقد أمضى قسماً من دراسته الابتدائية في (طولكرم) ثم انتقل إلى دمشق حيث تعلمّ في مدرسة الملك الظاهر الابتدائية، وهي نفسها (المكتبة الظاهرية) حالياً، وحينما كان والده قاضياً للقضاة في (الأردن) تعلّم

(أبو سلمى) في مدرسة (السلط) الثانوية، ثم عاد إلى دمشق حيث تابع تعليمه في مدرسة التجهيز الأولى التي تعرف بمكتب (عنبر) أو دار المعلمين الأولى، ولهذه المدرسة يحمل (أبو سلمى) أجمل الذكريات، ففي عام ١٩٢٥ قدم اللورد (بلفور) إلى دمشق، وكانت مدرسته (عنبر) هي التي قادت مظاهرة كبيرة ضد مجيئه، وكان (أبو سلمى) أحد الطلاب الذين قادوا المظاهرة.

وفي حفل أقيم في هذه المدرسة لتكريم شعرائها من الطلاب: أنور العطار – جميل سلطان – زكي المحاسني – ألقى أبو سلمى قصيدة بعنوان (تلة الرضوان)، وهي عن تلة في طولكرم لها قصة رومانسية تتحدث عن راع أحب ابنة شيخ القبيلة، فأمر الشيخ بقص أصابع الراعي الذي كان يغوي الفتيات الفاتنات بشبابه، فتوقفت الأغنام عن الرعي، لكن الراعي صنع له أصابع من القصب، واستمر يغني، وقد لفتت القصيدة الأنظار إلى (أبي سلمى).

أما هذه القصيدة التي حظيت بها بإعجاب أساتذته ولفتت الأنظار إلى شاعريته فهي:

(ناوليني الرباب قبل زيالي — لست مذمومة ولست ببالي

ودعيني اسمعك وجد ابنة — الشيخ ورضوان وهو سر الجلال

قالها شاعر الطبيعة في الليل — ومهوى الأشعار تلك الليالي

أمسك الشاعر الرباب فأنت — أنة الواجدين في الأطلال

فحنا مشفقاً عليها كأم — حين تحنو على وحيد غالي

قال والغيد حوله ساكنات — وسكون الحسان عين الكمال

ربوة يسكن الغرام إليها — يعتليها رضوان كل زوال

كان يرعى أنعام شيخ عجوز — ساد قسماً من قومه والآل)

أما لماذا اقترنت كنية (أبي سلمى) باسم عبد الكريم، فإن وراء ذلك قصة

طريفة، فعند ما كان (أبو سلمى) طالباً في الصف الثاني بمدرسة (عنبــر) بدمــشق، هفا قلبه إلى حسناء دمشقية اسمها (سلمى)، فنظم فيها قصيدة مطلعها:

(ســــلمى انظري نحوي فقلبي يخفــق   لــما يشـــير إلــيَّ طرفــك أطــرق)

فلما تنامى خبر القصيدة إلى أساتذته، شجعوه علــى الغــزل بــسلمى شــعراً، وأخذوا ينادونه (بأبي سلمى)، وقد لصقت به هذه الكنية بعد ذلك فأصبحت أشهر من اسمه.

وحول غلبة هذه الكنية على الاسم يحدثنا الدكتور (زكي مبارك) فــي الجــزء الثالث من كتابه (ليلى المريضة في العراق) فيقول: (وصلت إلى حيفا فسألت عــن عبد الكريم الكرمي فلم يعرفه أحد، ثم سألت عن الأستاذ أبي سلمى فعرفه الجميــع، وهناك ندمت على الوقت الذي ضيعته في دراسة الكنية بوم كنت مــشغولاً بتــأليف كتاب (النثر الفني)، فلو أني كنت زرت العراق أو فلسطين قبل ذلك لا ستغنيت عن تلك الأبحاث الطوال.

ولعل هذه القصة التي أوردناها على ما فيها من طرافة ومتعــة لــم تعــد ذات أهمية بقدر ما أصبحت ترمز إلى معان أسمى، ومدلولات أكبر وأوسع بعد أن نمــا حب (أبي سلمى) وتطورت مفاهيمه للحب والحبيبة، فأصبح يغني لوطنه في كل مــا يغني به لفتاته (سلمى)، إن كل ما يذكّره به يذكره بها، وكل جمال فيها جمال فيــه، وأيام هواه إنما قضاها في وطنه ومرتع صباه، ومغاني لهوه إنما هي بلاده الــسليبة، وليالي الوصال إنما كانت في أحضان سفوح وطنه ومروجه، وعلى ربواتــه وبــين جنانه.

وغدت قصائد (أبي سلمى) غزلية وطنية معاً، وهكذا أصبحت تثور في نفــسه لواعج الحنين إلى حبيبته وصباه ووطنه في آن واحد، فتراه في قصيدة (لقاء علــى الطريق) لا ينسى وطنه، بل ثمة تجاوب بين الحبيبين في وجدانه:

(يسمعك القلب أغنيات هوى ... لولاك لم يبق من رمق
يروي لعينيك عند خفقته ... تاريخ حبي والدمع والأرق
العمر مثل الربيع في وطني ... لا تقطعيه بالهجر والحنق
هواك في ذمتي وفي عنقي ... ونلتقي ... هكذا ... على الطرق)

(أبو سلمى) هذا الذي امتزجت فيه الحبيبة بالوطن، قال فيه صديقه الشاعر الفلسطيني الكبير (إبراهيم حافظ طوقان):

يا رسول الهوى صحابتك العشاق طراً وحزبك الآراء
شيعة لو حشدت يوماً قواها هلك الكاشحون واللواء

وفيه يقول صديقه الكاتب العربي المصري الكبير المرحوم (إبراهيم عبد القادر المزني):

(أبو سلمى شاعر فلسطين وصيدحها بلا منازع، ومن كان لا يعرف جميل بثينة أو كثير عزة أو العباس بن الأحنف، فهذا أبو سلمى يعرفه بهم أتم تعريف وأوفاه، إذ لست أعرف في فلسطين أو غيرها شاعراً له مثل رواة أبي سلمى وجنده المدافع عنه، فإن رواة شعره الغيد الحسان وجنده العذارى، وفي الحقيقة أن أبا سلمى كان شاعر الرقة والغزل، فكان ينشر غزلياته في الصحف الفلسطينية في الثلاثينات باسمه الحقيقي أو باسمه المستعار أو بأسماء أخرى يستتر وراءها، مثل (ذو الخال)، وهو مستند من ذات الخال التي أحبها (أبو سلمى)، وفيها قال كثيراً من الشعر.

يقول في قصيدة (ما الشاطئ الغربي):

(وما الشاطئ الغربي لولا فرارها ... سوى صم أحجار وأوكار غربان

أمــرَّت يــديها فوقــه فمــاذا بــه   مـــراح صـــبايات وملعـــب غـــزلان
ومــرت بــه فانــساب يلــتمس الخطــى   فيبكي على عهد الهوى الــشفق الفــاني)

ويقول من قصيدة (الشاطئ الغربي):

(نــسمات الــشاطئ البــاكي العبــي   مع ذات الخــال مــن قبــل الفــوات
داعبـــي الثغـــر ولا تـــضطربي   إنمـــا الثغـــر حبيـــب النـــسمات

فـيــه ســـر الــحــب ســـر الــحــيـــاة)

وفي قصيدة (ليتنا) يقول:

(يــا ليتنــا طيــران لا نــدري بأســرار الهمــوم
نشدو بألحان الهوى في الــسهل والجبــل الــشميم
ونطير في جــو الــسعادة والمنــى بــين الغيــوم
وننام في ظل الأقــاح وفــي حمــى الليــل البهــيم
أو زهرتــان نــديتان علــى فــم الــوادي الكــريم
يا ليتنــا طفــلان عنــد الــشاطئ البــاكي اليتــيم
نغفو علــى صــدر الرمــال كحبتــي عقــد نظــيم
وأفيق أهتف باســمها مــن كــل شــيطان رجــيم
وأرى جمـــال الــكـائــنات على محياها الوسيم)

شناعر الحب والوطنية:

ولكن (أبا سلمى) لم يكن شاعر الحب وحسب، بل كان أيضاً شــاعر الحريــة والوطنية الواعية الصادقة الثائرة، ومنذ أوائل عهده بالشعر الوطني كان ينقم علــى الانتداب البريطاني والصهيونية، وعلى القيادات والزعامات العمياء التي تتولى دفــة

أمور الشعب، ففي عام ١٩٣٤ نشر قصيدة (حمام الوادي) وفيها يحمل علـى تلـك القيادات يوم ضاع وادي الحوارث وطرد (١٥٥٠٠) عربي من أراضـيهم بعـد أن سقط عدد من الشهداء برصاص الجنود الإنجليز.

يقول أبو سلمى:

(ودع ظلالـك يـا حمـام الـوادي ... ألـوى الزمـان بغـصنك الميـاه

من بعـد سـرحته وعـذب نميـره ... نم في الهجيـر وأنـت طـاو صـاد

أرسل نواحك يـا حمـام وقـل لنـا ... هل في حمى الـوادي حمـام شـاد

كان الرسول إليك إن غلـب الهـوى ... يختال فـوق ربـى وفـوق وهـاد

حتـى إذا وافـى الـديار وغـردت ... عبراتـه وروى حـديث فـؤادي

عبراتـه وروى حـديث فـؤادي ... قـصت جناحيـه يـد الـصياد)

حيا (أبو سلمى) هبات الشعب العربي الفلسطيني فقال في قصيدته (يا بلادي):

(قـولي لظالمـة الـشعوب ... ضـللت عـن سـبل الرشـاد

لا تلجئـي عنـد الحـساب ... إلـى الحفيظـة والعنـاد

مـن ظلمـك اسـودّ الفـضاء ... وقـد شـكا قلـب الجمـاد

والـشعب إن يغـضب عليـك ... عرفـت أهـوال العـوادي)

وهكذا شاءت الظروف لشاعرنا أن يتشرد لينظم حبات فـؤاده فـي فلـسطينه، ومن روائع (أبي سلمى) قصيدته إلى زعماء العرب، وقد أنشدها في معاقل الثائرين يوم هبت فلسطين هبتها الخالدة ومطلعها:

(انـثر علـى لـهـب القـصيد ... شـكوى العـبيد إلى العـبيد)

وفيها يحمل على زعماء العرب واحداً بعد واحد، وسرت هذه القصيدة بين الجماهير سريان النار في الهشيم، فكان الصغير قبل الكبير يرددها.

وفي هذه القصيدة يخلد (أبو سلمى) ذكرى استشهاد الشيخ المناضل (عز الدين القسام) ورفاقه بهذه الأبيات:

(قوموا اسمعوا من كل ناحية يصيح دم الشهيد

قوموا انظروا (القسام) يشرق نوره فوق الصرود

يوحى إلى الدنيا ومن فيها بأسرار الخلود

قوموا انظروا فرحان فوق جبينه أثر السجود

يمشي إلى حبل الشهادة صائماً مشي الأسود

سبعون عاماً في سبيل الله والحق التليد

خجل الشباب من المشيب بل السنون من العقود)

وصبيحة يوم زال الانتداب البريطاني عن فلسطين هتف (راجي صهيون) مذيع دار الإذاعة الفلسطينية بهذا البيت:

(جبل المكبر لن تلين قناتنا ما لم نحطم فوقك الباستيلا)

وجبل المكبر هذا هو المكان الذي كان يقوم فيه قصر المندوب السامي، وكتب (أبو سلمى) قصيدته هذه أيام كان يدّرس في المدرسة الرشيدية في القدس، ويبلغ مدير المعارف البريطاني يومئذٍ خبر هذه القصيدة التي نشرت في مجلة الرسالة القاهرية بتوقيع (أبي سلمى)، فكان أن استدعاه (المستر فرل) مدير المعارف آنذاك ودار بينهما الحوار التالي:

- **المستر فرل لأبي سلمى: هل أنت ناظم هذه القصيدة؟**

أبو سلمى (بهامة مرفوعة وقامة منتصبة) : نعم أنا ناظم قصيدة جبل المكبر.

- **وهنا يبلغه المدير قرار فصله عن العمل.**

أما هذه القصيدة التي ذعرت لها السلطة البريطانية في ذلك الوقت، فقد وردت فيها هذه الأبيات:

(آفاقك الحمر انتشت راياتها   قد أقسمت ألا تظل ذليلاً
ثوري ولو فرش الذين طفوا على   طرق الجهاد أسنة ونصولاً
جبل المكبر طال نومك فانتبه   قم فاسمع التكبير والتهليلا
فكأنما الفاروق دوى صوته   فجلا لنا الدنيا وهز الجيلا
جبل المكبر لن تلين قناتنا   ما لم نحطم فوقك الباستيلا)

وهو يرى أن لابد لاستخلاص الحق من طريق واحد، وهدف واضح هو القوة، فنراه يدعو الشعب إلى تحطيم الانتداب وإعلان الثورة فيقول:

(خلي انتداب القوم أو إرشادهم   فالثورة الحمراء خير مرشد)

وبإحساس الإنسان الثائر على الظلم والجهل أشاد (أبو سلمى) في بواكير شعره بجهاد الشعب، رغم الصعوبات التي اعترضت طريقه وأعاقت مسيرته الحضارية.

(ونحن الذين نثور على الظلم   والجهل في كل حين
ونحن الذين خلقنا الجهاد   ونحن الذين حمينا العرين
ونحن الذين أثرنا الطريق   وكنا مشاعل حق ودين)

وواضح أن الشاعر في هذه القصيدة كان يعبر عن حقيقتين: الأولى: وهي إحساس الشاعر بضرورة الوحدة العربية، وإدراكه أن ردع الخطر الخارجي لا يمكن إنجازه دون توحيد القوى المشتتة والطاقات المبعثرة المصطنعه، ولذلك نراه

يتعمد التعبير بضمير الجمع (نحن).

وهكذا فإن الشاعر يأخذ موقفه الطبيعي ضمن معسكر الأمة العربية التي يتكلم باسمها.

والحقيقة الثانية: هي انه يعبر عن عواطفه الملتهبة التي تتدفق بين جوانحه، ويريد أن ينشرها على العالم بفخر وإباء، فإذا عرفنا أن هذه القصيدة قبل نكبة عام ١٩٤٨، أدركنا مدى وعي الشاعر وتفتحه الفني والنضالي والحرية في مفهومه وحدة لا تتجزأ، فهو يريدها للأوطان الأخرى والشعوب كما يريدها لوطنه، ولكنه يتجه ببصره إلى الشعب فهو معقد الآمال وعلى يديه يتم التحرير.

(ايه فلسطين الجريح قفي على طهر الأزار
لا تسألي المستعمرين بل اسألي أهل الديار
يا أيها الشعب النبيل آمنت من شر الصغار
أنت الذي تهب السبيل من اليمين إلى اليسار
قرّر مصيرك أنت لا من يبصمون على القرار)

صوت الأمل:

استلهم أبو سلمى في شعره كل جانب من جوانب محنة فلسطين، واستوحى كل حادثة ووقف عند كل مظهر، فكان شعره ثورة على الانتداب وجناياته والصهيونية وأهدافها، كما أيقظ شعره وعي عرب فلسطين، ومجّد البذل، وقدّس التضحية، وكرّم البطولة، وخلّد الأبطال والشهداء، ودعا قومه إلى وحدة الصف والمحافظة على الأرض، حتى غدا الشعر سلاحاً فتاكاً في المعركة التي خاضها عرب فلسطين ضد الانتداب والصهيونية.

ولهذا نجد شاعراً من شعراء المقاومة هو (محمود درويش) يقول عن (أبي سلمى) (أنت الجذع الذي نبتت عليه أغانينا، نحن امتدادك وامتداد أخويك اللذين

ذهبا – إبراهيم وعبد الرحيم – اللذين قاتلا بالكلمة والجسد، لا لسنا لقطاء إلى هذا الحد، إننا أبناؤكم) ونجد شاعراً آخر من شعراء المقاومة هو (توفيق زياد) يقول عن جيل الشعراء الرواد: (إن الرعيل السابق من الشعراء الذين حملوا على كواهلهم عبء الحرف الموسيقي الراقص في وجوه الضوء، حملتهم النكبة بعيداً، ولكن الشعر بقي.

ومن جديد راحت تتردد على شفاه أبناء الشعب الباقين أسماء عديدة، وليس صحيحاً القول أننا نحن الشعراء الذين خلقا المأساة في بلادنا قد بدأنا من جديد ... إننا نرد هذا القول إلى أصحابه، كل شيء يمكن أن يبدأ ومن جديد إلا الثقافة الحقيقية، إنها مثل الحياة نفسها تورث وتتواصل، نفس الطريق الذي لم يبدأه بل واصله في حينه إبراهيم طوقان وأبو سلمى وعبد الرحيم محمود وآخرون).

وكما يعتبر أبو سلمى من جيل شعراء المقاومة الرواد، فهو أيضاً من جبل الفردوس المفقود، عاش هموم شعبه وتجرع مرارة الغربة، يصدر في شعره عن شعور إنساني صادق، ووعي عميق بالأبعاد الحقيقية لأزمته كفلسطيني واكب النكبة مرحلة بعد مرحلة.

وعلى الرغم من أن شعراء النكبة لم يستطيعوا أن يعكسوا المعنى الإيجابي للمأساة القومية الكبرى، والمعنى البناء الذي يجدد الهدف ويرسم الطريق، بل حل مكانه شعور يائس حزين ملئ بالقلق والحيرة، قد ينتقض أحياناً بالأمل، لكنه أمل خافت لا يعرف طريقه إلى المستقبل ... على الرغم من ذلك فإن (أبا سلمى) استطاع أن يتمالك نفسه، ويخرج من بين الركام ليكون النفير العام الذي يطلق أصوات الاستنفار، ويثير في نفوس شعبه وأمته الأمل، ويستنهضهم ليكونوا الزلزال الذي يهز واقع التشرد والتخلف، وقيم دعائم الوحدة التي هي الطريق إلى تحرير فلسطين.

فيقول في قصيدة (أجنحة الهوى) التي ألقاها عام ١٩٤٩ في جمعية (المقاصد الإسلامية) في بيروت بمناسبة المولد النبوي الشريف.

(ألا ثـــورة مـــلء الـــدنى عربيـــة تطهّرنـــا بالنـــار نفـــسا ومولـــداً
تقلبنـــا معتـــزة فـــوق جمرهـــا ولن يخبو الجمـــر النبيـــل ويخمـــدا
إلى أن يغيب الليـــل أســـود حالكـــاً ويغمرنـــا فجـــر الفتـــوح مجـــدّداً
تطـــل علينـــا وحـــدة عربيـــة وفي ظلهـــا يحيـــا الزمـــان مغـــردا
وتمـــشي فلـــسطين الحبيبـــة حـــرة تحيي رســـول الله والعـــرب أحمـــدا

ووسط الضجيج الإعلامي والتعبئة العاطفية التي لم تفلح إلا في تفريغ شـــحنات التهديد والوعيد الغوغائي غير المخطط، يقف شاعرنا متخطياً هذه التهويمات ليـــوقظ أبناء وطنه من غفوتهم موجهاً إياهم إلى طريق القوة لأنه سبيل العودة.

(يا فلـــسطين أنـــت أنـــشأت شـــعباً لـــم يـــنم ســـاعة علـــى الاضـــطهاد
حـــارب الظلـــم منـــذ كـــان فيـــا للـــشعب يـــودي بالـــسيف والجـــلاد
لا تقولـــوا هـــذى فلـــسطين وفيهـــا مـــن إبانـــا دنـــى مـــن الأمجـــاد
ســـيعود المـــشردون إليهـــا اســـمعوها مـــع الـــضحايا تنـــادى)

ويواصل التأكيد على هذا المعنى ويدعو الشعب إلى الثورة فيقول:

(يـــا فلـــسطين لا تراعـــي فانـــا لم نزل في الدنا نخـــوض الـــصعابا
معنـــا فـــي نـــضالنا كـــل شـــعب عربـــي يـــرى الحيـــاة غلابـــا
يتجلـــى الظلـــم والظـــلام إذا مـــا التهب الشعب في النـــضال التهابـــا
ويطـــل الفجـــر الحبيـــب ضـــحوكاً ويغنـــي الـــدروب والأحبابـــاً
وتنـــادى أرض الـــبلاد بنيهـــا فيكـــون المـــشردون الجوابـــا)

وبمزيد من الفخر والاعتزاز بالبطولة التي يبديها الشعب يؤكد (أبو سلمى) أن طريق الحرية لا تقتحم إلا بالشهداء، وأن أشجارها لا تروى إلا بالدماء.

(إن فلسطين لأبنائها وانهم على الردى وطّنوا
أعراسهم تسابق في الفداء قد انحنى الموت ولم ينحنوا
نزرع بالموت على أرضنا حياتنا نحن، ومن يجبن
وكيف يسقى الدم أرضي ولا تخصب والأشجار لا تغصن
على لظى أحرارنا وحدهم تُذوَّب الأغلال أو تُطحن)

وينطلق شاعرنا مرة أخرى يحيي بطولة شعبه في مقاومة الاحتلال وتحطيم الصعاب:

(من رأى الفتيان يمشون على لهب الموت رأى الأمر العجابا
والبنيات على درب الردى في فلسطين يحطّمن الصعابا
ولد الأبطال أبطالاً على وهج الثورة لم يحنوا الرقابا
شرفت دنيا فلسطين بهم وبها شرفوا الدنيا احتسابا
كلما ساروا على أرضهم نضّروا بالدم والدمع الترابا)

محاور ثلاثة:

خلاصة ما يمكن أن تقوله بعد هذه الرحلة الطويلة مع (أبي سلمى) أننا نلمح في تجربته الشعرية محاور ثلاثة كان لها أثرها في تطور شعره وإخصاب تجربته، وهي المحور الوطني الذي تشرب رائحته الأرض بكل معطياتها الطبيعية والنفسية رامزاً بالحبيبة للوطن.

والمحور الثاني هو المحور القومي، وهو الذي يرى في الأمة العربية انتماءه

النهائي، فموضوع العروبة والأمة من أكثر الدوائر اتساعاً في شعر أبي سلمى وفي أدبه على حد سواء.

أما المحور الثالث فهو المحور الإنساني الذي يتغنى بالحرية على أنها وحدة لا تتجزأ، وقد استطاع إسهامه في المؤتمرات الدولية والعربية، الأدبية منها والسياسية، أن يفتح أمامه أفاقاً واسعة يطل منها على ثورة الإنسان المعاصر ضد الظلم والاستغلال، كما تغنى بكلّ شيء جميل وخيّر في هذا العالم الرحب، وإن كان تغنّيه بالخير والجمال لم يذهله عن واجبه إزاء قومه وقضية شعبه.

من هنا كان أدب (أبي سلمى) وشعره موصولاً بالتراث الوطني والقومي صلته بالتراث الإنساني، والأدباء الأصلاء هم طليعة قوى الكفاح في شعوبهم، يناضلون من أجل الحرية، ويؤمنون بحق الإنسان في تقرير مصيره وفي أن ينعم بالخير في هذه الحياة.


وتأكيداً لدور الشعوب الأفريقية والآسيوية في المشاركة الايجابية البناءة في حضارة إنسانية ترسخ فيها سيادة العقل، ويشرق العدل والسلام، فقد قرر الاتحاد العام لكتاب آسيا وأفريقيا منح جائزة اللوتس الأدبية لعام ١٩٧٨ للشاعر (أبي سلمى)، فكان في هذا التكريم تكريم لكل أديب وشاعر ملتزم بهموم وطنه، وقضايا أمته التي هي جزء من هموم وقضايا الإنسانية العامة.

وفي الثاني عشر من شهر تشرين أول عام ١٩٨٠، شاءت إرادة الله أن يقضي الشاعر المشرد في (واشنطن) بعيداً عن الأرض العربية كلها، وليس عن وطنه فلسطين فحسب.

وينقل جثمان شاعر فلسطين وصيدحها في أصيل السابع عشر من (تشرين أول) عام ١٩٨٠ إلى دمشق التي أحبها وعاش فيها سنوات غربته، ويدفن بها في احتفال مهيب.

كان جرح فلسطين عميقاً في صدر (أبي سلمى) كذلك كان وقع المصاب فادحاً على أبناء وطنه وأمته، فقد فقدوا فيه مناضلاً يعتز به المناضلون، وشاعراً فذا يمثل

الشعر العربي الأصيل الذي لا يتساهل ولا يتلون، ويبقى أبو سلمى الزيتونة الفلسطينية العطرة التي يتجدّد عطاؤها في الأجيال التي جاءت وتجيء من بعده.



إحسان عباس :

رائد التنوير والفكر الخلاق، عاش للثقافة العربية ومثل قمة شامخة من قممها المتألقة

من تراه فينا ينسى الترجمة الراقية لرائعة هيرمان ميلغـل (مـوبي ديـك) أو رواية هنمغواي (الشيخ والبحر) وعشرات الروايات العالمية التي شغفنا بهـا أيـام سنواتنا الجامعية الأولى؟ ومن تراه لا يذكر بالغبطة والاعتزاز الدراسات القيمة في: فن الشعر وفن السيرة التي تلقفها المثقفون في الخمسينات بحفاوة لا تعـادل؟ وهـل يغيب عن ذاكرة أي باحث ومثقف في وطننا الكبير وجه ذلك الموسوعي الرائد مثل وحده مدرسة فكرية خلاقة قل نظيرها في الوطن العربي؟

لقد بلغ الموت مؤخراً تلك القمة الرفيعة من قمم الثقافـة العربيـة المعاصـرة ورحل (إحسان عباس) الباحث والناقد والمؤرخ القدير لتفقد ساحة الفكـر الملتـزم والبحث العلمي الرصين بفقده رمزاً متميزاً من رموز العلم والأدب، أبـدع بتفـوق واقتدار كمدرس ومحقق ومترجم، وأثرى مكتبة الأدب بما ينوف عن المئـة مؤلـف عبر مسيرة متألقة بالعطاء الثر والإبداع.

غادرنا إحسان عباس في عمان عن عمر يناهز الثمانين عاماً أنفق منها سـتين عاماً للإنتاج المفيد في سائر المجالات الثقافة العربية من تـاريخ الأدب إلـى النقـد الأدبي القديم إلى نشر نصوص الأرقى في تراثنا الفكري شعراً ونثراً وتاريخاً وفقهاً إلى النقد الأدبي الحديث وشعر الحداثة مروراً بتاريخ الإسلام والأدب السياسي إلـى الترجمة في الرواية والعلوم الإنسانية والنقد الأدبي.

في قرية (عين غزال) من ضواحي (حيفا) على شاطئ فلسطين الغاليـة، ولـد إحسان عباس عام ١٩٢٠، وأكمل مراحل تعليمه حتى تخرجه في الكليـة العربيـة بالقدس عام ١٩٤١، وانتقل إلى القاهرة لينال من جامعتها شهاداته في البكـالوريس

والماجستير والدكتوراه، متتلمذاً على الدكتور طه حسين وأحمد أمين فاجتمعت له ثقافة موسوعية غنية مكنته من تأسيس اتجاه جديد في النقد الأدبي وتناول التراث الفكري العربي من جانب، وشعر الحداثة من جانب آخر.

عمل بداية في التدريس بكلية (غوردون) – جامعة الخرطوم فيما بعد – حتى ١٩٦٢، لتستقبله بعد ذلك الجامعة الأمريكية في بيروت ليشغل فيها جانب التدريس منصب رئيس دائرة اللغة العربية ولغات الشرق الأدنى، ويعمل في الوقت ذاته مديراً لمركز الدراسات العربية ودراسات الشرق الأوسط، ورئيساً لتحرير مجلة الأبحاث، ولما تقاعد عام ١٩٨٥ توجه إلى عمان ليحاضر في الدراسات العليا في الجامعة الأردنية ويعكف على كتابة (تاريخ بلاد الشام) الذي أصدر منه عدة مجلدات، وقد تخرجت على يديه قوافل من الباحثين أشرف على رسائلهم الجامعية.

برز اهتمامه بالنقد الأدبي بداية بالبياتي والملائكة، ثم التفت إلى السياب فأبدع دراسته الراقية عنه، وتنقل بعد ذلك لردسالة اتجاهات الشعر العربي المعاصر، وتاريخ الأدب في الأندلس، ونقد الشعر العربي القديم، ولم يحل انشغاله في كتابه تاريخ بلاد الشام دونه ودون عمله في تحقيق النصوص التراثية ودراستها، فأعاد تحقيق (معجم الأدباء) لياقوت الحموي، و(التذكرة الحمدونية) في عشرة مجلدات، إضافة إلى عشرات البحوث في النقد والأدب والتاريخ، وكان المثقفون والنقاد في أرجاء الوطن العربي يتلقفون ألوان عطاءاته بتقدير وثناء كبيرين مما أهله للاعتزاز والتكريم طوال مسيرته، فتوجت جهوده بالعديد من الجوائز التقديرية، إذ نال جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي عام ١٩٨٠ عن دراساته للشعر العربي المعاصر وجائزة (سلطان العويس) من دولة الإمارات العربية المتحدة عن أعماله النقدية إضافة إلى أوسمة رفيعة من جهات مختلفة، وكان إحسان عباس طوال تلك المسيرة الحافلة مثلاً في التواضع ودماثة الأخلاق، وعدم المحاباة، لا يكترث بما قد يثار حوله من غبار، فقد رسم لنفسه هدفاً وأخلص له، وهو أن يغتنم وقته كله في العمل والإنتاج وفي سنواته الأخيرة انكب المفكر الراحل على كتابة سيرته الذاتية

التي سماها (غربة الراعي) واصدر الجزء الأزل منها، وقد عكست هذه السيرة إحساساً واضحاً بالفجيعة التي غرسها في جوانحه ضياع الوطن وغربته عنه، وتكالب الكوارث على الأمة تلبد الكون بغيوم اليأس والعجز عن مواجهة قوى العدوان والطغيان العالي.

أقعد المرض إحسان عباس في فراشه بعمان، وفي آخر زيارة له رأيت أمامي قديساً هده الحزن وهو يشهد فلسطين تزداد بعداً، وبغداد تتهاوى تحت ضربات أبالسة الشر الذين أمعنوا فيها تحطيماً وتهديماً لأرقى صور الحضارة الإنسانية، ثم هاهو يغمض عينيه النبيلتين اللتين نذرهما لتنوير دروب المعرفة أمام الأجيال، وأعطى ضوءهما لكل ما هو مفيد وخير إلى آخر لحظة من عمره، لكن مثله لا يموت بل يبقى حياً على مدار أيام.



د. نقولا زيادة :

نواجه العولمة بحضارتنا المتطورة وعطائنا الخلاق

ينتمي الدكتور نقولا زيادة، أستاذ التاريخين الحضاري والثقافي للإسلام الوسيط إلى جيل المؤرخين العرب الكبار في العصر الحديث، الذين قرأوا التاريخ العربي قراءة علمية حيادية، مستفيدين من الحقول المعرفية المتعددة للدكتور زياد اثنان وثلاثون كتاباً في العربية وسبعة كتب بالإنكليزية كما ترجم ثمانية كتب إلى العربية وله مئات الدراسات والمقالات المنشورة في الدوريات العلمية العربية والأجنبية وعشرات الزوايا الإذاعية.

- **بداية نود أن نتعرف إلى الجوانب التي أسهمت في تكوينك المعرفي والإنساني؟**

عندما تخرجت في دار المعلمين في القدس عام ١٩٢٤ وبدأت التدريس، كنت واحداً من تسعة عشر شابا تخرجوا معي، في نهاية المطاف اثنان منا برزا فقط وأكثر ما وصل إليه الباقون أن أصبحوا مدراء مدارس في قرى نائية.

لقد أردت منذ البداية وحتى قبل أن أذهب إلى جامعة لندن، أن أكون شيئاً غير الآخرين.

بدأت اهتم بالتاريخ القديم منذ كنت أدرس في عكا، وفي السنوات العشر التي قضيتها هناك كانت لدي نية وعزم على تنظيم أوقاتي والاستفادة منها على الوجه الأكمل، فكنت أعلم واستعد لامتحاناتي في عكا وأثقف نفسي في الوقت نفسه وحتى تستطيع أن تفعل ذلك، تحتاج إلى قدرة خارقة على ترتيب أمورك اليومية، وكان لي ذلك.

توفي والدي وأنا ابن ثماني سنوات وتوفيت، والدتي ولم أبلغ السابعة عشر من

عمري وأصبحت مسؤولاً عن أسرة كنت الكبيرة فيها، وهـذه المـسؤولية بالـذات جعلت مني إنساناً صبوراً شديد المراس دائب السعي والبحث عما هو مفيد ومثمـر .. أضف إلى ذلك إن إرادتي قوية، فعندما ذهبت إلى إنكلترا لم أفعـل كمـا يفعـل الكثيرون إما أن يتعلموا فقط وإما أن يصبحوا (هملاً) .. أنا جمعت بـين المعرفـة والتسلية، بمعنى أنني أعطيت بعض الوقت للتعرف على النـاس والتحـدث إلـيهم، وملاحظة كل ما هو حولي لدى الشعب الإنكليزي، وفي سيرتي الذاتيـة: (أيـامي)، ذكرت أنني عندما ذهبت إلى إنكلترا أخرجت كل أفكاري وعرضتها للتهوية فـالعفن منها تخلصت منه والجيد أعدته معي وأضفت إليه، والباقي أنني أتعلـم حتـى الآن وأقرأ وأجد أشياء جديدة وأجرب تعليم الناس عن طريق الكتابة حينا، وعن طريـق مباشر أحياناً أخرى .. ومن أراد أن يطلع على جوانب سيرتي الذاتية يلزمه قـراءة كتاب (أيامي) في جزئيه الأول والثاني، فهو يحمل الكثير من الكـشف والإضـاءة على الجوانب الإنسانية المعرفية، ولا أظن أن أحداً من الذين كتبوا تـاريخ حيـاتهم من أجيالي عرّى نفسه كما عريت نفسي في هذا الكتاب.

- **حدثنا عن منهجك في كتابة التاريخ وأدواتك المعرفية؟**

طوال حياتي في البحث التاريخ لم أتمم إلى أي مدرسة من مـدارس التـاريخ التي ظهرت في القرن الماضي، أو تلك التي ظهرت في القرن الحاضر، كمـدارس التفسير الديني والتفسير الأدبي وغيرهما .. كل هذه المدارس تركتهـا جانبـاً ولـم أعرها اهتماماً، وإذا كنت بعيداً عن مدارس البحث التاريخي بمنظوماته المعرفيـة، فلا أنكر أنني اختطفت منهجاً خاصاً يتلخص في البحـث عـن المـادة الموجـودة (أقمشها) وأرتبها وأنظمها فإذا وجدت أن شيئاً يستحق الكتابة فيه كتبت، وإلا ركنتـه جانباً، هذا هو منهجي الذي أغناني عن المدارس التاريخية وألاعيبها، والمسألة فـي تصوري لا تستحق أكثر من ذلك، ومشكلة المؤرخين الذين ينتمـون إلـى مـدارس تاريخية معينة أنهم يفتشون عما يثبت وجهة نظرهم من هذه الزاوية أو تلك... أمـا

أنا فأريد أن أثبت وجهة نظر التاريخ غير الأيديولوجية.

استيلاء لا استيراد:

- **قلت ذات مرة إن اللغة هي آلة الحضارة إزاء ما قد جرى للعرب من تهميش على المسرح الدولي، ما الذي ينتظر منهم نحو لغتهم التي جرى تهميشها واستبعادها من ساحة الكشف والبحث؟**

اللغة آلة الحضارة هذا صحيح، ولكن إذا لم تكن هناك أفكار جديدة تتوالد فاللغة تموت، وهذا ما أصاب اللغة العربية منذ القرن الثالث عشر وحتى الآن .. جمدت اللغة العربية تعبيراً وأسلوباً وفكراً، الآن في العصر الحديث نحن غير قادرين على أن نقرر ما الذي نريد؟

كيف يمكن لنا أن نتعلم نحن في المشرق العربي، وما زلنا لا نعترف بوجود الحضارة الغربية مثلاً؟ إننا في حاجة إلى حالة من التفتح، وسعة الأفق، وعندما تتوافر هذه الحالة تبدأ الأفكار بالتوالد. وحينها تصبح اللغة مجبرة عن طريق أبنائها عن التعبير عن هذه الأفكار والآراء المستولدة لا المستوردة.

تاريخ منصف:

- **هل يمكن أن يكون المؤرخ موضوعياً في تحليل المادة التاريخية وتفسيره لها؟**

التاريخ تفسير في الدرجة الأولى، وما دام التاريخ تفسيراً، فهو إذن يحتمل الصواب والخطأ على حد سواء .. كما يحدث في العلم، فقد نقوم بتجربة علمية خاطئة نكررها فنأخذ بها، وحيث أننا لا نستطيع أن نفصل المؤرخ عن ارتباطه العضوي بالجماعة التي ينتمي إليها، يصبح من الصعب أن يكون هذا المؤرخ عالما دقيقا كما عالم الكيمياء، ولا بد من أن تخرج من ثنايا عمله التاريخي أشياء من قبيل التفاخر وحجب العيوب والتناسي.

بالنسبة إلي، أحاول أن أكون منصفا لنفسي كمؤرخ، أما بالنسبة إلى الموضوعات التي أقوم بالكتابة عنها، فلا أنتظر منها نتيجة تقارب نتائج علماء الكيمياء في مختبراتهم، فهذا شيء غير وارد وإن كنت أظن أن مخبر المؤرخ هو عقله.

- **ما هو مفهومك لفكرة (إعادة كتابة التاريخ) وكيف يمكن التوصل إلى صياغة رؤية قومية شاملة لإعادة كتابة التاريخ العربي؟**

هناك محاولات كثيرة كانت تتعلق بما يسمى إعادة كتابة التاريخ، الواقع أن الذي نحتاجه أن نبدأ بكتابة التاريخ العربي، نحن لم نكتبه بعد، كتبت منه فصولا هنا وهناك فتاريخ العرب من حيث أنه تاريخ مجموعة من الشعوب نسميها الأمة العربية شيء طويل المدى والأمد ويحتاج إلى كثير من العمل.

وأظن أن الذي يجب أن نقوم به أن نكثر من الكتابات الجزئية المبنية على البحث الجدي، حتى يتجمع منها ما يمكن أن يعطينا المادة لكتابة التاريخ.

إن كتابة تاريخ العرب من ناحية قومية ليس بالأمر اليسير في نهاية الأمر اليسير، لأن المؤلف الذي يكتب التاريخ يجب أن يعتاد على أن لا ينظر إلى هذا التاريخ كشيء مقدس، بل أن ينظر إليه كتاريخ لشعب أو أمة مثل بقية الأمم لها أخطاؤها ولها حسناتها، وعندئذ نستطيع أن نخرج فلسفياً وتفكيراً من قضي الغيبيات والفردوس المفقود، فهذه الأمور تمنعنا من العمل الجدي، وطالما نحن لا نسمح لأنفسنا بأن نعمل، فمعنى ذلك أننا لن نسمح لأنفسنا بكتابة صحيحة لتاريخنا من جهة عادية بل قومية، هذه هي المشكلة الرئيسية في كتابة التاريخ.

- **ما السبيل برأيك للدفاع عن الفكر التاريخي عندنا وبالتالي ما هو دور هذا الفكر في تحقيق نهضة عربية شاملة قومية التوجه؟**

عبارة الفكر التاريخي عبارة فضفاضة فيما اعتقد، وقد تختلف أنا وأنت على

تفسيرها، لذلك لنأخذ المسألة بشكل عملي الفكر التاريخي هو ما ينتج عن أمرين: أولا تفكيرنا في تاريخنا، والثاني هي صياغة هذا التفكير بحيث يكون زاد للقراء بقطع النظر عن مستوى القارئ، سواء كان عالما أو قارئا أو حتى عادياً أو حتى إذا كان أمياً...

السؤال الذي ينبغي طرحه هو: هل استطعنا حتى الآن إيجاد مدرسة تفسرنا؟ الجواب بالنفي فنحن ما زلنا في طريق تكوينها.

- **لقد درست تاريخ الأديان ولكنك اخترت التاريخ الإسلامي موضوعاً لرسالة الدكتوراه التي حصلت عليها من جامعة لندن لماذا الإسلام وأنت مسيحي؟**

صحيح أنني مسيحي، ولكنني عربي أسكن في بلاد إسلامية، وكنت درست التاريخ اليوناني والتاريخ الروماني وتاريخ الأديان .. وربما إحساسي بالانتماء لتاريخ هذه البلاد جعلني أختار التاريخ الإسلامي موضوعاً لرسالتي، وربما تكون مصادفة بحتة، ليس عندي جواب دقيق الآن فلقد مضى على هذا أكثر من خمسين عاماً.

التاريخ الإسلامي موضوعاً لرسالتي وربما تكون مصادفة بحتة ليس عندي جواب دقيق الآن فلقد مضى على هذا أكثر من خمسين عاماً.

- **أصولك الفلسطينية، ولادتك الدمشقية، طفولتك المتنقلة بين كل من دمشق وفلسطين وبيروت والأردن، شبابك المرتحل ودراستك في جامعات أوربا، ومن ثم عودتك إلى بيروت لتستقر فيها، لماذا اخترت بيروت وليس أي عاصمة عربية أخرى؟**

لأنني عندما عدت من بريطانيا سنة ١٩٤٩ وجدت عملاً في الجامعة الأمريكية في بيروت فعملت مدرساً فيها لأكثر من أربعة وعشرين عاماً وبقيت فيها وربما السبب لقمة العيش ولا شيء آخر، فالعمل الوحيد الذي أتيح لي حينها كان في

الجامعة الأمريكية في بيروت، ولو كان قد أتيح لي عمل في دمشق أو بغداد أو السودان لعملت وعشت هناك، ومع ذلك، وبعد كل هذه السنوات أنا لا اعتبر نفسي فلسطينياً ولا سورياً ولا لبنانياً، أنا مواطن عربي من بلاد الشام وكما يقول الشاعر:

بكل ربع من ربوعك حرمة وهوى تغلغل في صميم فؤادي

- **في حوار سابق معك قلت: أنك لا تحب العمل السياسي ولم تحبه يوماً، ولكن من يقرؤك جيداً ويستمع إلى أحاديثك ومحاضراتك لا بد أن يلمس خطأً سياسياً خفياً فيما تقول وتكتب، ما رأيك؟**

أنا لا أحب العمل السياسي قطعاً، إنني أحب أن أكون باحثاً في التاريخ وليس بطلاً من أبطاله، وإذا كان البعض يجد في أبحاثه نفساً سياسياً فليستفد منه السياسيون إذا أرادوا، ولكن ما أقصده في أبحاثي هو البحث العلمي والتاريخي فقط، وأترك السياسة لأصحابها، وكفى الله المؤمنين شر القتال.

- **في محاضرة لك بمكتبة الأسد قلت، أنه لم يكن هناك صدام حضارات وليس حوار حضارات؟**

يجب في البداية أن أوضح مفهوم حوار الحضارات، ومعنى الحضارة كما أفهمها أنا هو كل شيء يتعلق بشعب أو أمة من المطبخ إلى علوم الفلك والفلسفة والفيزياء النووية، بالمعنى الشامل هي ثقافة تلك الأمة لأنه لا يمكن أن نتحدث عن شعب ونقول إن له حضارة وننسى ثقافته، لأن الحضارة هي كل نواحي الحياة الثقافية من سياسة وفن وعبادات وتقاليد وعادات، أما حوار كما أفهمه أنا معناه تبادل الرأي، أي أن يكون هناك رأي ورأي آخر، إما أن يتفق الرأيان أو أن يختلفا، ولا أستطيع أن أفهم الحوار على غير هذا الأساس وبالتالي فلا حوار ولا صدام بين الحضارات.

- **إذن هل تعتقد أن ما حصل عبر التاريخ ما هو إلا تزاوج وتلاقح لحضارات**

الأمة الواحدة .. وترادف مع حضارات الأمم الأخرى المجاورة والمفتوحة.

وليس حواراً أو صدماً للحضارات؟

حتى نكتشف إن كان حوار الحضارات أمراً تاريخياً صحيحاً أم أنه قضية مشبوهة في الأصل علينا أن نستعرض ما مر على منطقتنا من حضارات كثيرة ولنستشف إذا ما حصل بينهما حوار أم لا.

من أقدم حضارات بلاد الشام والعراق كانت الحضارة السومرية التي تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد، ومن أهم ما أنتجت تلك الحضارة اختراع الكتابة المسمارية حيث نكتشف أن السوميريين كانوا شعباً يدون ما يخطر له من أفكار وعادات ومعتقدات حتى أساطيره كان يدونها.

بعد السوميرين أتى الأكاديون في الألف الثالث قبل الميلاد، وكانوا أقرب إلى البدو منهم إلى الحضر، ولكنهم كانوا أقوى، فتغلبوا على السومريين دون أن تتحاور حضارة هؤلاء مع حضارة أولئك .. الذي حدث أن الأكاديين.

عندما جاء الإسكندر الكبير، واحتل المنطقة، كانت لديه طموحات في نشر ما عنده من أفكار يونانية يعتبرها أساساً للتمدن والرقي، وكان متحمساً لدرجة حاول فيها أن يفرض هذه الأفكار التي ترجم بعضها عبر بناء المدن الحصينة على الطراز اليوناني، ولكنها لم تكن يونانية بالكامل فيها فقط فكرة المدينة من حضارة وأدب وثقافة اليونان، وانتشرت حينها اللغة اليونانية وأصبحت لغة الثقافة والشعر والأدب.

خلف الإسكندر، السلاقسة في بلاد الشاك والبطالمة في مصر، فامتزج النظام القائم في المنطقة مع النظام اليوناني الديمقراطي، المبني على فكرة المدينة الواحدة لقرنين من الزمن وأحدث نظاماً جديداً، جعل من المنطقة ممراً تجارياً واسعاً وصل الهند والصين عبر ما يسمى بطريق الحرير، الذي هو أطول وأقدم طريق دولي بري نشأ في العالم القديم حيث يبلغ طوله نحو عشرة آلاف كيلو متر.

جاء الرومان في القرن الأول قبل الميلاد وحكموا البلاد لأكثر من ثلاثة قرون

وليس عند الرومان فكر وثقافة اليونان ولكنهم كانوا حكاماً أقوياء وقادة أشداء، علموا الناس فنون الحرب وفنون العمارة من بناء الهياكل والقلاع، أخذ الناس ما أعطتهم إياه الحضارة الرومانية من فنون لأنها أشياء علمية ومن السهل أن يتقبلها الناس ويتعلموها، وأيضا لم ينشأ بين الرومان واليونان أي حوار حضاري، وبالتالي لم ينشأ حوار بين حضارتيهما وحضارة المنطقة التي حكموها، بل نشأ عن هاتين الحضارتين وحضارة المنطقة المحكومة حضارة هي مزيج للكل سميت الحضارة الشامية.

عندما جاء الإسلام انتشر في رقعة هي الأوسع في العالم امتدت من الهند إلى أسبانيا وشمال افريقيا، وجاءت مع الحضارة الإسلامية لغتها العربية التي سرعان ما انتشرت في المنطقة لأنها لغة القرآن الكريم، وأصبح كل ما كان موجوداً من حضارات مختلفة في المنطقة في متناول هؤلاء الفاتحين الذين بدأوا يمتصون شيئاً فشيئا هذه الحضارات، فنشطت الترجمة ونقلت الآراء والعلوم والأفكار من السند والهند واليونان والإغريق والرومان، وكان النقل عشوائيا محكوما بما هو متوفر من الكتب القديمة، وبمن يستطيع ترجمة هذه الكتب من لغاتها المختلفة إلى العربية نستخلص مما ذكرنا أنه لن يكن في هذا العمل الذي تم عبر الفتوحات شيئا اسمه حوار بل كانت الحضارات تلتقي وتختلف، تجتمع وتفترق أو ترفض، تقتبس، تأخذ تبتلع، تهضم، لتنتج شيئا آخر، وتنشأ مجموعة من الأفكار والنظم والفنون والعادات الجديدة ولكن دون أن تتحاور أو تتبادل الرأي.

- **إذن ما سر هذا الصخب من حولنا الذي يتحدث عن صراع الحضارات، وما أسباب تلك المخاوف من غزو ثقافي سيجتاح المنطقة باسم العولمة؟**

كل هذه الضجة الدائرة في العالم عن حوار أو صراع حضارات وعولمة، ما هي إلا موضة، نعم مجرد موضة، والناس يحبون الموضة لأن فيها موضوعا جديدا للثرثرة والإعلام وحديثا للإذاعات والفضائيات، ومادة للمناظرات والمفاوضات

والمؤتمرات، والعولمة ليست جديدة كما يظن البعض، بل كانت موجودة في كل عصر من عصور التاريخ، وفي كل زمن وجدت فيه دولة كبيرة قوية ومسيطرة على مكان واسع من الأرض تفرض عليه حضارتها وتطمس بعض معالمه، كان هناك نوع من العولمة.

والعولمة ليست بالضرورة انتشار نوع من نماذج الحياة وفرضها على الآخرين، لأنه رغم كل الحضارات والفتوحات التي مرت بالمنطقة، ظل لكل منطقة خصوصيتها وعاداتها وتقاليدها في المأكل والملبس والعادات، والذي حصل هو تبديل طفيف أو تطور في البنية الأساسية لتلك العادات فنحن نجد أن أطباق الطعام تنوعت ودخلت مواد جديدة إليها من خضار وفواكه وتوابل لم تكن موجودة من قبل، بل انتقلت عبر الفتوحات والحضارات الأخرى .. وفي الأزياء نجد أنه توفرت أنواع جديدة من الأقمشة والخيوط وتغيرت الألوان، ولكن لكل منطقة زيها التقليدي حتى العقائد حصل لها نفس الشيء، فإننا نجد الإسلام هو في كل مكان، ولكنه اختلف في بلاد الشام عن الإسلام في مصر أيام المماليك، وفي الأندلس عن الإسلام في شمال إفريقيا وأماكن أخرى، وتغيرت بعض الشيء النظرة التي بدأ الناس ينظرون بها إلى الإسلام في كل مرحلة، فتعددت المذاهب والمدارس الفقهية ولكن دون المساس بجوهر العقيدة الإسلامية.

وتغيرت العادات المتعلقة بالأسفار ففي بداية القرن العشرين حين جاء القطار إلى بلادنا فأصبح الناس يستعملونه للانتقال بدلاً من الجمال وعربات الخيل، برأيي كل هذا لا يصح أن نسميه عولمة بل هو قبول الشيء الجديد واستعماله والاستفادة منه.

- **هناك من يوافقك الرأي أن العولمة ليست ظاهرة جديدة ويقول: إنه كانت هناك عولمة قديمة تعاظمت سطوتها على النظام الدولي، ووسعت إطار أسواقها فتجاوزت حدود الدول الأخرى الضعيفة عبر منافسة غير متكافئة مع**

قدرات وصلاحيات وإمكانيات تلك الدول الثقافية والعلمية والاقتصادية والإنتاجية، هل بلادنا المقصودة بتلك الدول الضعيفة التي تتجاوزها الدول الكبرى؟

نعم نحن متخلفون متأخرون وليس لدينا ما نواجه به العالم، حيث لا نملك ما نقايض به ما عندهم. الغرب لديهم أشياء كثيرة أحدث وأكثر تطوراً وفائدة مما عندنا وليست بلادنا إلا سوقاً لأشيائهم التي تأتينا جاهزة نقبلها ونشتريها وندفع ثمنها والعولمة الحديثة هي سوق فكري وأدبي سوق فني علمي وتقني وسوق إنتاجي وأسواق أخرى مختلفة هذه الأسواق لا تريد إلا أن تبيع منتجاتها لمن يشتري ويدفع أكثر وإذا بقينا بحاجة دائمة لأن نشتري ما تنتجه هذه الأسواق نكون قد وقعنا في فخ العولمة.

- **برأيك ما العمل لتجنب الوقع في فخ العولمة التي يصورها البعض بالغول الذي سيلتهم تاريخنا وثقافتنا وحضارتنا؟**

إذا قبلنا تجاوزاً فكرة أن العولمة هي سوق إنتاجي ضخم يعتمد على إستهلاكنا، فأول ما يمكننا فعله هو رفضنا لأن نكون مستهلكين فقط، وإصرارنا على أن نكون منتجين ومبدعين نقدم الأفضل ونصنع الأجود ونصدر الأحدث مما هو موجود في سوق العولمة، فنستغني عن بضاعتها ونقف في مواجهتها وننافسها حتى نغلقها وربما نغزوها.

وإذا كانت العولمة هدفها النيل من ثقافتنا والقضاء على حضارتنا، فعلينا أن ننمي هذه الثقافة وندعمها ونحدثها ونقويها، ونحمي حضارتنا بتهذيبها وتوسيعها وتطويرها، لننعش هذا الوطن ونقويه ونحسنه، وذلك بالاستفادة من خبراته واستثمار ثرواته وتطوير منتجاته وتحديث صناعاته، حتى نستعد لمواجهة العولمة من موقف القوة وليس بالضرورة أن نقف منها موقف الخصم. وإذا لم نستدرك ذلك، ولم نتحرك بسرعة ستبتلعنا العولمة ولا شك، لأن الحارس، الذي يريد أن يحمي

ممتلكاته لا يقتل السارق بل يحصن أبوابه ويرفع أسواره ويمسك سلاحه ويقف مستعداً لصد الاعتداء.

من هنا يبدأ طريق المعرفة

كانت المحاضرة حكاية رجل تجاوز الخامسة والتسعين من عمره، حمد ربه كثيراً لأنه رزقه بشيء من قوة الذاكرة والذكاء، ومكنه من أن يستفيد منهما في وضع واحد وأربعين كتاباً في التاريخ العربي الإسلامي باللغة العربية، وستة بالإنكليزية، واثني عشرة كتاباً آخر مترجماً عن الإنكليزية، والألمانية، بقليل من المساعدة، صعد السلم بتؤدة ليجلس على كرسي المحاضر وعصاه بين يديه لا تفارقه ورغم شعره الأشيب لم يتخل الجد عن السخرية والمرح قال: (بعضكم سيخرج من هنا وهو نادم لأنه جاء) ضحك الجميع ثم بدأ يروي لنا القصة:

- **لماذا؟**

(الذكاء لا يعلم المرء الأشياء ولا بد أن يكون هناك من يعلمه إياها) بدأ نقولا زيادة وتابع (ولدت في دمشق لأب غزير المعرفة وأم شبه نظامية، وعندما توفي والدي وأنا في سن السابعة رجعنا إلى فلسطين وأقمنا في ثلاث مدن مختلفة هي طولكرم والناصرة وجنين، فكانت دراستي الابتدائية ممزقة وموزعة في ثلاث منها في دمشق وأربع في فلسطين، ولذلك كان علي أن أتدرج في الحصول على هذه المعرفة بما تيسر لي من سبل، الخطوة الأولى كانت في التعرف على الأشياء وقد تعرفت إليها ليس لأنني ذهبت إلى مدرسة ولكن لأنني أردت أن أتعلم).

وبدأ المؤلف الشيخ يصف المدارس التي درس بها وما تعلمه في كل منها (الفرير في دمشق تعلمت فيها القراءة ثم انتقلت إلى مدرسة إنجيلية ثم إلى فرع آخر من مدرسة الفرير، ولم يكن المدرسون كلهم في المستوى نفسه، أما مدرسة طولكرم فكانت مدرسة رسمية للحكومة العثمانية في أواخر عهدها، وكان بين أيدينا كتاب للقراءة لكنا لم نتعلم شيئاً من الحساب، وفي جنين كانت المدرّسة الرسمية التركية قد أقفلت وأعطي المبنى لصف الضباط الألمان الطيارين فأصبحت مدرستي هي الأزقة

والشوارع، وبعد الاحتلال البريطاني افتتحت حكومة الانتداب مدرسة رسمية فدخلتها وفي كل المدارس التي درست فيها كل السؤال الوحيد الذي أحصل على جواب له هو (ما اسم هذا)؟ لكنه لم يتسن لي مرة أن أجاب على سؤال (لماذا) وفي سنة ١٩٢١ وكنت في الثالثة عشرة والنصف دخلت دار المعلمين وللمرة الأولى استطعت أن أحصل على أجوبة عن أسئلتي وبدأت أتدرب على سؤال (لماذا) فالمعرفة تبدأ بهذا السؤال.

- **الإدارة:**

بدأت أعلم في مدرسة عكا الثانوية عام ١٩٢٥ مواد التاريخ والجغرافيا واللغة الإنكليزية ولم أكن قد تجاوزت الثامنة عشرة ولم يكن لدي من المعلومات ما يكفي فكنت أتعلم الموضوع في المساء لأعلمه للطلاب في الصباح، وأصبحت مسؤولاً عن الإجابة عن كلمة لماذا) فرحت أبحث عنها، مما مكنني من أن أبدأ المعرفة، وبدأت آفاقي تتسع وخلال عشر سنوات من التعليم استطعت أن أحصل على كم كبير من المعرفة والأهم إنني تعلمت أساليب الحصول عليها، حتى أنني اجتزت امتحاناً أقامته وزارة المعارف في ذلك الوقت يعادل درجة الليسانس، فالتعليم بحاجة إلى إرادة اكتشفت بعد ذلك أنه إذا كان علي أن أعلّم التاريخ فيجب أن أعرف أموراً أخرى غير التاريخ، ولذلك بدأت بتثقيف نفسي، ورحت أختار الكتب التي تلزمني وأتتبع سوق الكتب باهتمام ومن حسن حظي أن جامعة اكسفورد نشرت في تلك الفترة سلسلة من الكتب اسمها (مكتبة البيت) أنجزها مجموعة كبيرة من الاختصاصيين وتناولوا فيها أنواع المعرفة المختلفة وأذكر أن المكتبة نشرت ثلاثمائة وخمسين مجلداً قرأت منها مئة وخمسة وعشرين مجلداً، لكن حتى ذلك الوقت كنت أراكم المعرفة لكن لم أكن لدي من أحاوره.

- **الحوار:**

في سنة ١٩٣٥ وكنت بلغت الثامنة والعشرين من عمري، حصلت على بعثة للذهاب إلى جامعة لندن لدراسة تاريخ الرومان واليونان، وعندما أصبحت هناك أدركت أن لدي كمية كبيرة من المعرفة في هذا التاريخ لكنها لم تكن نتيجة حوار ولم تكن نتيجة مناقشة مع آخرين فشعرت آن مخزوني قد تضاءل وتلاشى، فأخرجت هذه المعرفة من جديد وحاولت استعادتها ليس من حيث التفاصيل ولكن من حيث الأسلوب ولذلك استطعت أحياناً كثيرة أن أملي على الأستاذ ما أردت أن يعلمني إياه.

وكان أستاذ التاريخ الروماني رجلاً واسع المعرفة اسمه ماكس كيري، فسجلت اسمي لديه وعندما طلبت منا أن نقابل الأستاذ في وقت معين، فوجئت بأنني الطالب الوحيد المسجل لديه، وقال لي: إنك لا تنتظر مني أن أحاضر لك بل سنتفق على أن تكتب مقالاً قصيراً كل أسبوع لتناقشه، وفي السنة الثانية سجلت لدى الأستاذ كيري أيضاً وفوجئت مرة أخرى أنني الطالب الوحيد لكنه طلب مني أن أكتب ست مقالات في السنة فقط، لكنه طلب أن تكون عميقة وطويلة من نوع البحث العلمي، وهذه التجربة أضافت إلى خبرتي الكثير لدرجة أنني عندما قدمت الدكتوراه استغنيت عن الإشراف، فالمشرف الذي عين لي كان مشغولاً بشكل دائم، فقدت الرسالة بإشرافي وكل ذلك لأنني سعيت وراء المعرفة بجدية.



(الأمنية [illegible])

لو أني أقدر أن أمحو من هذا الكوكب
[illegible] من كل شعوب الأرض
[illegible] البغض
لو أني أقدر لو بيدي
[illegible] فاصل [illegible]
[illegible] أن أجعل هذا الكوكب
[illegible] بالماء الصافي
[illegible]
[illegible] الأحمر
[illegible] الشر

لو بيدي
أن أمسح من هذا الكوكب
صفحات الفقر
لو أني أقدر لو بيدي
إذا أحنيت رؤوس الظلم
[illegible]
[illegible] الدم

لو أني أملك لو بيدي
أن أمسح [illegible] المتعب
[illegible] الحيرة والأحزان
[illegible] والاطمئنان
أن أمسح العيش الآمن

لو أني أقدر لو بيدي
[struck-out line]
لكن ما بيدي شيء

[illegible]

لو أني أملك أن أملأ هذا الكوكب
بورود الحب
تنتشر في كل الدنيا
أشجار الحب
ويصير الحب هو الدنيا
ويصير الحب هو الرؤيا
ويصير الحب هو الدرب

لو بيدي أن أحمي هذا الكوكب
من أشباح [illegible]
لو بيدي [illegible]
أن أمسح عن هذا الكوكب
كابوس الحرب

فدوى طوقان:

سنديانة فلسطين باقية في ذاكرة الوطن

نجح الموت بتغييب وجه ساطع من وجوه الشعر العربي المعاصر وأضيف اسم جديد إلى كوكبة الراحلين من شعراء العروبة وأدبائها على مدى السنوات الأخيرة كان قد ودعنا الجواهري والبردوني والبصير والقباني وثلة المفكرين المرموقين: شاكر مصطفى، وبديع الكسم، وعادل العوا، وإحسان عباس، وادوار سعيد وغيرهم ممن أخلوا أماكنهم للفراغ والجدب بغير تعويض، وهاهي فدوى طوقان – سنديانة فلسطين الشامخة – تودعنا وتختم ٨٦ عاماً من الصبر المتوهج شعراً وألقاً.

ما تزال تلك الأمسية من أمسيات مهرجان جرش للثقافة والفنون ماثلة في خاطري دلفت إلى الصالة الرحيبة فإذا أمام حشد من الأدباء والإعلاميين، تحلقوا حول إنسانة وادعة، بقامة نحيلة، وعينين مشعتين بضوء باهر، منصتين إليها وقد استرسلت لتستعيد بصوت هامس، صوراً من حياة عريضة، لشاعرة مجيدة طبقت شهرتها الآفاق منذ خمسينات القرن الماضي، وبالذات مع صدور ديوانها الشعري الأول: (وحدي مع الأيام) ويومها ردد المثقفون وهواة الأدب على حد سواء قصائدها الرومانسية بطرب وإعجاب، ولما اتخذت مجلسي في الجمع رحت أدون في مفكرتي مقاطع من حديث شجي:

- أنا والحزن توأم تجربة الفقد المكبكر "لأخي إبراهيم" ومن ثم لشقيقي نمر– تركت في كياني حرجاً لم يندمل فأنا "انتيغونا سوفوكلس" الذي يمثل التراجيديا في المسرح اليوناني.
- لقد قطعت في حياتي مسيرة شعرية طويلة جئت في زمن كان شعر المرأة فيه بدعة، ونحن لو عدنا إلى موروثنا من شعر المرأة العربية وجدناه مقتصراً على الرثاء، شعر الجواري، وشعر رابعة العدوية التي أبدعت في الحب الإلهي،

شعراً حسياً في ظاهره، ودعوة للتقرب إلى الله في باطنه ... وباستثناء العدوية لم تتعد المرأة قديماً دورها في الرثاء، وهو الباب الوحيد الذي أتاح لها الخروج إلى فضاء الشعر، وظلت أغراض الشعر الأخرى محرمة عليها ... لكن شواعر الأندلس كان لهن شأن آخر فقد مارست المرأة العربية حرية لم تعرفها في المشرق وبقيت مشاعرها حبيسة حتى الخمسينات فأتيح لها التعبير والإبداع.

- لقد ظل شعرنا النسائي يحاذر البوح، ويعجز عن التعبير شعراً ونثراً، وبتعبير آخر ظل ينقصه الجنون الوهاج الذي يدفع الشاعر لكسر حواجز الخوف ولا يتردد في التضحية بكل شيء من أجل التعبير.
- حين بدأنا نحن شاعرات الأربعينات انطلاقتنا في فضاء الشعر، وكنا قلة، كان علينا أن نخوض فترة مضطربة، وأدركنا حينها أننا نشق طريقاً صعبة وغير ممهدة ولكننا عرفنا بأن في قدرتنا أن نغمض عيوننا في ارتياح، فذاك ما كنا نستطيعه في حدود زماننا وظروفه الاجتماعية والثقافية، ومع هبوب رياح التغيير وسقوط السقف الفلسطيني عام ١٩٤٨، تغير الناس وتغيرت الدنيا العربية ونقلت رياح التغيير المرأة إلى آفاق الحرية والانطلاق في مختلف المجالات العلمية والأدبية، وبصورة واضحة، راحت المرأة تلامس الحياة ملامسة حقيقية واقعية.
- في الخمسينات ظهرت أسماء كوكبة من الشاعرات العربيات، ولكن نتاجهن لم يكن كبيراً، ولم يكتسبن الشهرة الذائعة التي تحققت للشعراء المعاصرين باستثناء "نازك الملائكة" وفي العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين، وبعد أن كانت المرأة العربية هي الموضوع المرصود في شعر الرجل الشاعر أصبحت ذاتاً شعرية، تكتب بجدية وأمانة نصوصاً شعرية ونثرية لها ما يميزها – ومن يهتم بها من النقاد.
- استعدت عبارات "فدوى طوقان" من مذكرتي ثم عدت إلى ما كتبته في سيرتها

الذاتية (رحلة جبلية ... رحلة صعبة) وقرأت:

- قصتي في الواقع هي قصة البذرة التي لم تر النور، قصة كفاح البذرة مع الأرض الصخرية الصلبة، إنها قصة الكفاح مع العطش والصخرة، ولدت في نابلس بفلسطين عام ١٩١٧ وكانت الحرب العالمية الأولى تزحزح أوزارها ووطن العرب يرنو إلى حياة حرة عزيزة، عشت في بيت أثري من بيوت المدينة القديمة، وفي ذلك البيت وبين جدرانه العالية التي تحجب كل العالم الخارجي عن جماعة الحريم، انسحقت طفولتي وصباي، وجزء غير قليل من شبابي حيث يسيطر الرجال على الأجواء العائلية، وقد أخرجت من المدرسة في وقت مبكر جداً، واضطررت معه للاعتماد على نفسي في تثقيف ذاتي، فحصلت على دورات في اللغة الإنكليزية، ودرست الأدب الإنكليزي، وتأثرت بأحدث مدارس الفلسفة الغربية في أوائل القرن العشرين.

شكلت علاقة فدوى طوقان بشقيقها الشاعر (إبراهيم طوقان) علامة فارقة في حياتها، فهو الذي دفعها إلى فضاء لشعر، فاستطاعت أن تخرج إلى الحياة العامة وأن تشارك فيها بنشر قصائدها في الصحف المصرية والعراقية واللبنانية، وهو ما لفت إليها الأنظار في نهاية الثلاثينات ومطلع الأربعينات من القرن الماضي: لقد كان ظهور أخي (إبراهيم) في حياتي بلسماً لجراحي وهو أشبه بظهور البدر في ظلام دامس، كان بالنسبة لي الشخصية الأهم والأروع والأحسن والأكرم، والأكثر من هذا كان المخلّص والمنفذ من آثار المرحلة السابقة يأتي (إبراهيم) مسلحاً بعلمه وتجربته الثقافية والشعرية بعد تخرجه في الجامعة الأمريكية ببيروت، ومع مجيئه يشرق وجه الله في حياتي. ولكن حياة الشاعرة ما تلبث أن تتلبد بالأحزان، مات أخوها (إبراهيم) عام ١٩٤١ ففقدت برحيله الأخ والصديق والمعلم، وراحت تبكيه وترثيه بلوعة وأسى ... وتوفي أبوها في خضم حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وحلت الكارثة القومية المتمثلة باغتصاب الصهاينة للأرض المقدسة، مما دفعها للمشاركة في خضم الحياة السياسية وإن لم يتعد ذلك الاهتمام العاطفي.

مثل الشعر عند «فدوى طوقان» محاولة لإنقاذ الشاعرة من حصارها، ونوعاً من التنفيس عن المكبوت في أعماقها، ورغبة في الاستفادة منه في كسر الصمت، وهو ما تجلى في دواوينها الأولى: «وحدي مع الأيام ١٩٥٢» «وجدتها ١٩٥٧» «أعطنا حباً ١٩٦٠» «أمام الباب المغلق ١٩٦٧»، وفي هذه المرحلة ظهر تمسك الشاعرة بالبوح الرومانسي المألوف في تلك الفترة، متمثلاً بوصف العزلة والحيرة واللهفة وتحتل الطبيعة مساحة القصيدة بمظاهرها وفصولها ومفرداتها، مع إشارات إلى حب بعيد لم تفصح الشاعرة عنه وإن عبرت ببوح عفيف وتلميحات صوفية، بصوت خافت وإيقاع مترع بالعذوبة والتدفق التلقائي.

ثم توالت أعمالها «الليل والفرسان ١٩٦٩»، «على قمة الدنيا وحيداً: ١٩٧٣» «تموز والشيء الآخر ١٩٨٩» و«اللحن الأخير عام ٢٠٠٠».

كانت «فدوى طوقان» في أعمالها واحدة من شاعرات العرب القليلات اللاتي وصلت الشعر القديم بحركة الحداثة والتجديد، فخرجت من كلاسيكية القصيدة القديمة بسهولة ودون افتعال، وجعلت من خروجها إحدى أهم نقاط قوتها، محتفظة في ذلك بالوزن الموسيقي القديم والإيقاع الداخلي الحديث، وصاغت من ذلك قصيدة غنائية ناسبت ولاءمت نفسيتها الميالة للتفجع وقد اتصف شعرها بالمتانة اللغوية والسبك الجيد مع ميل شديد إلى السردية والمباشرة، وجعلتها جرأتها في مضامينها تتقدم على دروب المشهد الثقافي الشعري العربي، كما أن طرفها موضوع مكانة المرأة وعلاقتها بذاتها وبالآخرين، جعلتها تحتل موقعاً متميزاً بين الشاعرات العربيات خاصة وأنها كسرت الصورة التقليدية لمشاعر المرأة الشرقية وإضافة إلى ذلك تميز شعر فدوى طوقان بطاقة عاطفية، وأجادت في هذا اللون الذي تختلط فيه الشكوى بالمرارة والتفجع وغياب الآخرين.

انتقلت الشاعرة إلى لندن عام ١٩٦٠ وعاشت فيها سنتين، تفتحت فيها أمامها آفاق معرفية وجمالية وإنسانية، وجعلها ذلك على تماس مع منجزات الحضارة الغربية وشكلت نكسة عام ١٩٦٧ دافعاً لها لكسر إيقاع حياتها الرهيب، فخرجت للخوض

في تفاصيل الحياة اليومية الصاخبة، وشاركت في الحياة العامة لأهل مدينتها "نابلس" وهي تحت الاحتلال وبدأت مساجلات شعرية مع المحتل وثقافته وعبرت في هـذه المرحلة عن كرهها الشديد للاحتلال لأنه نقيض كـل شـيء: الطفولـة والمحبـة والسلام.

أصدرت الشاعرة عام ١٩٨٥ الجزء الأول من سيرتها الذاتية: رحلة صعبة.. رحلة جبلية، وأتبعته بالجزء الثاني: الرحلة الأصعب عام ١٩٩٣، وقد ترجم العديـد مـن أعمالها إلى أكثر من ست لغات، ونالت تقدير وتكريم مؤسـسات ومحافـل فكريـة عربية وأجنبية.

هكذا يمثل رحيل الشاعرة «فدوى طوقان» خسارة كبيرة للشعر العربي، فقد كانـت على امتداد نصف قرن شاعرة ذات صوت شفاف حافل بـالترجيع الغنـائي وإرادة المقاومة الصلبة، وكانت رحلتها الجبلية الشاقة معراجاً في سماء الإبـداع، وبرهانـاً على جدارة الصوت الأنثوي المتفرد بأن يتردد في آفاق الجمـال، ويفـتح أبـواب الحرية ويجسد موسيقى لوجود، وإذا كان كبار الشعراء لا يموتون عادة فإن فـدوى طوقان تزكي بغيابها المادي حضوراً متجدداً نقياً في ضمير الأدب العربي.

لو أني أقدر .. لو بيدي

الكوكب الأرضي:
لو أني أقدر أن أقلبه هذا الكوكب
أن أفرغه من كل شرور الأرض
أن أقتلع جذور البغض
لو أني أقدر، لو بيدي
أن أقصي قابيل الثعلب
أن أغسل بالماء الصافي
إخوة يوسف
وأطهر أعماق الإخوة
من دنس الشر
oooooooooo
لو بيدي
أن أمسح عن هذا الكوكب
بصمات الفقر
لو أني أقدر لو بيدي
أن أجتث شرور الظلم
وأجفف في هذا الكوكب
أنهار الدم
oooooooooo
لو أني أملك لو بيدي
أن أرفع للإنسان المتعب
في درب الحيرة والأحزان

نبراس رخاء واطمئنان

أن أمنحه العيش الآمن

لو أني أقدر لو بيدي

لكني ما بيدي شيء

إلا لكن

لو أني املك أن أملأه هذا الكوكب

ببذور الحب

فتعرش في كل الدنيا

أشجار الحب

ويصير الحب هو الدنيا

ويصير الحب هو الرؤيا

ويصير الحب هو الدرب

ooooooooo

لو بيدي أن أحميه هذا الكوكب

من شر خيار صعب

لو بيدي

أن أرفع عن هذا الكوكب

كابوس الحرب

ooooooooo

رجاء لا تمت

يا اخا الروح رجاء لا تمت

أو فخذ روحي معك

ليتني أحمل قلبك ما

يوجع قلبك


لو ترى كم رفع القلب إلى الله
صلاة القلب كي يشفى بروح منه جرحك
يا أخا الروح رجاء لا تمت
نقطة الضوء بعمري أنت
نبراسي المضيء
ابق لي أرجوك
إبق الضوء والنكهة والمعنى
وأحلى صفحة في سفر شعري
تؤجت آخر عمري
oooooooo

بعيداً جداً

(ما زلت أحاور ما لم يوجد
كي أعطيه وجود
وأحاصر كل مساحات
الأمل المنشود
أحبسها في سجن قصيد
يقرع باب الصمت فيغرق هذا العالم في الموسيقى
وأغنى أصفى اشعار الحب المتوهج
للوطن الصعب المفقود
لكن يبقى الأمل المنشود
بعيداً جداً
يستوطن أرض اللاموجود)
oooooooo

صورة ذاتية

(وراءك شوط طويل المدى
سفحت عليه سنين العمر
وكم فلسفتك حياة تمر
على جانبيها بحلو ومر
زوت عنك وجه بشاشتها
وأولتك وجهاً لها مكفهر
خبرت تناقض حالاتها
ولم تدركي كنهها المستتر
وقد حان أن تستريحي وتلقي
عن المنكبين غبار السفر
فحسبك أنك لم تهزمي
ولا حطمتك سهام القدر!)



قصيدة بخط الشاعر

بيتي والحجاج

يقولون بيتي سوف يغدو محجة * إذا ما طوى شخصي القضاء المحتم

يحج له عشاق شعري مواكباً * يقبله هذا، وذاك يسلم

وذاك بكفيه يمس تبركاً * جداره والبعض ساهٍ يعظم

وذاك يشم الأرض منه تيمناً * وهذا على أيامه يترحم

فقلت وهل لي أي بيت يضمني * وعمري طواف مزمن وتبرم

فبيتي مقاهٍ جمة وفنادق * أقيم بها حيناً فأشقى وأهزم

وبيتي زوايا لا تعد سكنتها * وروض وصحراء بها كنت أنعم

وكرسي مقهى كنت أجلس فوقه * وشاطئ بحر فيه أهنا وأحلم

وبيتي خرابات بشعري عمرتها * أجئ لها أبغي الهدوء وأنظم

ستتعب عشاقي طوافاً ورحلة * فيجعل ذا بيتاً وذلك ييمم

أرى حظ عشاقي كحظي تشرداً * فما لهمُ بيتي كما أنا منهمُ

احمد الصافي النجفي

٢٩/٧/١٩٦٥

* قصيدة بيتي والحجاج .. كتبها احمد الصافي بخط يده عام ١٩٦٥ .

أحمد الصافي النجفي:

أنا أجلو مرآة روحي بشعري

ينتسب (أحمد الصافي النجفي) إلى أسرة حجازية، قدمت إلى البصرة، ثم استقرت في النجف الأشرف. وكانت هذه المدينة المقدسة ولا تزال، محور حركة علمية شاملة، حمل لواءها كثير من العلماء والأدباء والمفكرين، الذين اهتموا بدراسة مختلف العلوم الإسلامية، من فقه وتفسير وحديث ومنطق وفلسفة وتاريخ ونحو ولغة وأدب وغيرها...

ولادته ودراسته

ولد الصافي عام ١٨٩٧ في مدينة (النجف) بالعراق، ونشأ في هذا الجو الحافل بروائع العلم والأدب والدين، يتنقل بين منتدياتها الأدبية ويغترف من معين علمائها وأدبائها، حتى ظن البعض أنه سيخلف جده لأمه الشيخ (محمد حسين الكاظمي).

حفظ القرآن الكريم وهو لم يزل دون العاشرة، مما يدل على تفتح ذهنه ونبوغه المبكر، مات والده وهو في العاشرة من عمره، فغادر المدرسة وراح يثقف نفسه بنفسه، فدرس المنطق والنحو، والصرف والمعاني والبيان، إلى جانب العلوم الدينية والصوفية والفلسفية القديمة، ثم توفيت أمه وهو في السابعة عشرة، فشعر منذ ذلك الحين باليتم والبؤس والحرمان، وتلا ذلك كله إصابته بمرض عصبي شديد، فأشار عليه الأطباء أن يمتنع عن الدراسة، ويكتفي بالمطالعة الحرة، فعكف على قراءة الأدب القديم والحديث، وأقبل على الصحف والمجلات التي رأى فيها عالماً جديداً ملوناً.

كان الاستعمار الإنكليزي يخيم على العراق، ويلقي عليه ظله الثقيل، لذلك أخذ المناضلون يجمعون الصفوف، ويقررون سراً ما يجب عمله لطرد المستعمر

ويجتمعون في منزل آل الصافي بزعيم الأحرار العراقيين (الشيخ عبد الكريم الجزائري) فكان الشاب يصغي إلى مناقشاتهم، ويشارك في بعض المهمات التي توكل إليه، بكل حماسة واندفاع وأخذ يتصل بمراكز الثورة المنتشرة في كل بقعة من بقاع العراق لتوحيد الكلمة وتنسيق العمل، وبعد أن عقدوا الاجتماع التاريخي الكبير في الجامع الهندي بالنجف، أطلقوا شرارة الثورة عام ١٩١٩فاصدر الحاكم العسكري في بغداد أوامره لحاكم النجف بالقبض على المحرضين والمنظمين، واعتقال الثوار، ومنهم (الصافي) ففر تحت جنح الليل باتجاه إيران.

اتجه إلى طهران، لكنه لم يكد يصلها، حتى قرأ في الصحف نبأ اعتقال أخيه الأكبر (محمد رضا الصافي) وزجه في السجن، وقد أشار إلى هذا الحادث فيما بعد يقول:

(سجنت وقبلي في العلا سجنوا أخي … وآمل في العلياء أن يسجنوا الابنا

إذا لم نورث تاج مجد وسؤدد … لأبنائنا طرا نورثهم سجنا)

لم يشأ الفتى أن يضيع وقته بل سارع إلى تعلم اللغة الفارسية، ثم أخذ يدرس اللغة العربية في ثلاث مدارس ثانوية .. ولما حذق اللغة الجديدة، انتخب عضواً في النادي الأدبي الفارسي، وعضو في دار الترجمة والنشر، وقد مكث في إيران ثماني سنوات (١٩٢٠ – ١٩٢٧) ترجم خلالها رباعيات الخيام ترجمة دقيقة،كما نقل إلى الفارسية كتب (علم النفس) لعلي الجارم وأحمد أمين ليدرس في دار المعلمين.

بعد أن استقل العراق، ألح عليه الأهل والرفاق أن يعود إلى بلده، فقصده عام ١٩٢٧ ولم تكد قدماه تطآن أرض وطنه حتى انهمرت دموع الفرح من عينيه، فركع يقبل ترابه بلهفة وشوق، واقترح الآخرون الاستفادة من مواهبه الشعرية، لكن حر العراق الشديد أثر على صحته، فنصحه الأطباء بمغادرة البلاد إلى سورية ولبنان، ليستمتع بمناخها اللطيف، ومناظرها الطبيعة الخلابة.

في سورية ولبنان:

وصل (الصافي) إلى دمشق عام ١٩٣٠، فطابت له الإقامة فيها، وصار يعتبرها وطنه الثاني لا يستطيع الابتعاد عنها إلا إلى بيروت، ويعجب لمن يسكنها، كيف يمكن أن يغادر ويستغني عنها، فمن يسكنها يشعر بأنه في جنة الخلد، ومن يغادرها يحس كأنه في نار جهنم، والغريب فيها ينسى أهله ووطنه لما يلاقي من الترحيب وحسن الضيافة والكرم:

(لا يرتضي الطرف شغلا عن محاسنها　　حتى تعادي فيها المقلة الوسنا
أيقنت أني من أهل الجنان، ففي　　دمشق أسكن جنات تفيض هنا
عجبت ممن أتاها كيف يبرحها　　فهل يرى في سواها عن دمشق غنى
ما جنة الخلد إلا للذي سكنا　　بها، وما النار إلا للذي ظعنا
يكاد ينسى غريب الدار موطنه　　في ربعها، ويعاف الأهل والسكنا)

لم يكتف الصافي بحب دمشق وحسب، بل أحب سورية كلها حبا ملك عليه فؤاده، وما ذلك إلا لجمالها الفتان الذي جر عليها المصائب:

(يا سورية ما أنت غير خريدة　　قد كثرَّ العشاق فيك جمال
هذا الجمال عليك جر مصائبا　　إن الجمال على ذويه وبال
قد كان يعطيك المحب فؤاده　　لو عز منك على المحب وصال)

كما يرتاد في دمشق مقهى الكمال، أو مقهى الهافانا، فيتربع فوق كرسيه، ويلتم على نفسه بجسمه الضئيل النحيل، ويفيض بالكلام، فإذا حان وقت الانصراف، أوى إلى غرفة خالية مهجورة ملحقة بأحد الجوامع قرب سوق (الحميدية) تساكنه فيها القوارض، ويعاني بردها شتاء وحرها صيفاً ويعمي ترابها عينيه، كأنها قبر له وأي قبر:

(أكابد البرد في سراج يكاد من ضعفه يموت
في غرفة ملؤها ثقوب أو قل ملؤها بيوت
يسكن فيها بلا كراء فأر وبق وعنكبوت
للفأر في مأكلي غذاء والبق جسمي لديه قوت
واعتزل العنكبوت أمري وفي بقاءه معي رضيت
كم صاد في الصيف من بعوض قد كنت من لذعه قد خشيت
ينسج فوق الثقوب بيتا به من الشمس قد وقيت)

هذا التصوير الدقيق البارع لغرفته يدلّ على روحه المرحة، ولطف مزاجه، وحبه للنكتة، ويذكرنا بشاعر وصاف قبله، هو ابن الرومي.

وكان يتردد في بيروت على مقهى (الحاج داود) حينا، أو على مقهى (مجمع البحرين) حينا آخر، يلازمهما طول النهار، وكثيراً ما يتناول طعامه البسيط فيهما، يطلبه من أقرب مطعم، مكتفياً برغيف من الخبز وصحن من الفول أو الحمص، وفي المساء يأوي إلى غرفة متواضعة قرب مستشفى (أوتيل ديو) قد تكون أقرب من الغرفة التي كان يسكنها في دمشق.

في السجن:

نشبت أثناء وجوده في بيروت ثورة (رشيد عالي الكيلاني) الوطنية على الإنجليز، فراح يقود المظاهرات الطلابية، ويلهب المشاعر بقصائده الحماسية، فسعى هؤلاء إلى السلطات الفرنسية الحاكمة في لبنان لاعتقاله وإيداعه السجن عام ١٩٤١، بتهمة ترويج الأفكار النازية، فظل رهن الاعتقال ثلاثة وأربعين يوما، خرج في نهايتها بديوان أسماه (حصاد السجن)، وأهداه (إلى كل سجين ومرشح للسجن في سبيل الحرية والواجب). لقد قابل السجن بروح الفكاهة والسخرية، وراح يصفه وصفاً تهكمياً قائلاً:

سجنوني في غرفة قد تعرت فكأني سجنت وسط القفار
جاعلا من ترابها لي فراشا وغطاء يلفّني من غبار

ويشير إلى وضعه الدائم في السجن، وفي حين يأتي سواه ويذهب، حتى لكأنه صاحب فندق يستقبل النزلاء صباحاً، ويودعهم مساء أما هو فباق في فندقه أبداً:

سجنت وطال بي سجني وكم من سجين جاءني يوما وولى
كأني رب نزل صرت ألقى من السجناء أصحابا وأهلا
أودع في الضحى أهلا كراما وأدعو في المسا أهلا وسهلا

بعد أن نشبت الحرب الأهلية في لبنان، أصيبت غرفته القريبة من خط المواجهة برصاص المقاتلين، وكان ذلك إنذارا له بالرحيل، لكنه بقي مع ذلك مقيماً فيها، إلى أن خرج ذات يوم ليشتري طعاما، بعد صيام دام ثلاثة أيام،لم يذق خلالها شيئاً، فأصيب ونقل إلى مستشفى المقاصد في حالة من الإغماء وما أن صحا من سباته حتى راح يروي للمحقق قصته قائلاً

(كنت أسمع صوت الرصاص، فقلت في البداية: إنهم يضربون الأعداء ... مضت الأيام الخمسة الأولى لبداية الأحداث، سألني جاري: أين كنت تنام ؟ قلت في الصالون ... قال: أما كنت تعلم ماذا أصاب بيتك، وأراني خمسة ثقوب الرصاص الذي اخترق الجدار... وحين خف إطلاق النار، غادرت المنزل مفتشا عن رغيف خبز أسد به جوعي، لقد مضت علي ثلاثة أيام بدون أكل ... وعلى بعد خطوات من غرفتي أحسست ببعض السخونة في جسمي، فاعتقدت أن الحمى عاودتني، وسرعان ما وقعت على الأرض، فحملني جاري إلى منزله وهو يقول: أستاذ أنت مصاب برصاص .. ألا تحس ؟ وأغمى علي، ثم صحوت فإذا بي في هذه المستشفى) ثم أنشد قائلاً:

(بين الرصاص نفذت ضمن معارك فبغرم أنف الموت ها أنا سالم

ولها ثقوب في جداري خمسة قد أخطأت جسمي وهنَّ علائم).

حدث هذا في كانون الثاني عام ١٩٧٦، وفي التاسع عشر من شباط عاد الصافي النجفي إلى العراق الذي غادره شاباً، بعد غربة دامت ستة وأربعين عاماً، شيخا متهدماً فقد بصره، نسمعه يقول:

يا عودة للدار ما أقساها أسمع بغداد ولا أراها

وفي السابع والعشرين من حزيران عام ١٩٧٧ قضى نحبه في بغداد عن ثمانين عاماً، فنقل جثمانه إلى مسقط رأسه في النجف، حيث دفن إلى جانب أفراد أسرته، واجتمع بهم بعد غربة استمرت نصف قرن تقريباً وصح به قول الشاعر:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

لقد اتخذ الصافي من سورية ولبنان وطناً ثانياً له، وكان يرى أن كل أرض عربية هي وطنه، لا فرق في ذلك بين قطر وآخر:

أني امرؤ عربي والعلا نسبي في أي أرض أرى عربا أرى وطنا

لكنه ظل مع ذلك يحن إلى وطنه الأول، ولم يقطع صلته به، بالرغم من سنوات الهجرة الطويلة حتى صار إذا عاد إلى العراق، عاد كالغريب:

لقد تغربت حتى نسيت كل قريب
فإن رجعت لأهلي رجعت مثل الغريب
سلكت كل الدروب فغربة الدار داري
ألفت كل الكروب والأهل صحب الدروب

- **سئل مرة لم تحاول زيارة وطنك بعد أن خرجت منه سنة ١٩٣٠ ؟**

فأجاب إن الأمراض التي أبت مفارقتي قد حالت دون زيارتي لوطني، ثم أردف يقول:

(فكم لي بالعراق عهود حب … وعهد صفا وعهد من صفاء
إذا ما عاقني عنه سقامي … أطير له بأجنحة الغناء
واحسبني هنالك بين أهلي … فأنسى كل ما يبدو ازائي
وأصحو إذ أناديهم ملحاً … فلا ألقى مجيباً للنداء)

وإذا حن للعراق فحنينه إلى عهود طفولته،وأيام صباه، والى ذكرياته الحميمة مع أصحابه الذين أمضى معهم زهرة الشباب، وأنضر سنوات العمر:

(بقلبي قد أطلت ذكريات … تفتش فيه عن ماضي شبابي
بقايا من حبيب أو محب … وأشباح لأيام التصابي)

وإذا ما رأى أشجار النخيل في مدينة صيدا اللبنانية، تذكر النخيل في ريف العراق، فهاجت شجونه، واضطربت في نفسه لواعج الشوق، ونوازع الحنين إلى مربع طفولته، ومسارح شبابه وهتف قائلاً:

(يا نخل صيدا قد هيجت أشجاناً … ذكرت من وطني أهلاً وجيرانا
ما لاح طلعك لي إلا وذكرني … ربيع ريفي بطلع النخل مزدانا
كم ذكرتني بساتين النخيل هنا … من نخل ريفي جنات وبستاناً
وكم دعتني وأغرتني لأدخلها … حتى ألاقي بها أهلا وخلانا
يا نخل صيداء قد أشعلت نيراناً … بقلب ناء بعيد الدار ولهاناً)

كم تمنى الصافي أن يعود إلى وطنه، ليستعيد ذكريات الماضي البعيد التي

مرت كطيف عابر، أو حلم نائم، ولتكتحل عينيه برؤية رفاق الأمس، ولكن ما كل ما يتمناه المرء يدركه. فما عليه إلا إذن إلا أن يرحم ذكرياته، لعلها تبقى نيرة الرؤى ريّاً لعينيه:

ألا يا ذكريات صباي هل من ... رجوع لي إلى تلك الحياة
تذكرت الصبا فجلست أرنو ... لتلك الذكريات محطمات
ورحت أروم أن أبني قصوراً ... بألوان التهاني عامرات
إذا بسواعدي وهنت وكلّت ... وقد زال الهناء سوى رفات
فعدت إلى قصور الذكريات ... وإن هي أصبحت متهدمات
وقد أصبحت ما لي اليوم شغل ... سوى ترميم تلك الذكريات

المرأة في حياته:

قضى الصافي عمره وحيدا بلا زوجة تبدد وحشته، وتنسيه آلام غربته، وتغنيه عن حياة المقاهي، وتضع حداً لتشرده، وكثيراً ما شكا من وطأة الوحدة، وتجهم الغربة المضنية بقوله:

سئمت من وحدتي غريباً ... ألا صديق... ألا عدو ؟

سئل مرة: لماذا أضربت عن الزواج فأجاب: (إن الزواج مسؤولية خطيرة، وتضحية كبيرة، فمن مداراة لمزاج الزوجة وتلبية طلباتها الملحة، إلى صرف جهود مضنية في تربية الأطفال وإعدادهم إعدادا علميا صحيحا.. وأنا رجل مريض، قد انصرفت إلى المطالعة والتأليف، ووجدت سعادتي المنشودة فيها، وبمرور الأيام أصبح الكتاب زوجتي المفضلة، ودواويني الشعرية التي ألفتها أبنائي النجباء ... والآن وبعد مضي الأعوام الطويلة على اختمار فكرة الزواج في عقلي، فإنني غير متأسف على تحقيقها ... وأقول بمنتهى الثقة بأنني إنسان محظوظ، ما دمت أعيش عزباً، إذ لم يحطم أعصابي شجار الزوجة، ولا صراخ الأطفال ... وأنا رجل في

منتهى الحساسية والتأثير).

لكنه يبدو أنه ندم على تركه الزواج ولا سيما حين كان يستبد به الألم والمرض، فينادي ولا من مجيب، ويتحسر ولكن ما نفع الحسرة وقد أدرك الستين من عمره!؟

(أستقبل الستين مستوحشاً لا أهل، لا مال، لا ولد
لا مسكن آوي له ثابت لا سكن لاهند لا دعد
أحفاد أصحابي لهم ولد وها أنا من عمري جد
متشرد ليس له غاية في مهمه ليس له حد)

وهو ضائع مشرد لا يعرف متى مبيته، ولا يعلم متى يروح أو يغدو:

(لم ادر أيان مبيتي ولا اعلم أيان غداً أغدو!)

لم يصد الصافي عن المرأة نفوراً منها، أو كرهاً لها كالمعري مثلاً، بل كان قلبه عامراً بالحب الحقيقي، وليس ممن ينكمشون على أنفسهم، أو يعزفون عن الحياة، كانت طبيعته متفتحة، تبحث عن الحب وتدفعه إلى التغني بمفاتن المرآة ووصف تجربته الحسية معها كما في قوله:

(كتبت عيونك في فؤادي أسطر لم يمحها بعد ولا تعذيب
مازال للقبلات طعم في فمي فيها أهيم وانتشي وأغيب
يا سكرة القبلات عيشي في فمي فلقد وفيت وما وفى المحبوب)

ويرد على من ينصحونه بفكرة الزواج، وقد عجز وشبع من الوحدة، وآن له أن يحط الرحال في ميناء بعد التردد الطويل، بأن الزواج يحول بينه وبين الشعر، ويبعده عن عالم الوحي المبدع الخلاق، وهي خسارة كبيرة للشعر:

(وقالوا تزوج قد كفاك توحد   عجزت، ففز بعد التشرد بالمأوى
وكيف زواجي هل أطلق عالمي   وفي عالمي دنيا أهم من الدنيا
ومن بعض دنياي الذي تقرؤون لي   من الشعر، دنيا الحس والفكرة العليا)

وما دام قد شقي في حياته، فلماذا يريد أن يشقي معه غيره، ولولا إشفاقه على المرأة التي سيتزوجها من أن يعديها تشرده وبؤسه لأقبل عليها بكل طيبة خاطر، فشقاؤه لابد أن يسري إليها كالوباء أو كالسل:

(أبغي شريك حياة   أنال فيه هنائي
لكن أحاذر من أن   يعديه داء شقائي
هناك يشقى ضميري   حتى يزيد بلائي
يسري لخلي شقائي   كالسل أو كالوباء)

شاعر البؤس:

يدور جانب كبير من شعر الصافي حول البؤس الذي كان رفيقاً له يلازمه كظله، ويرافقه في حله وترحاله، كأنهما توأمان ولدا معاً، ويبدو أن الشاعر وجد لذة في التغني بالبؤس والألم والحرمان يستمد منها الشعر، فيأتي متشحاً بالحزن، ملفعاً بالمرارة والشكوى:

(ووحيدتي تركتني دون خل   غير بؤس على ولائي داما
وخطوب الحياة لم تبق مني   غير عزم يكافح الأياما)

وقد أشار إلى قدم الحزن الذي لازمه في رحلة حياته الطويلة، وعاش مع فنه، أما السرور فلم يمر به إلا كطيف عابر، استضافه ليلة ثم اختفى به إلى الأبد:

(إنما الحزن لي صديق قديم   عاش في مهجتي وعاشر فني

ولقد مر بي السرور كطيف		ضافني ليلة وسافر عني)

بحث عن السعادة طويلا حتى أعياه البحث، فلم ير غير الألم وسعى وراء سرابها الخادع، فمني بالفشل، وضاعت جهوده التي لم تزده إلا شقاء على شقاء في حين حالف الحظ السعيد كل بليد وتافه:

(سعيت لتحصيل السعادة جاهدا		فزاد شقائي من ضياع جهودي
فطورا حسبت العلم يحبو سعادة		إذا السعد يمشي نحو كل بليد)

وفي قصيدته (ما اسم هذا اليوم ؟) تعبير واضح عن الألم والمرارة والضياع، فهو لا يفرق بين يوم وآخر، ما دامت الأيام جميعها متساوية في حمل التعاسة والهم:

قد تساوت لدي أيام عمري		فلماذا تخالف الأسماء
كل يوم لديّ مبدؤه همٌّ		وجهد ومنتهاه استياء
ولماذا أعدّ كم مر يوم...		بي، وما لي في أي يوم رجاء
ليس فرق ما بين يومي و ليلي		ليس إلا صباحه والمساء

انه كسيزيف الذي لا يفتأ يحمل صخرته، وكلما وصل بها إلى القمة، عادت فتدحرجت. يبنى القصور من أحلامه الوردية، ولكنها سرعان ما تنهد وتنهار:

(أقضي الليالي وحيدا		مسامراً أرزائي
أبني قصورا ولكن		ينهدّ - حالاً - بنائي)

وهو لا يرجو خيراً من مستقبله، فالماضي عنده دليل على المستقبل ما دام الهم يطعنه خلسة، ولا مخرج ليستطيع الفرار:

(مستقبل داج وماض محزن والحال بالسم الزعاف امتزجا
يطعنني الهم ولا أبصره لكي أذود أو أرى لي مخرجا
يجرحني حسام همي عجبا أن لا تراني بالدما مضرجا
لو كان همي عاقلاً أقنعته لكنني قابلت همّا أهوجا)

إن دواوين الشاعر عامة تغص بالقصائد التي تنضح بالشكوى والألم. والهم والحزن، واللوعة، والتعاسة والشقاء، لأنه كان إنسانا مفرط الشعور، دائم الأمراض، سيء الحظ، منكود الطالع والشعر – كما نعرف – مرآة الشعور.

النكتة عند الصافي:

كان الصافي صاحب ظرف ونكتة، يسوقها ولو كانت عليه بالذات، وغالبا ما يأتي بها مرة أليمة يشفي به غليله، ويفرغ شحنات الغيظ المكبوت، والسخط الدفين في صدره أو يعبر بها عن تبرمه بمفارقات الحياة والمجتمع. كان الجاحظ لا يتورع أن يسخر من قبحه ودمامة وجهه إذا اقتضى الأمر كقوله:

(وجهي دميم وقلبي عدو كل دميم
لو كان وجهي بكفّي ألقيته في الجحيم)

ويعجب من تناقضات الحياة فالله يهب الفقراء أطفالاً بالجملة، في حين أنهم عاجزون عن عيالة أنفسهم، بينما يبخل بهم على الأغنياء القادرين، ولو كان الأمر بيده لأخصى كل فقير، حتى لا ينجب أبداً:

(كم غني لم يعطه الله نسلاً وفقير يبلى بنسل كثير)

فلو أن الأمور كانت بكفي كنت أخصي بالكون كل فقير

ويتندر على رجل ثرثار ابتلي بطول اللسان، ويدعي فوق ذلك أن كلامه عذب

مستساغ، فإذا تحدث أغرق سامعيه بفيض من الكلام الفارغ، لذلك يتمنى لو كان كالحاكي (الفونوغراف) يغني إذا شاء السامع الغناء، ويسكنه إذا شاء:

(كلامك كالغناء يلذّ لكن إذا ما طال يحصل منه ضد
فليتك كنت كالحاكي يغني إذا شئنا، وان شئنا يسدّ

وهناك نكتة سياسية قالها وهو في السجن، يسخر فيها من الإنكليز الذين كانوا السبب في سجنه، ويشير فيها إلى جشعهم:

(مات من التخمة جار لنا وساقه الحرص إلى حتفه
مثّل في البطنة انكلترا إذا مات واللحمة في كفه)

الصافي ورباعيات الخيام:

حينما أطلع الصافي على (رباعيات الخيام) التي ترجمها بديع البستاني عن الإنكليزية، أخذ بها وقال في نفسه (إذا كان هذا أثر التعريب، فما هو أثر الأصل يا ترى ؟) ومنذ ذلك الحين أخذ يسعى للوصول إلى نص الرباعيات الأصلي، لكنه وجد أن ذلك مستحيل، إلا إذا أتقن اللغة الفارسية، ولما أقام في طهران ثمانية أعوام، عكف فيها على دراستها، حتى برع فيها فاستطاع أن ينفذ من خلالها إلى روائع الأدب الفارسي ومعانيه الدقيقة، لكنه توقف بنوع خاص عند عمر الخيام الذي شغف به دون سائر شعراء الفرس، غايته أن يغوص على تلك اللآلي المكنونة التي تمثل آراءه الفلسفية. ونكاته الأدبية البديعة، إذ استطاع أن يكشف عن نفسيته وفلسفته في الحياة والموت، وتردده بين الوجود والعدم، والإيمان والكفر، والعصيان والتوبة، واقتناص ملذات الحياة قبل فوات الأوان، ويزيح النقاب عن الكثير من آرائه المبهمة الغامضة التي فهمها غيره من المترجمين على عكس حقيقتها.

انطلق في تعريب الرباعيات، وهو يدرك أن ترجمة الشعر مماثل مع الاحتفاظ بالمعنى الأصلي أمر شاق فيه من الصعوبة ما فيه، لكن الرغبة التي كانت وراء

هذا العمل، ذللت كل الصعوبات، فأنجزها في ثلاث سنوات، وبلغ مجموع الرباعيات التي ترجمها ثلاثمائة وإحدى وخمسين رباعية، وكان همه الوحيد أثناء التعريب، منصرفاً إلى أمرين اثنين: الأول الأمانة في النقل والاحتفاظ بالمعنى الأصلي، حتى ظهر أكثر الرباعيات كأنه مترجم كلمة بكلمة، والثاني: جعل التعريب قريبا من الذوق العربي، حتى كان يضع الرباعية في عشرين صيغة، ثم يختار الصيغة التي يحس إنها جاءت تؤدي المعنى، وتنسجم مع الذوق، وكثيراً ما ضحى بالخيال الشعري في سبيل تحقيق هذه المهمة، ولم يكن يتصرف إلا عندما يعجز عن كل الوسائل للاحتفاظ بالمعنى الأصلي. وقد أثبت النص الفارسي ومقابله الترجمة العربية، ليقابل بينهما كل من يجيد اللغتين معا.

يعترف الصافي في مقدمة الرباعيات بأن هناك رباعيات جميلة، لم يستطع مع بذل الجهد، أن يبرز معانيها كاملة، لذلك أهملها معترفا بعجزه وقصوره. وحينما أنهى التعريب عرضه على بعض أدباء إيران ممن يتقنون العربية، فقابلوه بالأصل، واعترفوا له بالدقة والإحاطة، حتى قال الشاعر (محمد حسين بهار) إن التعريب يفوق من حيث البلاغة والأسلوب الأصل الفارسي كقوله:

(لم يحظ بالدهر في ورد الخدود فتى — إلا وكابد من أشواكه العطبا
انظر إلى المشط لم يبلغ أنامله — أصداغ أغيد ما لم ينشعب شعبا)

لم يلتزم الصافي بحراً واحدا في الترجمة، مع أن الرباعيات الفارسية نظمت على بحر واحد هو الدوبيت)، ورأيه في ذلك أن الأذن تمل سماع نغمة واحدة تتكرر في وزن واحد، وتميل إلى التنويع، ما دام الوزن هو موسيقى الشعر. وقد لاحظ أن الخيام اعتمد في بعض معانيه على المعري في اللزوميات وسقط الزند،بحسب القوافي، مبتدئا بحرف الهمزة، ومنتهيا بحرف الياء لتسهل مراجعتها.

صدرت الرباعيات في طبعتها الأولى بدمشق عام ١٩٣١، أي بعد سنة واحدة من إقامته فيها، وقدم لها المرحوم (أديب التقي).

شاعرية الصافي:

وهب الصافي حياته كلها للشعر، لا تصرفه عنه مطالب زوجة، أو متاعب أسرة، ولا تلهيه أعباء الحياة وهمومها، اللهم إلا المرض الذي كان رفيقه الدائم وكذلك الطبيب والصيدلية:

(صرت من بعد أصدقائي الكثيرين صديق الطبيب والصيدلية

أصبح اليوم من دوائي غذائي بعد ضعف القوى وفقد الشهية)

لقد أوتي (الصافي) قريحة فياضة ينظم بيسر وسهولة دونما تكلف أو مشقة، فطبع عشرة دواوين هي الأمواج، أشعة ملونة، الأغوار، التيار، ألحان اللهيب، هواجس، اللفحات، الشرر، حصاد السجن، رباعيات الخيام. وكتابا نثرياً واحداً بعنوان (هزل وجد) وترك ستة دواوين مخطوطة، وقصائد كثيرة متفرقة في الصحف والمجلات، ولا سيما مجلة(العرفان) التي كانت تنشر له في كل عدد قصيدة أو أكثر تحت عنوان (النبع الصافي من شعر الصافي)، لكن هذه الكثرة كانت على حساب التأني في النظم، فقد كان يرسل شعره غفلا من التنقيح والتهذيب، فكثرت أخطاؤه، وازداد سقطه، حتى قال فيه الناقد مارون عبود: (الصافي شاعر لو أنه تأنى كالشعراء، وهذب شعره كما هذبوا) رغم أنه كان ينصح غيره بضرورة التنقيح والتهذيب في قوله: (على الشاعر الحر أن يكمل أنينه ويفرغ حنينه، ويكمل شكاه، ويتم رسالته، حتى إذا افرغ ما في نفسه، انقطع عن النشيد كما انقطع السيل عند انتهائه، وهدأ كما يهدأ البركان عندما تنفد حممه، أو ينطفى أواره، أما الصنعة والأسلوب وانتقاء الألفاظ،فتلك أمور يجب على الشاعر أن يفكر فيها بعد انتهائه من شرح هواجسه، وبث وساوسه، وإفراغ رغباته وتكميل شكاياه، وحينئذ يعمد إلى إصلاح كلمة أو تحسين أسلوب أو إبدال لفظة بأحسن منها، وأوقع في السمع، بشرط ألا يبخل ذلك الإبدال والإصلاح اللفظي ببنيان تلك الهواجس الطبيعية التي جاءت مرسلة متدفقة أثناء النظم).

لكنه لم يلتزم ذلك في شعره الذي كان يرسله عفو الخاطر، لئلا يشوه الخاطرة البكر في رأيه، شأنه في ذلك شأن أبي تمام الذي نصح البحتري وأرسله إلى الطريقة المثلى في النظم، دون أن يأخذ هو بها، شعره مهلهل ولكنه صادق، يحتاج إلى الديباجة المشرقة المتينة التي كانت لزميله الرصافي، وقد اعترف بأن تدفق الشعر على لسانه، هو الذي كان يمنعه من العمل بالوشي والعمل الفني:

(قيل لي فيم لست تعني بوشي أو بتنسيق فائض الأشعار
قلت شأني إرسال شعري سيلا ما على التنسيق للأنهار)

حجته في ترك التهذيب والابتعاد عن التنقيح أنه يريد أن يكون شعره مرآة لروحه، فان كان قبيحاً فهل يستطيع تغيير روحه ؟ ولعل قصيدته (تهذيب الشعر) خير جواب على منتقدي شعره العفوي البسيط، الذي يقذفه كما تقذف البراكين حممها،وتدفق البحار أمواجها:

(قال خِليّ هذّب قريضك حتى لا نرى فيه غير بيت مليح
قلت شعري مرآة روحي، فان كان قبيحاً فهل أغيّر روحي؟
وإذا ما رأيت بيتاً سقيما ثم أبدلته ببيت صحيح
صار يحكي مرآة وجه دميم خط فيها رسم لوجه صبيح
أنا أجلو مرآة روحي بشعري حين آتي عليه بالتنقيح
ليري للعيان مكنون نفسي ويؤديه بالبيان الصريح)

وفي شعر الصافي ضعف في التعبير، وتشوش في التركيب، والتواء ظاهر في أساليب النظم، لا مجال للاستشهاد عليها جميعاً في هذه الدراسة، يحسه كل من يقرأ شعره قراءة مستأنية، وتعوزه التعابير الجديدة، والأنماط الحديثة، والقوالب الطريفة، وعبارته بالإجمال، مألوفة سببها تقليده للشعراء المتقدمين، وسيره على طرائقهم في

المعاني والصور المجترة المكررة، وأغراضه تقليدية، شعره وثيق الصلة بحياته، حتى ليكاد يكون تصويرا دقيقاً لها في مباذلها كقصائد (البرغوث العاشق) (والأكابر والبعوض) (والشاعر والفأر) (والشاعر والقط) (وغرفة شاعر) (ووأد بناتي) (والليل والهم)...

كان شديد الميل إلى الوصف والتصوير، لكن صوره أشباه صور لا تستوقف القارئ، لأنه لم يعن بإبراز خطوطها، ولم يحسن تلوينها ولو فعل لأتى بكل رائع وجميل في (الصافي) حسن لكن في شعوره لا في شعره. يكتفي بوصف الأشياء دون تشخيصها، فتبقى كما هي، ولا يكترث بألفاظه وقوافيه، لذلك جاءت نافرة شاخصة، لأن اهتمامه كان ينصب على الأفكار وحدها دون الألفاظ والقوافي التي تحجب المعاني في رأيه، وتخفي حسنها وبهاءها:

(أهوى المعاني من ثياب اللفظ تظهر عارية
فالشعر تحجب نوره ألفاظه والقافية)

لكنه في مكان آخر يرجح الألفاظ، ويعطيها من الأهمية ما لا يعطيه للأفكار فيجعل الأفكار لبابا. والألفاظ قشورا تحميها، وإذا لم تغلف القشور الألباب فنيت سريعا كقوله:

(اللفظ قشر وفيه لب المعاني يقر
كلاهما مستحق أن يعتني فيه فكر
فاللب يفنى سريعاً إن لم يحط فيه قشر)

ويرى أن الألفاظ هي قبور للمشاعر تدفنها في أعماقها:

(أهوى الشعور من الكلام مجردا إن الشعور قبوره الألفاظ)

وخلاصة القول إن (الصافي النجفي) عاش عمره شريفاً نزيها أبيا، لا يقول إلا

ما يعتقد، لا يصانع ولا يتزلف، ولا يطلب جاها أو مـــالا، لـــذلك شـــرد وتـــشرد، ورضي حياة البؤس والفاقة، طليقاً من كل قيد، يرتدي أبسط أنواع الثيـــاب، ويأكـــل أردأ ألوان الطعام. لقد ظل صادقاً مع نفسه وفيا لمبادئه، فتحدث عنه كبـــار شـــعراء العربية ونقادها، وأثنوا على شعره، وفي مقدمتهم العقاد ومـــارون عبـــود، ورئيـــف خوري، والزهاوي، والقروي، والسياب الذي قال فيه (... الصافي عالم قائم بذاتـــه، متسع الأفق بشكل لا مثيل له عند أي شاعر عربي بمفرده، لم يترك موضـــوعا إلا طرقه، ولا عاطفة من عواطف النفس إلا صورها، فهو شاعر فلسفة وحكمة وهجاء وسخرية وغزل ووصف وطبيعة، وهو شاعر ذاتـــي إلـــى أبعـــد حـــدود الذاتيـــة، وموضوعي إلى أبعد حدود الموضوعية، أنه ظاهرة متميزة في الشعر العربي...).

خمرة النجفي:

نظم أحمد الصافي النجفي قصيدة جميلة عن خمرته المفضلة:

"الشاي" ترجمت إلى الإنكليزية، وكان لها صدى بعيد، لطرافتها وقوة معانيها:

لئن كان غيـري بالمدامـة مولعـاً ... فقد ولعـت نفـسي بـشاي معطـر
إذا صب لي كأس الزجـاج حـسبته ... مذاب عقيق صب في كـأس جـوهر
به أحتسي شـهداً وراحـاً وسـكراً ... وأنشق منـه عبـق مـسك وعنبـر
يغيب شعور المرء في أكؤس الطـلا ... ويصحو بكأس الشاي عقل المفكـر
يجد سرور المرء مـن دون نـشوة ... فأحبب به من منعش غيـر مـسكر
خلا مـن صـداع أو نزيـف كأنـه ... سلافة أهـل الخلـد أو مـاء كـوثر
فمنه اصطباحي واغتبـاقي ولـذتي ... ومنـه شـفائي مـن عنـاء مكـدر
كأني إذا مـا أسـفر الـصبح ميـت ... وإن ارتشف كأساً من الشاي أحـشر
فللـه حـن العـين إذ أنبتـت لنـا ... ألـذ نبـات بالمـسرة مثمـر
لو أن (ابن هاني) فاز منه بجرعـة ... لراح بأقداح ابنـة الكـرم يـزدري
ولو ذاقه (الأعشى) وحكم في الطـلا ... وفيـه لقـال: الفـضل للمتـأخر
فللغم أحلـى مـشرب مـن مذاقـه ... وللعين مـن مـرآه أجمـل منظـر
عجبت له يكـوي اللـسان حـرارة ... ويطفئ نيـران الجـوى المتـسعر!



حمد الجاسر

في عام ١٣٢٨ - تقريباً - وُلِدَ حمد بن محمد بن جاسر آل جاسر في قرية (البُرُود) لأبٍ فلاح، من أسرة قُدِرَ عليها رزقها. ونشأ عليل الجسم، وتوفيت أمه وهو في [illegible]، وفي مدرسة القرية (الكُتّاب) تعلّم مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم نظراً. وفي عام ١٣٤٠ - وكّل أبوه أمره لقريب له طالب علم في (الرياض) فحفظ القرآن غيباً، وقرأ بعض المتون المختصرة على المشايخ - كعادة طلبة العلم في ذلك العهد. وبوفاة ذلك القريب عاد من الرياض ليجد أباه قد أنهكه المرض، وقد تفرق شمل الأسرة، فكفله جده لأمه (مطوّع) أهل القرية، وهو من أهل الصلاح والعبادة، فصار يقرأ عليه في بعض الكتب، ويقوم بالخطابة والوعظ في المسجد لكبر سن جده وضعف بصره، وتولّى تعليم أطفال القرية فترة، ولكنّ أباه الكبير لم يرضَ حالته فذهب به إلى (الرياض) في عام ١٣٤٦ وسعى حتى ضُمّ إلى (الإخوان) أي طلبة العلم، فعاش كأحدهم، وانتظم معهم في الدراسة على المشايخ في المساجد، ومن أشهرهم سعد بن حمد بن عتيق وصالح بن عبد العزيز آل الشيخ - قاضيا الرياض - ومحمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، في التوحيد والفقه والحديث والنحو والفرائض. وفي عام ١٣٤٨ حجّ وأُلحق بـ (المعهد السعودي) وفيه تخرّج عام ١٣٥٢ من (قسم التخصص في القضاء الشرعي) ففضّل مهنة التدريس، وتنقّل فيها في ينبع وجدة ومكة والأحساء والظهران والرياض، وتخلل ذلك القضاء فترة وجيزة في (ضبا) ثم عاد للتدريس، وآخر عمله فيه إدارة كليتي (العلوم الشرعية) و (اللغة العربية) في الرياض في عام ١٣٧٦ وكان قد أنشأ أول صحيفة في الرياض (اليمامة) سنة ١٣٧٢ وأول مطبعة فاتجه للعمل في الصحافة، ثم انصرف للتأليف والتحقيق والنشر، فأنشأ (دار اليمامة للبحث والترجمة والتأليف) ومُنح مع إخوة له إجازة إنشاء (مؤسسة اليمامة الصحفية) وعمل في الصحافة زمناً، وأصدر مجلة "العرب" التي قطعت نصف عامها السابع عشر هذا العام، ولا يزال يعمل فيما اتجه إليه، وهو يأمل - وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!؟ - أن ينسأ الله له الأجل، ليرى ثمرة ذلك العمل، وما أعزها من أمنية!!

مُنىً إنْ تكنْ حقاً تكنْ أحسنَ المُنى ... وإلّا فقد عِشنا بها زمناً رَغْدا!

الرياض: ٢٧ شعبان ١٤٠٢هـ

الموافق ١٥/٦/١٩٨٢م

حمد الجاسر

حمد الجاسر :

المجمعي المحقق، ورائد جغرافيي الجزيرة العربية

نشأته وحياته:

في أسرة فقيرة تعمل بالزراعة في قرية (البرود) من بلاد السر جنوب القصيم .. ولد (حمد الجاسر) عام ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م، على أدق التواريخ .. وسط مجتمع محافظ يرتاب من كل جديد، وبيئة تعيش عزلة تامة عما يجري حولها في بقية أنحاء المعمورة، فحفظ القرآن.. وتلقى إلى جانبه تعليماً أولياً ثم غادر إلى الرياض عام (١٣٤١هـ، ١٩٣٢م) ليكمل تعليمه الابتدائي المتاح حينذاك، ولم تكن الرياض وقتها بأفضل من سواها من مدن وقرى قلب الجزيرة (نجد) في عزلتها عن التيارات الثقافية والفكرية، التي كان يموج بها العالم بعد الحرب العالمية الأولى ومؤتمر السلام بباريس وقيام عصبة الأمم، إلا أنها كانت عاصمة نجد وسلطانها الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، تعيش وقتها امتدادات نشر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية الدينية ... وتتمحور حياتها حول قضية إتمام توحيد قطاعات الجزيرة في كيان سياسي – واحد – كبير سيحمل فيما بعد اسم: المملكة العربية السعودية.

في الرياض وعلى امتداد سنواته الثماني الأولى فيها .. رأى وسمع واندهش؟ فقد ذهب مع الصبية من أترابه لرؤية نعامات خمس في فناء بيت المال، ولكنه رأى شيئاً آخر غير تلك النعامات، لقد رأى صحفاً لم تفتح من لفائفها .. مكومة في جانب من الفناء في انتظار التخلص منها بحرقها .. وكانت تلك الصحف تأتي لموظفي الدولة بالبريد من كل من مصر وسوريا والعراق وغيرها، لكن أحداً لم يفتحها .. أو يقرأها .. فكانت تحرق بلفائفها، وقد أدهشه ذلك، أدهشه .. أنها لم تفتح .. وأدهشه أن أحداً لا يقرأها .. ومع توحيد الحجاز وصدور جريدة (أم القرى) في مكة في

وقت مبكر (عام ١٣٤٣هـ) أخذ الناس في الرياض يقرأون تلك الصحيفة لمتابعة أخبار دولة الوحدة وأخبار مؤسسها الملك عبد العزيز، وقراءة المقالات الأدبية القليلة والمدائح الشعرية التي كانت تنثر فيها..

وفي عام ١٣٦٧هـ افتتحت أول مدرسة ابتدائية نظامية تعتمد منهج مديرية المعارف العامة، فتقدم للحصول على شهادتها عام (١٣٦٧هـ) عشرة طلاب، نجح منهم من نجح دون أن يدرسوا علمي: (تقويم البلدان) و(الهندسة) .. لأن الهيئة الدينية منعت تدريسهما لتحفظها عليهما. وقد بقي هذا المنع سارياً إلى أن عين الجاسر نفسه معتمداً للمعارف بنجد عام ١٣٦٨هـ، فاستصدر أمراً بإلغاء ذلك المنع واعتماد تدريس جميع مواد المنهج للطلبة بما فيها علماً (تقويم البلدان) والهندسة.

وإذا كان حقاً ما قاله المعلم الأول (سقراط) من (أن العالم .. يبدأ بالاندهاش) .. فإن دهشة الجاسر فيما رأى وسمع خلال تلك السنوات الثماني .. إنما كانت إيذاناً بميلاد ذات معرفية .. ستتوهج يوماً .. وستسهم في إشعال مصابيح المعرفة والعلم والثقافة – بعمومها – لتنحسر ظلمة الجهل، ويتبدد الخوف من المجهول، ويفسح الطريق أمام الحقيقة أو الحقائق، شيء كتلك الصورة الأدبية الرائعة .. التي كتبها بخيال وشاعرية (مكسيم جوركي) عندما قال: (إن الناس يريدون معرفة الحقيقة، يريدون ذلك يا عزيزتي .. ها هنا امرؤ يشعل شمعة أمام الأيقونة وهناك شمعة أخرى تضاء .. ورابعة، إن الظلمة تنزاح شيئاً .. فشيئاً مفسحة المجال للنور).

في الرحاب المقدسة:

انتقل الجاسر مع بدايات عام ١٣٤٩هـ ١٩٣٠م إلى مكة مع مجموعة من الطلبة الذين أوفدهم الملك عبد العزيز للالتحاق بـ (المعهد العلمي السعودي) الذي تأسس عام ١٣٤٧هـ وأسندت إدارته للعالم الشيخ محمد بهجة البيطار وقام بالتدريس فيه أساتذة من مصر والشام ونجد والحجاز، كان مجيء الجاسر إلى مكة وبقاؤه بها طوال سنوات الدراسة الست، نقلة نوعية وجوهرية في بناء الذات

المعرفية، وصقلها تمهيداً لتوهجها فيما بعد. فقد كانت مكة المكرمة في ذلك الوقت من أواخر الأربعينيات الهجرية وأوائل الخمسينيات قد أصبحت عاصمة الدولة، يقوم فيها حكم مستقر، وترفرف عليها آمال مستقبل واسع كبير، ومقارنة بغيرها من مدن الجزيرة العربية الأخرى .. تعيش حياة مختلفة عن تلك الحياة التي عاشها صاحبنا قبل قدومه إليها، كانت مكة المكرمة تعيش بروافد من حضارات الصين والهند والتركمان براياتها الإسلامية .. وقد امتزجت بمثل وقيم وتقاليد الوادي المبارك وما حول البيت العتيق .. لتصنع من كل ذلك قوامها الحضاري العربي الإسلامي الخاص الذي أصبح يمثل السمت الحجازي وروحه .. وكانت تموج بالتيارات الثقافية والفكرية بل والسياسية والاجتماعية منها، التي كانت تفد إليها عبر مواسم الحجيج وعبر الصحف والمجلات والدوريات، والكتب العربية التي كانت تصلها بتتابع وانتظام .. منفتحة على العالم العربي والإسلامي الكبير، وتنبض – مقارنة بغيرها – بكل ما في العواصم العربية والإسلامية الكبرى .. ففيها مقار الحكم، وبيوت المال والتجارة، والشركات، والبنوك، والأسواق المضاءة، والمطابع والصحف، والمثقفون الذين تجمعوا من مختلف مدن الحجاز في مكة والجمعيات والأندية الرياضية والمقاهي والمطاعم، والمطوفون والزمازمة، وكل ذلك حول الحرم بطائفي بيته العتيق وقصاده وعلمائه وحلقات الدرس فيه، كانت مكة .. حاضرة الدولة في ذلك الوقت، فعب الجاسر فيها من كل ذلك .. وتخلل بين طبقاتها ومجتمعها، وتعلم في خارج معهده بمثل ما تعلم في داخله، بل وأسهم في صحيفتها الجديدة (صوت الحجاز) بأول قصائده الشعرية التي وقعها باسم: بدوي نجد الجاسر .. أو (الجاسر بدوي نجد) .. ثم أقلع عن ذلك كما فعل طه حسين من قبل وهو يقول: (إن حالي مع الشعر كحال الخليل بن أحمد عندما قال: يأباني جيّده .. وآبى رديئه) وبعد أن أتم دراسته بنجاح خيّر بين القضاء والتدريس بعد تخرجه، فاختار التدريس .. ليتم تعيينه مدرساً في مدينة ينبع عام ١٣٥٤هـ.

الدراسة في مصر:

جاءت النقلة الثانية العامة في حياة الجاسر .. مع ابتعاثه إلى مصر – بعد أربع سنوات من الانقطاع عن الدراسة (عام ١٣٥٨هـ / ١٩٣٨م) – ومع أيامه الأولى في القاهرة .. أعلن عن رغبته في الالتحاق بكلية الآداب – بالجامعة المصرية – وذهب إلى الدكتور شفيق غربال عميد الآداب بالجامعة المصرية وقتها.. فأحاله إلى الدكتور طه حسين قائلاً: أيصح أن يكون لديكم كل هذا العدد من الطلبة، وليس بينهم واحد في كلية الآداب؟) ثم أخذ وأعطى مع الجاسر حول ما قرأ .. ولمن قرأ .. ثم أعطاه في النهاية بطاقة شخصية ذهب بها في اليوم التالي لمسجل الكلية الذي أخذ في إجراءات تسجيله.

كأن محاضرات الآداب وأساتذتها وأجواءها في تلك الفترة لم تستهوه بذلك القدر الذي جذبه إليها عبق الجامعة القديم، وسمعتها التي طارت إلى أرجاء العالم العربي عنها وعن أساتذتها ومحاضراتها التي كانت دروساً في الفكر والفلسفة والسياسة. وفي العلم والأخلاق والدين، يتزاحم حول الاستماع إليها عشرات العشرات من الناس حتى خارج الجامعة .. لكن حياة القاهرة بمكتباتها وجوامعها وخطبائها، بآثارها ومتاحفها وعلمائها، بصحفها وكتابها وأدبائها، بندواتها وصوالينها، بساستها وأحزابها وبرلمانها، بشوارعها وحدائقها وميادينها، وبكل أدوات الحضارة والمدنية التي كان يعيشها الشارع المصري والحياة المصرية .. كانت تستوعبه بكل هذا الزخم .. وبكل هذه الحياة العريضة العميقة وتنضجه وتعمل على توهجه ليصير شيئاً. ليكون شيئاً بالمعرفة .. مائجاً بالخيرات .. مثقلاً بالثمار، كان أشبه بجبل لا يرتقى، وسهل لا يقتحم، وشعاب لا تتآكل، حكمته لا ينقصها الإقدام، وشجاعته لا ينقصها التروي، وعزيمته لا ينقصها الإيمان. ووسطيته لا ينقصها الحزم والحسم .. وبكل ذلك اقتحم الظلام والخوف والمجهول، فكان رائد التنوير و(طهطاوي الصحراء) وكان المعجمي الأول وكان أول من فتحت مجامع الخالدين أبوابها له.

إنه شخصية الصحراء – بكل قسماتها، تلك التي تذكر بأفذاذ الرجال الذين خرجوا من جوفها .. وشاع ذكرهم في الأزمان و وبقيت ذكراهم، آثارهم، بصماتهم .. فوق الدهور.

كفاحه في عالم الصحافة:

كانت بداية الكفاح ومعاناته مع الصحافة ومع نهاية عامه الدراسي الأول بآداب القاهرة.. مع بداية الحرب العالمية الثانية، فعاد الجاسر إلى الوطن ليعمل مدرساً بالإحساء، فمدرساً بمدرسة تحضير البعثات والمعهد العلمي السعودي بمكة .. فرئيساً لمراقبة التعليم في الظهران من عام ١٣٦٣ إلى عام ١٣٦٨هـ، حيث تم تعيينه معتمداً للمعارف بنجد .. لينتقل إلى الرياض. وليعود إليها بعد تسعة عشر عاماً .. وقد تغير كل شيء فيه وفيها .. ليتولى هذا المنصب التعليمي الرفيع في ذلك الوقت.

لقد كان يمكن أن يكفيه ذلك، وكان يمكن له – لو أنه أعطى نفسه بعضاً من الوقت – أن يتدرج أو يقفز إلى أعلى المناصب الوظيفية الحكومية وأرفعها .. وهو أهل لها، ولكن ذاته المعرفية التي وعت واستوعبت وتوهجت عبر السنين الماضية، وامتلأت حلماً وقلقاً. اختارت شيئاً آخر ليبدأ أول وأهم المنعطفات في حياته.

كانت خطوته الأولى.. هي افتتاح (مكتبة العرب) .. التي غدت تاريخياً – فيما بعد – أول مكتبة في الرياض. وذلك لتوفير الكتب الحديثة والصحف والمجلات لطلابها من الشبيبة الذين تكاثروا وازدادوا في الرياض .. وازداد نهمهم للاطلاع والمعرفة والثقافة من مصادرها وبواباتها المختلفة، كانت المكتبة .. أول شمعة يضيئها في ذلك الزمان، وبعد أربع سنوات من استقراره في الرياض تقدم بطلب السماح له بإصدار صحيفة يومية باسم (الرياض) .. على أن تبدأ شهرية .. فأسبوعية .. فيومية .. فصدر له الإذن بذلك، وحصل على الترخيص لينطلق بكل قواه وقدراته للتحضير لإصدار العدد الأول من تلك الصحيفة.

راح ينتظر اللحظة، وهو يعرف طريقه .. وسرعان ما جمع عزمه وعزيمته ومواد العدد الأول .. وطار إلى القاهرة .. إذ لا توجد مطابع في الرياض ومطبعتا مكة الكبيرتان مشغولتان: فـ (أم القرى).. مشغولة بطباعة جريدة (أم القرى) .. والمطبعة الأهلية مشغولة بطباعة جريدة (البلاد السعودية). تمت طباعة العدد الأول في شهر ذي الحجة من العام ذاته .. فأقبل عائداً إلى الرياض فرحاً سعيداً وهو يتأبط خمسة أعداد منه.. قدمها فور وصوله إلى ديوان ولي العهد مستبشراً طالباً الإذن بدخولها، والتفضل بأمر الخطوط السعودية لنقل الكمية الباقية إلى الرياض كسباً للوقت، وحفاظاً على المجلة، فرفض طلبه استعمال كلمة (الرياض) اسماً للمجلة، لأن إذناً صدر لصحيفة أخرى بهذا الاسم.

فكانت تلك أول الصدمات التي تلقاها في (الرياض)، وكان الحل أن يغير اسم المجلة.. من (الرياض) إلى (اليمامة).

اكتفى بتغيير غلاف المجلة – وحده – من (الرياض) إلى (اليمامة) وكانت (المفارقة) فيما بعد .. أن الكتاب والشعراء في داخل الرياض وخارجها وجدوا بين أيديهم مجلة – بعد وصولها – تحمل اسم (اليمامة).. وكل محتوياتها تتحدث عن (الرياض) المجلة الجديدة .. وأهدافها وخططها وآمالها المستقبلية .. لقد انتقدوا الجاسر على هذا الخطأ الفادح والفاضح وهم لا يدرون عن أسبابه .. إلا أن ما حدث، لم يضعف من حفاوة وحرارة الاستقبال التي استقبلت بها المجلة الوليدة .. في الداخل والخارج، فتوالى صدور الأعداد الأولى، ومعها بدأت تتضح صورة المجلة لقرائها ومعالم الصحافة التي أرادها الجاسر أن تكون أداة توجيه وتثقيف وبث للوعي وإعلام بما يجري.

في عام ١٣٧٤هـ أقام مطبعة الرياض .. لتتوالى طباعة مجلة اليمامة وغيرها من الصحف والمجلات والمطبوعات الأخرى التي أخذ ظهورها يتوالى، فكانت أول مطبعة صحفية في الرياض .. تتولى – فعلا – إلى جانب طباعة مجلة اليمامة .. طباعة مجلة الجزيرة والقصيم، وصحف ومجلات أسبوعية وشهرية

أخرى، وفي العام ذاته تم تعيينه مديراً لكليتي الشريعة واللغة العربية.

وفي عام ١٣٧٥هـ تحولت (المجلة الشهرية) .. إلى صحيفة أسبوعية .. بدأت معالجتها لمختلف قضايا الساعة الهامة، وفي مقدمتها شؤون الوطن وشجونه بجرأة وحماس .. لقي خلالها متاعب فوق الاحتمال.

ففي العام الثاني من صدورها أسبوعية كتب الجاسر مرحّباً بالزعيم الهندي اللامع: جواهر لآل نهرو، الذي قدم لزيارة الرياض لأول مرة ضيفاً على الملك سعود .. بعنوان: (مرحباً .. برسول السلام).. فثار الرقيب الديني على ذلك المقال ثورة مضرية، وأخذ قراراً بفصله من وظيفتيه الرسميتين: مديراً لكليتي الشريعة واللغة العربية.

وكتب فيما بعد افتتاحية بعنوان: (هؤلاء الكتاب المضلّلون) .. حمل فيها على أولئك الذين يضللون ولاة الأمر بتزييف الحقائق وتزيين الباطل، وإطلاق البخور لما يستحق ومالا يستحق من الأعمال .. فعقدت له لجنة خاصة للتحقيق معه واستجوابه .. كان من بين أعضائها (يوسف ياسين) – رجل الخارجية – بحكم رئاسته لـ (قلم المطبوعات) بها.

سئل الجاسر عمن قصدهم في مقاله؟ فأجاب بأنه قصد كل كاتب يزيف الحقائق وكل كاتب يزين الباطل، فقال له يوسف ياسين: لكنك أشرت إليهم صراحة، عندما قلت بأنهم أولئك (الذين يتسنمون منابر الوعظ والإرشاد)؟ فحاول الجاسر أن يدافع عن وجهة نظره ويتمسك بها .. لكن سؤال اللجنة ظل قائماً ينتظر إجابته الصريحة أو اعترافه الصريح فيمن عناهم بـ (المضللين)؟ فلما لم يجب ... أمهل ليومين، لكنه لم يغير فيهما رأيه .. وظل متمسكاً بما سبق وأن قاله بأنه عمم ولم يخصص ولم يسم فئة أو شخصاً، ليتم احتجازه بعدها لأسبوعين. لقد كانت تلك هي ذروة تصادمه مع الرقابة .. إلا أن ما حدث فيها على قسوته لم ينل من إيمانه وسلوكه وصبره ذلك المعنى الساطع والنبيل: (إن أصحاب الرسالات .. لا ينشدون الاستقرار)..

استأنف الجاسر عمله وكأن شيئاً لم يكن، ونشر مقالاً (غفلا من التوقيع) لكاتب – ممنوع من الكتابة – هو الأستاذ عبد الله البخيت بعنوان: (بين العاطفة والواجب) .. تناول فيه الكاتب أولئك الموظفين والمسؤولين الذين يقدمون عواطفهم وما تغريهم به .. على واجبهم الوظيفي وضمائرهم، ولأن الكاتب كان موظفاً .. وكان يكتب على ورق (المؤسسة) التي يعمل بها، وكان له أسلوبه الخاص والمميز .. فقد عرف من هو، ولم يفد الجاسر إنكاره شخصية كاتب المقال الحقيقية أو تحمله لمسؤولية ما كتب .. أمام اللجنة العليا التي أحيل إليها لاستجوابه، باعتبار أن ما حدث منه مخالفة صريحة لنظام المطبوعات.

وفي عام ١٣٨٠هـ استمرت اليمامة في الصدور بعيداً عن صاحبها ورئيس تحريرها، وعند صدور نظام المؤسسات الصحفية الجديد عام ١٣٨٣هـ، هم إنشاء مؤسسة صحفية باسم (اليمامة) وتولى الجاسر رئاسة تحرير اليمامة وعمل على إصدار صحيفة الرياض اليومية، حلمه القديم الذي آن الأوان لتحقيقه مع صدورها في ١٣٨٥هـ فترأس تحريرها لفترة ثم تم اختيار رئيس تحرير لها، ثم منح امتياز دار للنشر ومجلة يصدرها لتنشأ (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) وتصدر مجلة العرب من بيروت .. في عام ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) ويبدأ الجاسر مشواراً آخر مع داره الجديدة ومجلته الجديدة.

لقد اختار الجاسر (الحقيقة) .. وأضاء مصباحاً اسمه (مكتبة العرب) .. ومصباحاً اسمه مؤسسة اليمامة .. ومصباحاً اسمه مطبعة الرياض، ولاقى في سبيل ذلك ما لاقاه من عنت وضنك ومشاق يضيق الوقت عن حصرها...

جهوده في الأعمال الجغرافية:

البعد (الثاني) في صورة (حمد الجاسر)، هو في اتجاهه الفريد والمتميز نحو (المعاجم الجغرافية): رصداً وتدويناً، كتابة وإصداراً، حثاً واستمالة للآخرين، فالأمر يتطلب – كما قال – في مقدمة معجمه الثاني عن المنطقة الشرقية: (تضافر جهود

كثير من الباحثين من أبناء البلاد، وأن يتولى الكتابة عن كل منطقة من مناطق المملكة ذوو الكفاءة والقدرة على الكتابة، فهم أقدر من غيرهم، وصولاً إلى (المعجم الكبير) الذي يضمم أجزاء المملكة العربية السعودية كلها: مواضعها ومواقعها، قراها ومدنها، سهولها وجبالها ووديانها، إيماناً منه بأن هذه المعاجم هي ذاكرة الوطن الجغرافية .. وأنها مستودع التعرف على ثرواته .. وأنها المدخل إلى معرفة التاريخ فمن لا يعرف أرضه، لا يعرف تاريخه، ومن لا يعرف تاريخه يتعذر عليه معرفة موقعه من الكون .. فـ (لئن كانت الغاية من تأليف المعجم تحديد مواقع المدن والقرى والأمكنة المأهولة في المملكة في زماننا الحاضر، فإن هذا لا يكمل بدون إيجاد الصلة بين ما لهذه البلاد من ماض ذي تأثير قوي مباشر .. بحاضرها) .. لقد ذرع الجاسر أرض المنطقة الشرقية والتي كانت تسمى قديماً بـ (البحرين): من جنوب البصرة (شمالاً).. إلى شمال عمان (جنوباً) إلى صحراء النفوذ (غرباً) .. بالسيارات والدواب والخطى، ومر على ما يزيد على أربعة آلاف كيلو متر من السواحل والأودية والجبال والشعاب تحت سماء صيفها لاهب، ووطأة سنين تزيد على السبعين ليكتب في النهاية (معجم المنطقة الشرقية) (البحرين قديماً).

لقد تزامن هذا (البعد) مع البعد الأول في صورة الجاسر في حياته، إلا أنه لم يظهر إلا بعد ما يزيد على الثلاثين عاماً (١٣٨٦هـ) مع دعوته التي وجهها من فوق منبره الجديد مجلة (العرب) للأدباء والمثقفين والكتاب في مناطق المملكة المختلفة، لأن ما يكتبوا عن مناطقهم معاجم جغرافية تمهيداً لصدورها مجتمعة في (المعجم الكبير) لكأن الثلاثين سنة التي تصرمت، كانت سنوات استعداد واستيعاب وامتلاء .. ليصل بها الجاسر ما انقطع من ذلك العلم طوال الثمانية قرون الماضية .. من عهد ياقوت الحموي وكتابه الجامع الفريد: (معجم البلدان) إلى عصرنا الحاضر.

لقد كانت بدايات هذا (البعد) في صورة الجاسر، في حياته .. كالنهايات وما

بينهما: بسيطة ورائعة، فعندما ذهب إلى مدينة ينبع بعد تخرجه في المعهد العلمي السعودي للتدريس في مدرستها الابتدائية (عام١٣٥٤هـ)، ووقف أمام طلبة الفصل السادس ليشرح لهم – في درس المحفوظات – أبياتاً – من لامية (أبي العلاء المعري):

((ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل   عفاف وإقدام وحزم ونائل))

إلى أن وصل إلى البيت الذي يقول:

((يهم الليالي بعض ما أنا مضمر   ويثقل رضوى دون ما أنا حامل))

فأخذ يسهب في شرحه قائلاً: أما (رضوى) .. فهو جبل قريب من (المدينة) .. وهو جبل سهل، ترقاه الإبل .. استناداً إلى ما قرأه في شرح (مقامات الحريري)، فصاح الطلبة بصوت واحد: لا .. يا أستاذ .. هاهو (رضوى) أمامك، كانت النافذة مفتوحة .. فبدأ الجبل أمامه بشموخه وارتفاعه .. فلا هو بالقريب من المدينة .. ولا هو بالسهل الذي يمكن أن ترقاه الإبل كما قال شارح (مقامات الحريري). لقد أعطى الجاسر درساً للطلبة .. واخذ درساً منهم.

وكان للحادثة أثرها وتأثيرها عليه، إذ كيف يصح وهو ابن الجزيرة العربية أن لا يعرف (جبلاً) ترضى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قال: (رضوى .. رضي الله عنه).

كانت الحادثة دافعاً وحافزاً له لمعرفة المواقع والمواضع .. كانت فاتحة الباب للرجل الذي سيصبح فيما بعد واحداً من أهم من دونوا معاجم جغرافية الجزيرة العربية ودعوا الآخرين وشجعوهم على ذلك تصحيحاً وتصويباً لأولئك الذين كتبوا نقلاً ولم يتحروا الدقة .. فجاءت كتاباتهم ناقصة أو خاطئة كـ (شارح مقامات الحريري) الذي وقع فيه ومعه المحقق الراحل.

ويشاء الله فيتعطل صرف الرواتب لسبعة شهور متصلة مما اضطر شيخنا لبيع

ممتلكاته القليلة حتى وصل إلى بيع كتبه التي كان أثمنها وأجملها وأقدرها على جذب المشترين كتاب (ياقوت الحموي) : (معجم البلدان) .. فقد اشتراه بمئة وخمسين ريالاً واضطر لبيعه بستين ريالاً لكنه استأذن المشتري في أن يبقيه لديه شهراً .. وخلال ذلك الشهر قام بنقل كل ما كان يتعلق بتعريف أمكنة الجزيرة العربية ومواقعها ومواضعها في كتاب (الحموي).

وفي القاهرة خلال دراسته بالجامعة المصرية .. كانت الظروف الطبيعية في ذلك الوقت تكمل الحوافز والبواعث التي رسمت عن هذا التوجه في حياة الجاسر، فقد ذهب يوماً إلى مكتب البريد - لإرسال رسالة إلى (الطائف). فسأله موظف البريد بعاميته المصرية: (والطايف دي فين بقى؟ في السودان) ؟!

لقد اجتمعت وتجمعت كل هذه المواقف والأحداث لتتلاقى مع هيامه الأصيل وعشقه الممتد الجذور لجزيرته .. لترسم هذا التوجه، هذا البعد في صورة وحياة الجاسر وإن ظل على يقينه بأنه لو لم يجر له ما جرى في ينبع .. فـ (من يدري فقد تكون لي وجهة أخرى)؟.

لقد امتلأ الجاسر بكل البواعث والحوافز .. ودعا بكل حماس والإخلاص الآخرين لكي يكتبوا عن مناطقهم، فاستجاب الكثيرون..

وإذا كان للكاتب الإنكليزي المعجمي اللغوي (صمويل جونسون) تحفظات على المعاجم جميعها عندما قال: (ما أشبه المعاجم بالساعات، فكما أنه لا غنى لنا عن أقلها جودة.. فكذلك لا نبرئ أكملها جودة من نقص فيها)، فإن للجاسر ذات التحفظ.. عندما قال في مقدمة معجمه عن (شمال المملكة): (إن جهد المرء - مهما بلغ من قوة - محدود، فالموضوع متشعب واسع .. ومهما بالغ واجتهد فلن يبلغ الغاية .. ومن يسلم من الخطأ).

ورغم تحفظات (صمويل) اللغوي والجاسر الجغرافي .. ستبقى معاجمه الجغرافية إنجازاً فذاً بأدق المقاييس وأصعبها، ويبقى بدعوته وإسهامه .. بجهده وخطاه .. بعمله وحبات عرقه التي تساقطت واختلطت برمال الأرض: رائد رواد

المعجميين الجغرافيين للجزيرة العربية .. اليوم وغداً.

البعد المجمعي في حياته:

لم يتشكل البعد (المجمعي) .. في حياة الجاسر وهو البعد (الثالث) في صورته، لأنه كان مفتوناً – وحسب – بكتب التراث: لغة وشعراً ونثراً وأنساباً ومواقع ومواضع، عاشقاً للأصفهاني و(أغانيه) وللجاحظ وبخلائه وللطبري وتاريخه .. هائماً بأبي تمام والبحتري وحماستهما .. وقد رأى نسخة من شرح ديوانهما الذي ألفّ للمعتضد بن عباد ملك إشبيلية في مكتبة الأسكوريال في اسبانيا .. وقال عنها نشواناً: إنها نسخة بديعة لا نظير لها، كأنها وضعت اليوم لما لها من الرونق والجلاء العجيب) .. ولا لأنه كان يجري في طول الدنيا وعرضها.. يبحث عن مكتبة .. وكتاب .. ومخطوطة، لأنه كان ينبش عن كتب لم نقرأها ولم نسمع عنها .. ولم نعرفها .. كـ (كتاب: (الشرف الأعلى في ذكر مقبرة المعلا) .. وكتاب: (معنى النصيحة لذوي العقول الفصيحة) وكتاب (الخصال المكفرة للذنوب المتقدمة والمتأخرة).. ولكن لأنه كان إلى جانب كل ذلك الفتون والعشق والهيام ودوافعهم وبواعثهم يحمل تلك الذات المعرفية القلقة والبركانية الطموح، والتي توهجت عبر سنين تجاربه مع القلم والصحافة ومصابيح التنوير التي أشعلها حتى أسيء فهمه .. مؤكداً – ربما من حيث لا يدري ولا يريد – قوله ذلك الفيلسوف : (لكي تكون عظيماً .. لابد وأن يساء فهمك) .. لقد عبرت تلك الذات عن نفسها بعلمها وبحثها وثقافتها التراثية الأصيلة المتنوعة .. فلفتت إليها الأنظار والأسماع في الخارج كما في الداخل، في وقت مبكر وقبل أن يصدر صاحبها (اليمامة). ويتسنم إدارة كليتي: الشريعة واللغة، ولقد تجاور مع كل هذا سؤال كان يلح عليه ولا يجد له جواباً وهو يتابع أخبار وإصدارات مجامع للغة العربية في دمشق وبغداد والقاهرة: وكيف .. لا يكون لنا .. (مجمع للغة الغربية) يعني باللغة وتراثها وآدابها وتاريخها ومفرداتها، ويعمل مع بقية المجامع في خدمتها وإعلاء شأنها .. وأرضنا أرض اللغة ..

وأرضنا مهبط وحيها ومهد قرآنها ومسرى نبيها (صلى الله عليه وسلم) لقد غابت الجزيرة عن تلك المجامع .. وأصبح الخروج إلى البحر الواسع الكبير .. حلماً وتعبيراً غامضاً وإن كان مبرراً لتلك الذات وقلقها وطموحها.

وفي مهرجان (أبي العلاء المعري)، قام بزيارة لدمشق .. و (مجمعها اللغوي) حيث التقى برئيسه الأستاذ العالم محمد كرد علي .. ودار الحديث حول المناسبة والإصدارات التي غطت شعر أبي العلاء ورسائله: لزومياته ولزوم مالايلزم ودرته الخالدة: رسالة الغفران .. فاستدرك الجاسر على (المجمع) إغفاله شرح أبي العلاء لديوان (السلمي) وقد رأى مخطوطتها .. فطلب منه أن يكتب بحثاً عن ذلك، ففعل .. ليطلب منه المجمع أن يكون عضواً (مراسلاً) لأول مجمع عربي للغة – أنشئ في دمشق عام ١٣٣٧هـ – ١٩١٨م ليصبح عضواً مراسلاً في ثالث المجامع اللغوية ببغداد والذي تم تأسيسه عام ١٣٦٧هـ – ١٩٤٧م، وليتم انتخابه بعد ذلك عضواً عاملاً بأهم المجاميع العربية وأكبرها وأحفلها بالرموز الأدبية والفكرية، والذي تقوم العضوية فيه على الجدارة والكفاءة .. وليس غيرهما، إنه مجمع اللغة العربية بالقاهرة .. أو مجمع الخالدين كما عرف بين الأوساط الثقافية ليخلف الدكتور عبد الوهاب خلاف في مقعده.

لقد أصدر مجمع القاهرة سلسلة من الإصدارات الجليلة الهامة، تتقدمها تلك المعاجم الثلاثة: معجم ألفاظ القرآن بأجزائه الستة، والمعجم الوسيط بجزئيه، والمعجم الكبير الذي صدر منه جزؤه الأول عن حرف الهمزة في سبعمائة وعشرين صفحة، بعد أن مات دعامته الأولى والذي عمل فيه لنصف قرن من الزمان المستشرق واللغوي الألماني الكبير (أوغست فيشر).. قبل إنجازه لتتبعثر كل الأوراق التي كتبها ولم يتم العثور – بعد وفاته – إلا على المقدمة وأجزاء من حرف الهمزة وحرف الباء، وكان للجاسر شرف الإسهام في تلك الإصدارات الجليلة بإضافاته وشروحاته وتصويباته واستدراكاته التي نافت عن المائة استدراك على جزء حرف الباء من المعجم الكبير.

لقد وصل الجاسر بعلمه وجهاده .. بكده وعرقه، بعشقه لأرضه ومواضعها وهيامه بلغته وتراثها وإلى مجمع الخالدين، طاوياً أزمان النسيان والإغفال الثقافي للجزيرة العربية، وليقف جنباً إلى جنب مع طه حسين والعقاد والحكيم وأحمد زكي وغيرهم من أساطين العلم والمعرفة والثقافة: حيث يجب أن يكون، وتكون ذاته المعرفية القلقة بأحلامها والمتوهجة بآمالها.

مؤلفاته: نافت مؤلفات حمد الجاسر على الثلاثين كتاباً تأليفاً ومراجعة وتحقيقاً وإعداداً، وهي:

- المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية. - قسم شمال المملكة (٣) أجزاء.
- قسم المنطقة الشرقية (٤) أجزاء. - المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية المختصر.
- مقدمة المعجم الجغرافي. - مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ. - بلاد ينبع.
- صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد الهمداني، تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع، مراجعة.
- بلاد العرب للحسن بن عبد الله الأصفهاني، تحقيق.
- المناسك وتحديد أماكن الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق.
- المغانم المطابة في معالم طابة، تأليف الفيروز أبادي، تحقيق.
- الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تأليف عبد القادر ابن أحمد الجزيري الحنبلي، تحقيق (٣) مجلدات.
- في شمال غرب الجزيرة، تأليف. - في سراة غامد وزهران، تأليف.
- رسائل في تاريخ المدينة، تحقيق.
- تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، تأليف إبراهيم بن صالح بن عيسة، تحقيق.
- البرق اليماني في الفتح العثماني، تأليف قطب الدين النهروالي، تحقيق.

- الإيناس في علم الأنساب، تأليف الحسين بن علي الوزير المغربي، ومعه كتاب (مؤتلف القبائل ومختلفها) تأليف محمد بن حبيب، تحقيق.
- معجم قبائل المملكة العربية السعودية، تأليف، جزءان.
- جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد، تأليف، جزءان.
- باهلة القبيلة المفترى عليها، تأليف.
- (كتاب الجوهرتين) في التعدين والمعادن، تأليف الحسن بن أحمد بن يعقوب، تحقيق.
- أدب الخواص، تأليف الحسين بن علي بن الحسين الوزير المغربي، تحقيق.
- التعليقات والنوادر لأبي هارون ابن زكريا الهجري، تحقيق، (٤) أجزاء.
- نظرات في كتاب تاج العروس، إعداد. - مع الشعراء، بقلم.
- رحلات بقلم. - مجلة العرب، ثمانية وعشرون مجلداً.
- ابن عربي موطد الحكم الأموي في نجد، تأليف.
- معجم أسماء الخيل العربية، تأليف.
- الأماكن، تحقيق.



عبد الرزاق البصير :

لا أدب بغير الحرية، ولا حياة بغير العدالة...

عبد الرزاق البصير، واحد من رواد النهضة الأدبية التي عبرت عن طموحات أدباء وشعراء الكويت في فترة الأربعينات، حينما بدأت الحياة في الكويت تتجه إلى الارتباط القومي والوطني مع ثقافات العالم المتحضر، وتنهل من روافد هذه الثقافة في مختلف الفنون والعلوم والمعرفة.

شق عبد الرزاق البصير دربه بعزيمة لا تلين وصبر لا ينفد وجهد في التحصيل، ومثابرة في العلم وعشق فريد للاطلاع والقراءة، والإبحار مع الكتاب في كل اتجاه، حتى شيد لذاته صرحاً من الفكر ونهراً من الثقافة، واقفاً شامخاً بالمعرفة والتذوق الأدبي والاقتراب الحميم من كنوز الأدب والمعارف والتراث.

وأدرك البصير أن الأدب مرتبط بالحياة والإنسان في كل عصر وكل زمان "ولا يكون الأدب متكاملاً إلا إذا عالج جميع أمور الحياة وقضاياها معالجة فنية مخلصة"، وظل البصير ينهل من هذه المنابع العذبة، فانفتحت أمامه حياة أخرى يرى فيها مشاهد من آثار أمم غابرة، ونماذج من بطولات الشعراء، ترقد في بطون الصفحات، وصوراً نابضة بالحب والجمال والحرية وقيماً تبدو في مرايا الأدب.

والبصير، الذي فقد بصره وهو في الرابعة من عمره نتيجة إصابته بمرض الجدري، امتلك القدرة على البحث في أعماق العصور الأدبية وتحليل الواقع وإضاءة جوانبه المعتمة، من خلال مقالاته الزاخرة بالصور الإنسانية والشعراء الذين تغنوا بالحب، وقدسوا القيم وعاشوا من أجل قضايا أمتهم.

وعشق البصير الكتب فيقول: "إطلاعي الأدبي والثقافي قاصر على الاستمتاع بما يقرأ لي من مقتنياتي الأدبية، وأسعد شيء عندي أن يأتي لي صديق يقرأ ويكتب

لي قصائدي، وأهلي وشقيقي كانوا يأتون لي ويكتبون ما أمليه عليهم. واستطعت بفضل هؤلاء أن أشارك في النشاطات الأدبية منذ ذلك الوقت.

لقب البصير:

أما عن لقب البصير فيقول: "عندما كتبت أول مقال في جريدة "البحرين" عام ١٩٤٣ أثناء المعركة الأدبية بين د.زكي مبارك والأديب أحمد أمين، وافقني البعض وعارضني البعض الآخر. وقد أحدث هذا المقال ضجة كبيرة وردود فعل بين القراء وكان هناك شخص اسمه عبد الرحيم روزيه شاركني الرأي، وآخر اسمه راشد المبارك خالفني الرأي، واتهمني أنني أنظر للأمور من منظار أسود.. أما الذي وافقني فقال عن أنني أنظر للأمور ببصيرتي، وقد أعجبني هذا التعبير واستهواني وأصبح ملازماً لي منذ ذلك الوقت".

أديب الالتزام:

ويعتبر البصير من أدباء الالتزام الذين يكتبون من أجل أهداف وطنية وقومية وإنسانية، فهناك رسالة واعية يخاطب الأديب فيها أمته وأهله ووطنه، يتألم معهم ويعايش مسراتهم وأحزانهم، غير أنه يبحث في الظلام دائماً عن إضاءة، هذه الإضاءة تنبع من الحرية، حرية الأديب في التعبير وتحليل الواقع وطرح تساؤلاته دون خوف من مصادرة أو رهبة من نظام أو حاكم. ولذلك لن يستطيع الشاعر أو الأديب أن يواكب عصره ويتلاءم معه، إلا إذا حقق لذاته هذه الحرية المسؤولة "ليتمكن المثقفون من إبداء آرائهم في كل ما يرونه مخالفاً للمنطق الصحيح، فنحن نعلم جميعاً أن كثيراً من العوائق والعقبات تمنع المثقفين من أن يبدوا آراءهم وأفكارهم، إذ إن كثيراً من أقطار هذا الوطن تعيش في إرهاب فكري مخيف، لا يكاد أحد منهم يدعو إلى تحكيم العقل والمنطق أو إعادة النظر في بعض الأمور والقضايا، إلا ويجد سيف الإرهاب مسلطاً عليه. والقاعدة في كل الأمم المتحضرة

في هذا العصر أن تقارع الحجة بالحجة. أما عندنا فإن الحجة كثيراً ما تواجه بالقمع والاضطهاد، حتى كأننا نعيش في العصور الوسطى، وهـذا أمـر يجعـل الأدبـاء والمفكرين يعتزلون دورهم، وكل أمة لا يمكن أن تكون مـسيرتها صـحيحة إلا إذا أخذ الأدباء دورهم وتمكنوا من أداء رسالتهم"

ولذلك تقرأ للبصير فتزداد قناعة بأنه يشق دربه بحرية تعبير يدعو لها، وعشق للعدالة يحلم أن تسود البشر ورفض للظلم الذي يطارد الأحرار والشعوب المناضـلة فوق الأرض، تعاني وتتألم .. ويصرخ ضد التعسف والقهر وكل من يقف ضد القيم والمبادئ الإنسانية..

البصير وطه حسين:

ارتبط عبد الرزاق البصير بطه حسين ارتباطاً إنسانياً حين التقى به في كتـاب "الأيام" وتوطدت أواصر الصداقة، ورشحه عميد الأدب العربـي ليكـون عـضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية في القاهرة .. وبدأ البصير يشارك من خلال الأبحـاث التي كان يرسلها أو بحضوره جلسات المؤتمر العام. وأعجـب البـصير بالجانـب الإنساني والأدبي والعلمي لطه حسين، وكيف وهب هذا الأديب ذاته لتربية ضـمائر البشر والاطلاع على مختلف الفنون والعلوم، التي برعت فيها الـشعوب وتفوقـت واجتازت حضارات كثيرة، وكيف صمد طه حسين أمام خصومه وخاض معـارك أدبية وسياسية ضد الأحزاب، وأساءه فهم بعض مواقفه حول الشعر الجاهلي وحرية العلم والمتعلمين، ونهضة الشعب والقضاء على الأمية والفقر والرجعية.

وفي الحقيقة تلمح في كتابات البصير تأثراً واضـحاً بأسـلوب طـه حـسين، فالبصير يميل إلى اللغة الفصحى الثرية ويبتعد دائماً عن اللفـظ الخامـل، ويـؤثر الإطناب والمترادفات في الوصف ويسهب في تحليل الفكرة. ويهتم البـصير أيـضاً بإدخال نصوص شعرية في ثنايا مقالاته لتدعم فكرته وتوضع المعنى وتبسطه أمـام القراء.

البصير والشعر:

سافر البصير في أول رحلة له إلى لبنان صيف عام ١٩٥١، والتقى بأول فتاة خفق لها قلبه في بلدة (فالوغا) فقد كانت تقرأ له الصحف بصوتها الهامس الرقيق وتمضي معه معظم النهار، واكتشف أن لها رأياً في الحياة يلائم رأيه ومعتقداته فكتب فيها:

(الله يا أيام فالوغا   هيهات أن نلقى لها من مثيل
فيها قطفنا كل ما نشتهي   من خلق عذب وظل ظليل)

وقد أورد هذه الحادثة "خالد سعود الزيد" في كتابه "أدباء الكويت في قرنين" (ج٢ ط١ ١٩٨١)، مضيفاً أن البصير لم يقل الشعر قبلها .. ولم يقله بعدها مطلقاً. ولكن من يتابع مقالات البصير يكتشف بعض النصوص الشعرية التي يستشهد بها مع أفكاره، دون أن يشير إلى قائلها أو شاعرها، ولذلك يرجح بأن هناك قصائد كثيرة كتبها البصير متناثرة بين ثنايا مقالاته وتواضعاً منه يفضل أن لا يقول إنه ناظمها أو شاعرها.

وهناك أكثر من مناسبة اثارت أشجان البصير فنظم بضعة أبيات معبراً عن ذاته، ومن هذه المواقف يقول: "كان الزميل محمد قاسم يلقي كلمة بمناسبة الهجرة، فكان موفقاً كل التوفيق في الإلقاء وفي إجادة الموضوع فقال: والعرب هم العرب، وكان لهذه الكلمة أثرها في نفسي، فقد مست شعوراً خفياً حركت شجناً مكبوتاً، وكان من نتائجها أن نظمت هذه الأبيات:

(هم العرب في كل العصور هم العرب   إذا ما استطار الشر واستعظم الخطب
هم العرب إن ساروا فللمجد سيرهم   وللعزة الشماء يستعجل الركب
هم العرب ما هابوا جحافل قيصر   ولا راعهم كسرى الأعاجم إذا هبوا)

وإذا كان البصير قد أكد أنه نظم هذه الأبيات، فإنه قد عدل عن ذكر ذلك في

بعض المقالات. فقد تحدث في مقال له عن "الأدب وحتمية الوحدة"، وأورد نصوصاً لشعراء كثيرين دعوا للوحدة العربية واستثاروا عزائم الشعوب، وعبروا عن مواقف النضال ضد الطامعين، فذكر نصوصاً للزهاوي وفؤاد حجازي ومحمد علي الحوماني ومحمد بهجت الأثري وحافظ إبراهيم، وفي نهاية المقال يقدم نصاً شعريا دون أن يذكر اسم قائله يقول: وأي حر لا تهتز مشاعره حينما يقرأ هذه الأبيات:

(حلل الحب ما التعصب حرم　　واتحدنا فما خلقنا لنقسم
شرع مجدنا سواء نسبنا　　مجد صنين أم نخيل المقطم
حدثونا عن انفصال فلذنا　　باتصال من العواطف محكم
رب سور على الحدود منيع　　إن لمسناه بالشعور تهدم
ما بناه علوج عهد انتداب　　كيف تبنيه دولة الخال والعم
شهد الله ما أردنا زعيما　　غير من حرر البلاد ونظم
والزعيم الذي يقود السرايا　　يوم ثار هو الزعيم المعظم)

وفي مقال بعنوان: "النظرة الصحيحة للحياة" يقدم البصير نصاً شعرياً دون أن نعرف اسم الشاعر صاحب النص، وإن كان قد ذكر أسماء شعراء آخرين مقترنة بأشعارهم، ومنهم نسيب عريضة ومعروف الرصافي وإيليا أبو ماضي، ولكن هذا النص الشعري جاء مجهول الهوية، وإن كنت أعتقد أنه للبصير:

(إذا لم تسعك النفس فالكون كله　　وآفاقه للمرء أضيق من قبر
ففي الفكر نيران وفي الفكر جنة　　وما آفة الإنسان إلا من الفكر)

ولذلك نكاد نحسب بأن هذه النصوص للبصير، وقد رفض أن ينسبها لنفسه، لاعتقاده أن الشعر مملكة لها طقوسها الفنية وإبداعها الراقي، وتواضعا منه لا يرى أنه ينتسب إلى مملكة الشعر أو عالم الشعراء وإن كان حقاً لديه رصيد من هذه

القصائد التي تمنحه لقب شاعر مبدع.

فهذا رثاؤه عندما علم بفقد أحمد البشر الرومي الصديق والإنسان، فيقول:

(يا راحلاً أكبرتك الحادثـــات ومـــا   أكبرتهـــا عنـــد تلييـــن وتـــشديـــد

أبكيت حتى العلا والمكرمات ومـــا   جفت عليــك مــآقي الخـــرّد الخـــود

وبات أهلــك والأصــحاب كلهـــم   عليك ما بـــين محـــزون ومعمـــود

يبكون فقد امرئ للخيـــر منتـــسب   بالبشر منتقب في النـــاس محمـــود)

ولذلك لا بد من البحث مرات كثيرة في أدب البصير، لعلنا نعثر على نصوص شعرية داخل أوراقه الخاصة ومكتبه. فقد كان طه حسين يكتـــب الـــشعر وتوفيـــق الحكيم ومحمد متولي الشعراوي، ولكن هؤلاء أخفوا مشاعرهم الذاتيـــة وأحاسيـــسهم الرقيقة وانساقوا في تيار أهداف اعتبروها أجمل وأعلى وأرقى مـــن التعبيـــر عـــن الذات. ولكن جاء من نشر قصائدهم بعد رحيلهم، فكانت كنـــوزاً للـــنفس الإنـــسانية وارتباطها بالحياة والحب والألم.

ومما يؤكد سمة التواضع ما يقوله البصير في مقدمة أحد كتبه: "وكاتـــب هـــذه السطور من هذا النوع من الناس، يعتقد في نفسه أن طاقاته الفكرية والفنية طاقـــات محدودة جداً، وهو إذ يقدم هذه الأحاديث المتواضعة إنما هو مـــن بـــاب الاســـتجابة لكثير من الأصدقاء، ثم إنه يرى في تقديمها نوعاً من التعليم للكاتب نفـــسه، فربمـــا يقرأها ناقد نزيه فيتفضل بإرشاده إلى ما ابتعد عنه من صواب الفكر وينبهه إلى مـــا غفل عنه من خطأ في الأسلوب"

البصير في سطور:

حفظ البصير القرآن الكريم في كتاب المطوعة صالحة الشمالي (معلمة أهليـــة) في مدرسة مختلطة، ودرس الحكمة والفلسفة وعلوم الدين على يدي الـــشيخ حـــسين الفيلي، ثم سافر إلى الخارج لإكمال دراسته.

- عند عودته عمل قاضياً ٢٤ عاماً في محاكم الأحوال الشخصية. اهتم بالأدب ومحاولة التعبير عن الذات فنشر أول مقال له في جريدة "البحرين" عام ١٩٤٣م، ثم تعرف على الحركة الأدبية في الوطن العربي فكتب إلى مجلة "الرسالة" لرئيس تحريرها أحمد حسن الزيات.
- في عام ١٩٥٢ اشترك في النادي الثقافي القومي الكويتي وكتب مقالات في إصدارته مثل: مجلة "الإيمان" و"ملحق الإيمان". كما ساهم بالكتابة في مجلة "البعثة" التي كانت تصدر عن بيت الكويت بالقاهرة.
- شغل وظائف أخرى هي: أمين مكتبة دائرة المطبوعات والنشر عام ١٩٥٦م، وأمين مكتبة وزارة الإعلام حتى عام ١٩٩١م.
- كان عضواً في مؤسسات ثقافية وأدبية منها: المجلس الاستشاري للإعلام، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، لجنة التراث العربي والبحوث والترجمة، النادي الثقافي القومي عام ١٩٥٢. ولجنة الرقابة ورابطة الأدباء.
- من مؤلفات البصير: "تأملات في الحياة والأدب"، "في رياض الفكر"، "شعراء مجهولون معروفون"، "الخليج العربي والحضارة المعاصرة، "نظرات في النقد والأدب".

تحدث عنه معاصروه من الأدباء والمفكرين، فيقول عنه محمد جابر الأنصاري: "اكتشفت في عبد الرزاق البصير كاتباً يتصف بوضوح الفكر وعفوية الأسلوب، إلى جانب ما تمتاز به عقليته من انفتاح إنساني وصفاء عربي، ونزوع نحو التقدمية والروح العلمية والتحليل الفلسفي المتقدم"

ويقول د. محمد حسن عبد الله: "إنه أسخى كتّاب المقالة في الكويت قلماً، فما تكاد تمضي مناسبة أو يلم حادث إلا ويكون قلم البصير أول المستجيبين. فكتب في السياسة المحلية والقومية وفلسفة الفن والتربية والرحلات والمسرح والقصة والنقد الأدبي والحضارة والأخلاق، والتراث والأديان والمذاهب والصحافة".

وتذكر الأديبة ليلى محمد صالح في كتابها "أدباء وأديبات" (١٩٩٦ الكويت):

"البصير هو أحد الأدباء الصامدين على أرض دولة الكويت أثناء العدوان الآثم. كان يرى الخراب والدمار والسلب والنهب ويتألم وهو العربي الانتماء القومي الهوى. كان يختزن الكم الهائل من الحزن بصدره الواسع حتى جاء يوم التحرير فخرج يشم رائحة الكويت".

توثقت علاقة الأديب البصير مع طه حسين عندما كتب عنه البصير مقالاً ونشره في مجلة "الرسالة"، ثم أرسل المقال إلى عميد الأدب العربي الذي بدوره كتب للبصير وتعرف عليه. وعندما زار البصير القاهرة عام ١٩٥٣ قام بزيارة طه حسين وتحدث معه عن كتاب "الأيام"، وكيف كان له أثر كبير في نفسه وحياته. ويقول البصير عن هذا الموقف: "كان الحديث جداً لطيفاً وواصلت زيارة طه حسين كل عام، واجلس مع ابنته أمينة وزوجته سوزان التي لا تتكلم العربية بفصاحة".

وقد أعجب طه حسين بموقف البصير ونضاله ومثابرته وتغلبه على قهر الزمن، وشجعه بأن رشحه عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ويقول الباحث الكويتي خالد سعود الزيد عن البصير في كتابه "أدباء الكويت في قرنين" (الجزء الثاني – الطبعة الأولى ١٩٨١) : "عربي الوجه واللسان حرمته الحياة نعمة البصر، فأشرق ببصيرته عليها معطياً إياها العطاء الأوفى".

ويقول عنه عبد العزيز الصرعاوي: "هو صاحب قلم وحامل رسالة منذ حوالي نصف قرن من الزمان، هي رسالة القلم ونشر المعرفة والثقافة والتنوير والانفتاح على مختلف التيارات المعاصرة، الفكرية والعلمية والثقافية والسياسية، يدعو إلى التواصل والبعد عن التعصب والفرقة والتخاصم. هو بكل المقاييس رجل عصامي كوّن نفسه بنفسه حتى أصبح علامة مضيئة بارزة في سماء الكويت".





ناظم الجعفري:

آخر رواد الجمال في رواق الإبداع

ناظم الجعفري:- الإيمان الصادق والعلم والإتقان أول شروط الفن الخالد

- ليس في الفن مدارس بل حرفية وإبداع والفن الجيد هو فن عالمي

تراه من الصباح المبكر في الأحياء الشعبية الضيقة، وفي الأسواق المزدحمة التي تضج بالحركة والحياة اليومية، تراه معه قلمه وأوراقه مستغرقاً برسم قسمات الوجوه ومعالم التراث المتألقة: المدارس الأثرية، المساجد القديمة، البيوت والأسواق الشعبية المتضوعة بعطر الماضي، يقضي نهاره يخطط ويرسم، وينقل إلى الأوراق بعين الفنان البصيرة بمواطن الجمال وروح الإنسان المتعشقة لتراث الأجيال، كل ما اختزنته المدينة من مشاهد حضارية وإنسانية وحين يشعر الفنان بالاكتفاء يتوجه إلى مرسمه الحميم، ليبدأ رحلته الحقيقة في إنجاز لوحته الفنية المبهرة، وإغنائها بلمسات الإبداع السحرية، وألوان الحياة المشرقة، فتندب فيها الروح، ويسطع الجمال وتغدو عملاً أخاذاً تكاملت له كل عناصر التقنية والموهبة الخلاقة.

ظل لقاء الفنان الكبير "ناظم الجعفري" أمنية غالية من بداية عملي الصحفي وظل الدخول إلى عالمه الخاص حيث ينجز مواضيعه الرائعة، حلماً دائماً يحول دونه شمم انفنان المكتفي بما يمنحه له الفن الصادق من رضى وسعادة، وعزوف الأستاذ الرائد عن بهارج الدعاية وصخب وسائل الإعلام، ولكن الفرصة واتتني مؤخراً وحظيت بالدخول إلى سرادق الإبداع، حيث أمضيت ساعة وبعضها، كنت فيها مبهوراً بما أرى وأسمع ولا أصدق باني حققت أمنيتي فعلاً.

مضى الفنان الجعفري يحكي لي بصوته ألحاني جوانب من رحلته الشائقة، وأنا أتنقل بنظرتي بين أساريره الوديعة، وعينيه المتألقين - برغم تقدم العمر - بإشعاع المحبة والسلام، ثم أختلس النظر إلى اللوحات الرائعة التي احتضنتها

جدران البيت والمرسم، فتحولا إلى فردوس خيالي متدفق بالعذوبة والجمال ... كان يحدثني فأشعر بصوته يأتيني كموسيقا رقيقه وسط مشاهد الطبيعة الأسرة والوجوه المتألقة في لوحاته.

البدايات:

ولدت عام ١٩١٨ - يقول الجعفري - في عالم خارج لتوه من اتون حرب عالمية طاحنة وتفتحت عيناي في حارة شعبية، لأسرة دمشقية متواضعة، وفي مرحلة التعليم الابتدائي بدأت أتلمس خطواتي على طريق الرحلة الطويلة، اكتشف معلمي (شوقي جلال) وكنت في الصف الرابع بعد بذور الموهبة الفنية في خطوطي فأخذ بيدي وشجعني حتى بت أتقن رسم نماذج زخرفية تتدرج في مستوياتها وحين رغبت فيما بعد بالالتحاق بمكتب عنبر، أول مدرسة تجهيزية بدمشق اشتركت بمسابقة للتعبير ونجحت فيها وكان أستاذ الرسم (جورج خوري) فأفادني بخبرته ووضعني على أول الطريق الصحيح إلى حلمي الكبير.

كلفنا المعلم يوماً بعمل نموذج لغلاف كتاب يتطلب إبداعاً خاصاً، لكن يكون جذاباً ومغرباً للقارئ، فعدت للبيت وأمضيت أياماً منبطحاً على الأرض، أخط وأمحو وأرسم وألون حتى رضيت عما أنجزت، وفي المعهد جمع المعلم أعمال الطلاب وقيّمها ثم جاءنا بالنتائج .. كان قلبي لحظتها مرجلاً يخفق بانتظار درجتي .. ولم يخب ظني فقد كنت الأول ودرجتي ١٩ من ٢٠، وبذلك تحقق لي تفوق واضح رحت معه أرسم لطلاب دار المعلمين وظائفهم، ومن يومها استحوذني الفن، وملأت عطلاتي الصيفية بالعمل مساعداً لمعلمي الذي كان يعمل بزخرفة الدور والقصور في دمشق، وكان عبارة أبي الدائمة تلاحقني الرسم لا يطعم خبزاً يا ولدي فاختر لك صنعة تأكل منها...

الحلقة الأولى: القاهرة:

جاءت النقلة الحاسمة في مسيرة "ناظم الجعفري" في مرحلة تالية (قرأت إعلاناً للكلية العلمية الوطنية) بدمشق – وكانت أيامها في مقدمة المدارس النموذجية – تطلب فيه معلمين لجميع المواد ولم أكن يومها قد نلت شهادتي التخصصية، فتوسط لي الأديب والفنان ممدوح حقي لدى مدير الكلية "منيف العائدي" فباشرت عملي فيها ثم تم الإعلان عالم ١٩٤٢ عن مسابقة لإيفاد طلاب لمتابعة التحصيل العالي بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة، فأعانني المربي أنور الرفاعي في إرسال نماذج من عملي إلى الكلية، كان جواز سفري للالتحاق بالبعثة الدراسية، وفي القاهرة وضعت قدمي على بداية الطريق الصحيح إلى مستقبلي الفني.

طلب إليّ في يومي الأول بالكلية تأدية امتحان عملي في الرسم، وتركت في غرفة مغلقة مع أدواتي وحسناء عارية (نموذج) فلم يمر غير وقت قصير حتى كان عملي منجزاً وحائزاً، على إعجاب الأساتذة وتقديرهم ... ولما كنت مثابراً ومستغرقاً في دراستي لا يشغلني عنها شاغل، فقد اختصرت سنوات دراستي إلى أربع سنوات تكاملت فيها خبرتي بشكل مكنني من تصحيح أعمال زملائي الطلاب ولما حل موعد امتحان التخرج، وجدتني أمام لجنة من فنانين مرموقين من خارج الكلية وطلب إليّ رسم لوحة تمثل فناناً يعمل في مرسمه وعنده عدد من الزوار، وقد أنهيت اللوحة – كالعادة بوقت قياسي وحزت عنها الترتيب الأول.

مشوار طويل مع الإبداع: تخرج ناظم الجعفري من القاهرة عام ١٩٤٧ وعاد للوطن ممتلئاً بالحماسة والمحبة، ومعتزماً أن يجعل عمله الفني في خدمة بلده، وأن يسهم في نهضته من جانبين:

الأول: أن يؤسس لمدرسة فنية راقية يحتضن فيها المواهب الواعدة، ويمكّنها من تحقيق أحلامها الزاهية لتكون بدورها الروافد الجديدة للحركة التشكيلية في سوريا.

الثاني: أن يزيح الستار عن وجوه الوطن الحضارية ويعيد الألق للتراث العريق من خلال توثيقه في لوحات فنية رائعة، وبالنسبة للجانب الأول، راح الفنان

الجعفري – من خلال عمله مدرساً للتربية الفنية في مدارس دمشق الثانوية – يحبب طلابه إلى الفن، ويغرس في نفوسهم نبتة الجمال لتنمو وتزدهر فأقبلو عليه يملؤهم شغف كبير بالمادة، وهو ما أثمر فيما بعد كوكبة من الأسماء الشهيرة في ميدان الحركة الفنية في سوريا.

وبالنسبة للمجال الثاني، افتتح الجعفري مرسمه بشاعر بغداد عام ١٩٤٨، وعكف فيه مواصلاً العمل والإنتاج ليل نهار، لتكون محصلته عشرات اللوحات الرائعة ضمها معرضه الفردي الأول الذي أقيم في العام نفسه، وقد حظي المعرض بإقبال واسع ولفتت أعمال الفنان الأنظار وتحدثت عنها وسائل الإعلام، وأثنى عليها النقاد والفنانون، وبدأت شهرته تحتل مكانتها اللائقة بين رواد الحركة الفنية في سوريا ولاعتبارات متعددة منها: أسلوبه الأنيق الذي تمتزج فيه الواقعية بالرومانسية ويوائم بينها في عمل اكتملت له شروط التقنية الفائقة والروحانية السامية فلوحاته الجميلة تجمع في آن واحد بين قوى الأداء حيث تبهر المتلقي أدق التفاصيل التي برع الفنان في اقتناصها وتسجيلها بصدق متناه وبين الحس الإنساني النبيل الذي تنطق به اللمسات الرشيقة المرهفة وبذا يصبح المشاهد جزءاً من العمل الإبداعي بما يعكسه هذا العمل من ألق الجمال وما يبثه في النفوس من دفء وحميمة ومشاعر إنسانية.

ومن الاعتبارات الأخرى كذلك اختيار الفنان لمواضيعه بعناية وتدقيق فمن المجالات الكثيرة التي خلدها بريشته المبدعة اهتم الجعفري بموضوعين أثيرين إلى نفسه:

الأول: رسم الشخصيات (البورتريه) والوجوه الإنسانية بمختلف نماذجها، وهو واحد من أصعب الأعمال الفنية، لما يتطلب من عين ذواقة، وحسن مرهف ومهارة عالية وصبر كبير...

الثاني: رسم معالم معشوقته الأغلى: مدينة دمشق الساحرة، والتوثيق لمعالمها المتألقة على مدار الزمان: حاراتها الضيقة، بيوتها الشعبية، أسواقها، مدارسها

مساجدها ... وكل لمسة معمارية أنيقة تركها الجدود في المدينة وقد ناف عدد لوحاته في هذا المجال وحده على خمسة آلاف لوحة بقياسات مختلفة.

وقد حقق الفنان في المجالين تفوقاً بقصر عنه الوصف فأصبحت لوحاته قبلة الأنظار في سائر المعارض الفنية سواء في بلده أو في الخارج.

إبداع خالد في ذاكرة الأجيال:

شارك الجعفري في المعرض الدولي الثامن والخمسين الذي أقيم بمدينة (ريو دي جانبرو) عام ١٩٥٣ ونال الجائزة الفخرية الأول، واقتنت "موسكو" عام ١٩٥٨ لوحته (حي الخضرية) بمكافأة مجزية.

وشارك في المعرض الدولي بباريس عام ١٩٦٤ وحاز الميدالية الذهبية من اللجنة الفنية المشرقة على المعرض.

وفي آخر معارضه الفردية عام ١٩٦٠ بدمشق، تدفق جمهور حاشد إلى صالة المعرض لم تشهد المدينة حضوراً مماثلاً له، وكتب ناقد فني مشهور في سجل الزيارة: (سيبقى أبناء جيلنا يذكرون بالعرفان عطاء ناظم الجعفري، ويفخرون بأنهم عاشوا في عصر الفنان الرائد) .. وفي ذلك العام أصبح رئيساً لقسم التصوير الزيتي بكلية الفنون بجامعة دمشق، وكان من بين طلابه في الكلية نخبة من فناني سوريا: الفريد حتمل، أسعد عرابي، ممتاز البحرة، وغيرهم... وعلى أيديهم تخرجت كوكبة من الفنانين الشباب الذين مثلوا الروافد الجديدة للحركة التشكيلية السورية، ثم وبعد تقاعده عن العمل في الكلية وجد الفنان نفسه طليقاً لمتابعة عمله الحر، ولاستغراقه في إنجاز مئات الأعمال الجميلة، التي تراكمت في منزله ومرسمه، وتضم لوحات "البورتريه" ومشاهد الطبيعية، ومعالم دمشق القديمة والحياة اليومية فيها، والمهن الدولية والأزهار والفواكه الدمشقية.

في عام ١٩٧٢ دعي فنانو سوريا للمشاركة في المعرض الفني العالمي بإيطاليا، ضمن شروط محددة، ولم تتوفر هذه الشروط إلا في الفنان ناظم الجعفري

فحمل أعماله إلى المعرض، حيث استقبلت بحفاوة وتقدير كبيرين من النقاد والزوار على حد سواء، واغتنم الفنان الفرصة فرسم عشرات اللوحات لمدينة (بيروجيا) الأثرية (١٧٦ كم عن روما) وما تزال لوحاته محفوظة في متحفها إلى اليوم.

إبداع أو لا إبداع:

- **أسأل الفنان القدير: في أي مدرسة فنية تستطيع أن ندرج أعمالك الإبداعية خلال مسيرتك الطويلة فيجيب:**

إن المدارس الفنية التي تشير إليه ليست غير تسميات لأساليب دارجة على ألسنة المشتغلين بالرسم وأنا أبسّط لك الموضوع كما يلي: دعنا نضع أمامنا عملين فنيين.

الأول: من إبداع فنان اكتملت له الشروط الصحيحة للعمل الفني، والأخرى لدخيل على الإبداع ونترك للخبير - وهو لا يعرف صاحبي العملين - تفسيرهما والحكم عليهما، ومنه نستطيع أن نفرق بين الحقيقي والمزيف، وبمعنى آخر إما أن يكون العمل متقناً ومستكملاً لشروطه أو، لا ... وإذن ليس هناك مدارس، بل إبداع أو لا إبداع.

- **ولماذا نجح أسلافنا في إثراء تراثنا فخلدت أعمالهم ثم توقفنا نحن عن متابعة المسيرة؟**

يجيب الجعفري: كان الإيمان الصادق هو النبض المتدفق في الصدور يحرك الإبداع في الفكر والفن يقول تعالى: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ولكن المشايخ لم يتمعنوا في هذا القول المجيد فحرموا التصوير، وليس هنالك نص صريح بتحريمه، ولو آمنوا به بصدق وعرفوا ما فيه من إكبار وتبجيل للعلم والعمل والابتكار لكانوا أول من يبارك الإبداع الصحيح والملتزم ... إن النجار والبناء والمهندس، يتعرفون إلى عظمة الخالق القدير من خلال عملهم المتقن

ويعطون منجزات راقية، وأنا في هؤلاء أتقرب إلى الله بعملي، فأجوده وأتقنه وامنح الناس ما يفيدهم ويجعل حياتهم أكثر سعادة.

- **بهذا المنظور إذن ما هي معادلة الفن الراقي الذي يكتب له الخلود.**

أن يستوفي العمل شروطه كاملة بدون أخطاء الرسم أو التصوير (التجسيم) إن نظرة الفنان التحليلية قادرة على تجسيد المشاعر والعواطف الإنسانية المتقدة في الأعماق ... وفي أعمالي كلها أنطلق من علم النفس، وأستطيع أن أقدم عن كل منها تقديراً تحليلياً يكشف عن دواخل النفس الإنسانية والمشاعر المحتدمة فيها، لقد آمنت دوماً بالعلم وبالقيمة العلمية الثمينة للفن، ووضعت نصب عيني لافتة: إما أن أكون حقيقاً أو لا ... وإذا لم أعد قادراً على مواصلة طريقي ... فسأختار أية مهنة أخرى ... سأفتح مكتب زواج مثلاً).

- **ما الذي يحتاجه الفن العربي ليصبح عالمياً؟**

الفن هو الفن حيث كان، وليست له جنسية محددة، أنت ترسم مثل الآخرين خلائق الله فإذا توفرت لك الشروط الضرورية فهو فن عالمي في حد ذاته. وهنا أنصح الجيل الجديد من الأبناء أن يمشوا الخطوات الصحيحة والمتأنية وعلى الطريق الواضح – وهو طويل وشاق – وأن يوفروا لعملهم مستلزماته من الصدق والصبر وعدم اللهاث وراء الشهرة، لأن الشهرة لا تعانق إلا المبدعين الحقيقيين.

كنز في قبو متعم:

ولا أثقل على الفنان المبدع، بل أرافقه في جولة ممتعة على أعماله الراقية التي أنجزها في مسيرته الطويلة وأطوف بعيني على عشرات اللوحات الفنية المثبتة على الجدران:

لوحات (بورتريه)، وجوه من بلادي، الحياة اليومية، الأحياء القديمة، مساجد

دمشق وقبابها المهن اليدوية، الأزهار والفواكه الدمشقية، وهذه كلها أعمال موسوعية توثق لمدينة دمشق الخالدة.

وأسأل: هل أنا حقيقة وسط هذا المهرجان الخلاب أمتع بصري بسحر الفن الراقي؟ أم هو حلم ما يلبث أن يتزايل وأسأل بمرارةً أين أصبحت محصلة هذه المسيرة الشاقة والجميلة في آن؟

لقد رجوت ألا أطرح هذا السؤال يوماً، فأنكأ في القلوب حسرة فوق الاحتمال ... إن كل هذه الأعمال الباهرة، إما معلقة على الجدران في بيت الفنان، وإما مكدسة في صناديق كرتونية بالعشرات، أو مكومة في قبو مظلم تتآكلها الرطوبة والعتمة.

لقد همس الفنان باستحياء، منذ سنوات، في مسامع محبيه عن رغبته بإهداء أعماله للدولة مجاناً لتبقى محفوظة في متحف خاص به، يقام في بيت من بيوت دمشق القديمة وهي بالعشرات في تصرف محافظة دمشق، وما سمع الهمسة مسؤول.. كما طرح الفنانون والنقاد في مسامع المسؤولين فكرة تكريم أعمال الجعفري وقد أشرف على شيخوخة لا ترحم، ولم تر الفكرة النور إلى اليوم، ويبقى الكنز الفني مهملاً في غياهب النسيان، وتبقى الثروة الوطنية التي لا يعادلها ثمن، مهددة بالاندثار، تستصرخ ضمائر المهتمين ... فهل من مجيب؟

أحب مدينته، وعبر عن مشاعره بعفوية وإخلاص

الحديث عن مدينة دمشق في أوابدها التاريخية، ومعالمها الأثرية، وبيوتها الدمشقية القديمة في سياق الفن التشكيلي والهندسة المعمارية والجماليات الشرقية، يفترض الحديث عن عوالم الفنان التشكيلي السوري العالمي "ناظم الجعفري" الفنية، فالعلاقة ما بينهما جدلية، وجود أحدهما يستدعي وجود الأخر بالضرورة لما بينهما من عشق ووله وتفاعل، وهذه المسألة جد مهمة وتحتاج لأكثر من وقفة تأمل واستبصار، وإلى دراسات تقييمية فنية وسيكولوجية.

لقد كانت وما زالت مدينة دمشق القديمة أغنية الفنان "الجعفري" ومعزوفته الإبداعية ومنهله الدائم، وبات الفنان معها كالعاشق الواله الذي لا يعرف لمحبته حدوداً، هكذا كانت دمشق، وهكذا كان الفنان "ناظم الجعفري" وفياً لهذا الإرث الخالد وفاء لا يوصف، ومجالاً حيوياً لمآثره الفنية التسجيلية في جماليات مميزة، آيات تشكيلية لتفاصيل يومية مليئة بدقائق الأمور في لوحات تشكيلية مشبعة بالديمومة ونسغ الحياة، توثيقية، تسجيلية، مرجعية في كل خطوطها وملوناتها الإبداعية، ومكوناتها البنائية، وفي كل حي من أحيائها، وكل مئذنة في جوامعها، إلا وتجد لها متسعاً في لقطات فنية مباشرة مفعمة بالحياة والشموخ والأصالة، متجاوزة حدود الزمان، صارخة في وجه ناطحات الإسمنت العالية المليئة بصخب المدينة المعاصرة وضجيجها.

الفنان "ناظم الجعفري" غني عن التعريف، وهو من أكثر الفنانين السوريين شهرة في الساحة العربية والعالم الغربي ... تجاوزت مكانته الفنية حدود المنطقة العربية، وهو بحق أحد الفنانين الرواد الذين أرسوا أحجار الأساس المتينة لإقامة صرح وبنيان الفن التشكيلي السوري المعاصر، لما له من دور مؤثر وفاعل في تنشئة الأجيال الفنية منذ خمسين عاماً خلت، أسلوبه الفني ومنهجيته التعبيرية تأثرت منذ البداية في موطن الدراسة الأكاديمية التي تلقى فيها علومه، وصقلت موهبته


المبكرة حيث أخذت مؤثرات هذه المدرسة وسماتها تصبغ أعمـــال الفنـــان بـــشكل واضح، أسلوبا فكرياً وطريقة تعبيرية وتقنية في التعامل الفني مع مكونـــات عملـــه، والفنان "الجعفري" له فلسفته ونظرته الخاصة للأمور في الفن والحياة منحاز تمامـــاً إلى فنه وأسلوبه التعبيري "الانطباعية"، ولا يقبل ولا يرضى الخروج عن مفهومـــه الذاتي التربوي والإنساني والتكويني لمفهوم الفن، ودوره الوظيفي في بنـــاء صـــرح الحضارة والحياة بأسمى معانيها، وإحقاق الحقوق وكشف خفايا النفوس كحالة راقية من حالات الاستبصار والتعميق وشمولية النظر الإنسانية في الحياة وأســـرارها، ولا يتعايش مع ما يعرف بالحداثة والمعاصرة التعبيرية في الفن كالتجريديـــة، التكعيبيـــة الدادائية، وغيرها والمتأثرة بالمدارس الأوروبية الوافدة.. فـــالفن لديـــه لـــه وظيفـــة اجتماعية، إنسانية، وجمالية، محددة منسجمة وقوله تعالى: {وخلقنـــا الإنـــسان فـــي أحسن تكوين}، فالجمالية وواقعية اللقطة والانطبـــاع التـــسجيلي هـــي المرتكـــزات الأساسية التي ينطلق الفنان من خلالها في صياغة عمله الفني الإبداعي، دون تشويه لهذا المخلوق الجميل، فالأفراد باختلاف فئاتهم الاجتماعية هم محور اهتمامه ومجاله الحيوي في تصوير الحياة بأبهى صورها، اللون لديه مليء بالخصوصية، وطريقتـــه الأدائية في تنفيذ محتوى إبداعاته ونماذجه لا تقف عند حـــدود المـــشاهدة العاديـــة لتصوير "الموديل" وإنما تتجاوز في سبر أغوار النفس وأعماقها، والكشف الـــصريح عن كينونته النموذج وطبيعة الشخصية، وكأن الفنان يمثل حالـــة الطبيـــب النفـــسي الماهر الذي يحسن وضع اليد على الوجع، ملوناته وضربات ريـــشته تأخـــذ حالـــة الانطباع الأول المحبب للنفس في تفاعل داخلي للفنان مع موضوعه وتـــدرج فـــي إطار الواقعية التسجيلية، بلمسات وتوشيحات انطباعية لا ترى إلا عن بعـــد ومـــن خلال النظرة الشاملة للكتل البصرية كوحدة متآلفة ومتكاملة في كل أبعادها وقيمهـــا الشكلية واللونية، في تناسق وتوزع "هارموني" للون الموصل إلى أســـرار اللوحـــة الخالدة.

وأنماط الفنان التعبيرية تتجسد في أربع تقنيات تصويرية رئيسة:

(قلم الرصاص والفحم، والألوان الزيتية، ألوان الباستيل، وأقـلام الفلوماسـتر الملونة)، اهتمامه بالنموذج الإنساني والتعبير الجمالي عنه واضح في كل لوحاتـه، يعتمد في بناء مكونات عناصره على التوزيع الـدقيق والمتناسـق للخـط واللـون لمحددات الكتل البشرية والخلفيات البنائية، تأخذ منحنيين الأول تسجيلي مباشر لهـذه المكونات من الطبيعة والحياة اليومية العامة، والثاني من خلال نماذج (البورتريـه) في جلسات تصويرية في مرسمه، وفي كلا الحالتين نجد البناء الـدرامي الملحمـي لمكونات شخوصه من كم تعبيري ترصده عين الفنان الخبيرة والثاقبـة فـي ألـوان منسجمة ومتوافقة حيناً ومتناقضة في تسجيل انطباعات حسية إدراكية يطرقها الفنان بريشته ضربات جميلة الإيقاعات برتابة تكاملية، ما بين تدرجات الألـوان الدافئـة والباردة والمتجسدة في ألوان الطيف (السبعة)، تأخذ حيويتها وإشراقها مـن أشـعة الشمس الذهبية، أما بالنسبة لرسومه المنفذة بتقنية أقلام (الفلوماستر) الملونـة فهـي بدورها مدعاة للإثارة والتقدير لأهميتها الفنية والتاريخية، إذ تفصح بمـا لا يقطعـه الشك عن قدرة الفنان الحرفية والتصويرية الفائقة في رسم نماذجه المباشـرة - دون الاستعانة برسوم سريعة (كروكي) - حيث يدخل الفنان من خلالها في حالـة ولَـه وعشق حقيقي لمكونات عناصره الفنية، مسجلاً مآثر مدينة خالدة في بيوتها الدمشقية القديمة، كنوع من المحبة والتوثيقية تتجاوز في جماليتها وكمياتها أية تجربة مماثلة.

وإن دل هذا على شيء إنما يدل على جودة فائقـة وأصـالة تعبيريـة لفنـان متمرس، مبدع خلاق أحب بلده حباً كبيراً، وامتلك مقدرة تصويرية شاملة للتعامـل التقني والفكري مع نماذجه في أسلوبية تعبيرية مميـزة تفـيض شـفافية وحيويـة وجمالية.





نصير شورى:

رؤيا جديدة وأسلوب مختلف، مع كل عمل فني جميل

في المعرض الرابع للفنون الجميلة الذي أقيم صيف عام ١٩٥٥ بدمشق، تمهل الجمهور العاشر من النقاد والمهتمين بالفنون، عند لوحة متميزة تصدرت ركناً في صالة العرض، أسماها مبدعها الفنان "نصير شورى" "ابتهال" وقد لفت اللوحة الأنظار بتقنيتها الفائقة وتعبيرها الصادق عما يكنه الفنان من شاعر مرهفة، ويبشر هذا العمل المميز بانطلاقة فنان قدير، احتل مكانته اللائقة في مقدمة مبدعي الحركة التشكيلية في سوريا.

حدثني الفنان ذات أمسية بحكاية الحسناء التي أوحت له بهذه اللوحة الجميلة وهي صبية في العقد الثاني من عمرها، ومن أسرة كريمة في "صوفيا" دمرت الحرب العالمية الثانية وطنها، وقضت على أسرتها، فلجأت إلى ألمانيا مع أمها المريضة، حيث عملت ليل نهار لتعليلها وتسهر على رعايتها، متابعة في الوقت نفسه تحصيلها في مدينة فرانكفورت ... فلما ماتت الأم توجهت الصبية إلى روما وعملت موديلاً لواحد من كبار الرسامين الإيطاليين ولكن متاعبها تزايدت جراء ويلات الحرب وتعطلها عن العمل وفي تلك الآونة تعرفت على طالب سوري يدرس الفن في روما فرافقته لدى عودته إلى الوطن لتعمل بالمراسلات التجارية، وفي دمشق، زارت مع صديقتها مرسم الفنان "شورى" الذي استمع إلى حكايتها بروح الفنان الإنسان، فاندفع يرسمها مستوحياً من الحكاية الحزينة موضوعاً شفافاً تتجلى فيه الضراعة إلى الله، ليكشف عنها همومها، ويضيء دربها إلى السعادة وكانت لوحة "ابتهال" التي نالت الإعجاب، وحازت بجدارة على جائزة المعرض الرابع للفنون الجميلة يومذاك، وكانت بداية المسيرة المتألقة للفنان الرائد.

ولد نصير شورى بدمشق عام ١٩٢٠ وأوفد إلى بعثة لدراسة الفنون في روما

عام ١٩٣٩، ولكن اندلاع الحرب العالمية اضطره للعودة، والالتحاق بكلية الفنون الجميلة العليا بالقاهرة، ليتابع تحصيله الفني على أساتذتها الأعلام، ويتخرج فيها بامتياز عام ١٩٤٧ وشهدت المرحلة الثانية تنقله بين عواصم الفن العالمي، باريس وروما وصوفيا، ودرسدن، وطوافه في متاحفها العريقة، ومعارضها الفنية الشهيرة ليعيش في أجواء الإبداع ويطلع على مدارس الفن وأساليب المبدعين المتفوقين ويختزن في أعماقه ثروة من كنوز التراث الفني الراقي، فلما عاد إلى الوطن عمل بالتدريس في كلية الفنون الجميلة العليا بدمشق، وتوالت معارضه سنة بعد أخرى، يقدم فيها نتاجه المرموق الذي .. لقي الترحاب والتكريم، وأهله لاحتلال موقعه في الصدارة مع كوكبة المبدعين الرواد أمثال مجايليه: ميشيل كرشة، ناظم الجعفري، محمود حماد، صلاح الناشف، محمود حلال ورشاد قصيباتي وغيرهم.

وقد بادر النقاد والباحثون في الحركة التشكيلية السورية إلى دراسة أعمال الفنان شورى، ومتابعة مسيرته الفنية المتألقة، وتقييم أعماله المبدعة، فذكر الدكتور "عفيف البهنسي" أن شورى عرف منذ بداية ممارسته الفنية، في الثلاثينات، أن هدف الفن هو التعبير عن جمال الطبيعة، ولم تكن هذه المعرفة جديدة في ذاتها، ولكنها لم تحمل دائماً المسؤولية التي تحملها الفنان.

إن ثمة أنماطاً للطبيعة: في حد ذاتها، والطبيعة في المرسم، والطبيعة في رؤية الفنان، ولكن النمط الذي اختص به الفنان، هو محصلة ذلك كله، وأمام مشهد في لوحاته، تتلمس المناخ في هذه المدينة الجميلة، وتتجلى لنا مهارة المصور في تنفيذ الألوان وتنفيذ اللمسات الانطباعية. ويعقب الناقد التشكيلي "طارق الشريف" بدأ مصير شورى انطباعياً حين كانت الواقعية هي السائدة، فعالج الألوان، وقدمها بشفافية وموسيقا تتدرج ثم تمرد فتساءل الآخرون: ما الذي يفعله شورى إنه يلجأ إلى الألوان فيغني الطبيعة بشاعرية وانطباعية وهي ليست بالانطباعية المألوفة، لقد توصل إلى لون خاص هو انطباعية بلادنا ومحلية الشمس فيها.

في كل لوحة كان نصير شورى يطرح قضية جديدة، ينظم اللون، ويعمل

علاقات كروية، ثم يقدم مساحات لونية فيها درجات مختلفة من الأزرق والبنفسجي والأحمر، إنه يفتح آفاقاً جديدة لم نكن نعرفها، لم يكن فناناً هادئاً، بل كان ثائراً، ما استقر على أسلوب إلا وبدّله ولم يبدّله وحسب، بل بدّل في الرؤية، وفي كل مرة، يقدم شخصية "نصير" الثائرة المتمردة التي طبقت جيلاً بأكمله.

وتتوالى شهادات النقاد والباحثين:

نتأمل لوحات "نصير شورى" يقول الفنان الدكتور غازي الخالدي فنشعر أن كل شجرة من هذه الأشجار، هي تأليف خاص به ليست موجودة في الطبيعة على الإطلاق، وهذا ما يسمى التأليف بالشكل واللون، وبدرجته وتقنيته وحساسية اللون فاللمسة وراء اللمسة، ومن خلالها يوحي بالحجم، ولكن ليس بطريقة اللمسة المتتابعة كما هي لدى الانطباعيين، بل عن طريق إخراج المساحة بشم ظل ونور، إلى الإيحاء بالحجم، وهذا هو الأمر المذهل عند نصير شورى.

وحين انتقل الفنان في الستينات إلى المرحلة التجريدية، استمر يحمل شخصيته المتفردة، في أعماله التجريدية وجدناه يضع أجوبة سهلة لعلم التلوين، فلم يترك مجالاً للسؤال عن قضية أو عن فكرة، لأنه حين انتقل إلى التجريد حمل معه ملونته القديمة التي سبق وشكلت شخصيته، وأضاف إليها التقنيات الهادئة التي ركزها في أكثر لوحاته الجديدة.

وكان من أصدق المعبرين عن تجربة الرائد الفنان "نصير شورى" الفنان "فيصل عجمي" الذي يشير إلى أن البساطة المتناهية التي بلغها "شورى" لم يبلغها واحد قبله وهنا سر كبير، طبع كل مراحل شخصيته، فهو من الصنف الذي إذا رسم على لوحة بيضاء قطعة أرض، رأينا أن كل الزنابق الدمشقية تتفتح ناضرة فيها، وتتدلى عرائش الياسمين مثل شلال موسيقا رقراق في بيت دمشقي عتيق.

رحل نصير شورى في اليوم الرابع من تشرين الثاني عام ١٩٩٢ وبقي مرسمه الباهر في دمشق، ركناً حميماً يحتضن أعماله الخالدة، ومعرضاً لتجارب

الأنامل الواعدة، وملتقى لعشاق البوح الجميل بالريشة المرهفة، واللـــون المـــصفى والموسيقا الرقراقة، وفي ذلك المرسم أتوقف في كل مرة أمام تمثال الفنان النـــصفي بتحية من القلب تترجمها همستي: شكراً لك فقد منحتنا متعة لا تقـــدر تتجـــدد كلمـــا طالعتنا أعمالك المتقنة الخالدة.

علاقات ملونة تتناغم بحساسية متقدة

هو فنان ومعلم نادر، تجمعت فيه من الصفات ما لا يجتمع لغيره من الفنانين، وأعطى العطاء الفني الذي وضعه في الطليعة، بين فنانينا خلال مختلف المراحل التي مرت بها تجربته الفنية، وعبر مسيرته الطويلة التي امتدت لأكثر من خمسين عاماً، وكان فيها مجلياً، وله مكانته التي حافظ عليها، ونهل منها الكثيرون.

كان الفنان يرى أن الفن هو الأخلاق، هو السلوك الحسن الأمثل الذي يحتذى، مما جعل فنه يتمتع بمواصفات خاصة، لا نراها عند غيره من الفنانين، وذلك لأنه أعطى الصورة المثلى عن التناغم والانسجام .. بين ما يرسمه الفنان في لوحته، وما يحياه في حياته، ومن هنا أتت العلاقة الوثيقة المترابطة بين الفنان .. وبين لوحته، بين ما يعيشه من مشكلات حياتية، وما يقدمه من أعمال فنية، وقدم لنا نموذجاً حياً، كيف يكون الفنان المعلم، ورسالته الاجتماعية، التي تحققت من خلال الفن، ورسالة الفنان نحو الآخرين، ورسالة العطاء التربوي تجاههم، والذي اشتهر به، فقد كان يعطي ما يسأل عنه، ويجزل في هذا العطاء، ويؤكد أن الخبرات الفنية، والمعلومات التقنية .. لا يمكن أن تحجب عن الطلاب والمتعلمين، ولهذا ربط الفن بالتربية الفنية .. برباط محكم، وأعطى المثال لرسالة الفنان المربي، ومنذ البداية .. وحتى النهاية.

وفي البداية أحب الطبيعة، وتدرب على يدها، وصقلت الطبيعة رؤيته الفنية، واختزن في أعماقه المشاهد اللا متناهية، التي كانت مصدراً لا ينضب معينه، ويعود إليها في كل مرة، ومن الحوار مع الطبيعة .. تهذبت ألوانه، وشفت، ورهفت، وتلاقى الواقع المرئي حوله مع اللوحة .. وتناغما، فكان الفنان (نصير شورى) الفنان المسجل للجمال والباحث عنه، ليقدمه للآخرين، وتلاقت جمالية الطبيعة المرهفة بالنفس الشفافة، وقدم العالم المتناسق الذي يجتمع فيه الفن الجميل، والتناسق اللوني ولهذا قيل عنه بأنه شاعر ينشد أعذب الألحان للطبيعة، وتعكس لوحته عالماً متكاملاً، فيه الموضوع القريب من المشاهد، والألوان .. التي عالجها بإحساس نادر، وشاعرية

فذة.

ومع ذلك، كان لديه الإحساس الطاغي بأن رحلته الفنية، التي انطلقت من (الطبيعة) و(النفس المرهفة الأحاسيس) و[التناغم اللوني] .. ما زالت تحتاج إلى الصقل، وخبراته الفنية التي كانت فطرية، وبدون دراسة، تحتاج إلى التدريب السليم في أكاديمية فنية، ولهذا بدأ يفكر بالسفر للدارسة خارج بلاده، وكان يفكر في [إيطاليا]، ولكن ظروف الحرب العالمية الثانية منعته، ولهذا سافر إلى [القاهرة]. وقد مدح عدد من أصدقائه كلية الفنون الجميلة في (القاهرة)، وليتابع دراسة الفن، والتعرف على اتجاهات الفن المعاصرة، والحديثة، وحاور الفنانين المشهورين، وزار المعارض، وعاش في دوامة من الصراع الحاد والجدل، حول قضايا الفن، ووجد الحلول لكثير من المشكلات، ولاكتشاف نفسه .. في النهاية، وأثبت إمكاناته الفنية الأكاديمية، وتجاوزها، وعلى الرغم من المظهر الهادئ الذي يبدو عليه، فإنه كان يعيش دوامة من القلق والرغبة في الوصول إلى تحقيق أحلامه، تقوده روح البحث والاكتشاف والتجديد، وحب المتابعة والتعرف، ولا يتوقف عند مرحلة يطمئن إليها، إلا ويبدأ في البحث عن حلول أخرى، وعن الغايات الأبعد لما وصل إليه، وعن شواطئ جديدة لإدراكها.

لقد برزت لديه روح التمرد والثورة فهو لا يقف عند حدود في بحثه، ولا يتوقف عن هذا البحث، منذ أن اختار الفن طريقاً له، وحتى النهاية، وذلك لكي يتوصل إلى [كلمة خاصة]، كيف يكون الفن؟ وكيف يتطور عمله ليعطي ما هو جديد، ولا يتوقف هذا البحث، وحتى الوصول إلى نتيجة، وذلك من اجل تحقيق شيء جديد لم يسبق إليه، فيكون فنه طليعياً مجدداً دوماً، ولكنه يظل مخلصاً لرسالته الرئيسية الفنية، وهي خلق لوحة فنية تأخذ من الواقع، وما حوله من مشاهد، وتخلص لهذا الواقع، وتقدم الفن على أنه علاقات ملونة، تتناغم بحساسية شديدة، كأنها [سيمفونية من الألوان]، وسواء كانت اللوحة واقعية أو تجريدية أو واقعية جديدة، وظل هذا الارتباط بالألوان، هو الذي يشدنا إلى أعماله، ويقودنا إلى عالمه. لقد كانت المصاعب كثيرة، وذلك منذ البداية،

حين اكتشف موهبته، وشجعه الآخرون على المتابعة، ولكن إصراره على دراسة الفنون جعلته يصطدم بالأهل والأقارب، فهم لا يريدون لابنهم أن يتوجه إلى مجال لم تكن يحظى بالاحترام المطلوب، وكان عليه أن يخترق هذه التقاليد كلها، ويرفض ما هو مألوف ومتعارف عليه، ويتحمل النتائج والتبعات، ويحقق حلمه في الدراسة، والمتابعة لطريق الفن، وكان دوماً يواجه المشكلات التي تصادفه، سواء كان يرسم في الطبيعة، أو يعرض أعماله في معرض، ويتساءل الناس عما كان يفعله، ولهذا فهو واحد من الفنانين القلة الذين واجهوا جمهوراً معادياً لهم، في الفن، وفي التدريس، وفي إقناع الناس بأهمية الفن ودوره الحضاري والإنساني.

وكانت المهمة شاقة أكثر، حين عاد من الدراسة في (القاهرة)، وعالج الموضوعات بالصياغة التقليدية، وقدم اللوحات التي تؤكد على موهبته في هذا الميدان، ولكنه لم يلبث أن تخلى عن هذه الطريقة التقليدية، وبدأ يحس بأن الطريقة الانطباعية هي أقرب إليه من الطريقة التقليدية التي تحاكي الموضوع، وأن محاورة الطبيعة تتطلب منه أن يعطي ما هو أبعد من المحاكاة، فقدم لوحات تعتمد على الألوان وحدها، وتعتمد القيم التصويرية من خلال اللون وحده، وهكذا خاض معركة مع الفنانين التقليديين السابقين له، الذين كانوا يؤمنون بالصياغة التقليدية، والاعتماد على المنظور التقليدي، والخط المحدد للأشكال الذي يعتبر هو الأساس والمنطلق، وهو الذي يشعرنا بقوة العمل ومتانة التأليف.

وعلينا أن ندرك أهمية ما طرحه [نصير شورى] في تلك المرحلة، حين قرر أن يحرر اللوحة من المحاكاة، والرسم ضمن قواعد محددة، ومنظور مسبق يفرض عليه أسلوب التنفيذ، وحتى الألوان كانت عبارة عن نقل لألوان الأشياء المرسومة، فأعطى اللون الأهمية الأولى، وبحث عن أسلوب يكمل الطبيعة عن طريقه، والإضافة لتكون أجمل مما هي عليه الآن، ويملك العمل الفني العمق والحيوية المطلوبة.

لقد قدم الأعمال التي كشفت عن مدى قدرته على خلق حوار مع الطبيعة، لأنه يستمد من هذه الطبيعة، ويضيف إليها، ويخلصها من كل نشاز، في موقع شجرة، أو

لون، أو شكل، ويعطي العالم الداخلي للفنان، وهكذا أوجد لوحة انطباعية خاصة به، تتجلى الطبيعة فيها كما رآها، وتتناغم الألوان، وتوصل إلى استخدام معالجة خاصة باللون، وإلى استخدام ألوان خاصة به، ولا نراها إلا عنده، مثل اللون [البنفسجي] الذي برع في استخدامه، وقدمه في لوحات كثيرة، وهكذا أغنى الانطباعية بما هو جديد.

ولم يكن، هذا سهلاً في البداية، وكان عليه أن يقنع مرة أخرى، أن [الفن الانطباعي] هو الفن المفضل لديه، وأن ما يقدمه من لوحات لا تقل أهمية عن اللوحات الأخرى التي تنقل الواقع أو تسجله، أو تحاكي الموضوع أو تقدمه، وكانت تلك المهمة شاقة، لأن عليه أن يقنع الناس، بان يتجاوزوا مفهوماً راسخاً لديهم، وهو أن الفن .. النقل عن الواقع، وأن الفنان الجيد هو الذي يستطيع أن يمارس النقل الأمين.

رسم "نصير شورى" اللوحات العديدة، وشارك في أكثر المعارض الفنية التي أقيمت، وبدأ يستقطب الاهتمام، وينال الإعجاب والتقدير، ويحوز كذلك على الجوائز الفنية في الفترة ما بين (١٩٥٠ – ١٩٥٦) وكتبت عنه المقالات العديدة، والبحوث وتحدث الكثيرون عن أنه فنان الطبيعة والألوان، يمتلك انطباعية خاصة به، فيها جمالية التأليف، وحركة اللون، والمساحات أكثر مما هي مجرد تسجيل لمنظر أو طبيعة، وظل يحاور الطبيعة، ويعالجها، حتى استنفد كل إمكانات التعبير، وخاض تجربة اللون حتى أعمق أعماقها، وأصبح مقتدراً على وضع اللون في موضعه برهافة ودقة لا تجاريان.

وبعد أن أعطى، كل هذه التجارب، وأغنى الحركة الفنية بأعمال فنية هامة، انتشرت في كل مكان، وبدأت تحظى بالتقدير والإعجاب، أحس بأن عليه أن يبحث لنفسه عن وسيلة تعبير جديدة، وأن الاستمرار في رسم المواضيع عن الطبيعة لن يجعله مجدداً بعد الآن، وأن عليه أن يذهب بالتجديد إلى أقصاه .. إلى [التجريد]، وأن طريق [الحداثة الفنية] الذي سار عليه، وسوف يقوده حتماً إلى لوحة هي [لون] أو[مساحات ملونة] وأن اللوحة هي تناغم ألوان، وأن عليه أن يبحث في هذه اللوحة، كيف تتناسق الألوان بدون موضوع واضح، وكيف يتخلى الفنان عن النقل عن الواقع

بشكل نهائي، ليرسم ما هو مجرد تماماً.

وأن هذا التخلي عن الموضوع، سوف يجعله يبحث في اللوحة بالذات، ويدرس الأشكال الحديثة من التعبير كيف يتم تشكيل اللوحة، وكيف نتوصل إلى خلق علاقات بين الألوان والأشكال تكون منظمة، ولها قدرتها على التعبير الفني، وهكذا درس اللوحة المجردة بعد اللوحة الانطباعية، واللوحة التقليدية، واختبر قدرته على التعبير عن طريق التجريد، ومنهم أهمية التجريد في إيصال الفنان إلى التكوين المدروس المنظم، الذي لا يعتمد على النقل عن الواقع، ولا على الأحاسيس الفردية الملونة الشاعرية، بل يعتمد على علاقة الأشكال ضمن المساحات، والألوان في التأليف، مـــما يقودنا إلى شيء جديد تماماً، وهو أن اللوحة المتانة والانسجام في العمل الفني يأتيان من حسن تنظيم اللوحة، والقدرة على خلق علاقة حيوية بين عناصرها، وأن العمل الفني في النهاية هو عبارة عن تنظيم لمساحة مستطيلة، بالألوان والخطوط، وأن هذا التنظيم، يسعى إلى إيجاد عالم اللوحة الفنية، التي تستقل عن الواقع الخارجي، وما فيه من قوانين، وتستقل عن عالم الفنان الذاتي، وما يسجله الفنان على لوحته هو مستقل أيضاً.

ولكن هذه الأشكال المجردة التي رسمها (نصير شورى) في هذه المرحلة التي امتدت ما بين عامي [١٩٦٣ – ١٩٧٣] وضعته في موقع محرج جديد، إذ أن الكثيرين تساءلوا عن الأسباب، ولم تكن واضحة، كيف يتخلى الفنان عن رسم مواضيع مفهومة، ليرسم أشياء صعبة الفهم، وكيف يترك الرسم الواقعي الانطباعي، بعد أن حقق الشهرة، وإثبات المقدرة، وأكثر الجوائز أهمية، وبدأ صراعه مع المعادين للفن التجريدي، ومع المؤمنين بمهمة الفنان على أنه ينقل عن الواقع، مع بعض التحوير، ودون أن يصل هذا التحوير إلى لغة لا شكلية.

كان هذا الانتقال يتواءم مع طبيعته الفنية التي كانت تهوى التجديد وتبحث عن أشكال الفن المختلفة لتستفيد منها، والتي كانت لا تريد الوقوف عند حدود، بل تريد أن تعرف كل أشكال الفن، وكل طرائقه وتقنياته، وحبها للاكتشاف وللتجاوز، لا يتوقف

عند حدود، ولا تحده أية عقبات مهما كانت.

ورسم نصير شورى مئات اللوحات المجردة، التي دلت على مقدرته على التأليف الفني لعناصر اللوحة، والتي لا تقل عن مقدرته على التأليف الانطباعي، وأن خبرته الشكلية في مجال التأليف الملون المتناغم، لا تقل عن خبراته الأخرى، ومن المعروف أن الفنان التجريدي يحول الأشكال إلى مساحات ملونة، وإلى أشكال مسطحة، تتوازن مع بعضها بعلاقات، أو تتداخل المساحة مع الأخرى ضمن تناغم معين، ويدخل اللون كعنصر هام يساعد على تأليف اللوحة ويقدمها، وهناك المفاهيم التجريدية [اللون – الكتل – المساحات – التناغم – الخ..] ، وهي نفس قيم اللوحة الواقعية، لكنها مطبقة على موضوع لا واقعي، وهكذا يمكن للفنان أن يأخذ حريته التامة في خلق اللوحة دون قيد مسبق يفرضه الواقع، وعندما يبتكر التصاميم، والتشكيلات اللا محدودة التي تعطي الفنان القدرة على خلق أشياء جديدة لم يسبق إليها وتقديمها ضمن إطار اللوحة.

لكن الواضح أن (نصير شورى) حافظ على مكتسباته من الانطباعية وما تعرف عليه من خلق التناسق اللوني، والمساحات الملونة المتداخلة، تذكرنا بإيجاد لوحة تتحرك الألوان فيها على سلم الألوان، وتؤلف حركة إيقاع شبيه بالإيقاع في الموسيقا، وهكذا أخذت الأشكال عنده والعناصر، تستفيد من قدرته على وضع اللون في مكانه ليتناغم لخلق لوحة مجردة .. أشبه بقطعة موسيقية، ولها خلفيتها الملونة التي نعرفها عند (نصير شورى)، وإضافات معينة لم تكن مألوفة عنده، وخصوصاً في مجال علاقات بين ألوان جديدة لم تكن موجودة في لوحته الانطباعية، مثل اللون الأسود، والذي لا نراه في الطبيعة، وهكذا جرب الأشكال المجردة، وقدم العلاقات الملونة، ودخل مجال التأليف الفني المحض الذي ينظم اللوحة على أساس أن اللوحة الفنية هي تنظيم للعناصر والمساحات المجردة وتناسقها وحركتها.

وحين استنفد هذه التجارب المتعددة في مجال (التجريد)، وأغنى أعماله بها واستقر على فن شخصي مجرد له صلاته به، وله دوره الكبير ضمن تجارب الفنانين

المجردين في سورية، بدأ يتخلى عن التجريد، ويبحث مرة أخرى عن صياغة جديدة للوحة، هي المحصلة والتجميع لكل الخبرات في الواقع والتجريد معاً، وهكذا ضمن لوحاته الجديدة الواقعية الحديثة، مفهوماً للفن يمتزج الواقع فيه مع التجريد، ويتفاعلان في كل مشهد، مما أعطى لفنه خصوصية لم نألفها عنده. وهكذا دمجت هذه الواقعية الجديدة، الرؤى المختلفة المختزنة للطبيعة مع (اللون)، وخبراته المجردة، وبحثه عن الصيغ الجديدة المختلفة عن المفهوم التقليدي للوحة الفنية، والمفاهيم المجردة كلغة، والعلاقات المموسقة المحضة. واكتشف أن المنظر يمكن أن يتألف من عناصر من الواقع، ومن عناصر من الذهن ويمكن للفنان أن يبدل الأشكال لتنسجم، وكذلك الألوان لتتناغم، وأصبح المفهوم الجديد للفن، هو عملية التأليف لهذه العناصر معاً، ما هو من الذاكرة، وما هو من الواقع، والجمال الجديد ليس جمال الواقع ونقله، وليس جمال التأليفات المجردة، وإنما الجمال الذي يمكن الوصول إليه عن طريق بحث في اللوحة بالذات، ولهذا فهذا الجمال يمكن صنعه بتأليف جديد مبتكر.

وحتى يتمكن من تحقيق هدفه، بدأ " نصير شورى" يرسم على أوراق صُغر بعض المشاهد ويؤلف في الذهن، ويتدخل في المشهد المرسوم حسب رغبته، وهكذا فاللوحة إعادة رسم الواقع عن طريق التأليف الفني، وليس ما ننقله أو نبتكره، وليس المجرد، بل إن لكل لوحة تفردها، تارة يطغى التأليف، وأخرى يتناغم اللون بتدرجاته، وأخرى ترى فيه لوناً واحداً، وأخرى تدرجات لونين متناغمين وتفاعلهما، أو تضاد بين تدرجات لون في المقدمة، مع لون آخر في الخلفية.

وهكذا أصبح الفن هو علاقة بين عناصر الشكل الطبيعية الموجودة ، والمحورة بالمفهوم الخاص لعلاقات الأشكال، ومع اللون المختلف حسب اللوحة المرسومة، وأن اللوحة أصبحت مدروسة من كل جوانبها الشكلية واللونية، وتقديم لغة فنية جديدة مبتكرة في كل عمل من الأعمال، وبذلك أصبحت اللوحة تتمتع بشخصية خاصة، فيها جماليات الفن المحض، والواقع موجود بنكهة واضحة، لأن التأليف يتم لحظة العمل، والنتيجة هي تأليف جديد وتفرد، وعلى الرغم من التقارب التقني بين لوحة وأخرى،

لكن تبقى لكل لوحة تفردها بجمالية خاصة.

لقد خاض الرائد المبدع هذه التجربة، بروح الفنان المحب للاكتشاف، والمحب للتجديد، وأعطى لكل لوحة خصوصيتها، من حيث التأليف والتنفيذ، ورسم مئات اللوحات التي سجلت المشاهد المختلفة، وعبر عن طريق هذه اللغة الفنية عن كل ما يريد قوله من مواضيع وأشكال.

لكن هذه التجربة، التي وصلت إلى قمة العطاء، قدمت الدليل تلو الدليل على قدرته على التعبير، عن طريق مختلف المواد الفنية والأشكال، وباستخدام التقنيات المختلفة، التي أعطت لفنه طابعه الخاص، ولم تقف عند هذه الحدود، ولا عند هذه الأشكال، وذلك لأنه عاد مرة أخرى ليجدد فنه، ويقدم المزيد من البحوث والتجارب، وسواء من حيث التلوين أو الأشكال.

لقد بدأت هذه المحاولة عام (١٩٩٠) وهو في السبعين من عمره، وذلك عن طريق رسم لوحات بلون واحد، ومشتقاته، لوحات كبيرة لها مواصفات خاصة، ولعل أهم هذه المواصفات:

اللوحة ذات التأليف الديناميكي، وذلك بإضافة حركة عن طريق التدرجات الضوئية التي أصبحت تعكس الحالة الداخلية، الوجدانية، فالتأليف لا يقدم السكون الخارجي للشكل المؤلف، بل العناصر التي تتحرك وفق رغبة الفنان ليعكس عالماً جديداً من الأشكال والألوان، وهذا العالم الجديد له طابعه الهندسي، والتحويرات الطبيعية، لها جانبها المرتبط بالجمال الجديد، الذي نقول عنه تأليف محكم له جوانبه الشكلية، والملونة، ونصل إلى (الخيال) إذ نرى الحلم يدخل، كما يتداخل الواقع مع الحلم، وهكذا أصبحت تجاربه لها أشكالها المختلفة، ولها صياغتها المتنوعة التي تكشف عن قدرة فنية هائلة، ظلت تجرب حتى آخر لحظة من اللحظات كما ظل يبتكر ويجدد، ويؤلف، ولا يقف عند حدود ... ولم يمنعه من الاستمرار إلى النهاية، إلا الموت الذي جاء في لحظة من لحظات العطاء المستمر الذي لا يتوقف .. والذي جعله يعطي أكثر إنتاج له كماً، وأشده تعبيراً عن (نصير شورى) .. الفنان الذي لم يكن إلا

نموذجاً حياً للعطاء بلا حدود، وللاكتشاف والبحث الفني، في الطبيعة واللون والانطباعية والتجريد .. حتى قدم لنا ما هو شخصي متفرد كل التفرد ... ويعكس ما في نفسه، وأحاسيسه ورؤيته.

الفنان الراحل نصير شورى:

- ولد في دمشق عام /١٩٢٠/.
- درس الفنون في القاهرة (١٩٣٤- ١٩٤٧).
- عمل مدرساً للتربية الفنية في المدارس الثانوية بدمشق ودار المعلمات (١٩٤٧) - (١٩٦٠).
- نال الجائزة الأولى في المعرض العام للفنون التشكيلية خلال أعوام (١٩٥٢) و (١٩٥٣) و (١٩٥٤) ونال الجائزة الثانية خلال أعوام (١٩٥٠) و (١٩٥١) و (١٩٥٥).
- أصبح مدرساً للفنون في كلية الفنون الجميلة (١٩٦٠).
- رسم اللوحات التجريدية خلال الفترة (١٩٦٠ - ١٩٧٠)، نظم (١٥) معرضاً فردياً. وشارك في مئات المعارض الرسمية والخارجية ومثل بلاده في أكثر من معرض ومناسبة.
- لوحاته موزعة في كثير من المقتنيات العامة والخاصة وخصوصاً (قصر الشعب - المتحف الوطني - وزارة الثقافة - القصر الجمهوري).





ممدوح قشلان :

أستاذتي في الفن

- الطبيعة الخلابة، الملامح الشعبية، وهموم الوطن
- الفن الحقيقي يفعل أكثر ألف مرة مما تفعله الخطابات الرنانة
- في دمشق القديمة يرى الفنان مالا تقع عليه العين في غيرها من المدن

كنت وصديقي أتنقل بين اللوحات الفنية الجديدة، في معرض جماعي أقيم مؤخراً لأعمال الفنانين التشكيليين السوريين، حيث وقف بي أمام لوحة متميزة، تحلق قبالتها زوار المعرض. همس صديقي إنها لوحة "قشلان" بالرغم من عدم وجود بطاقة تعرف بها، مثل سائر الأعمال في المعرض، وتابع:

لقد أصبحت أعمال "ممدوح قشلان" بعد نصف قرن من الزمن تقدم نفسها متعرف بالفنان من خلال لمسات الريشة القديرة، والروح الشفافة في الخطوط والفواصل، وصفاء الألوان، وانسكاب الضوء الرقراق، وقبل هذا وذاك النبض الإنساني الذي يشكل تفاصيل اللوحة بمجموعها، ويشرح للمشاهد موضوعها الفني.

إنك من النظرة الأولى، ودونما عناء تقول: هذه لوحة ممدوح قشلان....

يرجع تاريخ الحركة الفنية في سوريا إلى حوالي نصف قرن من الزمن وبالذات إلى الفترة التي تلت تحرر سوريا من الاحتلال الفرنسي عام ١٩٤٧ وقد أقيم عام ١٩٥٠ أول معرض فني، ضم أعمالاً متميزة لعدد من الرواد الأوائل أمثال: محمود جلال، أدهم إسماعيل، محمود حماد، نصير شورى، وفاتح المدرس الفرد بخاش، نوبار صباغيان، ميشيل كرشة، رشاد قصيباتي، خالد معاذ، صلاح

الناشف، وغيرهم.

ولم تمر غير سنوات قليلة، حتى بدأت الحركة الفنية بالتقدم والتطـور، بسبب التشجيع الذي منح لأعمال الفنانين في مجالات التصوير الزيتي والنحت، وظهرت نتيجة لذلك المنافسة بين الاتجاهات الفنية التقليدية والحديثة، والتي أذكتها عودة الفنانين السورين من بعثاتهم الدراسية في الدول الأوربية، تصحبهم مؤثرات المدارس الفنية الحديثة في الغرب. ولكن هذه المؤثرات ما لبثت أن امتزجت بالتأثيرات المحلية، وتبدت ملامح البيئة واضحة في أعمال كثير من الفنانين السوريين، وإن كان مفهوم البيئة اختلف بين فنان وآخر كما اختلفت أساليب التعبير عنها. يقول الناقد طارق الشريف:

لقد كان "اللون" عند نصير شورى هو البيئة في حين كانت "الأرض" ومخلفات الحضارات القديمة عند "فاتح المدرس" ومثّل الخط العربي اللا متناهي البيئة عند "أدهم إسماعيل" أما "لؤي كيالي" فقد كانت البيئة عنده الروحانية المنبثقة من الوجوه الحزينة وتمثلت عند محمود حماد "بالكتابة العربية وفق أسس عقلانية".

ثمة فنان متميز استطاع أن يضع يده على البيئة الحقيقية حين قرأ سطورها في كل ما يراه حوله من الملامح الشعبية: الناس البسطاء، مواضيع الحياة اليومية، الهموم الوطنية التعاطف الإنساني في صوره الكثيرة الجميلة.

كان "ممدوح قشلان" قد دخل إلى عالم الفن الجميل، في مطلع الخمسينات، حين شارك في معارض عديدة ما بين ١٩٥١ – ١٩٥٣، بأعمال مستوحاة من الواقع، نقل فيها بصدق عن الطبيعة، متأثراً بالجيل الرائد من الفنانين السوريين وبالذات: محمود جلال، الذي احتضنه ورعى خطواته الأولى في الطريق الطويلة، ومنه تعلم أن "الطبيعة" هي المعلم الأول ولا بد للفنان أن يعود إليها عند كل مشكلة فنية تصادفه فيجد عندها الحل المنشود، "كل شيء موجود في الطبيعة أولاً وقد اكتشفه الأقدمون ومارسوه بنسب متفاوتة عبر العصور، وعلينا نحن أن نتلمسه ونعيد كشفه، كل بحسب قدرته، والإحساس به من جديد".

المحطة الأولى: إيطاليا:

كان عام ١٩٥٣ محطة هامة في حياة الفنان، إذ أوفد بالبعثة الدراسية الفنية الأولى إلى إيطاليا، وهناك قبل في قسم الرسم والتصوير بأكاديمية الفنون الجميلة بروما وطوال خمس سنوات، كان يتعلم على يدي "روبرتو ميللي" و"فرانكو جنتليني" وينتسب إلى دورات إضافية في روما، ويكتسب مهارات في الرسم الجداري "الفريسك" وفن الميدالية وصك النقود، وفن الخزف والإعلان إضافة لمشاركته في النشاط الفني في العديد من المعارض الفنية الدولية، وقد بهرت مشاركته في مهرجان، "فياريجيو" تحت عنوان "المنظر الإيطالي بعين الفنان الأجنبي" لجنة تحكيم المهرجان وحظيت بالجائزة الأولى، ليتقدم الفنان على عشرات المشتركين الأجانب من أقطار متعددة.

في السنة الأخيرة من دراسته، كان "ممدوح قشلان" قد تشبع بأعمال "بيرو ديلا فرانشيكا" واضع أسس المنظور الهندسي للعمارة، "ومازاتشو" فنان التعبير الإنساني الدرامي، وأعد أطروحة التخرج عن الفنان العالمي "جوجان" ونال دبلوم الشرف بتميز عام ١٩٥٧.

العربة الكارو في متحف كابروفو:

عاد الفنان إلى الوطن في نهاية ذلك العام، وبدأ عمله مدرساً للفنون في "درعا" جنوب سوريا وقد أمدته فترة عمله في الريف، بنسغ جديد تجلى في مواضيعه المستمدة من مشاهد الطبيعة الخلابة، النابضة بالألق وإشراق الحياة، ومن عيشة الفلاحين البسطاء، وعكف يومذاك على القيام بتجارب متواصلة بحثاً عن هوية ذاتية وأسلوب فني يميزه عن الآخرين.. وكانت محصلة هذه الفترة الرائعة معرضاً فردياً ضخماً بالمتحف الوطني بدمشق .. فاجأ الجمهور والنقاد على حد سواء، إذ اشتمل على أكثر من مائة لوحة زيتية و٢٥ لوحة حفر على المعدن و١٢ عملاً خزفياً وكانت هذه كلها تعرض لأول مرة في سوريا.

ثم ما هو غير زمن يسير حتى انتدب الفنان للعمل في مصر، وفيها وجد عالماً أرحب يتسع لتطلعاته الفنية، وهكذا أصبح عضواً في عديد من الجمعيات الفنية "ومدرساً في أكاديمية دافنشي" الإيطالية بالقاهرة، ومشاركاً في الأنشطة الفنية والثقافية على أوسع نطاق.

كان من مميزات أعماله في هذه الفترة: التجريد الهندسي: خطوط قاسية، هندسية نوعاً ما، وفيها تقاطعات، وتبسيط للأشكال الإنسانية، ومن أمثلة أعماله في هذه الفترة بائع الفول، القرداتي، العربة الكارو، وهذه اللوحة الأخيرة بما اجتمع لها من عناصر: الموضوع الإنساني، وأسلوب التعبير الفني، والألوان المشرقة جعلها مميزة ولافتة للنظر فنالت جائزتين بينالي "كابروفو" وصارت كذلك واحدة من مقتنيات متحف "كابروفو" في بلغاريا.

كارثة حزيران والمرحلة التعبيرية:

مثل عقد الستينات، محطة هامة في حياة "ممدوح قشلان" ازدحمت فيها نشاطاته التي امتدت إلى ميادين عديدة، ترك في كل منها بصمات واضحة، وليس مبالغة القول بأنه كان وراء إرساء العديد من قواعد النهضة الفنية في سوريا بدءاً من وضع مناهج تعليم الفنون المعاصرة في مراحل التعليم المختلفة، بحكم مسؤوليته مشرفاً على تعليم الفنون وتأسيس متحف الفنون المدرسية بدمشق، وكذلك تأسيس معهد إعداد المدرسين للفنون والذي كان النموذج الأول لمعاهد الفنون في المحافظات السورية إضافة إلى وضع نظام الهوايات وتنمية المواهب المبدعة لدى الأطفال وما يترتب عنها من مشاركتهم في المسابقات الفنية الكبيرة وفي المعارض الدولية لرسوم الأطفال وفي هذه الفترة كان الفنان منهمكاً مع فريق من زملائه الفنانين في تأسيس نقابة الفنون الجميلة التي أصبح نقيباً لها في عدة دورات وتم تبعاً لذلك إنشاء صالة الشعب للفنون الجميلة وكان ممكناً لهذا النشاط الدائب أن يستغرق وقت الفنان كله لا يترك له فسحة للالتفات إلى عمله الفني الخاص وبكن المدهش

حقاً أن إنتاج الفنان ظل متألقاً وأعماله الفنية تتابعت بقوة وتطور إتقان مثير ولعل السبب ما مر به الوطن العربي من أحداث أليمة بعد كارثة عام ١٩٦٧ وما خلفته في النفوس من مرارة وبالذات لدى طليعة المثقفين والفنانين ... وقد انعكس ذلك في أعمال "ممدوح قشلان" فانتقل إلى المرحلة التعبيرية، التي صور فيها رجع الآلام الإنسانية، ونزوف القلوب الكسيرة، ونطقت بذلك لوحاته: النزوح ... العطش ... على الحدود ... استغاثة اللاجئين" كانت هذه اللوحات تعبيراً عن مشاعر الجماهير، وتصويراً لما نزل بهم من آلام، ولكن الفنان من جانب آخر أدرك أن الفن الحقيقي، هو التسامي فوق الجراح، وشد العزائم لتجاوز المأساة، وسرعان ما استعاد صور بطولات الأمة، وانتصارات العرب في تاريخهم المجيد، فخرجت لوحة "طارق بن زياد" ومجموعة لوحات "بطولات الفدائيين" وتوجهاً أخيراً بلوحته الباهرة "يوم النصر في حطين" المفعمة بصور الرجولة والكبرياء، ليؤكد أن النصر قادم لا محالة.

دمشق القديمة ... ملهمة الشعراء والفنانين:

تطلع الفنان في عقد السبعينات إلى آفاق أرحب وراح يدعو إلى إقامة اتحاد للفنانين التشكيليين العرب، وهي الفكرة التي شهدت النور في عام ١٩٧١، وأصبح للفنان العربي معها كيان تنظيمي أتاح تنظيم معارض فنية مشتركة في العواصم العربية تبادل الفنانون من خلالها تجارب هامة، وتم إصدار مجلة التشكيلي العربي، التي عرّفت الجماهير بمستجدات العمل الفني في الوطن العربي.

وعلى المستوى الشخصي، بدأت مرحلة جديدة في مسيرة "ممدوح قشلان" وكانت في نظر الكثيرين، حاسمة، وأكثر تطوراً في حياته الفنية، إذ توقف الفنان ملياً عند المكان الخلاب الذي ظل يأسر فكره وعواطفه، كما فعل مع غيره من الفنانين والشعراء، عنيت به مدينة "دمشق القديمة" بكل ما تنبض به قسماتها من مهابة وسحر وبهجة وجمال...

توقف الفنان أمام شواهد التراث الحية إلى يومنا، والماثلة للعيون حيثما تلفتت: أحياء شعبية وحارات ضيقة، بيوتاً متلاصقة وشرفات ... باحات ظليلة، ونوافير رذاذ متراقص في الفضاء، عرائش تتسلق الجدران، ومظلات ياسمين فواح، وتسبيح اليمام في العشاش مع إطلالة الصباح. وتوقف أكثر أمام الحياة النابضة بالرجاء والعنفوان في وجوه الدمشقيين البسطاء "وكنت أختار من ذلك كله زوايا ونقاط رؤية لا تقع العين على مثيل لها في غيرها من المدن، وأنقل إلى لوحتي الطابع المميز للأزقة الضيقة وجدران البيوت المتعانقة، والنوافذ التي تدور بينها حوارات وحكايا لا تنتهي، وأترك للخطوط العفوية والألوان الصافية أن تعبر عن الهدوء والرطوبة في المشهد الجميل الذي أراه بكل حواسي" وهو ما تحقق فعلاً في أعمال الفنان في تلك الفترة "دمشق القديمة" أمومة، ملامح شعبية، وهذه اللوحة الأخيرة التي تعتبر أكبر لوحة فنية في مجموعة المتحف الوطني بدمشق (٤م ×٢م) استغرقت من جهد الفنان ودأبه المتواصل شهوراً، لتخرج في النهاية بانوراما مبهرة، يتوقف أمامها زوار المتحف الوطني طويلاً، فتنقلهم إلى ذلك العالم الحميم الذي يضج بالعفوية والبهجة حيث يدور الحوار اليومي، ويتجدد ألق الحياة الشعبية البسيطة.

فلا عجب بعد ذلك أن يتوقف أحد مديري متحف اللوفر أمام اللوحة، خلال تطوافه بردهات لوحة المتحف الوطني ليسأل الدكتور عفيف البهنسي مدير الآثار والمتاحف آنذاك، أن يرسل اللوحة إلى باريس لتمثل الفن السوري "ففي هذه اللوحة كل المفاهيم الفنية التي يبحث عنهما الفنانون عندنا ولا يجدونها".

ثلاثون معرضاً في ١٥ سنة:

كانت خطوات الفنان قد ترسخت في ميدان الفن التشكيلي، وبدأت أعماله الجميلة بمواضيعها المتنوعة، المستمدة من بيئته الخلاقة، تشير إليه كرائد من رواد الفن في سوريا، خاصة بعد أن حقق نقلة متميزة بانطلاقه إلى مرحلة العالمية، حين

منح لقب "أستاذ شرف" من أكاديمية الفنون الجميلة في "مونرياله صقيلة" وتم تكريمه مع ١٦ شخصية ثقافية من بلدان مختلفة في العالم. إضافة لحضوره المشهود في الساحة الفنية الإيطالية من خلال المعارض المشتركة، والمحاضرات المتنوعة عن الفن السوري القديم والمعاصر، في المراكز الثقافية والجامعات في عدد من المدن الإيطالية.

وفي مطلع الثمانينات أسس ممدوح "قشلان" صالة إيبلا للفنون الجميلة بدمشق فغدت خلال زمن يسير قبلة لعرض أعمال الفنانين العربية والأجنبية وبعدها ترك عمله الوظيفي وتفرغ نهائياً لريشته وألوانه، ولمعارضه الشخصية التي تجاوز عددها منذ عام ١٩٥١ وحتى عام ٢٠٠٥، أكثر من ٨٢ معرضاً محلياً وعالمياً، وخلال هذه الفترة، كانت لوحاته الجديدة تنتقل سنة بعد أخرى بين العاصمة دمشق، والعواصم العربية والأوروبية، فما يتم الإعلان عن واحد من معارضه، حتى يتوافد المهتمون ومتذوقوا الفنون التشكيلية، ليتابعوا لمساته الهادئة والواثقة في أعماله الجديدة، وما تلبث الصحافة الفنية أن تنقل أصداء العرض، وما يلاقيه كل مرة من استحسان وتقدير.

عظمة الفن حين يؤدي دوره:

سئل "ممدوح قشلان" مرة: هل أصبحت أعمالك الفنية قادرة على أن تقدم صورة خاصة عن سوريا فأجاب:

إن الفن بمجموعة مرآة الشعوب، وفنان واحد، لا يستطيع أن يعطي الصورة كاملة، مهما أوتي من موهبة ومقدرة، و لكن مجموع أعمال الفنانين تعكس صورة البلد بشكل أمثل: وفي سوريا، لم تزل الحركة الفنية في خطواتها الأولى، ولما تنصهر بعد بالشكل العميق المطلوب مع بيئتنا وتراثنا، وفي الحقيقة، فإن جلّ فنانينا درسوا وتأثروا بما اكتسبوه من ثقافة أجنبية، وما يزالون ضمن هذا الإطار إلى يومنا وإن بدرجات متفاوتة ... وبالنسبة لي، فقد استفدت من التقنية الغربية، ولكنني

انهمكت أكثر بمعالجة مواضيعي برؤيا محلية، وجهدي الآن منصب على أن أعكس في أعمالي صور التراث وحياة الشعب وهموم الوطن، وربما لهذا فإن معارضي السنوية المتتالية في أوربا منذ عام ١٩٧٥ وإلى اليوم، تحظى بالتقدير والاهتمام ... إن لوحة "قانا" التي جسدت فيها مأساة ضحايا الجريمة القذرة التي اقترفها الصهاينة أمام سمع العالم وبصره، هذه اللوحة استطاعت أن تسجد اللحظة وما ترتب عنها من موت ورعب وألم، وأن تغدو بالتالي وثيقة صارخة يرى فيها العالم دوماً ما صنعته البشاعة الآثمة بأبناء القرية الصغيرة الآمنة ... لقد تأملها مفكر عربي معروف وقال: إن هذه اللوحة قادرة على أن تفعل في الرأي العام أكثر ألف مرة مما تفعله خطب المنابر الرنانة.

اللوحة الخالدة على الطريق:

أخيراً حين نسأل "ممدوح قشلان" إن كان قد حقق بالفعل طموحاته، وقال ما يدور بخاطره بعد أكثر من نصف قرن من العمل الطويل في هذا الميدان الجميل؟ يجيب الفنان:

كيف يكون ذلك؟ لو أنني قلت أني وصلت أكون قد بدأت بالعد العكسي إن اللوحة التي أريدها، ما تزال حروفاً وفواصل في ذاكرتي ... ويوماً بعد يوم أقول: لا بد وأن أرسم اللوحة الخالدة، اللوحة التي تماثل معلقات شعراء العرب في الجاهلية ... وأنا أرسم دوماً لوحات جديدة وتهتز نفسي بمشاعر النشوة، متخيلاً أن كل واحدة فيها هي اللوحة المنشودة، لكن ما ألبث أن يتحرك في داخلي إحساس خفي يهمس لي بأنني لم أصل بعد.

لقد مر أكثر من نصف قرن من الزمن، منذ غمس الفنان ريشته لأول مرة في الألوان ولمس بها صفحة لوحته، ليبدأ رحلته الطويلة في عالم الفن المسحور، لكن تفاصيل الأحداث التي عاشها ما تزال حية في ذاكرته وهم يبتسم ويقول:

لقد كانت بالحق مسيرة شاقة، وكان ممكناً أن أتكفئ منذ خطوتي الأول في

أكاديمية الفنون الجميلة بروما، حين شاء حظي أن يكون المشرف على مجموعتي "البروفيسور روبرتور ميللي" يهودياً متعصباً، لم يدخر وسعاً في تثبيط عزمي، وتجريح أعمالي، ولكني صمدت وثابرت، حتى نلت عن مشروع تخرجي الدرجة الكاملة.

نصف قرن طويل بلى ... ولكي أشعر بأنني بدأت أمس فقط، وما تزال الطريق ممتدة أمامي وطويلة...

عمر من البحث الفني باللون والتأليف

يعتبر ممدوح قشلان واحداً من كبار رواد الحداثة في التشكيل السوري والعربي وهو من مواليد دمشق العام ١٩٢٩، وشارك في المعارض الجماعية التي أقيمت في دمشق ما بين عامي ١٩٥١ و١٩٥٣ ونال على أثرها منحة دراسية لمدة أربع سنوات ثم أوفد للدراسة في روما بعد نجاحه في المسابقة بعد أن لفت الأنظار إلى موهبته المبكرة وفي العام ١٩٥٧ عاد إلى دمشق ليساهم في تسجيل ملامح المرحلة الذهبية لنهضة الفن التشكيلي السورية، وتتابعت معارضته المنفردة في الداخل والخارج، إضافة إلى مشاركته في عدة بيناليات عربية وعالمية، وهو من مؤسسي الاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب، ونقابة الفنون الجميلة التي انتخب نقيباً لها عدة مرات.

كما طبعت منظمة اليونيسف بطاقات فنية عن لوحاته الكبيرة ووزعت في أنحاء العالم لصالح الطفولة، كما دخلت بعض لوحاته إلى متاحف دمشق وحلب وبيروت (سرسق) والجزائر والقاهرة وتونس والرباط ومونست نيجرو وصوفيا وبلغاريا وليل في فرنسا، إضافة إلى المؤسسات الرسمية والمجموعات الخاصة في أكثر بلدان العالم.

ومع تجربة ممدوح قشلان بدأ تاريخ آخر في مسيرة الفن التشكيلي المعاصر في سورية تاريخ لا يستعيد قدرته، إذا لم يحقق خطة الحفاظ على ذاكرته عبر ارتباطه الخفي والعلني بجمالية العمارة القديمة المهددة بالغياب والانقراض، بعد أن هرمت وتشوهت وغابت ليس فقط نتيجة مخططات توسيع الأبنية الحديثة، وإنما أيضاً نتيجة رفض الجيل الجديد لرونق العمارة القديمة وجمالية الطابع القديم لنوافير وبرك المياه.

هكذا تطل المدينة القديمة في لوحات ممدوح قشلان. كأن كل لوحة يقدمها هي مشروع دعوة للعودة إلى أجواء التراث الشعبي، والمحافظة على البقية الباقية من

الملامح الشخصية المميزة للمدينة القديمة، التي يشبهها البعض كمتحف حي لنماذج العمارة الإسلامية والعربية، والتي وصفها العديد من المؤرخين العرب بأنها مدينة جميلة تتألق أبنيتها بالزخارف والرقوش، وتتأنق حدائقها بالياسمين والأضاليا والمنثور.

وجد ممدوح قشلان في رونق العمارة المحلية القديمة، وفي وجوه الفلاحات القرويات، نقطة الانطلاق الفعلية لاكتشاف الصور الفولكلورية التي تمنح المعاناة الشعبية طابعها المتفائل والمتسامح.

فالمشاهد الشعبية التي جسدها في لوحاته، لم تطلق صرخة الحياة الصعبة في الأزقة القديمة بل كانت بمثابة بدايات لأضواء البهجة الموصوفة بالفرح، والمندفعة نحو المرح عبر البهرجة الفولكلورية التابعة من الذاكرة الشعبية ومن أحلام مدينة دمشق القديمة.

استقلالية وتفرد:

من الناحية التشكيلية تبدو لوحات "ممدوح قشلان" مفتوحة على المعطيات الجمالية الحديثة أو على بعض أوجه هذه المعطيات فهو يعيد تنظيم المشهد المرسوم باعتماد الخطوط التي تعمل على تقطيع المشهد لتبحث على مكامنه، أو عن علاقة تشكليه وجمالية خاصة بالفنان نفسه. ويهتم في معالجة لوحاته بلوم يكاد يكون الأكثر حضوراً في اللوحة، مثلما هي الحال في بعض لوحاته ذات اللون الأحمر، في حين تأخذ إيقاعات اللون الأخضر والأزرق في لوحات أخرى مناخاً بصرياً جاذباً في مساحات مدروسة تعزز استقلاليته وتفرده، وتبحث عن المسحة الفنية الخاصة، أكثر من مراعاة اللغة التقريرية المباشرة، في هذا الصدد يقول الفنان ممدوح قشلان في حوار أجري معه:

"لكل فنان مجموعة لونية ينفرد بها، ومع ذلك لا بد أن تتأثر الألوان بالموضوع المطروح، فأنا أستخدم الألوان بطريقة تتوافق مع الموضوع الذي

أجسده، ولوحاتي تميل عموماً إلى الأحمر والأخضر والأزرق ومع ذلك فأكثر الألوان لها حضور في لوحاتي".

تكوين معماري بعيد على الانفعالية:

وما هو بارز في هذه الخصوصية تلك العلاقة الهندسية التي تفيد في تحريك المشهد بشكل يتوافق مع التأليف المتماسك للوحة. والواقع فإن التقطيع الهندسي الذي نشاهده في المدة التصويري، هو جزء من الجهد التشكيلي الذي يشغله في تأليف اللوحة، فهو عندما يتطلع إلى الأحياء القديمة والمشاهد الشعبية، لا تنطبع في عينيه حالة الأبنية والأزقة والناس البسطاء، إلا من خلال هذا التشظي الذي يعكس مرايا تشظي المشهد ذاته على ما يشبه المربعات والمثلثات.

ومن خلال تقطيع اللوحة إلى ما يشبه المربعات والمثلثات والمكعبات، وأيضاً من خلال طريقته الخاصة في وضع الألوان يضفي ذلك الجو التقاربي على مجمل لوحاته التي يقدمها: وهكذا تتحول البيوت والأحياء القديمة والأشكال الإنسانية والأجواء الشعبية إلى مساحات هندسية صغيرة، تدل على تكوين معماري في التعامل مع الموضوع، أي أنه تحليله للمساحة إلى تدرجات لونية كبقع صغيرة تأخذ أشكالاً هندسية تشغباية الطابع يبتعد بها عن الصياغة الانفعالية المباشرة إن لجهة معالجة التكوينات التشكيلية أو لجهة صياغة المادة اللونية وتتداخل المساحات الهندسية التي تأخذ في أحيان كثيرة أشكالاً لا تقترب من المكعبات (دون أن يكون الفنان تكعبياً في التأليف العام للوحته) لأن التكعبية كانت تبحث عن جوهر الشكل وهذا الهاجس ليس من ضمن أهداف الفنان قشلان.

تكوينات تكسر سكون المشهد:

تتداخل المساحات والمكعبات اللونية مع أشكال الواقع أو تبرز من خلالها، فكل حي أو بيت أو شكل إنساني يتحول إلى مجموعة من التكوينات الهندسية

والمكعبات التي تكسر سكونية المشهد الواقعي وتحرك عناصره، وبالتالي تزيد من حوارية حركة التعبير بين الأشخاص في اللوحة وبين العناصر المعمارية.

وفي صياغة مساحاته اللونية يعتمد الفنان أسلوب التركيب الطبقي، الذي يسمح لنا برؤية أكثر من درجة لونية في المساحة الواحدة، ويقدم ممدوح قشلان لوحات جدارية كبيرة من هذا النموذج تبرر قدرته العالية على الكشف والابتكار ونشعر بشيء من التكثيف الضروري لتزخير التعبير، فهو يؤسس كل خطوة من خطوات اللوحة على أرضية متينة تحمل معها خبرة عمر من البحث الفني الذي يمارسه باللون والتأليف.

حول هاجس التكثيف الشكلي في لوحاته يقول الفنان قشلان "أنا أبحث عن رؤية ذاتية تعتمد على الإضاءات وشغل الفراغ أو تكثيف الأشكال، وهنا تلتقي لوحتي مع الفن العربي الإسلامي، فالفن الإسلامي فن مكثف، بشغل الفراغ، وأنا أحاول أن أقدم لوحة ترتكز على أحاسيسي وعواطفي ومشاعري الداخلية، ولو لم يكن هناك عاطفة وإحساس لما توصلت إلى أسلوبي الخاص، ولما استمررت مع اللوحة إلى هذا الوقت".

الحداثة ونبض العصر:

من المهم أن نشير إلى تلك الوحدة الأسلوبية العضوية التي تحمل بصمة الفنان الخاصة، هذه اللوحة التي تجعلنا غير محتاجين للبحث طويلاً عن نقاط الارتكاز التي تشكل عناصر لوحته التشكيلية، ثمة منظور تكويني وتلويني خاص يرى من خلاله مشهد المدينة القديمة، وما فيها من أبنية وشوارع ومآذن وأشجار وباعة وتجمعات إنسانية إذ أن الأداء الفني التشكيلي الذي يستخدمه الفنان يعبر عن صراع واضح بين المفاهيم الثابتة (الموجودة في الواقع أو خارج اللوحة) وبين القناعات الشخصية الحاضرة دائماً في اللوحة، والتي تشكل عمق المنحى الأسلوبي لديه، فالواضح أنه يرسم أشكاله بمزاج الفنان.

ولا ينحصر التعبير اللوني الوحشي في معالجة فسحة السماء فحسب، وإنما ينسحب على كافة عناصر اللوحة، فالبيوت مثلاً لا تأخذ لونها الأصلي الموجود في صورة التقطتها عدسة مصور ضوئي، وهذا ينطبق على الشجرة والطرقات وكل العناصر فالمناخ اللوني في لوحاته يبدو أكثر إشراقاً من ألوان الواقع.

كل ذلك يؤكد ابتعاده كلياً عن الواقعية الخطابية، أو المباشرة، وإذا كانت الذاكرة محركاً لصور قديمة وبعيدة، فهي مع هذه التعبيرية اللونية تبدو أكثر جنوحاً باللوحة نحو الحداثة ونبض العصر، هذا التزاوج في لوحاته يجمع بين زمنين قديم وحديث، ويصل إلى درجة عالية ومتقدمة من التوازن التكويني والتشكيل اللوني.

ولا يعتمد الفنان على معطيات المشهد الواقعي بقدر ما يعتمد على الخيال ومرونة معطيات الموهبة، فهو يستخدم اللون ليرسم المشهد بالأحاسيس الملونة وليصل بالتالي إلى السحر في الصوغ اللوني المركب من أكثر من طبقة من المادة الزينية مع المحافظة على إضاءة واضحة في صياغة المساحات والأشياء.

هكذا كان ممدوح قشلان، ومنذ أكثر من أربعين عاماً يسعى لتحليل المساحات في اللوحة التقليدية، فهو عن قصد لا يهتم باللون الطبيعي للأشياء التي يجسدها، بل يرسم في بانورامية مشحونة بالعناصر الصغيرة والتجمعات الإنسانية أحياناً، حيث يجنح في لوحات عديدة كبيرة نحو التشكيل الشعبي ليعيد إلى الأذهان الجلسات الحميمة في البيوت الدمشقية. مع التركيز على استعادة أجواء اللباس الشعبي في الريف والمدينة، وإضفاء طابع الروائية الملحمية على أعماله الجدارية بشكل خاص.

القدرة على ابتكار العلاقات الفنية:

وفي لوحاته يبرز قشلان قوة فائقة في الرسم، فالأشخاص في لوحاته يبدون وكأنهم يتحركون أمام العين، رغم أنه لا يعمل على إظهار التفاصيل الطبيعية كما هي في الواقع، بل يتخطاها ليبقى في حيز اللغة التشكيلية الخاصة والحديثة، ويحافظ

الشكل الإنساني أو المعماري على رصانته وأهميته كأساس في لوحاته، رغم كل الاهتمام بالصوغ اللوني العفوي في أحيان كثيرة وهكذا فالضوء يبدو هو الآخر متحرراً من قيود المنطق الكلاسيكي يزيد من هذا التحرر، التقطيع الهندسي الذي يضفيه على أشكاله المرسومة، فهو يعبر في لوحاته عن إحساسه أكثر مما يتجه إلى تقديم الشكل بواقعيته التقليدية. لذا نشعر ونحن نشاهد المجموعة الواسعة التي يعرضها بجمالية أسلوبه الخاص، الذي يحافظ من خلاله على مهارة وتجليات التشكيل الحديث في تجسيد الشكل والحركة والتفاصيل، التي تبرز قدرته على ابتكار العلاقات الفنية للأشكال المعمارية والإنسانية والأشكال المختلفة.

محافظ أمين على الأصالة طوال مسيرة غنية بالإبداع والجمال ...

الفنان التشكيلي (ممدوح قشلان) فنان استثنائي، في حضوره الفني الدائم، وكينونته الإبداعية كحالة ثقافية لها سماتها وتوجدها في الساحة المحلية، والعربية والدولية، إذ يشكل بحد ذاته مشروعاً فنياً وتربوياً متكامل الأبعاد في منهجية تعبيرية مليئة بالفرادة ، وسلوكاً يتجاوز الحدود التقليدية والمعايير الوضعية المتفق بشأنها في صياغة اللوحة التشكيلية، حيث جاءت نتاجاته في هذا السياق تعبيراً عن هذه الحالة وخلاصة لتجاربه البحثية في عمق التاريخ، والمناخات الشعبية المتوارثة عبر الأجيال في أصدق صور حياتية، ومعالجة تقنية حاشدة بالملونات، فالموروث الشعبي بأنماطه المتعددة، وتشكيلاته الزخرفية والبراقة والفاقعة والمتجانسة في كثير من الأحيان، مع العفوية والبداهة الفطرية لمفهوم الحمال تقحم الفنان للغوص في تفاصيله، والنهل من معين حرفيتها وتشكيلاتها الزخرفية كرؤى بصرية جمالية أخاذة تتسم بالبساطة والشفافية، والسطوح الظاهرة في أشكال تزيينية زخرفية المنشأ مستوحاة من مفردات وتعبيرات الأشكال الهندسية الشكلية:


المثلث، المربع، المعين، المستطيل .. وسواها، في تكرارية قصدية وتوازن مدروس للخطوط والانكسارات والمساحات اللونية التبسيطية والتحويرية، في فضاء تشكيلي زاخر بالعناصر والكتل والتكوينات (التعامد، التداخل) والتباين الشكلي واللوني، حلولاً أساسية لإظهار القيم اللونية في انجذاب فلسفي نحو بنيتها العمرانية في تآلف متدرج ومتناقض أحياناً، كأنها زخارف تزيينية، ورقش شعبي مثخن بالشفافية اللونية والجمالية، جمالية التكوين ونجاعة المعالجة التقنية التي تبدو واضحة للعيان من خلال المعايشة الانفعالية والوجدانية للفنان، في صبغ لوحاته بملونات ذاتية تعج بالخصوصية، ونجد سيادة مطلقة للون الأزرق في مدلوله النفسي الداعي للصفاء والخلود والأصفر (اللحمي) من امتداد فسيح لاتساعات الفضاء

اللوني، وتوشيحات جمالية لملونات الأحمر والأخضر وما بينهما من ملونات اشتقاقية، كلها تشير إلى جمالية الحالة وخصوصية المعالجة، حيث كانت المحاكاة الواقعية للمشاهد (اللوحات) تظهر عناية فائقة للفنان بالمحافظة على روحية الأصالة الشكلانية، والمفاهيمية في لحظتها التوثيقية التسجيلية، وألوان الحداثة والمعالجة التقنية كنوع من المزاوجة ما بين الماضي وجمالية الحاضر، فالمناظير الواقعية للأماكن والأشخاص في تناغمها الشكلاني، تفصح عن أصالة تعبيرية ومقدرة إبداعية في توظيف الملونات بشكل تقني وفني مدروس بأحكام، عقلاني اللمسات والأبعاد، يأخذ طابعاً فلسفياً في معانيه وتكويناته الدلالية، وليس مجرد ألوان جاهزة وإنما مساجلة لونية واعية للسطوح والمكونات في صياغات وحلول جمالية متجانسة في آلية العمل وفرادة التصويرية للوحة المطروقة، وتوازن ثنائي التأليف والتوليف الإبداعي والشكلاني، ما بين الزخرف الشعبي والتقنية المعاصرة مزاوجة مثيرة للفضول، في عوالم غنية بالألوان التواقة نحو الحرية والانعتاق اللامتناهي في فضاء اللون وزرقته وفن الوظيف والتوصيف الفعال للزخرفة الشعبية، والواقعية التسجيلية المتداخلة كتشكيل مبدع لمجموع الطقوس الفنية، في خطوط واثقة الانتشار وانسيابية الحركة والاتجاهات، تؤطر في داخلها ملونات مبهجة متفائلة آملة فرحة، ولا يمكن بطبيعة الحال تناول عوالم الفنان (ممدوح قشلان) الابداعية بمعزل عن ذاته الفنية المثقفة والمبدعة في مجالين أساسيين مُتجليين في البعد الإنساني والبعد الحضاري الذي ينحو من خلالهما مناحي (الاستثناء) في سياق القاعدة التشكيلية الإبداعية، في صوغ أفكاره وفلسفته ومجاله التعبيري والتقني، لعناصر التكوين كداعية ورائد من رواد التجديد والمعاصرة، ومحافظ أمين للأصالة التي شغلت جميع لوحاته وأخذت من فنه كل مأخذ عبر حقبة زمنية تجاوزت ثلاثة عقود .. فالمجال الأول (البعد الإنساني) جسدت بداياته الأولى بعد تخرجه الأكاديمي والتربوي حيث كانت هموم الناس ومشاغلهم الحياتية المسألة الأكثر بروزاً وتداولاً في أعماله الفنية – ومازالت حتى اللحظة – حيث شكلت المشاهدات اليومية

للفلاحين مجالاً حيوياً لموضوعاته، ثم عممت هذه المظاهر في نقل وتوصيف المجالات الحياتية الرئيسة في حياة المجتمع، بأبعاد فلسفته ورؤية سياسية كفاحية، حيث احتل الهم القومي ونضالات الأمة العربية مكانة مهمة في أعماله تصويراً إبداعياً لأحداثها الجسام، وما مجموعاته الفنية التي تقع تحت عنوان (ملامح محلية) إلا دلالة موحية ومعبرة عن هذا البعد الإنساني.

أما المجال الثاني (البعد الحضاري) فقد استطاع الفنان (ممدوح قشلان) بما أوتي من فراسة وثقافة ومقدرة فنية على التقاط المواضيع المنتمية للأصالة المستمدة ديمومتها من التاريخ والموروث الشعبي وحضارة المنطقة ، وما أنتجته الحرفة والبداهة الشعبية والأوابد التاريخية والهندسية المعمارية الرائعة، المتجلية في معالم مدينة دمشق القديمة في أبنيتها وحواريها ومتاجرها وأسواقها ومقاهيها ومنتدياتها الثقافية والحضارية، وهي أكثر من أن تحصى ومنتشرة في الأماكن والاتجاهات مصدر إلهام الفنان التسجيلي وشغله الشاغل الذي لا ينتهي.

(الغوطة، أبواب دمشق السبعة، العمارة، القيمرية، الشاغور، مكتب عنبر، الحميدية، سوق الطويل، سوق الهال، الظاهرية، سوق المهن اليدوية، البزورية، المسكية، قصر العظم، المسجد الأموي) وعشرات الأماكن الزاخرة بعبق التاريخ وأزاهير الأصالة والحب والنقاء والتي تؤلف للفنان (قشلان) حبلاً تواصلياً من نوع مبدع مليء بالخصوصية والاستثناء.





فاتح المدرس:

التعبير عن الإنسان والتمرد على المسلّمات

رقد ارتبطت تجربة المدرس الفنية بالإنسان. فكان المحور الرئيس الذي تدور حوله تجربته ومنطلقه الأساسي إلى الموضوعات التي يعالجها.

قدم الإنسان بصبغة مختزلة. وأظهره صغيراً ومضغوطاً من الجانبين وتحيط به الأشياء الأخرى.

كما مثلت الأرض الموضع الرئيس له وكثيراً ما صبغت ألوانها المميزة وجوه الناس الذين يعيشون فوقها.

لقد توصل إلى التعبير عن (الإنسان والأرض) في ثنائية أخذت شكل علاقة فيزيائية تطبع الإنسان بطابعها وتعطيه السمات المميزة له. فالأرض هو المكان الذي لا يستغني عنه الإنسان، لأن الوجود الإنساني يرتبط بالأرض والمكان، وعن طريق هذه الثنائية قدم موضوعاته المختلفة.

غير أن الأرض والإنسان لم يكونا العنصرين الوحيدين لتجربته، فإلى جانبهما كانت الأساطير وحكايا التاريخ وتحديات الزمن الراهن وإبداعات الفنانين السوريين الأوائل، فكانت صياغته التشكيلية لهذه العناصر تضم الكثير من الإبداع الذي جعل من لوحاته هوية مميزة وأسلوباً ترك أثره بشكل أو بآخر في تجارب عدد من الفنانين الشباب.

لم يكن فاتح المدرس رساماً رائداً فحسب، ولا قاصاً أو شاعراً طريفاً وهاوياً على طريقته، بل كان أيضاً صاحب ثقافة عميقة وشاملة استطاع انطلاقاً منها أن يجسد صورة هي من أجمل صور المثقف العربي، فنان أليف وطليعي لم يفقده اختصاصه العلمي وخبرته التقنية ألق التجربة وسحرها.

استطاع طوال حياته أن يحافظ على الحالة "الفطرية" التي تميز بها وهي ناتجة

من علاقته الشديدة بالأرض والتراب والحضارات القديمة التي نشأ وسط معالمها.

لكن الحالة الفطرية التي لم تمنعه من الانفتاح على الفنون العالمية، ولعل الفترة التي أمضاها في روما جعلته على بينة مما حصل في تاريخ الفنون، وإن مال إلى التجريد اللوني في الكثير من لوحاته إلا أن نزعته هذه لم تتخل عن البعد الغنائي الذي رسخه فيها إيقاع موسيقي متناغم كل التناغم وتدرج لوني متفاوت النغمات. فالألوان الشرقية تماماً كانت وحدها كفيلة أن تضفي على قماشته مسحات غنائية ووجدانية تلمس حد الصوفية والإشراق في أحيان كثيرة. ولعل غنائيته العميقة والهادرة جعلته ينفتح على مدى تعبيري تخلل نزعته التجريدية، وتمثل أكثر ما تمثل في بعض المناظر الطبيعية وفي بعض الوجوه الساحرة ذات الخلفيات اللونية.

من الصحيح أن فاتح المدرس استهل حياته الفنية سوريالياً، إلا أنه راح يتحول رويداً رويداً ليصبح فنان المراحل والفصول، وبدت كل مرحلة تكمل الأخرى ولا تناقضها، بل غدت المراحل نفسها سليلة تجربة واحدة تقهرها نار المعاناة والتأمل والبراعة والطرافة.

لكن المدرس في كل ما رسم ظل على ارتباط بعالمه الأول عالم الطفولة والماضي عالم التراب والواحات. عالم الماء والخضرة .. عالم الرمل والأضواء، عالم الصفاء والشفافية، لذلك لم يغب الأطفال عن الكثير من لوحاته حتى التجريدية منها. كما حضرت كذلك بعض التمائم المستوحاة من الذاكرة الشعبية والتقاليد القديمة. إنها مخيلته الرحبة تعجن أشياء الماضي والمستقبل في طينة واحدة.

ويمكن القول: إنه ابتعد في فنه عن الأكاديمية وجعل من لوحاته مساحة حرة، تكتظ فيها العناصر الإبداعية للتصوير الفني التشكيلي، وتحول من الالتحاق بركب الحداثة الغربية عائداً إلى واقعه وتاريخه وأساطير بلاده.

استطاع المدرس أن يؤسس لوحة لا تنفصم فيها الطفولة عن النضج والاختمار، ولا البساطة والبدائية عن التكثيف ومحاكاة العصر، ولا الأحلام الهادئة عن أطياف الأساطير وصخب المخلوقات الغريبة، لقد كان بهذا المعنى كيميائياً

بمعنى الكلمة، يشكل وحدة من متناقضات فلا معنى للأحمر في لوحته دون الأسود، ولا للأزرق دون الأصفر، كذلك الشكل لا يقف بعيداً عن التجريد، ولا التشخيص يأتي هادفاً دون تحوله إلى حالة رمزية.

كان محترفاً إلى أقصى الحدود يصور من ذاكرته دون أن يوثق أو يؤرخ، ودون أن يلتزم الشكل بالشكل أو اللون باللون، فكان يلغي مادة حسية ويجسد مادة مجردة، يلغي حقلاً ويصور رائحة أو صوتاً أو فكرة تدور في مخيلته الخصبة.

ضاقت الطبيعة في لوحته حتى غدت جداراً من الألوان لا منظورة فيها ولا أبعاد واقع الزمن فاستعاد في لوحته تقاليد التصوير الأيقوني، إذ يبدو أبطال لوحته ضحايا يبدؤون طقوس حزنهم من عصور التاريخ البشري الأولى، وتمتد أطيافهم إلى عصر حاضر أو حدث استفزه.

كان همه أن يعبر عن الحدث الذي يخرج من ذاته لا الحدث الموجود خارجه، يختصر الأشكال في شرائط هندسية وبالتزام واضح بتلك اللوحة البنائية المعمارية التعبيرية الإيقاعية، التي تقسو مرة وتصخب وتتقطب ألوانها وتتجهم ثم تلين مرة أخرى، وتتحول خطوطها إلى ما يشبه ألعاب الأطفال ورسومهم.

إن انتماءه لوطنه أجمل ما فيه ويبدو ذلك واضحاً وجلياً من خلال أعماله التي تعبر عن ذلك فهي تنطلق من المحلية للعالمية حيث كان يدرك أن الإحساس بالبيئة أصدق من الإحساس بالبعيد، فمن لا يدرك ما حوله لن يدرك ما بعده وإلا تحول العمل الفني إلى كذبة كبيرة يلفظها الزمن، ولهذا شغلت البيئة معظم أعماله.

كان فاتح المدرس سفيراً فوق العادة للتشكيل السوري في العالم، فقرب الملاحم الشعبية في سورية وأعطاها بعداً اجتماعياً وإبداعياً في ساحة التشكيل الغربي.

لقد عكست لوحات المدرس حياته ومعاناته، وذلك لأنها ارتبطت ارتباطاً وثيقاً به وبما يعيشه من أحداث راهنة، وما يتفاعل معه من أشكال وعناصر.

ولهذا أصبحت تجربته مميزة في قدرته على الكشف والوصول إلى الغاية في لحظات بين الوعي واللاوعي تتدفق فيها الأشكال، وهذا الكشف هو نتيجة البحث

المستمر والدأب المتواصل اللذين لا بد من توافرهما حتى يتوافق العمل الفني مع عالم داخلي غني بطعم الأشكال والرؤى.

وأخيراً يمكن القول: إن المدرس كان أستاذاً كبيراً ورائداً مجدداً مبتكراً، تجاوز نفسه باستمرار وانشغل بحمل هموم الفكر والفن والثقافة وتجديد المجتمع، وبقي على روحه الشبابية المتمردة على الأطر والمسلمات، رافق الأجيال الجديدة حتى آخر حياته لأنه أصبح عالماً ورائداً من أكبر رواد الفن الطليعي محلياً وعربياً وعالمياً.

وبرحيل الفنان الكبير تفقد الحركة الفنية واحداً من ألمع وجوهها كما يفقده مرسمه الذي اعتاد الرسم والتقاء صفوة أهل الفن والثقافة فيه.

معلومات عامة:

- ولد فاتح المدرس في حلب عام ١٩٢٢
- درس التصوير الزيتي في كلية الفنون الجميلة في روما، وتخرج عام ١٩٦٠ تعرف هناك على الاتجاهات الإيطالية الحديثة ورسم لوحات عدة تحت تأثيرها.
- سافر إلى باريس ليتابع دراسة الفن في المدرسة الوطنية العليا (١٩٦٩– ١٩٧٢) عاد بعدها يحمل شهادة الدكتوراه في العلوم الفنية، وهناك دخلت التشكيلات الأكثر حداثة التي شملت لوحته كلها من خلال الألوان المتضادة
- في عام ١٩٦١ قدم التعبيرية التي تملك الرؤيا الشخصية وجمع بين الوجوه الطفولية والريفية وعلى أرض أصبحت الخلفية بلوحاته، وبرزت الوجوه مستقلة عنها، كما استعان بالأساطير القديمة التي انتزعها من الحضارات القديمة في سورية.

  ومن أهم لوحاته (أسرة في الهواء الطلق – ١٩٦٢) و (الآشورية – ١٩٦٢).
- تطورت تجاربه في عام ١٩٦٧ فأصبح يعالج الموضوعات السياسية والاجتماعية، ودمج بين التعبيرية الذاتية وبين الرموز الشخصية المستمدة من

الموضوعات الدينية والأسطورية في تشكيلات خاصة (الشهيد- ١٩٦٧)

- قدم التجارب الأقرب إلى التجريد حيث دمج بين الوجوه مع الأرض، وغابت الشخصيات عن لوحاته وبرزت المسافات التي تعتمد العلاقات بين المساحة والشكل (لوحة ١٩٦٦). وقدم اللوحات الواقعية في البداية واتجه إلى السوريالية ثم رسم اللوحات التعبيرية التي لها طابعها التقليدي.
- انتخب نقيباً لاتحاد الفنانين العرب وعضو في المجلس الأعلى للفنون بدمشق.
- أستاذ التصوير الزيتي والدراسات العليا في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق.
- أقام عشرات المعارض في سورية والوطن العربي والعالم (٢٠ معرضاً فردياً) وشارك في العديد من المعارض الجماعية الرسمية والخاصة.
- شاعر وقاص ترك مجموعتين شعريتين (القمر الشرقي يسطع على شاطئ الغرب) بالاشتراك مع الشاعر شريف خزندار (١٩٥٩) ومجموعة (زمن اللاشيء) في الثمانيننات.
- كان يمارس الكتابة وله قصص عدة منشورة في كتاب منها (عودة النعناع) وتعد من أصفى المجموعات القصصية التي تحمل هموم ناس القاع، ومن ثم ما لبثت أن تحولت إلى فيلم إضافة إلى (خير العوج) و (عربة الجر رقم ١٣) و(رشو آغا) ..إلخ
- حصل على العديد من الجوائز والتقديرات العربية والعالمية كان آخرها جائزة لجنة التحكيم في بينالي القاهرية ١٩٩٤.
- توفي مساء يوم ١٩٩٩/٦/٢٨ في إحدى مشافي دمشق إثر مرض عضال.

لسعة اللذة أمام الجمال

ولدت على أرض جميلة، يخترقها نهر متوحش تزينها أشرطة من التراب الأحمر القاني، الفصول الأربعة فيها متميزة بالأعاصير والثلوج والشمس اللاهبة، شمالي سورية ولدت، سمّوني فاتحاً لأحب وجوه الفلاحين والأعشاب والطبيعة وأغاني الأطفال، عندما بدأت أدرس الأدب، جئت إلى (مارون عبود) الكاتب والناقد اللبناني المعروف، فأعطاني قدرة لأن أنظر إلى شجرة البلوط وأحدق في عينيها بلا خوف كالجبال، وعندما تعلمت ما هي الألوان أصبحت سعيداً كالشيء الموجود دائماً، أما الذي أرسمه فإني أحاول وضع الأشكال، كما استقرت في ذاكرتي على اللوحة بعد أن تكون قد مرت بسلسلة من التجارب للتأكد من فاعليتها البصرية، وإمكان عطائها الحضاري، وعبارة ((للتأكد من فاعليتها البصرية))، لايثق بها إلا كل من عانى صعوبة العطاء الجديد!!

فاتح المدرس

لم يكن مرسم المرحوم فاتح المدرس (أو محترفه) مكاناً فقط، لإنتاج اللوحات، فقد حوله على مدى عقود إلى بؤرة استقطاب للمفكرين والمثقفين والمبدعين، وتلتقي أجيالهم المتتالية في حوارات عن الثقافة والإبداع والحياة، وربما لا يعبر شيء عن (فاتح) أكثر من مرسمه الشهير في قلب دمشق، حيث لوحاته، ومشاريعه تتبض بروحه المبدعة وحيث كلماته تتناثر في قصاصات ورقية على الجدران تحكي ببلاغة ساحرة فلسفته في الحياة، وتفصح عن موهبته في صياغة الكلمة، وحيث كانت آلة (البيانو) تصدح بين حين وآخر بألحان جميلة خلقت للتو، على الدرجات القليلة الموصلة إلى غرفتين وممر طويل مكتظة باللوحات والألوان والكتب والأشعار والأشياء الصغيرة، هبط كل يوم فنانون ومثقفون بعضهم زملاء للمدرس، بعضهم كانوا طلابه وبعضهم ظلوا كذلك حتى رحيله، جمع بينهم تقديرهم العميق للفنان والمثقف والإنسان فيه، وحديثه الصريح كما أفكاره كما الألوان في لوحاته.

الأرض.. الوطن

لم يكن حصول لوحة المدرس الشهيرة (كفر جنة) على الجائزة الأولى للمعرض الفني السنوي عام ١٩٥٢ اعترافا بموهبته فحسب، وإنما إعلانا عن مرحلة جديدة لفن التشكيل السوري سيحتاج الجواب عن تأثيرات فاتح المدرس فيها، إلى دراسات معمقة تطال تجارب عدد كبير من الفنانين الذين جاءوا من بعده ولا تقتصر على الذين تتلمذوا على يديه مباشرة، كأستاذ في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق، فتجربة المدرس لم تقدم نموذجاً للاستنساخ وإنما سعت لإطلاق روح إبداعية حرة تضع خلف ظهرها المفاهيم التعليمية التي تجاوزها العصر(١).

ويتذكر الطلاب الذين عاصروا عودته من روما مطلع الستينات، كيف أنه فتح النوافذ فور دخوله إلى إحدى الصفوف في الكلية، ليحل ضوء الشمس الساطع محل الضوء الكهربائي المسلط على تكوين الطبيعة الصامتة، وكان هذا الدرس إلهام لفناني المستقبل جزءاً أصيلاً من ميزات تجربة المعلم الإبداعية، يحدده بكثير من الوضوح حين يحكي عن مجموع الأضواء التي تتميز بها "أرض وسماء وطني" والأرض بدورها كانت جزءاً أصيلاً آخر من ميزات التجربة، بل أهم أجزائها على الإطلاق من (كفر جنة) مرورا بروما وباريس إلى ما بعد عودته، ويصعب العثور على لقاء منشور معه لا يتحدث فيه عن الأرض بشكل أو اخر، فهي بخصائصها اللونية والحضارية والإنسانية أهم ما أعطى تجربته تميزها وقدّم لها أحد أهم مصادرها، وخاصة ما حفظته ذاكرة الطفولة حيث عاش شطرا قاسيا من حياته، وغنيا في الوقت ذاته بالصور تتقدمها صورة وجه أمه بوفرة في لوحاته، ومشاهدة السهول الفسيحة قليلة الأشجار، التي لم تتوقف عن الظهور في أعماله بصيغ بنائية تستمد روحها من التقطيعات الهندسية المتتالية ذات المدى اللا منتهي لسهول الشمال السوري، مرورا بالبيوت المتراصة لبلدة (معلولا) وصولا إلى التاثيرات المعاد صياغتها لإبداعات الفن الآرامي والآشوري والفينيقي والتدمري.

الضوء والصوت والمدى:

في معرض الحديث عن نفسه، يقول: تصور هذه المدينة الإنسانية في سحيق أزمانها وتبعثر المكان فيها، تمر في لمح البصر بتجاربها الحالية ومعطياتها الرمزية على سطح اللوحة ليتمكن الرسام بعد قناعة مهزوزة، أن يضع لوناً إلى جانب لون، أو أن يؤكد مساحة بمساحة، ويربط شتى الأحاسيس اللونية ضمن إطار صغير، مهما تكن اللوحة ضخمة، حتى أننا نحن الرسامين، نرى استحالة وضع حس جمالي، مهما كان خفيف الثقل ناعم التأثير ضمن إطار ضخم .. فماذا أرسم!؟.

يجيب الفنان: إن الإنسان يترك أثره بأظفاره على الصخر، كما يفعل السجين أو كما يترك الطائر جناحيه في الفضاء، يكفي أن يكون قد أوجد ليدل على من سيأتي!!.

رأى (فاتح المدرس) حركة الحياة ومظاهرها والضوء والصوت والمدى ... رأى هذه وغيرها باللون، فلجأ إلى قساوة الأحمر والأسود تارة وأخرى إلى الأبيض واشتقاقات الرمادي الحارة والباردة، وغلب على مواضيعه الأسطورية الأزرق المتحول عمقاً إلى الخمري والأسود، وكان يرتاح بعد إلى الأخضر وشفافياته، هكذا اللون عند فاتح المدرس وسيلة وغاية، غوصاً في العمق وتنفساً على السطح، روحاً ومادة يفيضان على اللوحة نوراً.

روعة اللاشيء

استخدم فاتح المدرس خامة الأحبار على الورق أو مع ألوان الماء كما استخدم خامة الزيت على القماش، ولم يعرف تاريخ الفن السوري استخداماً للأدوات كما عند فاتح المدرس، فنظنها أدوات سحرية شكلت مع أصابع يده، أو أنها أشعة غامضة انتشرت من تلك الأصابع، وكان عملاً وتأملاً، قال لي مرة وأنا أنظر إلى لوحة في محترفه: (لا أترك لوحتي حتى تصبح متألقة كالجوهر).

يتحول فاتح المدرس في لحظة الإبداع إلى لون وأداة يسيران وفق تحولات

واقع الحال أن تلك الأدوات هي الفرشاة وخشبتها، والسكين بحده وسطحه وقلم الفحم(٢).

لم يكن فاتح المدرس يأبه لمن يراه حين يعمل، ولكن إذا مالحظه غالباً ما يطلب منه الانصراف حتى يخلد للوحته ويشبعها الذاكرة، في دهاليز الذاكرة والرؤية وكانت تلك التحولات تأتيه كنسغ الشجرة ما إن تبيت في جذعه حتى تورق في عينيه وفي الخفي من تلافيف عقله.

ويقول الفنان: (أقف أمام اللوحة البيضاء فتسرقني روعة اللاشيء)، (أقف أمام صفحة – ورقة – بيضاء، أقف أمام الصفر وجهاً لوجه)، وقال عن الشرارة في الشكل (إن هذه الشحنة هي السر في العمل الفني) وقال أيضاً: هناك أناس من الروعة بمكان يحاولون كالعصافير المهاجرة اختراق ذلك الجدار الشفاف في ظهيرة الحياة جدار السراب السحري هؤلاء منحوا طاقة استشفاف مكانين وزمانين في لحظة واحدة .

المعرفة سعادة:

أما لماذا أرسم، فإنني أفعل ذلك لكي أكون سعيداً، فأنا بلا معرفة لست سعيداً في تعرفي على الرسم والألوان والأشكال، أشعر بملكية مطلقة للأشياء في الوجود وهذا مصدر شعوري الدائم بالفرح، ولهذا أرسم بيدي وبعيني وبحركتي، لأتعرف على الموجودات، فالمعاناة في التجارب، تجعلني السيد إزاء جمال الوجود الخارق.

الإسهام في الحوار الحضاري:

يرى الناقد (سعد القاسم) أن جانباً آخر من أهمية فاتح المدرس ينبع من فهمه للفن التشكيلي على أنه فكر وليس حرفة، وقد أرفق ذلك الفهم بثقافة واسعة طال طيفها تاريخ الحضارات والفلسفة والأدب والموسيقا، ولقائه بعدد كبير من المفكرين والمثقفين والفنانين الأوروبيين، وقيام حوارات مثمرة معهم، واللافت للانتباه هنا أنه

بخلاف كثير من الفنانين الذين درسوا في أوروبا، فإن مرحلة الدراسة الشديدة الاتصال بالثقافة الغربية رسخت هويته المحلية المتميزة التي يجد في حوار متأخر معه (أنها من أشق الأمور أواخر القرن العشرين لأن الفن التشكيلي فيه يفقد هويته الجغرافية لتقارب الثقافات بين الشعوب)، وهو في المقابل يرى أنه (لو استطاع الفنان فهم العوامل النفسية المميزة لشعبه لاستطاع التوصل إلى هوية جمالية) هذه الرؤية تسمح بافتراض أن فاتح المدرس كان، حتى لو لم يعلن ذلك صراحة، يعد نفسه مساهماً في حوار حضاري من ثقافات الشعوب الأخرى، ولهذا أصبح الحديث عن مفاخرته بالذاكرة الحضارية ليس من خلال مقولاته المعلنة الوفيرة، وإنما أساساً، من خلال نتائج بحثه التشكيلي.

الفن هو جوهر الإنسان:

قلد بعض الفنانين أسلوب فاتح المدرس وذلك بتأثير معاشرتهم له أو تتلمذهم عليه، وجاء تقليدهم لأشكال فاتح وألوانه تقليداً للسطح حيث عز عليهم المضمون، لأن المضمون في فنه كان الفنان ذاته، تلك التركيبة التي شكلتها الأرض والسماء في لحظة نادرة الحدوث، فكان ذلك المضمون هماً حمله فاتح طيلة حياته، وهو هم الإنسان الذي حمل غلالات الأزمان والقهر والعتمة، ألم يتحدث الفنان عن فن طاهر وفن غير طاهر ؟ طهر الفن عند فاتح المدرس هو طهر جوهر الإنسان يناديه للعمل لأجله ويحرضه بواسطة الرؤية الحرة التي صنع لوحات بها، إن مفردات لوحات فاتح المدرس لا يمكن أن تحاكي إلا المضمون الذي عبرت عنه، لذا كان يرفض كل أشكال الفن التي لا تعبر عن جوهر إنساني، وإذا ما تراءى لنا أن مفردات أسطورية أو هي ذات دلالات تشير إلى عوالم حضارية غابرة، فأعتقد أن مرد ذلك هو قناعة المدرس أن الحضارة الإنسانية التي ألمح إليها في أقواله وفي لوحاته قد عبرت في القديم، فلنستعدها، أو أنها ستأتي بعد حضارة هذا الزمن، فلنسع إليها، ولكنها ليست بحال حضارة العالم المقهور التي نعايشها.

ليس في لوحات فاتح المدرس سكينة بل نضال للحياة والدفء، وكانت المناسبات السياسية تحرض فاتح المدرس لعمل لوحة فتخرج بانفعال يتبدّى في لمسة قوية حمراء، سوداء، خضراء، يختم بها اللوحة كالصرخة.

والجميل أن فاتح المدرس لم يعتمد ابتكار أشكاله بل تخرج الأشكال من مخبئها في نسيج لوحته، مبتكرة ببدائية السليقة، هكذا كما لم يرسمها غيره من قبل.

لسعة اللذة أمام الجمال:

تتمتع جميع أعماله، رسماً وكتابة، بهذه القدرة المدهشة على إثارة الأسئلة وإبقائها معلقة في الهواء، وتبحث دونما جدوى عن مفاتيحها وإجاباتها.

ما تثيره أعماله فينا ليست فقط المغامرة ومخاطرها، ولا الغنى التعبيري وإبهاراته، ولا الأسئلة القلقة التي تنبض تحت أديمها السخي كما ينبض بركان مستتر، بل .. فوق ذلك، أو ربما قبل كل ذلك، تلك اللسعة الأخاذة التي تنتابنا أمام كل فن عظيم: لسعة اللذة أمام الجمال.

كان يقدس الجمال، باعتباره قيمة ورمزاً ومغزى، الجمال بكل تجلياته: شعراً ورسماً وموسيقى، ولعل في قصائده المختزلة، المشفرة، التي كان ينشرها على جدران مرسمه ما يلقي الضوء على الجانب الآخر من شخصيته، شخصية الشاعر، الشاعر الذي عرف كيف لا يكون التابع الصغير والهامشي لشخصية الفنان، كان، مثله مثل كثيرين: جبران، فيكتور هيجو، وليم بليك، هرمان هيسه، وآخرين... قادراً على التحليق في فضاءات تعبيرية آخرى، دونما خشية من أن ينتقص ذلك من قيمة وعلو واتساع فضائه الأساسي: كان فناناً وشاعراً في آن، وربما بنفس السوية والعمق والقدرة على ملامسة الجوهر الحقيقي لمادته واداته: في الرسم كما في الشعر، ولهذا لم يكن يستخف بالكلمات، تماماً كما لم يكن يستخف بأداته الأساسية الأولى: الريشة.

لا تعبث إذ تكتب شعراً، كما يقول، اخلع حذائك، انت تتكلم عن ملائكة بلا

أحذية، ومهما يكن شعر الإنسان مسكيناً، فإنه أجمل ما في هذه المجرة..

فاتح المدرس كان شاعراً كاملاً: كان شاعر حبر ولون، في الوجوه التي رسمها، وهي وجوه الحياة على أي حال، كان بعيد إحياء البشر، بعيد إبداع الحياة عَبر الوجوه النبيلة، التعسة، الأيقونة، المتصورة في متاهة الزمن، الوجوه التي كانت تشكل الميثاق الروحي والوجداني لعمله الإبداعي.

كل وجه ... هو كل الناس، وكل لحظة مقطوفة من الزمن هي كل الزمن، وكل شهقة جمال ... هي الجمال الكوني كله، وكل غصة ... هي غصة أرواح البشر كلها.

حياة وعمق وعفوية:

على الرغم من الزمن القياسي الكبير الذي أمضاه هذا الفنان المتميز في إنتاج الفن، وبغزارة واضحة، ظلت لوحته تمد أكثر من جسر إلى الحياة، مما جعلها مأوى للحياة لا لطراوتها، وشغبها المحبب، فتجربته لم تقع في فخ القوالب الجاهزة، ولا التكرار الممل، ولا غادرها الدفء والألق والبهاء وزخم التعبير، وعمق الرؤى، وروح البحث والتجديد والإضافة..

لقد ظلت تجربته كما بدأت قبل ما يربو على ستين عاماً: موارة بالحياة، رافلة بالبساطة والعفوية والعمق، لذلك فهي من النوع السهل، الممتنع أغرت العديد من التشكيليين السوريين والعرب على تقليدها، لكنها ظلت عصية على التقليد، لأنها كانت وثيقة الصلة بجذوة الحياة المتجددة أبداً، وبصولات وجولات الفكر الإنساني الذي لا يهدأ .... وفاتح المدرس امتلك مؤهلات متميزة، مكنته من القيام بهذه الصولات والجولات وبامتياز.

وفي اللحظات الأولى لافتتاح مرسم الفنان فاتح المدرس كان الجمهور أمام مفاجأة مدهشة: تغييب اللوحة السريالية التي كانت مرسم الفنان، وغادرت فوضى الكتب والأوراق والأثاث العتيق، وحضرت لوحة جديدة مكان مضاء ولطيف

وباقات ورد منتقاة ولوحات الفنان الخالدة ترصع الجدران، وظهرت لمسات الزوجة الأنيقة في توزيع هذه اللوحات وهي هدية الفنان لزوجته خلال رحلة محبـــة ووفـــاء لأكثر من ربع قرن، وفيها مفاصل رئيسية من تجربة الفنان التشكيلية، تزمع الزوجة الآن أن تعرض في المرسم مقتنيات من أعمال تجارب الفنانين الشباب الذين اعتـــاد المدرس أن يمهد لهم الطريق ويمدهم بتشجيعه ورعايته.



عاصم زكر يا :

معارك الكفاح الوطني من أجل الحرية...
نصف قرن من الإبداع لتجسيد البطولة والتراث الحضاري

الفنان التعبيري عموماً والتشكيلي خصوصاً ابن ضروراته الوجودية ومجتمعه وحاجاته متكيف مع ذاته ومحيطه، بما يمتلكه من حواس وانفعالات ومواهب وقدرات تمكنه من التعبير عن الواقع اليومي وعن التفاعل الإيجابي مع قضايا الأمة بأفراحها وانتصاراتها، وكذلك الأمر في نوائبها وأحزانها، وهو الأكثر صدقاً مع حالة الترميز والوصف والاستعارات المجازية من ذاكرة الواقع والتاريخ والأمكنة والمعالم الأثرية المحيطة، والتصاقاً برغبات الناس على الالتقاط ومقدرته على التوصيل.

لقد شكلت المعارك حيزاً واسعاً في لوحات وأعمال الفنانين التشكيليين العرب منذ بدايات القرن الماضي وحتى اللحظة الزمنية الآنية، بسبب ارتباطها العضوي بحياة الناس وذاكرتهم، وحاجتهم للنظر في ماضيهم وحاضرهم، عبر تنويعات الابتكار المرئي والمكتوب والمسموع، وأهمية العمل الفني واللوحة في تكريس هذه الحاجة وبلورة مفاعيل التواصل من وجهة نظر تعبيرية، يمثل الفن التشكيلي واحداً من بواباتها المريحة والواسعة على التلقي، باعتبار أن الفنان شاهد عصر ومرحلة، واللوحة والعمل الفني ذاكرة توثيق وتذكرة عبور لمرحلة تاريخية وأزمنة وأفراد وشعوب، وانعكاس طبيعي وصادق لجوهر الأشياء في فهم الأمور، ومعاينتها في كافة معابرها الأيديولوجية والسياسية والحضارية والاجتماعية، التي مثلت للفنانين مادة جديدة للتواصل والتذكر وفتح مكان لجموح المخيلة، تلمس معطيات الواقع في رموزه وشخوصه الحية والمرئية في كل المناطق الجغرافية التي يعيش المواطن في أحضانها، وفي كل متغيرات الطبيعة والجمال والإنسان.. وكيف لا والمنطقة

العربية عموماً وسورية خاصة عاصرت أحداثاً جساماً في تاريخها الحديث والمعاصر، وتعرضّت لمجموعة من المخططات الاستعمارية الأوروبية عبر اتفاقيات (سايكس بيكو)، وما تبعها من عدوان متعدد الجنسيات على مقدرات وجودها وخيراتها وشعبها، وما جسدته من مقاومة شرسة للاحتلال الفرنسي ونيل الاستقلال، حتى دقت نكبت فلسطين عام ١٩٤٨، رؤوس العرب جميعهم حكاماً وحكومات وشعوباً، دقاً عنيفاً في قسوة نتائجها على الشعوب العربية، وأبقت المنطقة العربية في مواجهة مازالت مفتوحة مع العدو الصهيوني، الذي انتشر في قلب الوطن العربي، وامتد غدره ليشمل مزيداً من الأرض العربية عقب نكست حزيران عام ١٩٦٧، وما أعقبها من حروب مواجهة مستمرة مع العدو الصهيوني في كافة الجبهات العربية لاسيما جنوب لبنان وفلسطين.

هذه الأحداث المؤثرة رسمت للفنان التشكيلي السوري معالم ابتكار متجددة، عبر الاشتغال التقني في كل ميادين الفن التشكيلي التقليدية والتصوير على وجه التحديد، وفي الوقت الذي رسم فنانو الرعيل الأول أمثال (توفيق طارق، سعيد تحسين، عبد الوهاب أبو السعود، محمود جلال) انتصارات العرب المستلهمة من المواقف الفاصلة في التاريخ العربي الإسلامي، مجسدة في معارك (اليرموك) (القادسية) (عين جالوت) (حطين)، كان الهم الإنساني والبعد الاجتماعي هو المجال الحيوي لفناني مرحلة الخمسينات والستينات، ومن أبرز فناني تلك المرحلة (ناظم جعفري، فاتح المدرس، لؤي كيالي، برهان كركوتلي، إقبال قارصلي، عاصم زكريا)، بينما اتسمت مرحلة السبعينات وما بعدها في تعدد منابر التعبير الموزعة ما بين الأيديولوجية في أبعادها التاريخية والحربية، والعودة للطبيعة ورسم المواضيع المحلية وخوض غمار التجارب الحديثة والحداثية بالفن، من أبرز الفنانين الذين عبروا عن الحروب والمعارك في تلك الفترة (حيدر يازجي، أحمد إبراهيم، علي الصابوني، غازي الخالدي، جريس سعد، علي السرميني، ممدوح قشلان) وسواهم.

لقد شكلت لوحات الحروب والمعارك في شقيها المفرح والمؤلم في ذاكرة الناس وفئات المجتمع المتعددة، حيزاً من التأمل والتفكير باعتبارها ذاكرة بصرية للمكان العربي بكل تفاصيله وأحلامه ومفارقاته، وقد أكدت على تلاحم الطبقات باختلاف منابتهم الاجتماعية، ولم تخرج لوحات الرعيل الأول من الفنانين التشكيليين عن المدارس الفنية التقليدية بكل ما فيها من محاكاة لتجارب الآخرين، ولكن بوسائط تعبير وملونات وأحاسيس عربية، فكانت سيادة للاتجاهات الكلاسيكية والواقعية من حيث بناء اللوحات، وآلية الاشتغال التقني والتعامل مع الشخوص والمساحات والملونات الرئيسية والخلفية والثانوية، فيها كثافة عددية متناسبة وروحية المعارك وصخبها وقيمها التصويرية الحاشدة بالخطوط والملونات وواقعية اللقطة، بينما عزفت أنامل الفنانين في المرحلة الثانية (الخمسينات والستينات) على تقسيمات وأساليب المدارس والتيارات الواقعية التعبيرية والتعبيرية الرمزية، ودخولهم مساحة الفن الحديث من بوابة التكعيبية والرمزية، وعدم التزامهم بقيود المدارس النمطية التقليدية، وألوانهم فيها كانت مقتصرة على دائرة لونية محددة سواء أكانت أحادية وثنائية أو سواها، وأمست لمسات الفنانين وأساليبهم في معالجات مواضيعهم وقيمهم الخطية واللونية معروفة لدى جمهور الفن والتلقي، وتلامس في كثير من الأحوال القضايا الحياتية التي تحيط بأسوار الوطن ومعاركه الحياتية الداخلية والخارجية، وإبراز البعد الإنساني والنضالي الاجتماعي والوطني...

لقد رسمت كافة مساهمات الفنانين التشكيليين المتصلة بمواضيع الحروب والمعارك، حالة تعبير صادقة معبرة عن حقيقة المكونات البشرية المبدعة والملتزمة بقضايا الأمة والوطن والقضية الفلسطينية والجولان على وجه التخصيص، وتشكل في جموع ابتكاراتها بانوراما عربية كفاحية بامتياز تقني وفكري وجمالي في أبعاده الوجودية التاريخية والحضارية.

لقد أتيح لي مؤخراً أن أزور بيت الفنان القدير (عاصم زكريا) ... وحين بدأ

تطوافي أمام عشرات الأعمال الفنية التي احتشدت في كل ركن وعلى الجدران: لوحات ضخمة لمعارك تاريخية خالدة، ولأحداث الثورة الوطنية وجهاد الثوار من أجل طرد الاحتلال وتحقيق الاستقلال ... وكذلك لوحات لمعالم دمشق الجميلة، ومناظر الطبيعة الآسرة، انتظمت كلها لتحيل المكان إلى عالم من الجمال المهيب، والذوق الفني الرهيف، معبّرة عن المشاعر الفياضة التي يخزنها صدر الفنان، ويعبر عنها بريشته الفنية المبدعة ... وهكذا توقفت ملياً، أتسائل:

- هل أنا وسط ميدان بطولة حقيقي، نابض بالمواقف التاريخية الخالدة ... أسمع صهيل الخيول في تدافعها على حلبة الميدان، وتكبير الثوار وهم يتسابقون إلى لقاء العدو بصدور مشرعة للفداء، ورايات النصر خفاقة في السماء مبشرة بفجر الاستقلال؟...

أم هي لوحات فنية بذل لها الفنان ومض قريحته، وضوء عينيه، ولمسة ريشته الدقيقة الشفافة؟...

أروع من الروعة هذه الأعمال الساحرة التي تزين جدران غرف المنزل، وهي تحضنك فكراً وإحساساً، وتعيد إلى ذاكرتك ما فاتك من أخبار الكفاح الوطني، وسير الرجال الشجعان الذين كتبوا صك الحرية بدم الشهادة.

- هل سمعتم بالفنان أحمد عاصم زكريا؟...

جلست إليه أنصت إلى تفاصيل الرحلة الطويلة الشائقة، محطة ... بعد أخرى،...

- ولد الفنان عام ١٩٣٧ في حي سوق ساروجة بدمشق، وتفتحت عيناه في بيت شعبي تهيأ له فيه مناخ فكر وثقافة وفن ... كان جده "جميل زكريا" قد تخرج من الكلية الحربية في الأستانة عام ١٩٠٨، حيث زامل فيها الرسام الدمشقي الشهير "توفيق طارق" وحاربا معاً على جبهة اليونان إبان الحرب العالمية الأولى، فلما اندلعت نار الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦، انضم الجد مع الكثيرين من الضباط العرب إلى جيش الأمير فيصل بن الحسين، الذي أصبح فيما بعد ملكاً

على سوريا ... على أن عهد الاستقلال العربي لم يعمر طويلاً، وما لبثت قوات الغزو الفرنسية أن احتلت البلاد بعد موقعة "ميسلون"، وفرضت سيطرتها الاستعمارية ... مما حدا بالجد "جميل زكريا" إلى ترك الحياة العسكرية، والانتساب إلى كلية الحقوق، ليتخرج منها عام ١٩٢٤، ويلتقي مجدداً بصديقه الرسام "توفيق طارق"، ويبدأ معه رحلة جديدة في عالم الفن والإبداع ... وصار بيته ملتقى حميماً لهواة الرسم، يعكفون فيه على إنجاز أعمال جميلة بإشراف "توفيق طارق"، وقد كانت بعض محصلة هذا الملتقى لوحة متميزة شارك في رسمها الأصدقاء، وأطلقوا عليها اسم "بطتي صيد" وحملت تواقيعهم معاً...

توفي الجد عام ١٩٣٢، تاركاً وراءه مرسماً ولوحات زيتية ومائية، وثروة من أدوات الرسم والألوان، ومكتبة حافلة بعشرات المؤلفات في الأدب والفن والتاريخ ... وقد تسلم هذه التركة الرائعة "محمد عوني زكريا" والد الفنان وخريج الأدب الانكليزي من جامعة "كامبردج".

.... وعلى الرغم من أن الأب لازم مرسم الفنان "توفيق طارق" وتابع نشاطه المتميز في لوحاته الجميلة، إلا أنه اكتفى بتذوق الرسم دون ممارسته، لأن هوايته كانت الأدب والشعر والموسيقا، كما اهتم بحفظ تراث الجد الفني الذي أبقاه ثروة وذخراً للحفيد الفتى "عاصم"، وأحاطه برعايته وتوجيه خطواته الأولى في عالم الفن الجميل.

كانت البلاد في تلك الفترة من تاريخها، ميداناً لمعارك الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي، وصارت حكايات الملاحم الوطنية التي يكتبها الثوار يومياً، على كل شفة ولسان، وقد خلبت صور المجاهدين، ومواجهاتهم الرائعة مع جنود الاحتلال، فكر الفنان الناشيء، وسيطرت على حواسه.

... وشهد "عاصم زكريا" بعينيه المذبحة الفاجعة التي استشهد فيها حرس البرلمان الأشاوس، الذين رفضوا الاستسلام، واختاروا الموت في سبيل الحرية، فتركت المأساة في غور نفسه أثراً أليماً لا يمحى مع الأيام، كما شهد الفنان أعراس

الشعب صبيحة جلاء المحتل عن الوطن، ومواكب الفرسان الظافرين تجوب أحياء دمشق مهللة للنصر الكبير ... فكان ذلك كله خميرة للأعمال الفنية الرائعة التي خرجت فيما بعد إلى الوجود، معلنة ميلاد فنان كبير مبدع...

البدايات الواعدة:

- تعلم "عاصم زكريا" في مدارس دمشق، وفي المرحلة الإعدادية عام ١٩٥١، حظي بمعلم مادة الرسم، هو الفنان القدير "سعيد تحسين"، الذي اهتم بتوجيه تلامذته، وإذكاء حماسهم، وشحذ مواهبهم الفنية، كان المعلم يخط أمامهم، ويطلعهم على خطوات العمل وأساليبه وتقنياته، مركزاً أنظارهم على التظليل بالدرجة الأولى، ثم على التلوين ... ويدلُّهم كيف تُلوَّن السماء والأشجار والمياه، ففتح المعلم – كما يذكر عاصم – عينيه على أسرار الفن وآفاقه الواسعة، وملأ مشاعره بسحر الجمال وفتنته، وكانت تلك الشرارة الأولى التي فجرت موهبة التلميذ الفنية، ولفتت انتباه المعلم القدير إليه، فأولاه اهتمامه، وأغناه بتوجيهه، كما حظي بإعجاب والده الذي راح يذكّره بأعمال الفنان المبدع "توفيق طارق" وأسلوبه الأنيق، ويمده بملاحظاته مؤكداً عليه أن يتحرى في عمله كل ما هو نبيل وجميل، ويطوع ريشته لتكون ناعمة، وخطوطه لتخرج قوية واضحة ... وهكذا كانت انطلاقته الأولى، ثم بدأت أعماله الفنية تتوالى، وإن لم تزد عن بضع لوحات نفذها بإشراف أستاذه "سعيد تحسين"، لكن ثمة لوحة فنية تميزت من بينها وهي " معركة بور سعيد" التي رسمها عام ١٩٥٨، بقياس ٨٨×٦٠سم، واقتنتها الدولة يعد عرضها في "معرض البطولات العربية" وعاد فرسم معركة "العدوان الثلاثي على مصر ولوحة المجاهد "حسن الخراط" أحد شهداء الثورة الوطنية ضد الاحتلال...

صور البطولة في تاريخنا:

ثم بدأت مرحلة حاسمة في مسيرة الفنان، حين تملكه هاجس رسم لوحات جدارية، تكون فيها - كما صرح - دورس للأجيال ... فنحن مقصرون في تجسيد أحداث تاريخنا الغني بمواقف البطولة والتضحية ... ونحن لا نقل شأننا عن الأمم الأخرى، التي يخلّد فنانوها تاريخهم بأعمال فنية ضخمة تعتز بها ... واتقدت حماسته لرسم المعركة الفاصلة في "ميسلون" التي شارك جده فيها، والتي قدّم فيها القائد "يوسف العظمة" درسا في التضحية والفداء. ولكنه ما لبث أن واجه اعتراض أبيه الذي رأى أنه ما يزال هاوياً ... وأن عليه أن يبدأ برسم المناظر الطبيعية والزهور والفواكه بريشة ناعمة كما كان يفعل الفنان العظيم "توفيق طارق"، ثم ينطلق إلى الأعمال الكبيرة التي يتقنها جهابذة الفنانين المتخصصين ... لكن "عاصم" لم يحمل اعتراض أبيه على محمل الجد، بل صمم على تنفيذ فكرته ...

(فتش في السوق عن قماش "كانافا" عريض يمكّنه من تنفيذ لوحته الضخمة فلم يوفق، واضطر لشراء أربع قطع من نوع آخر أقل مساحة ... وقامت جدته بخياطتها ليحصل على قطعة واحدة بقياس ٢٠٠×١٧٥ سم، أسسها بنفسه بدهان الزنك الأبيض، وباشر العمل على سطح بيته، وقد شغله استغراقه فيها عن كل ما حوله، ولكنه مع هذا، أنهى تحصيله الثانوي، ونال شهادته ليلتحق بكلية الحقوق في جامعة دمشق.

كان انشغال الفنان في عمله، واستغراقه في الرسم بلا كلل، لإنهاء لوحته "معركة ميسلون" إضافة إلى المأساة الأليمة التي انتهت بها حياة الفنان الرائد "توفيق طارق"، الذي مات وحيدا بائسا في غرفة مهجورة ببيروت ... كان ذلك سببا في ثورة والده عليه، فانقض هائجا يعمل تحطيما في أدواته وألوانه، مقسما اليمين ألا يعود ابنه إلى العمل في لوحته حتى ينال شهادته الجامعية، وأتبع ذلك بترحيل أدواته وأغراضه والحجز عليها، ولكن لوحته "ميسلون" نجت من الثورة، بعدما كان قد بلغ في إنجازها مرحلة متقدمة، لأنه سارع إلى فكها ولفها وإخفائها في مكان آمن عند جدته...

عمل جديد، وعاصفة من الجدال:

مرت أربع سنوات بطولها، نال الفنان خلالها شهادة الحقوق من جامعة دمشق عام ١٩٦٢، وغادر إلى "روما" ليمضي في دراسة الفن ثلاث سنوات، عاد بعدها إلى دمشق مزوداً بخبرة فنية مكنته من متابعة عمله في لوحة "ميسلون"، فأقبل عليها بحماس وأنجزها عام ١٩٦٥، لتأخذ مكانها في معرض الخريف الذي تنظمه وزارة الثقافة سنوياً، وقد رأى جمهور الفنانين والنقاد في اللوحة عملاً جديداً مختلفاً عما تعودوا عليه، إذ كانت أغلب الأعمال الفنية المشاركة ذات اتجاه تجريدي محض، وأحدث ذلك عاصفة مثيرة، في أروقة المعرض، ودار جدال صاخب بين مؤيديها ومعارضيها، لم يكن مألوفاً في أجواء المعارض الفنية قبلاً..

وطلعت الجرائد في اليوم التالي لعرض اللوحة، تناقش لوحة الفنان "زكريا" قال فاتح المدرس ٨٢٤ ن جريدة البعث: ١٩٦٥/١١/١٦، لا يمكننا أن نسمي اللوحات التاريخية التسجيلية الدعائية فناً... إنّ الفن كالفلسفة صار علماً، وقد انقضى الوقت الذي كان فيه المنظر الجميل فناً).. وعلقّت الجريدة: (إن هذه اللوحة – ميسلون – حققت خطوة إلى الوراء) ... وأعقبتها جريدة الثورة بتعليقها:

- (إن الفنان أضاع وقته في التاريخ لاستقصاء أسلحة الجيش في المعركة، ولم يهتم باللوحة كلون ومساحة ... بل كزخرفة) .. وأضاف ناقد آخر (إن الفنان لا يحتاج إلى تخطيط فكري طويل، وكلما استغرق الفنان في التخطيط الفكري والنظري كلما ابتعد عن الفن وعن قيمته التشكيلية). وعلق "غازي الخالدي" (يمكننا بكل بساطة أن نكلف فنانين لعمل مثل هذه اللوحات التاريخية، لتخليد مناسبة وطنية)، وأدلى "طارق الشريف" بدلوه قائلاً: (إن لوحة "ميسلون" ذات مضمون تاريخي، يطغى على العمل الفني، وحين تفقد اللوحة قيمتها الفنية، تفقد كل شيء)، ولذا فهذه اللوحة لن تتمتع بالحياة أبداً، لأنها لوحة مناسبة، تنتهي مع انتهاء مناسبتها)...

لكن المنصفين من النقاد والزوار كان لهم رأي مخالف تماماً، وزير الثقافة

السوري في تلك الفترة رأى في اللوح عملاً فنيا مبدعاً، فقال: لو كنت فنانا لرسمت من بين كل عشر لوحات تجريدية لوحة وطنية تخلد مواقف شعبي البطولية، وذكر الدكتور "عفيف بهنسي" : إن المواضيع الفنية القومية، يجب أن تكون نظرتنا إليها إيجابية ... إن أكثر الفنانين يتهربون من إنجاز مواضيع تاريخية على الرغم ن الحاجة الماسة إليها لإذكاء الروح الوطنية وإن الفنان الأصيل هو الذي يجسد آمال أمته تماماً مثل الأديب الموهوب – ليحرك في أبنائها دوافع الاعتزاز والكبرياء .. ومن غير الفنان قادر على أن يثير مثل هذا الدوافع النبيلة في النفوس؟...

وهكذا ظلت لوحة ميسلون متألقة إلى يومنا، وذاعت شهرتها في الوطن العربي، وأدخلت دراستها في مناهج التعليم الفني، كنموذج لالتزام الفني بقضيتنا الأمة الوطنية واعتبرت نقطة مضيئة في تاريخ العمل الإبداعي السوري ... وقد تطلع المتحف الحربي في سوريا لاقتناء اللوحة، وتم عرضها في صدارة الصالة الرئيسية، حيث ما تزال ماثلة ومتألقة، في حين غابت كل الأعمال القديمة عن العيون بلا أثر....

ميسلون: اللوحة الخالدة:

تمثل اللوحة القائد البطل "يوسف العظمة" وزير الدفاع السوري، وسط كوكبة من المتطوعين الذين هبوا معه إلى "ميسلون" للتصدي للقوات الفرنسية عام ١٩٢٠، والتي كانت تفوقهم عدة وعتاداً، وتجسد اللوحة القائد "يوسف العظمة" لحظة إصابته برصاص الأعداء وهو قريب من مدفعه، ويهتف بصوت جهوري:

(أنا إن متُّ فقد أحييت للناس مثالاً إنما الحر إذا سيم الأذي يجهر : لا لا)

وهو من شعر الشاعر الوطني "خير الدين الزركلي" في ملحمته "العذراء" التي نظمها متأثراً بأحداث موقعة ميسلون.

وقد أشهر "العظمة" بيمناه سيف النخوة، وفي يسراه مسدسا للدفاع عن نفسه، ووقف من خلفه مقاتل يحمي ظهره، في حين يحاول فارس آخر أصيب مع حصانه، شد لجامه لانهاضه ومتابعة القتال، وتفاصيل عديدة أخرى، عرض فيها الفنان مشهداً وطنياً وإنسانياً، يجسد لحظة الشهادة والتضحية دفاعا عن أرض الوطن وحريته.

يرى المتأمل الملامح المؤثرة التي أتقن الفنان إبرازها على وجوه المجاهدين، ويلاحظ التشكيلات الهرمية التي اعتمدها، وهي من مقومات الأسلوب الرومانتيكي، الذي تتجلى فيه العواطف الجياشة والذي يركّز بوجه خاص على الحركة والعاطفة والأحداث الصارخة، ويعنى بالتشكيلات ذات الكتل الهرمية.

وقد اختار الفنان للوحة اللون الأزرق الكوبال، واستخدمه مع متممه الأحمر الكادميوم وأدخله في الجو الضبابي الغامق ليشير إلى ألسنة اللهب المتلاشية (أعلى اللوحة)، أما اللون الثاني المستخدم في اللوحة فهو: البني من مشتقات العنبر الخام وترابة دوسيين ومن الأكر التي لوّن بها الأحصنة وملابس الثوار، واستخدم لوناً أصفر ركبه بنفسه ليحصل على سلسلة من هذا اللون الذي يشبه لون الكريم، أما البرتقالي فقد استخدمه على شكل أضواء منعكسة على الوجوه والأجسام البارزة.

أمجاد العرب في لوحات جديدة:

توالت أعمال الفنان "عاصم زكريا" بعد ذلك النجاح الذي حققته لوحة "ميسلون"، فكانت لوحته: "رجال الثورة السورية" (١١٠×٨٧سم) ولوحته الأخرى "أبو العلاء المعري" (١١٠×٨٧سم)، التي أراد أن يتحدى بها لوحة للشاعر سبق أن رسمها أستاذه "سعيد تحسين"، فوظف لها خبرته العلمية، وقراءاته المتأنية لحياة الشاعر، كما رسم في هذه الفترة عشرات اللوحات لمدينة دمشق (أحياؤها القديمة، وأسواقها الشعبية الشهيرة ...) وفي عام ١٩٧٣ أتيح له السفر إلى لندن والالتحاق بالأكاديمية الملكية، حيث أمضى سنتين، ثم ليعود إلى دمشق متابعا مسيرته الفنية،

ويعمل على إنجاز لوحته الجديدة الكبيرة "معركة اليرموك"، وقد مهد لـذلك برحلـة إلى موقع المعركة التاريخية الشهيرة، جال خلالها في أرض المعركة ودرس أرض الملحمة الحاسمة بين جيش المسلمين وجيوش البيزنطيين، والتقط صوراً للمنطقـة، ليعود ويتفحصها ويضع دراسته الفنية لها، وطفق يعمل بها حتـى أنجزهـا بطـول ٣٦٠م، وارتفاع ١٢٠سم، وقد تجسدت فيها الحشود الضخمة وتحركاتهـا المثيـرة، حتى إن المشاهد يكاد يسمع منها وقع سنابك الخيل وصـهيلها، وتذهلـه صـفوف الفرسان بلباسهم العربي الجميل، وسيوفهم المشرعة، وراياتهم الخضر الخفاقة.

في عمل إبداعي متجدد:

قام الفنان "عاصم زكريا" إثر إنجازه لذلك العمل الفني الأخاذ، بجولـة واسـعة إلى العواصم الأوروبية، وتنقل فيها بين المتاحف الشهيرة فـي رومـا، وفلورنـسا وباريس ومدريد، والأندلس والمغرب العربي والقاهرة واستانبول وصنعاء، واطلـع فيها على فرائد العمال الفنية، والمواقع الأثرية، وصوّر بعدسته كل ما وقـع عليـه بصره من صور الجمال والفن الآسر، وقد استقر لسنوات عديدة في لنـدن، مدينـة الفن العريق فأغنى ذوقه الفني، وصقل موهبته، وعرض أعماله فنالت اهتمام النقاد، لما تميزت به من أسلوب كلاسيكي جسّد الطابع الشرقي الدمشقي...

وفي عام ١٩٨٥ بدأت مرحلة جديدة في مسيرة الفنان حين انتقل للعمـل فـي المملكة العربية السعودية، وتنقل بين المدن والصحراء، فأقام في الخيـام البدويـة، وعايش الحياة الطبيعية الجميلة متتبعاً سباقات الجمـال وصـيد الـصقور وتربيـة الغزلان فما لبثت تلك المشاهد أن انعكست في أعمالـه، وجوهـاً لفحتهـا شـمس الصحراء، وتفاصيل من حياة السكان: الخيام، والعرضات النجدية ومجالس الـسمر، ورسم كذلك لوحات رائعة لعديد من المسؤولين، جاءت غاية في الروعة والجمال.


أمضى الفنان سنوات في السعودية، ثم عاد عام ١٩٧٤ ليستقر نهائياً بدمـشق، وليعكف في مرسمه على متابعة عمله الإبداعي، منجزاً لوحات فنيـة رائعـة فـي

موضوعه الأثير: أحداث الثورة السورية وجهاد الرجال الأبطـال ضـد المستعمر الفرنسي، وقد تميزت من بينها لوحة "سباع البر" (١٠٥×٨٠سم) و "ثوار الغوطـة" (١٢٧×١١٦سم)، و"الفارس الدمشقي" (٨٤×٦٤سـم)، "علـى ضفاف بـردى" (٨٤×٦٤سم) "فارس المزرعـة" (٨٤×٦٤سـم) وأخيـراً لوحـة "حمـاة الـديار" (١٨٣×١٣٧سم)، التي كان قد بدأ بخطوطها الأولى عام ١٩٦٧، وتركها ليعود إليها على فترات متقطعة، حتى أنجزها في عام ١٩٨٣.

اليوم وبعد تلك المسيرة الطويلة، مايزال الفنان "عاصم زكريـا" منكبـاً علـى لوحاته، متابعاً بحماس ودأب كبيرين العمل على تجسيد تـاريخ الـوطن، وتراثـه الحضاري العريق، بريشة خلاقة، وروح عالية، ليترك للأجيال إرثاً فنياً بديعاً يرون فيه بطولات الآباء والأجداد، وعظمة الأمة العربية الخالدة.

.... انتبه من استغراقي في تأمل الأعمال الفنية الجميلة المتزاحمة من حـولي، وفي ذهني خاطرة:.

ليس هدف الفن بث تذوق الجمال، وإثارة العواطف الجياشة وحسب، بل مهمته أيضاً أن يبعث الحياة ويجسد معانيها الراقية، متمثلة في أحـداث تاريخهـا، وسـير رجالها ... إنه عندئذ يؤدي دوراً بالغ الأهمية في إيقاظ الهمم، وإنقاذ روح الحمـاس لتحقيق الأهداف العظام ... وهو ما فعله الفنان المبدع: "عاصم زكريا"...



عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا

١٣٦١



حلمي حباب :

الخط العربي آيات من الفن والإبداع والجمال

كان العرب قبل الإسلام يهتمون بالكتابة، ولقد استعملوها في شؤون حياتهم كتدوين العقود والمواثيق السياسية والتجارية وشؤون الأدب والشعر وكل جوانب الحياة، ولم تكن أمة العرب أمية بمعنى أنها تجهل القراءة والكتابة ولكن الأمية فسرها حديث ابن عباس الذي رواه القرطبي الجامع لأحكام القرآن حيث قال:

(الأميون هم العرب، من كتب منهم ومن لم يكتب، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب).

ويمدنا الشعر الجاهلي برصيد كبير من الألفاظ التي تدل على إن الكتابة كانت موجودة في عرب الحجاز بل ومتطورة فهناك القلم والقرطاس والدواة والمداد، واللوح والصحف والرق والنمنمة والكتاب وغير ذلك مما له صلة بهذا الشأن. لقد حمل العرب الحجازيون حرفهم اثناء رحلة الشتاء والصيف من بلاد الشام ونقلوه من ابناء عمومتهم الانباط الذين كانو قد استعاروه ممن سبقهم من الآراميين الذين سطروه في أرجاء معابدهم وتعلموه وطوروه في دمشق الشام في معبد حدد الآرامي (جامع بني أمية الكبير حالياً).

ولن اعرض أو اسرد ما كتبه أكثر الدارسين والمؤرخين ولن أفسر أو اعقد المقارنات حول مجمل النقوش المكتشفة التي عقد الدارسون حولها البحوث الوفيرة وأشبعوها درسا وتمحيصاً، ولكنني أود إن أوضح أن لا علاقة بين كتابة العرب الجنوبيين (المسند) وكتابة العرب الشماليين (الأنباط) وأود أن أقول ان كنايتنا وحرفنا وخطنا العربي اليوم ما هو الا سلسلة لتطور كبير امتد عبر القرون وشاركت فيه أقلام شتى حتى بلغ شأواً رفيعاً، وكان الإسلام هو الباعث الحقيقي لهذا التطور. نزل القرآن في البدء بكلمة أقرأ، والقرأة تحتاج إلى كتابة، لذلك أقسم

الله سبحانه وتعالى بأدوات الكتابة (ن والقلم وما يسطرون)، (والطور وكتاب مسطور في رق منشور) (كان ذلك في الكتاب مسطوراً) (أقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله). جاء الإسلام ليحمل معه الكتابة والخط يرفعهما إلى المكانة العظيمة والدرجة الرفيعة، وليسود قروناً يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولتخط الأيادي كلمات القران الذي انزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم بخطوط جميلة رصينة شامخة. وقد كان لتدوين القرآن وكتابته أكبر الأثر في تطور الخط، وكان لابد من العناية بحروفه إجلالا وتعظيماً لكتاب الله.

كتب العرب المسلمون منذ بداية العهد الإسلامي بنوعين من الخط، خط رصين جميل خاص بالمصاحف أطلق عليه الخط اليابس، والذي اكتسب فيما بعد أسم الخط الكوفي، وخط من نوع آخر أختص بالكتب والرسائل والوثائق والعهود وما أشبه من حركة يومية أطلق عليه أسم اللين والذي تطور فيما بعد زمن الأمويين في دمشق وعرف بخط النسخ وأقدم خطاط ورد ذكره وذاعت شهرته هو خالد بن أبي الهياج زمن خلافة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وزمن الأمويين وقد كتب بالذهب على جدار القبلة في المسجد النبوي بالمدينة أربعاً وعشرين سورة ضمت ثلاثاً وتسعين أية من القرآن الكريم تبدأ من سورة (والشمس وضحاها) إلى نهاية القرآن الكريم وكان يكتب المصاحف والأخبار والأشعار للخليفة وقد نقل ابن النديم أنه رأى مصحفاً بخط أبن أبي الهياج. وجاء من بعده مالك بن دينار الوراق المتوفي ١٣١ هـ الذي كان يكتب مصاحف بالأجرة. ثم جاء قطبة المحرر المتوفى ١٥٤هـ فكان أول من حمل امتياز لقب محرر، ومثل مرحلة كبيرة في تاريخ الخط. كما ظهر الضحاك بن عجلان واسحاق بن حماد وكانا أستاذين لخط الجليل، وتتلمذ عليهما طلاب عديدون ومنهم سناء الكاتبة. وبظهور ابن مقلة ٣٢٨ كان للخط شأن كبير من التطور إذا استطاع أن يضع منهجاً في الخط وهو النسبة (النقطة) لطول الحرف وانحنائه وانخفاضه، وكان الفنان الكبير الذي رفع الخط إلى

المستوى الفني فقيل (الخط المنسوب) كما كتب مصحفين واحد ظل في اشبيلية زمناً، والثاني كان محفوظاً في مكتبة بهاء الدين البويهي في شيراز (٣٧٩ هـ)، ثم جاء من بعده ابن البواب (٤١٣ هـ)، تلميذة، الذي سار على نهجه، فكان أن ترك عدة مصاحف لم يصلنا منها سوى مصحف واحد موجود في مكتبة تشتربتي بدبلن، ويعطينا فكرة كبيرة عما كان عليه الخط حتى هذا العهد.

لقد خلّفت لنا الحضارة العربية الإسلامية تراثاً كبيزاً من الخطوط نفخر بها، وتحكي تاريخنا الطويل عبر الأزمان، فمن خطوط العصر الإسلامي الأول إلى عصر بني أمية، فالعباسيين، فالسلاجقة، والأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وكل أمة تضيف إلى الآمة التي سبقتها، فكانت خطوطنا الجميلة الرائعة المتميزة عبر أنواعها التي وصلتنا، وكانت دمشق في البدء وفي النهاية. كانت منذ تشكل الحرف في معبد حدد الآرامي وانتقل إلى جزيرة العرب، ثم عاد أيام بني أمية ليتطور ويتشذب ويتهذب وتكتب به قبة الصخرة الأميال الحجرية، ثم يغادر إلى بغداد ويعود مع السلاجقة ليغتسل في نوافير دمشق، وتخط به العمائر وتسطر به المخطوطات، ثم يغادر إلى مصر ويعود إلى اسطنبول، ثم إلى دمشق في مطلع هذا القرن وتخط به ألواح المسجد الأموي بعد حريقه الأخير، وتتكون مدرسة شامية من الخطاطين الذين خبروا الحرف ودروه درايةً عميقة، فأدخلوا على أشكاله بعض التعديل والتغيير والتهذيب، وكان للخط العربي نكهة شامية يختلف فيها عن قواعد الفرس والترك. وأرتقى على يد الأستاذ ممدوح الشريف، وبدوي الديراني، وحلمي حباب تلميذ ممدوح الذي أعط الكثير خلال أكثر من نصف قرن، خطوطاً رائعة حية تشهد على خبرته وعلو كعبه في هذا الفن الذي هو أصالة وتراث الماضي والحاضر والمستقبل.

وكان الفنانون الأتراك يقصدون الحج إلى بيت الله الحرام، ورايات محامل الحج مزينة بخطوط (الثلث) الرائعة، وكذلك كانت ألواح الجامع الأموي تخطط بالذهب من قبل الخطاط الكبير (رسا) وذلك إثر الحريق الكبير الذي تعرض له

المسجد، وقد خلبت تلك الخطوط لب الطفل (حلمي) فلما شب عن الطوق تتلمذ على يد الفنان الكبير (ممدوح الشريف)، وأخذ عنه فنون خطوط (الرقعة والثلث والنسخ والفارسي والديواني والكوفي)، وظل ملازماً له حتى وفاته في عام ١٩٣٤.

الخط يبقى زماناً بعد صاحبه

عادت بي الذكريات لسنين خلت، عندما كنت اجلس على مقاعد الدراسة تلميذاً صغيراً في مدرسة (الرشيد) الابتدائية في منطقة الصالحية بدمشق، فقد كانت مـادة الخط من ضمن البرنامج الأسبوعي الدراسي، وكان يهل علينا مدرس المادة بطلعته المحببة إلينا حاملاً أدوات الكتابة وأوراقه ثلاث مرات في الأسبوع.

وكانت أدوات كتابة الخط لدى التلاميذ لا تتعدى قلم القصب المبـري بعنايـة، وريش الكتابة المعدنية المرقمة بداية من الصفر، ودواة الحبر الـصيني المـصنوعة من البورسلان، والقابعة في حفرة مخصصة لها على مقدمة المقعد الخشبي الطويـل (الرحلاية).

وكنا نستعين بدفاتر خاصة بالخط العربي تزينها الحروف العربيـة بأشـكالها البديعة، حسب مواقعها من الكلمات والسطور، من أجـل الاسـتزادة مـن الثقافـة الخطية، ولم يتوان مدرس المادة من بذل قصارى جهـده فـي تـسطير الـسبورة بالمسطرة الكبيرة وبري قطعة الطباشير، من أجل التفنن في كتابة إحدى الحكـم أو بيت من الشعر العربي أو حديث شريف أو آية قصيرة من القرآن الكـريم، وكـان يتجول بين المقاعد مرشداً ومصححاً وابتسامة وادعة فوق شفتيه.

عندما أنهيت دراستي الإعدادية والتحقت بدار المعلمين، كان معلم مادة الخـط فيها أستاذ قدير شديد المهابة و نحيل الجسم، يلبس طربوشـاً فـوق راسـه، أنيـق الملابس، تزين وجهة لحية قصيرة، واسمه (حلمي حباب) وكان مرحاً في درسـه، وصديقاً للجميع، مما شد طلاب الدار إليه، وتلهفوا لتلقي دراسة فن الخـط العربـي على يديه، ومازال طلابه حتى اليوم، ورغم بعد المسافة الزمني بينهم وبـين تلـك الأيام في بداية الخمسينات من هذا القرن، يذكرون عنه بيت الشعر الذي كان يـردده على مسامعهم في بداية كل حصة درسية.

الخط يبقـى زمانـاً بعـد صـاحبه   وصاحب الخط تحت الأرض مـدفون

ولد الخطاط (حلمي حباب) بمدينة دمشق عام ١٩٠٩، وتعلم القــرآن والكتابــة والقراءة في (الكتاتيب) منذ نعومة أظفاره كبقية الأطفال في زمانـــه، وقــد شــغف بتوزيع الحروف العربية في السور والآيات في المصاحف، ومنذ ذلك الوقت تعلقت روحه بسحر حروف الخط العربي.

وكانت مدينة دمشق في تلك الأيام، في مطلع القرن العشرين، ملتقـــى الفنـــانين الكبار في الخط العربي أمثال: صاحب قلم أفشار، وزرين قلم، وغيرهم.

وكان الفنانون الأتراك يقصدون الحج إلى بيت الله الحرام، ورايـــات محامـــل الحج مزينة بخطوط (الثلث) الرائعة، وكذلك كانت ألواح الجـــامع الأمـــوي تخطـــط بالذهب من قبل الخطاط الكبير (رسا) وذلك إثر الحريق الكبير الـــذي تعـــرض لـــه المسجد، وقد خلبت تلك الخطوط لب الطفل (حلمي) فلما شب عن الطوق تتلمذ على يد الفنان الكبير (ممدوح الشريف)، وأخذ عنه فنون خطوط (الرقعة و الثلث والنـــسخ والفارسي والديواني والكوفي)، وظل ملازماً له حتى وفاته في عام ١٩٣٤.

ويذكر حلمي حباب:

بدأت في تعلم الخط منذ عام ١٩٢٦ على يد الخطاط (ممدوح الشريف) وكـــان عمري ١٧ سنة، أنا من مواليد ١٩٠٩ (ممدوح) رحمه الله تتلمذ على يـــد الخطـــاط (رسا)... نعم (رسا): راء، سين ألف، اسمه الحقيقي (يوسف آغا)، عندما أتم تعلـــم الخط على يد أستاذه (شوقي) قال له (شوقي): (رسوت في الخط، فسمي رسا).

وهو خطاط تركي أرسله السلطان (عبد الحميد) بعد حريق الجـــامع الأمـــوي لكتابة الآيات.. كان له مزاج خاص ولم يكن يحتمل أن يتدخل أحد بعمله عندما كتب الآية الكريمة التي تقول: (كلما دخل زكريا المحراب) جعل الباء عمودية ولما ســـأله (محمد فوزي باشا) رئيس البلدية عن سبب كتابة الحرف بهذا الشكل توقـــف عـــن إكمال عمله واعتكف في بيته، ولم يعد للعمل حتى تدخل المفتي (محمـــود حمـــزه)، وكان رحمه الله شيخاً جليلاً ووطنياً وقف ضد الفتنة الطائفية، وسمي لـــذلك حـــامي

النصارى، وقد اصطحب المفتي معه رئيس البلدية إلى بيت (رسا) ليعتذر له...

لم يبق كثير من أعمال (رسا) .. هناك الآن الكتابة والطرة على العمود الموجود أمام السرايا (وزارة الداخلية الحالية) ... وهناك بعض الكتابات على شواهد القبور و كان يكتب الشاهدة مقابل ليرة عثمانية ... فإذا دفعوا له بدلاً عنها ليرة فرنسية كان يمحو ما كتب، هكذا طبع الفنانين لهم دائماً مزاجهم الخاص.

ويتابع حلمي حباب:

الخطاط (ممدوح) تعلم أيضاً على يد (مصطفى السباعي) رحمه الله وكان يكتب بالخط الفارسي فقط ... كان منزله في مئذنة الشحم وقد نزل فيه إمبراطور ألمانيا حين زار دمشق ... وعندما سافر اخذ معه كثيراً من (الآثارات) الموجودة فيه ليعرضها في متاحف ألمانيا....

عملت مع الخطاط (ممدوح) وأنا أتعلم عنده وساعدته في كتابة لوحة الجامعة السورية ... مازالت هناك أعمال كثيرة باقية له منها ما هو في جامع الطاووسية، ودائرة الأوقاف ... وكثير من الأبنية التي بنيت أيامه كما كتب شواهد القبور، وهناك عدد منها ما يزال موجوداً وهي آية في الجمال ... منها شاهدة قبر في باب الصغير يا ليت لو أن دائرة الآثار تحتفظ بها.

- منذ عام ١٩٢٧ وأنا أعمل وحدي وأقوم بالتدريس، درست في المدارس الأهلية في الكاملية، وفي مدرسة أحمد منيف العائدي، وفي العازارية ودرّست في المعارف بعد وفاة (ممدوح) رحمه الله عام ١٩٣٤، ودرست في التجارة ودور المعلمين والمعلمات.
- كان عندي محل للخط وصناعة اللوحات بجانب دار الحديث، وكان العلامة الشيخ (بدر الدين الحسني) رحمه الله يقول لطلاب دار الحديث: (بابا حسّنوا خطكم عند جارنا).
- أثناء معرض عام ١٩٣٦ كنت اجلس على الأرض وأكتب اللوحات وكانت الفرنسيات يتعجبن لذلك، وفي ذلك المعرض حصلت على الجائزة الأولى، وعلى

الميدالية الذهبية، وقبلها كنت قد شاركت عام ١٩٢٩ في معرض أقيم بالجامعة.
كان وشاح أميه أول وسام أقوم بكتابة براءته، وكان أول وسام سوري يمنح، وكتبت بعده براءة عشرات الأوسمة من مختلف الأنواع والدرجات، وكتبت شهادات جامعة دمشق جميعا، وكتبت لوحات الجامعة ووزارة العدل ... كتبت أشياء كثيرة جداً في حياتي لا أذكرها جميعاً الآن ... هناك أيضاً الآية القرآنية الكريمة في مقبرة الشهداء بنجها ... ارتفاع الحرف فيها متر كامل وطولها (١٢) متراً ونصف.

- سألني أحدهم باستنكار: لماذا هناك أحرف زائدة باللغة العربية، وكان يقصد الألف التي تلي واو الجماعة....

قلت له: انظر كم في اللغة الانكليزية من أحرف زائدة ... ليزيلوها قبل أن يسألونا عن الأحرف الزائدة في لغتنا.

- قمت بكتابة دفاتر خاصة لتعليم الخط ... كان اسمها (الفن العربي)، وفي أول معرض دولي أقيم بدمشق عام ١٩٥٤ كتبت كثيراً من لوحات الأجنحة....
- (بدوي) رحمه الله كان معلماً ... لم نتعلم سوية كان أكبر مني بالعمر، كان يتقن عمله، الخط يحتاج إلى صبر وطولة بال....
- مرة تعطل أحد المعامل، وحاولوا تشغيله كثيراً فلم يستطيعوا، أحضروا خبيراً، (دق) على الآلة ثلاث دقات، سألوا عن أجرته طلب ثلاثة فرنكات وخمسة آلاف ليرة، قال: الثلاثة فرنكات أجرة الدقات الثلاث، والخمسة آلاف ليرة أجرة خبرتي....
- درّست في كلية الفنون منذ أن تأسست عام ١٩٦١، وكان اسمها المعهد العالي للفنون ... وعملت مع عمدائها جميعاً، وبعد إحالتي إلى التقاعد عام ١٩٦٩ استمريت في التدريس وكتابة شهادات الجامعة،كذلك درست في المعهد المتوسط للفنون التطبيقية ... يجب أن يعرف الجيل الجديد الخط الذي كتب به أجداده ... وأن يرى مدى روعته...

- أي الخطوط أحب إلي؟ أجبني أنت أي من عينيك أغلى عندك، أحب جميع الخطوط وأتقنها بنفس القدر ... بنفس القدر ولا أقول أتقنها بشكل عظيم لكل خط صفاته ومميزاته، ولكل خط استخداماته:

الرقعة.. للكتابة العادية وهو مثل الاختزال عند الإفرنج، الديواني .. لكتب الاعتماد وبراءات الأوسمة، الفارسي .. للعناوين العامة وكتب الآثار وشواهد القبور، الكوفي .. للأبنية الهامة مثل الجامعة السورية، الثلث .. للأشياء المهمة مثل العمارات، والمساجد وعناوين الكتب، النسخ .. كان لكتابة الكتب قبل ظهور المطبعة، وهو الذي يكتب به القرآن الكريم لأن قراءته سهلة، وحروفه مفتوحة.

- قديماً كان القرآن الكريم يكتب بالكوفي حين كانت تعرف قراءاته .. وكان شبيهاً بالنسخ.

- ماذا تريد أن أتذكر أيضاً .. هل أضعتك بهذه القصص .. (ليس) مرة جاءت فتاة يابانية إلى دمشق لتتعلم الخط العربي، سألتني: كم أطلب أجراً لذلك .. قلت: نتحدث في هذا فيما بعد .. لم أكن أنوي أن آخذ أجراً منها .. يكفي أنها تهتم بخطنا .. تصور لقد أحضرت معها من اليابان (قصبات مبرية) للخط. في الوقت الذي نكاد نكف عن استخدام القصبات هنا، ومع أن لغتها تضم مئات الأحرف فقد اهتمت بتعلم الخط العربي لأنها تدرك جماله.

- ماذا أقول أيضاً، أنا شديد الاعتزاز بالوسام الذي منحته لي الدولة.. فهو تكريم لكل أبناء الوطن المبدعين، وهو تكريم للخط العربي الذي لا ينافسه في الجمال والأناقة والتنوع خط آخر في العالم.

فالخط العربي ليس للكتابة فقط، فهو للتزيين والتجميل .. هل تعرف كيف تكتب التواريخ باستعمال الكلمات .. إن لكل حرف في اللغة العربية رقماً يقابله .. وفي بعض الكتابات الخاصة بالتاريخ فإن جمع أحرف الجملة، أو بيت الشعر تعطي التاريخ المطلوب.

على سبيل المثال: هناك شطر من بيت شعر على أحد الأضرحة يقول:

(أبو الخير في دار النعيم يقيم) ... إذا جمعت أرقام أحرف هذا الشطر فإنها تعطي رقم ١٣٤٥.... وهو العام الذي توفي فيه صاحب الضريح.

- قبيل رحيله، منح حلمي حباب لقب (شيخ الخطاطين)، تيمناً بتلك الألقاب التي كانت دمشق تمنحها قديماً لكبار الحرفيين فيها، مثل شيخ الصاغة .... شيخ الحدادين ... الخ....




١٣٥٤

بدوي الديراني :

الخط العربي إيقاع زخرفي متنوع تبارى فيه المبدعون

الخطاط الفنان أضفى على الخط الإحساس الصادق بطبيعة الأشياء وليست رموزاً منفصلة عن مفاهيمها، تميز الخط العربي بالزخارف المتنوعة حيث اتسم بالإيقاعية الجمالية فتبارى فيه الخاطاطون المبدعون تجويداً وتحسيناً، وهذا يأتي من أن الخط العربي نال من الاهتمام ما لم ينله خط آخر إذا اهتم المسلمون بالخط العربي وأعطوه عناية حيث اتخذوه وسيلة للمعرفة، ثم ألبسوه لباساً قدسياً من الدين، لارتباطه الوثيق بكتابة القرآن الكريم الذي انتشر بانتشار الدين الإسلامي، وعندما انتشرت الفتوحات الإسلامية، وازدهرت الحضارة الإسلامية، أصبح الخط غاية في الجمال، وتبارى الخطاطون في تجوده وتحسينه، حتى إذا بلغ من الروعة والجمال مبلغاً جعل غير الناطقين بالعربية يقيمون له المعارض والمتاحف إحساساً منهم بجماله وروعته، وشعوراً برونقه وبهائه، حتى وإن لم يفقهوا ما في هذه الخطوط واللوحات من معان سامية.

واستطاع الخطاط العربي أن يبلغ غايته عندما أدرك ما في الحروف العربية من خصائص فنية جمالية من حيث الاستقامة، والرشاقة، والتناسق، والامتداد، والتدوير والتناسب، فساعده ذلك على إعطائها أشكالاً مختلفة، فخلع عليها جمال الحياة بعد أن كانت حروفاً يابسة كما لو كانت قطعاً من الحجارة.

تنوعت أعمال الخطاطين بين الاستغلال الإبداعي لتقوسات، واستدارات الحروف العربية في إبداع أشكال جمالية، وبين التحوير في أشكال الحروف، للوصول إلى شكل جمالي جديد مع الحفاظ والالتزام بقواعد وأصول حروف الخط العربي، إن جمال الخط العربي، إن جمال الخط العربي، الذي يظهر في كتابة اللوحات بأنواع الخطوط المختلفة، وإظهار ما فيها من نواح جمالية قائم على أسس

مدروسة، وعدة اعتبارات منها:

الخط العربي يعتبر فناً تعبيرياً حيث يفرغ الخطاط فيه عبقريته وشخصيته وخياله، فيعطي به تكويناً رائعاً يجد فيه القارئ من المعنى الممتزج بالشكل الدال عليه، هذا بالإضافة إلى أن العرب قد أعطوا كل حروف مدلولاً جميلاً خاصاً به، فحرف الميم مثلاً تعبير عن الضيق، والسين هي الأسنان الجميلة، والراء صورة الهلال، والعين وحاجبها كعين الإنسان، فهذا يوضح أن الحروف العربية نشأت من إحساس صادق بطبيعة الأشياء، وليست رموزاً شكلية منفصلة عن مفاهيمها.

الخط العربي صورة تتضمن صوتاً ومعنى وشكلاً مرئياً، فيستطيع الخطاط تحويل الكتلة الخطية إلى شكل زخرفي هندسي (دائري – ومربع – ومستطيل وشكل طائر وغيرها)، وكذلك يستطيع استخدام الحروف سواء منفصلة أو متصلة كأساس أو موضوع للوحة فنية لها شكل زخرفي.

ارتباطه بالدين الإسلامي، حيث اعتبر الخطاط كتابته للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة بخط جميل في إطار تشكيلي مؤثر نوعاً من العبادة، من العبادة، والتقرب إلى الله تعالى وأحياناً يحتاج الخطاط إلى معرفة تفسير الآية، ومعناها أولاً، لإظهار ذلك في الكتابة.

مميزات الخط العربي:

تميز الخط العربي بمجموعة من الميزات منها:

- الطواعية الشديدة التي تمكن الخطاط من عمل تراكيب وأشكال مختلفة حتى للكلمة الواحدة أو للجملة الواحدة.
- الارتفاعات، والاستدارات وقدرتها على الإطالة والتمطيط.
- تحمل في ثناياها الصفات الزخرفية، والشكلية، حيث أن تواري "الألفات"، أو توزيعها بأوضاع معينة، وكذا باقي أنواع الحروف يعطي نوعاً من الشكل الزخرفي.

- بناؤها على أصل هندسي ثابت، وقاعدة رياضية معروفة.
- الحرف العربي له صفة اختزالية، حيث إن الحرف الواحد لـــه شـــكل منفـــرد وشكل متصل، (في البدء وفي الوسط وفي لاطرف) هذا بالإضافة إلى إمكانيـــة تراكب الحروف فوق بعضها مما يساعد على استخدام مسافات قصيرة لكلمـــات وحروف كثيرة، وهذه الصفة لا توجد في الحروف اللاتينية التي لها شكل واحد تتراص بجوار بعضها مما يأخذ مسافة كبيرة.
- قدرة هذه الحروف على إعطاء تنوع في الإيقاع والتنوع الحسي.

ففي الإيقاع، فيحدث من تبادل الرقة والغلظة كما في حـــروف خـــط النـــسخ، وتبادل الانحناءات والامتدادات كما في حروف الخط الفارسي، وتبادل الانحنـــاءات والامتدادات كما في حروف الخط الفارسي، وتبادل التماثل والتراقص كما في الخط الديواني، وتبادل إشعاع القوة كما هو في حروف خط الثلث.

وفي الإحساس: فالخط المنحني يمثل الرشاقة كما في حروف النـــسخ والثلـــث والفارسي والمحقق.

أما الخط الهندسي الكوفي بأنواعه فيثير الجمال الرياضي الهندسي، وكل هـــذه الصفات الكامنة في حروف الخط العربي تتيح للخطاط التمكن التعبير عن الحركـــة، والكتلة، فيعطي حركة ذاتية تجعل الخط يتراقص في كتلـــة محققـــاً إيقاعـــاً جمـــيلاً وإحساساً راقياً.

- كتب دواوين: أحمد شوقي، وبدوي الجبل، وأبي ريشة، وتتلمذ عليه نزار قباني وشاكر مصطفى وقصاب حسن ...

يعتبر فن الخط العربي في الواقع، فن الدقة بغير منازع.. إنه فن التفاصيل، فهو يربي العين على احترام الأجسام الدقيقة، وهو الفن الوحيد الذي يتكلم عن صاحبه من دون وساطة، بخلاف الفنون الأخرى التي قد تفسر حسب أهواء المؤول، وقدرة المتلقي على الاستيعاب.

إن الخط العربي هو فن التجريد وهو يمتاز بالتكرار والإيقاع الموسيقي وبالتناغم، وكل العناصر التي تكوّن المجال التشكيلي، وبفضل هذه القواعد المبنية على أسس متينة، يتفادى الفنان الفوضى، ويمتلك قدرة أكبر على الإبداع والتجديد، عكس ما يتوهم البعض، فالمبدع هو الذي يبتكر من خلال الأساليب الدقيقة، ويمنح اللوحة منحى فنيا معاصرا .. الخطاط يمكنه أن يضيف الجديد من غير طمس أو التضحية بالموروث الأصيل.

الخط العربي تناسب وتناغم وتعبير قوي:

والخط العربي بعد هذا جزء من الثقافة العربية، وفي وسع القلم أن يعبر عن الذوق الجمالي، مثله مثل اللسان، فالقلم بهذا المعنى لسان اليد، وعد بعض الفقهاء لوحات الخط الفنية التي تجسد آيات القرآن الكريم بصورة إبداعية راقية، خطوة من خطوات التفسير أو بابا من أبوابه، وبخاصة إذا لاحظنا التأمل الذي يدعو إليه الحرف العربي حيث شكله الهندسي وقوته التعبيرية .. فإذا بلغ هذا الشكل منتهاه في التناسب والتناغم مع المعنى من حيث اختيار نوع الخط المناسب، وبراعة الأداء أو التعبيرات الإضافية، أو الخاصة بالخطاط صاحب الموهبة والقلم، أدركنا مدى

قدرة بعض لوحات الخط الفنية على التفسير أو الإيحاء بالمعنى، فوق ما توحي به من معاني الجمال والجلال.

تناسق عجيب وهندسة روحانية:

يعتبر الخطاط "بدوي" رائداً من رواد فن الخط العربي، الذي ارتقوا به إلى الإبداع، فهو رأس المدرسة الشامية في خط "التعليق" ... لم يقتنع بمنهاهج من سبقه في هذا الميدان وأساليبهم، فطور وبدل، وكانت له جولات على مدى ستين عاماً، خدم فيها الحرف العربي بحسه المرهف، وذوقه الرفيع، ولد "بدوي" في حي الميدان بدمشق عام ١٨٩٤، بعد أن انتقلت أسرته من قرية "داريا" في ضواحي العاصمة، وفي العاشرة من عمره تعلم فن الخط على رئيس محكمة الجنايات وخطاط التعليق الشهير: مصطفى السباعي، وتتلمذ بعد سنوات على الخطاط الشهير "رسا" الذي أوفده السلطان عبد الحميد الثاني لتزيين الجامع الأموي بلوحاته الفنية الأخاذة، وانتقى "بدوي" من أساليب الأساتذة لطائف الحروف فأكسبها بردة دمشقية، فتميزت أعماله بالبساطة والوضوح والتناسب بين الحروف بعيداً عن الغلو والتنافر.

إن المتأمل في لوحات "بدوي" التعليقية، يلاحظ أن التناسق العجيب والهندسة الروحانية قد خيمت على حروفه فاكتسبها بهاء وجلالاً ونضارة، فهو يعطي كل حرف حقه في الإجادة في الوضوح، ولا يغفل أو يهمل حرفاً على حساب آخر، وينظر إلى توزيع الكلمات على السطر بتوازن واتزان، ولما أصدرت الحكومة التركية قرارها بإلغاء الحرف العربي واستبداله بالحرف اللاتيني سنة ١٩٢٨، جال الخطاطون الأتراك في أرجاء الوطن العربي يبحثون عن عمل، وجاء أكابرهم إلى دمشق فاستقبلهم بدوي وأستاذه "ممدوح الشريف" لكنهم سرعان ما غادروا قائلين: "إن بلداً فيها" "ممدوح وبدوي" لن يكون لنا فيها عيش" ولما توفي أستاذه "ممدوح" عام ١٩٣٤، صار "بدوي" الخطاط المتفرد في الشام.

تجديد وتطوير وسبق إلى آفاق علوية:

يتجلى سحر الفن المبدع الذي تميز به "بدوي" في ذلك التطوير الذي أضافه على حروف الواو، الراء، الحاء، والهاء، والتي اكسبها وضوحا وقاربها من أخواتها، كما أطال في وزن حرف الراء المسبل، وجعل الكؤوس في النون والقاف والسين والشين متناغمة النسبة، وابتدع قاعدة جديدة لحرف الميم الموصول من الراء المسبل كما في لوحته "وأمرهم شورى بينهم" وهو ما لم يرد مطلقا عند أساتذة خط التعليق، كذلك حدد حرف الهاء وهندسه كما في "والذين اهتدو زادهم هدى وأتاهم تقواهم"، ومجمل القول أن ما صنعه "بدوي" في لوحة التعليق وصل الذروة في الإبداع، أما في الخط الثلث فقد ظل "بدوي" يكتب على طريقة "ممدوح" أكثر من عشرين سنة وهي طريقة عجيبة، يتكيف فيها كما يشاء، ويتصرف في الحروف ويكثر من العلامات والتشكيل وملء الفراغ حتى يغطي الشكل، كأنه يخط الثلث كالديواني الجلي. في الأربعينات من القرن الماضي تلقف "بدوي" مصادر جديدة من الشيخ "عزيز الرفاعي" فتخلص من أسلوب "ممدوح" وأعطى المثلث هيبته، ووصل فيه إلى الإجادة والإتقان.

زار "بدوي" القاهرة والتقى فيها بابن مدينته الخطاط "محمد حسني البابا" والخطاط الشهير "سيد ابراهيم" و "محمد ابراهيم الاسكندراني" وكانت له معهم محاورات ومداولات في الخط، وانتقل بعد ذلك إلى "استنبول" فعقد صداقة مع الخطاط الذائع الشهرة: "حامد الأمدي"، واطلع على كنوز الخط كبريات المساجد والقصور. وعاد من رحلاته أكثر جدية وإطلاعا وأغرز معرفة. وتتفاوت خطوط الثلث عند "بدوي" فمرة هو مبدع متفوق ومرة هو متواضع يعطي الحرف حقه من الإجادة والحد ويرتقي في الثلث الجلي ويحلق، وخير شاهد آثاره الجملية في جوامع الروضة والمنصور والثريا والدقاق والفردوس والعثمان بدمشق وفي عدد من دوائر الحكومة: "مجلس الشعب، ومبنى مياه عين الفيجة، ووزارة العدل".

فرسان الشعر والأدب تلامذة "بدوي":

لم يعرِ "بدوي خط النسخ الأهمية التي أولاها للتعليق والثلث، واعتبره خطاً رديفاً ومكملاً، ولم يعطِ الخطوط الأخرى أذناً وعيناً ويداً.. ومع هذا فقد تجلى بأسلوبه الرائع الدال على عبقرية وتفرد، وعرف أسرار الخط الكوفي وخفاياه وأنواعه، وسطر جل أشكاله على الأوابد والآثار لتبقى شاهداً على تفوق ونبوغ قل نظيرهما.

وحين أدرك، رجال الفكر والتعليم في سوريا ما للخط من أهمية في حياة الناس أدخلوه في مناهج التعليم، وتأسست الكلية العلمية الوطنية التي درس فيها "ممدوح" و"بدوي" مادة الخط، فتعلم عليهما نخبة من النابهين الذين غدوا فيما بعد فرسان الأدب والفن والشعر والسياسة والقانون، فكان منهم "نزار قباني" الذي عشق الحرف العربي، وطرزه فيما بعد شعراً ونمقه خطاً، ولم يكتف الشاعر الخالد بدروس الخط في مدرسته، بل عمل في العطلة الصيفية في مكتب الخطاط بدوي ليخط لوحات للمحلات التجارية بدمشق...

وكان من بينهم القانوني الشهير تجاه "قصاب حسن" الذي بذل جهده لتأسيس رابطة الخطاطين السوريين، وفي أجمل رسائل "نزار قباني" إلى "نجاة" يقول الشاعر لصديقه: "لم يبق من دمشق سوى أنت وأنا، وبياض الياسمين نحن حاملو هذه المدينة على أهدابنا وفي ذاكرتنا ودورتنا الدموية منذ نصف قرن.. سلام عليك أيها المكتوب بالخط الكوفي على أبواب دمشق"، وكانت الرسالة مكتوبة بخط رقعي جميل.

كذلك كان في جملة تلاميذ "بدوي" الكاتب والمؤرخ الأديب الراحل: شاكر مصطفى، الذي كان يكتب بقلم القصب في أواخر أيامه.. وسارع العديد من شعراء الشام وأدبائها إلى "بدوي" ليخط لهم بقلمه الساحر قصائدهم وعناوين مؤلفاتهم، فخط لخير الدين الزركلي وللأخطل الصغير "بشاره الخوري" وعمر أبو ريشة، وبدوي الجبل وإبراهيم طوقان، ولأمير الشعراء، أحمد شوقي، وأمين نخلة، وعلي محمود

طه، ومحمد البزم وغيرهم من بلابل الشعر في الوطن العربي.

رحلة ستين عاماً في محراب الخط العربي:

تتلمذت على "بدوي الديراني" كذلك نخبة متفوقة من خطاطي دمشق لأزمته في دكانه بزقاق البوص "السليمانية" قريباً من الجامع الأموي، وكان من بينهم الخطاط "زهير المنيني" و "محمد الزرزور" و "عبده الصلاحي" و "عبد الرزاق القصيباتي" و "محمد الهواري" وغيرهم كثيرون، أمضى "بدوي الديراني" ستين عاماً من عمره في الكتابة والخط ولم ينقطع عنهما يوماً، وكان يحمل أوراقه وأحباره ليواصل رحلته في عالم الإبداع والجمال، وكان قد عقد النية على كتابة القرآن الكريم، ولكنه لم ينجز غير ثلاثين صفحة من سورة البقرة، وحين وافته المنية في الخامس والعشرين من تموز عام ١٩٦٧ ترك وراءه ثروة لا تقدر بثمن من إنتاجه الغزير الموزع في أغلب العواصم العربية الإسلامية وأوروبا، ويحتفظ أبناؤه اليوم بمجموعة كبيرة من هذا الإنتاج الخالد، الذي ينتظر مكرمة من الدولة التي تتمثل بإقامة متحف خاص لأعماله الرائعة، ترى فيها الأجيال القادمة وجه ذلك الفنان المبدع الذي ما تزال بصماته الساحرة تزين المساجد والمكتبات والمدارس في كل مكان.

شهادة في بدوي الديراني:

منذ أربعين سنة يوم كنت شاباً يافعاً كنت أعمل في تزويق البيوت، **وكانت** خبرتي في أنواع الطلاء والدهان، عميقة الجذور، ومعرفتي بأنواع **الأصبغة لا حد** لها ... وكانت أمنيتي التعرف إلى خطاط بلاد الشام، فحبي للخط العربي **ينمو في** القلب، وتتأصل جذوره حتى غدا حباً لا شفاء منه، وساقتني الأقدار إليه **في** الستينات من القرن الماضي لأقوم بطلاء لوحة له، وكم كانت فرحتي شديدة وعظيمة لوقوفي أمام هذا العلم الكبير، ولأكون فيما بعد التلميذ الذي تلقى عليه علوم الخط وأنماطه وقواعده، ورافقته حتى آخر سني حياته رحمه الله فقد كان لي الأب والأخ والصديق، واستفدت من نصائحه الكثيرة التي كان يوجهها لي في جميع الميادين، في الحياة الاجتماعية والفنية.

كان الأستاذ يوصي بالاستقامة والصدق والتوكل على الله، جاداً في حياته .. منظماً في أوقاته، وكان يحب العلم، أرسل ولديه للدراسة والتخصص، وأصبح كل واحد منهما طبيباً.

مرحلة التلمذة:

كانت هوايتي في الخط العربي قد سبقت معرفتي بالأستاذ بدوي وكانت صلتي بالخطاطين وثيقة بحكم عملي، وكنت أكتب الرقعة وشيئاً من التعليق والديواني، ولم تكن المصادر متوفرة، فكانت المعرفة والتدريب هما جل اهتمامي .. فلم أترك سانحة إلا واستفدت منها من خبرة الأستاذ وعلمه، فكتبت الحروف عليه، ومشقت العبارات، وبخاصة في خط التعليق، وكان يوجهني في كل خطوة، أخطوها ويصحح لي مساري، ويرشدني إلى أخطائي، ولم يمض قليل من وقت حتى ضبطت الحروف وأتقنت السطور، وكان راضياً عن خطي وأسلوبي .. كتب لي الحروف وأوزانها، وكتبت عليه كما كتب، وسطر الكلمات فاتبعته في منهجه، واقتفيت آثاره إلى أن اتخذت المسار الصحيح في خط القلم..

أسلوبه في خط التعليق:

خط التعليق هو الخط الفارسي لذا فإن من ابتدعه هم الفرس، وكان الفرس السباقين في هذا الميدان وأطلقوا عليه النستعليق، وكانوا قد طوروا خط التعليق الكثير الالتفاف، وهو أشبه بالديواني حتى وصل على يد المير علي التبريزي إلى الاستقرار، وغدا من الخطوط الجميلة، وجاء بعده من حسّن وجمل، مثل مير علي الهروي، وما لبث أن انتقل هذا النوع إلى بلاد الترك، وحاول الخطاطون الأتراك أن يطوروا فيه، فجاءت محاولاتهم أقرب إلى القوة منها إلى الليونة ... وأما الأستاذ بدوي فقد استقى هذا الخط من النبع، وأخذ جل قواعده عن عماد الحسني، وما لبث أن نظر إليه نظرة جمالية عبر ستين سنة، بدأ فيها كما الفرس يكتبون، ولم يلتفت إلى محاولات الأتراك في ذلك، ثم نظر إلى الحروف الصغيرة والغامضة، فأعطاها حقها من الظهور، ولعب العمل التجاري فعله في ذلك أثناء التصغير والتكبير، وكان النجاح في ظهور مدرسة شامية وأسلوب دمشقي على يد هذا الفنان القدير، والمتأمل في خطوط بدوي يلاحظ قربها من المدرسة الفارسية الأصلية، وإن كانت تبعد عنها في بعض الحروف، أما خطاطو مصر والبلاد العربية فقد تلقوا تعليمهم في مدرسة التعليق عن أساتذتهم الأتراك، فكانوا أقرب إلى التعليق التركي منهم إلى الفارسي.

موقع الأستاذ بدوي بين حامد وهاشم:

تعرفت إلى الخطاط الشهير هاشم البغدادي عند الأستاذ بدوي، وكان هاشم يجل الأستاذ بدوي ويحترمه ويلقبه بالأستاذ ويقول: (كم وكم أفادني ... إنه أستاذ كبير وعظيم، وكانت العلاقة بينهما علاقة احترام متبادل وود، وهي عميقة الجذور تعود إلى زمن بعيد، كان يتفقد كل منهما أحوال الآخر، ويسأل عن صحته وسلامته وعمله، وكان هاشم وفياً يقدّم للأستاذ على الدوام أصول خطوط لعماد الحسني ولغيره، ويقدّم له لوحة في كل فترة .. وأما الأستاذ حامد الخطاط التركي العظيم فكان يجل بدوي ويعتبره خطاطاً له مكانته بين الأساتذة، ونمت العلاقة بينهما منذ

الخمسينات من القرن الماضي، وكان الأستاذ بدوي معجباً بحامد وبأسلوبه وطرائقه في الثلث، وكنت رسولاً بين الخطاطين الثلاثة من دمشق إلى العراق إلى استانبول، أحمل الهدايا والرسائل والتحيات، ولا تخلو جعبتي من أعمار هؤلاء العظام، وأحمد الله أن جعلني ألتقي بهم وأنظر إلى خطوطهم وهي تسترسل على الورق، لتصبح مع الزمن لوحات لها تاريخ، سجلها وخطها أستاذ لأستاذ، وأنا ذلك المرسال، وباختصار كان الأستاذ بدوي كبيراً في رأي الكبار.

سافر بدوي إلى تركيا - استانبول - في أيلول من عام ١٩٥٤م، وبقي فيها شهراً أطلع على فرائد الخط هناك، ونزل ضيفاً على الخطاط الشهير الأستاذ حامد الآمدي، وفي عام ١٩٦١م، زار الإسكندرية وأطلع على خطوط مساجدها، وقابل مشاهير الخطاطين فيها، وحل ضيفاً على الخطاط الكبير محمد إبراهيم مدير مدرسة تحسين الخطوط في الإسكندرية، ومنها سافر إلى القاهرة والتقى الخطاط العبقري حسني البابا، وفي عام ١٩٦٥م، زار استانبول مرة أخرى، وهو في طريقه إلى النمسا لزيارة ابنه الذي كان يدرس الطب فيها، والتقى الأستاذ حامد، وكانت بينهما مساجلات في الخطوط....

التنوع والإتقان:

كانت لوحاته في الغالب بنوعين من الخطوط: التعليق، والثلث، وقد يكتب سطراً من النسخ أو كلمة في أسفل لوحة الثلث، وله بعض اللوحات القليلة بالكوفي والديواني، ولم يكتب لوحة بالديواني الجلي.

وكتب أنواع الخطوط لما وظفت وابتدعت له، مثل بطاقات الأفراح والشهادات للمعارف والجامعة بالديواني، وخطه في هذا النوع يختلف عن القاعدة الغزلانية التي انتشرت بمصر، ويختلف أيضاً عن قاعدة الأتراك، فلا يستعمل الحروف المدمجة ولا يكتب حرف الدال والهاء الأخير كما تكون القاعدة، وكان له أسلوبه الخاص، يحب الوضوح في القراءة في جميع الخطوط ولذلك جاء أسلوبه في

الديواني والرقعة مغايراً لما انتشر في البلاد العربية، وكان لخط بدوي على الرخام سحر خاص، والإتقان هو سر السحر والجمال والقوه يقول النبي (ص): (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)، والأستاذ بدوي كان يتعهد عمله من بدايته حتى نهايته، ويتقنه أشد الإتقان ومع هذا الإتقان فإن إنتاجه كان غزيراً لا يمكن إحصاؤه لكثرته وغزارته، ويتوزع أغلبه في مدينة دمشق، والعديد من الأقطار العربية والأجنبية.

وعندما أدى فريضة الحج سنة ١٩٣٩م، أهدى للحرم النبوي لوحة مذهبة وهي (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً)، وقدم للملك عبد العزيز سعود لوحة مذهبة بالثلث (وينصرك الله نصراً عزيزاً).

وعقد النية على كتابة القرآن الكريم، ولم ينجز منه إلا ثلاثين صفحة من سورة البقرة، ويحتفظ أبناؤه وأسرته بمجموعة كبيرة، ومما يؤسف له أن الرطوبة تسربت إلى معظم اللوحات المجموعة عند أبنائه، وهي بحاجة لترميم وعناية، وأتمنى أن تقيم له الدولة متحفاً يخصص لأعماله الهامة خاصة وقد تم تكريمه بمنحه وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى عام ١٩٦٨.

أما الخطوط الكوفية فقد استخدمها ووظفها في تجميل المباني الأثرية، وقد تعلم من الخطاط الشهير ممدوح أساليب وطرقاً شتى في كتابة الكوفي الذي ليس له مثيل في عالمنا العربي والإسلامي.

تواصل العطاء:

عاش الأستاذ (٧٣) سنة منها ستين في الكتابة والخط، لم ينقطع فيها أبداً، لا في سفر ولا حج ولاتجوال، كان يحمل معه أحباره وأوراقه، ويستثمر الوقت ويقول: الوقت هو الحياة ... ويردد: (ابن آدم إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك)، وفي آخر حياته، كان يتردد خلال مرضه على مكتبه حتى فارق فيها قلمه وانتهت رحلته يوم الثلاثاء ٢٥/تموز/١٩٦٧م.

((محمود الهواري))

قال النبي صلى الله عليه وسلم العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان صدق رسول الله

بالعلم ترقى الأمم وبالأخلاق تسود

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

أمّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل

هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون

إنما يتذكر أولوا الألباب

محمد قنوع :

الخط العربي باق بقاء لغتنا العربية

ليس أدل على الانسجام التام بين شخص الخطاط الفنان محمد قنوع، وبين ما يبدعه من لوحات إلا ذلك الهدوء المتقن الذي يجلل حديثه كما يجلل لوحاته وخطوطه المبتكرة.

الهدوء الابتكار والتجديد، الارتكاز المتقن على الموروث القديم لجهة فن الخط العربي، والتواصل مع كل التجارب المعاصرة ذات القيمة، كل ذلك نابع من جهد متواصل لا من مصادفة عابرة، والأداء الفني المميز، المجبول بالإحساس المرهف، والتعاطف الواضح مع تقديم ما هو قيم، جميعها جبلت بروح مغامرة فنية يسعى إليها، وميزت أعماله.

هو الخطاط الفنان محمد قنوع زرته في مرسمه الدمشقي واستمعت إليه وهو يتحدث عن الخط العربي وقد جاء بأفكار وذكريات متدفقة، انبعثت كأنها كانت محبوسة خلف جدار ، وأتيح لها الانفلات.

- **من كان أستاذك في الخط، وهل لك منهج محدد في مجال الخط؟**

أستاذي الذي عشقت فنه هو بدوي الديراني خطاط بلاد الشام، ومدرستي هي مدرسته، ومنهجي هو منهجه، غير أني مارست كتابة خطوط فنية مستحدثة ابتدعتها من أجل عملي في الصحافة وأغلفة الكتب واللوحات والتلفزيون، لتساير العصر، وعدت بعد رحلة طويلة إلى الأصول أستقي منها ما يجعل خطي ضمن القواعد الأساسية في كل الأنواع.

- **في سورية، لمن تسجل الريادة في الخط العربي؟**

لكل زمن رواده في الخط العربي، فالجيل الأول من الرواد هم رشاد، ممدوح، بدوي، حلمي، الشلبي، الحكيم، البغجاتي، الزيناتي، البيلاني، الشيخ محمد الزرزور، هادي، الرفاعي، المولوي، الصابوني، وبعدهم جاء الجيل الثاني الذين تعلموا على أيدي هؤلاء الكبار ومنهم:

منيني، نجاة، أمين دياب، الزرزور، عثمان طه، قصيباتي، أحمد المفتي، محمود الهواري، أحمد الباري، محمد القاضي، وليد محي الدين، سالم نويلاتي، محمد غنوم، شكري خارشو، ياسر عبار، عبد العزيز وتوفيق حبيب، عدنان سنقنقي، جمال بوستان، مصطفى النجار، وجميعهم من دمشق، وهناك عدنان الشيخ عثمان ومحمد الحداد، من حمص، والحوري والبازنجكي وامين خياطة والأستاذ الكبير بشير الادلبي وسلمو وعليان وبلال الرفاعي من حلب وعبيدة البنكي من دير الزور وحسام مطر من الرقة وغيرهم الكثير.

أتوقف لأذكر بالإكبار الخطاط الذي أرسله السلطان من الباب العالي لكتابة ألواح الجامع الأموي، بعد حريقه عام ١٨٩٣ وهو الخطاط الدمشقي الكبير ممدوح الزين، كذلك أذكر النابغة بدوي الديراني الذي رسخ منهج المدرسة الشامية ... هؤلاء هم الذين أوجدوا المدرسة الأولى، التي استقينا منها هذا الفن الرفيع.

- **أرجو أن تحدد لي بدقة شديدة المسافة الفاصلة بين القواعد الفنية والرؤية الذاتية لفنان الخط العربي؟**

لكل خطاط رؤية خاصة في كتابة الخط ولو كان ضمن القواعد، فلكل فنان روحه وخاصيته، وأستطيع أنا معرفة هذا الخطاط من ذاك دون معرفة اسمه وبمجرد أن أنظر إلى أعماله، فكلما كان الخطاط ذا شفافية وتواضع وأخلاق عالية، ظهر ذلك في خطه وتركيباته، وأكبر مثال على ذلك ما كتبه الخطاطون في (الملتقى الأول للخطاطين العرب) الذي انعقد في بيروت، فالكل خط عبارة موحدة هي بيت شعر أبي الطيب المتنبي: على قدر أهل العزم تأتي العزائم / وتأتي على قدر الكرام

المكارم. بالطريقة والنوع الذي يريد، فكان ذلك إثباتاً لعظمة التشكيل في هذا الخط، وكان معرضاً رائعاً لثلاثين لوحة، كل منها بروح مختلفة عن الأخرى، فالرؤية الذاتية هي في التركيب وحسن الأداء الفني.

- **حدثنا عن تجربتك في الصحافة السورية؟**

في بداية الخمسينات بدأت في سورية نهضة صحفية فنية تعتمد على شكل الصحيفة أو الكتاب أو الملصق، فكنت من أوائل من عمل في تلك المجالات، فابتكرت أنواعاً فنية في الخط العربي لاقت قبولاً واسعاً من قبل أصحاب الصحف والمجلات، وكثرت أعمالي، فتنقلت من جريدة الثورة إلى جريدة البعث، ودعيت للمشاركة في تأسيس القسم الفني للخط في صحيفة تشرين، كذلك ساهمت في كتابة خطوط منشورات اتحاد الكتاب العرب وكتبه منذ تأسيسه، حتى بدأ انحسار الخط في الصحف والمجلات والملصقات ركضاً نحو الكمبيوتر، وكان ذلك حوالي عام ١٩٩٥، إن تجربتي في الصحافة السورية والأعمال التي قدمتها يشهد لها جميع الذين عاصروا الخمسينات والستينات والسبعينات، كنت أكتب الخطوط التقليدية النسخ والرقعة والديواني مع الخطوط المبتكرة، وكنت في يوم من الأيام أكتب الخط لتسع مجلات رئيسية غير جريدتي البعث والثورة.

- **ما هي استعمالات الخط العربي في الحياة المعاصرة؟**

لم يتغير شيء في استعمال الخط العربي لا قديماً ولا حديثاً، فهو باق إلى الأبد مع بقاء لغتنا العربية التي هي عنوان حضارتنا، والحفاظ على الخط جزء من الحفاظ على التراث العربي، فالعرب يفتخرون بهذا الفن الذي يعبر عن هوية الأمة، ولا مجال للدعوات المغرضة في إبعاد الحرف العربي واستبداله بحروف أخرى، مثل هذه الدعوات تموت في مهدها لعظمة هذا الخط وهذه اللغة، الخط العربي مايزال يستعمل في الصحافة والمجالات الفنية والتجارية والمكتبات، وهناك

معارض تقام دائماً للخط العربي كالمعرض السنوي لوزارة الثقافة ، ومعارض كثيرة مشتركة لفنانين من سوريا وأقطار إسلامية أخرى.

- **ما هي ملامح المدارس المتعددة للخط العربي؟**

هناك مدارس في الخط تتوزع في العالم الإسلامي إذ كان للخط في بلاد ما وراء النهر منهج خاص كما كان للعثمانيين الأتراك لمنهج يختلف عن منهاج مدارس بُلاد ما وراء النهر، ولقد توسطت المدرسة الدمشقية الشامية بجمال حروفها ورشاقة العراقات في الخط، مما أكسبها خبرة وسحراً وروعة لم تصل إليها المدارس الأخرى، وبخاصة فن خط النستعليق وخط الثلث، وقد يظن بعض دارسي الخط أن في قولي بعض التجني أو المغالاة، ولكن من يتقصى المدارس بحس نقدي ويقارن بين الحروف، يلاحظ أن الفنان الدمشقي المبدع قد رسخ طلاوة وجمال وسحر الحرف العربي، وكأنما الطبيعة بفتنتها وسحرها قد أظلت بفيئها الحرف فجاء معجزاً، وهذا ما نلاحظه في حروف الواو والراء والميم وكؤوس حرف العين والنون واللام، ذلك هو التوسط الذي شذب حرف المدرسة الفارسية الذي يعتمد على صغر الحجم، وحرف المدرسة العثمانية الذي يأخذ السعة والكبر في الحرف، وهذه القواعد التي ذكرت طرفاً منها تحتاج إلى دراسة علمية دقيقة آمل أن تظهر في العصر الحديث على يد باحثين وهبوا أنفسهم لدراسة فن الخط العربي.

- **يذكرون أن الحاسوب طرد الخطاطين العرب من أعمالهم، هل توافق وما هو انطباعك؟**

الحاسوب آلة صماء تتلقى كل ما يدخل إليها من برامج، في مجال الخط، ولذا يجب أن نقدم برامج تحتوي على الخط الجميل المدروس، محافظين على القواعد الأساسية للخط العربي، ولابد في هذا المجال أن تكون هناك لجنة عليا لانتقاء البرامج الأفضل، ودعم هذه البرامج وجعلها في متناول الجميع، حتى لا ندع مجالاً

أمام الخطوط الرديئة الرخيصة التي نراها في الحاسوب الآن، الحاسوب قلل من استعمال الخط اليدوي من قبل الخطاطين، ولكنه لم يطردهم، فالخطوط التي تستعمل في برامج الحاسوب أصلاً هي كتابة يدوية، وأنا أدعو أن نحسن أنواع الخط الكثيرة التي في الحاسوب، لأننا نحن الخطاطين بدأنا نستعمل الحاسوب في مجال الإعلان والدعاية والمنشورات، وما هذه اللوحات المضاءة الجميلة المطبوعة، سوى عنوان جديد من عناوين الفن الحديث المعاصر في الإعلان، أما بالنسبة للخطاطين الحرفيين فيجب أن يطوروا من طريقة أعمالهم، وأنا متفائل جداً بأن البقاء للأفضل.

- **ما تعليقك على قولهم أن لا مستقبل لفن الخط العربي؟**

مستقبل الخط العربي في يد الخطاطين، وأمانة بين أصابعهم فكلما ابتكروا واتحدوا وأحبوا بعضهم وتحاوروا في أسس الخط وقواعده كلما كان المستقبل زاهراً بإذن الله، وعليهم وأن يقدموا دائماً الأفضل والأحسن، وأكرر إن المستقبل للخط العربي واللغة العربية ما دمنا نعمل صادقين على التقدم والاجتهاد.

- **أيهما أكثر تأثيراً على نفسيتك ، فوضى استخدام الخطوط في الشوارع، أم عدم اهتمام الدولة بتعليم الخط العربي في المدارس؟**

ما يحز في نفسي كثيراً هو إلغاء مادة تدريس الخط في المدارس، ولا سيما إنني علمت الناشئة هذا الفن لأكثر من ٣٢ عاماً، فكان يحزنني أحياناً أن طلاب دار المعلمين وهم أساتذة الغد لا يجيدون كتابة هذا الخط ولو قليلاً، وكثيراً ما يشكو المعلمون من سوء الخط أثناء تصحيح أوراق الامتحانات في الشهادات والجامعات.

أما ما نراه من خطوط سيئة في الشوارع والمحلات التجارية فهذا بسبب كثرة الطلب وعدم معرفة الأفضل من قبل المعلن.

- **ما هي أجمل لوحة خط عربي شاهدتها؟**

شاهدت كثيراً من لوحات الخط في سورية وتركيا وإيران، ولكن ما سحرني خطوط الثلث التي تلتف بحزام جميل حول مقام سيدنا يحيى عليه السلام في مسجد بني أمية بدمشق، وخطوط عبد الله الزهدي في المدينة المنورة، ولوحات الأستاذ بدوي المنتشرة في سورية والعالم.

- **وما هي أجمل لوحة كتبتها؟**

لم أكتب إلى اليوم أجمل لوحة ولكنني أسعى إليها مادام في العمر بقية!.

ولم تطل رحلة الفنان بعد هذا اللقاء، إذ ما لبث أن ودعَ الحياة، في ٣١ / ٣ / ٢٠٠٤م بعد أن أدى رسالته حق الأداء، وترك إرثاً فنياً راقياً تستعيد فيه مسيرة خطاط متميز، وتدعو له بالرحمة والغفران.

دمشق تودع خطاطها المبدع :

محمد قنوع: نحن مسؤولون عن حماية التراث والتصدي لمحاولات تشويهه والعبث بأصالته...

عجبا لحكم القدر وما يخبئه في جعبته من مفاجآت...

منذ أيام وحسب، التقيت الفنان الخطاط الرائد: محمد قنوع، في مرسمه الحميم الأنيق ... وكعادته أتخذ جلسته وراء مكتبه، ممسكا بقصبته الرشيقة، وانصرف إلى الورق يوشيه بلمسته الدقيقة، لينحر بعدها عملا فائق الروعة، اقتصاه السهر ليالي طويلة وتحولت فيه الحروف إلى لحن سماوي شفاف والكلمات إلى تحفة باهرة ناطقة بإعجاز الفكر وإبداع الأنامل.

ملك المشهد علي حواسي، فرحت اتتبع بدهشة خطوطه المنثالة بعفوية واناقة، مغتبطا لحضوري ولادة لوحة فنية فريدة ستنضم إلى مثيلاتها في رواق الخلود، وتغدو قبلة الأنظار ومتعة المشاعر، عندما فرغ "محمد قنوع" من لمسته الأخيرة في اللوحة شعرت بأنها – ككل عمل فني أنجزه – تختصر مسيرة إبداع متألقة، قطع الفنان أشواطها بدأت وصبر ومحبة صادقة طوال نصف قرن من الزمن واستعدت عندها محطات فاصلة في حياته الفنية الموهوبة لخدمة التراث في صورة الجميلة الخالدة

استعدت في لحظات عباراته اللطيفة:

لقد شغفت بالخط العربي من مرحلة حداثتي المبكرة، ويومها تعرفت إلى سحر الأبجدية التي تقدم للطفل أحساسا لا نجده في لغة أخرى، إن للقرآن المجيد بيانه الساحر، وتصويره البليغ، الذي ينطبع في ذاكرة الطفل من لحظة تعلمه سورة الفاتحة والمعوذتين إضافة إلى ذلك السحر الذي تمنحه لنا مدينتنا البهية: دمشق، من

خلال تراثها الأصيل مجسدا في لوحات الخط الأنيقة في المسجد والأبنيـة الأثريـة وهو ما ينعكس في الوجدان احتراما وإجلالا للحرف العربي ثم يـأتي دور المعلـم فيؤكد هذه المعاني السامية ويرسخ في نفس الطفل تذوق الجمال والتمسك بالجـذور القوية لقيمنا المثلى، وقد كان حظي كبيرا أننا تعلمنا مبادئ الخط العربي على أيـدي المربين من مشاهير الخطاطين في أيامنا ممدوح الشريف، حلمي حبـاب، وبـدوي الديراني وغيرهم...

على يد هؤلاء تدربت واكتسبت خبره وفهما لقـيم الجمـال، وتأكـد لـي أن جماليات الخط العربي لا يمكن الإحاطة بها إلا بالتذوق العـالي لأنـواع الحـرف العربي والإطلاع على أعمال الأساتذة المجلين ودراستها دراسة متانية واعية...

الخطاط المعلم: روحانية وإبداع:

إن تراثا يمتد على مدى ألف وأربعمائة وست وعشرين سنة يحتـضن كنـوزا فوق التصور، وقد مر الحرف العربي عبر خطوط القرآن الكريم بأشـكال وصـور مختلفة وكان الخطاط يدرك أنه يكتب آيات الله تعالى، وانطلق مـن نفـس صـافية وارتقى إلى سماوات رحيبة من الصوفية والروحانية الشفافة واتى بالجديد المبتكـر والجميل الأخاذ وإن من يتأمل الحروف العربية، وهي تتنـوع وتتمـايس اعتـزازا وخيلاء في لوحات بلاد الأفغان ودمشق وبغداد والقاهرة والقيروان يتملكـه العجـب من دقة الإتقان في تنسيق الحروف وأشكال كتابتها وامتداد قاماتها وتلـوين ميماتهـا وانحناءات عراقتها

وعما إذا كان الخط العربي قادرا مثل الفنون الأخرى – علـى التطـور والتجـدد يجيب الفنان (قنوع):

إن التطور ظاهرة طبيعية، وهو في الفنون الإنسانية يولد لدى المبـدع طاقـة قوية لتقديم الأفضل والأجمل، فيندفع الموهوبـون علـى تطـوير أعمـالهم الفنيـة

وتجديدها انطلاقا من إيمانهم بأن التطوير رسالة لا يحمل عبئها إلا المخلصون وحسب، وهكذا فقد شهد فن الخط العربي صورا من التجدد خلال تاريخه الطويل من بداية بعثة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة، ومروراً بالعهود الإسلامية التالية: كان وضع النقاط "التشكيل" على يد أبي، "الأسود الدؤلي" ثم وفي نهاية العهد الأموي تحول الخط من اليبوسة إلى اللين وكانت المرحلة الثالثة نقط الحروف المعجمة في عهد الحجاج الثقفي، وتلته مرحلة اختصار الألوان على يد "الخليلي بن أحمد الفراهيدي" في لون واحد، وابتكار التشكيل الذي تكتب الحروف عليه اليوم.

وما لبثت جهود المسلمين أن تضافرت، وتنوعت أنماط الخطوط واستخلصت منها الأقلام الستة: الثلث والنسخ والتعليق والريحان، والمحقق والرقاع.

وفيما بعد حظي كل نوع بنصيب من التطوير والتحسين، اقتضته الحاجة، مثل خطوط الدواوين التي أدت هدفا محددا، ثم توالدت الخطوط، وبلغت منتهى الإبداع والجمال.

وظهرت في منتصف القرن الماضي محاولات لتطوير الخط، خدمة لحاجات اقتصادية واجتماعية وسياسية، لكنها سرعان ما عادت إلى الجذور ولم تكتب لها الديمومة.

كذلك لعبت الطباعة الحديثة دورا ذا شأن في التطوير والتجديد، وكان للحروف التي سكبت بها قوانين الكتابة دورا كبيرا ذا شأن في التجديد، وظهر في الفنانين - من جانب آخر- من عمل برؤية جديدة للتشكيل في الحرف فوفّق بعضهم وقدّم أعمالا فنية متميزة، وفشل آخرون ممن جنحوا إلى السيريالية المفرطة...

وعن أساتذته في فن الخط العربي ... يفصح الفنان (قنوع) عن اعتزازه بخطاط بلاد الشام القدير: بدوي الديراني ... فقد كان مدرسته التي تعلم فيها منهجه ... ثم يوضح أن مسيرة الخط في سوريا حفلت بكوكبة متميزة من الرواد، فيهم الخطاطون رشاد، ممدوح، بدوي، حلمي، الشلبي، الحكيم، البغجاني، الزيناتي،

البيلاني، الشيخ محمد الزرزور، هادي، الرفاعي، المولوي، الصابوني، وكانوا الجيل الأول، الذي تلاه الجيل الثاني وفيه: نجاة، المنيني، أمين دياب، الزرزور، عثمان طه، قصيباتي المفتي، الهواري، الباري، القاضي، وليد محي الدين، سالم النويلاتي، محمد غنوم، شكري خارشو، ياسر عبار، عدنان سنقنقي، جمال بوستان، مصطفى النجار، وكلهم من دمشق.

وهنالك عدنان الشيخ ومحمد الحداد من حمص، والحوري والبازنكجي وآمين خياطة وبشير الأدلبي، وسلمو وعليان وبلال الرفاعي من حلب، وعبيدة البنكي من دير الزور، وحسام مطر من الرقة وغيرهم...

ويستفيض الفنان قنوع من غرضه لمدارس الخط العربي، فيذكر أن هذه المدارس تتوزع في الأقطار الإسلامية بأشكال ومناهج مختلفة ففي بلاد كا وراء النهرين ثمة منهج محدد وللأتراك العثمانيين منهج مختلفة أما المدرسة الشامية فقد كانت وسطا بجمال حروفها ورشاقة العراقات في الخط، وهو ما أكسبها جمالا وروعة لم تبلغها المدارس الأخرى وبخاصة في الخط النستعليق، وخط الثلث، ولقد تمكن الفنان الدمشقي أن يرسخ طلاوة وسحر الحرف العربي، فكأنما الطبيعة الآسرة قد مدت ظلالها على الحرف فتجلى بهيا معجزا وهو ما نلاحظه في حروف الواو والراء والميم وكؤوس العين والنون واللام وذلك هو التوسط الذي شذب حرف المدرسة الفارسية المعتمد على صغر الحجم. وحرف المدرسة العثمانية الذي ينحو إلى الكبر والسعة.

وحول خصوصية خط الثلث يرى الفنان قنوع أنه خط لين وجميل بدأ مع عهد الدولة الأموية في الشام وقد عرف أولا باسم خط النسخ الشامي ثم شهد تطورا مع الزمن وأخذ أبعادا وأشكالا إلى أن كان تطوره الحاسم على يد المماليك ثم استقر بعدها على أيدي الخطاطين العثمانيين الذين أبدعوا فيه، ويبدع اليوم فيه الخطاطون السوريون ولأنه طبع ولين ويوحي بالمتانة والقوة.

ويشير الفنان قنوع إلى اللوحات الحروفية التي عرفت منذ الستينات في سوريا

فيتبين أن الحرف العربي يحمل في تكوينه قيما جمالية راقية تساعد الفنان التشكيلي على إعمال خياله واستلهام الصور الجميلة التي يوظفها في لوحته التشكيلية، لكن علينا أن نميز في هذه اللوحات بين ما هو جدي وأصيل يرتكز على التراث والبنية الثقافية للحرف، كما عند الفنان المتميز محمد غنوم وبين أعمال كثيرة غريبة عن الخط العربي ولذا تبقى باهته ومشوهة.

ويتحدث الفنان قنوع بحماس عن الإخطار التي تتهدد الخط العربي قائلا إن الخط العربي تعرض منذ مطلع القرن الماضي لحملات محمومة من المستعمر الغربي، وكثرت المحاولات التخريبية لتغييبه والقضاء عليه، وظهرت دعوات للكتابة بالعامية أو استخدام الحرف اللاتيني كما حدث في تركيا حين استبدل الحرف العربي باللاتيني ... لكن تلك الدعاوي تهاوت في وطننا ولم تلق اهتماما، وضاعت أدراج الرياح، لكننا نواجه الآن هجمة جديدة من الحاسوب الآلي الذي يقدم صورا مشوهة للخط العربي الجميل، ومسؤوليتنا نحن أن نتصدى لهذا العبث وان ندخل إلى الحاسوب الحروف أنيقة التي تحفظ للخط العربي روعته وسحره.

من هذا العشق الكبير لفن الخط العربي دعا الفنان محمد قنوع الخطاطين السوريين إلى تكوين رابطة خاصة بهم، تسعى إلى حماية الأصالة، وصون التراث، وإنماء ذائقة الجمال عند الناشئة فظهرت تلك في عام ١٩٧٨ لتجمع في باقة عطره المهتمين بالخط العربي ومحبي التراث من الشعراء والفنانين وتنشط الجمعية في مجالات ثقافية متنوعة، إذ أقامت معرضا متميزا للخط العربي في باريس، كما تنظم سنويا معارض لأعمال الخطاطين السوريين المبدعين، وتحتفي بالخطاطين المشاهير في الدول الإسلامية، وتشارك في الأنشطة الثقافية في العديد من دول العالم.

وهب الفنان محمد قنوع جهد ساعديه، وضوء عينيه للحرف العربي المقدس واحتضن أصحابه من الخطاطين الموهوبين، وقضى رحلته الطويلة في محراب هذا الفن العربي، التي تواصلت لأكثر من نصف قرن، متميزا بالإنسانية الصادقة

والمحبة والوفاء والكلمة الطيبة، إلى اللحظة الأخيرة من حياته...

ومن مفارقات القدر أني بدأت أدون هذا الحوار لأطلعه عليه. حين فاجأني بنبأ رحيله، فعدت أصحح عباراتي ... واكتب: لقد كان ... وكان ... وأقولها بصدق:

لقد كان فنانا متميزا وجادا وعاملا محبا في مجاله، فاستحق بجدارة شكر الوطن والمجتمع ومن كانت له هذه الصفات لا يموت أبدا.

رسَّخ قيم المحافظة على تراثنا العريق في الخط العربي

كتب الفنان غازي الخالدي:

أهديتني قطعة من خطك الفارسي (من يتق الله يجعل له مخرجاً).. واحتفظت بها في مرسمي، ووضعتها فوق لوحة أغلى الناس في قلبي فوق لوحة أمي.. وكنت ومازلت فخوراً أن أقرأها كلما نظرت إلى عيون أمي أقف بخشوع أقرأ لها الفاتحة، كلما دخلت المرسم .. وكلما غادرته.

هديتك اقرؤها بنفس الحماسة، لأني أجد متعة كبيرة وأنا أتأمل دقة الخط الفارسي، دقة في الأوزان، وأمانة في القاعدة لهذا الطراز من الخط.

سألتك مرة لماذا تكتب اسمي بشكل مختلف من مرة لأخرى .. قلت لي: عندما اكتب اسمك لابد أن أعمل شيئاً مختلفاً عن الآخرين .. فكل مرة أحاول أن أكتبه بطريقة مختلفة عن الأخرى .. وهذا تكريم كبير لي كم تمنيت أن أرد لك هذا الجميل من موقفك.

والذي كان يدهشني فيك أنك لم تكن تأبه لكل التقنيات الحديثة، وظهور نماذج من كل أنواع الخطوط والحرف والعناوين بالكمبيوتر، وكنت ترى أن بصمات الفنان الخاصة لا يمكن أن تكون الآلة بديلاً عنه.

وقد قلت أكثر من مرة في دراستي عن الفن التشكيلي إن من السهولة التفريق بين أسلوبين لفنانين تشكيليين، لكن من الصعوبة أن تميز أسلوب خطاط عن آخر إلا إذا كان ناقد الخط، خطاطاً معترفاً بفضله وعمله وتجاربه ومدرسته.

والخط النسخي الذي تكتبه، والديواني ، كنا نميزه عن كل ما كتب من النسخي والديواني فأسلوبك كان متميزاً، في إيقاع الحرف، وشكله المرن ومسحة الطابع الخاص بك واضحة تماماً .. فإذا قرأت كلمة لك أقول هذا هو أسلوب (قنوع).

كم كنت أشعر بالفخر والسعادة وأنا أراك تدافع عن الخط والخطاطين كنت تكرس قيمة هامة جداً، وهي أن الخطاط هو فنان تشكيلي وأن علينا أن نحترم عمله

كما نحترم اللوحة الزيتية.

سألتك مرة عن مسألة الإبداع في الخط، وهل يؤثر تكرار العناوين والكلمات على أسلوبية الفنان أو على مستواه، اذكر أنك أجبتني بأن الكتابة المستمرة، وبجدية وبتواضع حقيقي، وبصدق وإخلاص، لابد أن تعطي فرصة أكبر للخطاط الفنان المبدع أن يكتشف نفسه باكتشاف أسلوبه وطريقته في تناول الخط حسب القاعدة ووفق الأوزان الموضوعة لكل حرف، واذكر أننا تحاورنا عن خطوط الفنان المرحوم الأستاذ حكمت، خاصة لوحاته بالثلث، الثلث كما هو معروف صعب في التركيب، وصعب في المفاصل، وصعب في التشكيل، لأنه يعتبر من أهم الخطوط التراثية القديمة.

وعندما تحدثت عن بدوي الديراني، أو حلمي حباب، أو عن ممدوح الشريف .. كنت أراك تذكرهم بكل حب، وبكل تقدير وبكل احترام، وتقول هؤلاء الذين أسسوا لمدارس الخط العربي في بلدنا ... وهؤلاء الذين تتلمذت على أيديهم.

وأنت يا محمد قنوع مؤسس أيضاً، أنت مؤسس لأمرين هامين:

الأول: ترسيخ قيم المحافظة على تراثنا الحضاري في مجال دراسة الخط العربي وفق أصوله ووفق قواعده وأوزانه، باعتباره تراثاً مهماً وله الصدارة في جميع اللوحات والنوافذ والأبواب والسقوف واللوحات العربية والإسلامية خاصة ونحن في عالم العولمة، عالم المحاولات لطمس تراثنا وحضارتنا وتاريخنا.

الأمر الثاني الذي قاتلت وناضلت من أجل تأسيسه، هو جمع كلمة الخطاطين وتقديمهم إلى المسؤولين وإلى المواطنين كمبدعين .. وأسست لهم تجمعاً اعترف به لك القاصي والداني .. وأصبحت وبجدارة رئيساً لهذا التجمع، حتى أصبح المعرض السنوي للفنون التشكيلية يضم فيما يضم من لوحات، لوحات الفنانين الخطاطين، يعرضون تجاربهم واجتهادا تهم في تطويع الحرف والكلمة والجملة إلى أشكال فنية تزيينية، مرتبطة بشكل مستوحى من النبات أو من أي شيء له صلة بالكائنات الحية أو الأشياء المستعملة في حياتنا اليومية، كآلة الكمان، أو كالتفاحة، أو كالعود، أو

كالإناء النحاسي طويل العنق .. كل هذه الأشكال طوعها الخطاطون الفنانون لصالح الخط العربي وجعلوا الخط هو النواة الأهم في تشكيلاتها وعناصرها.

فأنت أيها الرائد مدرسة في الخط، وقائد نقابي في حرصك على أعمال رفاقك وفي قدرتك على تقديم إبداعاتهم إلى المتلقي بكل احترام وبكل تقدير.

لم أسمع منك مرة واحدة أنك تقلل من أهمية خطاط دون آخر، بل العكس كنت أراك تسترسل في شرح أساليب الخطاطين الآخرين، والطرق التي استعملوها من اجل تطويع الخط العربي إلى زخرفة وإلى تشكيلات فنية زخرفية مبتكرة.

سألتك عن عدد كبير من الفنانين التشكيليين الذين رسموا في لوحاتهم الحرف والكلمات والجمل بالخط العربي، أو كما يسمونها (مدرسة الحروفية) وكنت دائماً تدافع عن الخط على أنه هو الأساس، وانه ليس وسيلة، بل غاية، وأن استخدامه كوسيلة فيه ظلم للخط والخطاط، ومن المفترض أن يكون الخطاط خطاطاً والرسام رساماً، وإذا تعاون الاثنان معاً فلا بد من أسس ومعايير تعطي لكل نوع من أنواع الإبداع حقه تماماً...

من سطور سيرته

- ولد الفنان محمد قنوع بدمشق عام ١٩٣٢.
- درس في مدارس دمشق وتخرج معلماً عام ١٩٥١-١٩٨١.
- عمل فناناً مسرحياً ومخرجاً ورافق الحركة الفنية في سوريا، وهو من مؤسسي المسرح العسكري والشعبي.
- تعلم الخط على يد المرحوم حلمي حباب وبدوي الديراني.
- خط عناوين أكثر الصحف والمجلات ومنشورات اتحاد الكتاب العرب ووزارة الثقافة ووزارة الإعلام والمؤسسة العربية للإعلان (سابقاً) منذ الستينيات من القرن العشرين.
- عمل بتكليف من وزارة الثقافة على إقامة معرض الخط العربي في باريس مع الفنان المرحوم نعيم إسماعيل وكان محكّماً بانتقاء اللوحات.
- معرض الزخرفة في الخط - الندوة الدولية للأرابيسك في تركيا ١٩٩٧ وكان مشرفاً على معرض الخط في مكتبة الأسد.
- خطاط القصر الجمهوري والموسوعة العربية.
- عشرات المعارض في مناسبات مختلفة في سوريا وعدد من الأقطار العربية والأجنبية.
- ندوات ومحاضرات ولقاءات صحفية وإذاعية وتلفزيونية في سورية وبعض البلاد العربية.
- عمل على تأسيس رابطة الخطاطين السوريين وهو رئيس جمعية الخطاطين السوريين.



(١)

حياة عبد القادر الرشيد
وتاريخي الفني ..

ولدت عام ١٩٢٦ من أبوين فقيرين نوعا ما .. فقد كان أبي وما يزال آذنا
في مدرسة . ولست أعلم متى بدأ حبي للرسم .. ولكني متأكد أنه بدأ مبكرا .. فما زلت
أذكر أن جدراني كانت لا تخلو من بعض الرسوم التي كنت أتسلى برسمها .. وكنت [redacted] الكتب
نفسي على الاقلام الملونة .. وابتدأت هذه الفترة التي لم أكن [redacted] عبد الرسم خلالها إلا
مضيعة للوقت لا بأس بها ..

وفي عام ١٩٤٩ جربت كتابة الشعر .. وبدأت أكتب قصائد كثيرة نشر
بعضها في مجلات وصحف سورية حينذاك ؟ إلى عام ١٩٥٩ حيث عندما
اضطررت أن أبدأ بالعمل بعد نيلي للشهادة الثانوية في مدينة الحسكة .. وكنت
قبل ذلك قد تعرفت على بعض الفنانين الذين كنت أعجب بهم كثيرا .. ولكن عملي في المدينة كاد
يقطع بيني وبينهم .. وانجذبت في تيار العمل .. وتوقفت حتى عن الشعر الذي كان وقتذاك هوايتي
ثم حدث أن بعض أصدقائي اتخذوا من قبو واسع مرسما ومجمعا لهم .. كان
من بينهم الفنانون والصحفيون والشعراء .. ووجدت هناك الشباب المتحمس المتذوق
والمختص في هذه الجوانب .. وكان اجتماعنا مع بعضنا من الأسباب الهامة المباشرة التي
جعلتنا .. نتفهم الفن بصورة واعية ... وفعلا خلقت
لدينا رغبة .. مناقشة جادة حول المواضيع الثقافية بصورة عامة ..
وعرض خيالي بصورة ... في هذه الفترة .. وبدأت أنظر إلى الرسم بوجهة نظر أخرى .. نظرة
... على أساس ... [redacted] ... للادراك ..

[redacted] وتعرفت خلالها على ... [redacted]
... الذين لم أكن أجد على مواهبهم
... والبدايات الأولى للفن الحديث ..

[redacted]

عبد القادر الأرناؤوط :

صياغة لونية جديدة للتعبير عن الأحاسيس الذاتية

- **على المشاهد أن يهتم باللوحة ويتذوقها دون الانشغال بالمضمون الأدبي للكلمة**

تغدو المساء كئيبة، وتكفهر قسمات الكون، حين بلبل عن الترنيم. أو تسقط زهرة ناضرة من عروة الغصن لتذروها الريح ... أما القلوب النابضة بالفرح والحياة فإنها تتكفئ واجمة، حين تمتد كف الموت إلى لهاة شاعر أو ريشة فنان وتفرد المخيلة أشرعتها لتبدأ رحلة الذكريات...

نعم لقد أبحر عبد القادر أرناؤوط إلى ما وراء الأفق ولكن كأنما ليصبح حضورا دائما يحاور ويناقش ويعلق وبسمته المحببة مشرقة على جبينه.

وفي موكب وداعه بدأ شريط الذكريات يمر أمام عيني ومع خطواتي الرتيبة وراء جثمانه رحت استعيد محطات مسيرته، كما كتبها في أوراقه الباقية:

ولدت بدمشق عام ١٩٣٦ من أبوين فقيرين .. كان أبي مستخدما في مدرسة وفي حي شعبي بسيط عشت طفولتي .. لا أعلم متى بدأ حبي للرسم، ولكني متأكد أنه بدأ مبكرا فما أزال أذكر بأن جيوبي كانت لا تخلوا من بعض الرسوم التي كنت أتسلى برسمها، وكنت أصرف أكثر نقودي على أقلام التلوين ... وامتدت هذه الفترة زمنا لا بأس به.

كانت هوايات الفنان، ومواهبه، التي عبر بها عن نفسه، متعددة فقد جرب الشعر في فترة مبكرة، ومارس الكتابة والنقد الفني، وكان مولعا بالمطالعة والموسيقا واهتمامات أخرى بالفنون والآداب، وحين اختار الفن التشكيلي أخيرا، سخر كل هذه الهوايات والمعارف لتخدم خذا الاتجاه الذي استقطب إمكاناته كلها.

وكانت الفترة الممتدة ما بين ١٩٥٤، ١٩٥٦ بداية التحول الهامة في حياة "عبد القادر الارناؤوط" الفنية واختياره الفن التشكيلي يقول:

في هذه الفترة أحسست بالتحول الكبير الذي طرأ على أفكاري ومفاهيمي فبدأت اتحول عن الشعر، وأفكر في الإيجابية في العمل الفني، وبالمسؤولية الهائلة التي يتحملها الإنسان عند خوضه في هذا المضمار.

المرحلة الأولى: ١٩٥٥ - ١٩٦٢:

التقى "عبد القادر أرناؤوط" في هذه الفترة بعدد من الفنانين العرب، أولهم صديقه "مروان قصاب باشي" واكتشف من تجاربهم والحوار معهم، أهمية الحداثة الفنية، وما يمكن أن تعطيه للفنان، واكتشف أهمية التراث العربي، ومن خلال أعمال عمالقة الفن العالمي أمثال "موديلياني" و"بول كلية" و"جوجان" أدرك أن على الفنان أن يقدم ما هو أعمق من مجرد رسم لمنظر تقليدي، وبأسلوب مألوف عند رواد الفن التشكيلي.

مر "عبد القادر" آنذاك بحادثة، قام فيها بدور المتفرج ولكنها تركت في نفسه انطباعا لا يمحي أثره أبداً .. يقول:

كان صديقي الفنان "مروان قصاب باشي" يرسم بنفس أسلوب غالبية الفنانين المعروفين في ذلك الوقت وهو أسلوب قريب من الانطباعية، وقد توقفوا عن ذلك الأسلوب، وراحوا يدورون حول أنفسهم في دائرة مفرغة بتغير نهاية ... وفعل "مروان" الشيء نفسه ... إلى أن توقف عن الرسم، ولم ينتج عملا واحدا قرابة ستة شهور.

وكان يوم، دخلت فيه إلى المرسم، فوجدته مستغرقا في رسم لوحة فلما دنوت منه، تملكتني الدهشة، وأنا أراه يرسم بأسلوب مختلف جدا عن الأسلوب القديم الذي كان طابعه المميز، وقد اعترته حماسة شديدة وهو يتكلم خلال عمله بحرارة وصدق ... كان الإخلاص واضحا في نبراته، وأكبر من الوصف، وبعد ذلك واصل

الرسم بذلك الأسلوب بحيوية خارقة وطاقة جبارة".

دب في نفس "عبد القادر" في هذه الفترة، شعور جديدة بالإيجابية والمسؤولية والإخلاص للعمل بشكل قوي ... كان مسرورا وهو يرى صديقه الفنان يرسم ويرسم بغير انقطاع ... ولكنني لم أجد أن الوقت قد حان لأبدأ أنا بدوري العمل في هذا المضمار".

وفي هذه الفترة، أيضا التقى الفنان الراحل "نعيم إسماعيل" وأخاه الأكبر "أدهم" من رواد الفن التشكيلي في سوريا" فأثارني إخلاصهما الهائل لعلمهما، وجهدهما الدائب لخلق لوحة عربية صافية ... تحدثت مع "نعيم" كثيرا في الفن، كان حماسه وإخلاصه رائعين ولكن حديثة الساحر جعلتني أحس بأني أبعد مما أظن عن البدء بالعمل الإيجابي من ناحيتين وشرعت، من جديد، أدور في دوامة من القلق، وأبحث عن مخرج لي، وأنا أقارن بين الزيف والأصالة، والصحيح" وغير الصحيح" وتعرّف بعد ذلك على "صلاح الناشف" عبقري الرسم المائي، وعلى "نصير شورى" أستاذ فن الجمال، و أحب أعمال هذا الأخير، وما يتوهج فيها من ذوق فني مرهف.

مسؤولية الفنان: كانت المرحلة الحاسمة في حياة الفنان، والتي امتدت ما بين ١٩٥٤ و ١٩٥٦ حين اكتشف مسؤولية الفنان، وأهمية "الفن الحديث" ورأى ان تخطي الأساليب التقليدية السائدة، سوف يكون دافعا له. لإعادة النظر في كل ما كان مؤمنا به. وأخذ يفكر في أسلوب فني خاص به. وإدراكا منه إلى أن ارتباطه بالفن متوقف على ذلك".

رسمت لوحة واحدة لم تعجبني ... فانقطعت عن الرسم، ورحت أتحدث مع الفنانين وأحاورهم محاولا اكتشاف نفسي".

وفي النصف الثاني من عام ١٩٥٧ غادرني الأصدقاء، ووجدتني في عزلة تمثل انفعالاتي بشكل واع، رحت أحاور الألوان، وأحس بأنها تتجاوب معي وهكذا، بدون تفكير أمسكت بالريشة، ورسمت لوحة أعجبتني، وارتحت للعمل، وانغمست

فيه واتبعت اللوحة بلوحات ... لقد عرفت أخيرا أن التيار قد اتخذ مجراه النهائي، وأن الإنسان لا يستطيع التوقف منذ اللحظة التي يحس فيها بالمسؤولية وبواجبه أن يكون مخلصا لما هو مسؤول عنه".

شارك "عبد القادر" في ذلك العام، بالمعرض العام للفنانين بلوحتين: "ذات الشعر الأسود" "حارة قديمة" وخلال خمس سنوات من النشاط الدافق، والتجارب المتعددة عرف الفنان بأسلوبه الخاص، وخطوطه الشاعرية، ومن خلال مشاركته في معرضين إقامتها وزارة الثقافة ما بين عامي ١٩٦١ ، ١٩٦٢، قدم لوحات تكشف عن موهبة خاصة وعن أسلوب ينطوي على لغة فنية متميزة فيهما شاعرية وبساطة معبرة تنطلق من القلب لتصل إلى القلب: "اكتشفت أن بوسعي تقديم كل ما أود الإفصاح عنه بتلقائية، وألوان محدودة، وخطوط متقنة، وأن أعبر عن اعقد المشاعر الدفينة في نفسي من خلال هذه الأشكال).

وتبع ذلك معرضاه في صالة الفن الحديث العالمي، في ذات الفترة، ولكن الفنان فاجأ جمهوره كثيرا، حين قدم لوحاته بدون عناوين وقال: إن على المشاهد أن يهتم باللوحة، ويحاول تذوقها دون الانشغال بالمضمون الأدبي للكلمة، وظل يقدم لوحاته منطلقا من هذا المبدأ: "أن نقرأ اللوحة ونبتعد عن المعاني، وأن نهتم بما في الكلمات والزخارف، من قيم جمالية، وتشكيلية وتجريدية، ولا نكتفي بقراءة ما يكتب".

المرحلة الثانية: ١٩٦٣ - ١٩٦٨:

كانت إمكانات الفنان المادية، تقف حائلا دونه ومتابعة الدراسة الأكاديمية، فعمل في وزارة الثقافة مصمما ومشرفا على تصميم لوحات إعلانية، أبرزت الموهبة "الغرافيكية" لديه واستطاع مبكرا أن يكتشف إمكانات الخط العربي، فأقبل عليه يبتكر، ويستخرج منه جماليات كامنه فيه، وأن يخلق التناغم الضروري بين تصميم اللوحة والكتابة العربية، فانتشرت أعماله في أوساط جديدة، وجدت في

تصاميمه مزيجا من الدقة والشاعرية، وروح التراث، والرموز التي كانت قابلة للتداول. في إيطاليا تعرف على إسرار الخط اللاتيني الحديث، وتفرغ أكثر الخط العربي، ولدراسة الديكور وتصميم الإعلان، وفازت لوحاته وتصاميمه بالعديد من الجوائز، وإثر عودته لدمشق أصبح مدرسا للفنون في كلية الفنون الجميلة، وأسس فيها مدرسة لفن الإعلان. وقد طرح الفنان على نفسه سؤالاً ماذا قدمت لي "روما" وهل ساعدتني للوصول إلى ما طمحت إلى تحقيقه من أهداف؟

نعم ... لقد تعرفت إلى عناصر جديدة ومهمة .. لكن هذه العناصر، لم تبدل في شاعريتي، ولا في بحثي عما هو داخلي لا عبر عنه ... لقد كانت تجربتي حافلة بما هو جديد، من حيث وسائل التعبير، التي كانت أكثر عمقا، وفيها الصيغ والتقنيات الحديثة التي جعلت أعمالي أكثر التزاما بالصيغ الفنية الجديدة، ومحاولاتي للوصول إلى التعبير عن الشاعرية بمفاهيم تشكيلية، لكنها من جانب آخر لم تكن جديدة عليّ من حيث الهدف الذي سعيت لتحقيقه.

وهكذا ابتعد "عبد القادر أرناؤوط" عن الرسم بالخطوط وحدها، والإشارات والرموز المختلفة، نحو التجريد اللوني، المعبر عن أعماق الأشكال، وبدأ يرى التصوير الحديث، عن طريق حركة اللون وتمازجها، ويقدم المفهوم العربي في التصوير الزيتي عن طريق تداخل درجات اللون وامتزاجها، وشفافيتها، وما تقدمه من قيم ووجد في أحياء "دمشق" القديمة وأبنيتها الأثرية الباقية، الإيحاءات التي مكنته من تصوير لوحة لها لونها الشاعري، ولها ارتباطها بالواقع المحلي...

وأضافت التجربة الجديدة إلى لوحته صياغة لونية، وساعدت هذه الصياغة على التعبير عن الانفعالات الذاتية، والأحاسيس المرهفة التي كانت نتيجة لتفاعله مع البيوت القديمة، والجدران المتآكلة، التي تحمل البصمات الإنسانية، وتعكس تأثير الطبيعية والإنسان، وامتزجت الزخارف المحطمة، مع أشكال المهترئة، مع اللون الشاعري، وساعدته على التعبير عن الموضوع (رمزا).

وفي معرضه الثالث عام ١٩٦٧ كانت لوحاته وقفا على "دمشق" القديمة كما

رأتها عين الفنان المحب لمدينته وتراث أمته.

المرحلة الثالثة: ١٩٧٢ - ١٩٩٢:

تهيأ للفنان السفرة مرة ثانية إلى "باريس" فامضي فيها عامين، تابع خلالهما دراسة فن الإعلان، ونال دبلوم المدرسة الوطنية العليا للفنون الزخرفية بباريس في "الاتصالات البصرية" ولما عاد إلى "دمشق" أصبح رئيسا لقسم الفنون الزخرفية بكلية الفنون.

لقد اتضح تأثير دراسته الجديدة في فرنسا، من خلال معرضه الجديد المتميز، إذ قدم فيه لغة فنية خاصة به، ولهذه اللغة جذورها الفنية اللونية والشكلية، من التراث التشكيلي العربي، وظهرت في هذه المرحلة خصائص فنية لم تكن مألوفة لديه... قدم اللوحة المتوازنة والمتماسكة والتي عبرت عن المفاهيم الرئيسية المجردة فاللوحة لها توازنها من حيث الأشكال، ولها مفاهيمها المرتبطة بالإطار الذي يحد اللوحة من أطرافها وتتوزع العناصر والأشكال ضمن هذا الإطار، وهذا التوازن وصل إلى أقصى مراحله لأن السكون هو المسيطر، والتناظر هو الذي يغلب على التكوينات.

وبعد أن قدم اللغة الشاعرية المثقلة بالرموز في البداية، انتقل إلى مرحلة (تعبيرية - تجريدية) ليجعل الرموز تعبيرا عن المواضيع المأساوية والصيغ الإنسانية بالتأليف الخاص:

"لقد حاولت دائما أن أضع لغتي الفنية على محك التجربة والبحث، حتى أختبر قدرتي على التعبير عن كل الموضوعات مهما كانت، وأصل اللوحة المتوازنة توازنا تاما، من حيث العناصر الموزعة، والأشكال التي تقدمها اللوحة" وهكذا وصلت تجربته إلى أقصى الصيغ الفنية المحسوبة، وإلى دقة التوازن الشكلي واللوني، لقد كانت قمة التجربة التشكيلية في بناء لوحة متكاملة لم نر نظيرا لها فيما سبق وقد رسم في هذه المرحلة اللوحات المربعة. التي امتازت عن غيرها، بأنها

أكثر قدرة على إعطاء التشكيل المتوازن من الأطراف جميعا، ولم يتوقف عند هـذا الهدف بل إن الدقة في التكوين المتماسك والمتوازن، ضمن المربع، دفعـاه لتقـديم صيغة فنية تتداخل فيها المربعات، مع المثلثات والدوائر، ويـضاف إليهـا تناسـق الألوان، من أخضر وأزرق وأبيض.

وفي المعرض الذي أقامه بدمشق عام ١٩٨٥، قدم التجارب اللونيـة، والنظـام المبتكر لعلاقات الأشكال العضوية، والزخرفية، وتداخلات الألـوان، وهكـذا فـتح الباب على مصراعيه أمام بحث لوني جديد، مربع أو مستطيل ملون، فيه البـساطة والمقدرة على الابتكار الأصيل. الذي تحس بأنه يجمع بين اللـون والتـأليف، إنـه يخوض بحثه الآن في مجال اختبار لغته الفنية على تحقيق كل ما يريد من بحـوث وأشكال تجمع الهندسة والعفوية.

ونظم آخر معارضه، في "المركز الثقافي العربي" بدمشق لوحـات بيـضاء إلا من تأثيرات لونية، واعتمد على العلاقات البيـضاء، مـع الزخـارف، والأشـكال النافرة، في بحث هو في منتهى الصفا والبساطة، وقد امتد هـذا الأسـلوب الفنـي ليشمل كافة أشكال التعبير الفني التي مارسها، من تصاميم إلى ملصقات، وحتى في مجال الكتابة العربية حين قدم أسلوبا يتضمن تطوير الحروف ويقاربها مع الأشـكال ويختزلها...

بدأ "عبد القادر أرناؤوط" شاعرا ينظم الكلمات قـصائد رقيقـة فيهـا مـشاعر فياضة، وصور خلابة، ثم تحول إلى شاعر يرسم بالفرشاة، ويلون الأشكال، ويـنظم لوحته تنظيما خاصا حتى تعكس هذه الشاعرية بصياغة حديثة، وحتى يتوصل إلـى لغة فنية مستقلة عن كل ما عداها، وسواء في الشعر أو في الفن فقد تجلت موهبتـه في قدرته على إيصال "الكلمة" إلى الناس بأسلوب يجمع بين البساطة والجمـال .. وقد وصل إلى هذا الأسلوب بعد رحلة طويلة، وبحث تنقيب مجهدين ... وبلغ أخيرا عالما جميلا، أكثر توازنا ورهافة وجمالية ... العالم الأسر الذي حلم به طويلا ...

في المقبرة حيث وصل الموكب أخيرا طرحت خواطري واستعدت نفسي مـن

جديد، وفيما كانوا يهيلون التراب على جثمان الفنان الذي ترجل بعد رحلة مثيرة ... كان رذاذ المطر ينثال من الفضاء الرحيب، ليمتزج بدمع العيون المودعة

ومن بعيد تناهى ترجيع يمامة حزينة، كانت تصبّح على الفنان الشاعر، فجر كل يوم، من على غصن رطيب فوق شباك مرسمه الأثير، وأغمضت الزهور جفونها!!

المصادر:

- أوراق الفنان
- الرائد الذي خسرناه: طارق الشريف مجلة بناة الأجيال العدد الرابع) نوفمبر ١٩٩٢.
- في ذكرى الفنان: وزارة الثقافة بدمشق ١٩٩٢

قالوا عن الفنان

"إنه شاعر يرسم بالفرشاة، ويلون أشكاله، وينظم لوحاته تنظيما خاصا، حتى تعكس هذه الشاعرية، بصياغة حديثة، وحتى يتوصل إلى لغة فنية مستقلة عن كل ما عداها، ولقد كانت موهبته تتجلى دوما في قدرته على إيصال "الكلمة" إلى الناس، وعن طريق شتى الوسائل، بأسلوب فني يجمع بين البساطة والجمال .. هذه البساطة المحيرة التي توصل إليها بعد بحث وتنقيب طويلين".


طارق الشريف – مدير الفنون الجميلة

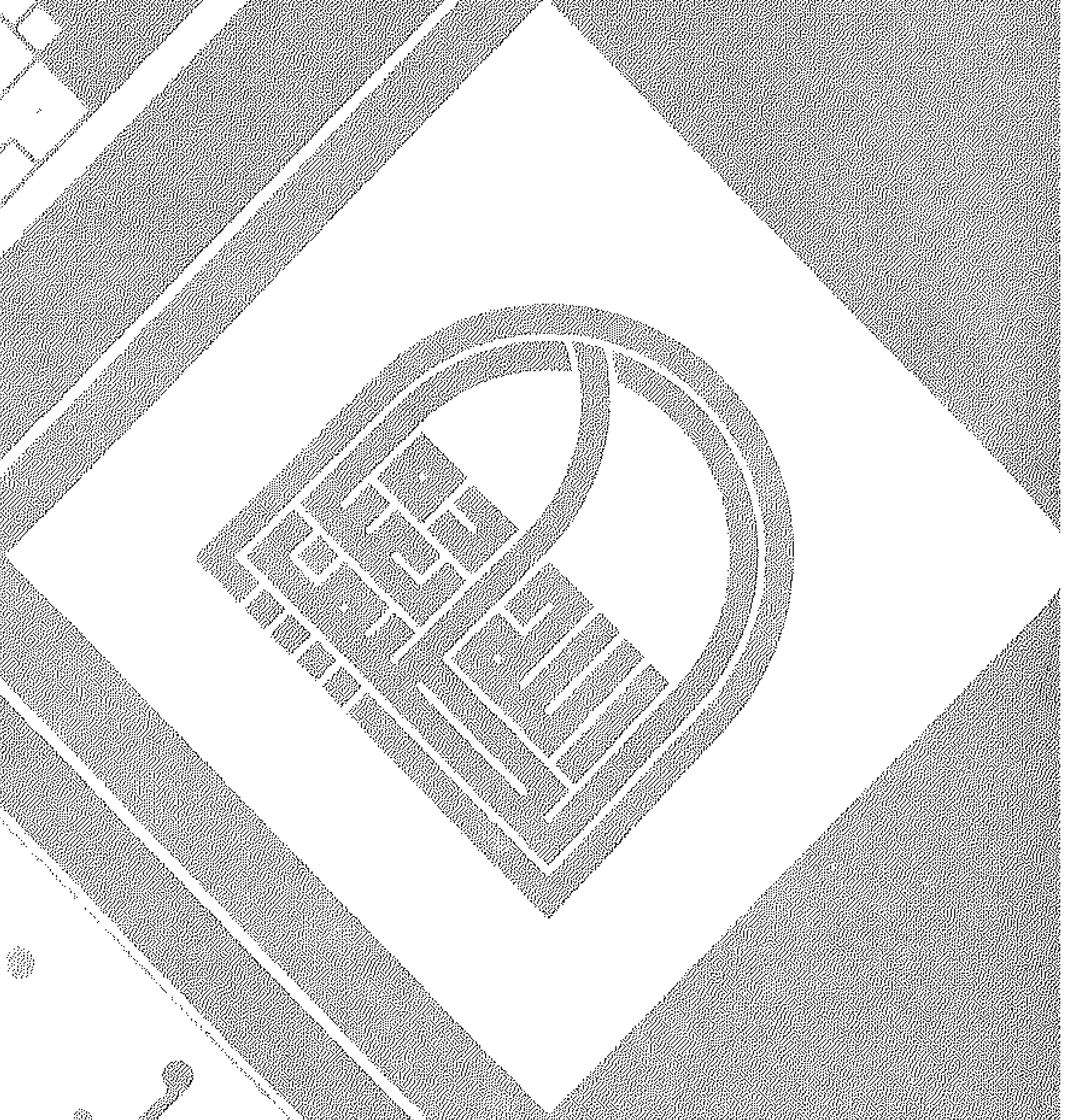
كان أصيلا كدّرة نادرة، تعلم بفطنته وحدسه، ورافقته النخبة من المراجع الفكرية والفنية، فنادمها بشوق وإخلاص، كما كان في حياته وبحثه المستمر عن الحقيقة الجمالية التي لا حقها في كل مجال، حتى وجدها وسيطر عليها في الكلمة وفي الشعر، وفي الخط والرسم، والشكل واللون، والتصميم الزخرفي، وفي فن الإعلان وصياغة اللوحة الفنية المزخرفية حتى رشحته المجالس المختصة بكلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق لمنحه براءة الاختراع عن بحثه "طريقة العمل الغرافيكي" التي تم تسجيلها كابتكار علمي وفني في فرنسا".

أ.د. عبد المنان شما – عميد كلية الفنون بجامعة دمشق

عمل "عبد القادر أرناؤوط" لسنوات، وهو يحاور جماليا بين مظاهر واقعية وأخرى تجريدية، وصولا إلى علاقة تعبيرية حديثة فيها من الواقع بقدر ما فيها من الذات، ومنذ تلك المرحلة في تجربته وحتى آخر إنجازاته التشكيلية، كانت الشاعرية ذلك الإطار الجمالي الذي سكن عوالمه على اختلاف عناصرها الواقعية والذاتية والتراثية والمعاصرة".

خليل صفية





منير الشعراني :

سيمفونية غذبة يصل من خلالها
إلى روح المشاهدة وبصيرته

إذا كانت اللغة العربية هي هوية العرب المعبرة عن شخصيتهم،فإن الخط العربي هو العلامة الدالة على ابداعهم الخلاق على مر السنين، فقد أتقن الخطاطون هذا الفن وأعطوه ضوء العيون، تجديداً وابتكارا حتى غدا فناً حقيقياً، وعلما أكاديمياً يدرّس في المعاهد والجامعات. وحيثما تلتفت حولك في مساجد المسلمين، وقصور الأمراء، وعلى جدران القلاع والمشيدّات التاريخية، تطالعك شواهد العبقرية العربية المتألقة : لوحات الخط العربي محفور في الخشب، أو مكتوب بعروق الذهب على أعمدة الرخام، وصفحات القباب الشامخة ... مهرجان حاشد من الأناقة والحس الرهيف تتسمر الأنظار عندها، وتتشرب من موسيقاها الناعمة ... كذلك كان الحال في أيام العرض الخاص بأعمال الخطاط الفنان منير الشعراني الذي صادف قدوم ربيع دمشقي جديد، محمّل بالخضرة والعطر من كل لون..

لوحات جديدة، لم تعرض قبلاً، أثارت اهتمام النقاد والمهتمين الذين رأوا فيها لمسة الفنان المتميزة، وأسلوبه الخاص في التعبير المنطلق من فلسفة تعتمد على جمال العبارة المكتوبة، مقترنة بجمال الحرف المرسوم، ومركزة على التكرار الرشيق للحروف المتشابهة، مع انسياب شفاف يحلق بالمتلقي في أجواء الفن العربي الأصيل، ويزاوج بين مدارسه الخطية واللونية مع إبداع في شكل الحروف المكتوبة تارة، وفي نوعية الخط المعتمد للعمل الفني تارة أخرى،مختلفة، تبلورت خلال دراسته العالية بجامعة دمشق. وانتقلت معه في أجواء الخط المغربي وأصوله الكوفية، لتظهر صلة النسب بين الخطوط العربية في المشرق والمغرب.

بصمة متميزة من التشكيلات البصرية الحروفية:

تتفرد التجربة الحروفية للفنان منير لشعراني بجملة من المقومات، جعلتها لا تشبه أي تجربة حروفية عربية أخرى، فهو يوظف قدرات الخط العربي البصرية ضمن تشكيلات جديدة، لكن دون الإخلال بأصوله الكلاسيكية المحكومة بقوانين هندسية رياضية صارمة، محبوكة بإتقان وموهبة وحساسية رفيعة.

بدأ الفنان الشعراني هذا التوجه منذ كان طالبا في محترفات كلية الفنون بدمشق مطالع السبعينات من القرن الماضي، ولا زال في نفس التوجه فأعماله الحديثة المنشورة على موقعه الخاص على الانترنيت، وبين دفتي الكتاب المتقن الإخراج والطباعة الخاص بشريحة منتجة من لوحاته.

الفكرة والمعنى في فكرة معبرة:

في دراسة للناقد عبد السلام أحمد في منهج الخطاط الشعراني يقول: (اللوحة عند الشعراني سيمفونية فريدة في تنوع وانسياب حروفها وتناظر متشابهاتها، وذلك ليصل من خلال تسلق سلّمها الخطي الجميل الى روح المشاهد وبصيرته، معلنة حقيقة الفكرة الفنية التي أرادها الفنان، وليصل من خلالها بحس شفاف الى المعنى الحقيقي للجملة المكتوبة في هذا العمل الأنيق، ويتجلى كل ذلك في لوحاته التي جسدّت عبارات مختارة من الحكم والمثال والشعر العربي، وفيها نرى قمة التمكن الحرفي تركيباً وتناظراً وتسلسلاً، إلى حد أن المشاهد قد يذهب في متاهات بعيدة، ولا يصل إلى فكّ رموزها وقراءتها بصورة صحيحة).

خارج الاتجاه وبعيداً عن التقليدية:

في سجل المعرض يدوّن النقاد والباحثون شهاداتهم في أعمال الفنان، التشكيلي التونسي حاتم المكي يرى: (أن الشعراني يفق خارج الاتجاه الحروفي في التجربة

التشكيلية العربية كما أنه يقف خارج كوكبة الخطاطين الذين يجوّون الخطوط التقليدية ويكررونها وهو يقدم قطعة خط عربي جديدة، تعبير نفسها امتداداً عصرياً لاضاءات الماضي).

أما الشاعر علي اللواتي فيؤكد: (أن الفنان لم يتحمل الغش، ولم يتحمل الغش، ولم يلجأ للزيغ أبداً، وهو كالساح يعلم أين ينبغي أن يلجم اندفاعه حتى يمكن التمتع بالساعات الحقيقية والرائعة للفراغات، وهي لذة فعلية للذين يدركون الموسيقى والتطرف الهندسي).

ويدور الحوار بين الفنان والناقد أسعد عرابي والخطاط منير الشعراني:

- **هل تعتبر نفسك خطاطاً أم فناناً؟ ..**

اعتبر الخط طريقة في التعبير عن الفن التشكيلي مثل غيره من الفنون.

الخط إذن وسيلة تعبير إبداعية، غير وظيفية، بدليل غلبة الهاجس المسيقي في تشكيلاتك.

إن العلاقة بين الخط والموسيقى الشرقية وردت أصلاً من الشعر، حتى أننا نعثر على خطاطين معروفين في مجال الموسيقى، على غرار : صيفي الدين عبد المؤمن الأموي صاحب كتاب عن الموسيقى، كما وأن العديد منهم شعراء معروفون.

- **ألا تجد أن استغراقك في موسيقية الشك يقودك إلى التطرف الهندسي، وبذلك يفقد العمل الفني شيئاً من تلقائيته، أو لأحرى شطحاته المشروع التي تعتمد على خيانة القواعد؟**

يختلف الطابع (الغرافيك) في الخط والأداء العفوي في اللوحة، فهو يحتاج إلى قرار حاسم مساحي وخطي لا يقبل التردد، مثله مثل المساحة الهندسية، ولهذا أنجز دراسات تمهيدية حرة قبل التنفيذ.

- **ما هي الخطوط التي تعتقد أنك طورتها على الرغم من عدم المساس بخصائص تشريحها لالهندسي؟**

الكثير من أنواع الكوفي بدءاً من الشطرنجي (المربع) وانتهاء بالمغربي القيرواني، مروراً بالمشرقي، ثم هناك السنبلي – وهو عثماني متأخر – إضافة إلى النسابوري وبعض التوليفات. لقد امتحنت واستثمرت الطرز والأقلام، ولكن ضمن إخراج وتأليف علاقات جديدة بين الكتلة والفراغ.

دعاوى يفندها العلم والمعرفة:

يثور الفنان منير الشعراني على مزاعم الذين يرون في الحاسوب خطراً محدقاً بالخط العربي ويرى: (انه مع الثورة الهائلة في الاتصالات، اقتحم الحاسوب كل مجالات الحياة، فكان لابد من برمجة خطوط عربية لاستخدامها في الوظائف التي يؤديها الحاسوب، الأمر الذي يعرضه أهل التقليد في الخط العربي باعتبار أن برمجة الخط العربي تمثل مؤامرة عليه، تؤدي إلى انعدام الإقبال على تعلم الخط العربي والى القضاء على هذا الفن إن هذه الادعاءات تبروز مدى الجهل بالحاسوب واستخداماته من جانب، وبرحلة الخط العربي وتطوره من جانب آخر، ناهيك عن الخلط بين المهني والفنان، وبين استخدامات الخط العربي الوظيفية والفنية المتعددة، ونظرتهم إليها بسكونة وعين مغمضة لا ترى إلى أنا برمجت الخط العربي بالحاسوب باتت ضرورية هؤلاء يجهلون أن الخط العربي تطور على مستويات عديدة، انطلاقاً من التطور البنيوي والهيكلي الذي أوصله إليه رواده من الفنانين العظام، تطور على مستوى الرسائل والدواوين والعقود والمحفوظات، ليؤدي وظيفته أفضل وأجمل، فتعددت أشكاله، وتطور بفعل اتساع رقعة استخدامه وتفاعله مع ذائقة كل شعب من الشعوب التي وصل إليها ... وهكذا ولدت أنواع وأشكال على درجة عالية من الجمال، كذلك تطور من خلال التفاعل بين الخامة وبين أجيال الخطاطين الذين استطاعوا أن يولدوا لكل خامة أنواعاً وأشكالاً من الخطوط تتلاءم

معها، مبدعين تحفاً لا حصر لها تنتشر في أرجاء العالم.

إنهم يظنون أن الخط وصل إلى ذروته في العصر العثماني، ولم يعد ممكناً أي ابتكار أو تطوير يعذ الأنواع الستة التي اعتبرت قمة الجمال وقد أدى هذا الزعم إلى غياب عشرات الأنواع من الخطوط الكوفية رغم ما هي عليه من الجمال والتألق. لقد أضر هؤلاء بالخط العربي، لأن إرهاب الفكرة جعل معظم الموهوبين يبرمجون أنفسهم على إتقان المحاكاة والتقليد، ويحجمون عن البحث أو التفكير في الابتكار والتجديد، لمواجهة المتطلبات اليت يطرحها التطور ومستجدات الحياة، وأصبح ممتهنو الخط يؤدون أعمالهم بشكل نمطي وبصيغ مكرورة لا تلقي بالاً إلى خصوصية كل حالة أو خامة أو وظيفة، مما جعل الناس ينفضون عن هؤلاء الخطاطين إلى الأشكال الجاهزة، أو إلى بعض ذوي اللمسة الخاصة من الخطاطين على قلتهم).

- **ما هو الحل إذن ؟**

لابد أن نكمل مآثر أجدادنا لا أن نجتّر ما أنجزوه، وأن نستفيد من منهجهم الذي قام على الفرز المستمر والانتخاب والتوليد والاشتقاق والإضافة والابتكار، تبعا للجماليات العامة وجماليات الوصيفة وخصوصيتها وخامتها وأساليب تنفيذها وأغراضها، وغيرها من العوامل المؤثرة. إن العلم والثقافة والوعي، هي ما نحتاج إليه إلى جانب الموهبة والفن للارتقاء باستخدامات الخط العربي وتلبية المتطلبات التي يطرحها التطور ومستجدات الحياة بصيغ جمالية دائمة التطور، تشمل وظائفه كلها من أدناها إلى أرقاها، من الكتابة اليدوية إلى اللوحة الفنية.. وبذا ينفتح الباب واسعاً أمام الفنانين من الخطاطين ذوي الموهبة والثقافة والوعي، وعلى هؤلاء تقع مسؤولية تصميم الأشكال الملائمة للحاسوب وتطويرها باستمرار، وهم القادرون على الارتقاء بالخط العربي كفن تشكيلي وإعادة ألقه إليه.

لذة فعلية للذين يدركون الموسيقى والتطرف الهندسي

إذا كانت اللغة العربية هي هوية العرب المعبرة عن شخصيتهم،فإن الخط العربي هو العلامة الدالة على ابداعهم الخلاق على مر السنين، فقد أتقن الخطاطون هذا الفن وأعطوه ضوء العيون، تجديداً وابتكارا حتى غدا فناً حقيقياً، وعلما أكاديمياً يدرّس في المعاهد والجامعات. وحيثما تلتفت حولك في مساجد المسلمين، وقصور الأمراء، وعلى جدران القلاع والمشيدّات التاريخية، تطالعك شواهد العبقرية العربية المتألقة: لوحات الخط العربي محفور في الخشب، أو مكتوب بعروق الذهب على أعمدة الرخام، وصفحات القباب الشامخة .. مهرجان حاشد من الأناقة والحس الرهيف تتسمر الأنظار عندها، وتشرب من موسيقاها الناعمة .. كذلك كان الحال في أيام العرض الخاص بأعمال الخطاط الفنان منير الشعراني الذي صادف قدوم ربيع دمشقي جديد، محمّل بالخضرة والعطر من كل لون...

لوحات جديدة، لم تعرض قبلاً، أثارت اهتمام النقاد والمهتمين الذين رأوا فيها لمسة الفنان المتميزة، وأسلوبه الخاص في التعبير المنطلق من فلسفة تعتمد على جمال العبارة المكتوبة، مقترنة بجمال الحرف المرسوم، ومركزة على التكرار الرشيق للحروف المتشابهة، مع انسياب شفاف يحلق بالمتلقي في أجواء الفن العربي الأصيل، ويزاوج بين مدارسه الخطية واللونية مع إبداع في شكل الحروف المكتوبة تارة، وفي نوعية الخط المعتمد للعمل الفني تارة أخرى،مختلفة، تبلورت خلال دراسته العالية بجامعة دمشق. وانتقلت معه في أجواء الخط المغربي وأصوله الكوفية، لتظهر صلة النسب بين الخطوط العربية في المشرق والمغرب.

الفكرة والمعنى في فكرة معبرة

في دراسة للناقد عبد السلام أحمد في منهج الخطاط الشعراني يقول: (اللوحة

عند الشعراني سيمفونية فريدة في تنوع وانسياب حروفها وتناظر متشابهاتها، وذلك ليصل من خلال تسلق سلّمها الخطي الجميل الى روح المشاهد وبصيرته، معلنة حقيقة الفكرة الفنية التي أرادها الفنان، وليصل من خلالها بحس شفاف الى المعنى الحقيقي للجملة المكتوبة في هذا العمل الأنيق، ويتجلى كل ذلك في لوحاته التي جسدّت عبارات مختارة من الحكم والمثال والشعر العربي، وفيها نرى قمة التمكن الحرفي تركيباً وتناظراً وتسلسلاً، إلى حد أن المشاهد قد يذهب في متاهات بعيدة، ولا يصل إلى فكّ رموزها وقراءتها بصورة صحيحة).

خارج الاتجاه وبعيداً عن التقليدية

في سجل المعرض يدوّن النقاد والباحثون شهاداتهم في أعمال الفنان الشعراني، التشكيلي التونسي حاتم المكي يرى: (أن الشعراني يقف خارج الاتجاه الحروفي في التجربة التشكيلية العربية كما أنه يقف خارج كوكبة الخطاطين الذين يجوّدون الخطوط التقليدية ويكررونها، وهو يقدم قطعة خط عربي جديدة، تعتبر نفسها امتداداً عصرياً لاضاءات الماضي).

أما الشاعر علي اللواتي فيؤكد: (أن الفنان لم يتحمل الغش، ولم يلجأ للزيغ أبداً، وهو كالساحر يعلم أين ينبغي أن يلجم اندفاعه حتى يمكن التمتع بالسمات الحقيقية والرائعة للفراغات، وهي لذة فعلية للذين يدركون الموسيقى والتطرف الهندسي).

ويدور الحوار بين الناقد أسعد عرابي والخطاط منير الشعراني:

- **هل تعتبر نفسك خطاطاً أم فناناً؟..**

اعتبر الخط طريقة في التعبير عن الفن التشكيلي مثل غيره من الفنون.

- **الخط إذن وسيلة تعبير إبداعية، غير وظيفية، بدليل غلبة الهاجس المسيقي**

في تشكيلاتك.

إن العلاقة بين الخط والموسيقى الشرقية وردت أصلاً من الشعر، حتى أننا نعثر على خطاطين معروفين في مجال الموسيقى، على غرار: صفي الدين عبد المؤمن الأموي، صاحب كتاب عن الموسيقى، كما وأن العديد منهم شعراء معروفون.

- **ألا تجد أن استغراقك في موسيقية الشك يقودك إلى التطرف الهندسي، وبذلك يفقد العمل الفني شيئاً من تلقائيته، أو بالأحرى شطحاته المشروعة التي تعتمد على خيانة القواعد؟**

يختلف الطابع (الغرافيك) في الخط والأداء العفوي في اللوحة، فهو يحتاج إلى قرار حاسم مساحي وخطي لا يقبل التردد، مثله مثل المساحة الهندسية، ولهذا انجز دراسات تمهيدية حرة قبل التنفيذ.

- **ما هي الخطوط التي تعتقد أنك طورتها على الرغم من عدم المساس بخصائص تشريحها الهندسي؟**

الكثير من أنواع الكوفي بدءاً من الشطرنجي (المربع) وانتهاء بالمغربي القيرواني، مروراً بالمشرقي، ثم هناك السنبلي - وهو عثماني متأخر - إضافة إلى النيسابوري وبعض التوليفات. لقد امتحنت واستثمرت الطرز والأقلام، ولكن ضمن إخراج وتأليف علاقات جديدة بين الكتلة والفراغ.

دعاوى يفندها العلم والمعرفة

يثور الفنان منير الشعراني على مزاعم الذين يرون في الحاسوب خطراً محدقاً بالخط العربي ويرى: (انه مع الثورة الهائلة في الاتصالات، اقتحم الحاسوب كل مجالات الحياة، فكان لابد من برمجة خطوط عربية لاستخدامها في الوظائف التي

يؤديها الحاسوب، الأمر الذي يعارضه أهل التقليد في الخط العربي، باعتبار أن برمجة الخط العربي تمثل مؤامرة عليه، تؤدي إلى انعدام الإقبال على تعلم الخط العربي والى القضاء على هذا الفن، إن هذه الادعاءات تبرز مدى الجهل بالحاسوب واستخداماته من جانب، وبرحلة الخط العربي وتطوره من جانب آخر، ناهيك عن الخلط بين المهني والفنان، وبين استخدامات الخط العربي الوظيفية والفنية المتعددة،ونظرتهم إليها بسكونية وعيون مغمضة لا ترى أن برمجة الخط العربي بالحاسوب باتت ضرورية، هؤلاء يجهلون أن الخط العربي تطور على مستويات عديدة، انطلاقاً من التطور البنيوي والهيكلي الذي أوصله إليه رواده من الفنانين العظام، تطور على مستوى الرسائل والدواوين والعقود والمحفوظات، ليؤدي وظيفته بشكل أفضل وأجمل، فتعددت أشكاله، وتطور بفعل اتساع رقعة استخدامه وتفاعله مع ذائقة كل شعب من الشعوب التي وصل إليها ... وهكذا ولدت أنواع وأشكال على درجة عالية من الجمال، كذلك تطور من خلال التفاعل بين الخامة وبين أجيال الخطاطين، الذين استطاعوا أن يولدوا لكل خامة أنواعاً وأشكالّ من الخطوط تتلاءم معها، مبدعين تحفاً لا حصر لها تنتشر في أرجاء العالم.

إنهم يظنون أن الخط وصل إلى ذروته في العصر العثماني، ولم يعد ممكناً أي ابتكار أو تطوير يعذ الأنواع الستة التي اعتبرت قمة الجمال، وقد أدى هذا الزعم إلى غياب عشرات الأنواع من الخطوط الكوفية رغم ما هي عليه من الجمال والتألق. لقد أضر هؤلاء بالخط العربي، لأن إرهاب الفكرة جعل معظم الموهوبين يبرمجون أنفسهم على إتقان المحاكاة والتقليد، ويحجمون عن البحث أو التفكير في الابتكار والتجديد، لمواجهة المتطلبات التي يطرحها التطور ومستجدات الحياة، وأصبح ممتهنو الخط يؤدون أعمالهم بشكل نمطي، وبصيغ مكرورة لا تلقي بالاً إلى خصوصية كل حالة أو خامة أو وظيفة، مما جعل الناس ينفضّون عن هؤلاء الخطاطين إلى الأشكال الجاهزة، أو إلى بعض ذوي اللمسة الخاصة من الخطاطين على قلتهم).

- **ما هو الحل إذن ؟**

لابد أن نكمل مآثر أجدادنا لا أن نجتر ما أنجزوه، وأن نستفيد من منهجهم الذي قام على الفرز المستمر والانتخاب والتوليد والاشتقاق والإضافة والابتكار، تبعا للجماليات العامة وجماليات الوظيفة وخصوصيتها وخامتها وأساليب تنفيذها وأغراضها، وغيرها من العوامل المؤثرة. إن العلم والثقافة والوعي، هي ما نحتاج إليه إلى جانب الموهبة والفن، للارتقاء باستخدامات الخط العربي وتلبية المتطلبات التي يطرحها التطور ومستجدات الحياة بصيغ جمالية دائمة التطور، تشمل وظائفه كلها من أدناها إلى أرقاها، من الكتابة اليدوية إلى اللوحة الفنية..وبذا ينفتح الباب واسعاً أمام الفنانين من الخطاطين ذوي الموهبة والثقافة والوعي، وعلى هؤلاء تقع مسؤولية تصميم الأشكال الملائمة للحاسوب وتطويرها باستمرار، وهم القادرون على الارتقاء بالخط العربي كفن تشكيلي وإعادة ألقه إليه.

منير الشعراني

* من مواليد ١٩٥٢/٩/٦م.
* تلميذ الخطاط الأستاذ المرحوم بدوي الديراني.
* خريج كلية الفنون الجميلة بدمشق – قسم الزخرفة – شعبة التصميم الزخرفي مارس آذار / ١٩٧٧ م.
* ١٩٩٧ م/ معرض فردي للملصقات الجدارية سورية.
* ١٩٨٧ م/ معرض فردي للخط العربي – أتيليه القاهرة للكتاب والفنانين القاهرة كانون الأول /١٩٨٧م/ معرض فردي للخط العربي قاعة عبد المنعم الصاوي القاهرة.
* حزيران / ١٩٨٨ م/ معرض فردي للخط العربي قاعة أليف – تونس.
* تموز / ١٩٨٨ م/ معرض فردي للخط العربي، معهد بورقيبة للغات الحية – تونس.
* شباط ١٩٩٠/ معرض فردي للخط العربي – أتيلية القاهرة للكتاب والفنانين – القاهرة.
* عمل خطاطا منذ عام /١٩٦٧ م/ ثم مصمما فنيا للكتب والمطبوعات ومصمم كخطوط منذ عام ١٩٧٦م. ومديرا فنياً ومصمم أغلفة للعديد من دور النشر والمجلات العربية في بيروت وقبرص وتونس والقاهرة.
* صمم عدة خطوط جديدة، وله كتابات في النقد الفني والفن العربي الإسلامي في عدد من المجلات العربية.
* له كراسات لتعليم خطي الرقعة والنسخ (دار المثلث بيروت) ومجموعة من ٦ كراسات لتعليم خطوط الرقعة – النسخ – التعليق – الديواني – الثلث – الكوفي (دار اليف – تونس) وملصق جداري يحتوي الأبجدية لهذه الأنواع الستة.
* صدر كتاب عن أعمالة يحتوي على دراسة تحليلية للفنان يوسف عبد لكي،

ويحتوي على صور مطبوعة لعدد كبير من أعماله (نشر باللغتين العربية والفرنسية – دار أليف – تونس).

وقدّم الفنان حاتم المكي كما أصدرت دار النشر نفسها مجموعة من ١٨ لوحة على شكل بطاقات بريدية و ٦ لوحات مستنسخة من أعماله.

* يعمل حاليا كخبير في الطباعة ومصمما للخطوط والمطبوعات، ومديرا فنيا لشركة الفجر للطباعة والنشر القاهرة...

المراجع

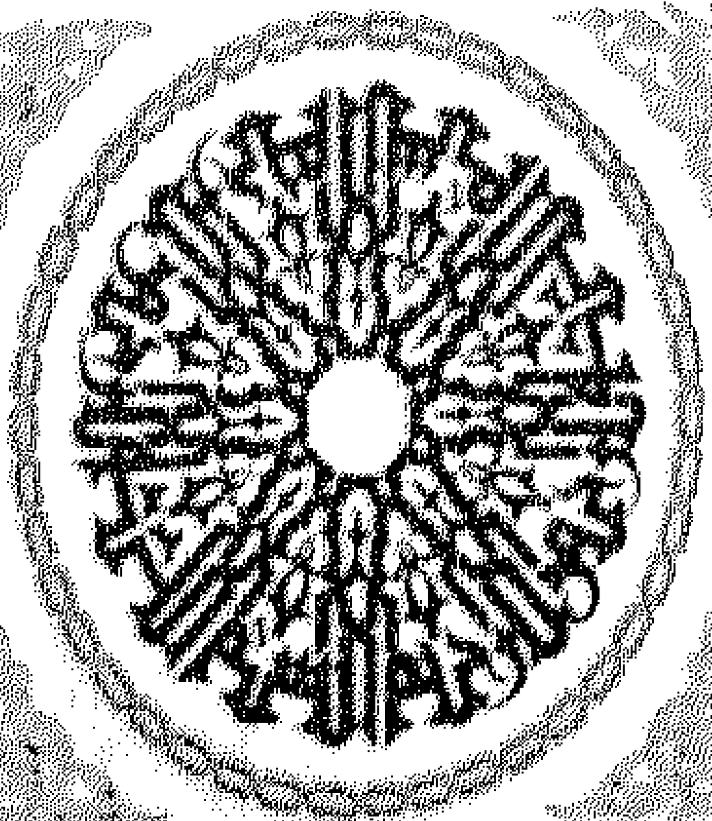
المصدر	المؤلف	الناشر	سنة النشر
الأعلام	خير الدين الزركلي		
أعلام الأدب والفن	أدهم الجندي		
الأدب العربي السوري بعد الاستقلال	سيف الدين القنطار	وزارة الثقافة (سوريا)	١٩٩٧
اعترافات شامي عتيق	عبد الغني العطري	دار البشائر(دمشق)	١٩٩٨
معجم الأمثال العربية	خير الدين شمسي باشا	مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات	٢٠٠٢
بدوي الجبل	مختارات	وزارة الثقافة (سوريا)	٢٠٠٤
جفون تستحق الصور	د. بديع حقي	دار العلم للملايين (بيروت)	١٩٦٨
خليل مردم بك	فاديةعبد اللطيف المليح	دار الغذاء للنشر (دمشق)	١٩٩١
الدكتور زكي المحاسني بأقلام كم عرفوه	سماء المحاسني	مطبعة الآداب والعلوم (دمشق)	١٩٧٢
ديوان الرياض والأزهار والثمار	خير الدين شمسي باشا	وزارة الثقافة (سوريا)	١٩٩٩
ذاكرة الإنسان والبحر	د. ناديا خوست	الندوة الثقافية النسائية (دمشق)	١٩٩٣
سابقات العصر	وداد سكاكيني	الندوة الثقافية النسائية (دمشق)	١٩٨٦
سامي الدروبي	احسان بيات الدروبي	دار الكرمل للدراسات والنشر (دمشق)	١٩٨٢
شخصيات وصور أدبية	د. ابراهيم الكيلاني	دار طلاس للدراسات والنشر (دمشق)	١٩٩٣
العبقريات عبقريات من بلادي	عبد الغني العطري	دار البشائر (دمشق)	١٩٩٥ ٢٠٠٠
مرفأ الذاكرة	نخبة من الكتاب	كتاب العربي(الكويت)	٢٠٠٣
المجمع العلمي العربي في خمسين عاماً	د. عدنان الخطيب	المجمع العلمي العربي (دمشق)	
مكتب عنبر	ظافر القاسمي		
لغتنا الجميلة	فاروق شوشة	مكتبة مدبولي/القاهرة	١٩٨٢
معجم كتاب سوريا	أديب عزت/ج١	دار الوثبة	١٩٨٤

الدوريات والصحف (أعداد متفرقة)

- مجلة الإذاعة والتلفزيون (دمشق)
- مجلة الأسبوع الأدبي (دمشق)
- مجلة الدنيا (دمشق)
- مجلة الفيصل (الرياض)
- مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق)
- مجلة الآداب (بيروت)
- جريدة الحياة (بيروت)
- مجلة العربي (الكويت)
- كتاب العربي (الكويت)
- جريدة الاتحاد (أبو ظبي)
- جريدة الشرق الأوسط (لندن)
- المجلة العربية (الرياض)
- مجلة الهلال (القاهرة)

فهرس محتوى الكتاب

الفهـــرس	الصفحة



وانما الامم الاخلاق ما بقيت

فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

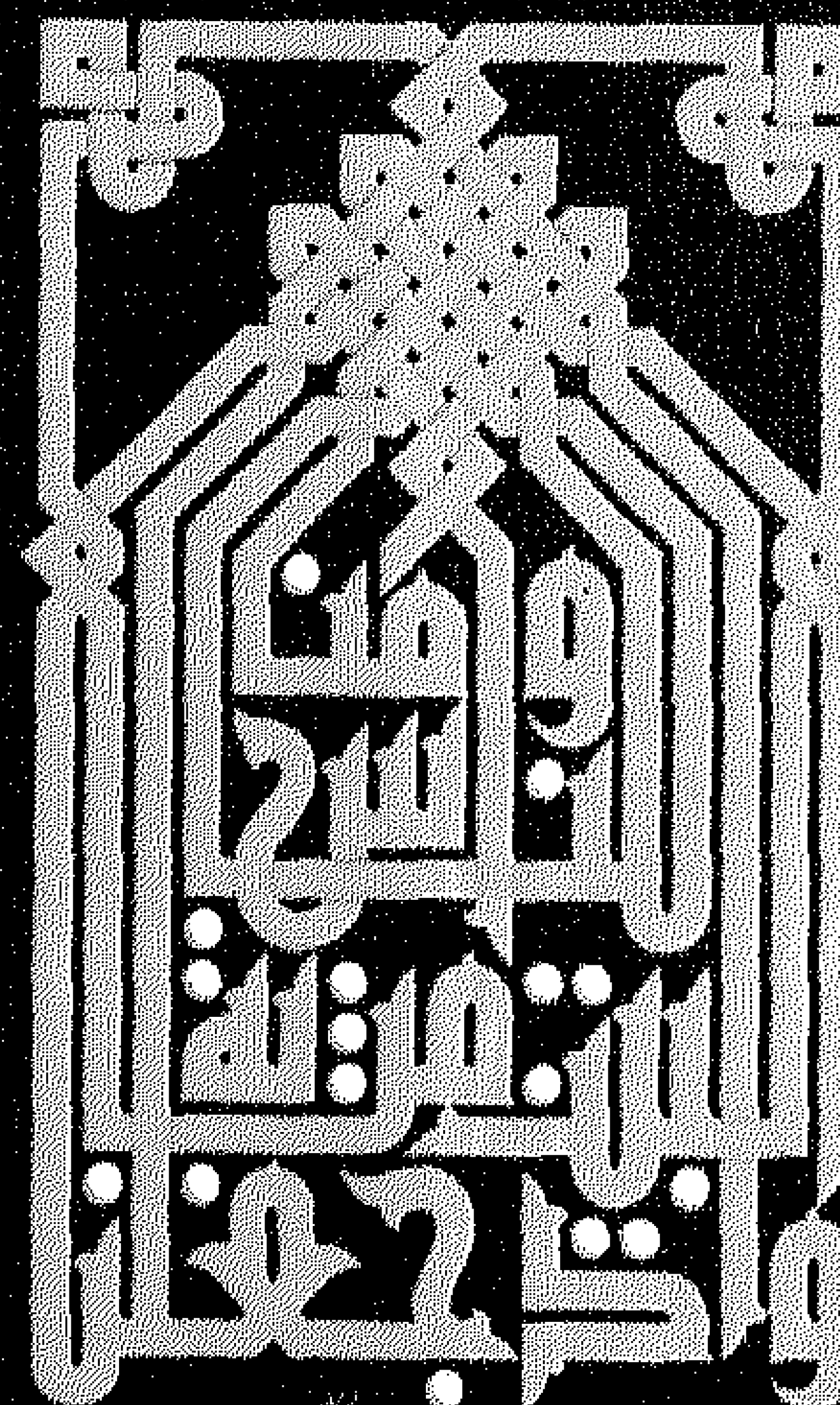

١٣٥٤

الأرض كلها وطني والعائلة البشرية كلها عشيرتي

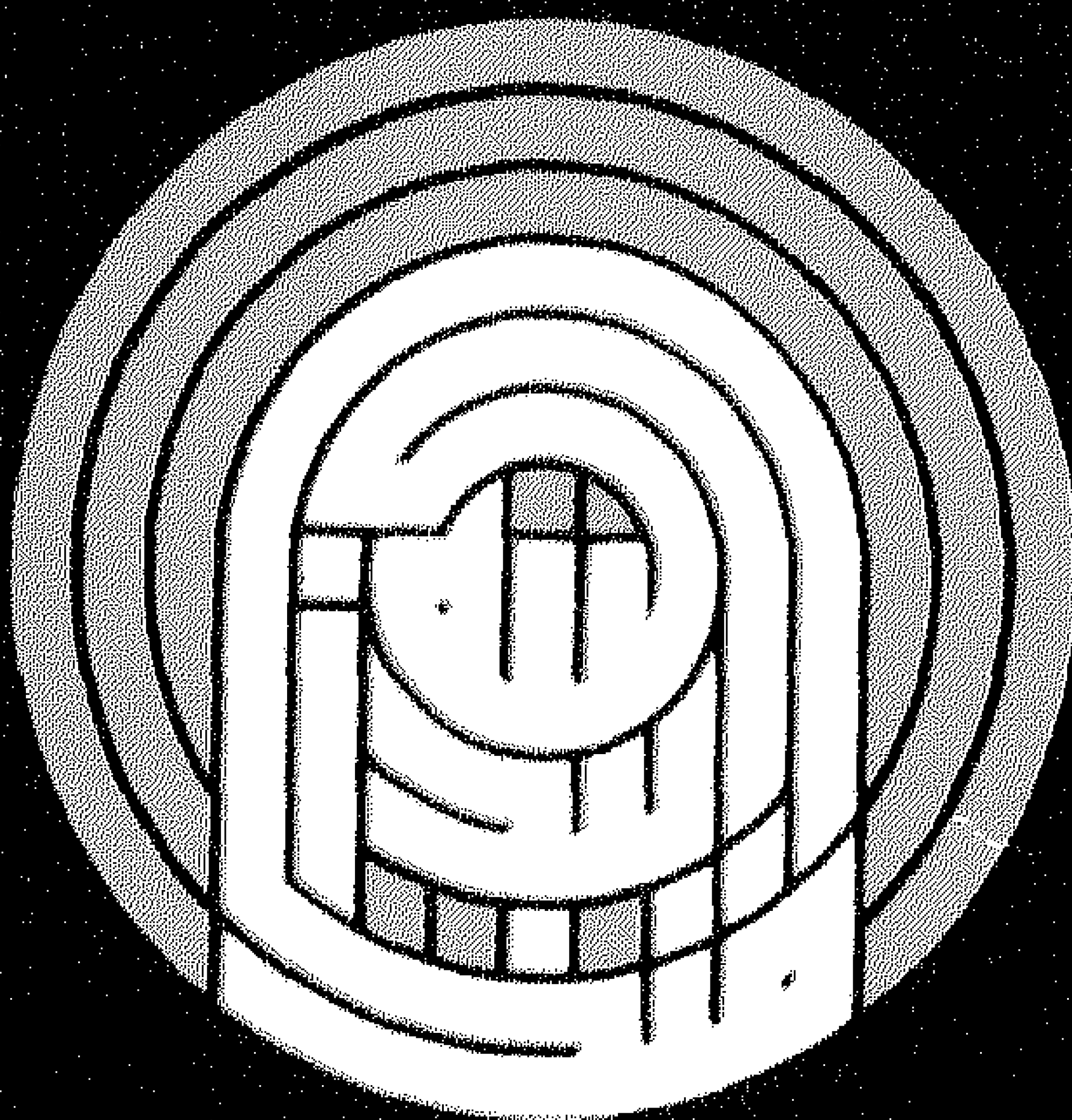
الحكمة إذا لم تكن حاكمة لا يعول عليها

ولا تنازعوا فتفشلوا





التيه يبدأ منك



بالتزيين ضلّ من ضلّ



نصير شوري



نصير شوري



ناظم الجعفري


نصير شورى

نصير شورى



عاصم زكريا



نصير شوری




اصم زكريا



عبد القادر ارنؤوط





محمد مروان مراد

باحث في الأدب والتاريخ ، شاعر وقصصي .

محاضر في المراكز الثقافية، وكاتب في الصحافة العربية .

له :

الإرادة تقهر الصعاب (رحلة في عالم المعاقين).

من روائع البيان العربي (مختارات من تراث العرب الأدبي في الحكمة والبلاغة).

مبدعون في ذاكرة الوطن (سِيَر ٦٠ من أعلام الأدب والفن العربي).

قيد الإصدار: الأيادي البيضاء (عطاء النفوس الخيّرة).

سنابل من بيدر الفكر (مجموعة محاضرات في الأدب والتاريخ).

رذاذ الحلم الأخير (مجموعة شعرية).

مبدعون في ذاكرة الوطن

إنّ عظمة الأمم تقاس بمدى عطاء أبنائها ، و سعيهم الحثيث لإعلاء شأنها من خلال التمسك بالمبادئ الشريفة ، كما أن مكانتها في موكب الحضارة رهن بوفائها للمبدعين و اعتزازها بعطائهم ... و قد كانت سعادتي بغير حد لأني عشت تلميذاً لكوكبة من مبدعي الوطن الأعلام في التأليف و التحقيق ، جنّدوا الفكر و ضوء العيون للكشف عن عبقرية الأمة ، ووجوه التراث الفكري العربي المتألقة . و ها أنا أدون ما أتيح لي من ثمرات قرائحهم ، و أنشر سير حياتهم وفاء لحقهم من التقدير و الاعتزاز ، و إضاءة لأعمالهم ترى فيها الأجيال قدوة حية تتوجّه على هديها إلى العمل المنتج للنهوض بالأمة من عثراتها ، و تجدّد مآثرها الخالدة على مرّ الزمان .

